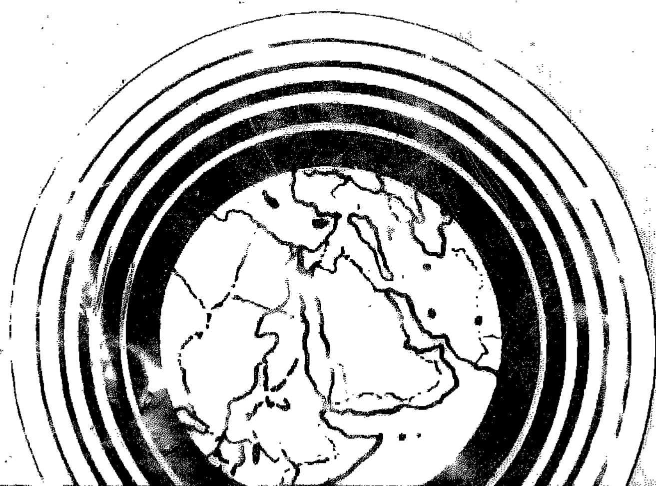
الدول الإسلامية المستقلة

في الشرق



عبد الرؤوف الفقي

دار الفكر العربي

الدول الاسـلامية المستقـلة
فى الشرق

الدول الإسلامية المستقلة
في الشرق

دكتور/ عصام عبد الرؤوف الفقي

أستاذ التاريخ الاسلامى
بكلية الآداب — جامعة القاهرة

دار الفكر العربى
١١ شارع جواد حسنى - القاهرة
ص ب ١٣٠ ت ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

المقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والســلام على سيدنا محمد خاتم النبيين .

وبعـــد :

لقـد وضعت كتاباً عام ١٩٧٨ عن الدول الاسـلامية المسـتقلة فى الشرق . وبعد مرور عدة سنوات من نفاذ الكتاب ، رأيت أن أضيف الى هذا الكتاب دولا أخرى . حتى يستفيد القارىء الكريم فائدة أكبر .

والمعروف أن الدول الاســلامية المستقلة فى الشرق لعبت دوراً كبيراً فى ازدهار الحضــارة الاســلامية ، وخصوصاً الفكر الاسـلامى والثقافة الاســلامية ، واقترن اسم كل دولة تقريباً من هذه الدول بأسماء أعــلام وفلاسفة كان لهم دور ، بل أدوار بارزة فى عالم الفكر .

على أن كتابى هذا قاصراً على النواحى السياسية لهذه الدول ، وأنا الآن بصدد إعداد كتاب كبير يتضمن التطور الفكرى فى هذه الدول ، وأعلام النهضة الثقافية فيها . ولابد للقــارىء الكريم أن يقرأ عن سياسة هذه الدول قبل أن يدرس حياتها الثقافية .

ويتضمن هذا الكتاب دراسة للدول الفارسية كالطاهرية والصفارية والسامانية والأكراد الكاكويه — أو الدول التركية التى تأثرت بالثقــافة التركية مثل الدولة الغزنوية والسلجوقية والخوارزمية ودول الأتابكة .

كذلك بحثت فى هذا الكتاب الدولة المغولية الايلخانية فى العــراق وايران ، وهى دولة تأثرت بالاسلام ، فهـذب الاسلام من نفوس هؤلاء المغول وتثقفوا بالثقافة الاسلامية .

وتناولت بالدراســة أيضاً الدول الاســلامية فى الهنــد قبل الغزو التمــورى .

هذا ولقد قضيت فى محرابى عدة سنوات أدرس هذا الموضوع الشاق بلغات متعددة شرقية وأوربية فضلا عن العربية .

وأرجو أن يوفقنى الله الى مواصلة البحث والدراســة فى التــاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية .

د. عصام الدين عبدالرءوف الفقى

مصر الجديدة ١٩٨٧/٢/٢٠

الباب الأول

الحيـــاة السياسية فى شرق الدولة الاسلامية

منذ قيـــام الدولة الطاهرية حتى قيام الدولة الغزنوية

١ ـــ الدولة الطاهرية

٢ ـــ الدولة الصفارية

٣ ـــ الدولة السامانية

٤ ـــ الدولة البويهية

٥ ـــ الدولة الزيدية فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم

٦ ـــ دولة الأكراد الكاكويه فى بلاد الجبـــل

١ — الدولة الطاهرية

استعان العباسيون بالفرس لأنهم أقاموا دولتهم على أكتافهم ، وقدر الخلفاء العباسيون الأوائل موقف الفرس منهم ، فكان أبو جعفر المنصور (١٣٦—١٥٨هـ/٧٥٤—٧٧٥م) يكرر لأهل خراسان قوله : « أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا(١) » ، كما أوصى ولى عهده بهم بقوله : « وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فانهم أنصارك ، وشيعتك ، بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم(٢) ... » وازداد نفوذ الفرس فى عهد الرشيد (١٧٠—١٩٣هـ/٧٨٦—٨٠٨) والمأمون (١٩٨—٢١٨هـ/٨١٣—٨٣٣م) .

ولما ولى المعتصم الخلافة (٢١٨—٢٢٧هـ/٨٣٣—٨٤٢م) أساء الظن بالفرس لانهم طموحون يعملون على تحقيق مطامع قومية ، فاستعان بالترك وبعث فى طلبهم من فرغانة وأشروسنة ، واتخذ من حسن هندامهم ، وجمال منظرهم وشجاعتهم ، وتمسكهم بتعاليم الاسلام سببا للاعتماد عليهم ، فأصبح معظم جند الدولة العباسية منهم ، كما أسند اليهم المناصب العسكرية والمدنيـة الكبيرة فى دولته ، وآثرهم على العرب والفرس فى كل شىء(٣) وبذلك قوى شأن الترك ، وازداد نفوذهم ، بينما ضعف شأن العرب والفرس(٤) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ص١٢٩ .

(٢) نفس المصدر جـ٩ ص ٢١٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ٢٣—٢٤ .

(4) Gibon. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Vol. IV, p. 47.

أدى ازدياد نفوذ العنصر التركي في الدولة العباسية واستئثارهم فيها بالنفوذ دون الخلفاء الى حدوث كثير من القلاقل والاضطرابات في الدولة العباسية ؛ حقيقة أن الأتراك كانوا يخشون الخليفة المعتصم لقوة بأسه . فلما توفي وولي الواثق الخلافة (٢٢٧–٢٣٢هـ/٨٤٢–٨٤٧م) أخذوا يتدخلون في شئون الدولة ؛ ولم يستطع الخليفة السيطرة عليهم(٥) ، ولما استخلف المتوكل (٢٣٢–٢٤٧هـ/٨٤٧–٨٦١م) عول على سلبهم السلطة والنفوذ ، نتخلصوا منه ، وأصبحت الدولة العباسية مسرحا للفوضى والاضطرابات بسبب نفوذ الترك(٦) .

لم يقف العرب والفرس مكتوفي الأيدى ازاء ضعف نفوذهم ، واستئثار الأتراك بالسلطة والنفوذ دونهم ، بل عملوا على استرداد مكانتهم . فحاولوا الاستقلال ببعض بلدان الدولة العباسية ، فأقام الفرس في شرق الدولة الاسلامية دولا مستقلة عن الخلافة العباسية وهي الدولة الصفارية(٧) (٢٥٤–٢٩٠هـ/٨٦٧–٩٠٣م) وبعد أن انهارت الدولة الصفارية أقام السامانيون الفرس دولة في خراسان وبلاد ما وراء النهر(٨) (٢٦١–٣٨٩هـ/٨٧٤–٩٩٩م) ، ومن العناصر الفارسية التي سيطرت على بعض أقاليم الدولة الاسلامية بنو بويه — الذين حكموا العراق وفارس والري وهمذان وأصبهان وبلاد الجبل (٣٣٤–٤٤٧هـ/٩٤٥–١٠٥٥م) ، ومثلوا دورا رئيسيا في السيادة الاسلامية(٩) .

يجدر بنا أن نذكر أن الدولة الصفارية قامت على أنقاض الدولة الطاهرية التي أقامها طاهر بن الحسين في شرق الدولة الاسلامية ، وكان من كبار قواد الدولة العباسية ، ولي منطقة بوشنج(١٠) حينما بدأ النزاع بين الأمين والمأمون ، وقاد جيش المأمون ضد قوات الأمين(١١) ، وقام

---

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٧ ص ٢١٧–٢١٨ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب جـ٤ ص ٦٤ .

(7) Habib : Sultan Mahmoud of Ghaznin p. 4.

(٨) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة جـ٢ ص ٢٠٦ .

(٩) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ٩٣ .

(١٠) إحدى نواحي خراسان .

(١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠١ .

بدوره فى قهر الأمين طمعا فى المكاسب التى سوف يحصل عليهـا من وراء هذا العمل ، فاشتبك مع على بن عيسى ــ قائد الأمين ــ وهزمه وقتله سنة ١٩٥هـ/٨١٠م .

وتقدم طاهر الى بغداد ، واستولى على ما فى طريقه من البـلاد ، وحاصر بغداد والأمين بها ، وانتزعها من الأمين ، وتخلص منه(١٢) سنة ١٩٨هـ/٨١٣م ، ولقد كافأه المأمون بعد أن استقر فى الخلافة بأن أسـند اليه ولاية الجزيرة ، وولاية شرطة بغداد(١٣) ، ولم يشأ المأمون أن يوليه خراسان حتى لا يستقل بها ، اذ لم يغب عن ذهن المأمون مدى ما يتمتع به طاهر من نفوذ فى خراسان(١٤) .

على أن طاهر بن الحسين لم يقنع بولاية الجزيرة ، اذ كان يطمـع فى اسناد ولاية خراسـان اليه ، وما زال بالمأمون حتى أسـند اليه سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م(١٥) جميع البلاد شرقى بغـداد ، ووطد طاهر نفـوذه فى خراسان واتخذ من نيسابور حاضرة لدولته . وعلى ذلك استطاع طاهر أن يؤسس أول امارة شبه مستقلة عن الخلافة العباسية(١٦) .

اعتزم طاهر بن الحسين الاستقلال نهائيا بدولته عن الدولة العباسية، ففى سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م أسقط اسم الخليفة المأمون من الخطبة ، لكنه لم يلبث أن توفى (١٧) ، فوافق الخليفة المأمون على تولية طلحة بن طاهر(١٨) ولاية أبيه ، فعلى الرغم من استياء المأمون من الطاهريين فانه كان يخشى ان انتزع الأمر من أيديهم أن تحدث اضطرابات فى خراسان التى قـوى فيها نفوذهم(١٩) .

خلف عبدالله بن طاهر أخاه طلحة سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م(٢٠) وقد اتسع

---

(١٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٨ ص٤٨٣ .

(13) Hitti : History of the Arabs. p. 46.

(١٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٨ ص ٥٢٨ .

(١٥) نفس المصدر جـ٨ ص٥٨١ .

(16) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties. p. 128.

(١٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٨ ص ٥٩٣ ــ ٥٩٤ .

(١٨) نفس المصدر جـ٨ ص ٥٩٥ .

(19) Noldeke : Sketches from Eastern History. p. 68.

ملكه حتى شمل الرى وكرمان علاوة على خراسان نفسها ، وكذلك الأراضى التى تقع شرقيها حتى الحدود الهندية وتمتد شمالا حتى حدود دولة الخليفة(٢١) .

حرص خلفاء طاهر بن الحسين على تحسين علاقاتهم بالخلفاء العباسيين ، وراعوا حقوق الدولة فى شئون الحكم والامارة ، بل وقفوا الى جانبهم فى القضاء على حركات التمرد والعصيان التى حدثت ضدهم(٢٢) ، لذلك لم يعمل الخلفاء العباسيون على استرداد نفوذهم على البلدان التى يسيطر عليها الطاهريون .

وكان محمد بن طاهر آخر حكام الدولة الطاهرية ، ولم يكن على شاكلة أسلافه ، فقد كان أميرا ماجنا يميل الى اللهو والعبث فضعف أمره كحاكم وعجز عن اخضاع الثورات التى قامت ضده ، ولما ازدادت الاضطرابات فى الدولة الطاهرية ، استنجد أهل خراسان بالأمير يعقوب بن الليث الصفار لاعادة الأمن والطمأنينة الى بلادهم ، فوجد الأمير الصفارى الفرصة مواتية لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية المتداعية ، فزحف بجيشه الى نيسابور سنة ٢٥٩/٨٧٣م وقبض على محمد بن طاهر وعلى أهل بيته(٢٣) وبذلك زالت الدولة الطاهرية .

٢ — الدولة الصفارية

كان يعقوب بن الليث الصفار من أفراد المطوعة — وهى تشكيلات عسكرية — تعمل على حماية سجستان وفارس وكرمان من حالة الفوضى التى تعرضت لها من ثورات الخوارج . وارتفع شأن يعقوب بعد أن ظهرت شجاعته فى محاربة الخوارج ، فولى قيادة جماعات المطوعة . ومن ثم عظم أمره حتى أن أهل سجستان استنجدوا به لتخليصهم من الفوضى التى حلت ببلادهم(٢٤) ، فسار اليهم ، ودفع عنهم الضر ، ولما رأى أهل

---

(٢٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٨ ص ٦٢٠ .

(21) Ency. of Islam : Art Tahirid Dynasty.

(٢٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص ٢٨٩ .

(٢٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٩ ص ٥٠٧ .

(٢٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٨ ص ٥٠٨ .

سجستان شجاعته واقدامه ، وحسن تدبيره ، فملكوه أمرهم ، فضبط البلاد ، وقويت شوكته ، وقصدته العسكر من كل ناحية(٢٥) .

لم يكتف يعقوب بحكم سجستان بل عول على مد نفوذه الى البلاد المجاورة لها ، فاستولى سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م على بوشنج وهراه(٢٦) وما والاها ، ولم يلبث أن احتل نيسابور ، التى كان يحكمها الطاهريون مخالفا أوامر الخليفة العباسى ، ولم يتوقف عند ذلك الحد بل مد نفوذه على بلاد فارس وخراسان ، وزبلستان ومكران وكرمان والسند وطبرستان . والرى وقزوين وأذربيجان وجنديسابور والأهواز(٢٧) ، حتى لقد هدد بغداد نفسها سنة ٢٥٧هـ/٨٧٠م(٢٨) ، وبذلك استطاع يعقوب بن الليث على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق أن يؤسس ملكا عريضا فى شرق الدولة الاسلامية يشتمل على معظم أرجاء فارس . بالاضافة الى سجستان التى أقام فيها يعقوب دولته فى بداية امرها وان كان عمر هذه الدولة ، لم يتجاوز ستة وثلاثين عاما(٢٩) .

اشتهر يعقوب بن الليث الصفار باليقظة وحسن التدبير وكان لا يطلع أحدا على سره ولا يعرف أحدا بتدبيره وعزمه ، وأكثر نهاره يقضيه خاليا بنفسه يفكر فيما يريده ، ويظهر غير ما يضمر ولا يشرك أحدا فيما يدبره برأى(٣٠) ، وكان يحسن اختيار رجاله ، كما كان يعد جيوشه أحسن اعداد(٣١) ، واستطاع بذلك أن يهيىء الاستقرار والأمن فى دولته ، ويجبى منها الأموال الكثيرة حتى عمرت خزينته ويقول المسعودى(٣٢) « كانت سياسة يعقوب لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها ممن سلف من الملوك من الامم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف وحسن انقيادهم

---

(25) Hitti : History of the Arabs. p. 461.

(٢٦) ابن الاثير . الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٥٣ هـ .

(27) Hitti : History of the Arabs. p. 462.

(28) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties. p. 129.

(29) Browne : A Literary history of Persia. Vol. I. p. 476.

(٣٠) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص ٤٧٦ .

(٣١) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١١٦ .

(٣٢) مروج الذهب جـ٢ ص ٤٧٥ .

لأمره . واستقاميتهم على طاعته ، لما كان قد شملهم من احسانه وغمرهم من بره ، وملأ قلوبهم من هيبته » .

عمل يعقوب على التقرب الى الخلافة العباسية بارساله الهدايا اليها حتى أقرته على البلدان التى استولى عليها . ولكن العباسيين لم يلبثوا أن توجسوا خيفة على سلطانهم من ازدياد نفوذ ابن الليث ، وعملوا على التخلص منه ، فغضب يعقوب من موقف الخلافة العدائى نحوه ، فزحف الى العراق ، ولكن الدولة العباسية وجهت اليه جيشا ، هزمه شر هزيمة سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م فانسحب الى حاضرته نيسابور ، وتوفى سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م .

أقرت الخلافة العباسية عمر بن الليث خلفا لأخيه يعقوب على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان ، وأرسلت اليه العهد ومعه العقد والخلع(٣٣) ، واتخذ عمرو مع الخلافة العباسية سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة أخيه يعقوب ؛ فتقرب الى الخلافة ، وتودد اليها ، وبلغ من ثقة الخلافة به أن أسندت اليه ولاية شرطة بغداد بالاضافة الى الولايات التى عهدت اليه بحكمها سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م وبذلك قوى نفوذه(٣٤) .

وضع عمرو بن الليث نظاما دقيقا لمراقبة عماله وقواده ورتب موارد الدولة . وعمل على زيادتها(٣٥) ، لكن عمرو لم يقنع باتساع ملكه ، واستقرار أمر دولته ، بل طمع فى المزيد من النفوذ ، فأصر على المطالبة بحكم بلاد ما وراء النهر ، ولم يجد الخليفة العباسى بدا من اقراره على حكم هذه البلاد ، لكن الأمير اسماعيل بن أحمد الساماني — أمير بلاد ما وراء النهر — رفض أن يسلمها الى الأمير الصفارى(٣٦) ، وكتب اليه يحثه على عدم التعرض لبلاده ، وقال « انك قد وليت دنيا عريضة ، وأنا فى يدى ما وراء النهر ، وأنا فى ثغر ، واقنع بما فى يدك ، واتركنى مقيما

(٣٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ٩ ص ٥٤٥ .

(٣٤) نفس المصدر جـ١٠ ص ٧١ .

(٣٥) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١١٨ .

(٣٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ١٠ ص ٦٣ .

بهذا الثغر(٣٧) ، لكن عمرو أصر على تحقيق سياسته الرامية الى توسيع ملكه على حساب الامارة السامانية . ولم يقدر الصعاب التى تقف فى سبيله . وتحول دون تحقيق سياسته : فسار على رأس جيش كبير الى بلاد ما وراء النهر ، واشتبك مع الأمير السامانى اسماعيل بن أحمد فى معارك ضارية هزم عمرو فيها . بل وقع أسيرا فى قبضة غريمه الأمير اسماعيل(٣٨) سنة ٢٧٨/٩٠٠م وتمزق شمل جيشه شر ممزق ، وكانت لهذه الواقعة نتائج حاسمة فى مراحل تطور الحياة السياسية فى شرق الدولة الاسلامية ، اذ كانت بداية النهاية للدولة الصفارية ، وأمنت الدولة السامانية الناشئة على حدودها من خطر الصفاريين . بل تطلعت الى بسط سيطرتها ونفوذها على بلدان الدولة الصفارية المتداعية(٣٩) .

لما علم الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩–٢٨٩هـ/٨٩٢–٩٠٢) بهزيمة عمرو بن الليث الصفار ، سر لذلك ، وأشاد بذكر اسماعيل بن احمد ، ذلك لأن ازدياد نفوذ عمروكان يشكل خطرا كبيرا على سلطان الخلافة العباسية ، ومهما يكن من أمر . فقد سيق الأمير الصفارى الى بغداد ، وبقى بها حتى وفاته (٤٠) ٢٨٨هـ/٩٠١م .

ولى طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار بعد هزيمة عمرو ، وكان غرا صغيرا ، نشأ على اللهو والعبث والصيد وغلب عليه سبك السبكرى — غلام عمرو بن الليث — فاستبد بالسلطة دونه ، ولم يكن لهذا الأمير الصغير من الأمر شىء ولم يكتف سبك السبكرى بذلك ، بل قبض على الأمير الصغير وعلى أخيه يعقوب ٢٩٦هـ/٩٠٨م ، وبعث بهما الى بغداد حتى لا يبقى له شريك فى الحكم(٤١) .

على أن الأمور لم تصف للسبكرى بعد تخلصه من الأمير الصفارى ، ففى سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م سار الليث بن على بن الليث الى فارس وتغلب عليها ، وطرد منها السبكرى . فاستنجد السبكرى بالخليفة المقتدر

---

(٣٧) نفس المصدر جـ١٠ ص٧٦ .

(38) Hitti : History of the Arabs p. 462.

(39) Browne : A Literary History of Persia. Vol. I. p. 345.

(٤٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ١٠ ص١٢١ .

(٤١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ١٠ ص١٤١ .

(٢٩٥—٣٢٠هـ/٩٠٨—٩٣٢م) الذى أمده بجيش يقوده مؤنس الخادم سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م ، أوقع الهزيمة بالليث الصفارى وأسره (٤٢) . وعلى الرغم من وقوف الخلافة الى جانب السبكرى الا أنه امتنع عن ارسال الأموال اليها ، فعملت الخلافة على التخلص منه ، وانتزعت منه فارس سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م ، فلجأ الى سجستان(٤٣) فقصده الأمير أحمد بن اسماعيل السامانى ، واستولى على سجستان ، وقبض على سبك السبكرى ، وعلى محمد بن على بن الليث الصفار وبعث بهما الى بغداد سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م . ومن ثم ، زالت الدولة الصفارية(٤٤) .

وصفوة القول أن الدولة الصفارية زالت بسبب جهود الخلافة العباسية المتصلة للقضاء عليها ، والهزائم المتكررة التى منى بها الصفاريون من أعدائهم السامانيين ، فقد هزم اسماعيل بن أحمد — كما ذكرنا — عمرو ابن الليث ، وأرسله أسيرا الى بغداد ، وقضى ابنه أحمد بن اسماعيل على البقية الباقية من نفوذ الصفاريين ، ونضيف الى ما سبق تمرد قواد الدولة الصفارية على سادتهم ، وما ترتب على ذلك من ضعف الدولة الصفارية ، وانهيارها(٤٥) .

٣ — الدولة السامانية

أقام السامانيون الفرس دولة فى خراسان وبلاد ما وراء النهر على أنقاض الدولة الصفارية ٢٦١/٣٨٩هـ — ٨٧٣/٩٩٩م والسامانيون أصحاب نسب عريق ، اذ أن جدهم سامان ينسب الى بهرام جور(٤٦) ، وكان لأسد ابن سامان أربعة أبناء هم : نوح وأحمد ويحيى والياس ، وقد تجلت شجاعتهم فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، فحينما خرج عليه رافع بن الليث ابن نصر بن سيار فى سمرقند ، أعان هؤلاء الأبناء الأربعة الخليفة فى القضاء على ثورة رافع ، وهدأ بال الرشيد من هذا الأمر ، اذ كان يخشى أن يستولى رافع على خراسان(٤٧) .

---

(٤٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٢٩٧ هـ .

(٤٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ١٠ ص ١٤٤ .

(44) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties. p. 129-130.

(٤٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ٢ ص ٧٠ .

(46) Hitti : History of the Arabs. p. 462.

(٤٧) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ١١٣ .

لما ولى المأمون الخلافة عرف منزلة أبناء أسد بن سامان وقدر اخلاصهم للخلافة العباسية ، فولاهم على سمرقند وفرغانة والشاش وهراة(٤٨) . وكان أكبر هؤلاء الاخوة والى سمرقند ، ولما توفى صارت سمرقند ، لأخيه أحمد بن أسد . وخلفه عليها ابنه نصر سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م. وكان لقوة أواصر الصلة بين السامانيين أثرها فى ازدياد قوة دولتهم فقد أخذ الهدوء والطمأنينة يسودان بلادهم بعد أن كانت تقاسى من الاضطرابات(٤٩) .

ازدادت شهرة السامانيين فى البلاد المجاورة حتى أن بخارى لما اضطربت أمورها بسبب كثرة الفتن فيها ، وتنازع أهلها فيما بينهم ، استنجد فريق من أعيانها بالأمير نصر السامانى فى سمرقند ، فأرسل اليهم اخاه اسماعيل ، وعلى الرغم من الخلافات التى كانت بين أهل بخارى ، فقد احسنوا جميعا استقبال الأمير السامانى ، بل نثروا الذهب والعطايا الثمينة بين يدى هذا الأمير الذى عرفوا عنه الشجاعة وكرم الأخلاق ؛ واقروه واليا عليهم من قبل أخيه الأمير نصر سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م(٥٠) ، وأقام اسماعيل فى بخارى الخطبة باسم أخيه نصر(٥٠) . وحذف اسم يعقوب بن الليث من الخطبة . وبذلك آل أمر بخارى الى السامانيين وزال عنها حكم الصفاريين ، ومما زاد فى نفوذ الأمير نصر اعتراف الخلافة العباسية بامارته ، اذ أرسل الخليفة المعتمد (٢٥٦–٢٧٩هـ/٨٧٠–٨٩٢م) منشورا الى الأمير نصر بحكم بلاد ما وراء النهر ، وفوض اليه حكم البلاد الممتدة من شواطئ جيحون الى أقصى بلاد المشرق(٥١) .

استقرت الأمور فى بخارى بعد أن آلت الى الدولة السامانية ، ذلك أن الأمير نصر طهر هذه المنطقة من اللصوص وقطاع الطرق الذين زاد

---

(٤٨) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٤٩) فاميرى : تاريخ بخارى ص ٩٤ .

(٥٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٩ ص ٥١٤ .

Hitti : History of the Arabs. p. 462.

(٥١) أرمينيوس فاميرى : تاريخ بخارى ص ٩٥ .

خطرهم ، واستطار شرهم فى هذه المنطقة كما صد هجمات الطامعين فى بخارى . فامن البخاريون فى عهده على أموالهم وأنفسهم(٥٢) .

لم تستمر العلاقات بين الأمير نصر وأخيه اسماعيل على ما كانت عليه من الود والصفاء . ذلك أن نصرا فرض على أخيه اسماعيل — والى بخارى من قبله — كل سنة خمسمائة الف درهم من أموال بخارى ، لكن اسماعيل لم يستطع دفع هذا المبلغ بسبب زيادة نفقاته فى الحروب الكثيرة التى خاضها ضد أعدائه الطامعين فى بخارى . فاستاء نصر من أخيه اسماعيل . واعتقد انه يسعى الى الاستقلال ببخارى عن دولته ، فعول على اخضاعه ، فسار على رأس جيش كبير ، واشتبك الاخوان سنة ٢٧٢هـ/٨٨٥م فى حرب انتهت بصلح بينهما بمقتضاه ولى اسماعيل خراج بخارى وعزل عن حكمها ، على أن هذا الصلح لم يوضع موضع التنفيذ(٥٣) فبعد خمسة عشر شهرا رفض اسماعيل ارسال الأموال المقررة عليه وفق الصلح المعقود بينه وبين أخيه ، فتجددت الحروب بين الأخوين ، وهزم اسماعيل أخاه نصر سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م ووقع أسيرا فى يده(٥٤) ، لكن اسماعيل أحسن الى أخيه ، بل سأله العفو والصفح ، وقال له : أيها الأمير انها ارادة الله التى شاءت أن أراك اليوم ، وأنت فى الأسر . فرد عليه نصر بقوله : بل هى ارادتك أنت ، اذ خرجت على سيدك ، وأذنبت بذلك فى حق الله عز وجل . على كل حال أحسن اسماعيل الى أخيه نصر ، وبلغ من حرصه على المحافظة على هيبته أن سيره من فوره الى حاضرته سمرقند قبل أن يصلها أنباء الحادث ، فلا تتعرض بذلك سمعته فيما وراء النهر الى شىء من المهانة(٥٥) .

ولما توفى نصر بن أحمد سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢–٨٩٣م ولى أخوه اسماعيل أمر الدولة السامانية ، وأقره الخليفة العباسى على حكم ما وراء النهر(٥٦) . غير أن الخلافة العباسية كانت تنظر بعين الشك والريبة الى تلك الدولة الفتية الناشئة التى أخذت تزداد قوة ونفوذا فى القسم الشرقى

---

(٥٢) النرشخى . تاريخ بخارى ص ١١١ .

(٥٣) أرمينيوس فاميرى : تاريخ بخارى ص ٩٨ .

(٥٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٧٥ هـ .

(٥٥) المصدر السابق .

(٥٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ١٠ ص ٣٠ .

من الدولة الاسلامية ، فاتخذت الدولة العباسية سياسة ذات وجهين . فبينما فوض الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢م) الأمير السامانى اسماعيل حكم بلاد ما وراء النهر . تآمر عليه سرا . وأرسل الى عمرو بن الليث الصفار يحرضه على التخلص من الأمير السامانى(٥٧) ولعل الخليفة العباسى كان يهدف من وراء ذلك الى ضرب خصمين قويين له ببعضهما بقصد اضعافهما أو شغلهما عن الزحف الى دولته . ومهما تكن النتائج فان الخليفة العباسى هو المستفيد من ورائها ، لأن الحرب بين الخصمين تضعفهما أو تضعف واحدا على الأقل . وفى ذلك فائدة — كما قلت — للخلافة العباسية . ومهما يكن من أمر فقد استمرت الحرب بين الأمير الصفارى والأمير السامانى سنين عددا . انتهت بانتصار اسماعيل(٥٢) ، وطارد جند اسماعيل ، جند الأمير الصفارى حتى اقتربوا من بلخ ، فرأوا عمرا مع خادمين فقبضوا عليه سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م ، وسيق الصفارى الى غريمه اسماعيل فأرسله الى بغداد . وظل بها حتى وفاته(٥٩) .

ارتفعت مكانة الأمير اسماعيل بعد هزيمته لعمرو بن الليث ، وضم خراسان الى حوزته ، وفوضه الخليفة المعتضد حكم هذه البلاد ، وقدم رسول الخليفة ومعه الخلع الفاخرة الى الأمير السامانى فأكرم اسماعيل وفادته ، ولم يلبث اسماعيل أن ضم طبرستان الى دولته ، بعد أن هزم أميرها محمد بن زيد العلوى الذى كثرت اغاراته على الدولة السامانية(٦٠) ولم يكتف اسماعيل بذلك ، بل ضم الرى الى حوزته . وبذلك أمن على حدود بلاده من ناحية الغرب ، واستطاع اسماعيل بفضل شجاعته وقوة بأسه أن يمنع غارات الترك على بلاده . ويجنبها ويلاتهم(٦١) .

اتخذ اسماعيل من بخارى حاضرة لدولته ، وازدهرت فى عهد هذا الأمير ، اذ أقام فيها المنشآت الضخمة والقصور المنيفة والمدارس ، ووفد عليها العلماء ، ولقوا كل تشجيع من الأمير السامانى(٦٢) ، وقد حكم

(57) Weil : History of the Khalifs. Vol. II. p. 485.

(٥٨) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١١٧ - ١٢٠ .
(٥٩) نفس المصدر ص ١٢٠ - ١٢٢ .
(٦٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ١٠ ص ٧٢ .
(٦١) فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٠٣ .
(٦٢) فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ .

اسماعيل أكثر من ثلاثين سنة أظهر خلالها العـدل والاحسان بين رعايا دولته ، وكان لا يتهاون مع عماله اذا ظلموا الرعية . ولأول مرة يتحـد ايرانيو الشرق مع ايرانى العرب فى دولة واحدة متماسكة العرى ذات ادارة قوية ، وكانت خراسان تنقسم الى أربعـة أقسـام ، قسم عاصمـته نيسابور . وقسم عاصمته مرو ، وثالث عاصمته هراة ورابع عاصمته بلخ ، أما بلاد ما وراء النهر فتنقسم الى خمسة أقسام : الصغد وله عاصـمتان هما بخارى وسمرقند ، والى الغرب من الصغد خوارزم ، والقسم الثالث صغانيان ، والرابع فرغانة والخامس الشاش . وكان لعماله على هذه الولايات سلطات واسعة فى ولاياتهم(٦٣) .

لـما توفى الأمير اسماعيل ٢٩٥هـ/٩٠٧م أخذت الدولة السامانية فى الضعف والانحلال ، فقد انقسم البيت السامانى على نفسه طمعا فى السيادة والحكم ، كما أن بعض رجال الدولة عملـوا على تحقيـق أطماعهـم فى الوصول الى السلطة ، وضعف شأن أمراء آل سامان حتى أصبحوا ألعوبة فى أيدى كبار رجال الدولة ، وقد أدى ضعف الدولة السامانية الى ازدياد نفوذ الترك ، فارتفع شأنهم بعد أن كانوا مجرد خدم وأتبـاع(٦٤) ، فلم يتمكنوا من القضاء على السامانيين فحسب بل نشروا نفوذهم كذلك فى الكثير من بلدان الدول الاسلامية(٦٥) .

ولى الأمير أحمد بن اسماعيل الحكم بعد وفـاة أبيه ٢٩٥هـ/٩٠٧م وسار سيرة أبيه فى العدل والاحسان الى الرعية ، الا أنه لم يكن مثل أبيه فى الحنكة الادارية والمقدرة الحربية(٦٦) ، لكنه استطاع القبض على عمه — والى سمرقند — الذى خرج عليه ، واستولى على سجسـتان سنة ٢٩٨هـ/٩١٠—٩١١م وضمها الى دولته(٦٧) ولم يستطع تخليص طبرستان من الأمير الحسن بن على الزيدى الملقب بالأطروش(٦٨) . فقد تغلب على

---

(٦٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ٨٥ .

(٦٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ١١٨ .

(65) Hitti : History of the Arabs. p. 463.

(٦٦) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٢٤ .

(٦٧) نفس المصدر ص ١٢٦ .

(68) Weil : History of the Khalifs. Vol. II. p. 613.

طبرستان وبلاد الديلم ، وهدى الله على يديه الكثير من أهل هذه البـلاد ممن بقى على الوثنية أو المجوسية الى الاسـلام ومن ثم التف أهل هذه البلاد حوله ، وطرد منها والى السامانيين(٦٩) .

لم تطل ولاية أحمد بن اسـماعيل ، فقد راح ضحيـة مؤامرة سنة ٣٠١هـ/٩١٤م(٧٠) بعد حكم دام ست سنوات ، وخلفه ابنه نصر(٧١) ، وكان فى الثامنة من عمره ، فاستصغر الناس سنه واستضعفوه ، وتنافس أمراء البيت السامانى على الوصول الى الحكم، فشق عليه عمه اسحق بن أحمد عصا الطاعة ، وانضم اليه بعض أفراد أسرته على اعتبار أنه أكبر أفراد الأسرة سنا ، واستقل اسحق بسـمرقند عن الدولة السـامانية وبايعه أهلها ، وخرج ابنه أبو صالح منصور بن اسحق فى نيسابور واستولى على بعض مدن من خراسان ، لكن لم ينعم هذان الأميران باسـتقلالهما عن الدولة السامانية كثيرا ، ذلك لأن الأمير السامانى نصر بن أحمد استطاع أن يقضى على ثورة عمه وابن عمه ، ويعيد البـلاد التى اغتصباها الى حوزته(٧٢) ، وأهم الحملات التى قادها الأمير السامانى لاستعادة نفوذه على البلاد التى انتزعت من دولته ، كانت على طبرستان ، فقد زاد خطر العلويين بها ، ومدوا نفوذهم الى بعض بلدان خراسان فاستطاع الأمير نصر بن أحمد هزيمة العلويين فى طبرسـتان سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م وقتـل قائدهم(٧٣) وبفضل هذه الانتصارات استطاع الأمير السامانى اسـتعادة نفوذ دولته على بلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس وطبرستان وكرمان وجرجان والعراق .

ولقد ذاع صيته بفضل الانتصارات التى أحرزها حتى أن الخليفة العباسى استنجد به ، واعتمد عليه فى الضرب على أيدى عماله الخارجين عليـه(٧٤) .

---

(69) Defremery : Histoire des Samanides. p. 136. Arnold : the Caliphate. p. 61

(٧٠) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٢٦ .

(71) Weil : History of the Khalifs. Vol. II. p. 136.

(٧٢) فامبرى : تاريخ بخارى ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٧٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ .

(٧٤) فامبرى : تاريخ بخارى ص ١١٤ ـ ١١٥ .

لما توفى الأمير نصر ٣٣١هـ/٩٤٣م ضعفت الدولة السامانية حتى أن الأمراء طمعوا فيها ، فاستقل كل منهم بناحية ، فواجه الأمير نوح بن نصر — الذى خلف أباه — مصاعب كثيرة من جراء ذلك ، فسار الى نيسابور ، وقبض على أميرها أبو على الأصفهانى ، وهزم المتمردين ، وبدد شملهم ، وأسند حكم نيسابور لابراهيم بن سيمجور . كما أن الأمير أبا اسحق أحمد ، سار الى بخارى ، وأظهر العصيان ، فعاد الأمير نوح بن نصر الى بخارى ، واشتبك مع أبى اسحق أحمد ، غير أن نوح بن نصر هزم ، ودخل أبو اسحق بخارى ظافرا منتصرا سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م ، وبايعه جميع أهلها وقرئت الخطبة على جميع منابر بخارى باسم أبى اسحق ، على أنه لم ينعم بالحكم طويلا ، اذ تمرد عليه جنده ، وأعلنوا ولاءهم للأمير نوح بن نصر ، وبذلك فشلت هذه الفتنة ، وعاد الأمير نوح الى حكم بخارى(٧٥) .

ومن أشد الصعوبات التى واجهت حكم الأمير نوح غزو ركن الدولة البويهى لبلاد الرى ، واستيلائه عليها ، ولم يلبث أبو على — القائد السامانى — أن طرد الأمير البويهى من الرى ، على أن أبا على نفسه انقلب على سادته السامانيين ، فطمع فى اقليم خراسان ، واستولى عليه ، وأرسل الى الخليفة العباسى تقليدا بحكم هذا الاقليم عام ٣٤٣هـ/٩٥٤م . وبذلك انحسر النفوذ السامانى مرة أخرى ، فلم يعد يتجاوز بلاد ما وراء النهر(٧٦) .

لما ولى الأمير عبدالملك بن نوح حكم الدولة السامانية سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م كان فى العاشرة من عمره ، فجنح أمراء الولايات الى الاستقلال بولاياتهم عن الدولة السامانية ، ولم يقم بعمل من شأنه المحافظة على وحدة دولته ، وتوفى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م فخلفه أخوه منصور بن نوح ، فأخذت الدولة فى الضعف بسبب خروج بعض القواد عليها ، وازدياد نفوذ البويهيين الذين امتلكوا ما يقرب من نصف ايران(٧٧) ، كما استقل خلفاء

---

(٧٥) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٢٩ .

(٧٦) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٧٧) نفس المصدر ص ١٣٤ .

وشمكير بن زيار(٧٨) ببلاد جرجان وطبرستان ، بينما اتسعت الدولة البويهية على حساب الدولة السامانية التى أخذت فى الضعف والانحلال ، ولم يلبث السامانيون أن ألقوا بأنفسهم ازاء كل هذه الصعاب التى اعترضت سياستهم فى أحضان الدولة الغزنوية الناشئة ، حتى آل أمرها نهائيا الى الغزنويين(٧٩) .

وبذلك انقرضت الدولة السامانية التى ظلت تحكم آسيا الوسطى قرابة مائة وخمسة وأربعين عاما . وجدير بالذكر أن الحضارة الاسلامية ازدهرت فى عهد السامانيين حتى كانت بخارى وسمرقند وبلخ تحت حكمهم منارا للعلوم الدينية يفد اليها الطلاب للدراسة(٨٠) ، وقد رحل المقدسى الى اقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر فى العهد السامانى ، فامتدح السامانيين فى الحكم ، وقال : انهم أحسن سيرة ، وهذا فضلا عما عرف عنهم من إجلال للعلم وأهله ، فقد كان من رسومهم ألا يكلفوا أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم . وقال المقدسى : فى وصف أهل خراسان فى العهد السامانى : انهم من أشد الناس تمسكا بالحق ، وهم بالخير والشر أعلم . كما أقر بعلمهم الكثير ، وحفظهم العجيب ، واستقرار الأمور فى خراسان ، وانتشار الرخاء فيها(٨١) .

لم تقتصر عناية الأمراء السامانيين بالعلوم الدينية ، بل عنوا كذلك بالعلوم الأدبية والطبيعية ، فنبغ فى عهدهم الرودكى — أول شاعر غنائى فى فارس — وهو مؤسس الملحمة التعليمية التى تعتبر من أخصب فروع

---

(٧٨) عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمى — أحد قواد أمير قزوين — فطرد حاكمها ، واستولى على بلاده ، ثم فتح أصفهان وجرجان وهمذان ، وبلغت جيوشه نواحى حلوان ، وقد أقره الخليفة العباسى على مابيده من البلاد بعد أن تعهد بدفع مبلغ سنوى من المال . وبلغ من ازدياد طموح هذا القائد أن عمل على الاستيلاء على بغداد ، واعادة مجد الدولة الفارسية ، ولما توفى مرداويج خلفه أخوه وشمكير على أن ركن الدولة البويهى عمل على انتزاع بلاده ، فاستولى على الرى سنة ٣٣٠ هـ كما انتزع الأمير السامانى نصر بن أحمد — كما ذكرنا — طبرستان وجرجان وأرغمه على السير الى بلاد الجبل ، حيث دخل فى طاعة الأمير السامانى .

(٧٩) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٣٤ .

(٨٠) فاميرى : تاريخ بخارى ص١٢٤ .

(٨١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

الأدب الفارسى(٨٢)، وفى عهد الأمير منصور بن نوح ترجم الى الفارسية كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى . ونجد أن ابن سينا الفيلسوف والطبيب الذى بدأ يظهر انتاجه فى عهد منصور بن نوح ، وبنوع خاص كتاب القانون فى الطب الذى كان المرجع الأساسى فى علم الطب فى أوربا فى العصور الوسطى(٨٣) .

٤ ـ الدولة البويهية

ومن العناصر الفارسية التى سيطرت على شرق الدولة الاسلامية بنو بويه (٣٣٤ـ٤٤٧هـ/٩٤٥ـ١٠٥٥م) وكانوا جنودا مغامرين من أهالى الديلم ، التحقوا بجيش ماكان بن كالى الديلمى ، واستطاعوا بفضل مكانتهم ومقدرتهم وكفاءتهم العسكرية ، أن يصلوا الى مركز مرموق فى جيشه ، ولما هزم مرداويج بن زيار ، ما كان بن كالى ، انتقلوا الى خدمة مرداويج الذى لم يلبث أن خشى بأس بنى بويه وأطماعهم ، فسار على بن بويه الى أرجان ـ احدى كور فارس ـ واحتلها سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م ، ثم امتلك شيراز فى العام التالى ، وتمكن أحمد بن بويه(٨٤) من احتلال كرمان ، ولما قتل مرداويج عام ٣٣٣هـ سنة ٩٤٤م لم يستطع أخوه وخليفته وشريكه الاستيلاء على بلاد الجبل ، فسقطت أيضا فى يد البويهيين ، وظل أحمد بن بويه يتقدم(٨٥) ناحية الغرب ، بينما ظل أخوه على بفارس ، وحكم أخوه حسن بلاد الجبل(٨٦) ، وفى ٣٣٤هـ سنة ٩٤٥م دخل احمد بن بويه مدينة بغداد ، فأسند اليه الخليفة المستكفى منصب أمير الأمراء ولقبه بلقب معز الدولة ، ولقب عليا عماد الدولة ، ولقب حسنا ركن الدولة(٨٧) .

عمل الأمراء البويهيون على إضعاف الخلفاء العباسيين(٨٨) فلم

---

(٨٢) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ص ١١٤ .

(٨٣) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٨٤) مسكويه : تجارب الامم ٢٩٦ـ٣٠٢ .

Hitti : History of the Arabs. p. 470.

(٨٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان جا ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٨٦) نفس المصدر ٣٨٩ ـ ٣٩٠ .

(87) Hitti : History of the Arabs. p. 476.

(88) Noeldeke, Eketches from Eastern History p. 88.

تمض أسابيع قليلة على دخول معز الدولة بغـداد حتى سـمل عينى الخليفة ، وعزله ، وولى ابن المقتدر ، ولقبه المطيع ، وأصبح الخلفـاء العباسيون ألعوبة فى أيدى البويهيين يولونهم ويعزلونهم كيفما شاءوا(٨٩).

لمـا توفى معز الدولة عام ٣٥٦هـ سنة ٩٦٧م خلفه ولده عز الدولة بختيار فى حكم كرمان وخوزستان والعـراق ، ولم يسـتطع هذا الأمير السيطرة على جنده ، فاستنجد بابن عمه عضد الدولة ابن عماد الدولة — من أقدر أمراء بنى بويه ، وأبعدهم نظرا فى السيادة والادارة ، فأعـاد عضد الدولة الأمور الى نصابها لكنه لم يكن مخلصا لبختيار ، فطمـع فى أملاكه ، واستولى عليها ، وانتزع أمـلاك أخيه فخر الدولة . وتمكن عضد الدولة بذلك من توحيد المملكة البويهية كلها تحت سلطانه ، فبلغت فى عهده أوج ازدهارها وعظمتها(٩٠) .

ولمـا توفى عضد الدولة نشب القتال بين أبنائه حول ممتلكات أبيهم سنة ٣٧٢هـ سنة ٩٨٣م(٩١) — وانتهى القتال بينهم سنة ٣٨٠هـ سنة ٩٩٠م بانتصار بهاء الدولة ، على أن الدولة البويهية ازدادت ضعفا بعد وفاته سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م فقد انقسمت بين أبنائه الأربعة ، وازداد تمرد ضباط الجيش من الترك والديلم(٩٢) .

أدى ضعف الدولة البويهية الى سقوط بلدانها فى أيدى أمراء البلاد المجـاورة ، ففى عام ٣٨٨هـ/٩٨٨م فتح قابوس بن وشـمكير جرجـان وطبرستان ، ثم استولى الكردالكاكويه على أصفهـان بعد ذلك بعشر سنوات ، وفتحوا همذان ، وفى عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م خلع محمود الغزنوى مجد الدولة عن الرى ، وأخذه أسيرا الى خراسان(٩٣) .

ولمـا توفى أبو كاليجار سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م استدعى ابنه أبو نصر خسرو فيروز الجند ، واستحلفهم ، واستقر ملكه فى العراق وخوزسـتان

---

(٨٩) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧ .
(٩٠) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٦٨ ـ ٢٧٢ .
(٩١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٧٢هـ .
(٩٢) مسكويه : تجارب الامم جـ٣ ص٣٢٦ وما يليها .
(93) Ency. of Islam. Art Buwaihids.

والبصرة ، لكن شأنه ما لبث أن ضعف بسبب النزاع الذى نشأ بينه وبين اخوته وأقاربه الذين تطلعوا الى انتزاع بعض البلدان التابعة له ، وفى غضون تلك الفترة ارتفع شأن السلاجقة ، وقوى أمرهم ، وتطلعوا الى توسيع رقعة دولتهم . وكان من اليسير عليهم انتزاع أراضى بنى بويه فى فارس والعراق(٩٤) .

لم يظهر من الأمراء البويهيين من يهتم بتحسين أحوال بلادهم سوى عضد الدولة ، ذلك أن البويهيين انشغلوا فى المنازعات والحروب . أما عضد الدولة فقد انشغل بالعمل على نهضة بلاده ، فعمل على تشجيع القراء والعلماء ، وشيد المساجد والبيمارستانات وغيرها من المنشآت العامة ، وعنى بتحسين أحوال الزراعة، فأصلح التنوات والآبار ، كما عمل على تيسير سبل العيش لرعاياه ، لكن البلاد لم تنعم بالرخاء التى شاهدته فى أيامه ، فقد ساءت أحوالها الاقتصادية والاجتماعية بعد وفاته بسبب ما أشرنا اليه من انشغال الأمراء البويهيين فى الحروب والمنازعات(٩٥) .

يتضح لنا من هذا العرض ان الفرس حققوا حلمهم القديم فى الاستقلال ببلادهم عن الخلافة ، فأقاموا دولا مستقلة فى شرق الدولة الاسلامية كانت — كما ذكرنا — الدول الطاهرية والصفارية والسامانية والبويهية . ولما قوى شأن الترك ، واشتد بأسهم ، انتقلت اليهم السيادة والحكم فى شرق الدولة الاسلامية فحلوا محل العنصر الفارسى فى السيطرة على هذه المنطقة ، فأقام بنو سبكتكين دولتهم على أنقاض الدولة السامانية كما أسس القره خانيه الترك دولة لهم فيما وراء النهر بعد أن تغلبوا على آل سامان ، وقضى السلاجقة على بنى بويه ، وانتقل اليهم النفوذ والسلطان فى شرق الدولة الاسلامية ، وامتد الى بغداد نفسها .

---

(94) Hitti : History of the Arabs. p. 471-472.
Hitti : History of the Arabs. p. 471-472.

٥ ـ الدولة الزيدية فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم

تمهيـــــــد :

أطلق العرب اسم طبرستان على «مازندران» ، وهى ولاية فى بلاد فارس ، تكتنفهـا الغابات الكثيفـة ، ويحـر طبرستان من الشـمال ومن الجنـوب سلسلـة جبـال البـرز ، ومن الشرق جرجـان . ومن الغرب جيلان ويخترقها عدة نهيرات ، والغالب على هذه النواحى الجبال ، وأرضها خصبة جيدة المرعى ، كثيرة الفاكهة ، ونظرا لكثرة غاباتها ، فان أهلها قطعوا الكثير من الأشجار ، وعملوا بتصنيع الأخشاب . والزراعة من أهم الحرف التى يعمل بها السكان ، ومن أهم حاصلاتها الزراعية الأرز والكتان والعنب ، ويعملون كذلك بصيد الأسماك وطيور المـاء . وقد تخرج من أهل هذه البلاد الكثير من رجال العلم والأدب والفقه ومن أهـم مدن طبرستان أمل وساريه وشلوش وويان وقد تنقلت عاصمة طبرستان بين ساريه وآمل ، وظل أهلها يدينون بالمجوسية بعد الفتح الاسـلامى حتى حكمها الأمويون(١) .

وبلاد طبرستان خصبة منيعـة ، وكان ملوك الفرس يولـون الحكم زعماءهم للوراثيين ، ويسمى الواحد منهم أسبهبذ أى رئيس الجند(٢) .

أما جرجان فتقع بين طبرستان وخراسان فى جنوب شرق بحر قزوين أى فى أقصى شمال بلاد الفرس ، ويحد جرجان جنوبا اقليم خراسان ، وشرقا اقليم خوارزم وغربا بحر قزوين واقليم طبرستان(٢) . ويعتبر هذا الاقليم من مناطق الديلم عاصمته مدينة جرجان ، وقد قيل أن من أحـدث

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ٦ ص ١٧ .

(٣) لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤١٧ .

بناءها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، وبرز منها الكثير من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ومن أهم مصنوعاتها الابريسم وثياب الابريسم وتصدره الى جميع البلدان ، وجرجان على واد عظيم ، ويزرع بها الزيتون والجوز والرمان وقصب السكر ، وبها عدة أنواع من الأحجار الكريمة(٤) .

والجزء الجنوبى من جيلان يسمى بلاد الديلم ، ويسكنها قبيلة تعرف أيضا بالديلم ، ويحده من الشمال جيلان نفسها ، ومن الشرق طبرستان ، ومن الغرب أذربيجان وبلاد الرافدين ومن الجنوب نواحى قزوين وجزء من الرى ، وكان الديلم وثنيين ، ومن ثم تعرضوا لغارات النخاسين وظلوا على هذا الحال حتى دخلوا فى الاسلام على أيدى الأئمة العلويين(٥) .

ظهور الاسلام فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم :

بدأ الفتح الاسلامى لطبرستان وجرجان فى عهد عثمان بن عفان ، وكان أول من غزاهم من العرب سعيد بن العاص — والى الكوفة فى عهد عثمان بن عفان اذ شن على هذه البلاد حملة اشترك فيها بعض الصحابة الأجلاء ، ويؤكد البلاذرى(٦) ، اشتراك الحسن والحسين فى هذه الحملة ، على حين يذكر الطبرى(٧) روايتين ، تؤكد احداهما اشتراكهما ورواية لا تذكرهما ، ومهما يكن من أمر فقد فتح سعيد بن العاص بعض بلدان طبرستان واستولى على سهل طبرستان والرويان والدنباوند(٨) .

ثم سار سعيد الى جرجان فى مائة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان على أرض جيش الموالى والمتطوعة ، وابتدأ بقهستان فحاصرها ، وكان أهلها من الترك ، وشدد عليهم الحصار حتى طلبوا الأمان ، فعقد معهم صلحا واستولى على المدينة وغنم المسلمون منهم مغانم كثيرة ثم خرج منها الى جرجان ، واستقبله أهلها بالصلح ، وزادوه وهابوه وصالح

---

(٤) ياقوت : معجم البلدان جـ٦ ص ١٧ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) البلاذرى فتوح البلدان ص ٣٤٢ .
(٧) تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٣٠هـ .
(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٢ .

ملك جرجان على مائتى ألف درهم(٩) على أن الفتح الاسلامى لطبرستان وجرجان فى عهد الراشدين لم يكن مستقرا ، فكانت تؤدى للعرب الاتاوة ولا تؤدى تارة أخرى(٧) .

ولما ولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة اعتزم اقرار الحكم الاسلامى غير المستقر فى بلاد طبرستان وجرجان ، فأرسل حملة بقيادة مصقلة بن هبيرة على رأس جيش عدته عشرة آلاف مقاتل وقيل عشرون الفا ، ولكن هذا الجيش أصيب بهزيمة ساحقة ، اذ هلك مصقلة فى ممرات طبرستان ، هو والجزء الكبير من جيشه ذلك أن أهلها أهالوا الصخور على المسلمين فمزقوا شر ممزق . على أن هزيمة مصقلة لم تضعف عزيمة المسلمين ، فعملوا على تحقيق هدفهم الرامى الى فتح هذه البلاد واخضاعها لسلطانهم ، فأرسل عبدالله بن زياد والى الكوفة محمد بن الأشعث بن قيس الكندى الى طبرستان ، فعقد مع أهلها صلحا ، ولكنهم خدعوه ، فلما تم الصلح ، وأوغل هو وجيشه فى بلادهم ، انقضوا على القوات الاسلامية والحقوا بهم الهزيمة (١١) وبذلك تكرر فشل العرب فى فتح هذه البلاد .

ولما ولى سليمان بن عبدالملك الخلافة ، أرسل يزيد بن المهلب لغزو طبرستان من جديد واستعادتها ، واستطاع يزيد أن ينجح فى مهمته ، ويعقد صلحا مع الأصبهبذ بمقتضاه يؤدى جزية للمسلمين قدرها أربعة ملايين وسبعمائة الف درهم ، وأن يبعث بأربعين حمل خمار من الزعفران وأربعمائة رجل يحمل كل منهم ترسا وكأسا من الفضة ، وقدرا من الحرير واستخلف عليها واليا ، وضع الجزية والخراج على أهلها (١٢) ، وصالح يزيد الرويان ودنباوند على مال وثياب وآنية ، ثم مضى الى جرجان — وكانت قد أعلنت العصيان — فدخل المسلمون البلدة واستخلف يزيد عليها واليا ففرض على أهلها الجزية والخراج(١٣) .

---

(٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٣٠ هـ .
(١٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٣٠ هـ .
(١١) البلاذرى : فتوح البلدان ج٣٤٤ .
(١٢) البلاذرى . فتوح البلدان ص ٣٤٩ .
(١٣) ابن الأثير . الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٩٨ هـ .

ظل أهل طبرستان وجرجان يلتزمون بشروط الصلح أحيانا ، ويمتنعون عن تنفيذه أحيانا أخرى ، فيحاربون ويسالمون ، ولما ولى مروان بن محمد الخلافة نقضوا الصلح وأعلنوا العصيان منتهزين فرصة الاضطرابات التى سادت الدولة الاموية فى أواخر أيامها(١٤) .

ولما قبض العباسيون على زمام الأمور لم يتغاضوا عن انفصال طبرستان وجرجان عن الدولة العربية الاسلامية ، فوجه الخليفة المنصور الى هذه البلاد حملة بقيادة خازن بن زيد التميمى ، وبذل هذا القائد جهودا مضنية حتى استولى على هذه البلاد ، وتغلب على كل مقاومة اعترضت طريقه(١٥) وفتح محمد بن موسى بن حفص بن عمر بن العلاء جبال شروين من طبرستان ، وهى جبال صعبة المسالك كثيرة القيافى وذلك فى خلافة المأمون والمعتصم(١٦) .

على أن الحكم الإسلامى فى طبرستان وجرجان لم يقدر له الاستقرار رغم المحاولات المتكررة التى بذلت بعد أن آلت الى حكم الطاهريين ، اذ أتموا فتحها ، وتغلبوا على كل مقاومة اعترضتهم فى السهل والجبل ، وتولاها عبدالله بن طاهر ، وطاهر بن عبدالله(١٧) .

نشأة الزيدية

الشيعة حزب نشأ بعد وفاة عثمان بن عفان ، وقد التفوا حول على بن أبى طالب وناصروه ، وبايعوه بالخلافة على اعتبار أنه أحق بها ، وقد ازداد نفوذهم ، وانتعشوا بتولية على بن أبى طالب الخلافة ، واتخاذه الكوفة حاضرة للدولة العربية الاسلامية ، ولم ينته هذا الحزب بوفاة على بل ظل قائما يناصر ويشايع آل على ويطالب ببقاء الخلافة وراثية فى ذريته ، واعترضوا على تولية أحد من غير أفراد آل بيت رسول الله الخلافة ، ولقد استاءوا كثيرا من الصلح الذى عقد بين الحسن بن

---

(١٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ٨ ص ٢٩٥

(١٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٦ .

على ومعاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ والذى بمقتضاه تنازل الحسن عن حقه فى الخلافة لمعاوية ، لذلك اعترضوا على تولية بنى أمية الخلافة واعتبروهم مغتصبين لها من أصحابها الشرعيين(١٨) ، وأصبحت خطة الشيعة بعد نزول الحسين بن على عن الخلافة لمعاوية تدعو الى الامام من آل بيت رسول الله ، والانتظار حتى يأمر هذا الامام ، الذى اتخذ المدينة دار اقامة — بالخروج لاستعادة سلطانهم الضائع(١٩) .

ازداد نشاط الشيعة فى العراق طوال الحكم الأموى ، وقاموا بعدة ثورات ضد الخلفاء الأمويين حتى ولى هشام بن عبد الملك الخلافة ، فعهد بحكم العراق الى خالد بن عبدالله القسرى ، فاتبع سياسة حكيمة مع الشيعه ، فكان يحسن وفادة من يفد عليه من بنى هاشم ، وكان لهذه السياسة أثرها فى التزام الشيعة جانب الهدوء والسكينة ، على أن هذا الحال لم يدم طويلا ، فقد خلف يوسف الثقفى ، خالد القسرى وانتهج سياسة مع الشيعة تخالف سياسة سلفه فأساء معاملتهم ، وتتبعهم ، وزج بكل من شك فى نواياه فى السجن(٢٠) .

وأبرز من تعرض لبطش هذا الوالى ، زيد بن على زين العابدين بن على بن أبى طالب ، وكان زيد من عظماء أهل البيت علما وزهدا وورعا وشجاعة ودينا وكرما ، وكان دائما يحدث نفسه بالخلافة ، ويرى أنه أهل لذلك « وما زال هذا المعنى يتردد فى نفسه ، ويظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه » (٢١) وقد اثنى عليه كبار معاصريه فقال عنه الشعبى وما رأيت أفضل ولا أفقه ولا أشجع من زيد ، وقال عنه أبو حنيفة ما رأيت فى زمانه أفقه ولا أعلم ولا ابرع جوابا ، ولا أبين قولا لقد كان منقطع القرين وكان يقال له حليف القرآن (٢٢) .

حامت الشكوك حول زيد وهو بالمدينة المنورة ، فقصد يوسف بن عمر احراجه ، وحاول اثارة خلافات بينه وبين بعض أفراد أسرته ، كما ادعى

---

(١٨) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(١٩) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية ص١٣٢ .

(٢٠) ابن طباطبا : الفخرى فى الآدب السلطانية ص ١١٠ — ١١١ .

(٢١) المصدر السابق ص ١١٨ .

(٢٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٤٣٨ — ٤٤٠ .

عليه ادعاءات غير صحيحة ، فاتهمه بأنه أخذ جائزة من خالد بن عبدالله القسرى ، وابتاع أرضا له(٢٣) — أى القسرى — بالمدينة بعشرة آلاف دينار ، ثم أخذ الجائزة ، ورد الأرض عليه(٢٤) فاستدعى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، زيدا الى الشام ، وسأله عن الجائزة ، فاعترف بها ، وأنكر ما سوى ذلك وهو الأرض — وحلف لهشام ، ثم حدث نقاش حاد بينه وبين هشام ، وقال هشام : قد بلغنى أنك تطلب الخلافة وتتمناها ، ولست أهلا لها وأنت ابن أمة فغضب زيد وقال للخليفة : ليس أحد أولى بالله ولا أرفع عنده منزلة من نبى ابتعثه وقد كان اسماعيل ابن أمة لام أخيه ، فاختاره الله عليه ، وأخرج منه خير البشر ، واستاء هشام من هذا الجواب المقنع وأزمع زيد الخروج على حكمهم ، ودعوة أنصاره للالتفاف حوله ، وانتزاع حقه فى الحكم من الأمويين ، فلما توجه الى المدينة ، تبعه أهل الكوفة . وقالوا له أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة ألف سيف نضرب بها دونك ، وليس عندنا من بنى أمية آلا نفر قليل ، ولو أن قبيلة منا صمدت لهم لكفتهم باذن الله ، وما زالوا به حتى قال لهم : « يا قوم ؛ إنى أخاف غدركم فانكم فعلتم بجدى الحسين مافعلتم » وأبى عليهم ، فقالوا : نناشدك الله الا ما رجعت ، الا ونحن نبذل أنفسنا دونك ، ونعطيك من الايمان والعهود والمواثيق ما تثق به — فانا نرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية ، فلم يزالوا به حتى ردوه ، فلما رجع الى الكوفة ، أقبلت الشيعة تختلف اليه ، يبايعونه حتى بلغ عدد أنصاره خمسة عشر الفا من أهل الكوفة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وجرجان والجزيرة (٢٦) .

تعهد أهل الكوفة بالولاء والطاعة للامام زيد ونصرته حتى المــوت وبايعــوه وكانت بيعته : انما تدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيــه وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين واعطاء المحرومين وقسمة هذا الفىء بين أهلــه ، ورد المظــالم ، وأفعال الخير ونصرة أهــل البيت ، وكــان يعاهد من يبايعه بأن يشترك معه فى قتــال العدو ، وينصــح له فى السر

---

(٢٣) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص٩٧ .
(٢٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٢ هـ .
(٢٥) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص١٩٧ .
(٢٦) الفخرى : الاداب السلطانية ص ١١٨ .

والعــلانية(٢٧) . ولمـــا اكتمل لزيد وخفقت الألوية على رأســـه ، قال الحمد لله الذي أكمل لي ديني ، والله اني كنت أستحي من رســـول الله أن أرد عليه الحق غدا ولم آمر في أمته بمعروف ولم انه عن منكر(٢٨) .

لمـــا علم يوسف بن عمر — والي العراق — بأن زيد بن علي يدعـــو لنفســـه في الكوفة ، أمر عامله عليها بتتبعه ، والقضـــاء على حركته ، والقبض عليه ، لكنه وجد صـــعوبات بالغة في مهمته وذلك أن زيدا كان يقيم(٢٩) في الكوفة في بيوت متعددة ، ولا يعلم بتحـــركاته الا أنصاره المقربون اليه .

لكن أهل الكوفة نكثوا بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للامام زيد ، فاجتمع به بعض كبار أعوانه ، وسألوه عن رأيه في أبي بكر وعمره فقال زيد : يرحمهما الله ، وغفر لهما ، ما سمعت أحدا من أهل بيتي يتبرأ منهما، ولا يقول فيهما الا خيرا — قالوا : تطلب اذن بدم أهل البيت ؟ فكان جواب زيد : رحمهما الله ، وغفر لهما ، ما سمعت أحدا من أهل بيتي يتبرأ منهما ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا(٣٠) .

اعتقد أنصار زيد حينما استمعوا الى هذا الجواب بأنه خارج على آراء الشيعة التي ترى أن خـــلافة كل من أبي بكر ، وعمر بن الخطـــاب غير شرعية ، لذا نكثوا بيعته ، وسموا رافضة ، وقال عنهم زيد : الرافضة حربي وحرب أبي في الدنيا والآخرة ، مردت الرافضـــة علينا كما مردت الخوارج على علي عليه السلام(٣١) .

لم يبق مع زيد من أهل الكوفة سوى مائتي وثمانية عشر رجلا كما أن أهل الكوفة كانوا يفتقرون الى وحدة الصف وكانوا فرقا تناهض الدولة والحكم الأموي ، بل كان منهم فريق من الخـــوارج ولا يمكن قبول الرواية التي تقول ان أنصار زيد قد التفوا حول أخيه محمد الباقر لأنه أحق بالامامة

---

(٢٧) المسعودي : مروج الذهب جـ٢ ص ١٦٢ .
(٢٨) الفخري في الاداب السلطانية ص ١١٨ .
(٢٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٢ هـ .
(٣٠) المسعودي : مروج الذهب جـ٢ ص ١٦٢ .
(٣١) ابن الأثير الكامل في التاريخ حوادث سنة ١٢٢ هـ .

بل ان زيد كان يشك فى نوايا أهل الكوفة ، وقال لهم : انى أخاف أن تخذلونى وتسلمونى كفعلكم بأبى وجدى(١) كما أن زيدا لم يتجه الى الكوفة الا بعد أن استدعاه أهلها .

على كل حال اشتبك زيد بن على بجنده القليل مع جند يوسف بن عمر فى شوارع الكوفة عدة أيام ، وانتصر فى بعض المعارك ، ولكن الدائرة فى النهاية دارت عليه (٢) .

على أن نهاية حياة زيد بن على لم تنه آراءه ، وأفكاره ، بل ظل صداها يتردد فى العالم الاسلامى حتى يومنا هذا ، وتجد استجابة لدى كثير من المسلمين ، فنشأت طائفة الزيدية التى تتخذ من تعاليمه وأقواله وأحاديثه وفتاويه واتجاهاته الدينية مذهبا يلتزمون بها يشتمل عليه ولقد بدأ هذا المذهب فى الانتشار أولا بواسطة تلاميذه الذين هم من الدرجة الأولى أولاده وأصحابه ومريدوه ، وهؤلاء التلاميذ نقلوا فقه زيد فى الأقاليم الاسلامية لأنهم لم يستطيعوا البقاء فى المكان الذى تركهم فيه حين استشهاده ، حتى لا يتعرضوا للأذى والاضطهاد من الأمويين ، لقد كان فرار هؤلاء التلاميذ الى البلاد الاسلامية المختلفة سببا فى نشر الآراء الزيدية ، كما أن الأئمة من آل البيت الذين حملوا أمانة ذلك المذهب واجتهدوا فيه تفرقوا أيضا فى الأقاليم وكان له فيها أنصار وأتباع ، وتنقلوا فى الأمصار الاسلامية فرارا من بطش بنى أمية ، وهم فى تنقلهم ينشرون المذهب ويتفقهون فيه ، لذلك انتشرت آراء الامام زيد فى البقاع الاسلامية كلها .

كان زيد بن على فقيها راوية للحديث. التقى بواصل بن عطاء وأخذ منه آراءه فى الاعتزال فى البصرة التى كانت مركزا للفرق الاسلامية حتى أن مذهب المعتزلة فى الجملة مذهب الزيدية ومن أصول مذهب الاعتزال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والزيدية تعتقد كما يرى الشيعة ـ بأنفراد أبناء على بعلم ضرورى من غير تعلم ، كما كانوا يعولون على علم مكتوم يأخذه بعضهم عن بعض ، وهم يتعللون بالتقية أى بضرورة المداراة ومن مذهبهم الأذان بـ «حى على خير العمل» ويعارضون التصوف ، ومذهب الزيدية فى

الفقه يعتبر مذهبا خامســا بعد المذاهب الأربعة ، والشروط ألتى يجب أن تتوافر فى الامام أن يكون من أولاد فاطمة سواء كان من أبناء الحسن أو من أبناء الحسين وواجب الامام أن يخرج داعيا لنفسه شاهرا ســيفه ، كما أجاز هذا المذهب امامين فى قطرين من القواطم (٤) .

والامام زيد أعتبر الامامة ، اقامة لمصلحة عامة ، وأن الذى بويع بها معروف بالوصف لا بالشخص ، وانه يطاع الأفضل ، وتجوز امامة المفضول ولذلك رفضوا فكرة الامام المستور ، أو ما يسمى بالمهدى المنتظر لأن الامام يجب أن يخرج داعيا لنفسه شاهرا سيفه(٣٢) .

والزيديه ترى أن الامام يجب أن يكون واسع العلم وقد طبق الزيدية هذا المبدأ فنلاحظ أئمتهم كانوا علماء ويتضح ذلك من مؤلفاتهم الكثيرة . وتتمق الزيدية بأنه قد يوجد زمان من غير امام ومن هنا كانت ســـلسلة الامامة متصلة (٣٣) عبر التاريخ .

ومن هنا يتضح لنا أن الامام زيد كان أول أهل البيت الذى يحمل فكرة ومذهبا انتهج لنفسه سبيلا فى الدعوة وخاصة فى كل المسائل الدينية التى خاض فيها علماء عصره وطاف بالبلاد الاسلامية واختلط بالفرق الشيعية ، وتعرف على آرائها ورد على المنحرف منها وأبدى لهم آراءه وتعاليمه ، ودون الفقه المروى من عمل آل البيت فلا غرو أن يلتف حول هذا الامام رجال العلم والفقه ، ولمــا تخلى عنه أهــل الكوفة بقى الفقهــاء والقراء والمحدثون وأهل التقى يقاتلون الى جانبه ، حتى انتهت المعركة(٣٤) ولذلك وصفت ثورة الامام زيد بأنها ثورة فقهاء .

والامامية الزيدية من أكثر فرق الشيعة تساهلا وأقربها الى السنة فأتباعها لا يكفرون أبا بكر الصــديق وعمر بن الخطاب والصــحابة (٣٥)

---

(٣٢) ابن زهرة الامام زيد، ص ١٩٥ .

(٣٣) الشهرستانى : الملل والنحل ص٢١٠ .

(٣٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٥ هـ .

(٣٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٥ ــ ٢٦ .

وحينما سأل أصحاب زيد عن رأيه فى أبى بكر كما سبق أن أشرنا ــ قال لا أقول فيهما الا خيرا ، وما سمعت أبى يقول فيهما الا خيرا وانما خرجت على بنى أمية الذين قاتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينــة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بالمنجنيق والنار ، ففارقوه لذلك فمذهب الزيدية لا يكفر الشيخين ، وانما يرى أن عليا كان أفضل الناس بعد رسول الله وأحقهم بالأمر (٣٦) .

على أن الزيدية انقسمت فرقا ، وقالت طائفة أن الصحابة ظلموا على ابن أبى طالب وهم الجارودية ، وقالت أخرى ان الصحــابة لم يظلموه ، لكن نفسه طابت بتسليم حقه الى أبى بكر وعمر ، أنهما اماما هدى ، ووقفت بعضهم فى عثمان ، وتولاه بعضهم . وجميع الزيدية لا يختلفون فى أن الامامة من جميع ولد على ، من خرج منهم يدعو الى الكتاب والسنة وجب ســل السيوف معه ، وأوجبوا سل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اذا لم يكن دفع المنكر الا بذلك (٣٧) ولا يجوز الصلاة خلف الفاسق لأن الله يتقبل من المتقين (٣٨) .

وقد رويت بعض المقتطفات التى نسبت الى زيد بن على ، وتتضمن تفسيرا لبعض آيات القرآن الكريم ، ومسألتى الامامة والحج ، وتشمل بصفة عامة مجملا كاملا للفقــه ، وتعرض لمســائل فى الدين والشريعة السياسية فى صورتها الحالية . ويرجــع السبب الى ما فيها من تناقض الى أن الأئمة الذين خلفوا الامام زيــد قد أضافوا اليها بعض آرائهم ، وحذفوا آراء تتعارض مع اتجاهاتهم ، وانقسمت الزيدية فرقا كل فرقة لها معتقداتها التى تختلف عن الفرقة الأخرى .

لم تنته الحركة التى قام بها زيــد بن على زين العابدين فى الكوفة للتخلص من الحكم الأموى بوفاته ، فظل فريق من أتباعه ــ الذين عرفوا بالزيدية ــ موالين له ، فعمد رجل من بنى أسد الى يحيى بن زيد ، قال له : قد قتل أبوك ، وأهل خراسان لكم شيعة ، فالرأى أن تخرج اليها

---

(٣٦) الشهرستانى : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج٣ ص ٩٢ .
(٣٧) المصدر السابق ج٤ ص ٩٣ .
(٣٨) المصدر السابق ج٤ ص ١٧١ .
(٣٩) المصدر السابق ج٤ ص ١٧٦ .

وطلب من عبد الملك بن بشر بن مروان أن يستضيفه حتى يكف الطلب عنه. فاذا سكن الطلب خرج فى نفر من الزيدية الى خراسان .

ظل يحيى بن زيد مقيما فى خراسان حتى وفاة هشام بن عبد الملك . وقد التف حوله الزيدية ، وبايعوه اماما ، على أن الخليفة الأموى يزيد بن الوليد ، أمر نصر بن سيار — والى خراسان — بتتبع يحيى بن زيد ، وقمع حركته ، فأرسل فرقة من جيشه اشتبكت معه ومع أنصاره فى معركة أسفرت عن مقتله سنة ١٢٥هـ(٤٠) .

لما قامت الدولة العباسية عارضها العلويون أيضا ، واعتبروا العباسيين مغتصبين الخلافة منهم كما كان الحال بالنسبة للأمويين ، ومن ثم قامت ثورات ضد الحكم العباسى منذ بدايته فثار محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بذى النفس الزكية ، ضد المنصور ، وثار أخوه ابراهيم أيضا وقد أحبط الخليفة المنصور المحاولتين ، وأمعن فى التنكيل بالعلويين ففر كثير منهم الى الأطراف النائية فى الدولة الاسلامية ، فمثلا ادريس بن عبد الله العلوى بعد موقعة فخ فر الى المغرب الأقصى واستطاع أن يقيم الدعوة العلوية هناك ، ويؤسس دولة الادارسة ، (٤١) .

وفر أخوه يحيى بن عبد الله الى المشرق سنة ١٧٦ هـ ، ونزل بلاد الديلم واشتدت شوكته ، وقوى أمره ، ونزح اليه الناس من الأمصار والكور ، وأسقط ذلك فى يد الخليفة الرشيد (٤٢) ، ورأى أن هذه الحركة تهدد دولته ، وعول على ضرورة قمعها ، فسير اليه الفضل بن يحيى البرمكى فى خمسين ألف مقاتل(٤٣) ومعه صناديد القواد ، وولاة الكور والجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ، وحملت الأموال ، فرأى الفضل أخذ يحيى اللين ، بدلا من الحرب ، فكتب اليه يستميله ، وناشده وخيره ، وأشار عليه ، وبسط أمله ، وأرسل اليه والى الديلم مالا ، وطلب منه أن يقنع يحيى بالسير اليه(٤٤) وما زال بيحيى حتى أجابه الى الصلح ، ووافق على أن يعود

---

(٤٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث ١٢٥ هـ .
(٤١) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص ٢٢٥ — ٣٢٧ .
(٤٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٢٥ هـ .
(٤٣) الأصفهانى : مقاتل الطالبين ص ١٠٥ .
(٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ١٧٦ هـ .

معه الى بغداد بشرط أن يكتب له الرشيد امانا بخطه على نسخة يبعث بها اليه ؛ فكتب الفضل بذلك الى الرشيد ، فسره ، وعظم موقعه عنده ، وكتب أمانا الى يحيى بن عبدالله ، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم(٤٥) ووصل الأمان الى الامام العلوى ، فقدم يحيى الى الفضل ، وسار معه الى بغداد ، وقدم الى الرشيد فأحسن وفادته ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى له أرزاقا سنية ، وأنزله فى دار يليق به ، ولكن الرشيد لم يلبث أن توجس منه خيفة ، فزجه فى السجن ، ولم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل (٤٦) .

على ان ظهور الامام العلوى فى بلاد الديلم والتفاف الناس حوله ترك انطباعا عند أهلها على الرغم من قصر اقامته بينهم — فأقبلوا على التشيع، وتحمسوا لأهل البيت ، وتطلعوا الى اليوم الذى تتحقق فيه ما تصبو اليه نفوسهم ؛ وهو اليوم الذى يحكمهم فيه امام من آل بيت رسول الله — لذلك التفوا حول أفراد الطائفة الزيدية التى انتشرت فى هذه البلاد فرارا من بطش العباسيين ، وبدأ الاسلام ينتشر فى هذه البلاد على أيديهم ، لذلك فلا غرو أن ينتشر الاسلام فى هذه البلاد على مذهب الطائفة الزيدية بصفة خاصة ، وهذا هو ما حدث أيضا فى طبرستان وجرجان ، فقد انتشر الاسلام فيها قبل بلاد الديلم ، وجهود الزيود — الذين لجأوا الى هذه البلاد — أثمرت فيها اذ اعتنق أهلها المذهب الزيدى(٤٧) .

على أن نفوذ الزيدية قد ازداد بصورة واضحة فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم فى النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى ، حيث ظهر بالكوفة ، يحيى بن عمر بن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب وأعلن الثورة ضد بنى العباس الذين أساءوا معاملته ، وانضم اليه حشد كبير من الأعراب ، وجماعة من أهل الكوفة ، ودخل يحيى الكوفة فى عدد من الفرسان وسار الى بيت مالها وأخذ ما فيه ، وفتح السجون وأخرج من فيها ؛ ثم خرج من الكوفة الى سوادها وتبعه جماعة الزيدية ؛ غير أن

---

(٤٥) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢١٢ـ٢١٣ .
(٤٦) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ١٧٦ هـ .
(٤٧) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٢٥٠ هـ .

الوالى العباسى ، اشتبك معه وهزمه ، وأوقع العباسيون بمن سار معه من أهل تلك القرى ، ولكن يحيى لم يستسلم للهزيمة ، فعاد الى الكوفة وقوى أمره ، وعظم بأسه بها بمن انضم اليه من الزيدية ، ودعا الى الرضا من آل محمد ، وعظم جمعه ، ومن بايعه فى الكوفة جماعة لهم بصائر وتدبير على تشيعهم ، وأقام يحيى على الكوفة ، يعد العدة ويتأهب للقتال وعلى الرغم من ذلك هزمته القوات العباسية فى المعركة التى نشبت بين الفريقين ، وقتل ، وحملت رأسه الى الخليفة العباسى (٤٨) .

على أن هذه الثورة — على الرغم من فشلها — كان لها رد فعل عنيف فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم . ذلك أن الناس فى هذه البلاد قد ساءهم اقدام محمد بن عبدالله بن طاهر على قتل الامام الزيدى ، بل عولوا على الانتقام ، نثاروا على رجال محمد بن عبدالله بن طاهر فى هذه البلاد — التى كان الخليفة العباسى قد اقطعه اياها — وطردوا عماله من بلادهم ، لكن عمال الطاهريين لم يذعنوا لثورات أهالى هذه البلاد ، بل أغاروا على بلاد الديلم وقتلوا وسلبوا(٤٩) ، فاستنكر أهل طبرستان هذا العمل العدائى على الديلم — الذين هم فى موادعة معهم — فعقدوا العزم مع الديلم على التحالف والتعاون والتآزر على حرب سليمان بن عبد الله الوالى الطاهرى على بلادهم ، واتجهوا الى رجل من العلويين فى طبرستان يقال له محمد بن ابراهيم ، يدعونه الى أن يتقبل مبايعتهم له أميرا عليهم ، ولكنه رفض وقال : اننى أدلكم على رجل منا وهو أقيم ، ودلهم على منزل الحسن بن زيد — ومسكنه بالرى — فوجه القوم الى الرى رسالة الى الحسن بن زيد يدعونه الى التوجه الى بلادهم ، ليلى حكمهم ، ويرفع الظلم والجور عنهم — الذى لحق بهم من بنى طاهر — فوافق الحسن بن زيد ، ولقيت هذه الدعوة ترحيبا منه(٥٠) وخصوصا انها جاءت معبرة عما تطلع اليه الأئمة الزيدية منذ وقت طويل حول تحقيق غايتهم ، وحلمهم المنشود فى تولى حكم البلاد — على حسب ما يرونه — وهو أن حكم المسلمين يجب أن ينحصر فى آل بيت رسول الله (٥١) .

---

(٤٨) المسعودى مروج الذهب ج٢ ص ٢٤٨ .

(٤٩) ابن الأثير / الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٥٠ هـ .

(٥٠) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٤١٠-٤١١ .

(٥١) الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٥٧ هـ .

على كل حال توجه الحسن بن زيد الى طبرستان ، وأجمع طبرستان وبلاد الديلم أمرهم على مبايعة الامام الزيدى ، والالتفاف حوله وقتال الوالى الطاهرى سليمان بن عبدالله فطردوا عماله من بلادهم ، وساروا بقيادة امامهم الحسن بن زيد فى هذه البلاد ودخل وأنصاره من أهل هذه النواحى أمل ، واشتبكوا مع الجند الطاهرى هناك ، وأوقعوا بهم الهزيمة ، ودخلوا أمل ، واجمع الناس على مبايعة الامام الزيدى ، وتقلد حكم هذه البلاد ، وكان عليه أن يقضى على كل محاولة تعترضه من جانب الجند الطاهرى ، فسار الى سارية سليمان بن عبد الله ، واشتبك معه فى معركة ضارية ، انتصر فيها على أعدائه الطاهريين ، وفر سليمان وقواته ، واستولى الحسن الزيدى على سارية وبذلك آلت طبرستان كلها الى الامام الزيدى ، وأصبح حاكمها وامامها(٥٢) .

لم يكتف الحسن بن زيد بحكم طبرستان ، بل عول على الاستيلاء على الرى فأرسل فرقة من جيشه وأسند قيادتها الى رجل من أهل بيته ، وتمكنت هذه الفرقة من طرد عمال الطاهريين ، واستخلف بها رجلا من العلويين يقال له محمد بن جعفر . وبذلك اتسعت الدولة الزيدية الجديدة ، وضمت طبرستان والرى(٥٣) .

على أن محمد بن جعفر لم يلق حكمه تأييدا من أهل الرى بل استاءوا منه ، فأستعان بعض أهلها بمحمد بن طاهر بن عبد الله فأرسل اليها قائدا من قبله لاستعادتها يقال له محمد بن ميكال ، فالتقى مع محمد بن جعفر فى معركة خارج الرى ، انتصر فيها القائد الطاهرى على القائد العلوى ، ودخل الرى . على أن الحسن بن زيد لم يتغاض عن الهزيمة التى لحقت بقواته ، وانفصال الرى عن دولته ، بل ارسل جيشا الى الرى انتزعها واستردها من محمد بن ميكال . وبذلك عادت الرى الى حوزة الأمير العلوى (٥٤) .

وفى الوقت الذى كانت فيه الدولة الزيدية الجديدة تزداد قوة بفضل مساندة أهالى طبرستان والديلم للامام الزيدى ، كانت الدولة الطاهرية

---

(٥٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٥٧هـ .

(٥٣) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص ٢٩٠ .

(٥٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٥٧ هـ .

تسير فى طريق التدهور والانحلال وكانت الخلافة العباسية مشغولة عن هذا كله بثورة الزنج فى العراق والاهواز ، لذلك عجزت الخلافة أو شغلت عن القضاء على الدولة الزيدية الجديدة .

وكان الامام الزيدى على علم بهذا كله لذا وجد الفرصة سانحة لتوسيع رقعة دولته ، ففى سنة ٢٥٧هـ قصد الحسن بن زيد جرجان واستولى عليها ، ولما بلغ ابن طاهر — أمير خراسان أعتزام الحسن قصد جرجان ، جمع العساكر ، أعد العدة ، وسار الى جرجان للحيلولة بين الحسن وبين الاستيلاء عليها ، لكن الطاهرى فشل فى تحقيق غرضه، وامتلك الحسن جرجان ، وقتل كثيرا من الجند الطاهرى ، وغنم مغانم كثيرة . وبذلك انضمت جرجان الى الدولة الزيدية(٥٦) .

وكان محمد بن طاهر — آخر حكام الدولة الطاهرية — أميرا ماجنا، يميل الى اللهو والعبث ، فضعف أمره كحاكم ، وعجز عن اخضاع الثورات التى قامت ضده ، ولما ازدادت الاضطرابات فى كل الدولة الطاهرية — استنجد أهل خراسان بيعقوب بن الليث الصفار لاعادة الأمن والطمأنينة الى بلادهم ، فوجد الأمير الصفارى الفرصة مواتية لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية المتداعية فزحف بجيشه الى نيسابور سنة ٢٥٩ هـ وقبض على محمد بن طاهر ، وعلى أهل بيته وبذلك زالت الدولة الطاهرية (٥٧) .

كان يعقوب بن الليث الصفار من افراد المطوعة — وهى تشكيلات عسكرية تعمل على حماية سجستان وفارس وكرمان من حالة الفوضى التى تعرضت لها من ثورات الخوارج وارتفع شأن يعقوب بعد أن ظهرت شجاعته فى محاربة الخوارج ، فتولى قيادة جماعات المطوعة ، ومن ثم عظم أمره حتى ان أهل سجستان استنجدوا به لتخليصهم من الفوضى التى حلت ببلادهم ، فسار اليهم ، ورفع عنهم الضرر(٥٨) ، ولما رأى أهل سجستان

---

(٥٥) ابن الأثير . الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٥٧ هـ .
(٥٦) المسعودى . مروج الذهب ج٢ ص ٥٤١ .
(٥٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٨ ص ٥٠٨ .
(٥٨) ابن خلكان وفيات الأعيان ج٨ ص ٥١٨ .

شـجاعته وحسن تدبيره ملكـوه آمرهم ، فضبط البـلاد ، وقـويت شوكته ، وقصدته العسكر من كل ناحية (٥٩) .

لم يكتف يعقوب بحكم سجستان بل عول على مد نفوذه الى البـلاد المجاورة ، فطمع فى طبرستان . رزحف بجيشـه اليها ، بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين الامام حسن بن زيد ، لأنه آوى بعض أعدائه ، ومضى الى الديلم ، ودخل يعقوب سارية وآمل وجبى من أهلها خراج سنة ، ثم سار فى طلب الحسن ، لكن الحسن آوى الى بعض الجبـال المنيعة فى طبرستان ، فلم يتمكن يعقوب منه ، وفشل يعقوب بن الليث فى القضـاء على الدولة الزيدية بسبب صعوبة مسالكها ، وخرجت من هذه المحنـة قوية ظافرة(٦٠) .

وتوفى الحسن بن زيد سنة ٢٧٢هـ بعد أن حكم دولته أكثر من تسعة عشر عاما ، بذل خلالها ما يبذله عادة مؤسسو الدولة من جهد فى توطيد وبناء صرح دولته — والذود عنها ضد الأعداء ومحاولة توسيع رقعتها . وتقوية شأنها . وكان الامام حسن عالما بالفقه (٦١) .

ولى محمد بن زيد حكم الدولة الزيدية خلفا لأخيه الحسن ، وواجه صعوبات عديدة تهدف الى النيـل من دولته ، ففى سـنة ٢٧٢ هـ انتزع ادكوتكين الرى من محمد بن زيد فعول الامام العلـوى على استردادها ، وسار فى جمع كبير الى الرى ، واشتبك مع ادكوتكين فى معـركة دارت فيها الدائرة عليه ، وتشتت شمل قواته ، ومزقوا شر ممزق ، فقد محمد ابن زيد الكثير من الأموال والمعدات فى المعركة ودخل ادكوكتين الرى ، وأخذ من أهلها أموالا طائلة ، وولى حكمها ، وبذلك فقدت الدولة الزيدية أقليم الرى (٦٢) .

كذلـك تعرضـت الدولة الزيديـة لـمؤامرات أخـرى أضـعفت من شـأنها ، ففـى سـنة ٢٧٦هـ سـار رافـع بن هرثمـة الـى جرجان ، وأزال عنها حكم محمد بن زيد ، وسار محمد الى اسـترابان فحاصره فيها رافع ، وأقام فيها نحو سنتين ، فارتفعت الأسعار ، وندر

---

(٦٠) المصدر السابق .

(٦١) الطبرى تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٢٧٢ هـ .

(٦٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك : حوادث سنة ٢٨٧ هـ .

وجود المواد الغذائية بها ، فعم القحط ، وساءت أحوال الناس ، لذلك غادرها محمد بن زيد متخذا من الليل جملا ، وغادرها الى ساريه ، وسارت قوات رافع فى أثره ، فاسرع محمد بن زيد الى بلاد الديلم ، فتعقبه رافع، ودخل أرض الديلم ، وفر منها محمد بن زيد . وبذلك فقدت الدولة الزيدية بعض ممتلكاتها ، وضعف أمرها (٦٣) .

وفى غضون ذلك ارتفع شأن الدولة السامانية ، وأضعفوا من أمر الصفاريين ، واعترف الخليفة العباسى المعتمد بالأمير نصر حاكما على بلاد ما وراء النهر ، وفوض اليه حكم البلاد الممتدة من شواطىء جيحون حتى أقصى بلاد الشرق (٦٤) .

أخذت الدولة السامانية تزداد قوة ونفوذا فى القسم الشرقى من الدولة الاسلامية وانتصر الأمير السامانى على عمرو بن الليث الصفار ، وضعف أمر الدولة الصفارية سنة ٢٨٨ هـ (٦٥) . وتطلع اسماعيل الى ضم طبرستان الى حوزته ، فجذب اليه رؤساء الديلم بالأموال والهبات فانحاز فريق منهم اليه ، وكان اسماعيل قد أثاره كثرة الغارات التى كانت تشنها قوات الامام محمد بن زيد على دولته ، فاشتبك فى حرب معه ، وانتصر عليه وضم طبرستان الى حوزته بعد معركة رهيبة خر فيها الامام العلوى صريعا (٦٦) .

انتهت الدولة الزيدية فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم بمقتل محمد ابن زيد ، ولكن ظلت الدعوة الزيدية منتشرة بين أهل هذه البلاد ، وآمن بها كثيرون ، وأقام بينهم الحسن بن على الملقب بالأطروش نحو ثلاث عشرة سنة بعد مقتل محمد بن زيد يدعوهم الى الاسلام ، ويؤدون له العشر، وأسلم من أهل هذه البلاد كثيرون على يديه ، اجتمعوا عليه بعد أن هداهم الله الى الاسلام . وأقام الأطروش فى بلادهم مساجد يذكر فيها اسم الله وكانت بلاد الديلم تخضع — كما ذكرنا — للحكم السامانى وكان السامانيون يستميلون اليهم رؤساء الديلم بالمنح والهبات ، ثم قطعوها عنهم ، فاستاء الديلم من آل سامان .

---

(٦٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٨٧ هـ .

(٦٤) المصدر السابق .

(٦٥) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٢٠ — ١٢٢ .

(٦٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٨٧ هـ .

وانتهز الحسن بن على الأطروش الفرصة ، فحرض أهل الديلم على التمرد والعصيان على الحكم السامانى ، وفعلا أعلنوا الانفصال عن الدولة السامانية ، ونادوا بالأطروش أميرا عليهم وبذلك بعثت الدولة الزيدية من جديد فى بلاد الديلم (٦٧) .

عول الأطروش على توسيع رقعة دولته الجديدة ، فهاجم طبرستان. واشتبك مع واليها السامانى فى معركة هزمه فيها وقتل من أصحابه كثيرين ، وامتلك الأطروش طبرستان (٦٨) . وأعطى لأهلها أمانا على أنفسهم وأموالهم وأهلهم سنة ٣٠١هـ وبذلك اتسعت الدولة الزيدية فى عهد الأطروش ، فشملت طبرستان وجرجان وبلاد الديلم (٦٩) .

والأطروش يلقب بالناصر الكبير ، ولم يكن مؤسس دولة فقط ، بل صاحب دعوة ، بذل فى نشرها جهودا مضنية ، فقد نشر الاسلام كما ذكرنا – وحرص على نشر الفقه الزيدى بين أهالى دولته لذلك يعتبر الناصر الأطروش محيى المذهب الزيدى من الركود بعد توالى الاضطهاد واستشهاد الكثير من آل بيت رسول الله . وفى ذلك يقول الشهرستانى : لم ينتظم أمر الزيدية ، حتى ظهر بخراسان الناصر الأطروش ، فطلب مكانه ليقتل ، فاختفى ، واعتزل الى بلاد الديلم والجبل ، وهم لم يتحلوا بدين الاسلام ، فدعا الناس الى الاسلام على مذهب زيد بن على فدانوا ذلك ونشأوا عليه وبقيت الزيدية فى تلك البلاد ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة ويلى أمرهم(٧٠) .

ولقد أدى الأطروش مهمته فى أرض بكر لم تعرف الفرق ولا المذاهب المختلفة ، وكان الناصر رجل سياسة وعلم فقيها ، وكان ذا فهم ومعرفة بالآراء والنحل حتى قيل انه عالم آل محمد ، وأحاطها بالسنة وعلم آل البيت وأقوال وآراء السلف الصالح ، وفقهه يعتمد على الآراء والنصوص وكان له فرقة مستقلة تدعى بالناصرية . ويرجع اليه الفضل فى احياء المذاهب الزيدى فى بلاد طبرستان وجرجان والديلم .

---

(٦٧) المصدر السابق .
(٦٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٠١ هـ .
(٦٩) السعودى . مروج الذهب ج٢ ص ٥٤٩ .
(٧٠) الشهرستانى : الملل والنحل ص ٣١١ .

ولمـــا توفى الحسن الأطروش ظلت الامامة فى أولاده واصهاره حتى سنة ٣١٦هـ حيث انقسم الديلم الى عصبيتين ، عصبية الجبل الممثلة فى اسفارين شرويه ، وعصبية الديلم الممثلة فى ماكان بن كالى ، وكل طائفة من الناس تجتمع حسب عصبتها ، وحول رئيسها الذى تتبعـــه ، ومن التزامات هذا الرئيس أن يجد لجنده مجالا للحرب يرتزقون منه ، ولذلك كان بعضهم يخرج على الدولة سعيا وراء مصالح جنده ، فأســفارين شرويه ترك خدمة الامام الزيدى وانضم الى الســـامانيين ، ثم عاد مرة أخرى الى طبرستان وأساء معاملة الأمراء الزيدية ، كما أساء الى جميع العلـــويين الذين كانوا موجودين بطبرستان ، بل جمع الأمراء العلـــويين سنة ٣١٦هـ فى أمل وقتلهم ، وسير من بقى فى هذه البلاد الى آل ســـامان فى بلاد ما وراء النهر ، على أن أتباعه استاءوا من فعله ، وتزعم مرداويج ابن زيار الديلمى مؤامرة تخلص منه وقتله ، وأقام دولة علـــوية هنـــاك لا امام لها ، بل اعترف بسيادة الخليفة العباسى السنى على بلاده ، وظل المذهب الزيدى سائدا بين أهلها .

(٧١) أبو زهرة : الامام زيد ص ٤٩٩ .

٦ ـ دولة الأكراد الكاكوية الديالمة فى بلاد الجبل

تمهيـــــــد :

يحد اقليم الجبل من ناحية الشرق فارس ومفـــازة خراسان ، ومن جهة الجنوب اقليم خوزستان ، ومن جهة الغرب اقليم أذربيجان ، ومن جهة الشمال اقليم طبرستان وجيلان اللذين يدخلان فى منطقة الديلم(١) . وينقسم اقليم الجبل الى خمس مناطق رئيسية : كرمانشاه همـــذان ـــ أصبهان ـــ الرى ثغر قزوين ـــ والأولى تحتل المنطقة الغربية من اقليم الجبل ، وتضم هذه المنطقة عددا من الكور :

الدينور ، شهرزور ـــ حلوان . وكانت همذان تلى المنطقة السابقة جنوبا ، وقصبتها همذان(٢) . أما منطقة أصبهان ، فتقع فى الطرف الجنوبى الشرقى من اقليم الجبل ، قرب حافة المفازة الكبرى(٣) ، وتضم كورهـــا عددا من الرساتيق التى تحوى عددا من القرى(٤) .

وتعتبر منطقة الرى من أشهر مناطق الجبل ، وقصبتها مدينة الرى ، وعدت عاصمة اقليم الجبل ، وعلا شأنها بعد أن استولى عليها البويهيون سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م ، واستطاعوا أن يسيطروا منها على منطقة واسعة من اقليم الجبل(٥) .

---

(١) الديلم : الجزء الجبلى من جيلان ، وتسكنه قبيلة تعرف أيضا بالديلم ، ويحده من الشمال جيلان ومن الشرق طبرستان ومن الغرب اذربيجان وبلاد الران ومن الجنوب نواحى قزوين ، وكان الديلم وثنيين ، ومن ثم تعرضوا لغارات المسلمين . ودخلوا فى الاسلام عن طريق الائمة الزيدية . (دائرة المعارف الاسلامية) .

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ص٩٢ .

(٣) لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص٢٨٥ .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢٦٧ .

الحياة السياسية فى بلاد الجبل قبيـل أن يحكمها الأكراد الكاكوية

سيطر بنو بويه على شرق الدولة الاسلامية (٣٣٤ـ٤٤٧هـ/٩٤٥ـ١٠٥٥م) وكانوا جنودا مغامرين من أهالى الديلم ، التحقوا بجيش ماكان ابن كالى الديلمى ، واستطاعوا بفضل مكانتهم ومقدرتهم وكفاءتهم العسكريه أن يصلوا الى مركز مرموق فى جيشه ، ولمـا هزم مرداويج بن زيـار ، ماكان بن كالى ، انتقلوا الى خدمة مرداويج الذى لم يلبث أن خشى بأس بنى بويه وأطماعهم(٦) ، واستطاع الأمراء البويهيون بسط نفوذهم على الكثير من البلدان الايرانية(٧) ، وسيطر حسن بن بويه على بلاد الجبل(٨) .

وفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م دخل أحمد بن بويه مدينة بغـداد ، فأسند اليه الخليفـة العباسى المسـتكفى منصب أمير الأمراء ، ولقبـه بلقب معز الدولة ، ولقب عليا عماد الدولة ولقب حسنا ركن الدولة(٩) .

لمـا توفى معز الدولة عام ٣٥٦هـ/٩٦٧م خلفه ولده عز الدولة بختيار فى حكم كرمان وخوزستان والعراق ، ولم يسـتطع هذا الأمير السيطرة على جنده ، فاستنجد بابن عمه عضد الدولة بن عماد الدولة ، من أقـدر أمراء بنى بويه ، وأبعدهم نظرا فى السياسة والادارة ـ فأعاد عضد الدولة الأمور الى نصابها ، لكنه لم يكن مخلصا لبختيـار ، فطمع فى أملاكه ، واستولى عليها ، وانتزع أملاك أخيه فخر الدولة ، وتمكن عضد الدولة بذلك من توحيد المملكة البويهية كلها تحت سلطانه ، فبلغت فى عهده أوج ازدهارها وعظمتها(١٠) .

ولمـا توفى عضد الدولة نشب القتال بين أبنائه حول ممتلكات أبيهم سنة ٣٧٢هـ/٩٨٣م(١١) ، وانتهى القتال بينهم سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م بانتصار

---

(٦) مسكويه : تجارب الامم ص ٢٩٦ ـ ٣٠٢ .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٨)المصدر السابق ٣٨٩ ـ ٣٩٠ .

(١٠) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٦٨ ـ ٢٧٢ .

(١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٧٢ هـ .

بهاء الدولة . على أن الدولة البويهية ازدادت ضعفا بعد وفاته سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، فقد انقسمت بين ابنائه الأربعة . وازداد تمرد الجيش من الترك والديلم(١٢) .

واضمحل فرع الأسرة المنحدر من فخر الدولة ، فقد خلف مجد الدولة أباه فخر الدولة ، وكان ضعيفا عابثا ، وتفككت دولته وآلت الى الزياريين والأكراد الكاكويه والغزنويين كما سنرى .

قيام دولة الأكراد الكاكويه

حكمت ايران أسرة ديلميه على أنقاض الحكم البويهى ، وهى أسرة الكاكويه ، ومؤسسها علاء الدولة محمد(١٣) وكانت والدة مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه ، استعملته على أصفهان ، فلما فارقت ولدها مجد الدولة ، فسد حال علاء الدولة محمد ، وغادر أصفهان ، وأقام عند أحد الأمراء البويهيين فى ايران ، ولما عادت أم مجد الدولة الى الرى ، وباشرت شؤون الحكم والادارة فى هذه البلاد ، لضعف ابنها سار علاء الدولة اليها فأسندت اليه حكم أصفهان ثانية ، واستقر بها أمره ، وعظم شأنه ، وقوى بأسه(١٤) .

وليس من المؤكد متى تولى علاء الدولة محمد حكم أصفهان نيابة عن أم مجد الدولة . على أن المؤرخ المحلى لأصفهان ، المفضل بن سعد المفرخى ، ذكر أن علاء الدولة حكم أربعين عاما حتى وفاته سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م(١٥) ، وهذا يدل على أن الفترة التى حكمها فى أصفهان تبدأ منذ سنة لا تقل عن ٣٩٣هـ/١٠٠٣م .

---

(١٢) مسكويه : تجارب الامم جـ٢ ص ٣٤٦ وما يليها .

(١٣) وهو ابو جعفر محمد بن شمنزيار ، وانما قيل كاكويه ، لانه كان ابن خال والدة مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه ، وكاكويه هو الخال بالفارسية ، وعلاء الدولة محمد ابن أبى العباس رستم شمنزيار بن مرزبان ، وكان يلقب أصبهبذ ، دخل الى خدمة البويهيين فى الرى والجبل وبجهوده ثبتت أقدام البويهيين فى أراضيهم ضد أطماع الحكام المحليين ، الزياريين وغيرهم .
(ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٨ هـ) .

(١٤) ابن اسفنديار ـ تاريخ طبرستان جـ ٢٣٠ ، ٢٣٨ .

(١٥) محاسن أصفهان ص ١٠٠ .

ضعفت حكومة الرى والجبل البويهية فى عهد أم مجد الدولة ، حتى فقدت سيطرتها على الاقاليم التابعة لها ، واستقل الحكام الكرد بالبلاد التى يحكمونها ، وقد شجعهم على ذلك الديالمة ، والأسر الحاكمة فى طبرستان وجرجان مثل الزياريين(١٦) . وانتهز علاء الدولة محمد فرصة التدهور السياسى فى الامارة البويهية ، وشرع فى مد نفوذه غربا وجنوبا من أصفهان الى الأراضى التى لم تعد خاضعة للبويهيين ، ففى سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م ، تقدم علاء الدولة محمد الى همذان ، وقد سادتها القلاقل والاضطرابات بسبب المنازعات بين الجند الأكراد والجند الترك ، وفشل أميرها شمس الدولة البويهى — أخو مجد الدولة — فى السيطرة على زمام الأمور فى ولايته ، واستطاع علاء الدولة محمد أن يقضى على فتن الجند ، ويعزل عناصر الشغب فى مكان يقال له بورجين(١٧) .

على أن علاء الدولة محمد لم يكتف بذلك بل ترقب الأوضاع فى همذان ، ليسيطر عليها ، فلما توفى شمس الدولة البويهى — أمير همذان — سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م ، آلت الى ابنه سماء الدولة ، ولم يستطع أدارة شؤون البلاد بنفسه(١٨) واستحوذ على السلطة الحقيقية ، وزيره الكردى — تاج الملك أبو ناصر بن برهام وفرهاذ بن مرداويج — الحاكم المحلى الاقطاعى للمدينة المجاورة بروجرد(١٩) ، فلجأ الأمير البويهى الى علاء الدولة محمد فى أصفهان ، وطلب منه أن يعاونه فى القضاء على خصومه ، ولكن علاء الدولة كان واسع الأطماع ، يعمل على ضم المزيد من الأراضى الى ولايته ، فسار الى همذان ، وأسقط حكم سماء الدولة البويهى ، وسيطر

---

(16) Bosworh : Military Organization under the Buyids of Persia and Iraq. p. 153.

عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمى — احد قواد أمير قزوين — فطرد حاكمها ، واستولى على بلاده ثم فتح الرى واصفهان وطبرستان وجرجان وهمذان ، وبلغت جيوشه نواحى حلوان وقد اقره الخليفة العباسى على ما بيده من البلاد بعد ان تعهد بدفع مبلغ من المال وبلغ من ازدياد طموحه انه اعتزم السيطرة على بغداد واعادة مجد الدولة الفارسية وبخلفه أخوه وشمكير ، (دائرة المعارف الاسلامية) .

(١٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١١ هـ .

(١٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١٢ هـ .

(١٩) بروجرد : بلدة بين همذان وبين الكرج ، وهى مدينة خصبة كثيرة الخيرات (ياقوت معجم البلدان جـ١ ص ٤٠٤) .

على همذان والدينور وسابور خواست . وضم كل هذه البلاد الى حوزته . ولم يستطع مجد الدولة البويهى أن يحرك ساكنا لانقاذ الامارة البويهية(٢٠) . وبذلك اتسع نفوذ علاء الدولة محمد فى ايران .

وفشلت محاولة سماء الدولة البويهى فى استعادة همـــذان والبلاد التى انتزعها منه علاء الدولة محمد ، ووطد علاء الدولة حكمـــه فى هذه البلاد ، وقبض على أمراء الديلم الذين يخشى بأسهم ، وزجهم فى السجون ، وصادر أموالهم (٢١) . وبذلك أمن على اســـتمرار ملكه من بأس هؤلاء الاقطاعيين ، فزادت هيبته ، وخافه الناس .

الحياة السياسية فى بلاد الجبل فى عهد علاء الدولة محمد

واجه علاء الدولة محمد عدة عقبات فى بداية حكمه لبلاد الجبل ، ومنها ثورة الاكراد الجوزقان . ومحاولتهم الاستقلال عن الأمير الكاكوى ، وقد أرسل اليهم علاء الدولة محمد عدة حملات لاخضاعهم ولكنها فشلت ، وظل الاكـــراد على ثورتهم ، حتى عهد عـــلاء الدولة الى على بن عمران بتأديبهم ، واعادتهم الى الطاعة والولاء ، وقد أدى على بن عمران واجبه خير أداء ، فأخضع الأكراد الجوزقان واســـتمالهم ، والتفوا حـــوله ، وارتضوا به حاكما عليهم من قبل علاء الدولة محمد(٢) .

على أن تولية على بن عمران على الأكراد الجوزقـــان لم يؤد الى استمرار ولاء هؤلاء القوم للأمير الكاكوى ، ذلك أن على بن عمران شق عصا الطاعة على سيده ، ولكى يؤمن نفسه استعان بأصبهبذ — صاحب طبرستان — وولكين بن وندرين — أحد قواد الديلم — وحثهما على قصت

---

(٢٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١١ هـ .

(٢١) المصدر السابق حوادث سنة ٤١٤ هـ .

ظل اسم سماء الدولة على عملات مختلفة غرب بلاد الجبل لعدة أعوام بعد سقوطه

(Miles : The Coinage of the Kakwayids Dynasty. pp. 97-100).

(٢٢) ابن الاثير . الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١٨ هـ .

بلاد الجبل ، وأرسل منوجهر بن قابوس بن وشمكير ، واستمده ، وأوهم القائدين أن البلاد فى يده ، لا رافع له عنها(٢٣) .

ومما يسر مهمة على بن عمران أن أصبهبذ كان معاديا لعلاء الدولة فسار الى همذان ، وملكها ، واستولى على أعمال الجبل وطرد منها عمال علاء الدولة ، وفى غضون ذلك ، وصل عسكر منوجهر بن قابوس وعلى ابن عمران ، فازداد قوة على قوة ، وسار الحلفاء — أعداء علاء الدولة — كلهم الى أصفهان ، فتحصن علاء الدولة بها ودار قتال مرير بين الفريقين ، وفى أثناء القتال ، أرسل علاء الدولة الى جند العدو الأموال ، وطلب منهم الانضمام اليه ، وقد نالت هذه الدعوة موافقة الكثير من الجند ، فلجأوا الى علاء الدولة ، تاركين جيوشهم ، وقد أحسن علاء الدولة استقبالهم ومعاملتهم ، وأغدق عليهم عن سعة ، الأمر الذى أضعف من شأن أعداء علاء الدولة ، وفت فى عضدهم ، وزاد أمرهم سوءا حينما ضاقت عليهم الميرة ، فانسحبوا من مواقعهم ، ولاذوا بالفرار ، لا يلوى أحد على أحد ، فتتبعهم علاء الدولة واستمال الأكراد الجوزقان ، فمال اليه بعضهم ، وسار فى اثر أعدائه الى نهاوند ، والتقى بهم فى معركة رهيبة انتصر فيها علاء الدولة على أعدائه ، وقتل ابنين لولنكين بن وندرين فى المعركة ، وأسر أصبهبذ ووزيره وبعض أقاربه ، ومضى ولنكين فى نفر يسير الى جرجان ، ولاذ على بن عمران بالفرار ، وتحصن بقلعة كنكور(٢٦) ، ولكن علاء الدولة لم يتركه وشأنه ، بل حاصره فى القلعة ، وشدد عليه الحصار . اما ولنكين بن وندرين ، فقد لجأ — بعد المعركة — الى منوجهر ابن قابوس ، وحرضه على المسير الى الرى ، واستعادتها ، وهون عليه هذا الأمر ، بسبب انشغال علاء الدولة بمحاصرة قلعة كنكور ، كما أن علاء الدولة قد تعقدت الأحوال الداخلية فى دولته بعد أن انضم صاحب قم الى أعدائه . ومهما يكن من أمر فقد سار منوجهر بن قابوس مع حلفائه الى الرى ، واشتبكوا مع صاحبها مجد الدولة بن بويه ، ولكن الدائرة

---

(٢٣) اسم يختص به ملوك طبرستان ، وهو مثل كسرى لملوك الفرس وقيصر لملوك الروم (ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ١٧٢) .

(٢٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١٨ هـ .

(٢٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر .

(٢٦) قلعة حصينة عامرة قرب جزيرة ابن عمر من قلاع الاكراد الزوزان (ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص ٤٨٤) .

دارت على منوجهر وأعوانه ، وزاد موقفهم حرجا ؛ بعد أن صالح علاء الدولة ، على بن عمران ، ورفع عنه الحصار(٢٧) وعاد مسرعا الى الرى لانقاذها من أعدائه ، فخشى منوجهر بأس علاء الدولة وعقد معه صلحا . وانسحب عائدا الى بلاده . وخرج علاء الدولة من هذه الاشتباكات ظافرا منتصرا ، وزادت رقعة دولته ، فقد ضم اليها قلعة كنكور وأقطع على بن عمران بدلا منها مدينة الدينور(٢٨) .

كما أثبتت هذه الحروب عدم مقدرة مجد الدولة التحرك خارج عاصمته الرى ، وأظهرت أن علاء الدولة — وليس البويهيون القوة الأعظم فى بلاد الجبل فى ذلك الوقت ، ولم يعد لمجد الدولة من السلطة الا اسمها ، أما الحكم الفعلى فكان فى أيدى علاء الدولة وليس البويهيون ، بدليل وجود عملة(٢٩) لعلاء الدولة ضربت فى أصفهان وبروجرد وأسد أباد وهمذان وكرمان ودينور وسابور خواست والكرج والرى وجور باذقان ويزد(٣٠).

وقبل أن يفقد علاء الدولة استقلاله بالبلاد السالفة الذكر على أيدى الغزنويين سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م كان يذكر اسم الأمراء البويهيين على عملته ، مثل مجد الدولة أو شمس الدولة أو سماء الدولة حتى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م ويضيف الى ذلك اسمه دون القاب تفخيم ، وهو محمد بن شمنزيار(٣١) ، ولكنه بعد ذلك حصل على لقب مهم ، يتناسب مع ما عرف عن استقلاله بالبلاد التى سيطر عليها عن نفوذ البويهيين(٣٢) مباشرة من الخليفة القادر — ودون تدخل البويهيين — وقد ذكر صاحب كتاب مجمل التواريخ(٣٣) أن علاء الدولة كاكويه أرسل سنة ٤١٩هـ/١٠١٨—١٠١٩م رسالة الى بغداد ، يطلب من الخليفة منحه عددا من الألقاب التى كان يمنحها الخلفاء

---

(٢٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١٨ هـ .

(٢٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١٨ هـ .

(29) Miles : The Coinage of the Kakuyids Dynasty, p. 102.

(٣٠) يزد : مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصبهان ، معدودة من أعمال فارس ثم من كورة اصطخر (ياقوت : معجم البلدان حـ٥ ص ٤٣٥) .

(31) Miles : A Hoard of Kakwayhid Dirhams. p. 171-173.

(32) Bosworth : Imperial policy of the Ghaznavids. p. 64.

(٣٣) مجمل التواريخ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ لمؤرخ مجهول عاش فى اسد اباد ، ويلم تبعا لذلك باخبار غرب بلاد الجبل .

بنشره الى الأمراء فى تلك الايام ، فأرسل الخليفة الى علاء الدولة تقليدا بضم البلاد التى يسيطر عليها فعلا وبعث اليه بالتاج والطوق والقلادة والخلع ولقبه عضد الدولة علاء الدولة ، فخر الملة ، وتاج الأمة ، وحسام أمير المؤمنين . على أن اللقب الذى كان يعرف به عادة ، علاء الدولة . ولم يكتف الأمير الكاكوى بذلك ، بل عهد الى ابنه الثانى أبى كاليجار ، وولاه همذان ، وحصل له على القاب : المؤيد ، غياث الملة ، فلك الدولة .

على أن ولاية مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه لم تستمر على الرى ، لأنه كان متشاغلا عن شؤون الحكم باللهو والعبث ، لذلك اضطربت الأمور فى دولته(٣٤) واستنجد أهلها فى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م بالسلطان محمود الغزنوى لتخليصهم من حالة الفوضى التى حلت ببلادهم(٣٥) ، فسار الى الرى ، واشتبك مع جندها وهزمهم وضم الرى وساوه ويافت وغيرها الى حوزته(٣٦) ، وقبض على مجد الدولة ، وسيره الى خراسان(٣٧) ، وكان كثير من سكان تلك البلاد يعتنقون المذهب الاسماعيلى ، فقبض محمود الغزنوى على الباطنية ونكل بهم ، ونفى المعتزلة ، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم ، ونقل الى غزنه ما سوى ذلك من الكتب(٣٨) .

ولما انتهى السلطان محمود الغزنوى من الرى ، سار الى طبرستان وجرجان ، وهزم صاحبها منوجهر بن قابوس وأعلن دخوله فى طاعة السلطان الغزنوى ، وأقيمت الخطبة لمحمود فى أكثر بلاد الجبل الى حدود أرمينية(٣٩) وامتلك ابنه مسعود زنجان وأبهر ، وخطب له علاء الدولة كاكويه فى أصفهان ، واستخلف محمود الغزنوى ، ابنه مسعود فى الرى وسار مسعود الى همذان ، وضمها الى الدولة الغزنوية(٤٠) .

---

(٣٤) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ١٩٢ .

(٣٥) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٥ .

(36) Hitti : Hist. of the Arabs, p. 454.

(37) Camb. Med. Hist. Vol. IV. p. 303.

(38) Camb. Hist. of Iran, Vol. 5. p. 12.

(39) IBID. p. 21.

(40) Habib. Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 39.

وبذلك ظهر عامل جديد فى سياسة شمال ايران نتيجة لجهود السلطان محمود الغزنوى ، وابنه مسعود ، وأصبحت ايران الطريق المؤدى الى الشرق الأدنى ، وسقطت بقايا الامارات البويهية . وهنا تنفس الخليفة العباسى السنى الصعداء من سيطرة البويهيين الشيعة . وفى نفس الوقت اطمأن الى وجود قوة سنية كبيرة وصاعدة — أقصد الأتراك الغزنويين — تقف الى جانبه فى وجه أعدائه الفاطميين .

وفى خلال حكم علاء الدولة القصير للرى ضرب درهما ، وباهى به — كما فعل مرارا بتشريف الخليفة القادر له — ، وأظهره دون سواه على العملة(٤١) .

اضطربت الأمور فى شمال ايران ، وحدث بها فراغ سياسى بعد سقوط حكومتها البويهية التى ظلت تحكم بلاد الرى والجبل قرنا من الزمان . وجاء القضاء على سلطان البويهيين على أيدى الغزنويين ثم السلاجقة ، ورحب أهل الرى بالحكم الغزنوى ورأوا فيه انقاذا لهم من حكم مجد الدولة الغاشم وجنوده الديالمة الظالمين الذين حولوا البلاد الى مسرح للقلاقل(٤٢) والاضطرابات على انهم لم يهنأوا طويلا بالحكومة الغزنوية ، فقد تعرضوا لغزو الأتراك السلاجقة ، الذين انساحوا الى شمال ايران من صحراء خراسان ، والقرة قورم فى أذربيجان وحدود الدولة البيزنطية وقد لاحظ علاء الدولة محمد هؤلاء البدو ، الذين برزوا كقوة ثالثة فى هذا الصراع ، استعملهم الأمير الكاكوى ، لتأكيد استقلاله ضد الحكام المحليين الغزنويين(٤٣) .

على أن الغز كثر عددهم فى بلاد الرى ، وشكلوا خطرا على علاء الدولة ، الذى سيطر عليها فى غفلة مسعود الغزنوى ، بل ضعف أمره أمامهم ، وفقد سيطرته الفعلية على البلاد ، وفقدت البلاد استقلالها بسبب سيطرة الغز عليها ، ففارق علاء الدولة محمود بلاد الرى فى جنح الليل وذهب الى اصفهان ، فاضطرب أهل البلد ، وتبعوا سيدهم فى الهرب

---

(47) Miles : The Numismatic Hist. of Rayy. pp. 178-188.

(٤٢) العتبى : تاريخ اليمينى ج٢ ص١٧٩-١٨٠ .

(43) Camb. Med. Hist. of Iran. Vol. 5, pp. 12-13.

وبذلك صفت البلاد للغز ، فنهبوها نهبا فاحشا ، وسبوا النساء ، « وتفرق الناس فى كل مذهب ومهرب » وكان السعيد من نجا بنفسه(٤٤) .

لما ملك الغز الرى ، حاصروا همذان ، وكان يحكمها أبو كاليجار ابن علاء الدولة محمد بعهد من أبيه ، ورأى أن لا قدرة له بمقاومة الغز ، وصدهم عن بلاده ، فانسحب منها ومعه وجوه التجار وأعيان البلد ، وتحصن بكنكور ، فدخل الغز همذان سنة ٤٢٠هـ ، ونهبوها نهبا منكرا ، لم يفعلوه بغيرها من البلاد ، وامتد نفوذهم الى أسد أباد وقرى الدينور ، واستباحوا تلك النواحى ، فخرج اليهم أبو الفتح بن أبى الشوك — صاحب الدينور — فواقعهم واستظهر عليهم ، وأسر جماعة منهم ، فراسله أمراؤهم فى اطلاقهم فامتنع الا على صلح وعهود ، فأجابوه وصالحوه وأطلقهم(٤٥) .

كما أن الغز بهمذان راسلوا أبا كاليجار بن علاء الدولة وصالحوه . وطلبوا اليه العودة الى بلده ، ومباشرة مهامه بها كحاكم عليها ، وتعهدوا بطاعته والولاء نحوه ، فعاد اليهم ولكنهم لم يلتزموا بما تعهدوا به نحوه ، فثاروا عليه ، ونهبوا أمواله وأمتعته . ولما سمع علاء الدولة محمد بما حل بابنه من السلب والمهانة ، أكبر ذلك وأنكره ، فهاجم الغز المنتشرين فى بلاد الجبل ، وظفر بهم ، وقتل منهم الكثيرين وأعمل فيهم السيف ، ومزقهم شر ممزق ، ولم ينج الا الشريد ، ودخل أصفهان ظافرا(٤٦) منصورا .

انسحب مسعود بن محمود الغزنوى من بلاد الجبل بعد اضطراب الدولة الغزنوية على اثر وفاة أبيه محمود(٤٧) ، فقد خلف محمد بن محمود أباه بعهد منه على الرغم من أن مسعود أكبر أبناء أبيه ، وقد أساء محمد السيرة ، وحكم البلاد حكما غاشما مضطربا ، وكثرت القلاقل والفتن فى الامبراطورية الغزنوية خلال حكمه القصير(٤٨) ، فاستنجد كبار رجال

---

(٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٠ هـ .

(٤٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٤٢٠ هـ .

(٤٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٠هـ .

(٤٧) تاريخ البيهقى ص ٧١ .

خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٦ .

(٤٨) تاريخ البيهقى ص ٦ .

الدولة الغزنوية بمسعود وطلبوا منه أن يلى مملكة أبيه ، وتقدم مسعود الى غزنه فعلا ، وخلع أخاه محمد ، وبايعه رجال الدولة ، وحصل على تقليد من الخليفة(٤٩) العباسى . وفى خلال تلك الفترة المضطربة ، توسط الأمير البويهى جلال الدولة لدى الخليفة العباسى بخصوص وضع عــلاء الدولة ، وعقد اتفاق وافق علاء الدولة محمد بمقتضاه أن يلى بلاد الرى كنائب للسلطان مسعود الغزنوى ويؤدى له الجزية مقابل حكمه لأصفهان ، وقدرت بعشرين ألف دينار ، وعشرة آلاف ثــوب ، من صنع أصفهان ، وهدايا المهجران والنوروز ، وعــددا من الخيول العربيــة مهيأة بمعدات الركوب ، وكل أنواع المعدات الحربية(٥٠) . على أن علاء الدولة لم يلبث بعد عودته الى عاصمته القديمة أن عمل على توسيع سلطانه من مركزه فى أصفهان وهمذان حتى الجبل ، وعثر على درهم ضربه فى يزد فى ســنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م عليه اسم الخليفة القادر(٥١) ، وأصبحت يزد أبعد مدينة فى الشرق تابعة للخلافة والكاكويه . ويؤكد ابن الأثير(٥٢) أن يزد كانت تابعة لعلاء الدولة فى ذلك الوقت . ولا توضح العملة تبعية يزد للدولــة الغزنوية(٥٣) . ومن المحتمل جدا أن ضرب العملة المذكورة تم خلال فترة سحب علاء الدولة طاعته للسلطان الغزنوى . فعلى العملة — كما ذكرنا — اسم الخليفة واسم علاء الدولة محمد فقط .

وواتت الفرصة علاء الدين محمد لتحقيق مطامعه وأهدافه ، فقــد اضطربت الدولة الغزنوية فى عهد السلطان مسعود . على أن ازدياد قوة السلاجقة ، وسعيهم الى الاستقلال عن الدولة الغزنوية ، وانتزاع بعض أراضيها(٥٤) ، فحرض علاء الدولة محمد أهل أصفهان على الثــورة ضد الحكومة الغزنوية ، وقتلوا الوالى الغزنوى(٥٥) ، وفتكوا بجنده ، ولما بلغ مسعود عصيان أصفهان وتنكيلهم برجاله ، أنكر ذلك ، وعول على القضاء على التمرد والعصيان ، فقصد أصفهان وحاصرها ، وضيق عليها الحصار ،

---

(٤٩) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٦ — ٢٧ .
(٥٠) تاريخ البيهقى ص ١٤ — ١٧ .
(51) Miles : The Coinage of the Kakwayid Dynasty, pp. 93-100.
(٥٢) الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .
(53) Miles : pp. 93-104.
(٥٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .
(٥٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٧٩ .

واستولى عليها عنوة ، ونكل بالثوار . واستخلف عليها واليا عادلا(٥٦).
على أن علاء الدوله لم يتغاض عما جرى لأصفهان، بل عول على استردادها والسيطرة عليها ، فاعد جيشا كبيرا سار على راسه الى اصفهان ، وملكها، ولم يكتف بذلك ، بل استولى على همذان وغيرها من البلاد ، وانتزع الرى كذلك ، وسار الى خوار الرى ودنباوند ، واستولى عليهما من حاكمها انو شروان بن منوجهر بن قابوس ، غير انه لم يهنأ باتساع سلطانه ، ذلك ان السلطان مسعود الغزنوى أرسل جيشا من خراسان لاسترداد الأراضى التى استولى عليها علاء الدولة ، واستعاد الغزنويون دنباوند وخوار الرى ، وحاصر الجيش الغزنوى الرى — بعد ذلك — وضيق عليها الحصار حتى فر علاء الدولة من الرى ، ودخلها الجيش الغزنوى سنة ٤٢٣هـ . وضبط القائد الغزنوى الامور فيها ، وعادت الرى الى الدولة الغزنوية(٥٧) .

ولكن علاء الدولة محمد لم يستلسم للهزيمة بل اعتزم استعادة سيطرته على البلاد التى انتزعها منه الغزنويون على الرغم من الهزائم المتكررة التى لحقت به(٥٨) فسير اليه السلطان مسعود جيشا لاحباط محاولاته الانفصالية عن الدولة الغزنوية بقيادة على بن عمران وباغت الجيش الغزنوى أنصار علاء الدولة فى همذان ، وهزمهم شر هزيمة ، وأسر كثيرا منهم ، واستولى على أسلحتهم وأموالهم . على ان هذه الهزيمة لم تفت فى عضد علاء الدولة(٥٩) اذ عاد الى الثورة من جديد ، منتهزا فرصة عودة القائد الغزنوى على بن عمران عن همذان ، وانقض عليها وملكها ، ولما سار على بن عمران الى أصفهان لاخضاع الثوار — أنصار علاء الدولة — واستعادة السيطرة الغزنوية عليها(٦٠) . لم يمكنه أهلها من تحقيق هدفه ، فعاد عنها والتقى بعلاء الدولة فى عدة معارك ، وحروب ضارية ، أدت الى هزيمة الجند الغزنوى ، وعاد على بن عمران مع القوات الغزنوية الى خراسان ، فسار تاش فراش — الوالى الغزنوى على خراسان — مع على بن عمران الى أصفهان والتقت القوات الغزنوية

---

(٥٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١هـ .
(٥٧) تاريخ البيهقى ص ٤١٦ .
(٥٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٣ هـ .
(٥٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٢٧٩ .
(٦٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٣ هـ .

مع جند علاء الدولة(٦١) بالقرب من أصبهان ، وانتصر الغزنويـون على علاء الدولة سنة ٤٢٣هـ ، وهزموه شر هزيمة ، فمضى علاء الدولة الى أصفهان ، وتحصن فيها ، وأعد العدة لمنع القوات الغزنوية من دخولها (٦٢).

رأى السلطان مسعود الغزنوى ضرورة التخلص من عـلاء الدولة كاكويه الذى سيطر على بعض بلدان الدولة الغزنوية ، وتصـدى لكل المحاولات التى بذلت لاخضاعه وأرسل جيشا آخر من خراسان بقيـادة أبى سهل الحمدونى ، والتقت القوات الغزنوية مع قوات علاء الدلة فى معركة حامية الوطيس سنة ٤٢٥هـ ، دارت فيها الدائرة على علاء الدولة(٦٣) وتحصن فى جبل بالقرب من أصبهان ، فأرسل أبو سهل الحمدونى ، يعرض عليه الأمان ، والكف عن التمرد والعصيان ومنحه بعض البلاد . واصلاح حاله مع السلطان مسعود . لكن علاء الدولة لم يقبل الخضـوع للدولة الغزنوية(٦٤) وظل يعمل على اسـتعادة ملكه السليب ، واسـتقلاله ، وتأكيد سيادته على بلاده ، فسار أبو سهل الحمدونى الى أصبهان وملكها ، وأنهزم علاء الدولة من بين يديه ، ولمـا استولى أبو سهل على اصبهـان نهب خزائن علاء الدولة وأمواله وكان ابن سينا فى خدمة عـلاء الدولة . فأخذت كتبه ، وحملت الى غزنه ، وضمت الى مكتبة القصر الغزنوى(٦٥) .

ومما يجدر ذكره أن علاء الدولة محمد جذب العلمـاء والأدباء الى بلاطه ، وسار فى ذلك سيرة البويهيين والغزنويين ، واهم انجازاته العلمية التى أعطته شهرة كبيرة تشجيعه العالم والفيلسوف الكبير ابن سينا على المقام فى بلده ، والدخول فى خدمته ، بعد أن كان يعمل عند شمس الدولة البويهى فى همذان ، وكتب ابن سينا دائرة معارفه فى العلوم بالفارسـية فى كتابه « دانشى نامه » للأمير الكاكوى . ومما ادى الى تقوية أواصر الصلة بين الرجلين أن الأمير الكاكوى كان يحب الفلسفة ، ولا يجد حرجا فى تشجيع علمائها ، كما كان الحال بالنسبة لبعض أمراء المسـلمين فى ذلك العصر ، فشجعه على التأليف والتصنيف(٦٦) .

---

(٦١) تاريخ البيهقى : ص٤١٦_٤١٧ .

(٦٢) تاريخ البيهقى : المصدر السابق ص ٥٣٠ .

(٦٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٥ هـ .

(٦٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٠ .

(٦٥) ابن الاثير : المصدر السابق نفس حوادث السنة .

(٦٦) العروضى السمرقندى : جهار مقاله ص ٨٢_٨٣ .

ظل علاء الدولة محمد يتحين الفرص للعودة الى أصفهان ، ففى سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م باغت الجند الغزنوى بالقرب من أصفهان ، والحق بهم الهزيمة(٦٧) وجمع جمعا من الديلم وسار الى أصفهان ، واشتبك مع القوات الغزنوية فى معركة هزم فيها مرة أخرى ، ففارق أصفهان ، وهو لا يلوى على شىء(٦٨) .

رأى علاء الدولة ضرورة تقوية جيشه بعد ازدياد قوة السلاجقة فى خراسان منذ عهد السلطان محمود الغزنوى ، وضم الى جيشه فريقا من الديلم ، وفريقا من التركمان ، وعقد هدنة مع الغزنويين سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م(٦٩) وكانت الهدنة ضرورة بين الطرفين ، بسبب المتغيرات السياسية ، فالسلطان الغزنوى والأمير الكاكوى يواجهان عدوا مشتركا قوى البأس شديد المراس ، وهو الترك السلاجقة ، ولقد ضرب علاء الدولة محمد عملة فى أصفهان فى سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م تظهر تبعيته للسلطان مسعود ، اذ نقش عليها اسم مسعود ثم اسمه هو(٧٠) وتوسط فى عقد هذا الصلح الوزير أبو طاهر محمد بن أيوب — وزير الخليفة القائم — وعاد علاء الدولة محمد الى أداء الجزية — التى قررت عليه من قبل الى الغزنويين .

دولة الكاكويه بعد علاء الدولة محمد :

على أن دولة الكاكويه تعرضت للتمزق والانقسام بعد وفاة صاحبها ، علاء الدولة محمد سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م ، فقد خلفه فى حكم أصفهان ابنه ظهير الدين أبو منصور فرامرز — وهو أكبر أولاده — وأطاعه الجند بها ، على أن أخاه كاليجار كرشاسب سار الى نهاوند ، وأقام بها ، وحفظها وضبط أعمال الجبل ، وحكم هذه البلاد مستقلا بها عن أخيه فرامرز الذى أمسك عنه ، ولم يتعرض له بسوء(٧١) وتركه وشأنه . كما ان مستحفظا بقلعة نطنز امتنع عن ارسال الأموال المقررة عليه الى فرامرز ؛

---

(٦٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٧ هـ .

(٦٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٠ .

(٦٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٧ هـ .

(70) Miles : The Coinage of the Kakwayhid Dynasty. pp. 97-100.

(٧١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٣هـ .

واظهر التمرد والعصيان فعول فرامرز على سحق تمرده ، فسار اليه مع اخيه الأصغر أبى حرب لينتزعا القلعة منه ، فصعد أبو حرب الى القلعة ، واشتبك مع المستحفظ المتمرد ، غير أن أبا حرب استقل بالقلعة عن أخيه فرامرز بعد أن سيطر عليها . واشتبك الأخوان فى عدة معارك ، دارت فيها الدائرة على أبى حرب بالقرب من أصفهان ، ولم يكتف فرامرز بذلك . بل تقدم الى قلعة نطنز ، وحاصرها ، وشدد عليها الحصار ، فلما رأى أبو حرب ان لا طاقة له بجند أخيه ، فر من القلعة متخفيا ، وسار الى الملك أبى كاليجار — صاحب فارس — فى شيراز ، وكان بها أخوه الأمير فرامرز ، وحاصر البلدة ، وضيق عليها . وجرى بين الفريقين عدة وقائع ؛ انتهت بعقد صلح بين الاخوين بمقتضاه يعود أبو حرب الى قلعة نطنز ، ويحكمها نيابة عن أخيه فرامرز(٧٢) .

قوى أمر فرامرز بعد ان خضع له أخوه أبو حرب فسار الى همذان وبروجرد ، ولستولى عليها ، ولما رأى أخوه الآخر كرشاسب أن لا طاقة له بالتعرض لأخيه ، كف عن التعرض له ، وصالحه ، وأعلن ولاءه وطاعته له ، وأقام الخطبة له فى همذان والبلاد الخاضعة له(٧٣) ، وبذلك اجتمعت كلمة الأخوة الثلاثة أبناء علاء الدولة واتحدوا فى دولة واحدة ، تخضع لحاكم واحد هو أبو منصور فرامرز .

على أن دولة الكاكويه لم تكد تفيق من الانقسامات التى حلت بها بسبب الصراع والنزاع بين الأخوة الثلاثة حتى واجهت خطرا أشد واقسى من سابقه ، وهذا الخطر يكمن فى ازدياد نفوذ الأتراك السلاجقة وتطلعهم الى السيطرة على بلدان دولة الكاكوية (٧٤) .

يرجع أصل السلاجقة الى الترك الذين كانو يقيمون فى الصحراء الواسعة التى تمتد من حدود الصين حتى شواطىء بحر قزوين ، وكثرت هجراتهم الى شواطىء جيحون ، واظهروا نشاطا ملحوظا فى الجوسات

---

(٧٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٣ هـ .

(٧٣) ابن الاثير : المصدر السابق .

(٧٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٣ هـ .

التى هاجروا اليها . (٧٥) وظل امرهم فى صعود فى بلاد ما وراء النهر ،(٧٦) وبرز من قادة السلاجقة الاخوة بيغو وطغرلبك محمد وجغرى بك داود(٧٧) وقد اذن لهم السلطان محمود الغزنوى بالاقامة فى الأراضى المحيطة ببخارى ، ولم يكن هناك خطر على الدولة الغزنوية من ناحية السلاجقة فى عهد محمود الغزنوى(٧٨) ، على أن مسعود بن محمود لم يستطع وقف اطماعهم فى الدولة الغزنوية ، وقد الحقوا به الهزيمة سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م ، واستهان السلطان مسعود بما حدث رغم تحذير مستشاريه — بعدم ترك خراسان لهؤلاء الطامعين المغامرين ، بل عمد الى مصالحتهم بشروط سهلة ، حتى يستطيع التفرغ بعد ذلك لاحدى غزواته فى بلاد الهند(٨٠) وكان من أثر هذه السياسة أن أفلتت الأمور من ايدى السلطان مسعود عندما عاد من الهند ، فما لبث ان سيطر طغرل على خراسان بعد ان هزم الغزنويين فى موقعة داندانقان سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م (٨١) وأصبحت الدولة السلجوقية — على اثر ذلك — حقيقة واقعة .

اتخذ طغرل — أول سلاطين آل سلجوق — سياسة ادت الى تقوية شأن دولته ، فقد عهد الى أفراد من ابناء اسرته بحكم ولايات الدولة وأمرهم بالعمل على توطيد الحكم السلجوقى بها ، وتوسيع رقعة هذه الولايات بالعمل على ضم الأراضى اليها (٨٢) .

زحف ابراهيم ينال الى الرى ، واستولى عليها ، ولما وطد اقدام السلاجقة بها ، سار عنها ، وملك البلاد المجاورة لها ، ثم سار الى بروجرد ، وسيطر عليها ، ثم قصد همذان ، فغادرها أبو المهاجر كرشاسب ابن علاء الدولة ، واستولى ابراهيم ينال على همدان ، وطلب اهلها منه

---

(75) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 1.

(٧٦) الراوندى : راحة الصدوروآية السرور ص ١٤٥ .

(77) Camb. Med. Hist. Vol. IV. p. 303.

(٧٨) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٧٩) تاريخ البيهقى : ص ٣٨١ — ٣٨٥ .

(80) Lane Poole : Medieval India. p. 44.

(٨١) الحسينى : اخبار الدولة السلجوقية ص ١١ .

(82) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 61.

عدم اعادة كرشاسب اليهم ، لما قاسوه من ظلمه وجوره(٨٣) واتخذ طغرل مدينة الرى حاضرة لدولته . توجه ابراهيم ينال — بعد ذلك — الى سابور خواست ، وكان كرشاسب قد فر اليها — فصعد الى قلعة البلدة ، وتحصن بها وقاتل القائد السلجوقى أهل البلدة ، ودارت بين السلاجقة وبينهم معارك متعددة ، استبسل فيها سكان سابور خواست وكان يحدوهم خوفهم من سيطرة الغز السلاجقة عليهم لشدة بطشهم ، وظلمهم ، وانتهت المعارك بهزيمة السلاجقة وانسحابهم الى الرى(٨٤) .

عاد كرشاسب الى همذان بعد انسحاب السلاجقة منها ، أما طغرلبك — سلطان السلاجقة — فقد تسلم الرى وبلاد الجبل من قادته السلاجقة ، واستولى على قلعة طبرك ، وكان يقيم بها مجد الدولة البويهى ، وأمر بتعمير مدينة الرى ، بعد أن لحقها الخراب والدمار من كثرة الحروب ، ثم سار الى همذان ، واستعاد سيطرة السلاجقة عليها من كرشاسب ، ثم عاد طغرل الى الرى ، وولى كرشاسب الرى نيابة عنه . (٨٥) سنة ٤٣٥ هـ وبذلك الت بعض ممتلكات الكاكوية الى السلاجقة .

ولم يكتف السلاجقة بذلك ، بل تطلعوا الى السيطرة على أصفهان ، وانتزاعها من صاحبها أبى منصور فرامرز ، ودارت معارك متعددة بين السلاجقة وقوات فرامرز ، انتصر فيها السلاجقة ، وعقد صلح بين طغرل بك — سلطان السلاجقة — وفرامرز ، بمقتضاه قبل فرامرز الخضوع للسلاجقة ، وأداء جزية سنوية للسلطان واقامة الخطبة لطغرلبك على منابر أصفهان ، وبذلك خضعت دولة الكاكوية للسلاجقة سنة ٤٣٨ هـ (٨٦).

على ان ابا منصور فرامرز قد ساءه ضياع استقلال بلاده ، وسيطرة السلاجقة عليها وانضواؤه تحت لواء السلاجقة ، بعد أن كان يحكم بلدانه حكما مستقلا، لذلك كان غير ثابت على طريقة واحدة مع السلطان طغرلبك، كان يكثر التلون معه ، تارة يطيعه وينحاز اليه ، وتارة ينحرف عنه ،

---

(٨٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٤٢٤ هـ .
(٨٤) ابن الاثير : المصدر السابق حوادث سنة ٤٢٤ هـ .
(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٠ هـ .
(٨٦) ابن الأثير : المصدر السابق حوادث سنة ٤٣٨ هـ .

ويخلع طاعته ، وينحاز الى الملك الرحيم البويهى ، فأضمر له طغرلبك التخلص منه ، فعاد الى أصفهان لخلع فرامرز منها وتأكيد سيادته عليها ، وشدد الحصار على اصفهان ، وأعد فرامرز العدة لمقاومة السلطان السلجوقى ، وظل طغرل يحاصر اصفهان حوالى سنة ، ولما طال الحصار على أصفهان ، والحق السلاجقة الخراب والدمار بأعمالها ، اشتد الضيق بالاهلين وارتفعت الأسعار ، وقاسى الناس الويلات من هول الحصار ، ونفد صبر صاحبها فرامرز ، لذلك ارسل أهل أصفهان الى السلطان السلجوقى يبذلون له الطاعة والولاء ويعرضون عليه المال ، وكل ما يطلبه فى مقابل الكف عنهم ، ورفع الحصار عن بلدهم ، ولكنه رفض ، ولم يقنع منهم الا بتسليم البلد(٨٧) . وظل محاصرا لاصفهان ، وشدد عليها الحصار حتى نفدت منها الأقوات ، وانقطعت عنها الامدادات . ولما ضعفت مقاومة أهل اصفهان ، ارسل طغرل الى صاحبها فرامرز يدعوه الى التسليم . ويحذره من العناد ، ويعرض عليه بلدا عوضا عن اصفهان ويقول : مع انك سليل أسرة حاكمة عريقة ، الا انك لا تمتلك جيشا يستطيع التصدى لمحاربيك وعندى جيش أكبر من ان يحصى ، وأنا ارغب فى الاستقرار فى اصفهان ، والمدينة تسليمها لى أصبح امرا سهلا ميسورا ، فسلم المدينة ، وأنا أعطيك بدلا منها فى العراق أو أى بلد شئت . فأجاب المنصور فرامرز لدعوة طغرل بالتسليم ، وطلب منه منحه مدينة يزد وابرقويه ، ينتقل اليها ويقيم فيها . واصطلح الرجلان على هذه الشروط(٨٨) ودخل فرامرز يزد بفرقته الديلميه ، وشيد بها قصرا منيعا له وعهد الى قواده باقامة سور حول البلدة له أربعة أبواب ، كما شيد المسجد الجامع للمدينة ، وشيد له مئذنة ، وهذه أول مئذنة شهدتها يزد وأقام فرامرز القنوات فى المدينة لتيسير وصول المياه الى بيوتها ، وشيد المدارس ، وسرعان ما انتشر العمران فى يزد ، فأقيمت فيها القصور والدور ، وانتقل الناس من القرى المجاورة اليها ، وباشر قواد فرامرز حركة النشاط العمرانى فى البلدة . وقام فرامرز بتيسير سبل الرى فى القرى التابعة ليزد ، فازدهرت بها الزراعة ، وعم الرخاء . كذلك حرص خليفته وابنه على مواصلة سياسة ابيه العمرانية والاصلاحية فى يزد ، فأعاد بناء المسجد الجامع ، وأقام به مكتبة كبيرة ، وأنشأ عدة مدارس . وبذلك أدى حكم الكاكويه يزد الى بعثها من جديد ، فقد كانت بلدا متخلفا لا تمتد اليها يد الاصلاح

---

(٨٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٨ هـ .
Bosworth : Camb. Hist. of Iran. Vol. V. p. 129.

وبعيدة عن اعين الحكام والولاة ، فلما حكمها الكاكوية ازدهرت عمرانيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، وكثر عدد سكانها(٨٩) .

دخل طغرلبك أصفهان سنة ٤٤٢هـ(٩٠) ومنع جنده من التعرض لاهلها ، وعفا عن أهلها ، وخلع ابا منصور فرامرز من اصفهان — كما قلنا — واسند اليه يزد وابرقويه(٩١) ، وقد احب طغرل اصفهان ، واستطابها ونقل اليها ما كان له بالرى من مال وذخائر وسلاح ، وجعلها دار مقامه . وخرب اسوارها ودمرها وقال : انما يحتاج الى الاسوار من تضعف قوته . فاما من حصنه عساكره وسيفه ، فلا حاجة به اليها(٩٢) .

وتحدث مؤرخ فارسى عن وزير فارسى يسمى أبو الفتح الرازى ، كان وزيرا لعلاء الدولة محمد ثم لابنه فرامرز ، الذى ارسله الى طغرل فى بعثة دبلوماسية ، وأعجب طغرل بحنكته ومقدرته ، وادخله فى خدمته ، فغضب فرامرز لذلك ، وصادر أموال هذا الوزير الذى اعتبره خائنا له ، ودمر منزله فى اصفهان ، ولما استولى طغرل على اصفهان ، عهد الى الرازى بجمع مائة ألف دينار جزية مفروضة على اصفهان . على ان هذا الوزير لم يلبث ان تخلى عن خدمة السلاجقة ، ودخل فى خدمة البويهيين(٩٣) .

دولة الكاكوية الثانية :

ومعلوماتنا عن الكاكوية — على اثر انتقالهم الى يزد — غامضة كل الغموض ، مضطربة غاية الاضطراب ، وكل ما نعرفه عن فرامرز فى يزد تنحصر فى انجازاته العمرانية فيها — كما قلنا — واظهارها بأبهى معالم

---

(89) IBID. p. 129.

(90) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 43.

(٩١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٤٢ هـ (ابرقوية : مدينة قريبة من يزد ، حصينة ، كثيرة الزحمة ، مشتبكة البناء ، ليس حولها شجر ولا بساتين ، وهى خصبة » ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ٧٠ ») .

(92) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 58

(٩٣) هندوشاه بن سنجر : تجارب السلف — نشره عباس اقبال ص ٢٦٠ — ٢٦١ ؛ Notes on Early Seljuqid Viziers. pp. 105-110.

الزينة . وهذه المعلومات متناثره فى ما رواه المؤرخون المحليون عن يزد . وكان يلقب فى السنوات الأخيرة من حكمه بلقب شمس الملك(٩٤) .

وكان الكاكوية فى الحقبة الثانية من تاريخهم يحكمون يزد وأبرقويه — وكما قلنا فهذه الفترة التاريخية من حكمهم غامضة على العكس من الفترة الأولى التى حكم فيها الكاكويه أصفهان وهمــذان ، فقد كتب ابن الأثير والبيهقى تفصيلات كثيرة عن هذه الحقبة . اما الفترة الثانية فالمعلومات عنها مبعثرة فى كتب التاريخ المحلية ، وفى كتاب الكــامل فى التاريخ لابن الاثير . ومن الثابت ان الكاكوية اللاحقين لم يمتلكوا الحق فى ضرب الذهب والفضة عملة(٩٥) .

ولا نعرف على وجه التحديد سنة وفاة فرامرز ، الا انه من المؤكد انه توفى بعد عام ٤٥٥ هـ ، ودليلنا على ذلك مــا ذكره ابن الاثير(٩٦) « ان السلطان السلجوقى طغرلبك زار الخليفة العباسى القائم فى بغداد ســنة ٤٥٥هـ ومعه بعض الأمراء والقادة ، ومن بينهم فرامرز » .

لــما توفى أبو منصور فرامرز ، خلفه فى حكم يزد ابنــه مؤيد الدولة علاء الدولة عضد الدولة على ، وقــد حرص على تقوية اواصر الصــلة بالسلاجقة ، وجدير بالذكر ان الكاكوية المتأخرين كانوا يحظون بمحبــة وتأييد السلاجقة كورثة لأسرة حاكمة عريقة ، وتزاوجهم من السلاجقة .

وفى سنة ٤٦٩ هـ — ١١٧٦ — ١١٧٧ م تزوج علاء الدولة على من أرسلان خاتون ابنة داود أخى السلطان طغرل وهذه السيدة كانت زوجة للخليفة العباسى القائم(٩٧) ، وبذلك استبدلت القرشى بالديلمى والامام بالبربرى .

---

(٩٤) البندارى : تاريخ دول سلجوق ص ١٣٣ .

(95) Miles : The Coinage of the Kakwayhid Dynasty, p. 97.

(٩٦) الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٥٥ هـ .

(٩٧)ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٦٧ هـ ، البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٥ (كان علاء الدولة على تلميذا مخلصا للشاعرالسلجوقى محمد بن الملك النيسابورى وكان هو ايضا شغوفا بالشعر ، ومقربا الى ملكشاه وقدم الشاعر الى السلطان السلجوقى ، وأدى ذلك الى شهرته ، وقدم ثلاث قصائد للامير الكاكوى مدحا فيه وفى أسرته) .

على ان انتقال الكاكوية الى يزد ، وتحالفهم مع السلاجقة هيأ لهم سلاما لم يحظ به اباؤهم الأولون ، وهذا السلام أسهم فى اصلاح أحوال بلادهم .

أخذت الدولة السلجوقية فى الضعف والانهيار بعد وفاة السلطان ملكشاه ، وتنافس الامراء السلاجقة حول الوصول الى عرش السلطنة . الأمر الذى احدث انقساما شديدا بين ابناء البيت السلجوقى ، وبدأت هذه الخلافات والمنازعات بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ بين بركياروق — الابن الاكبر لملكشاه — وأخيه محمود ، وانتهى بانتصار بركياروق وتوليته السلطنة(٩٨) .

على ان الأمور لم تستتب لبركياروق ، فقد طالب عمه تتش — صاحب الشام — بالعرش ، واستولى على بلاد الجزيرة ، وسار الى اذربيجان ، ودارت الحرب بينه وبين بركياروق ، وانضم علاء الدولة على — أمير يزد — الى جانب تتش ، ودارت الحرب سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م بين بركياروق وتتش بالقرب من الرى ، وانتهت بهزيمة تتش وقتل فى الواقعة ، علاء الدولة على — أمير يزد،(٩٩) وخلفه ابنه أبو كاليجار كرشاسب علاء الدولة عضد الدين فى حكم يزد ،(١٠٠) وكان يحظى بعطف وتأييد السلطان محمد بن ملكشاه ، وتزوج أخت سنجر ومحمد سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م(١٠١) ولما توفى محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ / ١١١٨ م ، قويت العلاقة بين ابنه محمود ، وأبى كاليجار كرشاسب ، وابقاه السلطان السلجوقى فى بلاطه كمستشار له ، وكواحد من أخوته(١٠٢) .

على ان نفوذ أبى كاليجار فى البلاط لم يلبث ان انقضى فقد سعى بعض رجال الدولة بأمير يزد وافلحوا فى اساءة العلاقات بين السلطان السلجوقى وأمير يزد ، بل أرسل السلطان السلجوقى حملة عسكرية الى

---

(٩٨) الراوندى : راحة الصدور ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(٩٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٨٨ هـ .
(١٠٠) مجمل التواريخ ص ٤٠٩ .
(١٠١) ابن الأثير : المصدر السابق حوادث سنة ١١ هـ .
(102) Camb. Hist. of Iran. Vol. V. p. 115.

يزد ، وتحصن أميرها أبو كاليجار فى احـــدى القـــلاع المجاورة ، غير أن القوات السلجوقية الحقت به الهزيمة(١٠٣) ، وعزله السلطان محمـــود السلجوقى عن يزد ، وعهد بحكمها الى قراجه الساقى ــ اتابك فارس ــ .

رأى أبو كاليجار كرشاسب ان يتحالف مع سنجر ضد أخيه محمود الذى عزله عن ولايته ، وواتته الفرصة حين نشبت الحرب بين محمود بن محمد بن ملكشاه وبين عمه سنجر ، وكان سببها ان السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه ــ أخا سنجر ــ لمـــا توفى ، خلفه ابنـــه محمـــود فى السلطنة . فاستنكر سنجر ذلك وعظم عليه ، وعول على قصد بلاد الجبل والعراق ، وانتزاعها من أخيه محمود واعد جيشا لمحاربته ، وانضم اليه علاء الدولة كرشاسب ، وعرف سنجر الأحوال ، والطريق الى قصد البلاد، وما فعله الأمراء من أخذ الأموال ، وما هم عليه من اختلاف الاهـــواء . والتقى ســـــنجر مع ابن أخيه بالقرب من ســـــاوه فى معركة انتهت بهزيمة محمود بن ملكشاه سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م ، وعقد صلح بين ســـنجر وابن أخيه ، وكتب سنجر الى سائر ولايات الدولة السلجوقية بأن تقام الخطبة له قبل محمود بن محمد بن ملكشاه واعاد سنجر حليفه كرشاســـب الى يزد(١٠٤) واستقبله أهلها احسن استقبال(١٠٥) .

ظل كرشاسب يحكم يزد حتى مقتله سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤٨ م وهو يحارب الخطا الى جانب سنجر(١٠٦)

وهذا يشير بوضوح الى حقيقة على بن فرامرز الذى توفى وهو يحارب تتش بن الب أرسلان منذ أكثر من نصف قرن ، وتضطرب بعض الروايات ، وتشير الى انه كرشاسب الذى نتحدث عنه ، على كل حال حكم كرشاسب

---

(102) Le Strange : The Lands of the Eastern Calipha.

(١٠٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(١٠٥) مجمل التواريخ ص ٤١٤ .

(١٠٦) البندارى . تاريخ دولة سلجوقى ص ١٣٣ ــ ١٣٤ (ويذكر ابن الاثير ان سبب هذه الحرب ان سنجر قتل ابنا للسلطان الخوارزمى اتسز فحرض الخطا ــ الذين يحكمون ما وراء النهر وقتئذ ــ على قصد مملكة السلطان سنجر ، ودار قتال مرير بين سنجر والخطا انتهى بهزيمة السلاجقة ، وقتل من جنـد ســـنجر عدة آلاف) « الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٣٦ هـ » .

يزد حوالى ٥٠ عاما وزينت بالحدائق الغناء وأعاد بناء المسجد الجامع(١٠٧) .

حكم يزد بعد وفاة كرشاسب ابنته بعهد من السلطان السلجوقى سنجر ، واقر خليفته أرسلان بن طغرل فى يزد ابنة كرشاسب ، وعين لها أتابكا ، وعليه مسئولية الأمن والطمأنينة فى الدولة ، وهذا الأتابك من كبار قادة السلاجقة ، ويسمى ركن الدين سام بن وردان : وظل اتابكا فترة من الوقت ، ادار خلالها البلاد فى حكمة وروية ، وعين القواد أخاه عز الدين لشكر سنة ٥٩٠هـ أتابكا خلفا له وهو قائد شجاع ، خاض عدة حروب بكفاءة قتالية . وبذلك انتهى حكم الكاكويه ، وحكم يزد الأتابكة حتى نهاية القرن السابع الهجرى ـــ حيث غزاهم المغول ، واستولوا على يزد وخلعوا آخر اتابكتها طغان شاه(١٠٨) .

ومن دراستنا لتاريخ الكاكوية فى يزد نواجه صعوبات كثيرة ، ترجع الى ان الكتاب المحليين الذين كتبوا عن يزد لم يعاصروا أمراء الكاكوية . بل ان أقربهم الى هؤلاء الأمراء ، هو جعفر بن محمد ، يكتب بعد ثلاثة قرون أو أكثر من حكم هذه الاسرة ، والذى كتب بعده عن يزد ، أحمد بن حسين بن على الكاتب ، ومحمد مفيد مستوفى(١٠٨) ونقل هذان المؤلفان عن جعفر ، وكررا الأخطاء التى وقع فيها ، والمعروف أن محمد مفيد مستوفى يكتب بعد جعفر بن محمد بحوالى قرنين ونصف ، وبعد ست قرون من الاحداث المذكورة ، ومشكلته انه يستمد مادته من محمد بن حسين وليس مباشرة عن جعفر ، لذلك فمن الملاحظ ان اخطاءه التاريخية أكثر خطورة من اخطاء جعفر(١١٠) وعلى ذلك فنحن تجنبا للوقوع فى الخطأ ، وحرصا على الوصول الى الحقيقة نضطر الى مطابقة ما اورده هؤلاء المؤرخون المحليون الذين ذكرناهم ـــ مع المصادر المعاصرة أو القريبة من المعاصرة مثل كتاب الكامل فى التاريخ لابن الاثير أو كتاب مجمل التواريخ ، فاذا وجدناها مطابقة أخذنا بها واعتمدنا عليها واذا لم تطابق نرفضها ، ونعتمد

---

(١٠٧) جعفر بن محمد : تاريخ يزد ص ٢١ ـ ٢٢ .

(١٠٨) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية جـ٢ ص ٣٧٩ .

(١٠٩) كتب أحمد بن حسين ، كتاب تاريخ يزد الجديد ، وكتب محمد مفيد كتاب الجامع المفيد .

على الكتب التاريخية المعـــاصرة أو القريبة من المعاصرة ، لانها أقرب الى الصواب من الكتب التاريخية المحلية . وعلى سبيل المثال لا الحصر يذكر أحمد بن حسين أن علاء الدولة محمد هو ابن مجد الدولة البويهى . والصحيح انه محمد بن شمنزيار . ويذكر ان فرامرز تزوج أرسلان خاتون والصحيح ان الذى تزوجها ابنه على . ونلاحظ أيضا الخلط بين على بن فرامرز الذى توفى سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وكرشاسب الذى قتل سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤٨ م فى كتب هؤلاء المؤرخين المحليين .

الباب الثانى

١ ــ الدولة الغزنــوية .

تمهيـــــد : قيـــام الدولة الغـــزنوية .

(أ) سياسة الغزنويين فى توطيـــد سلطانهم .

(ب) الأحـــداث الداخلية .

(جـ) العلاقات الخارجية للدولة الغزنوية .

(د) النهضة الثقافية للدولة الغزنــوية .

(هـ) ضعف الدولة الغزنوية وانهيارهـــا .

٢ ــ الدولة الســـلجوقية .

٣ ــ دول أتابكة الموصـــل والجزيـــرة .

٤ ــ الدولة الاســـماعيلية فى ايـــران .

٥ ــ الدولة الخوارزميـــة .

٦ ــ ســـقوط الخـــلافة العباسية .

الباب الثاني

١ — الدولة الغزنوية

تمهيد : قيام الدولة الغزنوية :

قلنا ان السامانيين اعتمدوا على الأتراك فى أمور دولتهم ، فكان قوام جيشهم منهم ، وولوهم المناصب العسكرية والمدنية الرفيعة ، فزاد نفوذهم ، وعلا شأنهم فى دولة آل سامان . والمعروف أن الأتراك من العناصر التى كانت مصدرا للقلاقل والاضطرابات فى الدول التى استعانت بهم ، ومن بينها الدولة السامانية ، فقد أضعفوها ، وعملوا على زوالها(١) .

ومن أبرز هؤلاء الأتراك الذين ارتفع شأنهم فى الدولة السامانية ، البتكين ، كان يعمل فى الجيش السامانى(٢) ، ومازال يرتقى فى سلك الوظائف حتى ولى منصب حاجب الحجاب للأمير عبد الملك بن نوح (٣٤٣—٣٥٠هـ/٩٥٤—٩٦١م) ، ومن ثم ارتفع شأنه ، وازداد نفوذه فى الدولة السامانية حتى أن الوزير كان يأتمر بأمره(٣) ، ويلتزم بتنفيذ تعليماته وتوجيهاته(٤) .

لم تصف الأمور لألبتكين ، اذ خشى الأمير عبد الملك بأسه ، وعول على ابعاده عن حاضرة دولته ، فأسند اليه ولاية خراسان فى عام ٣٤٩ هـ / ٩٦١ م(٥) . ولما توفى الأمير عبد الملك سنة ٣٥٠ هـ سنة ٩٦١ م تشاور الأمراء فى الدولة السامانية مع ألبتكين — الذى كان أكبرهم — فيمن يراه مناسبا لتوليه أمر الدولة السامانية . فوقع اختيار البتكين على عم الأمير

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ٨٥ .
(2) Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 12.
(3) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 7.
(4) Ency. of Islam. Art Alb-Tegin.
(٥) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ١١٨ .

المتوفى ، ورفض اختيار منصور بن نوح خلفا لأخيه ، لأنه شاب حدث لم تحنكه التجارب . على أن اقتراح البتكين لم يعمل به ، ذلك أن الأمراء ولوا منصورا دون أن ينتظروا وصول رد ألبتكين(٦) . لذلك نشأ العداء بين الأمير الجديد ، منصور بن نوح وبين ألبتكين ، الذى رفض اختياره — كما قلنا — أميرا على السامانيين ، ولم تجد محاولات البتكين التودد للأمير السامانى(٧) .

خشى الأمير منصور من انتقاض ألبتكين عليه فى خراسان فاستدعاه الى بلاطه ، ولما علم البتكين أن الأمير السامانى يضمر له السوء ، رفض التوجه اليه ، وأظهر التمرد والعصيان فعزله منصور عن خراسان ، وأسند ولايتها الى أبى الحسين سيمجور ، فقصد ألبتكين بلخ(٨) . وعول الأمير السامانى على اخضاع هذا القائد الثائر ، فأرسل اليه جيشا ، اشتبك معه وهزمه ، فتوجه ألبتكين الى غزنة(٩) ، وحاصرها واستولى عليها من حاكمها السامانى ، أبو بكر لويك ، ولم يكتف بذلك بل غزا زابلستان وأقام بها امارة مستقلة عن سادته السامانيين عاصمتها غزنة(١٠) . على أن الأمير منصور السامانى لم يقف مكتوف اليدين ازاء تمرد ألبتكين(١١) ، فبذل عدة محاولات لسحق تمرده ، باءت كلها بالفشل ، فكف عنه(١٢) . وبذلك قوى شأن ألبتكين فى امارته ، وتوطد فيها سلطانه .

ولما توفى ألبتكين سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م خلفه فى حكم غزنة ابنه أبو اسحق ابراهيم — قائد جيوش خراسان السامانية — غير أنه لم يستطع السيطرة على مقاليد الأمور فى غزنه(١٣) ، اذ ثار عليه أهلها ، وطردوه من بلدهم ، فاستنجد بالأمير منصور بن نوح ، فأمده بجيش مكنه من

---

(٦) الترشخى . تاريخ بخارى ص ١٤٣ .
(٧) فاميرى : تاريخ بخارى ص١٤٣ .
(٨) الترشخى : تاريخ بخارى ص ١٤٣ .
(٩) فاميرى : تاريخ بخارى ص ١١٢ .
(١٠) الترشخى : تاريخ بخارى ص ١٤٣ .
(١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٣٥١ هـ .
Ency. of Islam. Art Ghaznayids.
(١٢) العروض السمرقندى : جهار مقياس ٢٣ .
(١٣) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٥٦ .

اســترداد غزنة ، وحكمهــا باســم الســامانيين(١٤) . وبذلك استرد السامانيون نفوذهم على غزنة .

على أن أبا اسحق لم يلبث أن توفى دون أن يترك وريثا يعقبه فى حكم غزنه ، فحكمها بلكاتكين ـ أحد مماليكه ـ وضرب النقود باسمه فى غزنه سنة ٣٥٩ه/٩٦٩م وخلف بيرى بلكاتكين ، وهو فيما يبدو من أهالى غزنة، غير أنه لم يستطع القيام بأعباء الحكم فثار عليه الجند ، وخلعوا طاعته(١٥)، ونظروا فيمن يصلح لحكم غزنه ، فلم يروا أفضل من سبكتكين(١٦) لمــا عرفوه من عقله ودينه وكمال الخلال فيه وصرامته . وممــا يجدر ذكره أن سبكتكين هو أحد موالى ألبتكين(١٧) ، وكان حاجبا لابنه أبى اسحق « وعليه مدار أموره ، وبيده مناظم شؤونه » وولى ســبكتكين امارة غزنه ســنة ٣٦٦ ه / ٩٧٦ م(١٨) .

لمــا أفضى الأمر الى سبكتكين ، استطاع بحسن سياسته ، وبعــد همته اكتساب محبة الرعية وأمراء البلاد المجاورة له ، ولم يلبث الخليفــة العباسى أن اعترف بحكومته ، فاصطبغ حكمه بهذا الاعتراف بالصبغــة الشرعية ، وتحققت أمنيــة له طالما اختلجت فى صــدره ، فتلقب بناصر الدولة ، وبعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليــدية ، وأصبح سبكتكين المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية الشرعيــة(١٩) . وعلى الرغــم من استقلاله الفعلى فقد ظل يظهر ولاءه للسامانيين(٢٠) .

لم يكتف سبكتكين بحكم غزنه ، بل عمل على بسط نفوذه على البلاد المجاورة(٢١) ، فبسط سيطرته على قصدار القريبة من غزنه(٢٢) كمــا

---

(14) Ency. of Islam. Art Ghaznayids.

(١٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٤ ص ٢٦٤ .

(١٦) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٥٧ .

(١٧) ابن الأثير الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٦٧ هـ .

(17) Cambridge History of Iran. p. 6.

(١٨) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٥٨ .

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص١٢٣ .

(١٩) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٦٣ .

(20) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties p. 286.

(21) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 18.

(٢٢) خوندمير : حبيب السير فى أخبار أفراد البشر جـ٢ ص١٨ .

سيطر على خراسان(٢٣) ، وشرع في غزو أطراف الهند ، وسيطر على كثير من المعاقل والحصون هناك « فاتسعت ولايته ». وعمرت أرض خزانته . وأشفقت النفوس هيبة»(٢٤) ، وتوفى ٣٨٧هـ/٩٩٧م وإليه يرجع الفضل في وضع أساس امبراطورية الغزنويين ، اذ امتد سلطانه الى ناحية الهند حيث أسس بها حكومة في بشاور ، كما امتد نفوذه باستيلائه على خراسان وما اليها(٢٥) .

على أن الدولة الغزنوية كانت لا تزال على ولائها للأمراء السامانيين ، يلتزمون بالوقوف الى جانبهم ضد أى اعتداء يقع عليهم ، ولما ازداد ضعف الأمراء السامانيين ، وطمع فيهم أمراء البلاد المجاورة لهم ، لم ير الغزنويون بدا من الاستيلاء على البقية الباقية من ملك آل سامان ، وتوسيع رقعة دولتهم على حساب الدولة السامانية المتداعية(٢٦) .

ذلك أن الأمير الساماني نوح بن منصور استاء من موقف أبى على سيمجور — واليه على خراسان — الذى رفض ارسال الأموال المقررة عليه للأمير الساماني ، ولما خشى والى خراسان من عاقبة تصرفه مع الأمير نوح بن منصور حرض بغراخان — ملك الترك — على غزو بخارى ، وانتزاعها من آل سامان لكن بغراخان بعد أن دخل بخارى ، لم يستطع البقاء فيها ، فسار عنها وعاد الأمير نوح اليها(٢٧) .

على أن أبا على استطاع أن يضم اليه بعض الأمراء المنشقين على الدولة السامانية ، ومن أبرزهم فائق ، وأصبحوا خطرا يهدد سيادة السامانيين ، فاستنجد الأمير نوح على هؤلاء العصاة بالأمير سبكتكين سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م وولاه خراسان ، فاستجاب سبكتكين لمشيئة الأمير(٢٨) الساماني وهب لمساعدته في التخلص من أعدائه ، وأعد العدة لذلك ، أما

---

(٢٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٤ ص ٢٦٢ .

(٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٦٦ هـ .

(٢٥) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٣٤ .

(26) Browne : A Literary History of Persia Vol. II. p. 371-372.

(٢٧) العتبى : تاريخ اليمينى ١ ص ١٨٠ — ١٨٣ .

(٢٨) ابن الأثير . الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٨٤ هـ .

أعداء الأمير فاستنجدوا بالأمير فخر الدولة بن بويه وسير اليهم عسكرا كثيفا ، والتقى الأمير نوح ومعه سبكتكين وابنه محمود فى معركة ضد أبى على سيمجور وفائق بنواحى هراة ، دارت فيها الدائرة على أعداء الدولة السامانية ، سار الأمير نوح وسبكتكين الى نيسابور . واستولوا(٢٩) عليها واستعمل نوح على نيسابور وجيوش خراسان ، محمود بن سبكتكين ، ولقبه سيف الدولة ، ولقب أباه — سبكتكين — ناصر الدولة . وعاد نوح ظافرا على أعدائه الى حاضرة دولته بخارى . بينما بقى سبكتكين فى هراة ، وأقام محمود فى نيسابور(٣٠) .

على أن أبا على وفائقا لم يركنا الى الهزيمة ؛ بل عادا الى الاغارة على خراسان ، ففى سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م وفى ظاهر نيسابور اشتبك هذان القائدان مع محمود بن سبكتكين — وكان فى قلة من الرجال — فانهزم وانسحب الى هراة ، ملتجئا الى أبيه بعد أن تكبد خسائر فادحة(٣١) .

انف الأمير سبكتكين من الهزيمة التى لحقت بابنه محمود ، وعول على اخضاع أعداء الدولة السامانية ، فجمع جيشا كبيرا وسار نحوهم ، والتقى بهم فى طوس ، واقتتلوا يوما كاملا وأنجد محمود أباه بعسكر كثيف ، وهزم الأعداء وقتل منهم خلقا كثيرا ، ولاذ أبو على وفائق بالفرار(٣٢) .

وبذلك أمنت الدولة السامانية من شر هذا العصيان بفضل جهود الأمير سبكتكين وابنه محمود .

لكن الدولة السامانية لم تنعم بالأمن والسلام طويلا ، فقد أخذت فى الضعف والانحلال مما أطمع أمراء البلاد المجاورة لها فى امتلاك بلدانها ، وشجع هذا السلطان محمود بن سبكتكين على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السامانية ، فلما ولى الأمير منصور بن نوح ، بكتوزون على خراسان سنة ٣٨٨هـ/٩٨٨م ، استاء محمود من ذلك ، وأرسل الى الأمير السامانى يذكره بمواقفه فى الذود عن الدولة السامانية ومناهضة أعدائها ،

---

(٢٩) الترشخى . تاريخ بخارى ص ١٤٦ .
(٣٠) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ١٩٥ .
(٣١) نفس المصدر جـ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٣٢) الترشخى . تاريخ بخارى ص ١٤٦ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

ويطلب منه أن يوليه خراسان لكن الأمير منصور رفض طلبه ، وولاه بدلا من خراسان ترمذ وبلخ وما وراءهما من أعمال بست وهراة ، فلم يقنـع السلطان محمود بذلك . وعول على تحقيق مطامعه فى الدولة السـامانية بالقوة المسلحة ، فسار الى نيسابور(٣٣) .

لمـا علم بكتوزون — والى خراسان — بمسير السلطان محمود الى بلاده خشى الاشـتباك معه ، ورحل من نيسـابور ، فدخلها السـلطان الغزنوى وامتلكها ، لذلك غضب الامير منصور من موقف محمود الغزنوى ، وسار الى نيسابور لاستردادها منه ، هنا حدثت مفاجأة كبرى لم تكـن فى حسبان الأمير السامانى(٣٤) ، ذلك أن بكتوزون انقلب على سيده ، وانضم الى بعض القواد السامانيين فى التآمر على الأمير منصور ، وقبضوا عليه فعلا ، بل امر بكتوزون بسمل عينيه وأقاموا أخاه عبدالملك مقامه فى ملك السامانيين وكان لا يزال طفلا صغيرا(٣٥) .

لمـا رأى محمود بن سبكتكين مدى ما بلغه الأمراء السـامانيون من ضعف ووهن ، ومدى طمع قادة الدولة فيهم ، عول على تنفيـذ سياسته الرامية الى توسيع دولته على حساب السامانيين ، ورأى أن ذلك لا يتيسر الا بالتخلص من القادة الطامعين فى الدولة السامانية ، ومن أمراء آل سامان كذلك ، فالتقى محمود الغزنوى بفائق وبكتوزون ومعهما عبدالملك بن نوح بمرو ، فى معـركة ضارية ، دارت فيهـا الدائرة على أعداء محمـود بن سبكتكين ، واستطاع محمود أن يبعدهم عن خراسان ويستولى عليها ، ويضمها الى حوزته ، ويزيل كل أثر لحكم السامانيين(٣٦) .

على أن الأمير السامانى عبدالملك بن نوح لم يركن الى الهزيمة التى الحقها به محمود بن سبكتكين ، بل عول على محاربته وانتزاع خراسان منه ، ففى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م جمع فى بخارى الأمراء المعـادين لسلطان محمود وعلى رأسهم فائق وبكتوزون وأعدوا جمعا غفيرا للقضاء على خطر محمود بن سبكتكين الذى أضعف نفوذهم ، لكن خططهم باءت بالفشـل ، فقد توفى فائق — وهو من أقوى الأمراء المعادين للسلطان محمود — ففت

(٣٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٨٩ .
(٣٤) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٢٣ .
(٣٥) أرمينيوس فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٢٣ .
(٣٦) النرشخى : تاريخ بخارى ص١٤٨ .

ذلك فى عضدهم ، وأضعف من شأنهم(٣٧) ، وزاد الأمر سوءا تعرض بخارى لأطماع أخرى ليست من قبل الغزنويين ، بل من الترك ، وذلك أن ايلك خان — ملك الترك سار الى بخارى وأظهر لعبدالملك أنه لم يقدم الى بلده الا للذود عنه ، والوقوف الى جانبه ضد أعدائه ، فظن عبدالملك صدق قوله ، ولم يحترس منه ، بل أمر بكتوزون وغيره من القواد بالخروج من بخارى واستقباله والترحيب به ، لكن ايلك خان بعد أن استقبله قواد بخارى أحسن استقبال ، غدر بهم ، وقبض عليهم ، ودخل بخارى ، وشأن عبدالملك بن نوح فى قلة من الجند ، لذلك كان من اليسير على ايلك خان القبض على الأمير والاستيلاء على بخارى حاضرة السامانيين(٣٨) وبذلك زالت الدولة السامانية .

وعلى الرغم من انهيار الدولة السامانية ، فان بعض أمرائها عملوا على استرداد ملكهم السليب ، ففى سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م فر اسماعيل بن نوح السامانى من سجنه ، واختفى فى أحد بيوت بخارى ، ولما خشى من اكتشاف أمره ، فر الى خوارزم ، وتغلب عليها ولقب بالمنتصر ، والتف حوله بقية قواد السامانيين ، وجمع غفير من الجند(٣٩) ، وبذلك قوى بأسه ، وعظم خطره ، عندئذ رأى الفرصة سانحة لاسترداد ملك آبائه وأجداده ، فسار على رأس جمعه الى سمرقند ، وهناك دحر قوات ايلك خان ملك الترك — وغنم مغانم كثيرة ، قوى بها شأنه ، وشأن أتباعه وأنصاره ، وعاد الى بخارى ، فرحب به أهلها ، وفرحوا واستبشروا ، لعودة السامانيين الى الحكم(٤٠) ، ولم يستطع ايلك خان دفع الأمير السامانى عن بخارى ، فعظم شأن المنتصر السامانى واعتزم استرداد البلاد التى كانت خاضعة لبخارى أيام السامانيين فاستولى على أبيورد ، وجبى أموالها ، وسار نحو نيسابور — وكان يحكمها منصور بن سبكتكين نائبا عن أخيه محمود فاشتبك الأمير السامانى مع الأمير الغزنوى فى معركة كان النصر فيها للأمير السامانى ، وفر منصور بن سبكتكين الى هراة لا يلوى على شىء ، واستولى المنتصر على نيسابور(٤١) .

---

(٣٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٨٩ .

(٣٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٦٣ .

(٣٩) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٤٨ .

(٤٠) أرمينيوس فامبرى . تاريخ بخارى ص ١٢٣ .

(٤١) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٤٨ .

لمـا علم السلطان محمود الغزنـوى بهزيمة قـواته ، واسـتيلاء السـامانيين على بعض ممتلكاته ، سـقط فى يده ، وخشى أن يعـود السـامانيون الى استرداد البلاد التى آلت الى دولته ، مما يهـدد دولتـه بخطر جسيم . لذلك سار على رأس جيش كبيـر الى نيسـابور ، فلما اقترب منها . غادرها الأمير السامانى اذ خشى العاقبة ، ولجأ الى الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان وجرجان — فأكـرم وفادته ، ومما يجـدر ذكره أن الأمير شـمس المعـالى كان من أتبـاع السامانيين(٤٢) المخلصين .

أمد أمير طبرستان وجرجان ، المنتصر السامانى بجيش للمسير الى الرى والاستيلاء عليها من حكامها المتنازعين فيما بينهم ، وفعلا كان من اليسير على الأمير السامانى امتلاك الرى وشغل الفراغ السياسى بها ، لكنه لم يستطع البقاء فى الرى طويلا بسبب الفرقة التى حدثت بين أتباعه ، الا أن المنتصر السامانى لم يكف عن محاولة استرداد ملك آبائه وأجداده على الرغم من الهزائم التى لحقت به ، فاشتبك مع ايلك خان فى معـركة دارت فيها الدائرة عليه ، فاتجه الى مرو — وكانت تتبـع محمـود بن سبكتكين ، فخشى السلطان الغزنوى على امارته من الأمير السامانى ، لذلك سير اليه جندا لمنعها عنه ، فغير الأمير السامانى وجهته اذ عـاد الى ما وراء النهر ، لكن جند ايلك خان أجبروه على مغادرة هذه البلاد(٤٣) ، عندئذ ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وظل يضرب فى الأرض ، ويتنقـل من مكان الى آخر ، وجند السلطان محمود الغزنوى فى أثره حتى نـزل عند قبيلة موالية للسلطان محمود ، فقبض رجالها عليه(٤٤) وقتلوه وبموته غربت شمس الدولة السامانية .

وعلى ذلك تخلص السلطان محمود من آخر أمراء الدولة السامانية ، وصفت البـلاد له ، ولم يعد ينازعـه فيها أحد من آل سـامان حكامهـا السابقين .

— سياسة الغزنويين فى توطيد سـلطانهم :

عمل حكام الولايات الذين خضعوا لسلطان الغزنويين على استمادة

---

(٤٢) أرمينيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٢٣ .

(٤٣) النرشخى : تاريخ بخارى ص١٢٥ .

(٤٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .

استقلالهم عن غزنه ، لكن السلاطين الغزنويين لم يألوا جهدا فى سبيل الابقاء على سلطانهم فى تلك الولايات ، لذلك ناهضوا كل حركات التمرد والعصيان التى أعترضت سبيلهم . فلما آلت غرشتان(٤٥) الى الدولة الغزنوية . كان يحكمها الشار أبو نصر(٤٦) ، قبل الخضوع للدولة الغزنوية ، غير أنه لم يلبث أن تنازل عن حكم غرشتان الى ابنه الشاه ، لكن الشاه خالف أباه ، وعمد الى الاستقلال ، وظهر ذلك جليا واضحا عندما اعتزم السلطان محمود بن سبكتكين غزو الهند سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م . واستنفر ولاة أقاليم دولته لامداده بالقوة اللازمة ، فكلهم استجابوا لندائه فيما عدا الشاه ـ حاكم غرشتان ـ ولم يكتف بذلك ، بل أظهر التمرد(٤٧) والعصيان . فتغاضى السلطان محمود بن سبكتكين عن عصيانه ، حتى انتهى من غزوته فى الهند ، وعاد ظافرا منتصرا ، وعول على اخضاع غرشتان لحكمه(٤٨) ، فأرسل اليه جيشا بقيادة حاجبه أبى سعيد التونتاش ، وأرسلان جاذب ـ والى طوس ـ واستطاع الجيش الغزنوى هزيمة الشاه ، ودخول غرشتان ، غير أن الشاه لم يستسلم للهزيمة ، اذ لجأ مع نفر من جنده الى احدى القلاع ، وتحصن بها فحاصر الجيش الغزنوى القلعة ، وضيق عليها الحصار ، حتى استسلم الشاه ، وقبضت القوات الغزنوية عليه ، وسيق الى غزنة(٤٩) ، وخضعت غرشتان من جديد للسلطان محمود ، بعد أن فشلت حركة التمرد التى قادها الشاه(٥٠).

كذلك حاولت ولاية سجستان(٥١) التخلص من النفوذ الغزنوى أكثر من مرة ، فقد انضمت الى الدولة الغزنوية منذ عهد السلطان سبكتكين ، وبذل واليها خلف بن أحمد عدة محاولات للاستقلال عن غزنه ، فلما انشغل

---

(٤٥) غرشتان : هراة فى غربها والغور فى شرقيها ، ومرو الروذ عن شمالها ، وغزنة عن جنوبيها (ياقوت : معجم البلدان جـ٦ ص ٢٧٧) .

(٤٦) كان كل من يملك غرشتان يسمى شار : وكان الشار أبو نصر قد اعتزل الملك ، وسلمه الى ولده الشاه ، واشتغل هو بالعلوم ومجالسة العلماء (ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٤٤٣ـ٤٤٤) .

(٤٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٥٩ .

(٤٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٨٩ هـ .

(٤٩) العتبى : تاريخ جـ٢ ص ٦جـ١ ـ ١٤٠ .

(٥٠) خوندمير : حبيب السير جـ١ ص ٢٠ .

(٥١) ولاية واسعة جنوب خراسان يتبع نصفها الغربى اليوم ايران ، ونصفها الشرقى افغانستان .

سبكتكين بغزو الهند ، زحف خلف بن أحمد الى بست ، وبسط سيطرته عليها ، على أن سبكتكين استطاع استرداد بست بعد أن عاد من الهند ، وذلك عقب انتصاره على خلف بن أحمد ، ولما أيقن خلف أنه لا يستطيع الوقوف فى وجه السلطان سبكتكين ، طلب منه العفو والصفح ، فعفا سبكتكين عنه ، وأبقاه على ولاية سجستان(٥٢) .

غير أن خلف بن أحمد لم يبق على ولائه للدولة الغزنوية ، بل أخذ يترقب الفرص المناسبة للعودة الى العصيان (٥٣) ، فلما توفى السلطان سبكتكين سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م وولى السلطان محمود ، عاد خلف الى الانتقاض على الدولة الغزنوية ، فأرسل ابنه طاهر الى قهستان ، فملكها ، ثم سار منها الى بوشنج(٥٤) وهراة(٥٥) فانتزعهما من واليها بغراجق — عم السلطان محمود(٥٦) .

لم يقف السلطان محمود مكتوف اليدين ازاء خروج خلف بن أحمد عليه ، وانتزاعه بعض بلدان الدولة الغزنوية لنفسه بل عول على استعادة سيطرته على البلاد التى انتزعها خلف بن أحمد واخضاعه لسلطانه فأرسل اليه جيشا ، اشتبك مع خلف فى معركة انتهت بهزيمته . على أن طاهر بن خلف لم يركن الى الهزيمة بل انقض فجأة على بغراجق وقتله(٥٧) فلما نمى الى علم السلطان محمود خبر مقتل عمه ، عظم ذلك عليه وأنكره فسار بنفسه على رأس جيش كبير الى سجستان ، فتحصن منه خلف بن أحمد فى حصن مرتفع يناطح النجوم علوا وارتفاعا كما يقول ابن الأثير ولما شدد السلطان محمود الحصار على خلف بن(٥٨) أحمد ، طلب الأمان فأمنه

---

(٥٢) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ .

(٥٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .

(٥٤) بوشنج : بلدة نزيهة فى واد مشجر من نواحى هراة (ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص ٢٠٤) .

(٥٥) هراة : من أمهات مدن خراسان فيها البساتين والمياه الغزيرة ومحشوة بالعلماء وأهل الفضل . (ياقوت :معجم البلدن جـ٨ ص ٤٥٢) .

(٥٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .

(٥٧) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٦٤ .

(٥٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حودات سنة ٣٩٠ هـ .

بعد أن بذل له أموالا كثيرة ، وعاد الى الولاء والطاعة للدولة الغزنوية ، وسلطانها محمود(٥٩) .

لم يلبث خلف بن أحمد أن تنازل عن حكم سجستان لابنه طاهر ، واعتكف فى أحد الحصون المجاورة لسجستان ، حتى وهم السلطان محمود أنه ترك الحكم ، وأقبل على العلم والعبادة ، ليقطع طمعه عن بلاده . واذا استعاد خلف قوته ، عاد الى الانقضاض على السلطان محمود ، وتخلص من ابنه طاهر واستعاد سيطرته على سجستان ، وأعلن استقلال سجستان عن غزنه(٦٠) لكن جند سجستان لم يطيعوه فقد أغضبهم قتله لابنه طاهر — الذى كان عادلا حسن السيرة — بل انضموا الى القوات التى أرسلها السلطان محمود الى سجستان للتخلص من خلف بن أحمد ، لذلك استسلم خلف ، وسيق الى السلطان محمود ، فأكرمه وأذن له بالمقام فى أى البلاد شاء ، فاختار أرض الجوزجان(٦١) وسار اليها ، وقضى بها بقية حياته(٦٢) وبذلك انتهت فتنة خلف بن أحمد فى سجستان ، وعادت هذه البلاد الى الطاعة والولاء للسلطان محمود .

على أن سجستان لم تستمر طويلا على ولائها لغزنة(٦٣) ، فعلى الرغم من أن السلطان محمود أسند حكمها الى قنجى الحاجب — أحد قواده المخلصين — وقد نشر العدل بين ربوعها ، وحسنت سيرته فى أهلها — فان أهل سجستان عادوا الى محاولة الاستقلال عن الحكم الغزنوى ، فاعتزم السلطان محمود اخضاع سجستان لنفوذه ، فسار اليها على رأس عشرة آلاف من خيرة جنده وحاصر المتمردين فى سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م(٦٤) حتى رضخوا واستسلموا ، وقام بتأديب العصاة ، وعلى ذلك عادت سجستان الى الطاعة والولاء للحكم الغزنوى وتمكنت هيبة السلطان محمود من قلوب أهلها ، وعهد بحكمها الى أخيه نصر ، وجعلها له طعمة مضافة الى نيسابور ، فأناب عنه فى حكمها وزيره نصر بن اسحق ، فقام بضبط

---

(٥٩) خوندمير حبيب السير جـ٢ ص ١١ .
(٦٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .
(٦١) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٢٥٧ ـ ٣٥٩ .
(٦٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٣٩٣ هـ .
(٦٣) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٠ .
(٦٤) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٥ .

أمور الولاية ، وساس أهلها سياسة حســـنة(٦٥) ، وانتظمت سجستان طوال عهد السلطان محمود ولم تحدث محاولة اســتقلالية أخرى فى هذا الاقليـــم .

كذلك أقلقت خوارزم حكومة غزنة بسبب محاولة واليها الاســـتقلال عنها ، ذلك أن خوارزم خضعت الدولة الغزنــوية سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م وظلت موالية لغزنة حتى وفاة واليها التونتاش سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م ولمـا ولى هرون بن التونتاش حكم خوارزم بعهد من السلطان مسعود بن محمود ، ساءت العلاقة بينه وبين وزيره عبدالجبار بن أحمد عبدالصمد ـ وزيــر الدولة الغزنوية ـ الذى تجبر اعتزازا بمقام أبيه الوزير ، ومنع هرون ورجاله من مباشرة مهام الحكم ، بينما استأثر هو بالسلطة دونه ، فضاق هارون ذرعا بذلك ، وعمل على التخلص من وزيره عبدالجبار ورجـــاله والاستقلال بخوارزم عن الدولة الغزنوية ولتحقيق نواياه الانفصالية اتصل بالسلاجقة المناوئين للسلطان مسعود واتحد معهم على السلطان الغزنوى، وحذف اسم السلطان مسعود من الخطبة ، وأمر بذكر اسمه فقط ، مما أوقع السلطان مسعود فى حيرة شديدة(٦٦) . ذلك أن خراســـان كانت مضطربة أيضا فى ذلك الحين(٦٧) .

استدعى هرون السلاجقة لنجدته ، فأقبل بعضهم اليه وأنزلهم على حدود خوارزم ، وقال لهم : ينبغى أن تستريحوا فانى قاصـــد خراســـان وسوف أحارب غير أن السلاجقة لم يطب لهم المقـــام طويلا على حـــدود خوارزم(٦٨) ، اذ بعث السلطان مسعود جيشا من بخارى اليهم باغتهم على حين غفلة منهم ، وشتت شـــملهم من هـــذه النواحى(٦٩) ، ولا ريب أن انسحاب السلاجقة من حدود خوارزم أضعف من شأن هرون ، على أن هرون لم يلبث أن قتل فى مؤامرة دبرها وزيره عبد الجبار(٧٠) .

---

(٦٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٠٩ هـ .

(٦٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

(٦٧) تاريخ البيهقى ص ٤٩١ .

(٦٨) خونومير حبيب السير جـ٢ ص ٢٢ .

(٦٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٧١ .

(٧٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

لم يؤد قتل هرون الى عودة خوارزم الى الولاء والطاعة للسلطان مسعود ذلك أن غلمان هرون وثبوا على الوزير عبدالجبار وفتكوا به ، وولوا خوارزم اسماعيل بن التونتاش الذى سار على سياسة أخيه هرون الرامية الى التخلص من النفوذ الغزنوى ، والاستقلال ببلاده(٧١) لكن السلطان مسعود لم يقف مكتوف اليدين ازاء موقف اسماعيل ، بل عول على استعادة خوارزم ، فعهد الى شاه ملك — أمير جند من قبله — بالسير الى خوارزم ، واستعادة النفوذ الغزنوى فيها ، وولايتها من قبله ، فسار شاه ملك الى خوارزم ، وهم السلاجقة(٧٢) هناك الذين جاءوا لمؤازرة اسماعيل بن التونتاش فى موقفه العدائى من السلطان مسعود . ولما رأى اسماعيل وجنده أن لا طاقة لهم بالوقوف فى وجه القوات الغزنوية ، لاذ اسماعيل بالفرار ، ولجأ الى حلفائه السلاجقة ، وقضى شاه ملك على عناصر الفتنة فى خوارزم ، وعادت الى الولاء والطاعة لسلطان غزنة ، وأقيمت الخطبة فيها للسلطان مسعود(٧٣) .

كذلك اقلق علاء الدولة كاكويه(٧٤) الدولة الغزنوية ، اذ كان يحكم أصفهان وهمذان والرى قبل أن تنضم هذه البلاد الى حوزة الغزنويين فى سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ولما توفى السلطان محمود بن سبكتكين كان ابنه مسعود فى أصفهان ، وبلغة الخبر فسار الى خراسان ، واستخلف بأصفهان نائبا عنه فى طائفة من(٧٥) الجند ولم يكد يبعد السلطان مسعود عن المدينة حتى ثار أهلها بتحريض من علاء الدولة كاكويه — حاكمهم السابق — بالوالى الغزنوى عليهم وقتلوه ، وفتكوا بجنده ، ولما بلغ مسعود عصيان أصفهان وتنكيلهم برجاله ، أنكر ذلك ، وعاد اليها وحاصرها ، وفتحها عنوة ، ونكل بالثوار ، واستخلف عليها واليا عادلا(٧٦) .

---

(٧١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٤٣٢ هـ ·
(٧٢) تاريخ البيهقى ص ٧٥١ ·
(٧٣) نفس المصدر ص ٧٥٦ ·
(٧٤) هو ابو جعفر بن شمنزيار ·
(٧٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ ·
(٧٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٧٩ ·

كذلك طمع فناخسرو بن مجد الدولة بن بويه فى استعادة الرى لما نمى الى علمه خبر وفاة السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م اذ جمع جيشا كبيرا سار به الى الرى غير أن والى السلطان مسعود على هذه البلاد ألحق الهزيمة بالأمير البويهى ، ورده على أعقابه خاسرا(٧٧) . كما أن علاء الدولة كاكوية جمع جيشا كبيرا سار به الى أصفهان وملكها ، واستولى على همذان وغيرها من البلاد ، وانتزع الرى كذلك . ولم يكتف بذلك بل سار الى خوار الرى(٧٨) ودنباوند(٧٩) ، واستولى عليهما من حاكمهما أنو شروان بن منوجهر بن قابوس ، فاستنجد بالسلطان مسعود ، فأرسل جيشا من خراسان استعاد دنباوند وخوار الرى ، وحاصر الجيش الغزنوى بعد ذلك الرى ، وضيق عليها الحصار حتى فر علاء الدولة بن كاكويه من الرى ودخل الجيش الغزنوى المدينة ، وأقر الأمور فيها ، وعادت الرى الى الولاء والطاعة للسلطان الغزنوى(٨٠)

على أن علاء الدولة كاكويه لم يكف عن العصيان على الرغم من الهزائم التى لحقت به ، فسير اليه السلطان مسعود جيشا لاحباط مؤامرته ضد الدولة الغزنوية بقيادة على بن عمران ، وباغت أنصار علاء الدولة فى همذان ، وهزمهم شر هزيمة ، وأسر كثيرا منهم ، واستولى على أموالهم وأسلحتهم ، على أن هذه الهزيمة لم تفت فى عضد علاء الدولة اذ عاد الى الثورة من جديد منتهزا فرصة عودة قائد الجيش الغزنوى على بن عمران عن همذان ، وانقض عليها وملكها . ولما سار على بن عمران الى أصفهان لاخضاع الثوار أنصار علاء الدولة واستعادة السيطرة الغزنوية عليها(٨١)، لم يمكنه أهلها من تحقيق مراده فعاد عنها ، على أنه التقى بعلاء الدولة . وحدثت حروب ضارية بينهما ، أدت الى هزيمة الجند الغزنوى(٨٢) وعاد على بن عمران مع القوات الغزنوية الى خراسان ، فسار تاش فراش — الوالى الغزنوى على خراسان — مع على بن عمران الى أصفهان(٨٣) ،

---

(٧٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ ٠

(٧٨) مدينة كبيرة من أعمال الرى (ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ١٢١ ٠

(٧٩) جبل من نواحى الرى (ياقوت ٠ معجم البلدان جـ٧ ص ٧٩) ٠

(٨٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ ٠

(٨١) ابن الأثير ٠ الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٣ هـ ٠

(٨٢) نفس المصدر حوادث سنة ٤٢٣ هـ ٠

(٨٣) تاريخ البيهقى ص٤١٦ ٠

والتقى الغزنويون مع علاء الدولة بالقرب من أصفهان . وهزموه شر هزيمة، فمضى علاء الدولة الى أصفهان . وتحصن فيها ، وأعد العدة لمنع القوات الغزنوية من دخولها(٨٤) .

اعتزم السلطان مسعود التخلص من علاء الدولة كاكويه الذى سيطر على بعض بلدان الدولة الغزنوية ، ووقف فى وجه كل المحاولات التى بذلت لاخضاعه وأرسل جيشا آخر من خراسان بقيادة أبى سهل الحمدونى والتقت القوات الغزنوية ، مع قوات علاء الدولة فى معركة حامية الوطيس ، دارت فيها الدائرة على علاء الدولة(٨٥) ، وتحصن فى جبل بالقرب من أصفهان فأرسل اليه أبو سهل الحمدونى يعرض عليه الأمان . والكف عن التمـرد والعصيان ، ومنحه بعض البلاد ، واصلاح حاله مع السلطان مسعود ، لكن علاء الدولة لم يقبل الخضوع للدولة الغزنوية ، وظل على عصيانه ، فسار أبو سهل الحمدونى الى أصفهان واستولى عليها من أنصار علاء الدولة . ونهب أبو سهل خزائنه(٨٦) .

ظل علاء الدولة كاكويه يتحين الفرص للعودة الى أصـفهان ، ففى سنة ٤١٧هـ/١٠٣٥م باغت الجنـد الغزنوى بالقرب من أصفهان وألحـق بهم الهزيمة ، وجمع جمعا من الديلم(٨٧) ، وسار الى أصفهان . واشتبك مع القوات الغزنوية فى معركة هزم فيها مرة أخرى ، ففارق أصفهان وهو لا يلوى على شىء(٨٨) . وبذلك هدأت أصفهان وعادت الى الولاء والطاعة لسلطان غزنه بعد أن أقلقت الدولة الغزنوية سنين عددا(٨٩) .

ولم تسلم الرى من الضر والأذى الذى لحق بهـا من الخارجين على الدولة الغزنوية ، ففى سنة ٤٢٤هـ/١٠٣٢ سار شبهر بوش بن ولكين — صاحب ساوه(٩٠) وقم(٩١) — الى الرى وحاصرها . غير أن الجند الغزنوى

---

(٨٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص٣٧٩ .
(٨٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٥ هـ .
(٨٦) تاريخ البيهقى ص ٤١٦ ـ ٤١٧ .
(٨٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٧ هـ .
(٨٨) تاريخ البيهقى ص ٥٣٠ .
(٨٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨٠ .
(٩٠) مدينة حسنه بين الرى وهمذان (ياقوت : معجم البلدان ج٦ ص ٢١) .
(٩١) من أعمال الرى (ياقوت . معجم البلدان ج٦ ص ٢٩٦).

صد هجماته عن الرى ، نعاد عنها . ولم يكتف بذلك بل اعترض طريق الحجاج القادمين من خراسان ، وسامهم ســوء العــذاب ، ونهب أموالهم وأمتعتهم . ولما علم السلطان مسعود بذلك ، أرسل جيشا لاخضــاع هذا المتمرد(٩٢) ، ولما قصده الجيش الغزنوى ، لجأ الى قلعة قريبــة من تم حصينة عالية المكان ، وثيقة البنيان ، فأحاطوا به وقبضوا عليه(٩٣) ، وأمر مسعود باعدامه . وبذلك أمنت الرى والبلاد المجــاورة لها من شر هــذا الرجــل .

غير أن الرى تعرضت لفتنة أخرى قام بها رجل من آل بويه فقد أرسل رسولا الى الحسن بن سليمان — الوالى الغزنوى على الرى — يطلب منه الاعتراف به أميرا على الرى ، وانضم نفر من أهل الرى الى البويهى ، واشتبكوا معه فى عدة معارك مع الوالى الغزنوى ، رجحت فيها كفة الثوار أكثر من مرة ، غير أن الحسن بن سليمان وجنده انتصروا على البويهى ، ونكلوا بالثوار . وعلى ذلك هدأت الرى وفشلت الفتنة البويهية التى كادت تهدد النفوذ الغزنوى فى هذا البلد(٩٤) .

كذلك لم يأل السلاطين الغزنويون جهدا فى القضاء على حركات التمرد والعصيان التى قامت ضدهم فى طبرستان وجرجان فقد استغل دارا بن منوجهر بن قابوس — والى طبرستان وجرجــان من قبــل الغزنويين — انشغال السلطان مسعود سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م ببعض الغزوات فى الهند والشغب الذى أحدثه الغز فى خراسان ، وأعلن العصــيان ، وامتنع عن ارسال الأموال المقررة على ولايته الى غزنه ، وراسل علاء الدولة كاكويه ، وقوى أمره ، فلما انتهى السلطان مسعود من غزواته فى الهند وأخضع الغز فى خراسان ، تفرغ للقضاء على تمرد والى طبرستان وجرجان ، فسار الى جرجان واستعادها ، ثم اتجه الى آمل وطبرستان(٩٥) ، ففارقها واليها ، وتحصن مع جنده فى الغياض والأشجار الملتفة ، ضيقة المدخل ، الوعرة المسالك ، فسار اليهم السلطان مسعود ، واقتحمها عليهم وهزمهم ، ولما

---

(٩٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٤ هـ .
(٩٣) تاريخ البيهقى ص ٣٨٣ .
(٩٤) تاريخ البيهقى ص ٤٩١ هـ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٠ .
(٩٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

رأى دارا ان لا قبل له بمسعود ، طلب منه العفو والصفح ، فعفا عنه ، وأعاده الى ولايته(٩٦) . وبذلك فشل دارا فى الاستقلال عن الدولة الغزنوية .

كذلك انتفض أهل كرمان على الحكم الغزنوى لأن الجند الغزنوى عبثوا بأموالهم وممتلكاتهم ، وارتكبوا المظالم ، فذهب وفد من أهل كرمان الى بغداد ، واستنجدوا بالأمير البويهى فى الحاضرة العباسية وطلبوا منه تخليصهم من نير الغزنويين ، فبعث الأمير البويهى جندا الى كرمان ، انضم اليهم أهلها ، واشتبكوا فى معارك مع الجيش الغزنوى انتهت بهزيمته ، وطرد الوالى الغزنوى(٩٧) .

كان لاشتداد أمر الأتراك السلاجقة فى خراسان أثر كبير فى ظهور حركات التمرد والعصيان فى البلاد الغزنوية . فقد شق أهل طوس وأبيورد عصا الطاعة على السلطان مسعود ، وأحدثوا الشغب فى دولته ، وساروا الى نيسابور . ونكلوا بأهلها ، ونهبوا أموالهم .(٩٨) فسار أمير كرمان الغزنوى الى نيسابور ، واشتبك مع العابثين من أهل طوس وأبيورد وأسر كثيرا منهم ، وصلبهم على الأشجار . ولم يكتف بذلك ، بل أحضر زعماء قرى طوس ، وأخذ أولادهم واخوانهم رهائن ، أودعهم السجون . وقال : ان اعترض منكم واحد الى أهل نيسابور وغيرهم أو قطع طريقا ، فأولادكم واخوانكم ورهائنكم مأخوذون بجناياتكم . وبذلك هدأت طوس وأبيورد ، وأمنت نيسابور من شرور العابثين(٩٩) .

ولم تنعم البلاد الهندية التابعة للدولة الغزنوية بالهدوء والاستقرار فى عهد السلطان مسعود ، فقد ثار عليه أحمد بن ينالتكين ، وكان السلطان محمود قد استنابه فيها ، ثقة بجلده ، فرسخت قدمه فيها ، وظهرت كفايته ومقدرته على ضبط الأمور فى هذه النواحى . ولما ولى السلطان مسعود الحكم . أبقى ابن ينالتكين فى ولايته . لكن هذا النائب انتهز فرصة رحيل السلطان مسعود عن غزنه وأعلن الاستقلال والانفصال عن الدولة

---

(٩٦) تاريخ البيهقى ص ٤٩١ .
(٩٧) تاريخ البيهقى ص ٤٥٨ .
(٩٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٥ هـ .
(٩٩) تاريخ البيهقى ص ٤٥٣ ــ ٤٥٥ .

الغزنوية(١٠٠) والتف حوله كثيرون ، ولما علم مسعود بحركة تمرد هـذا الوالى ، عاد الى ، غزنه ، معتزما المسير الى الهند لاخضـاع أحمـد بن ينالتكين لسلطانه ، وأعد جيشا كبيرا لتحقيق هذه الغاية ، وسـار على رأسه ، واشتبك مـع أحمد بن ينالتكين فى معركة دارت فيها الدائرة على هذا الوالى(١٠١) ، ولما أيقن أحمد بن ينالتكين عدم استطاعته الخروج على الدولة الغزنوية ، طلب من السلطان مسعود العفو والصفح ، فعفا عنه ، وعاد ابن ينالتكين الى الطاعة والولاء للسلطان الغزنوى ،وأبقاه السلطان مسعود فى ولايته ، ولما اطمأن مسعود الى استقرار الأمور فى هذه البـلاد الهندية ، سار الى قلعة سرستى ، وانتزعها من أصحابها الهنود ، وضمها الى حوزته(١٠٢) .

على أن أحمد بن ينالتكين لم يبق على ولائه للدولة الغزنوية ، بـل تحين الفرص من جديد للخروج عليها ، والاسـتقلال بالبلاد الهندية التى يحكمها من قبل السلطان الغزنوى ، فأعد جيشا كبيرا حتى عظمت قوته ، واشتد بأسه فى هذه الديار ، وأعلن الخروج على غزنه من جديد ، فسـير السلطان مسعود اليه جيشا قويا باغت هذا الثائر وهزمه(١٠٣) ، ففـر أحمد بن ينالتكين من وجه القوات الغزنوية ، وكانت ملوك الهند تمنعه من الدخول الى بلادهم ، وسد منافذ هربه ، فمضى الى الملتان ، وقصده بعض ملوك الهند فى مدينة بهاطيه(١٠٤) ولحق به جمع كثير من أنصاره ، لكن الجيش الغزنوى لحق به وأوقع به هزيمة أخرى ، قتل فيها ، وتشتت شمل قواته . ومزقوا شر ممزق ، وبذلك استقرت الأمور فى بلاد الهند الغزنوية ، بعد عودتها الى الطاعة والولاء ، وفشل حركة التمرد والعصيان(١٠٥) فيها .

سار السلطان مودود بن مسعود على سياسة أبيه فى المحافظة على ممتلكات الدولة الغزنوية فى الهند والوقوف بحزم وشدة فى وجه الخارجين عليها ، والعمل على توطيد الأمن والنظام فيها ، ففى سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م

---

(100) Lane Poole : Medieval India under Modammedan Rule. p. 40.

(١٠١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٤ هـ .

(١٠٢) تاريخ البيهقى ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص٣٨٠ .

(١٠٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

(١٠٤) تاريخ البيهقى ص ٤٤٨ .

(١٠٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٠ .

اجتمع ثلاثة من ملوك الهند ، وقصدوا لاهور وحاصروها وضيقوا عليهـا الحصار ، ولما فشل قائد القوات الغزنوية فى تلك الجهات فى مقاومة هؤلاء الملوك أرسل الى السلطان مودود يطلب منه النجدة على أعدائه ، فأرسل السلطان مودود جيشا الى الهند ، وروع هؤلاء الملوك لما علموا بزحف جند الدولة الغزنوية الى بلادهم ، ففارقوا لاهور ، وأعلن واحد منهم الطاعـة والولاء للسلطان الغزنوى ، أما الملكان الآخران ، فقد سار الجند الغزنوى فى أثر أحدهما — ويدعى دوبال — وألحقوا به هزيمة(١٠٦) منكرة ، فـر على أثرها الى احدى القلاع ، وتحصن بها ، فحاصره الجيش الغزنوى ، وضـيق عليه الحصـار ، حتى طلب الأمان ، فأمنه الجيش الغزنوى ، واستولى على الحصن وعلى بعض القلاع التابعة(١٠٧) له ، وغنم المسلمون من هذه الغزوة مغانم كثيرة ، وعاد دوبال بعد هذه الهزيمة الى الطـاعة والولاء لسلطان غزنة ، وأطلق المسلمون من الحصون التى استولوا عليها ما يقرب من خمسة آلاف أسير من المسلمين(١٠٨) .

لما فرغ الغزنويون من أمر هذا الملك ، اتجهوا الى الملك الآخر واسمه ثابت ، فتقدم اليهم ، واشتبك مع القوات الغزنوية فى عدة معارك انتهت بانتصار الغزنويين على أعدائهم ، وقتل ملكهم وغنم المسلمون سـلاحهم وأموالهم ، ومن ثم عاد أنصار هذا الملك الى الطاعة للدولة الغزنوية ، ولما رأى باقى الملوك فى الهند ما لقيه هؤلاء المخالفون من الفشل والخذلان أذعنوا للسلطان مودود ، وأرسلوا اليه الأموال ، وطلبوا منه الأمان ، واقرارهم على ما بيدهم من البلدان ، فأجابهم الى ذلك(١٠٩) .

ولم يكن حكـام الأقاليم الغزنوية هم الذين أقلقوا الدولة بحركاتهم الانفصالية ، بل تعرضت الدولة لانتفاضات شعبية قامت بها بعض الشعوب الخاضعة لغزنة ، ومن بينها الأفغان والغور ، وأنصار المذهب الشـيعى المناهض لمذهب الدولة الغزنوية السنى ، ففى سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م كان الغور يقطعون الطريق ويخيفـون السبيل ، ويتخـذون من بلادهم الجبلية الوعرة ، ومناورهم الغلقة معصما لهم ، فلما كثرت اغاراتهم ، واستطار

---

(١٠٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٥ هـ .
(١٠٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٣٨١ .
(١٠٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٥ .
(١٠٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٥ هـ

شرهم ، آنف السلطان محمود الغزنوى أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه . وهم على هذا الحال من الفساد والكفر ، فعول على اخضاعهم ، نسار على رأس جيش كبير يجمع خيرة(١١٠) قواده وانتهى الى مضيق قد شحن بالمقاتلة من الغور ، واشتبك الفريقان فى معركة رهيبة ، هزم فيها السلطان محمود أعداءه(١١١) ، وملك عليهم مسالكهم ، فتشتت شملهم ، وسار الجيش الغزنوى الى ابن سورى — زعيم الغور — فانتهى الى مدينته التى تعرف آهنكران ، فبرز من المدينة فى عشرة آلاف مقاتل ، وقاتل الجند الغزنوى ، فرأى السلطان محمود أقوى الناس على القتال(١١٢) ، لذلك أمر جنده أن يولوهم الأدبار على سبيل الاستدراج ، ولما ظن الغور أن ذلك هزيمة ، ساروا فى اثر الجند الغزنوى حتى ابتعدوا عن مدينتهم(١١٣) حينئذ انقض الجند الغزنوى عليهم ووضعوا السيوف فيهم ، فأبادوهم قتلا وأسرا ، وكان من بين الأسرى زعيم الغور ، ودخل المسلمون المدينة واستولوا عليها وغنموا ما فيها ، وامتلكوا قلاعهم وحصونهم(١١٤) ، ونشر السلطان محمود الاسلام بين الغور ، وأبقى فيهم من يعلمهم شرائعه(١١٥) ، وبذلك أمنت الدولة الغزنوية من عصيان الغور الذين ألحقوا الكثير من الضرر والأذى برعايا الدولة الغزنوية .

ولم تكن الأفغان أقل خطرا من الغور ، فقد كانوا يقطنون الجبال القريبة من غزنه ، ويقطعون الطرق المؤدية لها ، فعول السلطان محمود بن سبكتكين على اخضاعهم اذ قصد سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م بلادهم ، وسلك مضايقها . وفتح مغالقها ، وخرب عامرها ، وغنم أموالهم ، وأكثر القتل فيهم والأسر ، لذلك عاد الأفغان الى الهدوء والطاعة لغزنه(١١٦) .

كذلك حرص السلطان محمود على الوقوف بشدة وحزم فى وجه الحركات الدينية المناهضة للسنة ، حتى لا يؤثر ذلك على تماسك بنيان دولته ، فلما نمى الى علمه أن أبا الفتوح — والى الملتان — دعا قومه الى

---

(١١٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠١ هـ .
(١١١) العتبى : تاريخ اليمينى جـ٤ ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .
(١١٢) تاريخ البيهقى ص ١١٨ ـ ١٢٠ .
(١١٣) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٢ .
(١١٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٦٩ .
(١٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٩ هـ .
(١١٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٧٢ .

اعتناق المذهب الشيعى الذى يعتنقه أجابوه ، وانضموا اليه فى الوقوف من السلطان محمود موقفا عدائيا . فرأى السلطان محمود ضرورة التخلص من والى الملتان حتى لا يحدث فتنة مذهبية فى دولته ، فسار نحوه ، ولما رأى الأنهار التى فى طريقة كثيرة الزيادة ، عظيمة المد أرسل الى أندبال — أحد ملوك الهند — يطلب منه أن ييسر له عملية العبور ببلاده الى الملتان : فلم يجبه أندبال الى طلبه ، فابتدأ به قبل الملتـان ، وقال : نجمع بين غزوتين ، ودخل بلاده وجاسها ، وعاث الجند الغزنوى فيها نهبا وتخريبا ، أما أندبال فقد لاذ بالفرار ، ولما سمع أبو الفتوح — والى الملتان — بخبر زحف قوات السلطان محمود الى بلاده ، أيقن أن لا طـاقة بالجند(١١٧) الغزنوى ، وأخلى الملتان — ولما بلغ السلطان محمود الملتان رأى أن أهلها قد أعدوا العدة لقتاله ، وصده عن بلادهم ، وأنهم على مذهبهم مستمسكين، فحاصرهم ، وضيق عليهم ، حتى استطاع فتح الملتان(١١٨ عنوة ، واستسلم له أهلها ، وألزمهم غرامة عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم ، كما أرغمهم على التحول الى المذهب السـنى ، وبذلك عادت الملتـان الى الـولاء والطاعة(١١٩) .

ب — الأحـداث الداخليـة :

لم يتخذ السلاطين الغزنويون سياسـة ثابتة فى تولية من يخلفهم فى الحكم ، مما أدى الى حدوث منازعات بين ابناء بيت سـبكتكين حول ولاية السلطنة .

فلما شعر ناصر الدولة سبكتكين بدنو أجله سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م عهد الى ابنه اسماعيل بالحكم من بعده على الرغم من أن ابنه محمود أكبر أبنائه سنا، وأمر قواده وجنده بطاعة اسماعيل(١٢٠) ، والالتفاف حوله، ولما توفى سبكتكين بويع اسماعيل بالسلطنة خلفا لأبيه فاستقر فى الملك . وأطلق الأموال للجند، فطابت نفوسهم من ناحيته ووقفوا الى جانبه(١٢١).

---

(١١٧) تاريخ البيهقى ص ٦١٣ .

(١١٨) العتبى تاريخ اليمينى . جـ١ ص ٧٢ ـ ٧٥ .

(١١٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٦٦ .

(١٢٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٨٩هـ .

(١٢١) خوندمير : حبيب السير جـ ص ١٩ .

على أن محمود بن سبكتكين — الذى كان فى نيسابور وقت وفاة أبيه — لم يرض عن اتصائه عن الحكم وتولية أخيه اسماعيل بدلا منه ، فأرسل الى أخيه اسماعيل يذكره بأنه أحق منه فى تولى الحكم لأنه أكبر منه سنا، وطلب منه مشاركته فى الحكم . وقال : « ان أبى لم يستخلفك دونى الا لكونك كنت عنده ، وأنا كنت بعيدا عنك ، ولو أوقف الأمر الى حضورى ، لفاتت مقاصده ، ومن المصلحة أن نتقاسم الأموال بالميراث ، فتكون أنت مكانك فى غزنة ، وأنا بخراسان ، وندير الأمور ، ونتفق على المصالح ، فلا يطمع فينا عدو ، ومتى ما ظهر للناس اختلاف طمعوا فينا(١٢٢) .

على أن اسماعيل رفض طلب أخيه ، وأبى الا الاستئثار بحكم الدولة الغزنوية ، ولم يكن حازما ، لذلك طمع فيه الجند وطالبوه بالمال الكثير فاستنفد خزائن الدولة فى مرضاتهم(١٢٣) ، أما محمود بن سبكتكين فقد عول على انتزاع الحكم لنفسه بالقوة بعد أن رفض أخوه اسماعيل مشاركته فى الحكم ، وانضم الى محمود عمه بغراجق ، وسار بصحبته الى بست ، وبها أخوه الأمير نصر ، فانضم هو أيضا الى محمود ، ورحل محمود الى غزنه « فى عمه وأخيه ، وسائر أوليائه ومواليه » ولما علم اسماعيل بوجهة محمود خرج من غزنه لصد أخيه عنها ، وفشلت جهود السفراء فى عقد الصلح بين الأخوين ، ولم يعد هناك مناص من القتال ، ودارت حرب بين محمود واسماعيل(١٢٤) ، وانتهت بانتصار محمود على أخيه ، فلجأ اسماعيل الى قلعة غزنه ، وتحصن بها فحاصره محمود ، وضيق عليه الحصار حتى طلب الأمان ، فأمنه محمود ، ونزل من القلعة ، وأحسن اليه ، وتنازل اسماعيل عن الحكم لأخيه محمود(١٢٥) بعد حكم دام سبعة أشهر(١٢٦) ، وولى محمود السلطنة(١٢٧) وهكذا استطاع محمود أن ينتزع حقه فى استخلاف أبيه .

---

(١٢٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٤ ص ٢٦٢ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٢٦٣ .
(١٢٣) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .
(١٢٤) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .
(١٢٥) أبو الفدا المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ١٤٠ .
(١٢٦) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص٢٩٠—٢٩١ .
ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٠ — ٢١١ .
(١٢٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٨٩ هـ .

وقد ذكر العتبى(١٢٨) ان الخليفة العباسى القادر بالله أرسل خلعا الى محمود بن سبكتكين لم يسمع بمثلها مع رسول من دار الخلافة ، ولقبه فى الكتاب الذى قلده فيه حكم الدولة الغزنويه « يمين الدولة وأمين الملة » . فتبوأ محمود سرير الملك وأذاع شعار الطاعة لأمير المؤمنين . وبذلك قوى نفوذه . وعظم سلطانه واكتسب حكمه الصفة الشرعية .

كذلك أحدث السلطان محمود بن سبكتكين فى ولاية العهد ما أحدثه أبوه ، فلم يعهد الى ابنه الأكبر مسعود ، انما عهد الى ابنه محمد ، ذلك لأن السلطان محمود كان مستاءا من ابنه مسعود ، لأن أمره لم يكن عنده نافذا ، وسعى بينهما أصحاب الأغراض فزاد أباه نفورا منه . ولما توفى السلطان محمود سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠ كان محمد ببلخ(١٢٩) ، فأرسل اليه أعيان الدولة يخبرونه بموت أبيه ووصيته له بالملك ، ويطلبون منه سرعة القدوم لتولى السلطنة ويحذرونه من نوايا مسعود اذا تباطأ فى القدوم الى غزنه فأسرع محمد الى غزنه ، وولى السلطنة ، وأجمع رجال الدولة على طاعته، وفرق فيهم الأموال والخلع النفيسة ، وأقيمت له الخطبة من أقاصى الهند الى نيسابور(١٣٠) .

كان مسعود بن محمود فى أصفهان اثناء وفاة أبيه ، فلما علم بتولى اخيه محمد الحكم دونه ، عظم ذلك عليه وأنكره ، فاستخلف فى أصفهان بعض ثقاته على طائفة من الجند ، واتجه الى غزنه ، وكتب الى أخيه محمد يطلب منه الموافقة على أن يمنحه حكم بعض بلدان الدولة الغزنوية مثل طبرستان وبلاد الجبل وأصفهان ، وأن يقدمه فى الخطبة على نفسه ، لكن محمدا رفض طلب أخيه ، وسار على رأس جيش كبير عن غزنه لملاقاة أخيه مسعود واخضاعه(١٣١) .

ولما بلغ السلطان محمد مدينة تكيناباد ، ثار عليه جنده . وكان فريق منهم يميل الى أخيه مسعود لكبره وشجاعته ، وعظم بلائه ، وخلعوا طاعة

---

(١٢٨) تاريخ اليمينى جـ١ ص ٣١٧ .

(١٢٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(١٣٠) نفس المصدر ، حوادث سنة ٤٢١ م .

(١٣١) تاريخ البيهقى ص ٢١ .

خوندمير . حبيب السير جـ٢ ص ٢٦ .

محمد ، وقبضوا عليه فى قلعة تكيناباد ، وأعلنوا ولاءهم لمسعود ، وأرسلوا اليه يطلبون منه سرعة القدوم لتسلم السلطنة ، وقالوا : ان محمدا لا يستطيع القيام بالأمر لانصرافه الى اللهو والعبث ، وأن على مولانا الذى هو ولى عهد أبيه فى الحقيقة ، أن يسارع رابط الجاش ، قرير العين الى قاعدة ملكه(١٣٢) .

سار مسعود الى غزنه ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م ، وخرج الناس جميعا الى حدود غزنه لاستقباله ، ولما قدم اليها جلس على كرسى الحكم ، واستقبل فى حفل مهيب ، وقدم له العلماء والفقهاء والأعيان التهانى والتعازى ، ووعد مسعود بالعدل بين الرعية ، والنظر فى المظالم ، وأخرج الوزير أحمد بن حسن الميمندى الذى كان وزير أبيه — من سجنه ، واستوزره ، ورد الأمر اليه(١٣٣) .

ولما استقرت الأمور للسلطان مسعود فى غزنه أرسل الخليفة العباسى اليه تقليدا بالحكم مع رسول دار الخلافة ، وجاء فى التقليد أن ناصر دين الله ، وحافظ بلاد الله أبا سعيد مسعود هو أعظم أركاننا وأقواها ، وأمره بأن يقضى على الزنادقة والقرامطة ، وأن يستولى على ما بيد أعدائه من البلاد(١٣٤) .

وأتته رسل الملوك من سائر الأقطار ، واجتمع له ملك خراسان وغزنه وبلاد الهند وسجستان وكرمان ومكران والرى وأصفهان وبلاد الجبل وغير ذلك ، وعظم سلطانه ، وخيف جانبه(١٣٥) .

على أن محمد بن محمود عاد الى تولى السلطنة الغزنوية بعد عشر سنوات من عزله عنها ، ففى شتاء عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م توجه السلطان مسعود الى الهند كعادته فى كل شتاء فى صحبة أخيه محمد ، فلما عبر السلطان مسعود نهر سيحون ، ثار غلمان مسعود عليه وعزلوه ، ونادوا بأخيه محمد سلطانا ، وقبضوا على مسعود وسجنوه فى احدى القلاع

---

(١٣٢) تاريخ البيهقى ص ٦ .
(١٣٣) خوندمير . حبيب السير ص ٢٦ ـ ٢٧ .
(١٣٤) تاريخ البيهقى ص ٣٦٠ ـ ٣٩٣ .
(١٣٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٧٨ .

المجاورة للنهر . ولم يلبث أن اغتيل السلطان مسعود بتحريض من أبناء أخيه محمد حتى تصفو السلطنة لأبيهم ، وعاد الى غزنة ، وولى السلطنة . وفوض أمر دولته الى أبنه أحمد(١٣٦) .

لم يتغاض مودود بن مسعود ازاء ما حل بأبيه من النهب والعزل والقتل ، بل عول على الانتقام من قتلته ، واستعادة السلطنة من عمه(١٣٧) : فغادر خراسان — وكان بها يقاتل السلاجقة — الى غزنه ، فخشى عمه السلطان محمد من انتقامه : فأرسل اليه — أى مودود — يتبرأ من قتل مسعود ، ويتهم أولاد أحمد بن ينالتكين ، فأرسل اليه مودود يقول : أطال الله بقاء الأمير القاسم ، ورزق ولده المعتوه أحمد عقلا يعيش به ، فقد ركب أمرا عظيما ، وأقدم على اراقة دم ملك مثل والدى الذى لقبه أمير المؤمنين « سيد الملوك والسلاطين ، وستعلمون فى أى حتف تورطتم ، وأى شر تأبطتم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »(١٣٨) .

سار مودود بن مسعود — كما قلنا — الى غزنه على راس جيش كبير فى وقت لم يستطع عمه السلطان محمد السيطرة على مقاليد الأمور فى الدولة : طمع جنده فيه ، وزالت عنهم هيبته ، ونهبوا أموال الناس : وعاثوا فى البلاد الغزنوية نهبا وخرابا حتى غادر الكثير من الأهلين ديارهم. لذلك لما بلغ مودود غزنه لم يكن من الصعب عليه انتزاع السلطنة من عمه الذى ضعف أمره فاشتبك معه فى معركة هزمه فيها ، وقتله ، ونكل ممن اشترك فى مؤامرة اغتيال أبيه ،(١٣٠) ولكى يخلد ذكرى أبيه مسعود شيد فى الموضع الذى قتل فيه قرية ورباطا ، وسماها فتح أباد ، وولى السلطنة فى شعبان ٤٣٢ هـ سنة ١٠٤٠ م واستوزر أبا نصر وزير أبيه ، وأظهر العدل وأحسن الى الرعية ، وسلك سيرة جده محمود . وبذلك أحبط مودود بمقدرته وشجاعته مؤامرة نقل الحكم الى بيت عمه محمد واحتفظ لنفسه بحقه فى وراثة أبيه فى الحكم(١٤٠) .

---

(١٣٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ هـ .
خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٣٠ .
(١٣٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٥ .
(١٣٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ هـ.
K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 33.
(١٣٩) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ١٧٣ .
(١٤٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ هـ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٥ .

على أن الحكم لم يستقر لمودود بعد تخلصه من أمراء بيت سبكتكين الذين انتزعوا السلطنة من أبيه . فقد طمع أخوه مجدود فى الحكم ، ولم يرضخ لطاعة أخيه السلطان مودود وكان فى الهند وقت تولية أخيه السلطنة . فسار الى لاهور والملتان وامتلكهما ، وأعد لنفسه جيشا كبيرا لتحقيق أطماعه الرامية الى الاستقلال ببعض بلدان الدولة الغزنوية ، ونقض طاعة أخيه ، على أن السلطان مودود لم يقف مكتوف اليدين ازاء تمرد أخيه مجدود ، بل اعتزم اخضاعه ، وتوحيد بلاده تحت رايته ، فسير جيشا كبيرا الى الهند لاحباط محاولة أخيه لاستقلالية فى مهدها(١٤١) ، لكن القدر حال بين الأخوين وبين الاشتباك فى قتال ، فقد توفى مجدود قبل أن يصله جيش أخيه . وبذلك عادت الى الدولة الغزنوية وحدتها ، وأطاعت بلدانها السلطان مودود . ورست قدمه فى الملكة بفضل شجاعته وحزمه وعدله بين الرعية . وعظمت هيبته حتى أن السلاجقة خشوا بأسه . وراسله ملك الترك فى بلاد ما وراء النهر بالانقياد والمتابعة(١٤٢) .

ساءت العلاقات بين أمراء بيت سبكتكين ، وضعفت الثقة بينهم ، حتى أن الأمير منهم اذا ولى السلطنة كان يودع بعض الأمراء الذين يتوجس منهم خيفة على سلطانه فى السجون لكى يصفو له الملك ، على أن هذه السياسة كانت نتيجتها عكسية ذلك أن الأمراء المعتقلين وأعوانهم كانوا يعملون على التخلص من السلطان القائم بالأمر ، فلما توفى مودود بن مسعود سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م خلفه ابنه مسعود ــ وكان غرا صغيرا ــ ثم عدل الناس عنه الى عمه على بن مسعود ، فطمع عبد الرشيد بن محمد(١٤٣) فى الحكم ، ففر من سجنه الذى كان قد أودعه فيه السلطان مودود على مقربة من غزنة ، ودعا الجند الى المناداة به سلطانا بدلا من على بن مسعود فأجابوه ودخل غزنة ، ففر منها على بن مسعود وتربع عبدالرشيد على عرش السلطنة ، واستقر له الأمر ، ولقب شمس دين الله ، سيف الدولة(١٤٤)، وهكذا انتزع عبد الرشيد السلطنة لنفسه فى سهولة ويسر .

بلغ الانقسام بين أمراء بيت سبكتكين حدا جعل الطمع فى الوصول الى

---

(١٤١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ .
(١٤٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٤١ هـ .
(١٤٣) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٣١ .
(١٤٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٧

الحكم لا يقتصر على بنى سبكتكين وحدهم بل تجاوزه الى حجاب القصر . فنى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م(١٤٥) حدثت طغرل — أحد حجاب مودود — نفسه بتولى السلطنة . وانتزاعها من السلطان عبدالرشيد ، فقبض طغرل على عبد الرشيد وقتله ، واستولى على غزنة ، وتزوج ابنة السلطان مسعود كرها كيما يقترب بهذا الزواج الى بيت سبكتكين ، وأعلن نفسه سلطانا ، لكن خرخيز — أحد قادة عبدالرشيد الأوفياء — عول على احباط مؤامرة طغرل ، واعادة الحكم الى بنى(١٤٦) سبكتكين ، وكتب الى زوجة طغرل ابنه مسعود ، وسائر القواد يستنكر قيام طغرل بقتل السلطان عبد الرشيد ، وانتزاع الحكم لنفسه على الرغم من أنه لا يمت للبيت الحاكم — صاحب الحق الشرعى فى الحكم — بصلة ، ودعاهم للأخذ بثأر عبد الرشيد ، والعمل على التخلص من طغرل(١٤٧) وكان لتحريض خرخيز أثر فعال على قواد غزنة ، حتى أنهم قبضوا على طغرل وقتلوه ، ولما بلغ خرخيز غزنة ، ودعا قادتها الى تولية أحد أمراء بيت سبكتكين السلطنة ، فأجمعوا على تولية فرخزاد بن مسعود بن محمود وكان سجينا فى بعض القلاع ، فأخرجوه من سجنه ، وأجلسوه على كرسى الحكم ، وبايعه الناس بالسلطنة ، وأقام خرخيز بين يديه يدبر أمور البلاد(١٤٨) ، وبذلك فشلت مؤامرة طغرل الرامية الى انتزاع الحكم من بيت سبكتكين لنفسه ، وبقى الحكم فى هذا البيت العريق .

وعلى الرغم من الأخطار الجسيمة التى تعرضت لها الدولة الغزنوية من جيرانها الأقوياء — السلاجقة — فان أمراء البيت الحاكم لم يكفوا عن التنازع فيما بينهم على السيادة والحكم ، بل استعانوا فى خلافاتهم بالسلاجقة الذين لم يألوا جهدا منذ عهد السلطان مسعود فى انتزاع بلدان الدولة الغزنوية(١٤٩) .

فلما توفى مسعود بن ابراهيم بن مسعود سنة ٥٠٩هـ/١١١٤م وخلفه

---

(١٤٥) ابن الأثير : الكامل التاريخ حوادث سنة ٤٤٤ هـ .

(١٤٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٧ .

(١٤٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٧ .

(١٤٧) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٣١ .

(١٤٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٩ هـ .

Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 352.

فى السلطنة ابنه أرسلان شاه ، قبض على اخوته وسجنهم(١٥٠) لأنه أساء الظن فى نواياهم نحوه ، واعتقد أنهم يتآمرون عليه . فاستنكر ذلك أخوه بهرام . وسعى الى التخلص من حكم أرسلان شاه ، واستعان على أخيه بالملك السلجوقى سنجر، وطلب منه أن يساعده على التخلص منه ، وتوليته السلطنة بدلا منه ، فاستجاب له سنجر ، وسير جيشا كثيفا الى غزنة لانتزاعها من سلطانها ، ولما اقترب سنجر من غزنة ، خرج أرسلان شاه لملاقاته فى جمع كثير من خيرة جنده ، ودارت رحى معركة عنيفة بين الفريقين ، انتصر فيها السلطان سنجر ، ودخل غزنة ومعه بهرام شاه . فخلع سنجر أرسلان شاه من السلطنة ، وولى بهرام شاه . وأمر الملك سنجر بأن تقام الخطبة للخليفة والسلطان محمد والملك سنجر وبعدهم بهرام شاه ، وكان يخطب لسنجر بالملك ولبهرام شاه بالسلطنة ، وحصل أصحاب سنجر من الأموال ما لا يعد ولا يحصى من السلطان والرعايا ، وأقام سنجر بغزنة أربعين يوما حتى استقر بهرام شاه فى الحكم(١٥٤) وعاد الى خراسان وهكذا أدى الطمع فى الوصول الى الحكم الى أن يشعل أمراء بيت سبكتكين الحرب فيما بينهم ، بل ويستعين الواحد على أخيه بالسلاجقة، الذين كانوا يشكلون — كما قلنا — خطرا جسيما على استقلال وسيادة الدولة(١٥٥) الغزنوية .

على أن أرسلان شاه لم يركن الى الهزيمة ، وانما عول على استعادة سلطانه ، ففر الى هندوستان ، وكثر جمعه ، وعظم جنده بعد أن دعا أهلها الى طاعته ، وأخذ يتحين الفرص المناسبة للعودة الى غزنة ، واستردادها من سلطانها الجديد ، فلما غادر الملك السلجوقى سنجر غزنة ، وعاد الى خراسان ، توجه أرسلان شاه على رأس جيشه الى غزنة ، فرأى بهرام شاه أن لا طاقة له بأرسلان شاه وجنده ، فاستولى عليه الفزع والهلع ، وفر من غزنة ، ولجأ الى سنجر . وطلب منه العون فاستجاب له وأعاده الى مقر حكمه .

---

(١٥٠) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٣٢ .

(١٥١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٠٨ هـ .

(١٥٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٠٨ .

(١٥٣) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٣٣ .

(١٥٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٣٢ .

(155) Lane Poole : Medieval India under Mohammadan Rule. p. 45.

جـ ـ العلاقات الخارجية للدولة الغزنوية

١ ـ مع الخلافة العباسية :

ضعفت الدولة العباسية منذ بداية القرن الرابع الهجرى بسبب ازدياد نفوذ الأتراك ، واستئثارهم بالسلطة والنفوذ دون الخلفاء حتى أن سلطان الدولة العباسية لم يعد يتجاوز بغداد وضواحيها(١) وفى غضون ذلك ارتفع شأن بنى بويه ، ودخل أحمد بن بويه بغداد فى عهد الخليفة المستكفى سنة ٣٣٤هـ(٢) سنة ٩٤٥م حيث أكرم الخليفة وفادته ، ولقبه معز الدولة ، ولم يلبث هذا الأمير البويهى أن استأثر بالنفوذ فى الحاضرة العباسية دون(٣) الخليفة . وفى ذلك يذكر البيرونى(٤) أن الدولة والملك قد انتقل من آل العباس الى آل بويه .

وعلى الرغم من أن البويهيين استأثروا بالنفوذ السياسى دون الخلفاء العباسيين ، فانهم كانوا ينظرون اليهم على اعتبار أنهم رؤساء المسلمين ، واحتفظ هؤلاء الخلفاء بسلطتهم الدينية(٥) .

ظل البويهيون رغم تنازعهم على السلطة والنفوذ مسيطرين على شؤون بلاد فارس والعراق حتى ولى الملك الرحيم سنة ٤٤٠هـ سنة ١٠٤٨م فنازعه الأمراء البويهيون السيادة والحكم ، كما استفحل خطر

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية والشرق ص ٤٥ .

(2) Hitti : History of the Arabs. p. 464.

(3) Camb. Medieval History. Vol. p. 301.

(٤) الآثار الباقية عن القرون الخالية ص٣٣٢ .

(٥) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٢ .

البساسيرى(٦) فى بلاد العراق ، وتقرب بنو بويه من الفاطميين وانضم عدد كبير من الجند الأتراك والديلم الى دعوتهم ، فعمل السلاجقة — الذين ازداد نفوذهم فى شرق الدولة الاسلامية وضموا الى دولتهم الكثير من ممتلكات الدولة الغزنوية — على السيطرة على العراق(٧) ، ففى أوائل سنة ٤٤٨هـ سنة ١٠٥٥م أظهر طغرلبك أنه يريد الحج ، واصلاح طريق مكة المكرمة ، والسير الى الشام ومصر ، والقضـــاء على دولة العلويين بها ، وأذن له الخليفة العباسى القائم بدخول بغداد ، فأزال عنها الحكم البويهى ، وانتقلت السيطرة على مقاليد أمور الخلافة العباســـية من البويهيين الفـــرس الى السلاجقة الترك(٨) .

من هذا يتضح لنا أن الخـــلافة العباسية سواء فى عهد سيطرة بنى بويه عليها أو ابان الحكم السلجوقى لبلاد العراق لم تكن من القوة بحيث تستطيع السيطرة على البلدان التابعة لها ، لكن بقى نفوذها الدينى على أقاليمها ، فالدولة الغزنوية حرصت على اقامة الخطبة للخليفة ، ونقش اسمه على السكة ، والعمل بالتعاليم الدينية التى يقررها الخليفة ، لكن من الناحية السياسية ظلت الدولة الغزنوية مستقلة تمـــاما فى سياستها عن الخلافة العباسية .

ومما أدى الى تحسن العلاقات بين الخلافة العباسية والدولة الغزنوية

---

(٦) رئيس الأتراك فى بغداد استبد بالسلطة فيها حتى طغى نفوذه على الخليفة ، وتأثر بالدعوة الشيعية ، وانحاز الى الفاطميين بعد أن ساءت علاقته بالخلافة العباسية . وأمده الخليفة المستنصر بالمال والسلاح والخيل ، واستولى على بغداد وأقام فيهـا الخطبة للخليفة المستنصر ، وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة ، وبذلك سقطت الخلافة العباسية ، وأخذ يشن الغارات على بلاد العـراق ، ويقوى فيهـا النفـوذ الفاطمى ، فاستنجد الخليفة العباسى ورجال الدولة بطغرلبك السلطان السلجوقى — لاعادة الخلافة العباسية والتخلص من أعدائها فسار طغرلبك الى العراق ، ولم يستطع البساسيرى التصدى للسلطان السلجوقى ، وضعف أمره خصوصـــا وأنه لم يتلق نجدات من الخليفة المستنصر الفاطمى فى مصر ، فخرج البساسيرى من بغداد معـه جنده ، وعلى ذلك عاد الخليفة العباسى الى بغداد وعهد السلطان السلجوقى الى أحد قـبـواده بتعقب البساسيرى والحـــق به الهزيمة وقتله ، وبذلك تيسر لطغرلبـك القضاء على حركة البساسيرى ، واعادة الخطبة فى بغداد الى الخليفة العباسى بعد أن جعلها البساسيرى للخليفة الفاطمى المستنصر .

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٤٤٧ هـ .

(8) Le Strange : Baghdad during the Abbassid Caliphate p 327.

أن السلاطين الغزنويين كانوا سنيين متمسكين(٩) بمذهبهم فى وقت كان المذهب الشيعى ينتشر فى بلاد العراق وفارس ففى سنة ٤٠٤هـ سنة ١٠١٣م أرسل الحاكم بأمر الله رسولا الى السلطان محمود يدعوه الى الدخـــول فى المذهب الاسماعيلى والولاء له(١٠) ، فاستنكر السلطان محمود ذلك ، وأغلظ القول الى الرسول ، وأرسل الى الخليفة العباسى يخبره بموقفه العدائى من الشيعة(١١) .

كذلك أرسل الخليفة الفاطمى الظاهر الى السلطان محمود الغزنوى كتابا يدعوه فيه الى طاعته ، وأرسل اليه الخلع ، فمزق السلطان محمود كتاب الخليفة الفاطمى ، وبعث بالخلع الى الخليفة العباسى القادر ببغداد ، فجمع القضاة والأشراف والجند ، وأخرج الخلع التى أرسلها الظاهر الفاطمى الى محمود بن سبكتكين ، وضرب الذهب منها دنانير ، تصـــدق بها على فقراء بنى هاشم(١٢) .

تجلى خضوع السلطان محمود الغزنوى لتعاليم الخـــلافة العباسية الدينية فى سنة ٤٠٨هـ سنة ١٠١٨م حين استتاب الخليفة القادر فقهـــاء المعتزلة ، وأظهروا التبرؤ من الاعتزال ، واستن السلطان محمود بسنته ، فقبض على المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم ونفاهم ، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين(١٣) .

حرص السلاطين الغزنويون على صبغ حكمهم بالصبغة الشرعية ، وكان ذلك لا يتم الا اذا أرسل الخليفة العباسى تقليدا للسلطان الـــجديد بالحكم ، وهذا التقليد يكسب حكمهم هيبة فى نفوس رعاياهم ، فأرســـل الخليفة العباسى القادر الى السلطان محمود خلعا لم يسمع بمثلها فـــور توليته الحكم ، ولقبه فى كتابه يمين الدولة وأمين الملة(١٤) ، فتبوأ السلطان

---

(٩) الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٤ هـ .
(10) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 13.
(١١) العتبى : تاريخ اليمينى جـ٢ ص٢٢٨ـ٢٥١ .
(١٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٢٥١ .
(١٣) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم جـ٧ ص ٢٨٧ .
الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٣ ورقة ٢٧٩ .
(14) Hitti : History of the Arabs. p. 464.
Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin p. 36.
K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 14.

محمود سرير الملك ، وأذاع شعار الطاعة لأمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين(١٥) ، على أن الخليفة القادر استاء من السلطان محمود الغزنوى حينما طلب منه ألقابا كثيرة ، ولما أبى الخليفة عليه ذلك ، كاد محمود أن يسير الى بغداد لارغام الخليفة على تنفيذ رغباته ، لكن الرسل سعوا بينهما حتى عادت العلاقات بين الرجلين الى ما كانت عليه من الود والولاء(١٦) .

ولما توفى السلطان محمود سنة ٤٢١هـ سنة ١٠٣٠م وولى ابنه محمد — وهو أصغر من أخيه مسعود سنا — عمد مسعود — كما قلنا سابقا — الى استعادة حكم الدولة الغزنوية من أخيه محمد فامتلك الرى والجبال وأصفهان، وفى تلك الأثناء وصله كتاب من الخليفة العباسى يعترف بسيادته على تلك البلاد ويأمره بالمسير الى خراسان حتى يشمل حكمه دولة أبيه كلها ، ولقد كان لهذا الخطاب اثر كبير فى تقوية شأن مسعود أمام خصمه محمد ، فأمر بأن تقرأ هذه الرسالة على الملأ ، وتنسخ صور منها أرسلها الى أصفهان ونواحى الجبل وجرجان وطبرستان ونيسابور وهراة حتى يتأكد للناس انه ولى عهد أبيه باقرار أمير المؤمنين(١٧) .

ولما استوثق الأمر لمسعود ، وغلب على أخيه محمد ، أرسل اليه الخليفة العباسى اللواء والخلع ، ويتضح مما ذكره البيهقى(١٨) مدى ما يتمتع به الخليفة العباسى من هيبة فى نفوس السلطان ورعاياه ، فقد وفد رسول الخليفة الى غزنة فى موكب كبير والقى الناس على موكبه الدراهم والدنانير ، فوقف الرجالة بأسلحتهم أمام الفرسان ، واصطف أصحاب المراتب صفين وكان القادة والحجاب يلبسون الملابس ذات الركنين ، وحملت الخلع فى الصناديق على البغال ، وحمل أمام الرسول اللواء معقودا بيد فارس ، وطوى المنشور والكتاب فى الديباج الأسود ، وعهد به الى فارس آخر ومن أمامهم الحجاب وأهل المراتب وارتفعت أصوات الأبواق والطبول وعلا صوت النفير ، واستقبل مسعود رسل الخليفة بالحفاوة . وأبلغ مسعود سلام أمير المؤمنين ، وألحقه بالدعاء الجميل ، وقرأ عليه الرسول

---

(١٥) العتبى : تاريخ البيهقى جـ٢ ص ١٧ .
(١٦) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٤ — ١٥ .
(١٧) تاريخ البيهقى ص ٩٧ .
(١٨) نفس المصدر ٢٩٣ .

تقليد ولايته ، وقال : ان ناصر دين الله وحافظ بلاد الله أبا سعيد مسعود هو أعظم أركاننا وأقواها ، وعقد اللواء بيده ، وسلمه الطوق والقلادة والتاج والمنطقة وأهداه بعمامة وبسيف ليقبض به على الزنادقة والقرامطة وليستولى به على ما بيد أعدائه من البلاد ، وأخرجت الخلع من الصناديق ، فنزل السلطان مسعود من على السرير ، وارتدى الخلعة ، وصلى على السجادة ركعتين . وارتداء هذه الخلعة دليل على توريث الخليفة اياه ملك أبيه كاملا ، وبلغ من تقدير السلطان مسعود لتقليد الخليفة أن كتب الى كافة البلاد بألقابه : ناصر دين الله حافظ عباد الله ، المنتقم من أعداء الله .

وحرص السلاطين الغزنويون على اظهار مدى ما حققوه من نجاح وتوفيق ضد أعداء الاسلام ، فكان محمود الغزنوى يرسل عقب كل غزوة يغزوها فى بلاد الهند خطابا الى الخليفة العباسى يتحدث فيه عما أحرزه من نصر للاسلام ، وكان الخليفة بدوره يرسل اليه التشجيع والتعضيد ، ففى سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م فتح محمود بن سبكتكين ناردين ، فأرسل اليه الخليفة العباسى القادر بالله يجدد له العهد ولقبه نظام الدين(١٩) ، وفى سنة ٤١٠هـ/١٩/١٠١م بعث محمود الى الخليفة القادر كتابا يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند جاء فيه : انتخب العبد ثلاثين ألف فارس وعشرة آلاف راجل ، وانضم اليه جماهير المطوعة ، وخرج العبد من غزنة فى العام التاسع ٤٠٩هـ/١٠١٨م بقلب منشرح لطلب الشهادة ، ففتح قلاعا وحصونا ، وأسلم زهاء عشرين ألفا من عباد الأوثان وسلموا قدر ألف ألف درهم ، ووافى العبد مدينة لهم عاين فيها زهاء ألف قصر مشيد ، وألف بيت من الأصنام الفضية زيادة على ألف صنم ، ولهم صنم معظم يؤرخون به لعظم جهالتهم بثلاثمائة عام(٢٠) .

كما حرص الخلفاء العباسيون بدورهم على اعتراف الغزنويين لهم بالسيادة على بلادهم ، فلما توفى الخليفة القادر بالله أرسلت الخلافة رسولا الى السلطان مسعود تخبره بوفاة الخليفة وتولية ولى عهده القائم ، فجلس السلطان مسعود للعزاء ثلاثة أيام وأمر باقامة الخطبة للخليفة الجديد(٢١) .

---

(١٩) ابن الجوزى : المنتظم فى اخبار الملوك والامم جـ٢ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .
(٢٠) ابن الجوزى : المنتظم فى اخبار الملوك والامم جـ٧ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .
(٢١) تاريخ البيهقى ص ٣١٥ .

وفى الجمعة التى خطب فيها باسم الخليفة الجديد القائم بأمر الله جلس السلطان ومعه رسول الخليفة بعد الصلاة فجاء خزنة السلطان ووضعوا تحت المنبر عشرة آلاف دينار من السلطان للخليفة ، ثم أخذت الأموال تتوالى بعد ذلك من الأمراء وأنجال السلطان والوزير ، وكبير الحجاب وغيرهم ، وكان الموكلون بجمع تلك الأموال يحملونها الى رسول الخليفة. وهذا دليل على حرص السلاطين الغزنويين على صلات المجاملة بينهم وبين الخليفة العباسى . ومما يجدر ذكره أن السلطان مسعود كان يطلب من الخليفة تفويضا بحكم خراسان وخوارزم وغيرهما ، كما طلب من الخليفة قطع صلته بأعدائه ــ خانات تركستان ــ لذلك سخا فى هدية الخليفة(٢٢) .

وكان السلاطين الغزنويون لا يترددون فى الاستجابة لشفاعة الخلافة العباسية لأعدائهم ، فحينما أرسل الخليفة العباسى كتابا لتعاد أصبهان الى علاء الدولة كاكويه ، وأن يكون نائب الغزنويين فيها ويقدم كل ما يوضع عليه من مال الضمان ، استجاب له ، وبعد مفاوضات استمرت ثلاثة أيام ، استقر الرأى على أن يكون علاء الدولة كاكويه نائبا للسلطان مسعود فى أصفهان(٢٣) كذلك يتضح مدى تأثير الخلافة العباسية فى نفوس بيت سبكتكين حينما راح السلطان مسعود ضحية مؤامرة دبرها بعض أبناء أخيه محمد ، فأرسل مودود بن مسعود الى عمه السلطان محمد يستنكر هذه المؤامرة ، ويذكره بمدى ما كان يتمتع به والده من تأييد وتقدير الخليفة العباسى ، فقال : لقد ركب ابنكم أحمد أمرا عظيما ، وأقدم على اراقة دم ملك مثل والدى ، والذى لقبه أمير المؤمنين ، سيد الملوك والسلاطين(٢٤) .

نستطيع أن نقول فى نهاية هذا الفصل أن علاقة البيت الغزنوى بالخلافة العباسية كانت على خير ما يرام ، يسودها الود والاحترام المتبادل ، وكان كل منهما يعترف للآخر بالسيادة والنفوذ .

---

(٢٢) تاريخ البيهقى ص ٢٠ .
(٢٣) تاريخ البيهقى ص ٣١٥ .
(٢٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ .

٢ ـ مع البلاد الإسلامية المجاورة

لما ولى ناصر الدين سبكتكين الحكم سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م تطلع الى ضم بعض البلاد المجاورة الى حوزته ، فقوى من شأن جيشه ، وواتته الفرصة لتحقيق سياسته حين طلب منه طغان ــ أمير بســت ــ أن يعيــده الى بلده(٢٥) ويخلصه من المتغلبين عليها فى مقابل الدخول فى طاعته ، فرحب سبكتكين بطلب أمير بست(٢٦) لأنه رأى فى ذلك فرصة لتحقيق مطامعه .

سار سبكتكين على رأس جيشه الى بست ، وشتت شمل غزاتها ، وأعاد طغان اليها ، لكن طغان نكث بالعهد الذى قطعه على نفسه لسبكتكين، لذلك حاربه أمير غزنة ، واستولى على بست ، وضمها الى دولته(٢٧) ، وواصل الأمير الغزنوى سياسته الرامية الى توسيع رقعة دولته ، فسار الى قصدار ، ولما رأى واليها عدم استطاعته التصدي لأمير غزنة ، أعلن ولاءه له فأقره سبكتكين(٢٨) على قصدار ، وألزمه بأداء مبلغ من المال كل سنة .

ظل سبكتكين يعمل على توسيع رقعة دولته حتى وفاته سنة ٣٨٧ هـ ٩٩٨ م فكانت دولته تشتمل على زابلستان بأسرها ، وأهم مدنها كابل وغزنة وبلادنيم روز(٢٩) وجبال الغور الحصينة ، والسند والملتان(٣٠) .

سار محمود بن سبكتكين على سياسة أبيه فى المحافظة على كيــان دولته ، فمد نفوذها الى البلاد المجاورة ، فلما انشغل محمود بحربه ضد اسماعيل بغية الوصول الى السلطنة ــ كما قدمنا ــ بسط القائد السامانى بكتوزون سيطرته على خراسان ، فلم يتغاض السلطان محمود عن انتزاع خراسان التى كان يليها من قبل السامانيين قبل أن يلى السلطنة ، فعول

---

(٢٥) بست من بلاد الأفغان بين هراة وغزنة .

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٤ ص ٢٦٢ .

(٢٧) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٣٤ـ٣٨ .

Habibi : Sultan Mahmud of Ghaznin p. 31.

(٢٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٦٦ هـ

(٢٩) انيم روز : ناحية قبلة فارس .

(٣٠) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٣٧ ـ ٣٨ .

على استردادها بعد أن فرغ من أمر أخيه ، فسار الى نيسابور وبها بكتوزون ، فرحل بكتوزون عنها ، فدخلها محمود بن سبكتكين واحتلها سنة ٣٨٨ هـ ٩٩٧ م لكن محمودا اضطر الى الجلاء عنها بعد أن نمى الى علمه أن بكتوزون استنجد بالأمير الساماني منصور بن نوح(٣١) .

ولما توفى الأمير منصور في العام التالي ، عاود محمود محاولته استرداد خراسان ، واشتبك مع بكتوزون في عدة معارك هزمه فيها ، واستولى على خراسان ، وولى قيادة جيوش خراسان لأخيه نصر ، وأمره بأن يتخذ من نيسابور قاعدة له ، واتفق أصحاب بلدان خراسان على طاعته ومن بينهم صاحب الجوزجان وأمير غرشستان(٣٢) .

على أن خراسان لم تصف للسلطان محمود الا بعد أن خاض عدة حروب ومعارك مع أمراء آل سامان وقادتهم ، فانتهز خلف بن أحمد والى سجستان فرصة انشغال السلطان محمود بتلك الحروب وسير خلف — على الرغم من تبعيته للدولة الغزنوية — ابنه طاهرا الى قهستان فملكها ، ثم سار منها الى بوشنج — من أعمال خراسان — واستولى عليها ، لكن السلطان محمود ما كاد ينتهي من حروبه حتى عول على استعادة البلدان التي استولى عليها صاحب سجستان فسير السلطان عمه بغراجق الى طاهر بن خلف فلقيه بنواحي بوشنج ، واشتبكا في معارك دارت فيها الدائرة على طاهر(٣٣) ، كما سار السلطان محمود بنفسه الى خلف بن أحمد ، فتحصن منه لكن السلطان الغزنوى ضيق عليه الخناق حتى أعلن ولاءه لغزنة وافتدى نفسه بمبلغ كبير من المال(٣٤) سنة ٣٩٠ هـ ٩٩٩ م ، غير أن خلف بن أحمد أظهر نواياه السيئة نحو السلطان محمود ونمى الى علم محمود الغزنوى بأن خلف بن أحمد يستعد للتخلص من الحكم الغزنوى لبلاده فأرسل السلطان

---

(٣١) العتبى : تاريخ اليميني جـ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٦ .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٨٨ هـ
(٣٢) العتبى : تاريخ اليميني جـ١ ص ٢٩٦ ، ٣١١ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص٣٦٣ .
(٣٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٦٤ .
(٣٤) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٠ .
خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٠ ٢٢ .

الغزنوى الى خلف جيشا باغته فى حصن اعتصم به(٣٥) ، وقبض عليه . وبذلك تأكد النفوذ الغزنوى على سجستان(٣٦) سنة ٣٩٣ هـ ١٠٠٢ م .

وفى سنة ٣٩٦ هـ ١٠٠٥ م أظهر ايلك خان الذى امتلك بلاد ما وراء النهر أطماعه فى بلدان الدولة الغزنوية على الرغم من أنه كان يظهر الصداقة والود للسلطان محمود ، فانتهز ايلك خان ابتعاد السلطان محمود عن حاضرة دولته لانشغاله فى بعض الغزوات فى بلاد الهند، وسير قائده سباشى تكين الى خراسان فى معظم جنده ، وسير أخاه جعفر تكين الى بلخ ، ولما بلغ سباشى تكين خراسان ، رأى واليها الغزنوى — أرسلان الجاذب — عدم مقدرته الوقوف فى وجه الترك ، فانسحب الى غزنة ، وملك سباشى هذه البلاد ، وأرسل الى نيسابور من امتلكها ، فلما علم محمود ، ورجع الى غزنه « لا يلوى على دار ولايركن الى قرار » وأعد العدة لتخليص بلاده من خطر الترك الطامعين فيها(٣٧) ، فسار نحو بلخ ، وبها جعفر تكين — أخو ايلك خان — فغادرها ، واستعاد السلطان محمود بلخ ،وسير الجند الى سباشى تكين بهراة ، فلما اقتربوا منه ، سار نحو مرو ليعبر النهر ، فلقيه التركمان الغزيه ، فقاتلوه وهزموه ، وقتل منهم كثيرين ، ثم سار نحو أبيورد ، فتتبعه جند السلطان محمود ، وأسر أخوه سباشى تكين ، وجماعة من قواده ، ونجا هو فى قلة من أصحابه ، وبذلك استطاع السلطان محمود المحافظة على خراسان(٣٨) — أهم أقاليم دولته .

---

(٣٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .

(٣٦) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٣٧٤ .

(٣٧) الترك شعوب مختلفة تفرقت فى مساحات شاسعة تمتد من شرق هضبة ايران الى غرب الصين بما فى ذلك بلاد تركستان التى تتكون منها حاليا مجموعة الجمهوريات السوفياتية الاسلامية وبدأ الاسلام يدخل بلاد الترك فى العهد الأموى ، وهاجرت جماعة منهم غربا الى أراضى الدولة الاسلامية ، وأقاموا ولايات صغيرة متفرقة فى تلك المنطقة الشاسعة ، الا أن قيام أول دولة تركية قوية ، انما يرجع تاريخه الى وقت انحلال الدولة السامانية ، ويبدو أن ايلك خان أول من وحد شأنهم ، وقوى أمرهم . ويأتى من بعده بغراخان واشتهر بجهده فى سبيل نشر الاسلام حتى استطاع أن يحمل ألوفا من البوذيين والمسيحيين على الدخول فى الاسلام ، فقد جمع كل القبائل التركية المختلفة تحت لوائه لينطلق بهم بعد ذلك فى فتوحات صوب الغرب هادفا اضافة بعض الأراضى الى ممتلكاته مما بقى فى حوزة السامانيين ، وخرج بغراخان فى جيش كثيف من كاشغر الى ضفاف زرفشان وقد انضم اليه ترك خوقند ، واستولى على ما وراء النهر . ارمينيوس فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٢٠ .

(٣٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٦ هـ

لم يقف ايلك خان مكتوف اليدين ازاء استرداد السلطان محمود خراسان منه ، بل عول على استعادتها ، فاستنجد بقدر خان بن بغرا خان — ملك الختل — لقرابة بينهما على محمود ، واستنفر الترك من أقاصي بلادها ، واجتمع هو وايلك خان ، واتجها الى خراسان . ولما علم محمود الغزنوى بذلك ، سبقهما الى بلخ ، وأعد العدة للقتال ، وجمع جيشا كبيرا من الأتراك الغزيه والخلج والهند والأفغانية والغزنوية(٣٩) . ودارت رحى معركة رهيبة بين الفريقين ، انتهت بانتصار السلطان الغزنوى الساحق على أعدائه الذين لاذوا بالفرار ، والجند الغزنوى فى اثرهم يقتلون ويأسرون ويغنمون(٤٠) ، وحدث ذلك سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م(٤١) وبذلك لم يستطع الترك اغتصاب خراسان من الدولة الغزنوية بعد هزيمة السلطان محمود لهم(٤٢) ، بل سعوا الى مصالحة السلطان الغزنوى لهم ، فقد توجه طغان — أخو ايلك خان — الى محمود بن سبكتكين يعتذر عما بدر من أخيه ، ويقول : اننى ما رضيت ذلك منه ، وألزم أخاه وحده الذنب ، وتبرأ منه ، فلما علم ايلك خان بذلك ، استاء من أخيه ، وسار فى جيوشه قاصدا قتاله ، لكنه لم يستطع الوصول اليه بسبب سوء الأحوال الجوية (٤٣) .

كان لموقف ايلك خان العدائى من السلطان محمود أثره فى محاولة بعض الولاة الموالين لغزنه ، الاحتماء به ، والاستقلال عن الدولة الغزنوية ففى سنة ٤٠٠هـ/١٠١١م قطع صاحب قصدار الأموال التى كان يرسلها الى السلطان محمود وفقا للاتفاق بينهما ، لكن السلطان محمود عول على استعادة سيطرته على قصدار ، وسار من غزنه قاصدا تلك البلدة رغم وعورة الطريق ، وباغت السلطان الغزنوى صاحب قصدار على حين غفلة، فعجز عن مقاومته ، وطلب الأمان ، فأمنه السلطان الغزنوى بعد أن ألزمه بأداء المال الذى كان قد اجتمع عنده ، وأقره على ولايته بعد أن قدم فروض الولاء والطاعة له(٤٤) .

---

(٣٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ص ٤ ص ٣٦٧ .
(٤٠) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٧٩ ـ ٨١ .
خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢١ .
(٤١) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٧٨ ـ ٨٣ .
(٤٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٧ هـ .
(٤٣) العتبى : تاريخ اليمينى جـ٢ ص ١٢٨ ـ ١٣٢ .
(٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٠ هـ .
خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢١ .

على أن ايلك خان لم يتحول عن أطماعه فى خراسان على الرغم من الصعوبات والعقبات التى اعترضته ، ففى سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١٢ م أعد العدة للسير الى خراسان لكنه توفى ، فخلفه فى الحكم أخوه طغان ، واتخذ سياسة تختلف عن سياسة أخيه المناوئة للسلطان محمود ، لذلك أرسل الى غزنه يعرض الصلح ويقول : المصلحة للاسلام والمسلمين أن تشتغل أنت بغزو الهند ، وأشتغل أنا بغزو الترك ، وأن يترك بعضنا بعضا . فرحب السلطان الغزنوى بالصلح مع ملك الترك(٤٥) ، وبذلك أمن السلطان محمود على دولته من بأس هؤلاء القوم .

على أن هذا الصلح لم يستمر أكثر من سنة فلم يلبث أن توفى طغان خان وولى بعده أخوه أرسلان خان . وعول على الزحف الى بلاد الدولة الغزنوية وامتلاكها ، فسار الى بلخ ، ولما علم السلطان محمود بذلك سار للقاء الترك ، واشتبك معهم فى عدة معارك هزمهم فيها ، وأجلاهم عن بلاده(٤٦) ، وبذلك أحبط السلطان محمود هذه المؤامرة فى مهدها .

عمل الترك بعد أن رأوا قوة بأس السلطان محمود على تحسين علاقتهم به ، وعدم الاعتداء على دولته ، وعلى الرغم من ذلك كان السلطان محمود يتوجس منهم خيفة ويقول : ان الترك أعداء لنا ، يتقربون منا بحكم الضرورة ، وأنهم كلما أوتوا القوة لا يبقون علينا ولا يجاملون(٤٧) .

ولما توفى قدر خان سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م بعد وفاة السلطان محمود بسنة واحدة ، خلفه ولى عهده أرسلان خان فى حكم تركستان وكان أخوه بغراخان يلى بعض ولايات الدولة الا أن صلته به كانت سيئة وقد ظهر ذلك جليا واضحا حينما حاول السلطان مسعود تحسين علاقته بالترك ، حتى يتفرغ لأعدائه السلاجقة ، فأرسل سفارة الى أرسلان خان وبغراخان نجحت بعد مفاوضات طويلة فى ابرام عهد بين مسعود الغزنوى من جهة وبين القائدين التركيين من جهة أخرى(٤٨) بمقتضاه يلتزم كل من الفريقين

---

(٤٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٧ هـ .

(٤٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٩ .

(٤٧) تاريخ البيهقى ص ٧٥٣ .

خوندمير . حبيب السير جـ٢ ص ٢١ .

(٤٨) تاريخ البيهقى ص ٧٥١ ــ ٧٥٢ .

باحترام سيادة الفريق الآخر على أرضه ، لكن بغراخان لم يلبث أن نكث بالعهد ، فأغرى السلاجقة سرا بالسلطان مسـعود بن محمود ، وقوى عزائمهم ، وأمدهم بالرجال والأموال ، ولما دخل السلاجقة خراسان عبر عن نواياه السيئة تجاه الدولة الغزنوية فأظهر بهجة وسرورا(٤٩) ، أمـا أرسلان خان فظل على علاقة ودية مع السلطان مسعود بل كان يقف الى جانبه ضد السلاجقة(٥٠) .

كذلك قاسـت الدولة الغزنوية من غارات على تكين — أخى ايلك خان — وكان يلى بعض نواحى بلاد ماوراء النهر(٥١) ، وكثرت اغاراته على صغانيان وترمذ وبلخ وطخارستان وغيرها ، واتفق مع السلاجقة على انتزاع أملاك الدولة الغزنوية(٥٢) ، فأمر السلطان مسـعود أبا سـعيد التونتاش — والى خوارزم — بقصد على تكين والتخلص منه(٥٣) ، واستطاع التونتاش اخضاع على تكين ، وجمع على تكين أمواله وذخائره ، والتجأ الى قلعة ديوسى — من أعمال الصغد — تاركا بخارى — التى كان يحكمها الى بعض أعوانه ، فسار التونتاش الى بخارى ، واستولى عليها(٥٤) ، وقدم أهلها الولاء والطاعة للدولة الغزنوية ، وقالوا : انا كنا نأمل منـذ زمن بعيد أن نكون رعايا السـلطان الأعظم ، ملك الاسـلام فلطف بهم التونتاش ، واستعان بهم فى اقتحام القلعة التى تحصن بها على تكين ، واستولى التونتاش على القلعة ، وغنم مغانم كثيرة وتحطمت قوى على تكين ، وبقى فى حيرة من أمره اذ تناقص رجاله ووهنوا وضعفوا ، وطلب الصلح من التونتاش ، فعفا عنه ، ولم يعد على تكين بعد ذلك يشكل خطرا على الدولة الغزنوية ، وتوفى سنة ٤٢٤ هـ(٥٥) / ١٠٣٢ م فخلفه ابناه فى حكم بلاد ما وراء النهر ، وسارا على سياسـة أبيهما فى مناهضـة الدولة الغزنوية ، وانتهزا فرصة ابتعاد السلطان مسعود عن خراسان ، واضطراب الأحوال فيها . وتحالفا مـع هـرون بن التونتاش — والى خوارزم — فى

---

(٤٩) نفس المصدر ص ٧٥٤ .

(٥٠) نفس المصدر ص ٧٠٩ .

(٥١) تاريخ البيهقى ص ٣١١ .

(52) Cambridge History of Iran Vol. 5. p. 8.

(٥٣) تاريخ البيهقى ص ٢٥٠ .

(54) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 8.

(٥٥) تاريخ البيهقى ص ٣١١ .

الاغارة على خراسان فسار هرون الى مرو مع جيش جرار ، واغار ابنا على تكين على صغانيان وترمذ ، واجتاحا صغانيان ، وطردا واليها ، وقصدا ترمذ ، غير أنها استعصت عليهما ، بل خرج فرسانها الى ابنى على تكين ، وأوقعوا بهما الهزيمة ، ولاذا بالفرار ، ولما قتل هرون ضعف شأن ابنى على تكين ، فرجعا عن ترمذ ، وسارا الى سمرقند ، ثم أرسلا الى السلطان مسعود يطلبان الصلح فأجاب الطلب(٥٦) ، وكفا عن العدوان على أراضى الدولة الغزنوية وبذلك انتهى الصراع بين الترك والغزنويين .

عظم شأن الدولة الغزنوية فى عهد السلطان محمود ، وقوى بأسها بسبب ما أسبغه عليها هذا السلطان من قوة ظاهرة وباطنة فقد أسس لها جيشا قويا لا يذود عنها فحسب ، ولكن يبسط نفوذها على البلاد المجاورة، ورغب الأمراء الضعاف الانضواء تحت لوائه حتى يكفلوا لحكمهم وبلدانهم الأمن والاستقرار ، فلما ولى منوجهر بن قابوس بن وشمكير حكم جرجان وطبرستان وبلاد الجبل سنة ٤٠٣ هـ سنة ١٠١٢ م(٥٧) دخل فى طاعة السلطان محمود وخطب له على منابر بلاده ، وبذلك قوى شأنه أمام العناصر المناوئة لسلطانه ، والتزم باداء خمسين دينار سنويا لحكومة غزنة(٥٨) .

وفى سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م سار السلطان محمود الى الرى لامتلاكها من صاحبها مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه لذى كان متشاغلا عن شؤون الحكم باللهو والعبث(٥٩) لذلك اضطربت الأمور فى دولته واستنجد أهلها بالسلطان محمود لتخليصهم من الفوضى التى حلت ببلادهم(٦٠) ، فسار الى الرى ، واشتبك مع جندها وهزمهم(٦١) ، وضم الرى الى حوزته(٦٢) ، وقبض على مجد الدولة ، وملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوة

---

(٥٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٣ .
أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .
(٥٧) العتبى : تاريخ اليمينى جـ٢ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .
(58) Cambridge History of Iran. Vol. 5. 12-13.
(٥٩) براون : تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ص ١٩٧ .
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٠ هـ .
(٦٠) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٥ .
(٦١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٤٢٠ .
(62) Hitti : History of the Arabs. p. 464.

ويافت وغيرهما(٦٣) ، وقبض على صاحبها ، وسيره الى خراسان ، وكان كثير من سكان تلك الجهات يعتنقون المذهب الاسماعيلى ، فقبض محمود على الباطنية ، ونكل بهم ، ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم ، ونقل الى غزنه ما سوى ذلك من الكتب(٦٤) .

وعلى الرغم من أن منوجهر بن قابوس — والى طبرستان وجرجان — أعلن دخوله فى طاعة السلطان محمود الا أنه ساند مجد الدولة ضد السلطان الغزنوى اذ كان غير راض عن ضياع استقلال بلاده ، لكن محمود بن سبكتكين لم يتغاض عن موقف هذا الأمير العدائى فلما انتهى من أمر الرى، عول على التخلص منه ، فتحصن منوجهر فى جبال حصينة ، وعرة المسالك، لكن السلطان محمود باغته فى حصنه الحصين ، فهرب منوجهر الى غياض منيعة ، ولما خشى العاقبة ، بذل للسلطان الغزنوى مالا فى مقابل أن يعفو عنه ، فأجابه الى ذلك ، ولم يلبث أن توفى منوجهر وولى بعده ابنه أنوشروان ، فأمره محمود على ولايته ، وأقيمت الخطبة لمحمود فى أكثر بلاد الجبل الى حدود(٦٥) أرمينية ، وامتلك ابنه مسعود زنجان وابهر ، وخطب له علاء الدولة كاكويه فى أصفهان(٦٦) ، واستخلف محمود ابنه مسعود فى الرى وسار مسعود الى همذان ، وضمها الى الدولة الغزنوية(٦٧) .

كذلك انضمت خوارزم الى الدولة الغزنوية فى عهد السلطان محمود فقد كانت خوارزم قبلا امارة مستقلة يحكمها أسرة بنى مأمون ، ولما توفى مأمون بن محمد — صاحب خوارزم — سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م بايع أصحابه ابنه عليا حاكما على بلدهم ، وظل يحكم هذه البلاد حتى وفاته ، فخلفه أخوه أبو العباس مأمون بن مأمون ، كانت تربطه بالسلطان محمود الغزنوى علاقة ود ومحبة(٦٨) واخاء .

(63) Cambridge Medieval History. Vol. p. 303.
(64) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 12.
(٦٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ.
(66) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 21.
(٦٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .
(٦٨) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٣ .
خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٢

غير أن السلطان محمود بن سبكتكين اعتزم ضم خوارزم الى حوزته، فأرسل الى أميرها يطلب منه الاعتراف بسيادة الدولة الغزنوية على بلاده، وذلك باقامة الخطبة له ، وارسال مبالغ معينة من المال الى حكومة غزنة الى غير ذلك من مظاهر الولاء والطاعة(٦٩) ، فجمع مأمون أعيان خوارزم واستشارهم في الأمر ، فأظهروا نفورا من ذلك وعدم استجابة وقالوا : نحن أتباعك وأعوانك ما سلم لك الملك عن الاشتراك ، فأما اذا وضعت خدك للطاعة ، وضعنا السيوف على العواتق خلعا لك ، وجهادا فيك،(٧٠). فعاد الرسول الى السلطان محمود وأخبره بموقف أهل خوارزم المناهض للانضواء تحت لواء الدولة الغزنوية .

وكان لأمير خوارزم جيش قوى يرأسه كبير الحجاب — ألبتكين البخارى — فلما علم الجند بنوايا محمود الغزنوى نحو بلادهم وميل أميرهم الى طاعته صاحوا بأن ليس لمحمود سلطان علينا ، وتحركوا بخيولهم ، وتخلصوا من الأمير وأنصاره ، وأشعلوا النار فى قصر الامارة سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦—١٠١٧ ونادوا بابن أخيه محمد بن على بن مأمون أميرا على خوارزم(٧١) ، وسيطر ألبتكين على أمور خوارزم ، وقد نحى هذا الأمير جانبا ، فانه لم يكن يعرف من أمور الدنيا شيئا ، فكان ألبتكين وأعوانه يعملون باسمه ما يريدون من القتل وسلب الأموال ، ونهب البيوت ويشيعون الضغائن بينه وبين الناس ، وظلوا يتحكمون فى أمر خوارزم أربعة أشهر سامو أهلها خلالها سوء(٧٢) العذاب .

استاء السلطان محمود الغزنوى من موقف جند خوارزم المناهض لتبعية البلاد له ، فسار الى خوارزم على رأس جيش كبير ، واشتبك مع جندها فى معركة هزمهم فيها ، ونكل بقتلة حليفه أبى العباس ، وقبض على مثيرى الاضطرابات ، وأمر بهم ، فسيقوا الى بلاد الهند(٧٣) ، وضم السلطان محمود خوارزم الى دولته ، وخلع أميرها الصغير ، واستناب بها

---

(٦٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٣٧١ .

(٧٠) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ٢٥٢ — ٢٥٤ .

(٧١) تاريخ البيهقى ص ٨٤٢ .
Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 39.

(٧٢) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ٢٥١ — ٢٥٥ .

(٧٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٧ هـ .

حاجبه أبا سعيد التونتاش(٧٤) ، فضبط أمورها ، وأعاد الأمن الى نصابه فى هذه البلاد النائية القابعة على حدود الدولة الغزنوية ولقبه السلطان محمود خوارز مشاه(٧٥) ، واستطاع هذا الوالى الكفء حماية خوارزم من اغارات الترك(٧٦) ، وقبض على جميع أفراد الأسرة المأمونية .

على أن أمر خوارزم لم يصف للدولة الغزنوية بعد هذا الانتصار الرائع الذى أحرزه السلطان محمود على ثوارها ، فقد جمع أحد أنصار الأسرة المأمونية جيشا كبيرا ، وانقض فجأة على خوارزم ، واستولى عليها ، ودارت حرب طاحنة بين جند الدولة الغزنوية وبين أنصار الأسرة المأمونية ، وانتهت بسحق أنصار العهد السابق ، وتمزيقهم شر ممزق ، بعدها عادت هذه البلاد الى الهدوء والسكينة(٧٧) ، وأمن أهلها فى ظل الحكم الغزنوى ، وانتهى الى الأبد حكم آل مأمون لخوارزم .

ظل التونتاش يحكم خوارزم بحزم حتى وفاته سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٩م فعهد السلطان مسعود الى ابنه هرون بحكم خوارزم ، غير أن هرون خالف أباه فى ولائه للدولة الغزنوية ، فقد اتخذ سياسة مناهضة للسلطان مسعود ، وأعان السلاجقة فى حربهم ضد الدولة الغزنوية ، بل أعد العدة للمسير الى خراسان ، وانتزاعها لنفسه لكنه قتل سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م فخلفه ابنه اسماعيل الذى أعلن الاستقلال عن الدولة الغزنوية(٧٨) ، فعهد السلطان بولاية خوارزم الى شاه ملك — أمير جند — وطلب منه أن ينكل باسماعيل بن التونتاش وأنصاره ويعيد البلاد الى الطاعة والولاء لغزنه(٧٩) .

سار شاه ملك الى خوارزم ، وطلب من اسماعيل وأنصاره اخلاءها ، ولكن اسماعيل أرسل اليه يقول : انه لا يتخلى عن خوارزم الا بالسيف .

---

(74) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 8.

(75) Ency of Islam. Art Tun Tach.

(76) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 8.

(٧٧) تاريخ البيهقى ص ٧٤٥ .
Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin p. 36.

(٧٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

(٧٩) تاريخ البيهقى ص ٧٥٢ .
Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 19.

فكان لابد من الحرب بين الفريقين ، وفعلا اشتبك شاه ملك مع اسماعيل فى حرب انتصر عليه فيها ، واستعاد الحكم الغزنوى على هذه البلاد ، وولى حكمها من قبل السلطان مسعود(٨٠) .

وكان السلطان مسعود لا يألو جهدا فى سبيل توسيع رقعة دولته ، فى سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٣١ م سير السلطان جيشا الى التيز(٨١) فملكها . وذلك أن صاحبها بعد أن توفى ، خلف ولدين أبا العساكر وعيسى ، فاستبد عيسى بالولاية والمال ، فسار أبو العساكر الى خراسان ، وطلب من مسعود النجدة فسير معه عسكرا ، وأمرهم باخلاء البلاد من عيسى أو الاتفاق مع أخيه على طاعته ، فوصلوا اليها ، ودعوا عيسى الى الطاعة فأبى ، وجمعوا جمعا غفيرا بلغ ثمانية عشر ألفا ، وتقدم اليهم ، فالتقوا ، واستأمن كثير من أصحاب عيسى الى أخيه أبى العساكر ، فانهزم عيسى ، ثم عاد وحمل فى نفر من أصحابه على أخيه ، ولكنه هزم ثانية وقتل ، واستولى أبو العساكر على البلاد(٨٢) . وحكمها باسم السلطان مسعود ، وفى نفس السنة اتجه الجيش الغزنوى الى كرمان وامتلكها . وكانت قد استعصت على جند السلطان محمود(٨٣) .

وصفوة القول أن السلاطين الغزنويين الأقوياء نجحوا فى توسيع رقعة دولتهم حتى اشتملت على مساحات كبيرة فى آسيا ضمت أفغانستان وبعض البلدان فى ايران وما وراء النهر ، يضاف الى ذلك اقليم الهند .

---

(٨٠) تاريخ البيهقى ص ٧٥٦ ـ ٧٥٧ .
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .
" خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٢ .
(٨١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٧٩ .
(٨٢) تاريخ البيهقى ص ٦٧ .
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٢ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٧٩ .
(83) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 13.

٣ ــ مع بلاد الهنــد

يرجع اهتمام المسلمين ببلاد الهند الى عهد الخلفاء الراشدين ، فقد شنوا عدة حملات على أطراف هذه البلاد ، على أن أول حملة نظاميــة على بلاد الهند بدأت فى عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك ، اذ أذن للحجاج ابن يوسف الثقفى ــ عامله على بلاد العراق ــ بانفاذ حملة الى الهند ، فأرسل عدة حمــلات لم تصل كلهــا الى نتيجة حاســمة (١) ، فأعــد جيشا أسند قيادته الى ابن أخيه محمــد بن القاسم الثقفى سنة ٩٢هـ سنة ٧١١م وعنى الحجاج بتزويد هذا الجيش بما يحتاج اليه من المــؤن والمعدات حتى الخيوط والقطن المحلوج المنقوع فى الخل(٢) .

احتشدت القوات الاسلامية فى شــيراز ، وزحفت الى ثغر مكران ومنه اتجهت جنــوبا الى ديبــل ، وانضم الى المســلمين جموع كثيرة من الميذ والجات وتسميهم المراجع العربية الزط ، وهما قبيلتان عربيتان هجرت ديارها فرارا من بطش وجــور الحكــومة البرهميــة التى كانت تعتبرهم فى عــداد المنبوذين ، وتحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتــداء الملابس الراقية ، ولا يمارسون الا أحط المهن(٣) .

قــوى شأن المسلمين بالميــد والجات ، واتجهــوا الى ديبــل ، واشتبك الجيش العربى مع داهر ــ ملك السند ــ فى معــركة عنيفــة ، واستخدم المســلمون أسـلحة قــوية من بينها منجنيقــا يسمى العروس يديره خمسمائة جندى ، وانتهت ــالمعركة بهزيمة داهر ، واســتولى المسلمون على ديبل وأقام بها محمد بن القاســم مسجدا . وترك بهــا حامية تتكــون من أربعة آلاف جندى(٤) . واصبحت ديبل أول مدينــة عربية فى السند .

غير أن داهر لم يستسلم للهزيمة ، بل عول على مقاومة الزحــف الاسلامى ، فاتجه الى الداخل ، وأعد العدة لاستئناف القتال فى موضــع

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ٢ ص ٢٥٢ .
Lane Poole : Medival India p. 8.

(2) Chand : Influence of Islam in India p. 32.

(3) Lane Poole. Medieval India p. 8.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٣ .

يقع شرق مصب السند ظنا منه أن النهر يعرقل عبور المسلمين له ، لكن محمد بن القاسم تمكن هو وجنده من عبور النهر على عدد من الزوارق . ولما شعر داهر باقتراب القوات الاسلامية منه لجأ الى حصن الرور ، فباغته المسلمون ، وعلى الرغم من استخدام الهنود الفيلة والنبال والنفط فانهم هزموا شر هزيمة(٥) ، واستولى المسلمون على الرور ، وتقدم محمد بن القاسم صوب الشمال ، وتمكنت قواته من الاستيلاء على برهماناباد(٦) . وواصل العرب تقدمهم صوب الشمال يستولون على البلدان التى فى طريقهم حتى بلغوا الملتان ، واستولوا عليها عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة(٧) .

كان لاستيلاء العرب على الملتان أهمية كبيرة ، نظرا لأهميتها الكبيرة عند الهنود من الناحية الدينية ، اذ يوجد بها المعابد الكبيرة يحج اليها الهنود من كل حدب وصوب ، ويهدون الأموال الى الصنم المقام هناك ، وينذرون له النذور ، ويطوفون به ، ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، وبسقوط الملتان فى أيدى العرب أصبح وادى السند بأكمله فى حوزتهم ، ورحب الهنود بحكم المسلمين لهم لأنهم قاسوا كثيرا من ظلم وجور الهندوس ، وتجلى ذلك فى اقبالهم على محمد بن القاسم يدقون الأجراس ، ويقرعون الطبول ، ويرقصون رقصاتهم الشعبية(٨) .

عول محمد بن القاسم بعد أن أقر الأمور فى البلاد التى فتحها على غزو مملكة قنوج ، أعظم امارات الهند — لكن مشروعه لم يقدر له أن يتحقق ، ذلك أن الحجاج توفى سنة ٩٥هـ وبعد ذلك بقليل توفى الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وخلفه أخوه سليمان بن عبدالملك ، الذى كان يعترض على سياسة سلفه ، فعهد بحكم العراق الى صالح بن عبدالرحمن ، وعزل محمد بن القاسم عن السند ، وولى بدلا منه يزيد بن أبى كبشة ، وأمره بالقبض على محمد بن القاسم ، وارساله اليه وسيق فاتح السند مقيدا بالسلاسل الى واسط حيث أودع فى السجن ولقى حتفه(٩) بعد ذلك بقليل.

---

(5) Lane Poole : Medieval India. p. 9.

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٤ .

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٤ .

(8) Lane Poole : Medieval India p. 10.

(٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٦ .

ومما لا شك فيه أن عزل محمد بن القاسم عن السند كان خسارة كبرى أصابت مركز المسلمين فى هذه البلاد ، ذلك أن البلاد التى دخلت فى حوزة المسلمين ، انتقضت على الحكم الاسلامى ، وانشغل الولاة الأمويون فى المحافظة على ممتلكات المسلمين فى السند ، بدلا من أن ينطلقوا فى الفتح ، على أن الحكم بن عوانة كان من خيرة ولاة السند بنى مدينتى المحفوظة والمنصورة على شاطىء السند ، وصارت الأخيرة حاضرة المسلمين فيما بعد ، وقد سار فى الناس سيرة حسنة ، وأطلق للهنادكة حرية العبادة(١٠) .

ولما سقطت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، حافظ خلفاؤها على بلاد الهند الاسلامية ، وعملوا على توسيع رقعتها ، ففى عهد الخليفة المنصور ، دخلت كشمير فى حوزة العباسيين ، وأكد العباسيون سيطرتهم على الملتان(١١) ، وتتابعت غزوات المسلمين فى بلاد الهند ، ففى عهد الخليفة المهدى سنة ١٥٩هـ استولى المسلمون على مدينة باريد ، وأحرقوا تمثال بوذا ، وما زالت فتوحات المسلمين تتابع فى بلاد الهند فى عهد المأمون والمعتصم حتى سيطر المسلمون على البلاد الواقعة بين كابل وكشمير والملتان(١٢) .

ولما ضعفت الدولة العباسية ، عجزت الحكومة المركزية عن السيطرة على أطرافها ، لذلك استقل حكام الأقاليم عن بغداد ، وقامت فى السند امارتان مستقلتان ، احداهما فى الجنوب وعاصمتها المنصورة ، وامارة فى الشمال وعاصمتها الملتان ، واستقرت أمورهما نتيجة لتحسن أحوالهما الاقتصادية ، والنشاط التجارى بين السند والشرق والغرب وازدهرت فيها العلوم والحضارة ، وآوى اليهما الفارون من بطش الخلافة(١٣) .

أهمل الخلفاء العباسيون فى العصر العباسى الثانى شأن اقليم السند حتى أن الخليفة الضعيف المعتمد أقطعها ليعقوب بن الليث

---

(١٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٩ .

(١١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٩ .

(١٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٥٠ .

(١٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج٢ ص ٢٥٦ .

الصفار مع بعض البلدان المجاورة ، حتى لا يتطلع الى السيطرة على العراق(١٤) .

وترتب على اهمال الخلفاء لبلاد السند نشاط الاسماعيليين بها . فقامت فى الملتان حكومة اسماعيلية فى القرن الرابع الهجرى . اذ كانت أرضا خصبة راجت فيها المبادىء الاسماعيلية ، ووجد فيها الدعاة الاسماعيليون استجابة قوية ، والتف حولهم القرامطة الذين قدموا الى السند من البحرين وبلاد فارس ومكنوا القائد الاسماعيلى جلم بن شيبان من السيطرة على مقاليد الأمور فى الملتان(١٥) . أما امارة المنصورة فقد تعرضت لكثير من الاضطرابات نتيجة لضعف حكامها واختلافهم على أنفسهم .

ظل الهنود فى مأمن من الغزو الاسلامى حتى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى ، اذ قوى شأن الأتراك الغزنويين فى أفغانستان ، وكلما قويت أفغانستان زحفت قبائلها تغزو فى بلاد الهند ، واذا ضعف شأنها وتدهورت أمن الهنود(١٦) ، أما وقد عظم شأن سبكتكين وابنه محمود فى أفغانستان وصار لهما جيش قوى ، فقد ازداد النشاط الاسلامى فى بلاد الهند ، وكان الشمال الغربى فى بلاد الهند منقسما بين أمراء كثيرين من الراجبوتيين يعترفون لراجا دلهى بالغلبة والتفوق ، أما راجا قنوج فكان فى حوزته امارة أوده وامارة وادى الكنج(١٧) .

وقبل أن نتحدث عن الفتوحات الغزنوية فى بلاد الهند يجدر بنا أن نناقش الأسباب التى حملت الغزنويين على شن حملاتهم المتتابعة على هذه البلاد .

لما قوى أمر سبكتكين فى غزنة ، وضم الى ملكه بعض البلدان المجاورة ، وأنشأ جيشا قويا من الأفغان والترك ، رأى ضرورة الانطلاق بتلك القوة الهائلة الى ميدان فسيح ، ولم يكن فى استطاعته الاتجاه نحو

(١٤) الساداتى : تاريخ المسلمين فى الهند جا ص ٢٥ .
(١٥) المصدر السابق جا ص ٧٥ .
(16). Panikar. A survey of India. p. 122-123.
(١٧) جوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٢١٧-٢١٨ .

بلاد العراق لأن البويهيين كانوا قد وطدوا نفوذهم فيها ، كما أن بلاد ما وراء النهر كان الترة خانيون يعملون على بسط سيطرتهم عليها ، وانتزاعها من السامانيين ، لذلك انطلق الغزنويون الى بلاد الهند من منطقتهم الوعرة كما سنرى(١٨) .

ومما لا شك فيه أن الرغبة فى الجهاد ورفع راية الاسلام فى غير بلاد الاسلام من أقوى الأسباب التى دفعت الغزنويين الى القيام بفتوحاتهم ، فمن الثابت أن محمود الغزنوى كان مسلما قوى العقيدة ، تواقا الى نشر الاسلام(١٩) .

سار سبكتكين سنة ٣٧٧هـ/٩٧٦م على رأس جيش كبير الى بلاد الهنادكة ، ويحكمها جيبال — راجا البراهمة — وتقع مملكته فى شمال غرب الهند من الكنج الى الأفغان ، ومن كشمير الى الملتان(٢٠) ، وفتح قلاعا حصينة على شواهق الجبال ، ومن بينها مدينة كابل ، وعاد الى بلاده سالما ظافرا(٢١) ، .ولقد كان لاستيلاء سبكتكين على كابل أثر كبير فى اضعاف شأن مملكة جيبال(٢٢) ، ذلك أن كابل تسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندى الخصيب(٢٢) ، ومما هو جدير بالذكر أن يعقوب ابن الليث الصفار لما مد فتوحه الى كابل سنة ٢٥٩هـ (٨٧١م) وجد أهل هذه البلاد لا يزالون على الوثنية ، فنشر الاسلام بينهم(٢٣) وتوطد فى عهد سبكتكين وابنه محمود كما انتشر فى كافة بلاد الأفغان(٢٣) .

غير أن جيبال عظم عليه استيلاء المسلمين على أطراف مملكته ورأى أن ذلك يشكل خطرا كبيرا على ملكه ، ان هو تغاضى عن ذلك ، فحشد جيشا كبيرا سار على رأسه الى حدود الدولة الغزنوية(٢٤) ، فسار سبكتكين من غزنة اليه ومعه جمع غفير من الجند والمتطوعة ونشب قتال

---

(١٨) حسن أحمد محمود : الاسلام فى آسيا الوسطى ص ٢٢٩ .

(١٩) جوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٣١٨ .

(٢٠) الساداتى : تاريخ المسلمين ى شبه القارة الهندية جـ١ ص٨٤ .

(٢١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ١ ص ٨٤ .

(22) Lane Poole : Medieval India. p. 17.

(٢٣) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٨٨ .

(24) Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 14.

بين الفريقين انتهى بانتصار المسلمين على أعدائهم(٢٥) ، وأرسل ملك الهند الى سبكتكين يعرض عليه الصلـح على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه ، لكن محمود بن سبكتكين أقنع أباه برفض الصلح اذ أبى ألا يكون فيصل الحرب عنـوة وقهرا للاسـلام والمسلمين ؛ على أن جيبال عاد الى طلب الصلح ، وهدد بأن الهنادكة لا يهابون المـوت اذ طرقهم طارق ،فهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم فى النار . ويخربون بيوتهم بأيديهم ، ثم يعرضون أنفسهم على سيوفهم ورماحهم . فيزهقون أرواحهم بأيديهم ، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم الا تلالا خربة(٢٧) عندئذ عدل سبكتكين وابنه محمود عن موقفهما ، وتم الصلـح بين الفريقين(٢٨) على ألف ألف درهم وخمسين رأس من الفيلـة يؤديهـا جيبال الى السلطان الغزنوى وتنازل له عن عدد من البلدان والقلاع ، وسير معه سبكتكين من تسلمها(٢٩) .

غير أن جيبال نقض الصلح ، وقبض على المسلمين الذين وفـدوا عليه لتنفيذ شروط الصلح ، وجعلهم عنده عوضا عن رهائنـه الموجودين عند سبكتكين ، فلما نمى الى علم السلطان الغزنوى لم يقف مكتوف اليدين، بل عول على النفاذ الى أرض العدو واعادة اخضاع جيبال ، فسـار الى مملكته ؛ وعاث جنده فيها فسادا وتخريبا ، وقصد لمغان ــوهى من أحصن قلاعهم ــ فاستولى عليها وهدم بيوت الأصـنام ، وأقام فيها شـعائر الاسلام ، وسار عنها يفتح البلاد ، وينكل بمن يعترض طريقه من الهنود . وعاد الى غزنة(٣٠) فاستعان جيبال على خصـمه بأمراء أجمير ودلهى وكلنجر ، وأعدوا جندا جاوز المائة الف مقاتل ، ولكن سبكتكين باغتهم . وشتت شملهم فاضطر الأمراء المتحالفون الى طلب الصـلح على أمـوال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيلة وعشرة آلاف من رءوس الخيل(٣١) .

---

(٢٥) العتبى : تاريخ اليمينى جا ص ٧٥ــ٧٩ .

(٢٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٦٦هـ .

(٢٧) العتبى : تاريخ اليمينى ج٦ ص ٧٩ــ٨٤ .

(28) Munshi : The Struggle for Empire. p. 3.

(29) Lane Poole : Medieval India, p. 17.

(٣٠) العتبى : تاريخ اليمينى جا ص ٧٩ــ٨٤ .
Morel : A Short Hist. of India. p. 143.

(٣١) العتبى : تاريخ اليمينى جا ص ٨٤ــ٨٨ .

أسفرت غزوات سبكتكين لبلاد الهنـد عن امتلاكه بعض البلـدان والقلاع فى الشمال الغربى من شبه القارة الهندية وتقع على وجه التحديد بين لمغان وبشاور ، مهدت لخلفائه سبيل فتح المزيد من البلدان الهندية كما أدت انتصارات سبكتكين على أعدائه الى ازدياد قوته وهيبته ، فأطاعه الأفغانية والخلج وأصبحوا مصدرا هاما يمده بالجند الضرورى لتحقيـق سياسته(٣٢) .

سار محمود الغزنوى على سياسة أبيه التى تنطـوى على بسـط سيطرة الدولة(٣٣) الغزنوية على بلاد الهند ، وساعد على ذلك قرب غزنة من بلاد الهند الشـمالية ، ووقوعها على قمة الهضبـة التى تشرف على سهولها ورأى فى بلاد الهند ميدان الجهاد الأكبر فغزاها سبع عشرة غزوة فى مدى سبعة وعشرين عاما فيما بين عامى (٣٩١—٤١٧/١٠٠٠—١٠٢٦) حتى خضع له شمال القارة الهندية(٣٤) فأتم فتح اقليم كابلستان ، وفتح ملتان وكشمير ، وسعى الى نشر الاسلام واحلاله محل البرهميـة فى كل مكان(٣٥) ، وأخضع البنجاب حيث استطاع خلفاؤه من بعده أن يثبتـوا سلطانهم فى عاصمتهم لاهور طوال مائة وخمسين سنة واندفع فى فتوحاته الى ما وراء نهر الكنج ليختتم فتوحه فى الهند باحتلال كجرات(٣٦) .

ولتفصيل ذلك نقول : ان السـلطان محمود الغزنوى لـما فرغ من اقرار الأمور فى خراسـان وسجستان رأى أن يغزو الهند غزوة تكـون كفارة لـما كان منه من قتال المسلمين ، فسار على رأس جيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل(٣٧) وعند مدينة بشاور التقى بجيش جيبال الذى يتكون من اثنى عشرة ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيول ، ونشب القتـال بين الفريقين ، هزم الهنود وقتل منهم كثيرون ، وأسر جيبال ومعه جماعة من البلدان الهندية ، ولـما وضعت هذه الحرب أوزارها وحطت من الظهور

---

(32) Munshi : The Struggle for Empire. p. 4.

(33) Hitti ; History of the Arabs. p. 376.

(34) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 18.

(35) Browne ; A Literary History of Persia Vol. I. p. 376.

(٣٦) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ١٢٠ .

(37) Munshi : The struggle for Empire p. 6.

اثقالها وافق السلطان محمود على اطلاق سراح جيبال(٣٨) بعد أن افتدى نفسه بمال كثير وعدد كبير من فيلة الحرب ، ولم يستطع الأمير الهندوكى بعد أن أطلق سراحه أن يبقى على قيد الحياة بعد أن لحقه الذل والعار ، فألقى بنفسه فى النار فاحترق فى شوال سنة ٣٩٢هـ ١٠٠١م(٣٩) .

ثم سار السلطان محمود نحو الهند وانتصر على أهلها ثم قصد اقليم الملتان وهو مركز مشهور للحجاج الهنود ، وقد وصف الاصطخرى(٤٠) صنم البراهمة فى الملتان فقال : ان أهل الهند يعظمون هذا الصنم ويحجون اليه من أقاصى بلدان الهند ، ويتقربون الى الصنم فى كل سنة بمال عظيم ينفق على بلد الصنم والمتعلقين به ، وصورته على خلقة الانسان متربع على كرسى من جص وآجر ، والصنم قد ألبس جميع بدنه جلدا ، لا يتبين من جثته الا عيناه ، فمنهم من يزعم أن جسده خشب ، ومنهم من يزعم أنه من غير الخشب ، الا أنه لا يترك بدنه ينكشف ، وعيناه جوهرتان ، وعلى رأسه اكليل ذهب ، متربع على ذلك الكرسى ، قد جعل ذراعيه على ركبتيه ، وقد قبض أصابع كل يديه كأنما يحسب أربعة .

لما قصد السلطان محمود الملتان ، غزا بهاطية — جنوب بلاد البنجاب — وصاحبها يسمى بحيرا — وهى مدينة حصينة عالية السور ، يحيط بها خندق عظيم فامتنع صاحبها بها ، ولما شدد المسلمون عليه الحصار ، وأدرك ضعفه ووهنه أمام القوات الغزنوية أخذ جماعة من ثقاته واعتصم بالجبال المجاورة ، فسير اليه السلطان الغزنوى فرقة من جيشه باغته على غره وأنزلت به الهزيمة ، ودخلت بهاطيه فى حوزة محمود بن سبكتكين ، وأقام بها حتى أصلح أمورها ورتب قواعدها ، ودعا أهلها الى الاسلام واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها تعاليم الدين الحنيف(٤١) .

---

(38) Lane Poole ; Medieval India. p. 14.

(٣٩) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص ٣٦١-٣٦٦ .
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٣٩٢هـ .

(٤٠) المسالك والممالك ص ٧٦-٧٧ .

(٤١) العتبى : تاريخ اليمينى جـ١ ص٦٦-٧٠ .
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٣٩٥هـ .

وفى العام التالى قصد السلطان محمود مدينة الملتان وانتصر وهو فى طريقه اليها على أندبال بن جيبال الذى رفض مرور القوات الاسلامية من بلاده ووصلت القوات الغزنوية الملتـــان واستولت عليها ولاذ صاحبهـــا بالفرار .

اتجه السلطان محمود بعد ذلك الى قلعة كواكير فاســـتولى عليها ، وأحرق أصنامها . واعتصم وتحصن صاحبها فى قلعة منيعـــة فحاصره السلطان الغزنوى وضيق عليه الحصار وما لبث أن صالحه وعـــاد الى خراسان لانقاذها من غارات الترك(٤٢) وعهد الى نواسه شاه حفيد جيبال الذى اعتنق الاسلام ودخل فى طاعة السلطان الغزنوى بأن ينوب عنه فى حكم بلاد الهند الغزنوية ، لكن نواسه شاه لم يكن مخلصا لغزنة ، فانتهز فرصة ابتعاد محمود بن سبكتكين عن بلاد الهند ، وارتد عن الاسلام ، ومالأ أهل الكفر والطغيان(٤٣) ، فلما علم محمود بذلك أسرع الى بلاد الهند ففر نواسه شاه من بين يديه ، واستعاد السلطان محمود تلك الولاية ، وأعادها الى حكم الاسلام ، واستخلف عليها رجلا من ثقاته(٤٤) .

لـــا رأى أمراء الهند انتصارات السلطان محمود الغزنوى فى بلادهم وتهديده لاستقلالهم عقدوا العزم على الاتحاد والوقوف يدا واحدة أمام الخطر الغزنوى الزاحف على بلادهم . لذلك حشـــدوا جيوشـــهم بأرض البنجـــاب فى حماس بالـــغ ، واشتبكوا مع القـــوات الغزنوية بقيـــادة السلطان محمود الذى حمل عليهم حملة لم يستطيعوا الصمود ازاءها ، ففر أمراؤهم ، ولم يستطع جنودهم الصمود أمام ضربات الغزنويين القوية فلاذ من نجا منهم بالفرار ، واستولى السلطان محمود على عتاد وذخائر وكنوز الجيوش الهندية(٤٥) ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل بعض قواته فى أثـــر

---

(٤٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٣٩٦ .

(٤٣) نفس المصدر ، حوادث سنة ٣٩٧هـ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص٣١٦ .

(44) Munshi : The Struggle for Empire. p. 8.
Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 40.

(٤٥) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية جـ١ ص٩٠ .

فلول العدو المهزومة فلحقت بابرهمن بال بن أندبال(٤٦) فى قلعة بهيم نغر — وهى على جبل عال — وكان الهنود قد جعلوها مخزنا لصنمهم الأعظم ، فينقلون اليها أنواع الذخائر ، ونفيس الجواهر منذ سنين طوال . تقربا الى هذا الصنم ، فحاصر القلعة الجند الغزنوى ، وضيقوا على من بها الحصار حتى وهنوا واستسلموا وفتحوا باب الحصن ، وملك المسلمون القلعة(٤٨) وحصلوا منها من نفيس الجواهر ما لا يحد ومن الدراهم تسعين الف الف درهم ومن الأوانى الذهبية والفضية الشىء الكثير. وكان ذلك سنة ٣٩٨هـ(٤٩) سنة ١٠٠٧م .

وفى سنة ٤٠٠هـ سنة ١٠٠٩ قام السلطان محمود بغزوة أخرى الى بلاد الهند فهاجم تارين ، واستولى عليها ، وحطم أصنامها ، ولما رأى صاحب تارين عدم استطاعته الوقوف فى وجه السلطان محمود عرض عليه الدخول فى طاعته وأرسل عدد من فيلة ومال عظيم وألف رجل من عسكره اليه كل عام . فأجابه السلطان محمود الى طلبه « وتتابعت القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند فى ضمان الأمان وجوار الحيطة والاحسان(٥٠) .

بلغت فتوحات السلطان محمود فى بلاد الهند حدا لم تبلغه رايات الاسلام المنصورة قبلا ، ودخل فى دين الله أفواج عديدة من أهل الهند ومع ذلك لم يتوقف السلطان محمود الغزنوى عن سياسته فى مواصلة ضم المزيد من البلاد الهندية الى دولته ، فسار فى سنة ٤٠٤هـ سنة ١٠١٣م على رأس جيش كبير الى ناردين ، فسقط فى يد صاحبها ، لذلك آوى هو وجنده الى جبل عال صعب المرتقى ضيق المسلك . لعله يعصمهم من بأس الجند الغزنوى(٥١) وكتب الى قومه يدعوهم الى الوقوف الى جانبه ،

---

(٤٦) العتبى : تاريخ اليمينى ج٢ ص ٩٤ــ٩٩ .

Lane Poole : Medieval India p. 20.

Munshi : The Struggle for Empire p. 9.

(48) Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 29.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٣٩٨هـ .

(٥٠) العتبى : تاريخ اليمينى ج٢ ص ٩٤ــ٩٩ .

Munshi : The Struggle for Empire p. 9.

(٥١) العتبى : تاريخ اليمينى ج٢ ص ١٤٨ــ١٥٢ .

فكثر جمعه ، وعظمت قوته ودخل مع المسلمين فى معركة دارت فيها الدائره عليه ، وقتل من جنده كثيرون ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم ، وفتح المسلمون ناردين فتحا طرزوا به شعائر الاسلام ، ووجدوا فى بيت كبير صنما قيل : انه بنى منذ أربعين ألف سنة دمره السلطان محمود(٥٢) .

حرص السلطان محمود على الوقوف فى وجه أمراء البلدان الهندية الذين يحاولون النيل من سلطانه فيها ، ففى سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م سار السلطان محمود الى ثانيسر لاخضاع صاحبها الذى تمادى فى الكفر والطغيان والعناد للمسلمين(٥٣) فلقى فى طريقه أودية وعرة المسالك وقفارا فسيحة قليلة الماء ، قاسى جنده فى قطعها مشقة(٥٤) بالغة وحمل الجند الغزنوى على أهل ثانيسر حملة أدت الى هزيمتهم ، وغنم المسلمون مامعهم من أموال وفيلة ، وعادوا الى غزنة ظافرين . وترتب على هذا الانتصار أن دان للمسلمين اقليم البنجاب وأصبح الطريق الى سهول الهند ممهدا أمامهم(٥٥) .

كان من أثر الانتصارات الرائعة التى أحرزها السلطان محمود فى بلاد الهند والغنائم الكثيرة التى حصل عليها جيشه المظفر . أن كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أوانى الفضة لثقلها اكتفاء بما كانوا يحملون من ذهب كثير وجواهر . والمعروف أن أوانى المعابد الهندية وأكثر الآنية التى تزخر بها دور الأغنياء لم تكن فى الغالب الا من الذهب الخالص ، لذلك قدم على السلطان محمود من المتطوعة عشرون ألف مقاتل من بلاد ما وراء النهر وغيرها من البلاد ، فقوى بهم ، واعتزم غزو كشمير المجاورة لممتلكاته الهندية(٥٦) ، ولما بلغ بقواته بلاد الهند خشى أمراؤها بأسه ، فأرسلوا رسلا اليه يبذلون الطاعة والولاء له ، ولما بلغ مشارف كشمير أتاه صاحبها وأسلم على يديه ، وواصل السلطان الغزنوى زحفه ، وفى طريقه استولى على الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودب

---

(٥٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٤ .
Habib ; Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 36.

(53) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 22.

(٥٤) العتبى : تاريخ اليمينى جـ٢ ص ١٤٩-١٥٢ .
الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية جـ١ ص ٩٢ .

(55) Munshi ; The Struggle for Empire. p. 12.
Defremery : Hist. des Ismaeliens. p. 30.

فاستسلم صاحبه للسلطان محمود ، ودخل هو وقومه فى الاسلام . وسار عنه السلطان الغزنوى الى قلعة كلجند(٥٧) ، والطريق اليها غياض ملتفة لا يمكن اجتيازها الا بشق الأنفس ، وكان صاحبها كما يقول العتبى(٥٨) من أعيان الهند وشياطينهم ، فسير جيشه الى أطـــراف تلك الغياض كى يمنـــع المسلمين من اجتيازهـــا ، لكن الجيش الغزنـــوى أحبـــط محاولة الذين يحاولون النيل من ســـلطانه فيها ففى سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م ســـار منه ، وقد ألحق بالعدو خسارة فادحة(٥٩) ، وعمد كليجند الى زوجتـــه فقتلها ، ثم قتل نفسه بعدها ، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه(٦٠) وسار محمود الى بيت الأصنام المشهورة بهذه البلاد به خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألف وثلاثمائة مثقال فأخذ السلطان الغزنوى كل ذلك وأحرق الباقى(٦١) .

لم يكتف السلطان محمـــود بما حققه من انتصارات ، انما واصـــل سيره الى قنوج ، فغادرها راجبال — صاحبها — فاستولى عليها محمود وعلى قلاعها وأعمالها ، ثم سار الى قلعـــة البراهمة ، ودار قتـــال بين الغزنويين وبين أهلهـــا ، دارت فيه الدائرة على الهنـــود ، ولم ينج منهم الا الشريد(٦٢) ثم اتجه الى قلعة آسى ، ولمـــا لم يســـتطع جند بـــال مواجهة القوات الغزنوية ، لاذ بالفرار . وعلى ذلك امتلك محمود الغزنوى حصنه ، ثم سار الى قلعة شروة ، ولم يستطع صاحبها أيضا الثبات أمام القوات الغزنوية ، وقتل أكثر جنده ، وغنم المسلمون ما معه من أموال(٦٣) وخيل ، وعاد محمود بن سبكتكين الى غزنة ظافرا ، وأنفق ما حصل عليه من هذه الغزوة من مال وفير فى تشييد مسجد كبير فى غزنة(٦٤) .

---

(59) K Ali : A New iHistory of Indo-Pakistan p. 22.
Lane Poole : Medieval 'India. p. 24.

(٥٨) تاريخ اليمينى جـ١ ص٢٦٧ــ٢٧٦ .
Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. **37**.

(٥٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٧هـ .
(٦٠) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ص ٩٣ .
(٦١) العتبى : تاريخ اليمينى جـ٢ ص ٢٦٧ــ٢٧٦ .

(92) Munshi : The Struggle for Empire. p. 15.
(93) Munshi : The Struggle for Empire. p. 15.

(٦٤) العتبى : تاريخ اليمينى جـ٢ ص ٢٨١ــ٢٨٩ .

على أن ملوك الهند لم يستسلموا لما لحقهم من هزيمة . وسقوط بلادهم البلدة تلو الأخرى فى أيدى الغزنويين ، بل عولوا على التخلص من نفوذ وسيطرة غزنة . وقد تزعم هذه الحركة الاستقلالية بيدا — ملك كجوراهه(٦٥) — والتف حوله ملوك الهند ، غير أن راجيبال فاجأ حلفاءه وخرج عليهم ، وعاد الى الولاء الى الدولة الغزنوية(٦٦) فباغته كجوراهه وقتله ، فازدادت قوته ورأى فيه ملوك الهند خير من يقودهم فى معركة تحرير بلادهم من سيطرة الغزنويين ، لكن السلطان محمود بن سبكتكين لم يقف مكتوف اليدين ازاء هذا الخطر الداهم الذى يهدد دولته فى الهند ، بل سار سنة ٤٠٩هـ سنة ١٠١٨م على رأس جيش كبير الى بلاد الهند ، وعبر نهر الكنج(٦٧) والتقى بالقوات المتحالفة . ولقد كان لظهور السلطان محمود فى الميدان أثر كبير على أعدائه ، فأخذهم الهلع والفزع ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئا ، اذ انقضت عليهم القوات الغزنوية وألحقوا بهم الهزيمة ، ولما رأى ملوك الهند عدم جدوى التصدى للسلطان الغزنوى ، أرسلوا رسله اليه ، يبذلون الطاعة والاتاوة ، فقبل منهم محمود الصلح(٦٨) وسار فى أثر بيدا ، والتقى به فى موقعة كبيرة نصر الله فيها المسلمين على أعدائهم ، وغنموا أموالهم وسلاحهم واقتفوا فلول المهزومين ، وباغتوهم فى الغياض والآجام ، وأكثروا فيهم القتل والأسر(٦٩) .

تتابعت غزوات وانتصارات السلطان محمود فى بلاد الهند ، واتسعت أملاك الدولة الغزنوية فى هذه البلاد ، وعظمت هيبته فى نفوس أهلها ، وتوقفوا عن مقاومة النفوذ الغزنوى ، على أن أعظم غزوات السلطان محمود حدثت سنة ٤١٦هـ سنة ١٠٢٥م اذ فتح عدة حصون ومدن واستولى على الصنم المعروف بسومنات . وهو أعظم أصنامهم، يحجون اليه كل ليلة خسوف ، ويعتقد الهنود أن الأرواح اذا فارقت الأحياء . اجتمعت فيه ، فينشئها فيمن يشاء ، وكانوا يحملون اليه نفائس الجواهر ، ويعطون سدنته المال الوفير ، وله وقف يزيد على عشرة آلاف قرية ، يفد اليه البراهمة لعبادته ، واقامة الحفلات الدينية على بابه ، ويعتقد الهنود أن

Lane Poole : Medieval India. p. 23.

(٦٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٢ .

Lane Poole : Medieval India p. 25.

(٦٨) العتبى : تاريخ اليمينى جـ٢ ص ٣٠١ـ٣٠٤ .

(٦٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٩ .

السلطان محمود فى غزواته كلما حطم صنما . يعتقدون أن سومنات غير راض عنه ولو أنه راض عنه لأهلك من قصده بسوء(٧٠) ويعتقدون أن هذا الصنم يحيى ويميت ، وأنه اذا شاء أبرأ من جميع العلل ، ومن لم يصادف من أهل الهند انتعاشا احتج بالذنب وقال : انه لم يخلص له الطاعة ، ولم يستحق منه الاجابة ، ولا يوجد فى بلاد الهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة الا قدم لهذا الصنم ما عز عليه من أموال وذخائر(٧١).

لم يهاجم محمود الغزنوى سومنات لتدمير صنم أو الاستيلاء على ما فيه من أموال كما يدعى بعض المؤرخين ، ولكن لأن سمنات كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى فى وجه الزحف الاسلامى ، ومهما يكن من أمر سار السلطان محمود على رأس جيش كبير ســـنة ٤١٦هـ سنة ١٠٢٥م فاقتحم صحراء جرداء قاحلة مترامية الأطراف هى صحراء الثار — أكبر صحراوات الهند — فلما اجتاز هذه الصحراء ، رأى فى طرفها حصـــونا مشحونة بالرجال ففتحها ودمر أصنامها ، وحصل منها على الماء والميـــرة اللازمتين لرجاله وسار الى أنهلواره . ففر صاحبها منها ، واحتمى بحصن له ، فاستولى محمود على المدينة وسار الى سومنات(٧٢) ودمر فى طريقه عددا من الحصون فيها كثير من الأوثـــان فيما يبـــدو — حجابا ونقبـــاء لسومنات — حسب اعتقاد الهنود(٧٣) — فقاتل من بها ، وفتحها ، وحطم

---

(٧٠) العتبى : تاريخ اليمينى ج٢ ص ٢٠٤ــ٢٠٧ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج٤ ص ٩٧٣ .

Morel : A Short History of India. p. 148.

(٧١) سومنات : مدينة ساحلية واسعة بها علمـاء الهنود وعبادهم ، والصـنم المعـروف بها يســمى البـد ، يجلس على كرسى من ذهب وهو مضمـخ بالمسـك فى رأســه الى الكرسى ومقلـد بعقـود الياقـوت والجوهر وأمامـه أطباق ذهب مملـوءة من الاحجـار الشريفة الثمينـة والكرسى على مقعـد مسـتدير يسـع عشرة رجـال ، وبيت الصنم مظلما ، والضـوء الذى عنـده من قنـاديل الجوهر الفائـق . وعندها سلسلة ذهب فيهـا كرسى كلمـا مضى وقت من الليـل ، حـركت السلسلـة فيـدق الجرس ، فيقوم طائفة من البرهميين الى عبـادتهم ، وعنـده خـزانة خاصة فيهـا عدد من الاصنام الذهبية والفضية .

Munshi : The Struggle for Empire. p. 19.

(٧٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤١٦هـ .
(٧٣) العتبى : تاريخ اليمينى ج٢ ص ٢٠٤ــ٢٠٧ .

أصنامها وسار الى سومنات(٧٤) ؛ وقضى على كل مقاومة اعترضت طريق الوصول اليه ، ولمـا بلغ حصن سومنات ، قاتل من به ، وأسرعوا الى صنمهم سومنات ليقاتلوا عنه ، وفعلا قاتلوا على بابه بعنف وضراوة(٧٥) وتضرع الهنود الى صنمهم لعله ينصرهم ؛ وحمل الجند الغزنوى عليهم حملة أخذت الكثير منهم ، وحطم السلطان محمود الصنم سومنات وأحرق بعضه، وأخذ بعضه معه الى غزنة ، وجعله عتبة مسجد غزنة الجامع(٧٦) .

غير أن بعض ملوك الهند قد أغضبهم ما حاق بمعبودهم الأكبر فأعدوا العدة لمقاومة السلطان محمود ، فخرج صاحب أنهاواره وقصد قلعة كنزهة — قرب سومنات — ولما نمى الى علمه أن السلطان محمود قصده ، فر إلى بلاده(٧٧) ، كما قصد السلطان الغزنوى المنصورة(٧٨) ، وكان صاحبهـا قد ارتد عن الاسلام ، وأعد العدة لمحاربة السلطان محمود — فسار السلطان الغزنوى الى المنصورة واشتبك مع صاحبها وهزمه وأخضعه لنفوذه ، ثم سار الى بهاطية ؛ فأطاعه أهلها ودانوا له بالولاء ، وعاد الى غزنة سنة ٤١٧هـ سنة ١٠١٦م(٧٩) .

وقد أعجب محمود بجمال اقليم جوجرات ، وارتاح الى مناخه ، حتى انه فكر فى الاقامة فيه ، واستخلاف ابنه مسعود على غزنة لولا اعتـراض قادته ، ومهما يكن من أمر فانه يمكن اعتبار محمود الغزنوى سلطانا هنديا خالصا ، فتح أقليم البنجاب ، ونشر الاسلام فى ربوع الهند ، وفتح طريقـا سلكه بعده كثيرون(٨٠) ، وقنع خلفاؤه بعـد أن فقدوا أملاكهم فى فارس وأنفانستان بالاستقرار فى اقليم البنجاب(٨١) ولم تكن غايـة محمود من غزواته فى بلاد الهند جمع الأموال — كما يدعى بعض المؤرخين — حقيقـة

---

(٧٤) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٢ ص ١٦٢ .

(75) Hitti : History of the Arabs p. 464.

(76) Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 51-53.

(77) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 26-77.

(٧٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤١٧هـ .

(79) Munshi : The Struggle for Empire p. 4.

(80) Cambridge History of India Vol. II. p. 26-27.

(81) Prasad : Medieval India p. 71-72.

ان محمود الغزنوى غنم الكثير من غزواته ، لكن هدفه كان أولا وقبل كل شيء نشر الاسلام . وتحطيم الأصنام ، بدليل أنه رفض ما عرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم السومنات بالأموال الطائلة ، وقال انه يؤثر بأن يصفه من يأتى بعده بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع أوثان (٨٢) . وعلى ذلك يمكن القول بكل ثقة بأن محمود الغزنوى كان غازيا مجاهدا ، أخذ على عاتقه نشر الاسلام فى بلاد الهند ، والقضاء على الوثنية فيها . والحق أن محمود الغزنوى كان من خيرة قادة وزعماء الاسلام وبلغ فى فتوحه « الى حيث لم تبلغه فى الاسلام راية ، ولم تتل به قط سورة ولا آية ، فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع ، وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الاسلام ، ومن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والايمان(٨٣) .

واصل مسعود بن محمود الغزنوى سياسة أبيه فى المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية فى بلاد الهند ، وضم المزيد من الأراضى الهندية الى الدولة الغزنوية ، فأقر أحمد بن ينالتكين على بلاد الهند الغزنوية ، وقد قام هذا الوالى بالاستيلاء على منارس من ولاية الكنج التى لم تبلغها جيوش الاسلام قبلا(٨٤)

قوى شأن أحمد بن ينالتكين فى بلاد الهند ، وحدثته نفسه بالخروج على الدولة الغزنوية ، لكن السلطان مسعود تصدى له وتخلص منه(٨٥) .

وعلى الرغم من أن السلاجقة كانوا يشكلون خطرا جسيما على الدولة الغزنوية فى عهد السلطان مسعود الا أن هذا السلطان لم يتقاعس عن مواصلة الفتوح فى بلاد الهند ، ولم يستمع الى تحذير رجال دولته بالبقاء فى غزنة حتى يكون قريبا من السلاجقة ، فسار الى بلاد الهند سنة ٤٢٩هـ ١٠٣٧م لتحقيق حلمه القديم وهو الاستيلاء على قلعة هانسى

---

(٨٢) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية جـ١ ص٩٨ .
Advanced History of India. p. 103-104.

(٨٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٤ ص ٢٦٥ .

(٨٤) تاريخ البيهقى ص ٤٢٦-٤٢٧ .

(٨٥) تاريخ البيهقى ص ٢١٥ .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٢١هـ .
Lane Poole : Medieval India p. 41.

وكانت تسمى بالقلعة العذراء ، لأن أحدا لم يستطع فتحهـا من قبل . واستولى على هذا الحصن الهندوكى الكبير ثم زحف الى سنيات عند الشمال الغربى من دلهى ، ففر أهلها الى الغابات المجاورة مما يسر للسلطان أمر الاستيلاء على هذه البلدة(٨٦) .

على أن جهود السلطان مسعود فى بلاد الهند يسرت للسلاجقة تحقيق أطماعهم فى اقليم خراسان(٨٧) واستولوا على بعض بلدان خراسان وتطور الأمر فى الدولة الغزنوية الى أسوأ من ذلك . فقد هزم السلاجقة السلطان مسعود فى داندانقان سنة ٤٢٢هـ/١٠٤٠م .

ولمـا رأى السلطان الغزنوى ضعف قوته ، قرر الرحيل الى الهنـد حتى يجمع الجموع ويعود الى غزو السلاجقة ، واسترداد خراسان ، لكنه قتل فى الطريق الى الهند ، فخلفه ابنه مودود ، وسار على سياسة أبيه فى المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية فى الهند ، فتصدى لأخيه مجـدود الذى ولى اقليم البنجاب منذ عهـد أبيه ، وكان من أثر ثورة مجـدود أن تشجع بعض أمراء الهنادكة وتحالفوا ، وأعلنوا الاسـتقلال عن الدولة الغزنوية ، وزحفوا الى لاهور ، لكن الجند الغزنوى ردوهم على أعقابهم ، وعادت الى المسلمين هيبتهم فى شمال شبه القارة الهندية(٨٨) .

ولمـا ولى السلطان ابراهيم بن مسـعود الحكم أعاد الى الدولـة الغزنوية هيبتها ، ونظم أمورها ، وأقر الأمور فى هندوستان(٨٩) ولمـا توفى امتد النفوذ السلجوقى الى الدولة الغزنوية ، فواتت الفرصة الأمـراء الهنود لمحاولة الانفصال عن الدولة الغزنوية ، لكن السلطان بهرام شاه أدحض محاولتهم ، وقضى على الفتن التى حدثت فى البنجاب والملتان ، ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور وكانت الآمال قد بعثت فى نفوسـهم من

---

(٨٧) تاريخ البيهقى ص ٥٨٠ .

Lane Poole : Medieval India p. 43.

(٨٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٦ .

(٨٩) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٣٠ .

Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 104.

جديد لطرد الغزاة من بلادهم ، وهكذا استطاع بهرام شاه أن يحافظ على النفوذ الغزنوى فى بلاد الهند ، ويثبت أقدام الدولة الغزنوية فيها(٩٠).

ولما ضعفت الدولة الغزنوية لجأ سلاطينها الى ولايتهم فى بلاد الهند للاعتصام بها أو الاستعانة بأهلها لرد الغزاة الطامعين فى غزنة ــ حاضرة ملكهم ــ فلما ولى السلطان خسروشاه لجأ الى الهند على اثر اقتحام قبائل التركمان لحاضرة دولته ، كما انتهز الغور فرصة الفوضى التى عمت الدولة الغزنوية المتداعية ، فانقضوا على غزنة وأعملوا فيها الخراب والدمار(٩١) ، وقضى آخر ملوك الدولة الغزنوية أيامه الباقية فى لاهور ، وتفاقم خطر الغور ، واشتد ساعدهم فاستعاد زعيمهم غزنة من التركمان، وظلوا يطاردون السلطان الغزنوى فى بلاد الهند حتى قبضوا عليه ، وبذلك انتهت الدولة الغزنوية التى يرجع اليها الفضل فى توطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند ، ونشر الاسلام فى تلك الديار .

والواقع أن حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقرا لهم يعتبر بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد ، ذلك أن ملوك الغور الذين ورثوا الدولة الغزنوية تولوا سلطنة دلهى(٩٢) ، ونشروا نفوذ المسلمين فى أرجاء بلاد الهند الشمالية قاطبة(٩٣) .

نتائج الفتوحات الغزنوية فى بلاد الهند

لا شك أن الاسلام انتشر بين الهنود نتيجة غزوات سلاطين بنى سبكتكين ، ودخل الهنود فى الاسلام عن طوع واختيار حقيقة ساهم التجار المسلمون بدور كبير قبل أن يعمل الغزنويون فى بلاد الهند على نشر الاسلام ، وبنوا مساجد فى بعض مدن الهند ، كما أن حكومة الملتان الاسلامية كان لها السيادة فى بلاد السند منذ الفتح العربى فى عهد بنى

---

(٩٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٢٨٦ .

(91) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule p. 46.

(92) Lane Poole : The Mohammedan Dynasties p. 284.

(93) Prassad : Medieval India p. 48.

أمية ، وكان لها نصيب فى نشر الاسلام فى هذه البـــلاد . ولكن ينبغى أن نؤكد أن السلاطين الغزنويين خصوصا محمود بن سبكتكين كان لهم تأثير كبير على الهنادكة حتى ان جموعا غفيرة منهم أقبلوا على اعتناق الاسلام.

انتشر الاسلام فى بلاد الهند نتيجة لانتصارات راياته فيها ففى سنة ٤١٠هـ أحرز السلطان محمود انتصارا رائعا على هرداتا ـــ أحد ملـــوك الهند ـــ فوافق على اعتناق الاسلام ، وتقدم الى السلطان الغزنوى مع عشرة آلاف رجل ، وأعلنوا رغبتهم فى التحول الى الاسلام ، ونبذ عبادة الأصنام(٩٤) ، ومما لا شك فيه أن بعض الهنود تركوا عبـــادة الأوثان واعتنقوا الاسلام تقربا لحكامهم الجدد .

ولقى الاسلام ترحيبا كبيرا من الطوائف الفقيرة الذين كان حكامهم الآريون ينبذونهم ويحتقرونهم وينتقصون من شأنهم ، فأعلى الاســلام ـ دين المساواة ـــ منزلتهم ورفع شأنهم(٩٥) .

كذلك انتشر الاسلام بين الهنود عن طريق الفقهاء والوعاظ ودروسهم والعلماء والمتصوفة ورحلاتهم ، ومن أبرز وأشهر هؤلاء الشيخ اسماعيل وكان من أهل بخارى ، وعرف بثقافته الدينية والدنيوية ، قدم الى لاهور سنة ٣٩٦هـ ١٠٠٥م وظل بها يدعو الناس الى الاسلام ويعلمهم شرائعه ، وقد وفد عليه كثير من أهل الهنـــد للاستماع الى مواعظـــه ، وسرعان ما هدى الله الكثير من الناس الى الاسلام على يديه(٩٦) .

ولـــا كان الغزنويون سنيين متشددين ، فقد اعتنق الهنود الاسلام على المذهب السنى ، وحـــذوا حذو غزاتهم فى تعصبهم وتزمتهم . كذلك عرف أهل الهند اللغة الفارسية عن الغزنويين ، والمعروف أن هذه اللغة نمت وازدهرت فى بـــلاط سبكتكين فى غـــزنة ، كذلك وجـــد المتصـــوفون من الفرس والترك فى بـــلاد الهند خير موئـــل يلجئون اليه من بلادهم المضطربة ، ولقيت الصوفية ترحيبا من أهل الهند الذين يميلـــون اليها بطبيعتهم(٩٧) ، كذلك أخذ الترك فى الهنود . والهنود فى الترك ، وأخذ

---

(٩٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٩هـ .
(٩٥) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢١٤ .
(٩٦) نفس المصدر ص ٢١٥ .
(٩٧) حسن أحمد محمود : الاسلام فى اسيا الوسطى ص ٢٦٩ .

كل منهما عن الآخر ، اذ نقل الترك الى الهند الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة التركية والفارسية ، وبهذا انتشرت فى المجتمع الاسلامى بالهند اللغة الفارسية — لغة الثقافة فى ذلك العصر(٩٨) — واللغة الأوردية التى هى خليط من الهندية والعربية والفارسية والتركية ، ولم تنتشر اللغة العربية ، وبالتالى لم تزدهر الثقافة العربية بالهند ازدهارها فى الأقاليم والدول الاسلامية الأخرى ، وساعد على هذا أن بعض الشيوخ والعلماء الذين وفدوا على الهند كانوا من علماء ما وراء النهر ، وهؤلاء كانوا أتباع مذهب أبى حنيفة يعتمدون على كتب فقهاء هذا المذهب ، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة والثقافة الفارسية ، وبهذا اصطبغت الثقافة الاسلامية بالهند بهذه الصفات الثلاث ، ولم تقم على أسس قوية من الثقافة العربية(٩٩) . ونشأ فريق من المولدين يمثل حضارة اسلامية، مزيج من الحضارات التركية والفارسية والهندية ، وينعم بالتسامح الاسلامى ، وينبذ التفرقة التى كانت من أبرز خصائص المجتمع الهندى من قبل ، وظهر مفكرون يهاجمون الديانة البرهمية(١٠٠) ، واحترم الهنادكة عقائد المسلمين ، كما أن المسلمين استفادوا من فلسفة الهند ، وتقدم علمائهم فى علم الفلك .

ولقد تأثرت الحياة الاجتماعية بالترك ، وتجلى ذلك فى انتشار الحجاب بين النساء ، وتخلص المنبوذون من قيود النظام الطبقى وساهموا بحرية فى ميادين الحياة المختلفة من سياسية واقتصادية ، واقتبس الهنود عن المسلمين أنظمتهم الادارية والمالية والقضائية ، وشهد الأدب الفارسى ازدهارا ، زاد منه رحيل أدباء فارس الى الهند ، وأصبحت الفارسية لغة التأليف والكتابة للمسلمين ، وغير المسلمين ، واستفاد المسلمون من السنسكريتية ، وترجموا عنها الى الفارسية كما ترجموا اليها ، وفى ميدان الفن استفاد المسلمون من الهنود ، والهنود من المسلمين ، وتجلى ذلك فى المساجد والمعابد .

---

(٩٨) جوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٤١٧ـ٤١٨ .

(٩٩) جمال الشهال : تاريخ دولة أباطرة المغول الاسلامية فى الهند ص١٧ .

(١٠٠) جوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٤١٧ـ٤١٨ .

د ـ النهضة الثقافيــة

ازدهرت الحياة الثقافية فى الدول المستقلة فى شرق الدولة الاسلامية وقدر أمراؤها رجال الأدب ، وعملوا على ارضائهم ؛ فقد كان كل أميــر يريد أن يتفوق على أقرانه يحيط نفسه برجال العلوم والفنون وأهم المراكز الأدبية فى عهد السامانيين بخارى والمدن المختلفة فى جنوب وغرب ايران ، خصوصا الرى وأصفهان فى عهد البويهيين وقصور العلويين والزياريين فى ولاية طبرستان ، وقصور ملوك خوارزم(١) .

برزت غزنة فى أواخر القرن الرابع الهجرى كمركز اشعاع كبير فى جنوب شرق آسيا ، يعلو شأنه على المراكز السابق ذكرها وذلك بفضل تشجيع السلاطين الغزنويين الذين لم يألوا جهدا فى سبيل رفع شأن العلوم والفنون فى دولتهم ، ومما زاد فى مكانة غزنة أن معظم المراكز التى ذكرناها آلت الى للدولة الغزنوية واســتطاع السلطان محمود الغزنوى أن يضم اليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطــون بأمراء البلاد المجاورة(٢) .

وجدير بالذكر أن الســلطان محمود أرســل الى مأمون بن مأمون ـــ أمير خوارزم ـــ يقول « لقد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعا الى قصرى حتى يتشرفوا بلقائى فنحن نرجو أن ننتفع بعلمهم وفنهم » ، ولمــا كان هذا الأمير يخشى بأس السلطان محمود فقد أمر رجال العلم فى بـــلاده بالتوجه الى غزنة فقصده البيرونى وغيره ، وفر ابن سينا الى طبرستان ، وجد الســلطان محمود فى البحث عنه ؛ ولكن أمير طبرستان لم يمكـــن رجال السلطان الغزنوى من ابن ســـينا بعد أن أفاد منه فوائـــد جمة فى مجالات الطب وغيره من فروع العلم(٣) .

أما عن الحركة الثقافية فى بلاد الهند التى فتحها الغزنويون فقـــد كانت ضعيفة لحداثة عهدها بالاسلام واللغة العربية على أن القسم الذى اســـتولوا عليه من الدولة السامانية وغيرهـــا من البلاد التى استوثق

---

(١) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ١١٥ .

(٢) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ١٢٢ .

(٣) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ١١١ .

الاسلام فيها استمرت الحركة الثقافية فى العهد الغزنوى على ما كانت عليه من حيث الازدهار والقوة(٤) .

كان لقيام الدولة المستقلة فى شرق الدولة الاسلامية أثره فى ازدهار الحياة الثقافية فيها ، فقد نافست حواضر هذه الدولة بغداد بعد أن كانت اكبر مراكز العلوم والآداب ، وأصبح لهذه الحواضر شخصية متميزة فى علمها وأدبها تعمل على تجميل نفسها بالعلماء والأدباء ، وتعتز بهم ، وتيسر لهم سبل الحياة الهنيئة(٥) .

لم يأل السلطان محمود الغزنوى جهدا فى تشجيع الحركة العلمية فى بلاده ، فزين غزنة بأجمل ما حصل عليه من مغانم الهند وأعاد تشييد مسجدها الجامع على أحسن صورة « وأضاف الى المسجد مدرسة فيحاء تشتمل حجراتها من بساط الأرض الى سقوفها على تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين منقولة من خزائن الملوك السابقين ، يتناولها فقهاء وعلماء غزنة بالتدريس (٦) » .

ومما يجدر ذكره أن السلطان محمود لما فتح الرى سنة ٤٢٠ ، كان صاحبها مجد الدولة بن فخر الدولة بن بوية متشاغلا عن أمور بلده بقراءة الكتب ونسخها ، وكان عنده مكتبة ضخمة تحتوى على فروع العلم المختلفة ، فلما فتحها السلطان محمود أحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم واخذ من الكتب ما سوى ذلك مائة حمل الى خزائنه(٧) .

اجتذب السلطان محمود بن سبكتكين الى غزنة الكثير من علماء الدين ، وحبب أهل المذاهب الدينية والفقهية فى التقرب اليه لاعتقادهم أنه اذا اعتنق مذهبا ساد فى الأقاليم الواسعة التى فتحها ، فالفاطميون فى مصر وجهوا اليه داعية يدعونه الى دخول المذهب الاسماعيلى ، فأيقن محمود بطلان ما دعى اليه . وأمر بقتل داعى الفاطميين وأهدى بغلته

---

(٤) أحمد أمين : ظهر الاسلام جا ص٢٨١ .
(٥) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى المشرق ص٢٠٨ .
(٦) العتبى : تاريخ اليمينى ج٢ ص ٢٩١_٢٩٩ .
(٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٢٠ .

الى القاضى أبى منصور الأزدى ـ شيخ مدينة هراة ـ وقال : كان يركبا رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين(٨) .

وجدير بالذكر أن السلطان محمود بن سبكتكين كان مولعا بعلم الحديث ، ويستمع الى علمائه ، ويستفسر عما يتلونه من احاديث(٩) .

ويذكر البيهقى(١٠) أن محمود بن سبكتكين كان يستدعى الى غزنة كل من له سمعة فى العلم ؛ ومن هؤلاء أبو صالح التبانى والامام أبو صادق ؛ ولما توفى أبو صالح أرسل محمود الى نيسابور يسأل عمن بقى منهم لأنهم أخلص الناس الى مذهب أبى حنيفة ، وكان أبو صادق آية فى العلم والكمال ، تولى قضاء طوس ، ونسا . وتجلت مقدرته العلمية فى مجالسه ومناظراته العديدة حتى ان السلطان عهد اليه بالاشراف على المدارس الدينية فى تلك النواحى .

ازدهرت الحركة الثقافية فى مراكز عديدة فى الدولة الغزنوية فكان خلف بن أحمد ـ والى سجستان ـ يتمتع بسمعة كبيرة فى اهتمامه بأهل العلم « وقد مدح على ألسنة الشعراء والعلماء بما هو سائر ، وذكره فى الآفاق طائر » ، ومن أبرز أعماله العلمية جمعه العلماء على تفسير وتصنيف القرآن الكريم لم يغادر فيه حرفا من أقوال المفسرين أو تأويل المتأولين وأتبع ذلك بوجوه القراءات ، وعلل النحو والتصريف وعلامات التذكير والتأنيث ، ووسعها بما رواه الثقات الاثبات من الحديث ، وأنفق عليهم مدة اشتغالهم بمعونته على جمعه وتصنيفه عشرين ألف وأودع نسخها نيسابور فى مدرسة الصابونية وتفسيره من أكبر كتب التفاسير اذ يقع فى مائة مجلد(١١) .

ومن علماء نيسابور المشهورين أحمد بن الحسين البيهقى وهو من كبار المهتمين بالحياة الثقافية ، رحل فى طلب الحديث الى العراق والحجاز والجبال ، وسمع فى خراسان من علماء عصره ؛ وكذلك بالبلاد

---

(8) Hitti : History of the Arabs p. 376--377.

(٩) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج١ ص٢٨١ .

(١٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان .

(١١) براون : تاريخ الادب الفارسى ج٢ ص٢٠٣ .

التي زارها وشرع في التصنيف حتى بلغت ألف جزء ، وهو أول من جمع تصانيف الامام الشافعي في عشر مجلدات . ومن أشهر مصنفاته « السنن الكبير » ، « السنن الصغير » ، « دلائل النبوة » ، « السنن والآثار » ، « مناقب الشافعي » ، « مناقب ابن حنبل » .

وكان من أهل الزهد ، وقيل : ما من شافعي المذهب الا وللشافعي عليه منة الا أحمد البيهقي فان له على الشافعي منة . اذ كان من أكثر الناس دراسة لمذهب الشافعي . وانتقل الى نيسابور لينشر العلم ، وأخذ عنه الحديث جماعة من الأعيان وتوفي(١٢) سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م .

وكان البستي كاتب محمود وموضع سره ومستشاره في أمره ، أديبا كبيرا له شعر جيد ونثر جيد(١٣) ، فأما شعره فأكثره مقطوعات يعمد فيها الى المعنى الرقيق ، فيصوغه في لفظ رشيق ، وأما نثره فواضح جميل فيه السجع والازدواج على طريقة عصره ، وهو في نثره يكثر من الأمثال ، و نظمه يكثر من الحكم(١٤) .

ويتجلى لنا من قصائده وكتاباته التي وصلت الينا مدى معرفته لأنواع العلوم ، وخاصة علم النجوم .

كذلك كان لأبي نصر محمد بن عبدالجبار العتبي مؤرخ الدولة الغزنوية مكانة كبيرة عند محمود بن سبكتكين ، قدم الى خراسان على خاله أبي نصر العتبي — من كبار عمال الدولة السامانية وفضلائهم ، وعمل معه الى أن مضى الى سبيله ، وتنقلت به الأحوال والأسفار في الكتابة لبعض الأمراء حتى اختاره السلطان سبكتكين كاتبا له مع أبي الفتح البستي ، وله مؤلفات كثيرة ، ومن أبرزها كتاب اليميني نسبة الى لقب السلطان محمود ، وقد ألف العتبي كتابه هذا في تاريخ الدولة الغزنوية ، ترجم فيه لسبكتكين ، وأوضح كيفية تأسيس الدولة الغزنوية ، ثم أرخ لمحمود ، وأبرز الوقائع والأحداث التي حدثت في أيامه ، ويعد هذا الكتاب بحق أكبر مصدر لتاريخ هذه الدولة في هذه الفترة بالذات

---

(١٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٥٧ـ٥٨ .
(١٣) براون : تاريخ الادب الفارسي جـ٢ ص١٣٨ .
(١٤) أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ١ ص ٢٨٤ـ٢٨٥ .

وقد صاغه فى اسلوب ادبى مسجوع على نحو ما فعله معاصره أبو منصور الثعالبى . ولذلك حاز على شهرة كبيرة بين الكتب الأدبية والتاريخية ، وعنى بشرحه الكثير من الادباء(١٥) .

ومن ابرز رجال الادب والتاريخ فى الدولة الغزنوية ابو الفضل محمد ابن حسين البيهقى . ولد فى قرية بيهق فى الجنوب الشرقى لخراسان حوالى سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م وتوفى فى صفر سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، وقد بدأ حياته فى نيسابور ، وتثقف بها ثقافة دينية وأدبية واسعة اشتملت على علوم الحديث والقرآن والآداب العربية ، وارتبط بروابط وثيقة برجال العلم والأدب ، ومن أبرز كتبه ، كتابه الذى وضعه عن الدولة الغزنوية ، ويعد أهم مرجع فى تاريخ هذه الدولة فى عهد السلطان مسعود بن محمود ، والذى يقرأ هذا الكتاب يشعر بسعة اطلاع مؤلفه ، وعمق ثقافته واحاطته الكاملة باللغتين العربية والفارسية ، استمع الى كثير من الأحاديث ورواها ، وله أشعار عربية .

التحق البيهقى بالعمل فى ديوان الرسائل واعتزل عمله فى آخر عهد السلطان عبدالرشيد . واعتكف على القراءة والتأليف حتى وفاته ، وللبيهقى كتب أخرى منها « زينة الكاتب » ، « ومقامات أبى نصر مشكان » رئيس ديوان الرسائل .

سار البيهقى(١٦) فى كتابه على منهج يختلف تماما عن المؤرخين المعاصرين له ، فلم يقتصر كتابه على سرد الأحداث السياسية ، وانما وجه اهتمامه كذلك بعرض دقيق للنظم السياسية والادارية والمالية ورسوم قصر السلطان ، وابرز الحياة الاجتماعية فى الدولة الغزنوية من عادات وتقاليد ومجالس اجتماعية ونحو ذلك . وترجع أهمية كتاب البيهقى الى أن صاحبه عاصر معظم الأحداث التى كتب عنها ، والبيئة التى جرت فيها ، ولم يكتف البيهقى بالأحداث التاريخية كعادة معاصرية من المؤرخين ، انما كان يتوقف ليبدى رأيه ورأى الوزير ورئيس الديوان ، وينقل صدى الأحداث عند الرأى العام الغزنوى ، ودون الوثائق

---

(١٥) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ١٢٢ .
احمد أمين : ظهر الاسلام جـ٢ ص٨٦ .
(١٦) مقدمة تاريخ البيهقى .

الرسمية للدولة ونقلها . وتعتبر من أهم الرسائل السياسية الاسلامية ؛ ولم يعتمد على الذاكرة حين تأليف كتابه ؛ اذ كان يدون ما يستمع اليه من الوزير أو من كبار رجال الدولة ، لذلك كان كتابه حديث رجل سياسى عن حياة السلطان الذى عمل معه ، وعما كان يجرى فى الشئون الداخلية والخارجية للدولة الغزنوية لذلك فهو يعطى صورة صادقة عما جرى فى البلاط الغزنوى أيام السلطان مسعود ؛ وعن طريق الحكم فى الدولة الغزنوية .

كذلك اهتم السلطان محمود بالشعر ، فقد كان شاعرا بطبعه وتنسب اليه ست قصائد فى الغزل . وقرب اليه الشعراء . ومن أشهر شعرائه عنصرى وهو يلى الفردوسى فى المرتبة ، وبلغ من فضله وعلمه أن بعض الناس كان يلقبه بالحكيم ، وقدر عدد شعراء السلطان محمود بأربعمائة شاعر ، يقرون للعنصرى بالأستاذية ، وكان نديما لمحمود الغزنوى كما كان شاعرا له ، وظل يسجل نظما مقامات السلطان وغزواته وفتوحه ، حتى ان السلطان منحه لقب « ملك الشعراء » فى مملكته ؛ وأمر كل شاعر فى مملكته بعرض شعره على الأستاذ العنصرى حتى يميز بين غثه وثمينه ، ثم يعرض بعد ذلك على السلطان ، واصبح مجلس السلطان محمود مقصد الشعراء .

ومن تلاميذ العنصرى الشاعر المسجدى . والشاعر فرخى ، وللفرخى كتاب فى فنون الشعر اسمه « ترجمان البلاغة »(١٧) ، ويقال ان الفرخى لدى الفرس بمثابة المتنبى لدى العرب . وقد التحق الفرخى بخدمة بعض الأمراء ، وعلا أمره ، والتحق بخدمة السلطان محمود ، فلما رآه على هذه الحال من الرفعة والعظمة والجاه أكرمه ورفع منزلته وأمر أن يتبعه اذ ركب عشرين غلاما يتمنطقون بمناطق من الفضة الخالصة(١٨) .

---

(١٧) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ١٣٩ .
يذكر صاحب كتاب جهار مقاله .
ما أكثر القصور التى شيدها محمود واقامها بالبناء فجعلها فى رفعتها تطاول اقمار السماء . ولكنك الآن لن تجد اجرة واحدة منها قائمة فى مكانها ، وكل ما تبقى هو ما أقامه له العنصرى من ثناء .

(١٨) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ١٤٣ .
K. Ali : A New History of Indo — Pakistan. p. 32.

على أن الفردوسي كان من أبرز شعراء وأدباء العصر الغزنوى وقد اقترن اسمه بالشهنامة التى شرع الدقيقى فى نظمها ، واغتاله أحد عبيده ليلا . لذلك فان الدقيقى سبق الفردوسى فى نظم الشهنامة ، فنظم ألف بيت ، وزاد الفردوسى ستين ألفا . وفى ذلك يقول الفردوسى : فلما قرئت هذه القصص على الناس أولع بها العقلاء والحكماء ، حتى ظهر فتى فصيح اللسان ، قوى البيان ، ذكى الفؤاد ، فقال : سأنظم هذا الكتاب ، ففرح الناس واستبشروا ، لكنه لم يتمكن ، اذ قتله أحد عبيده بعد أن نظم ألف بيت فقط(١٩) .

حرص الفردوسى على اتمام هذا الكتاب الفهلوى ، وخشى أن يتوفاه الله قبل أن يتم هذا العمل الجليل ، وكان كلما فرغ من قصة أو مجموعة قصص ، بعث بها الى السلطان محمود الغزنوى(٢٠) .

كتب الفردوسي الشهنامة بعد خمسة وعشرين عاما من الجهد المتواصل وتتضمن أخبار الفرس القدامى ورواياتهم الشعبية ، وتوجه بها الى الوزير أحمد حسن الميمندى ، فقدمها الى السلطان . على أن الوزير كان له منافسون ، أوغروا صدر السلطان على الفردوسى قالوا عنه : انه رافضى ومعتزلى ، فأرسل السلطان الى الفردوسى مبلغا ضئيلا من المال لا يتناسب مع الجهد الذى بذله هذا الشاعر الكبير(٢١) فغارق الفردوسى غزنة ، وقصد هراة ، ومنها طبرستان ، وكتب فى مقدمة الشهنامة مائة بيت فى هجاء محمود بن سبكتكين ، وأهدى الكتاب الى شهريار — أمير طبرستان وجرجان — وقال : سأحول اهداء هذا الكتاب من اسم محمود الى اسمك ، فان هذا الكتاب كله أخبار أجدادك ومآثرهم ، فتلطف شهريار به وأكرمه ، وحذف أبيات الهجاء منها ، اذ كان يخشى بأس محمود ، وأغدق على الفردوسى من الأموال ما أرضاه(٢٢) .

على أن السلطان محمود لم يلبث أن أدرك أهمية شعر الفردوسى ، فحاول استرضاءه ، وأرسل اليه رسولا يطلب منه العودة الى غزنة ،

---

(١٩) الفردوسى : الشهنامة ص ٣٨ .
(٢٠) الفردوسى : الشهنامة ص ٣٨-٣٩ .
(٢١) الفردوسى : الشهنامة ص ٥٥-٦٠ .
(٢٢) العروضى السمرقندى : جهار مقاله ص٥٦ .

لكن القدر لم يحقق رغبة السلطان محمود . فقد توفى الفردوسى(٢٣) فى غضون ذلك .

ومن أشهر أدباء الدولة الغزنوية . بديع الزمان الهمدانى ، قال عنه الثعالبى : انه معجزة همذان وغرة العصر . كان ينشد القصيدة اذ سمعها مرة واحدة . ويترجم ما يستمع اليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة الى الشعر العربى ، فيجمع فيها من الابداع والاسراع ، فارق همذان سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م ، وتنقل فى طلب العلم ، ثم قصد نيسابور ، ونشر فيها روائعه ، وأملى بها أربعمائة مقامة فى موضوعات مختلفة ، ثم ناظر أبا بكر الخوارزمى فغلبه مع أنه كان يظهر أن أحدا لا يتجرأ على مناظرته . وبذلك طار صيته فى الآفاق وأنشد قصائد رائعة فى مدح السلطان محمود ، وقد أكرمه الوزير أحمد حسن الذى اشتهر بفصاحة العلم وعلو الهمة ، وسعة النظر وحسن(٢٤) السياسة . وتوفى سنة ٣٨٩هـ/١٠٠٧م(٢٥) .

كذلك اشتهر الشاعر عدالواسع الجبلى من أهل الولاية الجبلية ــ غرشتان ــ وقد خرج منها الى هراة ثم الى غزنة حيث التحق فترة بقصر السلطان بهرام شاه بن مسعود(٢٦) .

وظهر فى هذا العصر ثالث الكتب المنثورة ، وأعنى بها الترجمة الفارسية التى قام بها نظام الدين أبو المعالى نصر الله للنسخة المشهورة من كتاب كليلة ودمنة ، وهى التى كتبها بالعربية عبدالله بن المقفع ، وقد وضع أبو المعالى هذه الترجمة الفارسية امتثالا لأمر السلطان الغزنوى بهرام شاه ، ثم أهداها اليه ، وقد نالت هذه الترجمة كثيرا من الاعجاب فى ايران اذ كانت مثالا للفصاحة والبلاغة ، ولا تبلغ سائر المنثورات الفارسية مبلغها من حيث الجودة وحسن السبك(٢٧) .

وبلغ من اهتمام السلطان محمود بن سبكتكين بتشجيع الحركة العلمية

(٢٣) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ١٦٧ .
(٢٤) الثعالبى : يتيمة الدهر ص٢٩٨ .
(٢٥) أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ١ ص٢٨٤ .
(٢٦) براون : تاريخ الادب الفارسي جـ٢ ص ٤٣٠
(٢٧) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص ٤٤٣

أن بعث فى طلب جماعة من رجال العلم والفلسفة ، فكان من بين الذيـــن وفدوا اليه أبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى (٣٦٢ــ٤٤٠هـ) (٢٨) وقضى البيرونى بداية حياته فى خوارزم حيث ولد فيها ـــ وقربه اليه أميرها ، ونبغ فى كثير من العلوم وبخاصة الرياضة والفلك ؛ وزار حـــوالى سنة ٣٩٠هـ بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير ـــ أمير طبرستان ـــ الذى عرف بتشجيع العلم وأهله ، وألف له « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ويبحث هذا الكتاب فى التواريخ التى كانت تستعملها الأمم ، والاختـــلاف فى الشهور والسنين والتقاويم عند الأمم ، ونظم الطوائف والجماعـــات المختلفة ، والاحتفال بالأعياد القومية ، ولمـــا اتصل البيرونى بالسلطان محمود الغزنوى ، استفاد من فتوحاته فى بلاد الهند فائدة علمية كبيرة ، وجعل ثروة الهند العلمية الكبيرة فى الرياضة والفلسفة والالهيـــات فى يد العرب والفرنج بما ألفه فى ذلك من كتب لا تزال خير مرجع لكل من كتب عن الهند ، وكان البيرونى فى هذا درة فى الدولة الغزنوية كابن سينا فى الدولة السامانية(٢٩) .

نبغ البيرونى فى كثير من العلوم وخاصة الرياضة والفلك ؛ وجـــدير بالذكر أنه كان يزهـــد فى المـــال الا ما يكفيـــه حاجته وأهـــدى كتابه « القانون المسعودى » للسلطان مسعود ويبحث فى الرياضة والفلك وفلسفة الهند ، فاجازه السلطان بأموال كثيرة ، فردها معتذرا بعدم حاجته اليها ، وقيل عن البيرونى ان القلم لم يكد يفارق يده ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر الا فى الأعياد ، لا يمل الاستزادة من العلم ، وقد تعلم عدة لغات ، ففى كتبه عن العقاقير والجواهر اسم الشىء بالعربية واليونانيـــة والسريانية والفارسية والتركية ، ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة ، فيمـــدح اللغـــة العربية بحسن أدائها للمعانى ، ويفضلها على الفارسية(٣٠) .

ومن أشهر كتب البيرونى « الجماهر فى الجواهر » ، وكتاب « تاريخ الهند » وتعلم اللغة السنسكريتية ، وأخذ ينقل منها الى العربية ، ومن العربية اليها ، فنقـــل الى السنسكريتية نظـــريات أقليـــدس وغيره من

---

(٢٨) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص٧٩ــ٨٠ .

(٢٩) أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ١ ص ٢٨٧ .

(30) K. Ali : A New History of Indo — Pakistan. p. 32.
Habib : Sultan Muhmud of Gheznin. 55.

الفلك ، ونقل الى العربية من السنسكريتية بعض المصنفات القيمة . ومن أبرزها « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل ومرذولة » قارن فيها بين رياضة الهند وفلسفة اليونان ، ولقد استقى البيرونى معلوماته عن الهند من المراجـــع السنسكريتية الهنـــدية مباشرة ويلاحـــظ عليه أنه لا يعترض ، ولا ينقد مطلقا حينما يشرح العقائد الدينية . وبعد ذلك نشر البيرونى كتابه بالعربية والفارسية « التفهيم فى صناعة التنجيم » وقـــد أهداه للسيدة ريحـــانة الخوارزمية . وأهدى كتابه عن الأحجار الكريمة للسلطان مودود بن مسعود(٣١) .

وكان للبيرونى علم تام بمدارس بغداد والبصرة العلمية ، الا أن نظريات أولئك العلماء كانت متأخرة بالقياس اليه ، وظل مؤمنا بالتنجيم، مشاركا معاصريه فى ذلك ، وقد أدرك البيرونى أن المعتقـــدات الدينيـــة ترجع الى أســـباب واحدة فى كل مكان ، وكان يهتم بالفـــارق الكبير بين الخواص والعوام فى كل موضع ، فهو لا يعترض ولا ينقد مطلقا ، حينمـــا يشرح العقائد الدينية ، واذا قارن دينا بدين آخر ، فانما يقارنها مقارنة علمية محضة . وعلى ذلك يمكن القول بأن منتجات البيرونى العلمية تحتل مكانة ممتازة من حيث وفرة موادهـــا ، وما فيها من الاعتناء بتطبيـــق الأصول العلمية ، على أن البيرونى كتب مؤلفاته بلغة عسيرة جدا ويقول البيرونى انه ألف كتبه للعلماء لا للعوام(٣٢) .

ولقد أطال البيرونى فى وصف الفلسفة الدينية للهند من الاعتقـــاد بالله والموجودات العقلية والحسية ، وتعلق النفس بالمـــادة ، والأرواح وتناسخها ، ومواضع الجزاء من الجنة والنار وكيفية الخلاص من الدنيا ، وقارن بن عقائد الهند والاسلام والصوفيـــة والنصرانية(٣٣) . ويذكـــر البيرونى : أن التناسخ من أهم معتقدات الهنود ، وأن الروح تنتقـــل من بدن الى بدن ، وفى كل بدن تستفيـــد معلومات وخبرات ، وتنتقـــل من الأرذل الى الأفضل . وقد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظريـــة التناسخ ، فقالوا ان الأرواح الشريرة تتردد فى النبات ومرذول الطـــير

---

(٣١) براون : تاريخ الادب الفارسى ج٢ ص ١١٧ .
(٣٢) البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة ص٢٤ .
(٣٣) نفس المصدر ص٣٢ .

والهوام الى ان تستحق الثواب ، فتنجو من الشدة ، وتنتقـــل الى ما هو أرقى(٣٤) .

وقال البيرونى : انه رأى فلكى الهند لا يبحثون فى العلل وكان على علم تام بالفلك عند اليونان قبل أن يقتبس هذا العلم من الهنود ، وقد قال فى هذا الصدد : كنت أقف من منجميهـم مقام التلميذ من الأسـتاذ لعجمتى فيما بينهم ، وقصورى عما هم فيه ، فلما اهتديت قليلا أخـذت أوقفهم على العلل ، وأشير الى شىء من البراهين ، وألوح لهم بالطرق الحقيقية فى الحسابات فانثالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين ، وكادوا ينسبون الى السحر(٣٥) .

وصفوة القـــول أن البيرونى كان من كبار العلمـــاء الذين ظهروا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين فلم يترك علمـــا يؤلف فيه وكان الى جانب ذلك يؤلف بالعربية لا الفارسية لأن العربية أكثر طواعية للعلـــم ومصطلحاته من الفارسية(٣٦) .

واشتهر من رجال الفلسفة فى الدولة البيـــزنوية ابن الخمار ، كان نصرانيا ينقل كتبا كثيرة من السريانية الى العربية ، واشتهر بالطب وألف فيه ، كما ألف فى المنطق والالهيات(٣٧) .

---

(٣٤) نفس المصدر ص ٣٢ .
(٣٥) ياقوت : معجم الادباء ج١٧ ص ١٨ـ١٨١ .
(٣٦) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص٢١٦ .
(٣٧) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج١ ص ٢٥١

هـ — ضعف الدولة الغزنوية وانهيارها

تجمعت عوامل متعددة أدت الى ضعف الدولة الغزنوية وانهيارها فى آخر الأمر ، ومن أبرز هذه العوامل المحاولات المتكررة التى بذلها ولاة الأقاليم فى الدولة الغزنوية للاستقلال بالولايات التى يحكمونها ، ولقد بذل السلاطين الغزنويون — كما أشرنا — جهودا مضنية فى اخضاع هؤلاء الولاة ، أنهكت قواهم كما قامت عدة انتفاضات شعبية ضد الدولة الغزنوية ، أنفق الحكام الغزنويون فى مقاومتها الكثير من الأنفس والأموال ولم تكن هذه الحركات الانفصالية والثورات الشعبية هى عوامل ضعف الدولة الغزنوية فقط ، بل ان أمراء آل سبكتكين أيضا قاموا بدور كبير فى تدهور شأن بيتهم العريق ، ذلك أن الحروب — كما قلنا نشأت بين الأمراء الغزنويين حول الوصول الى السيادة والحكم ، وحاول بعضهم الاستقلال ببعض أقاليم الدولة الغزنوية ، بل استعان بعضهم على بعض بأعداء دولتهم المتربصين للنيل منها .

ومن أكبر العوامل التى عجلت بانهيار الدولة الغزنوية ظهور الأتراك السلاجقة ، وارتفاع شأنهم ، وازدياد قوتهم وسعيهم الى توسيع ممتلكاتهم على حساب الدولة الغزنوية ، كما أن الغور خرجوا من عزلتهم الجبلية ، وعملوا على مد نفوذهم فيما وراء حصونهم ، وكان خير ميدان لتنفيذ سياستهم ، بلدان الدولة الغزنوية التى أخذت عوامل الضعف والانحلال تنال منها حتى أنهكت قواها ولم تعد تستطيع مقاومة أعدائها الأشداء .

أما السلاجقة فقد أذن لهم السلطان محمود بن سبكتكين بالاقامة فى الأراضى المحيطة ببخارى ، ولما شعر بزيادة خطرهم على دولته بعد أن قوى أمرهم ، حبس أحد زعمائهم فى احدى القلاع ببلاد الهند(١٥٦) . وأبقاه رهينة حتى يضمن عدم خروج السلاجقة من طاعته(٢) ، ولم يستطع السلاجقة الوقوف فى وجه السلطان محمود لقوة بأسه ، ومهما يكن

---

(1) Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 353.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٣٢ .

Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 354.

من أمر فلم يكن هناك ثمة خطر على الدولة الغزنوية من ناحية السلاجقة فى عهد السلطان محمود بن سبكتكين(٣) .

ولما توفى السلطان محمود ، وخلفه ابنه مسعود بدأ السلاجقة يكشفون عن نواياهم الحقيقية تجاه الدولة الغزنوية ، ألا وهى اغتصاب بعض أملاك الدولة الغزنوية لأنفسهم ، ولم يستطع السلطان مسعود وقف أطماعهم عند حد(٤) . وقد ألحقوا به هزيمة منكرة سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م وهو عائد من (٥) غزوته لطبرستان ، وكان جنده مرهقين والأسلحة قد علاها الصدأ بسبب رطوبة الجو فى هذه الجهات ، على أن السلطان مسعود استهان بما حدث رغم تحذير مستشاريه بل بعدم ترك خراسان لهؤلاء الطامعين المغامرين ، بل عمد الى مصالحتهم بشروط سهلة حتى يستطيع التفرغ بعد ذلك لاحدى غزواته فى بلاد الهند ، وكان من أثر هذه السياسة أن أفلتت الأمور من أيدي السلطان مسعود ، عندما عاد من الهند(٦) فما لبث أن سيطر طغرل بن ميكائيل بن سلجوق على خراسان ، وأعلن نفسه ملكا(٧) عليها فى صيف ٤٣٢هـ/١٠٤٠م وهكذا فقدت الدولة الغزنوية اقليم خراسان(٨) — أعظم ممتلكاتها — .

ولم يكتف السلاجقة بذلك بل انتهزوا فرصة قتل السلطان مسعود واستولوا على طبرستان وجرجان وسجستان ، وسار طغرل الى خوارزم فحاصرها واستولى عليها ، كما أن ابراهيم ينال انتزع الرى ، وسار منها الى همدان وامتلكها ، وانتزع طغرلبك بلاد الجبل وكرمان ، وفى سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م امتلك طغرلبك أصفهان(٩) . وعلى ذلك استولى السلاجقة على الكثير من بلدان الدولة الغزنوية ، ولم يبق لها سوى اقليم غزنة وممتلكاتها فى الهند(١٠) .

(٣) براون : تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .
(٤) تاريخ البيهقى ص ٣٨١ ـ ٣٨٥ .
(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .
(6) Lane Poole : Medieval India under Mohammadan Rule. p. 44.
(٧) براون : تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .
(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ هـ .
Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 304.
(٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٤٢ هـ .
(١٠) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

على أن الغور هم الذين عملوا على زوال الدولة الغزنوية وانتهاء حكم بيت سبكتكين(١١) ، ولقد بدأ الغور يعيثون فسادا منذ عهد السلطان محمود بن سبكتكين ، لكن هذا السلطان اشتبك معهم فى عدة معارك ، هزمهم فيها وأجبرهم على التزام الهدوء والسكينة طوال عهده(١٢) ، ولما انشغلت الدولة الغزنوية بالصراع المرير الذى حدث بينها وبين الأتراك السلاجقة ، وجد الغور الفرصة سانحة لهم لتقوية أمرهم ، ومد نفوذهم على حساب الدولة الغزنوية ، وظهرت نواياهم السيئة تجاه الدولة الغزنوية واضحة جلية فى عهد السلطان بهرام شاه بن مسعود ، لذلك عول هذا السلطان على اضعاف شأن الغور ، ودبر مؤامرة استطاع أن يتخلص بها من زعيم الغور محمد بن الحسين(١٣) ، فتولى بعده فى حكم الغور أخوه سورى(١٤) .

استنكر الغور قتل السلطان الغزنوى لحاكمهم محمد بن الحسين وعولوا على الانتقام من بهرام شاه ، وأعد سورى — حاكم الغور — العدة لذلك . فقوى من أمر قومه ، وأحسن اعدادهم وسار على رأس جيش كبير الى غزنة للانتقام من قتل أخيه ، وانتزع هذه العاصمة الاسلامية الكبرى من أيدى سلطانها بهرام شاه : ولما بلغ سورى غزنة بجحافله رأى بهرام شاه أنه لا يستطيع التصدى للغور الأقوياء فانسحب الى البلاد الغزنوية الهندية ، ليجمع جيشا قويا منها ، ويعود الى عاصمة ملكه لتخليصها من نير الغور(١٥) ، أما الغور بقيادة سورى فقد استولوا على غزنة ، لكن جند غزنة وأهلها ساءهم احتلال الغور لبلدهم ، وانتزاع الحكم من سلطانهم ، فظلوا يترقبون الفرص المناسبة للتخلص من الغور ، وواتتهم هذه الفرصة حينما عاد السلطان بهرام شاه من الهند الى غزنة(١٦) على رأس جيش كبير لاسترداد حاضرة ملكهم ، فوقف جند غزنة

---

(١١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨١ .

(١٢) تاريخ البيهقى ص ١٢٣ .

ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ٢٥ .

(١٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٤٢ هـ .

(١٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ٢٥ .

Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 47.

(١٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٤٣ هـ .

(١٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ .

وأعانها — كما كان منتظرا — الى جانب السلطان الغزنوى حينما اشـتبك مع سورى — الذى اغتصب أعز قطعة من مملكته . وقد دارت الدائرة(١٧) على سورى وقبض بهرام شاه عليه وقتله . وولى الغور الأدبار الى ديارهم ودخل بهرام شاه غزنة ظافرا منصورا فى(١٨) المحرم سنة ١١٤٨/٥٤٣ وابتهج أهلها بمقدمه وبقهر الغـزاة الطامعين . وعلى ذلك اسـتطاع بهرام شاه أن يسـترد حاضرة ملكه ، ويبقى الملك فى بيتـه بعد أن كاد يزول عنه .

لما قتل سورى خلفه علاء الدين الحسين بن الحسين الذى عـول على استعادة غزنة ، والانتقام من سلطانها وأهلها لتنكيلهم بجند الغور . وبملكهم سورى ، فسار على رأس جيش كبير الى غزنة ، واستولى عليها . وولى السلطان بهـرام شاه هاربا الى بلدة تسـمى كرمان — بين غزنة والهند — ليستجمع قوته(١٩) أما ملك الغور — علاء الدين الحسين . فقد عاد من غزنة الى بلاده ، بعد أن استخلف عليها أخاه سيف الدين . وأمره باقامة الخطبة له فى غزنة ، كما أمره بأن يحسن السيرة فى أهلهـا فحكم سيف الدين غزنة بالعدل ، وأجزل على أعيانها الصلات النفيسة . وخلع عليها خلعا(٢٠) سنية ، حتى تطيب نفوسهم ، ويخلصوا للعهـد الجـديد(٢١) .

على أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها ، اذ كان أهل غزنة لا يزالون على ولائهم واخلاصهم لبيت سبكتكين ، ويعارضون بشدة حكم الغور لهم ، واعدوا العدة لتحقيق سياستهم . فلما حل شـتاء سنة ٥٤٧هـ/١١٥٤م وانقطع الطريق — بعد أن غطاه الثلج — بين غزنة وبلاد الغور ، وأمن أهل غزنة عدم وصول النجدات العسكرية من الغور الى أعدائهم فى غزنة ، نادى أهل غزنة بشعار بهرام شاه ، وأرسلوا اليه يطلبون منه القـدوم اليهم ، والعودة الى حاضرة ملكه وتخليصهم من الغور المغتصبين للحكم من

---

(17) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 64-67.

(١٨) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص ٢٦ .

(١٩) ابن الأثير :الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٤٧ هـ .

(20) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 47

(٢١) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص ٣٣ .

أصحابه الشرعيين ، فسار بهرام شــاه الى غزنة ، ولمــا اقترب منها ، قبض أهلها على سيف الدين حاكم غزنة الغورى — ومهدوا لبهرام شاه أمر دخول غزنة ، فدخلها وقتل سيف الدين ، ونكل بالغــور . وبذلك استرد بهرام شاه غزنة من الغور للمرة الثانية(٢٢) .

على أن بهرام شاه لم يلبث أن توفى ، وملك بعده ابنه خسروشــاه وكان علاء الدين الحسين — ملك الغور — قد أعد العدة للعودة الى غزنة واستعادتها ، والانتقام من أهلها الذين تخلصــوا من رجاله وجنــده سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م ، فلما علم خسروشاه بزحف ملك الغور على غزنة ، أسقط فى يده وخاف العاقبة ، وترك غزنة ، وقصد لاهور تجنبا للاشتباك مع ملك الغور(٢٣) ، الأمر الذى يسر للملك الغور استعادة غــزنة ، وضمها الى حوزته(٢٤) ، ولم ينس هذا الملك موقف أهل غزنة العدائى من قومه ، فألحق بهم ويلاته ، وأباحها لجنده ثلاثة أيام كاملة لقى أهلها خلالها سوء العذاب ، وحطم جميــع المبانى والمنشآت التى شيدها الســلاطين(٢٥) الغزنويون العظام مثل محمود ومسعود وابراهيم — وبعد أن أسرف فى الانتقام من أهل غزنة ، أصلح أمورها ، ورأب الصدع وعاد الى بلاده ، ونقــل معه من أهــل غزنة الكثير(٢٦) منهم الى بلاده وأسـكنهم بعض القلاع . وبذلك كفل بسياسته هذه استمرار حكمه فى غزنة ، وتضــاؤل صوت العناصر المناوئة له . والخلاصة أن حاضرة الغزنويين العظيمة سقطت فى أيدى ملوك الغــور ولم يبــق لبيت سبكتكين من مملكتهم الواسعة سوى بعض بلدان الهند(٢٧) .

لم يهنأ الغور كثيرا بحكم غزنة ، ذلك أن علاء الدين الحسين — ملك الغور — توفى ، وخلفه ابن أخيه غيــاث الدين ، وأقيمت الخطبة له فى غزنة ، لكن الغز طمعوا فى غزنة ، بعد موت علاء الدين ، فاستولوا عليها

---

(٢٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٥٤٧ هـ .
(٢٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٤٧ هـ .
(٢٤) براون : تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .
(٢٥) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ٣٦ .
(٢٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٩ .
(٢٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٤٤٧ هـ .
أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص٣٦ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٠ .

وطردوا الغور منها . وبقيت غزنة في أيديهم خمس عشرة سنة ، ساموا أهلها خلالها سوء العذاب ، وألحقوا بهم الضر والأذى كعادتهم في كل بلد ملكوه وفي تلك الفترة كان غياث الدين الغوري يعد العدة ، ويجمع الجيوش لاسترداد غزنة من مغتصبيها(٢٨) .

سار غياث الدين الى غزنة في صحبة أخيه شهاب الدين واشتبك الغور في قتال مرير مع الغز . ألحقوا بهم الهزيمة وطردوهم من غزنة ، وعادوا الى امتلاكها وضموها الى مملكتهم وأحسنوا السيرة في أهلها(٢٩) .

لم يكتف غياث الدين — ملك الغور — بامتلاك غزنة بل عقد العزم على امتلاك البقية الباقية من الدولة الغزنوية وضم ممتلكاتها الى حوزته . واستئصال شأفة آل سبكتكين ، فأرسل أخاه شهاب الدين الى البلدان الغزنوية غير الهندية واستولى عليها ، وعبر نهر السند قاصدا لاهور — التي نقل السلطان الغزنوي خسروشاه مقر ملكه اليها — ولما نمى الى علم السلطان الغزنوي نبأ زحف الغور الى لاهور حصنها ، وأعد العدة للدفاع عنها ، واستطاع الغور أثناء زحفهم الى لاهور امتلاك البلاد الغزنوية(٣٠) . وفي سنة ٥٧٩/١١٣م بلغ الغور لاهور — آخر معاقل الغزنويين — في جمع عظيم وحشد كبير ، وحاصروها ، وضيقوا عليها الحصار ، وأرسل شهاب الدين — قائد الغور — الى خسروشاه والى أهل لاهور يعرض عليهم الأمان على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ان يسروا أمر استلامه لاهور ، ويعرض على خسروشاه اقطاعا ، وحذرهم عاقبة الحيلولة بين قواته وبين الاستيلاء على البلدة ، وأبلغهم أنه لا يألوا جهدا في سبيل امتلاك لاهور ، لكن خسرو شاه وأهل لاهور أصروا على مقاومة الغور ، وبذلوا في سبيل ذلك الأنفس والأموال ، غير أن مقاومتهم للغور ما لبثت أن ضعفت ووهنت ، فأرسل خسروشاه الى قائد الغور وفدا فيطلب الأمان ، فأجابه شهاب الدين الغوري الى طلبه ، ودخل الغور لاهور ، وقبضوا على خسروشاه ، وبقي عنده مكرما شهرين ، فأرسل غياث الدين — ملك الغور — الى أخيه شهاب الدين يطلب منه انفاذ خسروشاه اليه ، لكن خسروشاه خشى من عاقبة ارساله الى غريمه

---

(28) Lane Poole : Medival India under Mohammedan Rule. p. 48.

(٢٩) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص ٢٨٩ .

(30) Lane Poole : Medival India under Moahmmedan Rule. p. 48.

— ملك الغور — وقال لشهاب الدين : أنا لا أعرف أخاك ولا لى حديث الا معك ولا يمين الا فى عنقك(٣١) .

لكن شهاب الدين أرسل آخر سلاطين بيت سبكتكين الى أخيه غياث الدين — ملك الغور — ومعه ابنه ملكاشاه حيث أمر ملك الغور بإيداعهما فى بعض القلاع(٣٢) .

وهكذا انتهت الدولة الغزنوية سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م بعد أن ظلت تحكم أكثر من قرنين — على أيدى الغور الذين اتسعت مملكتهم ؛ وكثر جندهم ؛ واتخذ غياث الدين لنفسه لقب سلطان ، وأمر بإقامة الخطبة له بالسلطنة ، وتلقب غياث الدين والدنيا معين الاسلام ، قسيم أمير المؤمنين .

وصفوة القول أن الدولة الغزنوية التى قامت على أنقاض ملك السامانيين كان لها نشاط سياسى كبير فى آسيا ، فاستطاع سلاطينها حكم دولة متعددة الأجناس ، والشعوب فى قوة وحزم . ودرء كل محاولة للنيل من حكمهم ، ووحدة دولتهم ، والقضاء على عناصر الفوضى والشغب ضدهم ، فقوى شأنهم ، وعظمت هيبتهم وأمن الناس فى ظل حكومة الغزنويين المستنيرة على أنفسهم وأموالهم . ولا يفوتنا أن نذكر أن محمود بن سبكتكين — أقوى سلاطين هذه الدولة « يعتبر بحق بطل من أبطال الاسلام وسوط عذاب على الكفار الملحدين ، حطم الأصنام والتماثيل ، ودمر الخرافات والأباطيل » ، فكان شديد التدين قاسيا على الملحدين وكفار الهنود فضلا عن أنه كان غازيا لا يقهر .

على أن عوامل الضعف والانحلال ما لبثت أن عرفت طريقها الى الدولة الغزنوية ، فقوى شأن جيرانها السلاجقة والغور وقاموا بتوسيع نفوذهم على حساب الغزنويين ، وكان ذلك فرصة أمام العناصر المتطلعة الى الاستقلال عن الدولة لرفع رأسها ، فأخذت الدولة الغزنوية تفقد أملاكها رويدا رويدا حتى قضى الغور فى نهاية الأمر على البقية الباقية من ممتلكاتها .

---

(٣١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٤٧ .
أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ٢٦ .

(32) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 49.

٢ — الدولــة الســلجوقية

يرجع اصل الســـلاجقة الى الترك الذين كانوا يقيمون فى الصـــحراء الواسعة الشاسعة التى تمتد من حدود الصين حتى شواطىء بحر قزوين، وكثرت هجراتهم الى شواطىء جيحون خصوصا فى وقت انهيــار الدولة السامانية حيث المراعى الوفيرة .

يكتنف أصل السلاجقة الغموض ، ويبدو أن ســلجوق — جد هؤلاء القوم — ابن قائد جيش يدعى دقاق ليغو أو يوغر — ملك الخــزر جنوب روسيا(١) — وينسب الى قبيلة غزقنق(٢) ولقد حدثت خلافات بين يغو ودقاق — الزعيم السلجوقى — اضطر على أثرها ســلجوق وأسرته الى ترك ديارهم ، والهجرة الى نواحى جند(٣) ومعه ألف فارس وألف بعير وخمسون ألف رأس من الماشية عند مصب نهر سيحون ، ويرجح أن هذه القبيلة قــد دخلت الاســـلام بعد أن توطدت العلاقات بين أفرادها وبين المسلمين من أهل جند(٤) .

أظهر السلاجقة نشــاطا ملحوظا فى الجهــات الجديدة التى هاجروا اليها فقاوموا بالذود عنها فى صد خطر كفار الترك — بنى جلدتهم — واشترك السلاجقة فى الصراع المرير الذى حدث بين القره خانية والسامانيين حول السيادة على بلاد ما وراء النهر ، وانضموا الى جانب السامانيين فى القتال الذى دار بينهم وبين أعدائهم(٥) . وقد تمكن ســلجوق من خــلال هذا الصراع من السيطرة على منطقة خصيبة فى بلاد ما وراء النهر ، وضــمها الى امارته الناشئة(٦) .

ظل أمر السلاجقة فى صعود فى بلاد ما وراء النهر ، وكانت منازلهم فى

---

(1) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 16.

(2) Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 300.

(3) Cambridge History of Iran Vol. 5. p. 18.

(٤) فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٢٧ — ١٢٩ .

(5) Ency. of Islam. Art Saljuk.

(٦) حمد الله مستوفى قزوينى : تاريخ كزيده ص ٤٣٤ .

الشتاء فى نور بخارى ، وفى الصيف فى سفر سمرقند(٧) ، وتوفى سلجوق بعد أن تجاوز من العمر العام السابع بعد المائة ، وله من الأولاد ارسلان وميكائيل وموسى وكان أرسلان أقوى هؤلا ءالأبناء شأنا ، ولقد وقف الى جانب الأمير السامانى المنتصر فى حروبه ضد القره خانية ، وحالف على تكين — أخا ايلك خان — الذى سيطر على بخارى ، كما أن أخاه ميكائيل لم يأل جهدا فى سبيل غزو كفار الترك حتى استشهد ، وخلفه من الأولاد بيغو وطغرلبك محمد وجغرى بك داود ، ولقد أطاعتهم عشائرهم ، ولما خشى أمير بخارى بأسهم ، وعول على التخلص منهم ، لجأوا الى بغراخان — ملك تركستان — فأذن لهم بالمقام فى مملكته على أن بغراخان ما لبث أن توجس منهم خيفة ، فقبض على طغرلبك ، عندئذ ثارت ثائرة السلاجقة ، واشتبكوا مع جند بغراخان فى عدة معارك ، تمكنوا على اثرها من تخليص أميرهم طغرلبك ، غير أنهم لم يستطيعوا المقام بعد ذلك فى مملكة بغراخان، فعادوا الى جند(٨) .

تحالف السلاجقة مع على تكين — أمير بخارى — فأذن لهم بالاقامة فى نور بخارى ، وما زالوا فى أنضر عيشة ، وهم فى المراعى يكلأون الكلأ لا يذعرهم ذاعر ، ولا يردعهم رادع(٩) ، ووقف زعيمهم أرسلان بن سلجوق الى جانب على تكين ضد السلطان محمود الغزنوى ، ولذلك عول محمود على التخلص من على تكين(١٠) ، ففى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م عبر نهر جيحون ، والتقى بحليفه قدر خان — ملك تركستان — واتفق مع ايلك خان على انهاء نزاع الحدود بينهما ، وواتت الفرصة السلطان محمود لجمع المعلومات عن هؤلاء السلاجقة ، وقد أطلعه ايلك خان على شجاعة جندهم، وكثرة عددهم ، فرأى أنه لا يستطيع أن يأمن جانبهم اذا نهض فى وقت من الأوقات الى بلاد الهند، فقد يحدثوا فى مملكته فسادا طلبا لولاية أو رغبة فى التغلب على احدى النواحى ، فعول على التخلص منهم ، بأن أرسل اليهم رسولا يعرض عليهم صداقته ، ويبدى لهم حسن نواياه نحوهم ، ويطلب

---

(٧) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص١٤٥ .

Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin p. 59.

Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 303.

(٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج٤ ص ٣٧٦ .

(٩) حمد الله مستوفى قزوينى : تاريخ كزيده ص ٤٢٤ .

(10) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 19.

منهم ايفاد أحد زعمائهم لعقد اتفاقية صداقة معهم(١١) فلما بلغت الرسالة أسماع أمراء السلاجقة ، رحبوا بما جاء فيها ، وأحسنوا استقبال رسول السلطان الغزنوى ، وأرسلوا اليه كبيرهم وزعيمهم أرسلان بن سلجوق ، ولما وفد أرسلان السلجوقى الى محمود الغزنوى مع أصحابه وأعيان دولته، أحسن وفادتهم وقال : عندما نذهب الى بلاد الهند لغزو الكفار يلزمنا جيش جرار نسير به الى هذه الديار ، مما يترتب عليه عدم وجود حامية تذود عن خراسان ، ولى رغبة فى أن أعقد معكم ميثاقا وتحالفا على أنه اذا خــرج على عدو أو ثار ثائر ، واحتجت الى مدد ، استعنت بخيلكم وفرسانكم . فأظهر أرسلان بن سلجوق ، رغبته فى مساعدة السلطان محمود الغزنوى وقال له : لو أننى أرسلت هذين السهمين الى قومى لاجتمع منهم مائة ألف رجل ، ولو أن قوسا أضيف اليهما لاجتمع من الرجال قدر ما أشتهى من القوم ، فتوجس محمود خيفة من السلاجقة ، وأستشار حاجبه أرســلان جاذب فيما يجب اتخاذه حيال هؤلاء القوم ، فأشار عليه بقطع ابهام الرجال جميعا حتى لا يستطيعوا من بعد شد القوس(١٢) أو أن يفرقهم جميعا فى جيحون لكن محمود الغزنوى فضل أن يأذن لهم باجتياز جيحون والتفرق فى أطراف خراســان ، حتى يمكن الســيطرة عليهم ، وأمــر بالقبض على أرسلان بن سلجوق وتحديد اقامته فى قلعة من أعمــال الملتان حتى يكون رهينة عنده ، ترغم السلاجقة على التزام الهدوء والسكينة(١٣) .

تقرب السلاجقة فى مقرهم الجديد بخراسان من واليها الغزنوى الى أبى سهل أحمد بن الحسن الحمدونى، وسألوه أن يضيف اليهم مرجا من مروج خراسان ، فأنزلهم مرج دندانقان ، فقروا بها وبما قاربها(١٤) .

غير أن أطماع السلاجقة لم تتوقف عند هذا الحد ، بل شنوا غارات متعددة فى اقليم خراسان اذ كان انتقالهم الى خراسان بداية لمرحلة جديدة من مراحل كفاحهم ، كما كان ذا أثر قوى موجه لمستقبل ايران وما جاورها،

---

(١١) البندارى : تاريخ دولة سلجوق ص ٥

(١٢) الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص ٣ .
Cambridge Medieval History. Vol. p. 303-304.

(١٣) البندارى : تاريخ سلجوق ص ٥ ــ الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص ٣ .
Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 18.

(١٤) الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص٣ .

فقد أخذوا يدعمون قواتهم وينتشرون فى البلاد المجاورة لهم ، ويتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية أو اقتلاع جذورها(١٥) .

زاد خطر السلاجقة فى اقليم خراسان ، فوفد أهل نسا وباورد على السلطان محمود شاكين له عبث السلاجقة ببلادهم سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م فأمر السلطان أرسلان الجاذب والى طوس باخضاعهم فظل يحاربهم نحو سنتين ، لكنه لم يستطع قهرهم ، فأرسل الى السلطان محمود يقول : لقد قوى شأن التركمان ولا يستطاع وقف فسادهم، الا اذا خرج السلطان اليهم بنفسه(١٦) ، فسار السلطان محمود الى خراسان سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨ م ، واشتبك فى معارك مع السلاجقة مزق شملهم ، وقتل منهم كثيرين ، ولاذ من نجا منهم بالفرار الى بلخ وقهستان(١٧) .

لم يستطع السلاجقة الاقامة فى بلدان الدولة الغزنوية بعد الهزائم التى لحقت بهم ، فعمدوا الى غزو البلدان الاسلامية ، وأحدثوا الكثير من أعمال الشغب والتخريب فى مدن دامغان وسمنان والرى وأصفهان ومراغه وهمذان وغيرها من مدن العراق وأذربيجان ، وأذن لهم هرون بن التونتاش — والى خوارزم — بالاقامة فى أقاليم خوارزم شتاءا وأمر السلطان مسعود بن محمود ، شاه ملك — والى جند — بمهاجمة خوارزم ، والتخلص من السلاجقة ، فباغت شاه ملك السلاجقة على حين غفلة وشتت شملهم(١٩) فهجروا خوارزم ، وتفرقوا فى مفازة نسا وقصدار ومرو ، وأرسلوا الى السلطان مسعود يطلبون منه الأمان ، وتعهدوا بالوقوف الى جانبه فى وجه الطائفة التى قد تفسد فى مملكته ، وبأن يكونوا أنصارا وأعوانا مخلصين له. لكن السلطان مسعود لم يكن على استعداد للتحالف معهم لما يعرفه عن أطماعهم فى بلدان دولته ، لذلك قبض على الرسل ، وغادر جرجان ، وتوجه الى نيسابور لمحاربة السلاجقة والتخلص منهم(٢٠) لكن جيشه كان قد أحس بوهن شديد ، وفسد سلاحه بسبب الرطوبة ، فعلاه الصدأ ، وضعفت

---

(١٥) عبد النعيم حسنين : سلاجقة العراق وايران ص ٣٦ .
(١٦) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٤ .
(١٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٠ .
Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 304.
(١٨) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٥ — ١٥٦ .
(19) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 51-52.
(٢٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٧٦

دوابه لأنها لم تأكل علف الربيع ، لذلك عهد السلطان مسعود الى بعض رؤساء جنده بطرد السلاجقة من دولته ، لكن السلاجقة هزموا الجيش الغزنوى واستولوا على معداته .

أدى انتصار السلاجقة على الجند الغزنوى الى ارتفاع مكانتهم ، وازدياد هيبتهم ، وزادت أطماعهم فى ممتلكات الدولة الغزنوية ، وأرسل اليهم السلطان مسعود قولا لينا لعلهم يكفوا عن أعمالهم العدوانية فى دولته، وسير مع رسوله الخلع النفسية ، وأمرهم بالرحيل الى آمل الشط — على جيحون — ونهاهم عن الشر والفساد ، وأقطع دهستان لداود ونسا لطغرلبك وفراوه لبيغو ، ولقب كل واحد منهم بالدهقان(٢١) ، فاستخفوا بالرسل والخلع ، وقالوا للرسول : لو علمنا أن السلطان يبقى علينا اذا قدر لأطعناه ، ولكننا نعلم أنه متى ظفر بنا أهلكنا لما عملناه وأسلفناه فنحن لا نطيعه ، ولا نثق اليه .

ظل السلاجقة مصدر خطر داهم على خراسان ، وفشل عمال الغزنويين فى خراسان فى الدفاع عن هذه البلاد ، فأرسلوا الى السلطان مسعود يستغيثونه ، ويشكون اليه ما يفعله السلاجقة فى خراسان ، فأعد السلطان جيشا كبيرا بقيادة سباشى فى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م واشتبك سباشى مع السلاجقة فى عدة معارك انتصر فيها السلاجقة ، ولما طال مقام سباشى وعساكره بخراسان والبلاد منهوبة ، والدماء مسفوكة وقلت الميرة والأقوات على العساكر ، بينما السلاجقة لا يبالون بذلك لأنهم يقتعون بالقليل ، غادر سباشى خراسان ، فبسط السلاجقة سيطرتهم عليها(٢٢) ، ورأى السلاجقة أن الوقت قد حان لاعلان قيام دولتهم وجنى ثمار انتصاراتهم ، فوحدوا قيادتهم فى يد طغرل بك الذى توجه الى نيسابور ، واستولى عليها ، ثم جلس على عرش السلطان مسعود وأعلن قيام الدولة السلجوقية ، واعترف به الخليفة العباسى سلطانا على الدولة الجديدة ، وهزم طغرل السلطان مسعود فى موقعة دائدانقان سنة ٤٣١هـ، وسيطر على خراسان . وبذلك قامت الدولة السلجوقية .

---

(21) Cambridge Medieval History Vol. IV. p. 303.

(22) Cambridge History of Iran Vol. 5. p. 22.
Habib Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 44-101.

تحدثنا عن قيام الدولة السلجوقية ، واتساع حدودها على حساب الدولة الغزنوية ، ولنتحدث الآن عن تطور الحياة السياسية فى الدولة السلجوقية حتى سقوطها .

بعد أن أقام السلاجقة دولتهم على اثر انتصارهم على السلطان مسعود الغزنوى فى واقعة دندانقان ، اتخذوا الاستعدادات الضرورية لاقامة صرح دولتهم على أسس قوية ودعائم وطيدة ، فجمعوا شملهم ، ووحدوا صفوفهم وتناسوا ما بينهم من خلافات ومنازعات ، واتفقوا على أن يوحدوا جهودهم لتقوية أمر دولتهم ، ودرء الأخطار التى تواجهها ، وتوسيع رقعتها ، والتفوا حول سلطانهم الأول طغرل بك ، وكان قوى البأس عالى الهمة .

اتخذ طغرل بك سياسة أدت الى تقوية شأن دولته ، فقد عهد الى افراد من أبناء أسرته بحكم ولايات الدولة ، وأمرهم بضبط الأمور فى ولاياتهم ، والعمل على ضم المزيد من الأراضى اليها ، واتخذ السلطان السلجوقى مدينة الرى حاضرة لدولته .

سيطر السلاجقة بعد واقعة دندانقان على اقليم خراسان — كما قلنا — وعظمت قوتهم ، وتطلعوا الى مزيد من الفتح والتوسع ، فاستولوا على طبرستان وجرجان ، وفى سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م هاجموا اقليم خوارزم واستولوا عليه ، وانتزعوه من الدولة الغزنوية(١) .

واصل السلطان طغرل توسيع رقعة دولته ، فاستولى على قزوين وأبهر وزنجان وهمذان واقليم أذربيجان وكرمان ، وأرسل أخاه ابراهيم اينال الى همذان سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م ، وأفلح فى ضم الاقليم الى الدولة السلجوقية(٢) .

وفى سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م فتح طغرل اقليم أصفهان بعد صعوبات كثيرة ومحاولات متكررة ، دامت عاما كاملا ، ولم يكتف طغرل بذلك ، بل أرسل جيشا الى أذربيجان لتأكيد سيطرة السلاجقة عليها ، وأزال

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٣٤هـ .
(٢) المصدر السابق : حوادث سنة ٤٣٧هـ .

كل عقبة فى سبيل نفوذ السلاجقة فى هذه البلاد ، وبذلك أكمل السلاجقة سيطرتهم على اقليم ايران والبلاد المجاورة له .

تطلع السلاجقة بعد سيطرتهم على ايران الى السيطرة على العراق حيث كانت الدولة العباسية تعانى الكثير من الاضطرابات والقلاقل ، وحاضرتها بغداد مسرحا للفتن والدسائس ، وانتهز البساسيرى — قائد الجند الترك — الفرصة ، وبسط نفوذه على بغداد ، وأصبح الخليفة العباسى فيها لا حول له ولا طول ، كما ضعف أمر الملك الرحيم البويهى ، ولم يعد له من السلطة الا اسمها .

شجعت عوامل الضعف فى الخلافة العباسية ، طغرل على التوجه الى بغداد لبسط نفوذ السلاجقة عليها ، وفى أوائل سنة ٤٤٧هـ ، أظهر طغرل أنه يريد الحج واصلاح طريق مكة والمسير الى الشام ومصر ، وازالة المستنصر العلوى — صاحبها — واستأذن الخليفة العباسى بدخول بغداد ، فأذن له ، وأقام الخطبة له فيها ، ولقبه ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين(٣) .

على أن جند السلاجقة أساءوا الى أهل بغداد ، وأمعنوا فى ظلمهم واضطهادهم ، فثار عليهم سكان الحاضرة الكبرى ، فاعتقد السلطان طغرل أن الملك الرحيم البويهى دبر هذه الثورة ، فقبض عليه ، وسيق الى قلعة بالرى ، فقضى بها ما تبقى له من عمر ، وبذلك انتهت الدولة البويهية التى كانت مسيطرة على بغداد والخلافة العباسية ، وآلت هذه السيطرة الى السلاجقة(٤) .

ولما طال مقام السلاجقة فى بغداد ولحق بأهلها منهم الشر والأذى أرسل الخليفة الى طغرل يطلب منه الرحيل عن بغداد ، بعد أن أساء جنده الى أهلها ، فوافق طغرل على الرحيل عن الحاضرة العباسية ، وغادرها سنة ٤٤٨هـ ، بعد أن أمضى بها ثلاثة عشر شهرا(٥) .

---

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٣ ص٤٦٠ .
(٤) الراوندى : راحة الصدور ص١٠٦ .
(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٤٨هـ .

ازداد نفوذ البساسيرى بعد أن أمدته الحكومة الفاطمية بالكثير من الامدادات ، واتجه الى الموصل وسيطر عليها ، فأرسل الخليفة العباسى يستنجد بطغرل ، ويطلب منه طرد البساسيرى من الموصل ، وقد استطاع طغرل القيام بهذه المهمة ، فأسند اليه الخليفة العباسى ولاية الموصل والجزيرة وعاد الى بغداد بعد أن وطد نفوذ السلاجقة فى هذه البلاد ، وقد أكرم الخليفة العباسى وفادته ، ولقبه ملك المشرق والمغرب سنة ٤٤٩هـ وأفاض الخلع عليه ، وطلب من وزيره أن يبلغه هذا القول : « ان أمير المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك ، مستأنس لقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده(٦) .

اضطر طغرل الى مغادرة بغداد لاخماد ثورة وتمرد أخيه ابراهيم اينال عليه ، وأسرع اليه ، والتقى به فى معركة كبيرة فى همذان ، هزمه فيها ، وأصر على قتله بعد أن كثرت حركات تمرده ، وأصبح خطرا على سلطانه(٧) .

انتهز البساسيرى فرصة انشغال طغرل فى اخماد ثورة أخيه ، وعاد الى بغداد بعد أن استولى على الموصل ، وطرد جند السلاجقة منها ، وخلع البساسيرى الخليفة العباسى باقامة الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وغادر الخليفة العباسى بغداد(٨) ، وبذلك دخلت بغداد فى حوزة النفوذ الفاطمى .

لم يكتف البساسيرى بما حققه من نصر للدعوة الفاطمية فى بغداد بل عول على بسط سيطرته على العراق وتحرك فعلا فى العراق لتحقيق أهدافه ، فأدرك طغرل أن ازدياد نفوذ البساسيرى يشكل خطرا جسيما على دولته ، فأنفذ كتبه الى خراسان وبلاد ما وراء النهر « يستنفر الناس خفافا وثقالا حتى شد من الحشود الجم الغفير والعدد الكثير » وتقدم بجيشه الضخم صوب بغداد ، ولما اقترب منها أدرك البساسيرى أنه لا قبل له بمقاومته خصوصا وأن مصر لم تقدم له مساعدات تمكنه من الوقوف فى وجه السلاجقة ، والتصدى لهم ، ومن ثم غادر بغداد ،

---

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٤٩هـ .
(٧) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص ١٥-١٦ .
(٨) الراوندى : راحة الصدور ص١٠٨ .

واتجــه الى الكوفة ، حيث التقى بجنــد السلاجقة فى معــركة هزم فيها ، والتقى طغرل بالخليفة العباسى التائم فى النهزوان ، واجتمع به ، وقبــل الأرض بين يديه ، وهنــأه بالسلامة ، واعتــذر عن تأخره بعصيان أخيه ابراهيم ، ووعده بتعقب البساسيرى ، وقصد الشام ومصر ، والتخلص من خليفتهــا الفــاطمى الذى يناهض الســنة ، ويؤيد ويدعــم حــركة البساسيرى الشيعية(٩) .

عاد الخليفة العباسى الى بغداد ، وكان طغرل قد سبقه اليها — وأقام له طغرل أحسن استقبال ، وان كانت بغــداد قد خلت من أعيانهــا . وبذلك عادت بغداد الى حوزة الخــلافة العباسية السنية . وزال عنهــا النفوذ الفاطمى ، وازداد نفوذ السلطان طغرل ، وأصبح صاحب السلطان المطلــق فى ايران والعــراق ، بينمــا بقى الخليفــة العباسى مســلوب السلطة(١٠) .

ولمــا اســتقر الخليفة العبــاسى فى بغــداد رأى ضرورة التخلص نهائيــا من البساسيرى تجنبــا لخطره ، ودرءا لشره ، وحرصــا على استتباب الأمور فى دولته ، فأرسل فرقة من ألفى فارس الى الكــوفة ، اشتبكت مع البساسيرى وفلوله فى عــدة معارك ، وهزم وقتل ، وحملت رأسه الى بغداد ، وكان فى أسر البساسيرى جماعة من النساء المتعلقات بدار الخلافة ، فأخذن وكرمن وحملن الى بغداد ، واستردت الأمــوال الكثيرة التى نهبت من بغداد(١١) .

توفى طغرل سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م بعد أن أقسام صرح دولة وطيــدة الأركان تضم العــراق وايران ، وقد لعبت دورا كبيرا فى مزج ايــران بالعراق حتى أصبحــا يمثــلان معا صورة واضحة صادقة للحضــارة الاسلامية فى مرحلة من أهم مراحلهــا ، وكان يعمل جاهدا على رفــع لواء السنة ، وتشجيع أئمتها على دحض آراء مخالفيها الشيعة(١٢) .

لمــا توفى طغرل أجلس وزيره عميــد الملك الكنــدرى على عرش

(٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٣ ص٤٦٥ .
(١٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٥هـ .
(١١) ان الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٠هـ .
(١٢) عبدالنعيم حسنين : سلاجقة العراق وايران ص ٤٥ .

السلطنة ، سليمان بن داود جغرى بك اخى السلطان طغرل وولى عهده ، غير أن الأمور لم تستقر للسلطان الجديد ، ذلك أن بعض افـراد البيت السلجوقى مالوا الى الب أرسـلان محمد بن داود جغرى بك — صاحب خراسان — والتف الناس كذلك حول الب أرسلان ، فبادر عميد الدولـة الكندرى باقامة الخطبة بالـرى للسلطان الب آرسلان ، وبعده لأخيـه سليمان(١٣) .

ولـما ولى ألب آرسلان السلطنة ، ودخل الرى مع وزيره نظـام الملك ، استقبله الكندرى — وزير طغرل — احسن استقبال ، وقـدم له الهدايا ، وهنأه بالسلطنة ، ولكن نظـام الملك خشى أن تظل الـوزارة من نصيب الكندرى — وكان يتطلع اليها — وساءه أيضا التفاف الجنـد والناس حول الكندرى ، لذا دبر مؤامرة للتخلص منه حتى يـؤول اليـه نفوذه وسلطانه ، فحرض الب أرسلان على غريمه — الكندرى — وحذره منه ، فأوجس الب أرسلان خيفة من الكندرى ، بل أمر بالقبض عليه ، وقتل قتلة شنيعة ، وقبل أن يقتل الكندرى أرسل رسالتين الأولى الى الب آرسلان والثانية الى نظام الملك . جاء فى الأولى للسلطان : لقد خدمتنى خدمة جليلة ، فقد أعطانى عمك ملك العالم الدنيا التصرف فيه ، فلما أمرت بقتلى أعطيتنى ملك العالم الآخر جـزاء لاستشـهادى ، وبذلك تم لى على يديكما امتلاك الدارين الفانية والباقية . وفى الرسالة التى بعثها الى نظام الملك حذره من العـواقب الوخيمة التى ستعود على الدولة من جراء قتل الوزراء ، وأول من سيشرب من نفس الكأس — بعد الكندرى — نظام الملك — قال الكنـدرى لنظام الملك : بئسما عودت الاتراك قتـل الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها(١٤) . ولقـد تجاوز هذا الوزير السيء الطالع الأربعين من عمره حين مقتله ، وكـان عالما بالدين ، نظم قصائد شـعرية رائعـة ، ومن المتعصبين للمذهب الشافعى ناصب العداء للرافضة والأشاعرة ، وأمر بلعنهم فى المساجد(١٥) وتحقق لنظام الملك ما كان يسعى اليه ، فولاه السلطان ألب آرسلان وزارة الدولة السلجوقية(١٦) .

---

(١٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٠هـ .
(١٤) براون : تاريخ الادب الفارسى ص٢١٨ .
(١٥) الراوندى : راحة الصدور ص ١١٧ـ١١٨ .
(١٦) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص٢٩ .

حرص السلطان الب آرسلان على المحافظة على ممتلكات الدولة السلجوقية ، وتوسيع رقعة اراضيها . فلما ولي السلطنة شق أمير ختلان عصا الطاعة ، ومنع ما كان يؤديه من مال الى الحكومة السلجوقية ، فعول الب آرسلان على سحق تمرده ، فسار اليه على رأس حملة حربية ؛ ولما بلغ ختلان ، تحصن اميرها في القلعة ، وهاجم السلطان السلجوقي القلعة ، وشدد عليها الحصار حتى استسلم امير ختلان ، وعادت هذه الولاية الى الولاء والطاعة للسلطان السلجوقي . ولم تقف متاعب الب آرسلان عند هذا الحد ، بل سار الى صغانيان التي حذت حذو ختلان في التمرد والعصيان ، وحاول أميرها الاستقلال عن الحكم السلجوقي . واستطاع الب آرسلان اعادة صغانيان الى الولاء والطاعة ، وقد توطد نفوذ الب آرسلان في دولته بعد أن دحض كل هذه المحاولات الانفصالية ، ولم يلبث أن ازداد نفوذه بعد أن اعترف الخليفة العباسي به سلطانا ، وارسل اليه التقليد والخلع بمشهد من الناس(١٧) ، وبذلك اكتسب حكمه الصفة الشرعية .

ولم يواجه الب آرسلان حركات العصيان من ولاته فقط ، بل واجه مصاعب من أفراد اسرته ، من ذلك ان شهاب الدولة قتلمش تطلع الى الوصول الى عرش السلطنة ، وجمع لذلك جيشا كبيرا ، وسار على رأسه الى الري ليستولي عليها ، ولما اقترب منه أرسل اليه ينكر عليه فعله وينهاه عن العصيان ، ويدعوه الى الطاعة ، وأبدي استعداده للعفو عنه ، لأنه يرعى له القرابة والرحم ، لكن قتلمش لم يستجب لنداء السلطان ، فقد اغتر بكثرة جمعه ، واطلق لجنده العنان ، فنهبوا قرى الري ، وبذلك لم يعد هناك بد من الحرب والقتال . ومهما يكن من امر فقد التقى الجمعان في معركة دارت فيها الدائرة على قتلمش وجند، بل قتل في المعركة(١٨) وبذلك عادت الى الدولة السلجوقية وحدتها ، وقوى مركز سلطانها .

كذلك احبط السلطان الب آرسلان محاولة عمه بيغو الاستقلال باقليم هراة سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م ، وطهر هذه البلاد من الثوار ، واعاد الأمن والنظام في جميع انحاء خراسان وبلاد ما وراء النهر(١٩) .

---

(١٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٦هـ .
(١٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٦هـ .
(١٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٧هـ .

اتخذ الب آرسلان بعد أن استتب له الأمر في دولته سياسة تنطوى على توسيع رقعة اراضيها ، وذلك ببسط النفوذ السلجوقى على بلدان الدولة الفاطمية في مصر والشام ، والسيطرة على البلاد المسيحية المجاورة ونشر الاسلام في غير بلاد الاسلام .

بدأ الب آرسلان يقترب من النزاع مع الاقاليم المسيحية المجاورة لدولته ، فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم ، وكان أهل هذه البلاد يكثرون من الاغارة على اقليم اذربيجان حتى اصبحوا مصدر قلق لسكانه ، الأمر الذى شجع السلطان السلجوقى على سرعة العمل على كبح جماح هؤلاء القوم ، والسيطرة على بلادهم المجاورة للدولة البيزنطية .

بدأ الب آرسلان حركته الحربية ، فاستولى على الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرة وان وأورميه ، كما سيطر على جورجيا وبلاد الأرمن ، وقد أزعج ذلك امبراطور الروم رومانوس ديوجينس Romanus Diagenes ، وأدرك أن التوسع السلجوقى لا يقف عند حد ، بل يشكل خطرا على دولته ، فاعتزم تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده ، فسار الى بلاد الشام في عسكر كثيف ، وأغار على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها ، وهزم صاحبها محمود بن صالح بن مرداس ومن معهم من جموع العرب ، وعاد الى القسطنطينية(٢٠) .

ولما رأى صالح بن مرداس — أمير حلب — قوة الدولة السلجوقية، عول على الدخول في طاعة السلطان السلجوقى ، فجمع أهل حلب وقال : « هذه دولة جديدة ، ومملكة شديدة ، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم ، والرأى أن نقيم الخطبة قبل أن يأتى وقت لا ينفعنا فيه قوة ولا بذل » فاستجاب الحاضرون لدعوته ، وأقيمت الخطبة في حلب للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، والسلطان السلجوقى(٢١) وسار ألب آرسلان الى حلب ، وأدخلها في حوزته(٢٢) . وبذلك آلت الى الخلافة العباسية بعد أن كانت تابعة للدولة الفاطمية .

---

(٢٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٣هـ .

(٢١) الراوندى : راحة الصدور ص١١٨ .

(٢٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٢هـ .

رأى رومانوس الرابع — امبراطور الدولة البيزنطية — ان الدولة السلجوقية تهـــدد امن بلاده ، نعول على اضعافهـــا ، ووقف خطتهـــا التوسعية على حساب أراضيها ؛ فغادر رومانوس القسـطنطينية على رأس جيش يتكون من مائتى الف مقـــاتل من الروم والفرنجة والروس والكرج والصرب والقوقاز وغيرهم من شعوب دولته ، فجاءوا « فى تجمل كثير وزى عظيم » وسار امبراطور الروم على رأس جيشه الى ملاز كرد — من اعمال خلاط — ولمـــا علم الب آرسلان بذلك أعد جيشا قويا ، وسار مسرعا لملقاء العدو ، وقال وهو يجد فى السير : « اننى أقاتل محتسبا صابرا ، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى ، وان كانت الشهادة فان ابنى ملكشاه ولى عهدى » ، وواصل المسير بجيشـــه حتى اقترب من الجيش البيزنطى ؛ ولمـــا لاحظ السلطان الب آرسلان أن قوة الروم تفوق قـــوته واستعداده ، دعا الامبراطور الى عقد هدنة حتى يستطيع اعادة تنظيـــم قواته وتقوينها ، لكن الامبراطور رفض الهـــدنة ، وقال : لا هدنة الا فى الرى ، لذلك رأى السلطان السلجوقى أن الحرب أمر لا مفر منه ، واثار حماس جنده ، ووقعت الواقعة بين الفريقين فى ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م ، وكانت معركة حامية الوطيس ، انتهت بانتصار المسلمين على أعدائهم . ومزقهم المسلمون شر ممزق ، وقتلوا فيهم كيف شاءوا حتى امتلأت أرض المعركة بجثث قتلى الروم ، ووقع الامبراطور البيزنطى اسيرا فى أيدى السلاجقة ، وسيق الى معسكر السلطان السلجوقى الب آرســـلان(٢٣) . فقال له السلطان : ما عزمت أن تفعل بى ان اسرتنى ، فقال : افعل القبيح . فقال له السلطان : فما تظن أننى أفعل بك ، قال : اما أن تقتلنى ؛ واما أن تشهر بى فى بلاد الشام ، والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال ، واصطناعى نائبا عنك . قال السلطان السلجوقى : ما عزمت على غير هذا(٢٤) .

أطلق السلطان الب آرســـلان سراح الامبراطور البيزنطى بعد أن تعهد بدفع دية كبيرة قدرها الف الف دينار وخمسمائة الف دينـــار ، وأن يرسل اليه عسكر الروم فى أى وقت يطلبه ، وأن يطلق كل اسير مســـلم فى أرض الروم . وعقدت معاهدة مدتها خمســـون عاما بين الفريقين ، وأفرج عن رومانوس ، وعاد الى بلاده مذموما مدحورا(٢٥) .

---

(٢٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٣هـ .

(٢٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص١٨٥ .

(٢٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٣هـ .

وكان لموقعة ملازكرد أهمية كبيرة في التاريخ الاسلامي بصفة خاصة ، وتاريخ العالم بصفة عامة ، فقد نجم عن هذه الواقعة تأسيس دولة سلجوقية في أرض الروم في آسيا الصغرى . وقد أدى ضياع هذه البلاد من الدولة البيزنطية إلى ضعفها وتدهورها حتى سقطت في النهاية على أيدى السلطان العثماني محمد الفاتح .

كما كان لهذه الواقعة آثار حضارية بالغة الأهمية ، ذلك ان الثقافة المسيحية غلبت على سكان آسيا الصغرى ، وامتدت منها الى حدود أذربيجان ، فلما انسحب الروم من هذه البلاد ، ودخلت في حوزة السلاجقة، حلت الثقافة الاسلامية محل الثقافة المسيحية فيها ، وانتشر الاسلام في هذه البلاد ، وانتشرت اللغتان العربية والفارسية فيها ، لأن العربية لغة القرآن ، والفارسية لغة الفاتحين ، وقد مهد انتشارها لظهور اللغة التركية الحديثة بعد ذلك(٢٦) .

وضعفت الدولة البيزنطية على اثر هذه الموقعة ، ولم يعد لها دور في حماية المسيحية من ضغط الاسلام ، وفي حراسة الباب الشرقي لأوربا من غزو الاسيويين ، وبذلك لم يعد الغرب الأوربي يعتمد على البيزنطيين في هذا الدور ، انما كان عليه أن يعتمد على قوته وحدها ، وعلى ذلك مهدت موقعة ملاذكرد للحملة الصليبية المعروفة بالأولى بعد أن أصبحت المسيحية في خطر بسبب ازدياد قوة السلاجقة وضعف الدولة البيزنطية(٢٧) .

ومهما يكن من أمر فقد أعاد السلطان ألب أرسلان غريمه وأسيره الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع الى بلاده ، بان خلع عليه خلعة جليلة ، وخصص له سرادقا كبيرا ، وأعطاه قدرا كبيرا من المال لينفق منه في سفره ، ثم أفرج عن عدد من ضباطه ليقوموا بخدمته ، وامر عددا من رجاله بصحبته حتى يصل الى دياره سالما ، ولم تكد تصل أخبار هذه الهزيمة الى القسطنطينية حتى أزال رعاياه اسمه من سجلات الملك ، وقالوا : انه سقط من عداد الملوك ، وغضب عليه المسيح .

(٢٦) عبدالنعيم حسنين : سلاجقة العراق وايران ص٥٩ .
(٢٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص٨٦

واعلن ميخائيل السابع امبراطورا ، والقى القبض على رومانوس الرابع وسملت عيناه(٢٨) .

على ان السلطان الب آرسلان لم يشتغل هذا النصر العظيم فى محاولة الاستيلاء على بقية اسيا الصغرى التى أصبحت ممهدة له بعد ملازكرد وانما اكتفى بادخال ارمينية وانطاكية والرها فى حوزته ، واتجه الى الأطراف الشرقية من دولته لاخضاع بلاد ما وراء النهر ، وهاجم الب آرسلان احدى القلاع الثائرة ، واخمد ثورتها ، وقبض جنده على قائدها يوسف الخوارزمى ، وقد اعتزم السلطان السلجوقى قتله بنفسه ، لأنه أظهر عنادا واصرارا على التمرد تسبب فى قتل الكثير من جنده ، ورماه السلطان بسهم فاخطاه ، ولم يكن يخطىء سهمه ، وأخرج يوسف سهما اخفاه فى ملابسه لقى السلطان بسببه مصرعه(٢٩) .

وبذلك انتهى حكم السلطان الب آرسلان الذى استمر تسع سنين وستة أشهر ، وقد حكم مملكة تمتد من نهر جيحون حتى نهر دجلة . ويعد عصره من أهم عصور السلاطين السلاجقة استتب فيه الامن ، وحسنت ادارة الدولة ، واتسعت رقعتها ، وقهر اعداؤها حتى أنها كانت مهابة مرهوبة الجانب . ويذكر ابن الأثير(٣٠) أن الب آرسلان كان يكثر من الصدقات على المحتاجين من رعيته ، وقد قنع من الأهالى بالضريبة الشرعية تؤخذ منهم كل سنة دفعتين ، وقد اهتم بدراسة تاريخ الملوك الماضين وسياساتهم عبرة وعظة له .

اكد الب آرسلان قبل أن يلقى ربه التوصية لابنه ملكشاه بالسلطنة — وكان معه — وأمر جنده بأن يقسموا يمين الولاء والطاعة له ، وأرسل ملكشاه الى الخليفة العباسى فى بغداد يطلب منه اقامة الخطبة له على منابرها بعد وفاة أبيه ، وغادر ملكشاه بلاد ما وراء النهر ، وعاد الى الرى ، واتخذ نظام الملك وزيرا له ، ورفع مرتبات الأجناد ، وراسل ملكشاه أصحاب الأطراف يدعوهم الى الخطبة له والانقياد اليه(٣١) .

---

(28) Vasiliev : Hist of the Byzantine Empire. p. 365.

(٢٩) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص٣٠ .

(٣٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٥هـ .

(٣١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٥هـ .

واجه ملكشاه صعابا كثيرة فى بداية حكمـــه بسبب انتقاض بعض الولايات محـــاولة الانفصال عن الدولة السلجوقية ، لكن ملكشـــاه احبط كل المحاولات الانفصـــالية . ولم يكـــد ملكشاه ينتـــه من دحض هـــذه الثـــورات ، حتى واجه حركة اخرى قام بها عمـــه قاروت بك مطالبـــا بالسلطنة ، وكان بكرمان وقت وفاة أخيه الب آرسلان ، وسار طالبـــا الرى حاضرة السلطنة السلجوقية ـــ فعول ملكشاه على دحض هذه الحركة الخطيرة ، فاصطحب وزيره نظام الملك ، وتوجهـــا الى همـــذان للقاء قاروت بك ، وقمع حركة تمرده(٣٢) ، وكان الجند يميلون الى قاروت بك ، ودارت معركة رهيبة بين الفريقين ، انضم فيها شرف الدولة مســـلم بن قريش ، وبهاء الدولة منصور ابن دبيس بن مزيد ومن معهما من العـــرب والأكراد الى السلطان السلجوقى ، وانتهت المعـــركة بهزيمة قاروت بك ، وصـــفت السلطنة لملكشـــاه ، ولم يعد ينازعه فيها منازع ، ودانت لـــه الولايات السلجوقية بالولاء والطاعة ، أما قاروت بك فقد سيق اســـيرا الى السلطان ملكشاه ، فأمر بقتله تخلصا من شره وعقابا له على موقفـــه العدائى نحـــوه ، واقر كرمان بيد أولاده ، ومنح العرب والاكراد ، الذين اشتركوا معه فى المعركة ، الاقطاعات الكثيرة(٣٣) .

غير ان الدولة السلجوقية تعرضت لأحـــداث شغب من الجند ، اذ انطلقوا فى البلاد يعيثون فيها نهبا وفسادا ويخربون ويدمرون ، ففـــوض السلطان ملكشاه وزيره نظام الملك بتدبير امور البلاد كلها دون الرجـــوع اليه ، وقال له : قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرهـــا اليك ، فأنت الوالد . وزاد فى اقطاعه ، وخلع عليه ، ولقبه عدة القاب من بينها لقب اتابك أى الأمير الوالد(٣٤) . وكان ملكشاه جديرا بهذه الثقة ، فأعـــاد الى البلاد الأمن والطمأنينة .

كانت بـــلاد ما وراء النهـــر كثيرة القلاقل والاضطرابات فى عهـــد السلطان الب آرسلان ، فلما قتل شق خاقان التكين ـــ صاحب سمرقند ـــ عصا الطاعة ، وأغار على ترمذ ، وضمها الى حوزته ، منتهزا فرصـــة

---

(٣٢) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص٤٨ .
(٣٣) الراوندى : راحة الصدور ص١٢٦-١٢٧ .
(٣٤) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص٤٨ .

الاضطرابات التى أعقبت ذلك ، وانشغال السلطان الجديد ملكشاه فى القضاء على الصعاب التى واجهته ، ولما استوثق الأمر للسلطان الجديد سار الى ترمذ وحاصرها وشدد عليها الحصار ، ولما رأى جند ترمذ أن لا طاقة لهم بجند السلاجقة طلبوا من السلطان العفو والصفح ، فأمنهم وعفا عنهم ، واستعادها ملكشاه ثم صار الى سمرقند ، فأسقط فى يد صاحبها ، فغادرها وأرسل يطلب من السلطان الصلح ، وتضرع فى ذلك الى نظام الملك ، وأجيب الى طلبه ، وعقد ملكشاه منه صلحا ، بل أقره على سمرقند (٣٥) .

واصل ملكشاه سياسة أبيه ألب آرسلان فى العمل على توسيع رقعة الدوله السلجوقية بحيث تسيطر على العالم الاسلامى كله بما فى ذلك الدولة الفاطمية المتداعية ، فأرسل جيشا الى بلاد الشام سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م واستولى على أكثرها ، ثم أرسل جيشا الى مصر ، وأوغل فى الأراضى المصرية ، لكن الفاطميين بذلوا قصارى جهدهم فى درء الخطر السلجوقى عن مصر ، وفعلا هزم السلاجقة ، وطردوا من البلاد المصرية(٣٦) لذلك توقف السلاجقة بعد ذلك عن فكرة غزو مصر .

تطلع ملكشاه الى تأكيد سيطرته على بلاد الشام ، فأقطعها لأخيه تاج الدولة تتش فى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م وما يفتحه فى تلك النواحى ، فقصد تتش حلب وحاصرها ، ولحق بأهلها مجاعة شديدة بسبب الحصار . على أن تتش اضطر الى رفع الحصار بعد أن تعرضت القوات السلجوقية فى دمشق لهجمات القوات الفاطميه ، وسار تتش الى دمشق لنجدة جنده ، واستطاع مطاردة الجند الفاطمى ، واستعاد السيطرة السلجوقيه عليها(٣٧) .

لما رحل تاج الدولة تتش عن حلب ، خشى أهلها أن يعود الى مهاجمتهم ، فاستنجدوا بشرف الدولة مسلم العقيلى — صاحب الموصل — ليسلموها إليه ، ودخل الأمير العقيلى حلب سنة ٤٧٣هـ ، وأخضع المعارضين لحكمه ، وأرسل الى السلطان السلجوقى يطلب اقراره على

---

(٣٥) الراوندى : راحة الصدور ص١٢٦-١٢٧ .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٨هـ .

(٣٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٧٢هـ .

حلب ، فوافق على طلبه ، واقطعها له(٣٨) ، وبذلك انضمت معظم سورية الى الدولة السلجوقية . واتخذ تتش دمشق مقرا لدولة سلاجقة الشام .

حرص السلطان ملكشاه على توطيد نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى ، وهو بذلك يواصل سياسة أبيه التى تدعو الى مواجهة الدولة البيزنطية ، وانتزاع اراضيها جهادا فى سبيل الله ، ففى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م أسند الى سليمان بن قتلمش بن اسرائيل حكم هذه البلاد ، ويعتبر قتلمش المؤسس الحقيقى لدولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى التى ظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م .

لم يكتف قتلمش بحكم بلاد آسيا الصغرى ، بل سعى الى توسيع رقعة ولايته واتجه الى انطاكية — وكانت بيد الروم — وساعده على ذلك استياء أهلها من الحكم البيزنطى ، وراسلوا قتلمش سرا ، وطلبوا منه التوجه الى بلدهم وامتلاكها ، فابحر قتلمش على رأس حملة كبيرة الى انطاكية ، واوغل جنده فى جبال وعرة ومضايق غلقة حتى وصل اليها ، وهاجم انطاكية ، وشدد هجماته عليها حتى فتحها ، وغنم مغانم كثيرة ، واستولى على البلدة ، وأحسن الى الرعية وعدل فيهم وأعاد تعمير انطاكية(٣٩) وبفتح السلاجقة لانطاكية اطلت دولتهم على البحر المتوسط .

على أن اتساع رقعة الولاية السلجوقية فى آسيا الصغرى ومجاورتها لولاية الشام السلجوقية ، أدى الى ظهور نزاع مرير بين حكام هاتين الولايتين ، ذلك أن قتلمش لم يكتف بحكم انطاكية ، بل تطلع الى السيطرة على حلب ، وهاجمها ودارت حرب بينه وبين أميرها شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى ، انتهت بمقتل الأمير العربى ، وسيطرة قتلمش على حلب(٤٠) ، على أن استيلاء قتلمش على حلب أدى الى وقوع صدام بينه وبين تتش — التى كانت حلب تابعة لولايته — ورأى ضرورة استعادتها ، واشتبك الأميران فى معركة انتهت بهزيمة قتلمش ومقتله ، وحاصر تتش حلب ، واحبط مقاومة جند سلاجقة الروم ، واسترد حلب (٤١) .

---

(٣٨) المصدر السابق .

(٣٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٧٢هـ .

(٤٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٧٧هـ .

(٤١) المصدر السابق ، حوادث سنة ٤٧٩هـ .

رأى ملكشاه أن يقصد ســورية لاعادة الهدوء والطمأنينــة الى هذا الجزء الهام من دولته المترامية الاطراف . فغادر أصفهان ، وقصد حلب ، واخضــع فى طريقه القــلاع الخارجة على سلطان الدولة ، ومن بينهــا الرها ، فحاصرها واستعادها من الروم ، ثم استرد قلعــة جعبر ، وكان أصحابها يقطعون الطريق ، ثم عبر الفرات الى مدينة حلب ، وأقطعها لقسيم الدولة آقسنقر ، فعمرها وأحسن السيرة فى أهلها . ورأى بقيــة حكام المدن الشامية أن أمن بلادهم لا يتحقق ولا ينجو من الخطر الا اذا انضموا الى الدولة السلجوقية القوية ، فأرسل أصحاب شيزر واللاذقيــة وكفــر طاب وفاميه وغيرهم الى ملكشــاه يقــدمون له فروض الــولاء والطاعة . فأقرهم على ما بأيديهم من البلاد ، كما أقر حكم تتش فى بــلاد الشام ، وعاد السلطان السلجوقى الى بغداد بعد أن اخضــع لسلطانه بلاد الشام ، والجزيرة ، وخلع عليه الخليفة العباسى الخلع السلطانية ، « وفوض اليه أمر البلاد والعباد » وأمره بالعدل فيهم ، وأقام الســلطان السلجوقى بعض الوقت فى بغداد ، وتزوج تركان خاتون ابنة الخليفــة العباسى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م(٤٢) .

عادت بلاد ما وراء النهر من جديد الى إثارة المتاعب فى وجه السلطان ملكشاه ، ذلك أن أحمد خان بن خضر خان — صاحب سمرقند — استبد بالاهلين ، فكتبوا الى السلطان سرا يســتغيثون به ، ويسألونه القــدوم عليهم لينقذهم من الظلم والجور . ويستعيد نفوذه فى هذه البلاد ، فغادر ملكشاه أصفهان الى خراسان ، ومنها الى بلاد ما وراء النهر ، وقصــد بخارى وامتلكها ، كما امتلك ما جاورهــا من البلاد ، ثم قصــد سمرقند وحاصرها وشدد عليها الحصار حتى فتحها وعفا عن صاحبها ، وعهــد الى أحد قواده بحكم سمرقند ، ثم قصد كاشغر ، وأرسل الى ملكها يطلب منه الدخول فى طاعته ، فوافق الملك وحضر بين يديه معلنــا ولاءه له ، فأكرمه وأقــره على كاشغر(٤٣) . وبذلك امتد نفــوذ السلاجقة شرقــا وغربا ، وشــمل المناطق الواقعة بين كاشــغر فى الشرق وأنطاكيــة فى الغرب ، أى امتد من حدود الهند شرقا الى البحر المتوسط غربا ، وانضوت تحت لواء الســلاجقة أقاليم ما وراء النهــر وايران وآسيا الصــغرى والعــراق والشــام .

---

(٤٢) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص٦٣ .

(٤٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٢هـ .

بلغت الدولة السلجوقية أوج اتساعها وعظمتها فى عهد السلطان ملكشاه ، ومما لا شك فيه أن الفضل الكبير فى ذلك يرجع الى وزيره نظام الملك الذى عرف عنه الحكمة والرشاد ،وقد بلغ نظام الملك من علو الهمة ، وبعد الصيت ما بلغه البرامكة ، وحلت به نكبة اشبه بنكبتهم ؛ ونظام الملك من ابناء الدهاقين بطوس ، زال ما كان لأبيه من مال وملك . وتعلم العربية ، وعلوم الدين ، ثم تدرج فى سلك الوظائف ، وظهرت كفاءته وأمانته ، حتى اتخذه ألب أرسلان وزيرا له ، ثم فوضه ملكشاه أمر دولته كلها ، وطوال تلك الفترة كان الموجه الحقيقى لسياسة الدولة ، وضبط الأمور فى هذه الدولة المترامية الأطراف وأسفرت جهوده الى جعل الدولة السلجوقية اكبر قوة فى الشرق ، ترهبها الأمم المجاورة ، وتخشى بأسها(٤٤) .

لم تستمر العلاقات الودية بين ملكشاه ووزيره نظام الملك ، فدوام الحال من المحال ، اذ ساءت هذه العلاقات لعدة عوامل منها ما يتعلق بولاية العهد ، فقد رأى نظام الملك ان بر كياروق — الابن الأكبر للسلطان ملكشاه — احق بولاية العهد من أخيه محمود ، ورفضت تركان خاتون — زوج السلطان ووالدة محمود — ذلك ، ورشحت ابنها محمود لولاية العهد ، وكان فى الرابعة من عمره ، وأدى ذلك الى تدهور العلاقات بين نظام الملك وتركان خاتون ولما كانت قوية التأثير على زوجها ملكشاه ، فقد أفلحت فى اثارة الخلافات بين الرجلين(٤٥) .

وكان نظام الملك يعهد بحكم ولايات الدولة السلجوقية الى أبنائه واحفاده وأقاربه ، ويسند اليهم المناصب الرئيسية ، وكان بعضهم غاشما سىء السيرة ، ظالما فى الناس ، فنال ذلك من سمعة الوزير السلجوقى وكان أحد احفاده يلى مرو فاساء ادارتها ، واستبد بأهلها ، فرفع الناس شكاياتهم الى السلطان ، فأرسل الى نظام الملك يؤنبه ، ويقبح تصرفه فى تعيين هذا الشاب الطائش او اقاربه عموما ممن تنقصهم الخبرة ، وتعوزهم التجربة واستاء الوزير — الذى تجاوز الثمانين عاما من رسالة السلطان السلجوقى الذى هو مدين له بما بلغته الدولة فى عهده من قوة

---

(٤٤) الراوندى : راحة الصدور ص١٣٤ .
(٤٥) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص٦٢ .

وازدهار — ، وعبر عن غضبه برسالة بعث بها الى السلطان جاء فيها : ان الذى وضع التاج على رأسك قد وضع القلنسوة على رأسى ، ونتيجة لهذه الخلافات الشديدة أمر السلطان بعزل وزيره(٤٦)

على أن نظام الملك لم يلبث ان قتل بعد عزله في رمضان سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م بالقرب من نهاوند ، فقد اغتاله شاب ديلمى ، وهو داخل الى مخيمه من طائفة الاسماعيلية ، حين ارخى الليل سدوله ، ذلك لأن نظام الملك كان شديد العداء والتنكيل بهذه الطائفة ، ولم يلبث ملكشاه أن توفى بعد مقتل وزيره بشهر واحد(٤٧) .

أخذت الدولة السلجوقية فى الضعف والانهيار بعد وفاة السلطان ملكشاه ، ومن أهم أسباب هذا الضعف تنافس الأمراء السلاجقة حول الوصول الى عرش السلطنة ، الأمر الذى أحدث انقساما شديدا بين أبناء البيت السلجوقى ، وبدأت هذه الخلافات بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ، بين بركياروق الابن الأكبر لملكشاه — وأخيه محمود ، وأيد بركياروق نظام الملك ومن بعده أتباعه وأفراد أسرته واساتذة وطلاب المدرسة النظامية ، على حين وقف الى جانب محمود ، أمه تركان خاتون ، والوزير تاج الملك الشيرازى — الذى خلف نظام الملك — وقد استطاعت تركان خاتون أن تحصل من الخليفة العباسى المقتدى بالله على تقليد بالسلطنة منتهزة فرصة وجودها فى بغداد أثناء موت ملكشاه ، وأودع أنصارها ، بركياروق فى سجن أصفهان ، غير أن اتباع المدرسة النظامية أخرجوه من السجن ، ونادوا به سلطانا وقتلوا الوزير تاج الملك الشيرازى لاتهامه بتدبير اغتيال نظام الملك ، وأسندوا الوزارة الى عز الملك الحسين بن نظام الملك(٤٨) .

على أن الأمور لم تستتب لبركياروق ، فقد طالب عمه تتش — صاحب الشام — بالعرش ، واستولى على بلاد الجزيرة ، وسار الى أذربيجان ، غير أن بركياروق أوقع به الهزيمة ، واعترف الخليفة العباسى به سلطانا(٤٩) .

---

(٤٦) براون : تاريخ الادب الفارسى ص٢٣٠ .

(٤٨) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص١٤ .

(٤٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٥هـ .

(٤٩) الراوندى : راحة الصدور ص ١٤٢–١٤٣ .

لم يستسلم تتش للهزيمة ، بل عاود محاربة ابن أخيه ، واعد العدة لذلك ، لكنه لم يستطع التصدى لبركياروق الذى قوى بأسه ، وعظم شأنه بعد وفاة اخيه محمود ، وانتصر على تتش بالقرب من الرى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م(٥٠) . وبذلك قضى بركياروق على كل المحاولات التى استهدفت انتزاع السلطنة منه ، ودانت له الدولة بالطاعة والولاء .

عاد الانقسام الى البيت السلجوقى ، بعد أن ثار محمد — اخو السلطان — عليه ، وكان واليا على أران وكنجة ، وقصد همذان ، على أن بركياروق لم يستطع التصدى له واحباط تمرده بسبب ثورة الجند عليه ، فقوى شأن محمد — وأعلن نفسه فى همذان سلطانا ، ولم يلبث أن اعترف به الخليفة العباسى لما شعر بقوة بأسه ورجحان كفته(٥١) وبذلك أصبح فى الدولة السلجوقية سلطانان .

استمر النزاع بين الاخوة ، بركياروق ومحمد وسنجر ، وتكررت الحروب بينهم ، وكان الخليفة العباسى يقف من هذه الحروب موقف المتفرج ، ينتظر نتيجة المعركة ، ويقيم الخطبة لمن غلب ، ودخل بغداد ظافرا منتصرا .

ازداد ضعف الدولة السلجوقية بسبب هذا الانقسام الشديد بين أمراء البيت الحاكم ، وفى سنة ٤٩٧هـ سنة ١١٠٣م اتفق بركياروق ومحمد وسنجر على تقسيم المملكة بينهم ، وتوفى بركياروق سنة ٤٨٨هـ ، بعد أن ترك الدولة السلجوقية وقد مزقتها الانقسامات وسيطر كل أمير على ما تحت يده من البلاد(٥٢) .

ولم يستطع السلطان محمد — الذى انفرد بالسلطنة بعد وفاة أخيه — أن يعيد الى الدولة وحدتها فى وقت اشتد فيه خطر الاسماعيلية ، وبدات الحروب الصليبية . وبوفاته سنة ٥١١هـ سنة ١١١٧م اشتد النزاع وعاد من جديد حول العرش ، ذلك أن محمود — الذى خلف اباه — لم يعترف به عمه سنجر — صاحب خراسان وما وراء النهر ، بل أعلن

---

(٥٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٥هـ .
(٥١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٧هـ .
(٥٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٨هـ .

نفسه سلطانا ، وبذلك اصبح للدولة — كما كان الحال من قبل — سلطانان(٥٣) .

على أن أمر سنجر لم يستقر فى بلاد ما وراء النهر وخراسان ذلك أن الخوارزميين اقاموا ملكهم على حساب دولته . واشتبكوا مع سنجر فى عدة حروب ، أنهكت قواه ، ومن ناحية أخرى تكرر النزاع بين الأمراء السلاجقة ، وتطلع كل منهم الى الوصول الى السلطنة ، الامر الذى أدى الى وقوع اشتباكات بينهم . وهكذا اصبحت الدولة السلجوقية منذ أواخر القرن الخامس الهجرى مسرحا للحروب الداخلية فى الوقت الذى أحدق بها الأعداء من كل جانب .

ازداد نفوذ الخوارزميين فى الشرق الاسلامى فى عهد السلطان تتش ، وتربه الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وعهد اليه بتخليصه من كابوس السلاجقة الذى قاسى منه العباسيون سنين عددا . وقد لقيت هذه الدعوة استجابة من السلطان الخوارزمى ، اذ تهىء له الفرصة لمد نفوذه غربا ، وتقوية صلته بدولة الخلافة والسيطرة عليها بدلا من السلاجقة ، وبذلك يكتسب الخوارزميون مركزا سياسيا مرموقا فى عالم الاسلام . ومهما يكن من أمر فقد سار تتش الى الرى سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م ، واشتبك مع طغرل — آخر السلاطين(٥٤) السلاجقة ، وانتصر عليه وخر السلطان السلجوقى صريعا فى ميدان القتال ، وأرسل تتش راسه الى بغداد ، وسيطر الخوارزميون على املاك السلاجقة فى الشرق . وبذلك زالت الدولة السلجوقية .

* * *

ازدهرت الحضارة الاسلامية فى الدولة السلجوقية ، فانتشرت المكتبات فى المدن الكبرى ، وتقدم فن الوراقة ، ويقصد به نسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وكل ما يتعلق باخراج الكتاب ، وكان الوراقون يبيعون هذه الكتب فى دكاكينهم ، والمهتمون بالحياة الثقافية يترددون

---

(٥٣) المصدر السابق ، حوادث سنة ٥١١هـ .

(٥٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ

على هذه الدكاكين للقراءة أو لشراء ما يلزمهم من الكتب والمصنفات ، وكانت الدراسة الابتدائية تتم في الكتاتيب أما الدراسة المتخصصة فكان مقرها المسجد أو المدارس التى انشأها نظام الملك ، وسميت بالنظامية ، واهمها مدرسة بغداد ، وبلغ من اهتمام الخليفة العباسى بها انه كان يعين الأساتذة فيها بنفسه ، ومن أهم المواد التى درست بها الفقه والحديث ، وبرز فيها علماء اجلاء مثل الغزالى ، وشهدت المجالس العلمية فى المساجد والدور والمدارس مناظرات عامية ، بسبب تعدد المذاهب الاسلامية ، وحرص العلماء على القراءة والاطلاع حتى يتمكنوا من دحض حجج معارضيهم ، وشهدت الدولة السلجوقية حركة ترجمة نشيطة من الفارسية واليونانية الى العربية . ومن العلماء الأجلاء الذين لعبوا دورا كبيرا فى ازدهار الحياة الثقافية فى العصر السلجوقى ، الوزير نظام الملك ، وكان عالما جوادا دينا مجلسه عامر بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح ، أمر ببناء المدارس فى سائر أرجاء الدولة ، وأجرى لها الجرايات العظيمة ، صنف كتاب سياسة نامة ، وكان ملكشاه قد عهد الى كبار رجال دولته بأن يؤلف كل واحد منهم رسالة فى الحكم يبين فيه أنواع المفاسد والمحاسن التى انتشرت فى أرجاء الدولة ، وادارة أقاليمها ، والبدع التى ظهرت وعمت بين الناس ، وما أهمل الناس من عادات طيبة ، وألف نظام الملك رسالته فى حوالى سنة ، وقد أعجب بها ملكشاه ، وفضلها على غيرها من الرسالات(٥٥) ، ولأجل هذه الرسالة اتخذه هاديا وناصحا ومرشدا ، ويشتمل الكتاب على قدر كبير من الروايات التاريخية والآراء السياسية وكتبه بلغة فارسية سهلة(٥٦) .

ومن أعجب رجال هذا العصر ونوابغهم الشاعر الرحالة ناصر خسرو ، زار مصر فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر ، واعتنق فى القاهرة المذهب الاسماعيلى ، ومكث فى مصر بضع سنين ، وصنف كتاب سفر نامه ، وصف فيه رحلته فى مصر ووصف القاهرة ومساجدها بما فى ذلك الجامع الأزهر ، كما وصف حاراتها وحدائقها ومبانيها ، وتحدث عن التنظيمات الادارية فى مصر الفاطمية ونظام الجيش ، وعاد الى بلخ يدعو

---

(٥٥) براون : تاريخ الادب الفارسى ص٢٦١ .

(٥٦) براون : تاريخ الادب الفارسى ص٢٦١ .

الفاطميين ، ولقب حجة خراسان ، وحاول خصومه قتله ، فهرب منهم الى بعض الجبال حيث بقى عشر سنين يقتات بالعشب والماء ، وله ديوان ابرز فيه آراءه الدينيـة والفلسفية وكلها توضح تماما عقيدته الاسماعيلية(٥٧) ، ويتضح فيها اتخاذه التأويل الذى اعتاده الباطنية(٥٨) ومن اهم مؤلفاته كتاب «روشنائى نامه» أو كتاب الضياء . و «سعادت نامه» أو كتاب السعادة ، واما الثالث كتاب «زاد المسافرين»(٥٩) .

واشتهر الشاعر عمر الخيام برباعياته التى انشدها بلهجته الخاصة ، وكان فيلسوفا ودهرى وطبيعى ، عالما بالنجوم ، وقد اشترك فى وضع للتقويم الجلالى فى مدينة أصفهان سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م بتشجيع من نظام الملك ، وقد دفن فى مدينة نيسابور ، ولا صحة لما قيل انه دفن تحت شجيرات الورد . وقد وصفه القفطى(٦٠) بأنه واحد من حملة العلوم اليونانية أى الحكمة والفلسفة ، وقد وقف متأخرو الصوفية على شىء من ظاهر شعره فنقلوها الى طريقتهم ، وتحاضروا بها فى مجالسهم وندواتهم « وبواطنها حيات للشريعة لواسع ، ومجامع للاغلال جوامع » . ويؤكد القفطى أيضا انه كان عديم القرين فى العلوم والحكمة ، يضاف الى ذلك انه كان عالما بالفقه واللغة والتواريخ وقراءات السبع .

وتوفى عمر الخيام فى الفترة ما بين سنة ٥٠٩هـ و ٥٣٠هـ . وتبلغ مؤلفاته عشرة كتب بما فى ذلك رباعياته المعروفة وزيج ملكشاه الذى اشترك فى وضعه ، وأغلب الرسائل عبارة عن رسائل علمية أو فلسفية مكتوبة باللغة العربية . وقد نهج بعض الأدباء فى ذلك العصر منهج الخيام فى رباعياته(٦١) .

والخلاصة أن الدولة السلجوقية شهدت نهضة ثقافيـة وعمرانية كبيرة . وعنى ملكشاه بمدينة أصفهان ، وأصبحت فى عهده من أهم مدن العالم وأكثرها عمرانا ، وشيد فيها كبار رجال الدولة القصور والدور الفخمة .

---

(٥٧) المصدر السابق ص ٢٨٣ .
(٥٨) براون : تاريخ الأدب الفارسى ص ٢٨٢ .
(٥٩) المصدر السابق ص٣٠١ .
(٦٠) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢١٣ .
(٦١) براون : تاريخ الأدب الفارسى ص ٣٠٧ .

٣ ـ دولة اتابكة الموصل الجزيرة

انتزع السلاجقة بلاد الموصل والجزيرة من أمراء بنى عقيل ، كما استولوا على ديار بكر التى كان يحكمها بنو مروان ، ففى سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م سير السلطان السلجوقى ملكشاه عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير الى الموصل للاستيلاء عليها ، فحاصرها حتى طلب أميرها ـ شرف الدولة مسلم ابن قريش العقيلى ـ الأمان فى مقابل تسليم المدينة(١) ، فأمنه القائد السلجوقى ، واستولى على أموال وذخائر الأمير العقيلى ، غير أن السلطان ملكشاه ما لبث أن أعاد الموصل اليه(٢) .

اعترض السلطان ملكشاه على تولية ابراهيم بن قريش الموصل بعد مقتل اخيه مسلم ، وأسند ولايتها الى أبى عبدالله محمد بن مسلم ، وأضاف اليه الرحبة وحران وسروج وبلد الخابور ، غير أن بنى عقيل رفضوا تدخل السلاجقة فى تنصيب أمير عليهم ، وأبقوا على ابراهيم بن قريش حتى سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م ، فاستدعاه ملكشاه ، واعتقله ، وأنفذ وزيره فخر الدولة بن جهير الى الموصل حيث استولى عليها(٣) .

لما توفى السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م أطلق سراح ابراهيم ابن قريش بشفاعة زوجته صفية عمة السلطان السلجوقى(٤) ، وسارت مع ابنها على بن مسلم الى الموصل ، فنازعه أخوه محمد فى حكمها ،

---

(١) كان الأمير قسيم الدولة قسنقر ـ والد عماد الدين زنكى ـ أحد قادة جيش الجيش ، وانضم اليه الأمير ارتق بن اكسب ـ جد أمراء بنى أرتق ـ على رأس جمع كبير من التركمان ، ولما اشتد الحصار على أهل الموصل أرسل اليهم ينصحهم بالدخول فى طاعة السلطان ، ويحذرهم من عاقبة العصيان ، فقبلوا نصحه ، وسلموا الموصل الى القائد السلجوقى .
(ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٥) .

(٢) تاريخ الفارقى ، ص ٢٢١ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص٢٧٠ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص٢٣ .

ودار بينهما قتال انتهى الأمر فيه بهزيمة محمد ، ثم انتزع أخـوه على الموصل من ابن جهير وتولى حكمها(٥) .

على أن على بن مسلم سرعان ما نزل عن حكم الموصل لعمه ابراهيم ابن قريش . وبذلك امتد نفوذه الى سائر بلاد بنى عقيل ، لكن السلاجقة عولوا على استعادة الموصل ، فطلب تاج الدولة تتش من صاحبها أن يقيم الخطبة له(٦) ، ولمـا رفض ابراهيم بن قريش ، توجـه تاج الدولة الى نصيبين(٧) ، واستولى عليها عنوة من نائب صاحب الموصل(٨) ، ثـم قصد الموصل ، واشتبك فى معركة مع ابراهيم بن قريش انتهت بهزيمتـه ومقتله ، وأعـاد السلطان السلجوقى الموصـل وأعمالها سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م الى على بن مسلم(٩) .

لكن الأمور فى الموصل لم تستقر لبنى عقيل ، فحدث نزاع بين محمد ابن مسلم العقيلى ـ صاحب نصيبين ـ وعلى بن مسلم ـ أمير الموصل ـ فأستعان محمـد بن مسلم على أخيـه بالأمير السلجوقى كربوقا(١٠) ، فسار الى حران واستولى عليها ، ثم توجه الى نصيبين ، وغدر بصاحبها وانتزعها منه(١١) ، واتجه بعد ذلك الى الموصل فحاصرهـا(١٢) ، ولم يستطع الأمير العقيلى الدفاع عنها ، ففارقها ، واستولى عليها كربوقـا

---

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٢٧٠ .

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٦هـ .

(٧) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على الطريق من الموصل الى الشـام وفيها وفى قراها بساتين كثيرة .

(ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ٢٩٢) .

(٨) أبو شامة : الروضتين ى أخبار الدولتين جـ١ ص٦٥ .

(١٠) كان ملكشاه قد أقطع مدينـة دمشق وأعمالها وما جاورهـا كطبرية وبيت المقدس لتـاج الدولة تتش ، فلمـا توفى ملكشـاه طمـع تاج الدولة فى السلطنة ، فسـار الى حلب وأخذها ثم عاد الى الشـام ، واشتبك فى قتال مع بركيارورق ـ ابن أخيه ـ بالقرب من حلب ، انتصر فيه تتش ، واعتقـل قـواد بركيارورق ، ومن بينهم الأمير كربوقا الذى ظـل معتقلا حتى أفرج عنه الملك رضـوان بعد قتل أبيه تاج الدولة .

(أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٦٦) .

(١١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص١٥ .

(١٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٩هـ .

سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م ، وبذلك آلت الموصل وأعمالها الى الدولة السلجوقية(١٣) .

كذلك عمل السلاجقة على انتزاع ديار بكر من الأمير أبي المظفر منصور بن مروان منذ أن وليها سنة ٤٧٢هـ/٩٧٠م(١٤) ، فأمر السلطان ملكشاه وزيره فخر الدولة بن جهير بالاستيلاء على ديار بكر ، واقامة الخطبة له ، ونقش اسمه على السكة ، فسار اليها سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وضم السلطان اليه جيشا بقيادة الأمير أرتق بن أكسب ، فمضى الأمير المرواني الى شرف الدولة مسلم — صاحب الموصل وطلب منه أن يعاونه ضد من يحاول مهاجمته(١٥) ، على أن يسلم اليه آمد ، فأجابه الى طلبه ، واتفقا على محاربة فخر الدولة ، واشتبك الفريقان في قتال على مقربة من آمد انتهى الأمر فيه بانتصار القائد السلجوقي وعاد شرف الدولة مهزوما الى بلاده(١٦) .

امتد نفوذ ابن جهير الى آمد ثم ميافارقين ، كما استولى على أموال بني مروان ، وأرسلها الى السلطان السلجوقي(١٧) ، ثم أنفذ جيشا الى جزيرة ابن عمر — وهي لبني مروان — فضمها الى حوزته ، كما بسط نفوذه على معظم قلاع وحصون ديار بكر ، وقد أحسن ابن جهير الى أهلها ، ورفع عنهم ما كانوا يعانونه من المظالم(١٨) .

لما حل الضعف بالدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه ، استقل كل أمير بولايته ، فانقسمت الدولة السلجوقية الى دويلات

---

(١٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص١٧ .

(١٤) أول من حكم ديار بكر من بني مروان أبو علي الحسن عقب مقتل خاله باذ الكردي سنة ٣٨٠هـ أثناء محاولته الاستيلاء على الموصل ، تزوج الأمير المرواني من امرأة خاله ، وتوجه الى حصن كيفا ، وحكمه ثم بسط نفوذه على سائر ديار بكر ولما توفي تعاقب بنوه على حكم ديار بكر حتى استولى عليها السلاجقة سنة ٤٧٨هـ . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٣٨٠هـ ، ٤٧٨هـ) .

(١٥) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب جـ١ ص١٢ .
Ency : of Islam : Art Marwanids.

(١٦) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب جـ١ ص١٢ .

(١٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٨ .

(١٨) تاريخ الفارقي ص ٢١٦ .

مستقلة . ومع ذلك ظل أمراؤهـا يظهرون الـولاء والطاعة للسـلطان السلجوقى .

اتخذ كل أمير من هؤلاء الأمراء قائدا تركيا يقوم بتدريب أبنائه على فنون الحرب والقتال ، وأساليب الادارة والحكم ، يسـمى أتابك ، أى الأمير الوالد(١٩) ، فلما عين عماد الدين زنكى أتابكا على الموصل ، كان مؤدبا لصغيرين من أولاد السلطان السلجوقى محمود(٢٠) ، غير أنهما لم يقوما بادارة شئون البلاد(٢١) .

استأثر الاتابكة بالنفوذ دون الأمراء بسبب ما كانوا يتمتعون به من سلطة أبوية ، ومما ساعد على ازدياد نفوذهم أن الأتابك كان يتزوج من أم الأمير السلجوقى المتوفى ، ويتزوج الأمير الجديد من ابنة الأتابك ، وقد يسر ذلك للأتابكـة اقامـة أسرات حاكمة مسـتقلة فى بـلاد الموصـل والجزيرة(٢٢) .

ففى الموصل مكن السلاجقة عماد الدين زنكى من حكمها ، ذلك أن أباه قسيم الدولة آقسنقر كان مملوكا تركيا من مماليك السلطان السلجوقى ألب آرسلان ، ثم صار من أعيان دولة ابنه السـلطان ملكشاه وأكابر أمرائه وبلغ من علو منزلته عنده أن لقبه قسيم الدولة(٢٣) ، ثم عهد اليه بولاية بعد حلب أن زال سلطان بنى عقيل عنها سنة ٤٧٩هـ(٢٤)/١١٨٣م.

لـما توفى السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٩٠٢م خرج آقسنقر على طاعة السلطان السلجوقى تاج الدولة تتش ، لكنـه ما لبث أن قضى عليه سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، واستولى على أملاكه . وبذلك حرم عمـاد الدين زنكى ابن آقسنقر من أملاك أبيه(٢٥) .

---

(١٩) «اتا» معناها بالتركية أب و «بك» أمير .

(٢٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٣٠٥ .

(٢١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢١٧ .

(22) Cambridge Medieval History. Vol. p. 316.
Cibb. Damascus Choronicle of Crusaders. p. 23.

(٢٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص١٥ .

(٢٤) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص ٦٥-٦٦ .

(٢٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك . القسم الأول . جـ١ ص٣٣ .

اجتمع مماليك آقسنقر حول عماد الدين زنكى(٢٦) ، وأحاطه الأمير كربوقا ــ الذى استولى على الموصل ــ برعايته ، وضم مماليكه الى جنده وأقطعهم الاقطاعات واستعان بهم فى حروبه ، واشترك عمــاد الدين مع كربوقا فى غزو آمد(٢٧) ، ولم يزل زنكى فى خدمة كربوقــا حتى وفاته سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م(٢٨) .

ذاع صيت عماد الدين زنكى لمــا أبداه من الشجاعة أثنــاء قتال الصليبيين فقد اشترك مع مودود ــ أمير الموصل ــ فى مهاجمة طبرية(٢٩) وقاتل الفرنجة على باب هذه المدينة(٣٠) ، وكافاه الســلطان السلجوقى محمد ، بأن أسند اليه شحنكية(٣١) البصرة وواسط سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م.

ولمــا ولى السلطان محمود الحكم أقر أخاه الملك مسعود مع أتابكة جيوش بك فى امارة الموصل ، غير أنه خرج على السلطان بتحريض من أتابكة الذى خطب بالسلطنة ، مما ترتب عليه قيام حرب بينهمــا حلت فيها الهزيمة بمسعود وأتابكة(٣٢) . ثم عفا الســلطان عنهمــا ، وولى آقسنقر البرسقى على الموصــل سنة ٥١٥هـ(٣٤)/١١٢١م وأضاف اليــه الجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرها من أعمال الموصل(٣٥) .

---

(٢٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٩هـ .
Lane Poole : Saladin. p. 35.

(٢٧) أعظم مدن ديار بكر ، وأجلها قدرا ، وأشهرها ذكرا وهو بلد حصين ركين تحيط به دجلة بشكل شبه مستدير كالهــلال .

(٢٨) لمــا هاجم كربوقا آمد واشتد القتال وكثرت جموع التركمان ألقى كربوقا عماد الدين زنكى بين أرجل الخيل ، وقال لجنده : « قاتلوا عن ابن صاحبكم » فحين اذن اشتد قتالهم ، وقوى حماسهم وانتهت المعركة باستيلاء كربوقا على آمد .
(أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٦٦ .

(29) Lane-Poole : Saladin. p. 37.

(30) Zoe Olden Bourg. Les Croisades. p. 278.

(٣١) الشحنة : رياسة الشرطة ، أو الأمير المشرف على حراسة المدينة أو محافظها .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الأول جـ١ ص ٣٥ .

(٣٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٢٤ .

(33) Setton : A Hist. of Crusades. Vil 1. 170.

(٣٤) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٧٣ .

(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٣٠ .

اشــترك عماد الدين زنكى فى الحــروب التى دارت بين آقســنقر البرسقى(٣٦) ودبيس بن صدقة(٣٧) ــ صاحب الحلة ــ وانتهت بهزيمة(٣٨) دبيس ، ولــما استقر رأى آقسنقر على العودة الى الموصل طلب من عماد الدين زنكى أن يصحبه فى المسير اليها لكنه رفض وقال لأصحابه : « قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم قد يملك البلاد أمير ، ونؤمر بالتصرف على اختياره وارادته ، ثم تارة بالعراق ، وتارة بالموصــل . وتارة ببــلاد الجزيرة ، وتارة بالشام(٣٩) ، ثم قدم على السلطان محمود فأكرم وفادته وتوثقت بينهما عرى الصــداقة ، كما اتصل فى نفس الوقت بالخليفــة المسترشد واكتسب وده واحترامه(٤٠) .

لــما هاجم أنصار دبيس بن صدقة صاحب ــ الحلة ــ البصرة ، وعاثوا فيها فسادا ، أعاد السلطان تولية زنكى شحنة لها ، فسار اليها واستطاع أن يصد المغيرين عنها ، ويعيد الأمن الى نصابه ، فعظم شأنه عند السلطان وأسند اليه شحنكية العــراق ، وفوضها اليه مضــافة الى ما لديه من الاقطاع(٤١) .

أما فيما يتعلق بامارة الموصل ، فانه بعد مقتل البرسقى سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) خلفه فى حكمها ابنه عزالدين مســعود ، وأقره السلطان على

---

(٣٦) كان الأمير اقسنقر البرسقى فى خدمة السلطان محمود ناصحا له ، ملازما له فى خروجه كلها بمجاهدة الفرنجة ، وقد أصلح أمر الموصل فى فترة ولايته عليها .
(ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٥هـ) .
(٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٣٠ .
(٣٨) نشبت حرب بين دبيس بن صدقة الخليفــة العبــاسى المسترشــد ســنة ٥١٦ هـ ، انضم فيها البرسقى ــ صاحب الموصل ــ وعماد الدين زنكى الى الخليفة العباسى ، فانهزم دبيس ، وذهب الى البصــرة ، ودخلها ونهبهــا وهاجمهــا ، فأمر الخليفــة البرسقى بحفظ البصرة فسار اليها وانتزعها من دبيس وولى عليها عماد الدين زنكى.
(Zoe Olden Bourg : Croisadls. p. 276).
(٣٩) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٢٧ .
(40) Lane Poole. Saladin. p. 35.
(٤١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢١هـ .
ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ٤ ص٦١ .
Zoe Olden Bourg : Les Croisaces. p. 278.

ممتلكات أبيـــه ، فضبط البـــلاد ، وأحسن الى الأهلين ، وكان يســاعده فى الحكم الأمير جاولى — أحد مماليك أبيه(٤٢) .

على أن عزالدين مسعود ما لبث أن توفى ، وخلفه فى ولاية الموصل أخ له ، وظل جاولى يتولى مهام الحكم فى البلاد نيابة عنه ، وأرســل الى السلطان محمود القاضى بهاء الدين أبا الحسن على بن الشــهرزورى ، وصلاح الدين محمد الياغيسيانى يطلب اقرار الأمير الجديد على ما يليه من البلاد ، وبذل فى سبيل ذلك كثيرا من الأموال(٤٣) ، بيد أن السلطان محمود كان قــد أصــدر مرسوما بتسليم دبيس بن صــدقة الموصل ، وأعد العدة للمسير اليها ، لكن الخليفة المسترشد عارض توليته ، وترددت الرسائل بينه وبين السلطان بتولية زنكى(٤٤) ، فلقيت هذه الفكرة قبولا من الرسولين ، ذلك أنهما كانا يخشــيان جاولى ويرفضان الدخــول فى طاعته ، وطلبا من انوشروان ابن خالد — وزير السلطان محمود — تولية زنكى الموصل لأنه يستطيع الدفــاع عن بلاد الموصل والجــزيرة بعد أن ازدادت هجمات الصليبيين عليها(٤٥) ، فأبلغ الوزير ذلك الى السلطان ، ليقف بنفسه على رأيهما فى زنكى ، فتحدثا عن كفايته وشجاعته ، فوافق على توليته الموصل وبعث فى طلبه حيث سلمه منشــورا بذلك ، وسير معه الى الموصل ولــديه ألب آرسلان وفروخ شاه المعــروف بالخفاجى ليشرف على تربيتهما(٤٦) ولهذا قيل له الأتابك(٤٧) .

سار زنكى قاصدا الموصل ، فدخلها دون ان يتعرض له جاولى بــل دخل فى خدمته(٤٨) فأقطعه زنكى الرحبة وأعمالها . وسيره اليها ، وأقام هو بالموصل ليرتب أمورها ، فجعل نصير الدين جقر نائبا له ، وصلاح الدين الياغيسيانى أمير حاجب ، وبهاء الدين الشهرزورى قاضيا لقضــاة بلاده مكافأة لهم على جهودهم فى توليته الحكم(٤٩) .

---

(٤٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص ٢٤٩ .
(٤٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٣٥-٤٣ .
(٤٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٧٩ .
(٤٥) العينى : عقد الجمال فى أخبار أهل الزمان جـ١٢ ورقة ٤ .
(٤٦) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ٤ ص ١٢٨ .
(٤٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص٨٠ .
(٤٨) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص ٧٦ .
(49) Lane Poole : Mohammedan Dynasties p. 162-163.

ظلت سنجارى تتبع أتابكية الموصل حتى وفاة صاحبها قطب الدين مودود سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م ، اذ استقل بها ابنـه الأكبر عمـاد الدين زنكى ، ذلك أن أباه لم يعهد له بالحكم ، انما عهد الى ابنه الآخر سيف الدين غازى ، فسار عماد الدين بن مودود الى عمه نورالدين محمود فى بـلاد الشام ليعينه على أخذ المـلك لنفسه ، فاستجاب له ، وسار الى بـلاد الجزيرة حيث ضم الرقة الى حوزته ، ثم زحف الى الخابور وفتحـه ، كما استولى على نصيبين وسنجار(٥٠) وولى ابن أخيه عماد الدين زنكى ابن مودود على هذه البلاد التى استولى عليها(٥١) .

كذلك تمكن نورالدين محمود من الاستيلاء على الموصل وأقر أتابكها سيف الدين بن مودود عليها ، وأضاف اليه جزيرة ابن عمر(٥٢) ، واشترط عليه أن يكون طوع ارادته .

أقام عماد الدين زنـكى بن مودود أتابكية مستقلة عن الموصـل فى سنجار مما ترتب عليه ظهور الشقاق بين أفـراد البيت الأتابكى(٥٣) ، وعبر عن ذلك القاضى جلال الدين الشهزورى بقوله : « وفى هذا طريـق الى أذى يحصل للبيت الأتابكى لأن عماد الدين زنكى كبير ، لا يرى طاعة أخيه سيف الدين ، وسيف الدين هو الملك ، لا يرى الاصغاء لعماد الدين ، فيحصل الخلف ، وتطمع الأعداء(٥٤) .

لـما شـعر سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بدنـو أجله سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، أشار عليه كبار رجال دولته ، بأن يعهد بالامارة من بعده الى أخيه عزالدين مسعود لكفايته وحسن تصرفه الأمور ، بـدلا من ابنه معزالدين سنجر شاه الذى لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، وكان ذلك فى الوقت الذى قويت فيه شوكة صلاح الدين الأيوبى(٥٥) فى بلاد الشام ، فاستجاب له ، وأقطع ابنه سنجر شاه جزيرة ابن عمر ، فأقام

---

(٥٠) ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية فى السير النورية ورقة ١٤٨ .
(٥١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٥٣ .
(٥٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الأول ج٢ ص٢٨٢ .
(٥٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٦هـ .
(٥٤) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص ٥٢ .
(٥٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٦هـ .

بها أتابكية مســـتقلة ، عرفت باسم أتابكية الجـــزيرة سنة ٥٧٦هـ(٥٦)/ ١١٨٠م .

كذلك قامت أتابكيـــة مستقلة فى اربل سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م ، كانت فى بداية الأمر ملكا لأبى الهيجاء الكردى الهذبانى ، ثم آلت الى ورثته من بعده ، واستولى عليها السلاجقة فيما بعد ، وحكمها مسعود بن محمد بن ملكشاه صاحب مراغة — قبل توليته السلطنة ، وفى سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م سار اليها عماد الدين زنكى ، وهاجمهـــا وظل يحاصرها حتى قصدهـــا السلطان مسعود من مراغة ، فرحل عنها ونزل الزاب وترددت الرســـل بينهما ثم اتفقا على أن يعاون زنكى السلطان فى اقامة الخطبة له فى بغداد وسائر العراق ، فى مقابل أن ينزل له عن اربل — غير ان عمـــاد الدين زنكى لم يلبث بعد ان آلت اليه هذه المدينة أن أقطعهـــا للأمير زين الدين على كجك بن بكتكين(٥٧) الذى ضم الى حوزته بلادا أخرى ، مثل شهرزور وملحقاتها ، وقلاع الهكارية والحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعـــة الموصل .

ولمـــا تقـــدمت به السن وعجز عن مباشرة مهـــام الحكم ، نزل عن البلاد التى فى حوزته فيما عدا اربل الى قطب الدين مودود(٥٨) .

انقسمت أسرة بنى أرتق الى فروع حكمت ماردين ، وحصن كيفا ، وخرتبرت . وتنسب الى أرتـــق بن أكسب — أحـــد مماليـــك الســـلطان ملكشاه — فقد ولاه حلوان وما اليها من أعمال العراق(٥٩) ، ولم يستمر فى ولايته طويلا ، اذ فارق فخر الدين بن جهير — وزير ملكشاه — بعـــد غزوة آمد سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م وســـار الى الشام حيث التحق بخـــدمة السلطان تاج الدولة تتش ، فولاه القدس بعد أن استولى عليها(٦٠) .

---

(٥٦) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص١٨١ .

(٥٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص١٣٥ .

(٥٨) نفس المصدر السابق .

Lane Poole : The Mohammedan Dynastics. p. 165.

(٥٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص١٧١ .

(٦٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٧١ .

لما توفى أرتق بن أكسب خلفه ابناه سقمان وايلغازى فى حكم بيت المقدس . وظلت على هذه الحال حتى انتزعها الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، فخرج سقمان وايلغازى الى العراق ، فأسند السلطان محمد الى ايلغازى شحنة بغداد ، أما سقمان ، فسار الى الرها وحدثت بينه وبين كربوقا — صاحب الموصل — فتن وحروب . ولما توفى كربوقا ، خلفه موسى التركمانى — نائبه على حصن كيفا(٦٢) فاستنجد بسقمان ، ووعده باعطائه حصن كيفا ، فسار اليه . وأنقذه من جكرمش وجنده واستولى على حصن كيفا سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م(٦٣) وأقام بها امارة صغيرة توارث حكمها بنوه(٦٤) .

تعاقب بنو أرتق على حكم حصن كيفا حتى وليه نور الدين محمد ابن قرا أرسلان سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، وكان حليفا لصلاح الدين الأيوبى ، واشترك معه فى حصار الموصل ، على أن يساعده فى الاستيلاء على آمد(٦٥). فعاونه فى حصارها وأخذها من وزيرها ابن نيسان سنة ٥٨٩هـ (١١٨٣م) وضمها الى دولته ، وبذلك اتسع نطاق أتابكية حصن كيفا .

أما ماردين وأعمالها فكانت تتبع السلطان بزكياروق ثم أقطعها لأحد مماليكه ، ولما حاصر كربوقا — صاحب الموصل — مدينة آمد ، استنجد صاحبها بسقمان — صاحب حصن كيفا — فأنجده ، واشتبك فى عدة معارك مع كربوقا ، انتهت بهزيمته ، وأسر ابن أخيه ياقوتى ، ولما اشتدت غارات الأكراد على ماردين ، وعجز صاحبها عن صدهم ، طلب ياقوتى منه اطلاق سراحه ، على أن يساعده فى صد غارات الأكراد ، فأجاب طلبه ، وشرع ياقوتى فى شن الغارات على الأكراد ، وتمكن من الاستيلاء على ماردين(٦٧) ولم يكتف بذلك ، بل اعتزم التوسع فى منطقة

---

(٦١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٥هـ .

(62) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2. p. 168.

(٦٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

(٦٤) زامباور : معجم الأنساب جـ٢ ص٢٤٤ .

(٦٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٢١٢ .

(66) Cambridge Medieval History Vol. 4. p. 317.

(٦٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٥هـ .

الجزيرة ، فسار الى نصيبين واستولى عليها ، ثم قصد جزيرة ابن عمر ، لكن صاحبها جكرمش ، أوقع به الهزيمة وقتله(٦٨) ، على أن ماردين لم تستمر طويلا فى حوزة جكرمش فقد انتزعها منه سقمان صاحب حصن كيفا(٦٩) — ثم آل حكمها بعد وفاته سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م الى أخيه ايلغازى ابن ارتق وأقام بها أتابكية مستقلة عن كيفا ، توارث أبناؤه ولايته(٧٠) .

وكان يحكم ميافارقين السلطان قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، ثم استولى عليها الأمير سكمان — صاحب خلاط(٧١) — سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م وأحسن معاملة أهلها ، وخفف عنهم عبء الضرائب وعين عليها واليا من قبله .

وفى عهد هذا الوالى طمع أمراء البلاد المجاورة فى ميافارقين وانتزعوا بعض أراضيها ، فرأى السلطان أن يسند ولايتها الى حاكم آخر يدعى ايلغازى فضبط أمورها ونشر العدل بين أهلها(٧٢) ، ولما توفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ولى ابنه تمرتاش حكم ماردين ، على حين استقل ابنه الآخر سليمان بحكم ميافارقين(٧٣) .

أما عن حصن كيفا وآمد ، فان أميرهما نور الدين محمد توفى سنة ٥٨٧هـ/١١٨٥م وخلفه ابنه الأكبر قطب الدين سقمان على الرغم من أن عماد الدين — أخو نور الدين محمد — كان مرشحا للامارة ، الا أنه

---

(٦٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٢١٢ .
لما اعتزم سقمان بن أرتق الانتقام لابن أخيه ، أرضاه جكرمش - صاحب الموصل - ببعض المال ، على أن سقمان انتزع ماردين من على الذى خلف أخاه ياقوتى فى حكم ماردين - لدخوله فى طاعة جكرمش . وقال انما أخذتها لئلا يخرب البيت ، وأقطعه جبل جور بالقرب من ماردين . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٩٥) .

(69) Cambridge Medieval History Vol. 4. p. 317.

(٧٠) زامباور : معجم الأنساب جـ٢ ص٣٤٥ .

(٧١) قصبة أرمينية الوسطى (ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٤٥٣) .

(٧٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧١ .

(٧٣) ابن الوردى : تتمة المختصر فى تاريخ البشر جـ١ ص٥٨ .

لم يتمكن من توليتها ، لاشتراكه وقتذاك مع صلاح الدين الأيوبى فى حصار الموصل فلما بلغه ما حدث ، سار الى حصن كيفا « غير أنه لم يتمكـــن من الاستيلاء عليه نقصد خرتبرت وضمها الى حوزته ، وكون بها امارة ، توارث أبناؤه حكمها(٧٤) .

(٧٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٢١٨ .

العــلاقات السياسية

أظهر أتابكة الموصل والجزيرة الولاء والطاعة لسلاطين الســلاجقة فى فارس والعراق ، فكان زنكى أتابكا لابن الســلطان محمــود(٢٦) ، وحرص على أن يظهر للخليفة العباسى وأمراء البلاد المجاورة أن الــولاء والطاعة للسلطان ألب أرسلان . ولمــا توفى السلطان محمود ، حــاول زنكى تولية ألب أرسلان السلطنة سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م ، وأرســل الى الخليفة المسترشد ، يطلب منه ان يقيم الخطبة لألب أرسلان فى بغــداد ، فرفض المسترشد(٢٧) وقال : انه صبى ، وأن السلطان عهــد بالسلطنة الى ابنه داود ابن محمود(٢٨) .

على أن ألب أرسلان لم يقبل بقاءه فى الموصل مسلوب السلطة ، بل حاول استعادة نفوذه فيها ، منتهزا فرصة غياب زنكى عنها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م ، ودبر مؤامرة تخلص بها من نائب زنكى فى الموصــل ظنا منــه أن ذلك يمكنه من تحقيق غايته ، ولكن أعوان زنكى فى الموصل أحبطوا محاولته .

ولمــا قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٦م نادى جند الموصل بألب ارسلان سلطانا عليهم ، وسار على رأسهم الى الموصــل غير أن وزراء زنكى لم يمكنوه من تولية حكمها(٢٩) .

حرص عماد الدين زنكى — أتابك الموصل — على ارضاء السلطان السلجوقى حتى يحتفظ بأتابكيته ، فلمــا قــدم هذا السلطان الى بغــداد سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م بتكليــف من عمــه الســلطان سنجر بن ملكشــاه

---

(٢٦) العينى : عقد الجمان فى اخبار الزمان جـ١٨ ص١٥٨ .

(٢٦) البندارى : تاريخ دولة سلجوق ص ١٨٧ .

ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٧١ .

(٢٧) أبو شامة : الروضتين فى اخبار الدولتين جـ١ ص١٠٤ .

(٢٨) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٤٦ .

(29) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusaders. p. 288.

صاحب(٣٠) خراسان — ومعه الأمير دبيس بن صدقة ، ليصلح بينه وبين الخليفة المسترشد ، عفا الخليفة عنه(٣١) ، وولاه الموصل ، فلما علم زنكى بذلك ، سار الى بغداد ، وأرضى السلطان ببذله الأموال الكثيرة له(٣٢) ، فأقره السلطان على الموصل وخلع عليه(٣٣) .

كذلك أسهم عماد الدين زنكى فى الحروب التى دارت بين السلاجقة، فلما توفى السلطان محمود ، وأقام الخليفة العباسى المسترشد الخطبة لابنه داود ، حاول مسعود الوصول الى السلطنة(٣٤) ، وانتزعها لنفسه ، غير ان سلجوق شاه — عم داود — نافسه فى الحكم ، وسار فى سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م الى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، فاستمال السلطان مسعود عماد الدين زنكى اليه(٣٥) ، وطلب منه مساعدته فى تولية السلطنة(٣٦) ، فأجابه الى طلبه ، وسار من الموصل قاصدا بغداد ، ولما بلغ تكريت ، سار قراجة الساقى — أتابك سلجوق شاه — اليها ، بينما أقام سلجوق شاه فى بغداد مع نفر قليل من الجند(٣٧) ، ودارت معركة بين زنكى وقراجة انتهت بهزيمة أتابك الموصل، وعوذ كثير من أتباعه ، وعودته الى بلاده سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م(٣٨) ، أما السلطان مسعود فدارت بينه وبين سلجوق شاه مناوشات على مقربة من بغداد . ولما بلغه هزيمة زنكى ، فت ذلك فى عضده ، وعاد الى

---

(٣٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١٠٨-١٠٩ .

Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 209.

(٣١) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٤٤ .

(٣٢) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ١٠ ص١١ .

العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان — القسم الأول جـ١٢ ورقة١٧ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٥ ص٢٣٥ .

(33) Archer : The Crusades. p. 201.

(٣٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٤٢ .

(٣٥) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٦ .

(٣٦) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان — القسم الأول جـ٢ ورقة٣٨ .

Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 194.

(٣٧) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ١٠ ص ٢٥-٣٦ .

(٣٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٦هـ .

Setton : A Hist. of the Crusades. vol. 1. p. 457.

فارس(٣٩) ، غير أن الخليفة المسترشد استطاع أن يعقد صلحا بين السلطان مسعود وأخيه سلجوق شاه ، على أن السلطان سنجر لم يمكن مسعود من الاستمرار فى السلطنة ، بل سار الى بغداد وأمر عماد الدين زنكى ، بالقدوم اليها ليكون عونا له على مسعود ، واستطاع سنجر دخول بغداد ، وعزل السلطان مسعود وتولية الملك طغرل(٤١) .

عول مسعود على العودة الى بغداد بعد وفاة الملك طغرل سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م لكن الخليفة الراشد اعترض على توليته السلطة(٤٢) ، واستعان بعماد الدين زنكى — أتابك الموصل — لصده عن بغداد ، غير أن السلطان السلجوقى أوقع بهما الهزيمة ، وولى السلطنة(٤٣) .

ساءت العلاقات مرة أخرى بين السلطان مسعود وعماد الدين زنكى حين خرج على السلطان السلجوقى كثير من أمراء الأقاليم ، واعتقد أن زنكى يحرض الأمراء ضده(٤٤) ، فعول على الانتقام منه ، بأن حشد جيشا كبيرا سار به الى الموصل سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م غير أن مسعود لم يشتبك مع زنكى فى قتال(٤٥) ، ذلك أن الرسل تدخلوا فى الصلح بينهما ، وقد تضمن هذا الصلح أن يؤدى زنكى للسلطان السلجوقى مائة ألف دينار(٤٦) ، لكن زنكى لم يؤد غير جزء من هذا المبلغ ، ونزل له السلطان عن الباقى ، لأنه رأى أن زنكى هو الشخص الوحيد الذى يستطيع درء خطر الصليبيين عنها(٤٧) ، كما أن السلطان فى حاجة الى مداراته بعد ان كثر خروج أمراء البلاد التابعة له عن طاعته(٤٨) .

---

(٣٩) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٤٨-٤٩ .

(٤٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٤٣-٤٤ .

أبو الفدا : اختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص٦ .

(٤١) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص٤٩-٥٠ .

(٤٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص٦ .

(٤٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٠هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص٢٥ .

(٤٤) المصدر السابق ج١ ص٤٣ .

(٤٥) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص٩٢ .

(٤٦) ان الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص٦٥ .

(٤٧) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص١٧ .

(٤٨) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الموك والأمم ج١٠ ص١٦٨ .

Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 460.

وكان مما حمل السلطان السلجوقى مسعود على مصالحة زنكى ان سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى كان نائبا عن أبيه فى خدمة السلطان مسعود ، فلما ساءت العلاقات بين زنكى والسلطان السلجوقى ، فر سيف الدين غازى هاربا الى أبيه ، غير أن زنكى أمر ابنه بالعودة الى السلطان(٤٩) ، فكان لعمله هذا أثر بالغ فى نفس مسعود ، ومن ثم علت منزلة زنكى عنده(٥٠) .

سار قطب الدين مودود بن زنكى أتابك الموصل — على سياسة أبيه فى الاشتراك فى الحروب التى دارت مع السلاجقة ، فلما سار السلطان محمد الى بغداد سنة ٥٥١هـ(٥١)/١١٥٦م لارغام الخليفة المقتفى لأمر الله على اقامة الخطبة له ، وقف قطب الدين مودود الى جانبه(٥٢) ، ودارت الحرب ين السلطان السلجوقى وأتابك الموصل من ناحية ، والخليفة المقتفى من ناحية أخرى انتهت بانتصار الخليفة على أعدائه ، وارغامهم على الرحيل عن بغداد(٥٣) .

كذلك انضم قطب الدين مودود — أتابك الموصل — الى السلطان محمد فى نزاعه مع سليمان شاه الذى أغار هو وعسكره على أعمال الموصل ، فأرسل اليه واليها زين الدين على كجك يطلب منه الكف عن مهاجمة بلاده ، فلم يستجب له ، وأعد جيشا خرج به من الموصل ، واشتبك مع السلطان السلجوقى فى معركة حلت فيها الهزيمة بالسلطان الذى قبض عليه ، وسجن بالموصل(٥٤) .

ظل سليمان شاه فى سجنه حتى سنة ٥٥٥هـ(٥٥)/١١٦٠م حيث قدمت رسل كبار الأمراء من بلاد الجبل الى الأتابك قطب الدين مودود

---

(٤٩) البندارى : تاريخ دولة سلجوق ص١٨٩ .

(٥٠) ابن الاثير :الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٥١هـ .

(٥١) البندارى : تاريخ دولة سلجوق ص١٨٩ .

(٥٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٩ .

(٥٣) المصدر السابق ص١٠٨ .

(٥٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٨ .
ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج١٠ ص١٠٥ .

(٥٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر فد الدولة الاتابكية ص١١٤-١١٥ .
ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج١٠ ص١٩٢ .

يطلبون منه انفاذ الملك سليمان شـــاه بن محمد ليولوه السلطنة على أن يكون قطب الدين مودود مدبرا لأمر دولته ، فاستحسن قطب الدين مودود هذه الفكرة ، وأرسل سليمان شاه من الموصل الى همــذان ، وصـــار بصحبته زين الدين على كجك فى عسكر الموصل ، فلما اقتربوا من بـــلاد الجبل ، انحازت العساكر الى سليمان شاه ، وزاد بذلك عدد جنــده ، فخشى زين الدين على نفسه ، وعاد دون أن يحقق غرضه(٥٦) .

كذلك كانت عـــلاقة قطب الدين مودود ــ صاحب الموصل ــ بأرسلان شاه بن طغرل بن محمد يســـودها الـــود ، فلما ولى السلطنة أرســـل الى قطب الدين مودود رسولا يلتمس منه اقامة الخطبة له ، ونقش اسمه على السكة ، وانفـــاذ ما كانوا يرسلونه الى السلاطين السلاجقة فأجاب بالسمع والطاعة ، وأقام له الخطبة فى الموصل والجزيرة وسائر بلاد ديار بكر . واستمرت العـــلاقات الودية قائمة بينهما حتى وفاته(٥٧) ، ولـــا ولى السلطان ركن الدين طغرل توثقت العـــلاقة بين قطب الدين مودود وبينه ، وأقام له الخطبة فى سائر بلاده(٥٨) .

٣ ــ أتابكة المشرق الاسلامى :

لـــا استقر عمـــاد الدين زنكى فى الموصـــل ، اعتزم ضم شمـــال العراق الى دولتـــه ، فزحف بجشـــه الى جزيرة ابن عمر ، وعرض على مماليك البرسقى ــ وكانوا يسيطرون على هذه الجزيرة ، أموالا فى مقابل تسليم البلدة ، لكنهم رفضوا(٥٩) ، فقاتلهم قتـــالا شديدا دارت فيـــه الدائرة عليهم ، فطلبوا منه أن يؤمنهم ، ويســـلموا له المدينة ، فأجابهـــم الى ذلك ودخل الجزيرة سنة ٥٢٢ هـ(٦٠)/١١٢٨م وضمها الى حوزته(٦١).

---

(٥٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٥٥هـ .

(٥٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص١١٤ــ١١٥ .

(٥٨) الحسينى : تاريخ الدولة السلجوقية ص١٦٤ .

(59) Lane. p. Poole : Saladin. p. 52.

(٦٠) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٧٧ .

(٦١) ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ورقة ٦٢ .

العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان ــ القسم الأول جـ١٢ ورقة٢ .

واصل عماد الدين زنكى — بعد ضبطه أمور الجزيـرة — سياسته التى تنطوى على توسيع رقعـة أتابكيته ، فزحف بجيشـه الى نصيبين — وكان يحكمها حسام الدين تمرتاش بن ايلغـازى بن أرتق — صاحب ماردين ، فلما بلغها صاحب الموصل ، سار حسام الدين الى ابن عمـه ركن الدولة داود — صاحب حصن كيفا — وطلب منه العون فى صد زنكى عن نصيبين ، فاستجاب له ، وأعد جيشا لهذا الغرض ، لكن زنكى لجأ الى الحيلة والخديعة(٦٢) حتى تمكن من الاستيلاء على نصيبين(٦٣) .

ولما استولى عماد الدين زنكى على هذه المدينة ، سار الى سـنجار فقاومه أهلها ، غير أنه تغلب عليهم ، وتيسر له بذلك ضمها الى حوزته ، ثم أرسل فرسانا الى الخابور ، فاستولوا عليه ، وقصد زنكى بعد ذلك حران فلما اقترب منها ، خرج أهلها اليه معلنين له الولاء والطاعة(٦٤) .

أصبح عمـاد الدين زنكى يشـكل خطرا على مصالح بنى أرتـق فى الجزيرة وديار بكر بعد ان استولى على بعض بـلادهم ، ففى سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م اجتمع ركن الدولة داود — صاحب حصن كيفا وحسـام الدين تمرتاش ابن ايلغـازى — صاحب ماردين(٦٥) — وانضـم اليهما صاحب آمد ، وعدد كبير من الأمراء ، وجهزوا جيشا كبيرا من التركمان وعولوا على التخلص من عماد الدين زنكى(٦٦) ، فساروا اليه ، والتقى بهم زنكى عند مدينة دار(٦٧) — وهى تابعة لبنى أرتق — ودارت معـركة بين الفريقين انتهت بهزيمة بنى أرتق(٦٨) ، وقد ضمن هذا النصر لزنكى سيادته على شمال العراق وأطراف آسيا الصغرى(٦٩) .

---

(٦٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٢هـ .

(63) Lane. Poole : Saladin. p. 49.

(٦٤) يذكر ابن الأثير أن أهل حران قاسوا كثيرا من هجمات الفرنج ، فلما سمعوا بفتوحات زنكى فى الجزيرة ، قويت نفوسهم ، وعلموا أنهم قد أتاهم نصر من الله وفتح قريب ، فراسلوه بالطاعة ، واستحثوه على الوصول اليهم ، فسار نحوهم (التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص٢٨) .

(٦٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .

(٦٦) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٣٥-٣٦ .

(٦٧) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٧٨ .

(٦٨) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص من ٢٧٠-٢٧١ .

(69) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 129.

واصل زنكى زحفه على البلاد المجاورة لدولته ، فاستولى على سرجة(٧٠) ودارا(٧١) . كما انه عمل على تعقب بنى أرتق ، حين ساروا الى جزيرة ابن عمر وعاثوا فيها فسادا(٧٢) ، واضطرهم الى الرحيل عنها(٧٣) .

ولما تحسنت العلاقات بين حسام الدين تمرتاش بن أرتق — صاحب ماردين — وعماد الدين زنكى ، انضم اليه فى حصاره لآمد(٧٤) ، فاستنجد صاحبها بسعد الدولة أبو منصور ، بالأمير ركن الدولة داود — صاحب حصن كيفا — فأعد جيشا توجه الى آمد لصد المغيرين عنها ، ودار قتال بين الفريقين على أبواب المدينة ، حلت فيه الهزيمة بركن الدولة ، وقتل عدد كبير من جنده(٧٥) ، وظل عماد الدين زنكى وحسام الدين تمرتاش يحاصران آمد سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م دون ان يتمكنا من الاستيلاء عليها(٧٦) .

كان عماد الدين زنكى يطمع فى الاستيلاء على بعض قلاع ديار بكر(٧٧) حتى يتيسر له ضم هذا الاقليم الى حوزته ، فقصد قلعة الصور ، وظل يحاصرها حتى استولى عليها سنة ٦٥٨هـ/١١٣م ثم حاصر قلعتى العقر وشوش(٧٨) وضمها الى أتابكيته(٧٩) ثم واصل زنكى زحفه

---

(٧٠) حصن بين نصيبين ودنيسر ودارا (ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٢٤) .
(٧١) ابن العديم :زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ١ ص٢٧٠-٢٧١ .
Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 457.
(٧٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر جـ٥ ص٢٥٦ .
(٧٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٢٦-٢٧ .

(٧٤) العينى : عقد الجمان فى اخبار اهل الزمان جـ١٢ ص٥٦ .
(75) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 227.
(٧٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٥٤-٢٥٥ .
(٧٧) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٧٩ .
(٧٨) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى جـ٨ ص١٨٩ .
(٧٩) كان زنكى ينقم على صاحبها الامير عيسى الحميدى لانه أمد الخليفة المسترشد أثناء حصاره الموصل ، بعدد كبير من جند التركمان .
ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٥٤-٥٥ .
Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 264.

وتقــدمه فى ديار بكر فهاجم قلاع الهكارية ، وتمكن من الاستيلاء عليهــا بعد ان عجز أميرها أبو الهيجاء بن عبدالله عن مقاومة قواته(٨٠) .

لم يكتف عماد الدين زنكى بما استولى عليه من بلاد وقلاع ، بــل عول فى سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م على السير الى شهرزور(٨١) فتصــدى له حاكمها قفجاق بن أرســلان شاه التركمانى(٨٢) — الذى التف حــوله التركمان — وكثر جنده ، وحدثت مناوشات بين الفرقين انتهت بهزيمــة التركمان ، واستيلاء عماد الدين زنكى على شهرزور وأعمالها(٨٣) .

على أن الأمور لم تستقر لعماد الدين زنكى فى بلاد الهكارية ، فعاث الأكراد فيها فسادا سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م ولكن نصير الدين جقر — نائب زنكى — استولى على بعض بلادهم ، وحاصر قلعة الشعبانى — وهى من أعظم قلاعهم — فضمها الى حوزته ، ثم أزالهــا ، وأمر ببنــاء قلعــة جديدة عوضا عنها سماها قلعة العمادية(٨٤) . نسبة الى عماد الدين زنكى وكانت حصنا عظيما يندر وجوده فى حصون الجبال(٨٥) . كذلك عــول زنكى فى هذه السنة على مد نفــوذه الى آمد ، وكان يلى حكمها ركن الدولة داود — صاحب حصن كيفا — فأرسل الى صاحبها يطلب منه الدخــول فى طاعته ، واقامة الخطبة له ، وهدده بالمسير الى آمد . وأخــذها منــه عنوة ، اذا لم يستجب له ، غير أن صاحب آمد لم يوافق على تسليمها لزنكى(٨٦) .

---

(٨٠) كذلك تمكن نصير الدين جقر — نائب عماد الدين زنكى — من الاستيلاء على جبل لهيجة وتوش وقلعة الجلاب ، كما استولى على جميع حصون الأكراد الهذبانية . وترتب على ذلك استتباب الأمن والنظام فى هذه البلاد ، بعد ان كان الأكراد يلحقون الضرر والأذى بأهلها .

(ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤هـ) .

(٨١) كورة واسعة فى الجبال بين اربل وهمذان .

(ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٣ ص ١٦) .

(٨٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١٦ .

(٨٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤هـ .

(٨٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٨٤ .

(٨٥) ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ورقة ٨٠ .

(٨٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٦٤ .

لم يكف زنكى عن مهاجمة ديار بكر ، والتوسع فى أراضيها ، ففى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٢م استولى على بلاد وبعض الحصون المجاورة لها(٨٧) ثم رتب أمورها ، وحاصر مدينتى عانة والحديثة(٨٨) — على نهر الفرات — وامتلكها(٨٩) .

كانت سياسة زنكى تنطوى على الاستيلاء على جميع القلاع التى تتوسط بلاده حتى يكون آمنا فى ملكه . فسار سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م الى قلعة جعبر(٩٠) بغية الاستيلاء عليها(٩١) كما سير جيشا الى قلعة فنك(٩٢) .

ولما طال حصار زنكى لقلعة جعبر ، دون ان يتمكن من فتحها ، أرسل الى صاحبها رسولا يدعوه الى تسليمها ، ويعرض عليه عوضا عنها لكنه رفض تسليمها(٩٣) .

ولم يتيسر لزنكى الاستيلاء على قلعة جعبر ، فقد اغتاله بعض مماليكه(٩٤) ، كما أن القوات المحاصرة لهذه القلعة ، وقلعة فنك رفعت الحصار وعادت أدراجها(٩٥) .

واصل سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى سياسة أبيه فى المحافظة على البلاد التى ضمها الى دولته ، فلما توفى زنكى استرد

---

(٨٧) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٧ .
Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 460.

(٨٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٥٦ .

(٩٠) كانت قلعة جعبر ملكا للسلطان ملكشاه ، فسلمها الى الأمير سالم بن مالك العقيلى ، فلم تزل بيده وبيد أولاده حتى سنة ٥٤١هـ .

(٩١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٨١ .

(٩٢) حصن مجاور لجزيرة ابن عمر من أمنع الحصون ، ومطل على دجلة ، يمتلكه جماعة من الأكراد .

أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص١٠٥ .
(93) Runciman : A History of the Crusades vol. 2. p. 241.

(٩٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٩ ص٩٨ .

(٩٥) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان — القسم الأول جـ١٢ ورقة ١٦ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٥ ص٢٧٩ .

حسام الدين تمرتاش — صاحب ماردين — مدينة دارا(٩٦) ، فقصدهـا سيف الدين غازى سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ولم يزل يحاصرهـا حتى استولى عليها(٩٧) وعلى كثير من أعمال ماردين نفسها ، كما عاث جنده فى ديار بكر فسادا وتخريبا(٩٨) ، فلما رأى حسام الدين أن لا طاقة له بسيف الدين صالحه ، وزوجه ابنته(٩٩) ، ورحـل أتابك الموصل عائـدا الى بلاده(١٠٠) .

تغيرت الأوضاع السياسية فى بلاد الموصل والجزيرة بوفاة نور الدين محمـود بن زنكى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ، فلمـا علم سيف الدين غازى الثانى ابن قطب الدين — أتابك الموصل — بذلك اعتزم استعادة البـلاد التى كان عمه نور الدين قد اسـتولى عليها فى الجزيرة ، فسـار الى نصيبين ، وضمها الى حوزته(١٠١) ثم استولى على الخابـور(١٠٢) ، وسار الى حران وحاصرها عدة أيام ، وكان بها مملوك لنور الدين يسمى قيماز ، فامتنع بها ، ثم أعلن ولاءه لسيف الدين غازى على أن تكـون حران له . ولمـا أمن جانب سيف الدين ونزل من القلعة ، قبض عليه ، وأخذ حران(١٠٣) منه ، ثم سار الى الرها ، وأخذ يحاصرها حتى تمكن من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجزيرة ما عدا قلعة جعبر(١٠٤) .

لم يأل أتابكة الموصل والجزيرة جهدا فى سبيل توسيع رقعة دولهم ، ففى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م سار نور الدين أرسلان شاه — أتابك الموصل — الى مدينة نصيبين(١٠٥) فاستولى عليها بعد أن فشل أميرها قطب الدين

---

(٩٦) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١١٥ .

(٩٧) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الثانى جـ٨ ص٢٠٤ .

(98) Runciman : A History of the Crusades p. 241.

(٩٩) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان — القسم الأول جـ١٢ ورقة ١٦٧ .

(١٠٠) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول جـ٨ ص١٠٤ .

(١٠١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص١٧٥ .

(١٠٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٩هـ .

(١٠٣) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٥٩ .

(١٠٤) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٥٩ .

(١٠٥) استاء نور الدين أرسلان شاه — أتابك الموصل — من قطب الدين محمد — أمير نصيبين — لأن نوابه بها استولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل ، وهى تجاور ولاية نصيبين .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص١٩١ .

محمد في صده عنها ، وهرب جنده الى ديار بكر ومنها الى حران(١٠٦) ، حيث طلبوا من الملك العادل أبى بكر بن أيوب أن يساعدهم على استرداد نصيبين ، لكنه أعرض عنهم(١٠٧) .

على أن قطب الدين ما لبث أن استعاد نصيبين ، بعد ان اضطر نور الدين أرسلان شاه الى الانسحاب منها والعودة الى الموصل ، بعد أن تفشى المرض بين جنده(١٠٨) .

لم تقف أطماع نور الدين أرسلان شاه أتابك الموصل — عند هذا الحد ، بل أغار على تل يعفر(١٠٩) سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وكانت تابعة وقتذاك لسنجار — واستولى عليها ، فاستنجد صاحبها قطب الدين بالملك الأشرف بن العادل ، وسنجر شاه ، أتابك الجزيرة — وبعض أمراء بنى أيوب واجتمع جندهم لمحاربة صاحب الموصل(١١٠) واشتبكوا معه في معركة ، حلت فيها الهزيمة بنور الدين ، وعاد الى الموصل(١١١) وتحصن بها ، ثم دارت مراسلات بينه وبين الملك الأشرف ، انتهت بالصلح بينهما ، ورفع الحصار عن الموصل(١١٢) .

كذلك حاول قطب الدين ايلغازى بن ألبى تمرتاش — صاحب ماردين — أخذ بلدة البيرة ، وكانت ملكا لابن عمه شهاب الدين الأرتقى ، ولما توفى خلفه ولد صغير دخل في طاعة صاحب الموصل ، فطمع صاحب ماردين في أخذ البيرة(١١٣) سنة ٥٧٧هـ وأرسل الى عز الدين مسعود — أتابك الموصل — يطلب منه أن يأذن له في محاصرة البيرة والاستيلاء عليها ، فأجاب طلبه(١١٤) وسار في عسكره الى سميساط ونزل بها ، ثم

---

(١٠٦) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب جـ٣ ص٧٩ .
(١٠٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ١٩٢-١٩٣ .
(١٠٨) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص٣٧ .
(١٠٩) اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط واد فيه نهر جار .
(ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٤٠٦) .
(١١٠) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب جـ٣ ص١٥٦ .
(١١١) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر جـ٣ ص١١٠ .
(١١٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - القسم الثانى جـ٨ ص٥١٨ .
(١١٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٧هـ .
(١١٤) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١١٦ .

أنفذ العسكر الى البيرة فحاصرهـا واضطر صاحبهـا الى الاستنجاد بصلاح الدين ، فأنفذ رسولا الى صاحب ماردين يطلب منه الامتناع عن مهاجمة البيرة ، فأبى اجابة طلبه ، ثم ما لبث أن رحل عنها حين رأى أن حصاره لهذه المدينة قد طال دون(١١٥) جدوى .

وكان مظفر الدين كوكبورى صاحب اربل يتدم على كثير من المخاطر والمغامرات فى سبيل توسيع رقعة دولته ، ففى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م اتفق مع علاء الدين — صاحب مراغة — على قصد أذربيجان(١١٦) ، وأخذها من صاحبها أبى بكر البهلوان الذى عرف بميله الى العبث واللهو ، فسار صاحب اربل الى مراغة ، واجتمع مع صاحبها علاء الدين ، ثم زحفا الى تبريز ، فأعد صاحبها العدة لمقاومة جيوشها الزاحفة ، وأرسل أيتغمش — مملوك أبيه — الى أتابك يحثه على الكف عن القتال ، والعودة الى بلده(١١٧) غير أن مظفر الدين واصل زحفه الى بلاده ، ولما أيقن صاحب اربل من مسيرة أيتغمش اليه على رأس جيش كبير ، عول على الانسحاب على الرغم من أن حليفه علاء الدين طلب منه البقاء فى مكانه ، لكن مظفر الدين عاد الى اربل خشية من اشتباكه مع قوات أيتغمش(١١٨) .

كذلك حاول ناصر الدين الأرتقى — أمير ماردين — مد نفوذه الى خلاط ، لكنه لم يستطع لأن أحد مماليك شاه أرمن بن سكمان ، انتزع الحكم من صاحب خلاط(١١٩) .

كانت مدينة حلب تتبع أتابكية ماردين قبل استيلاء زنكى عليها ، فاضطربت أحوالها بعد وفاة صاحبها رضوان بن تتش سنة ٥٠٧هـ(١٢٠)/ ١١١٧م واستدعى ايلغازى بن أرتق — صاحب ماردين — سنة ٥١١هـ/

---

(١١٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٧هـ .

(١١٦) نفس المصدر ، حوادث سنة ٦٠٢هـ .

(١١٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٢هـ .

(١١٨) سبط ابن الجزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى جـ٩ ص٥٢٦ .

(١١٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦٠٣هـ .

(١٢٠) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٨١-١٨٢

Runciman : A History of the Crusades vol. 2 p. 134.

١١١٧م وسلموا اليه المدينة(١٢١) ، فاناب عنه فى حكمها ابنه حسام الدين تمرتاش . واستطاع درء خطر الفرنجة عن حلب(١٢٢) . ولما توفى أبوه عاد حسام الدين الى ماردين وأناب عنه فى حكمها ابنه سليمان(١٢٣) ، غير أن سليمان ما لبث أن ثار على أبيه بتحريض من بعض مماليكه فعزله ، وولى مكانه سليمان بن أخيه عبدالجبار سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ، ولقبه بدر الدولة(١٢٤) .

لما عجز سليمان بن عبدالجبار عن درء خطر الفرنجة عن حلب ، انتزعها منه مالك بن بهرام بن أرتق سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م(١٢٥) ، كما استولى على حران ومنبج ، ولم يزل مالك بن بهرام مستوليا على حلب حتى قتل ، فسار اليها تمرتاش بن ايلغازى ، وملكها ، غير ان الفرنجة ظلوا مصدر خطر كبير على حلب ، فاستدعى أهلها البرسقى — صاحب الموصل — فلبى طلبهم وتيسر له بذلك الاستيلاء على حلب ، ثم خلفه فى حكمها ابنه (١٢٧) عز الدين مسعود .

اضطربت الأمور فى حلب بعد وفاة أتابكها عز الدين مسعود بن البرسقى ، فأصبحت ميدانا للنزاع بين سليمان بن عبد الجبار الأرتقى ، وابراهيم بن رضوان السلجوقى(١٢٨) فى الوقت الذى أراد فيه الصليبيون الاستفادة من تلك الأوضاع فى الاستيلاء على حلب(١٢٩) التى كانت فى حاجة الى حاكم قوى يتولى صد الأخطار التى تهددها(١٣٠) .

رأى زنكى أن الفرصة قد سنحت له للاستيلاء على حلب ، وضمها

---

(١٢١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١١هـ .

(122) Runciman : A History of the Crusades vol. 2 pp. 151-152.

(١٢٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٠٩–٢١٠ .

(١٢٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٥هـ .

(١٢٥) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٠٩–٢١٠ .

(١٢٦) ابن الوردى : تتمة المختصر فى تاريخ البشر جـ١ ص٢٢ .

(١٢٧) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى ايوب جـ١ ص٣٧ .

(١٢٨) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان ـ القسم الأول جـ١٢ ورقة ١١ .
Archer : The Crusades. p. 199.

(١٢٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٣٧–٢٣٩ .

(130) Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 433.

الى دولته فى شمال العراق ، وكان يأمل من وراء ذلك تكوين جبهة اسلامية متحدة يتيسر لها الوقوف فى وجه الخطر الصليبى ، ذلك أن الذى يحكم حلب يستطيع قطع الصلة بين امارة الرها من ناحية والامارات الصليبية بالشام من ناحية أخرى(١٣١) .

وبينما كانت حلب تعانى من الاضطرابات الداخلية(١٣٢) دخلها عماد الدين زنكى حاملا تقليدا من السلطان محمود بحكمها(١٣٣) ، فوجه اهتمامه الى اصلاح أمورها((١٣٤) ، كما عمل على تعمير ما خربه الصليبيون فى غاراتهم عليها ،وأقطع أعمالها الأمراء والأجناد(١٣٥) . وأناب عنه فى حكم حلب الرئيس صفى الدين أبا الحسن على بن عبدالرازق العجلانى فأحسن معاملة أهلها(١٣٦) .

اتبع زنكى بعد استيلائه على حلب سياسة تنطوى على ضم الامارات الاسلامية فى بلاد الشام الى حوزته ، فسار الى حماة سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م وكان أتابك دمشق وقتذاك قد ولى عليها ولده سونج بن بورى(١٣٧) — وادعى أنه يريد محاربة الفرنجة(١٣٨) ، وأرسل الى

---

(١٣١) سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص٥٦١ .

(١٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٣٨-٣٩ .

(١٣٣) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٢ ص٢٥٠ .

(١٣٤) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان — القسم الأول جـ١٢ ورقة١٢ .

(١٣٥) يقول ابن الأثير : لولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية عماد الدين زنكى لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه ، فانهم كانوا لهم من أتابك طغتكين شاغل ومانع عن بعض أغراضهم ، وكانوا متى حضروا حلب وغيرها ، جمع طغتكين عسكره ، وسار نحوهم ، فيرحلون ، فقدر الله تعالى انه توفى سنة ٥٢٥هـ فخلت البلاد بالمرة من حام يذب عنها .
(التاريخ الباهر فى الدول الاتابكية ص ٣٨) .

(١٣٦) ابن الوردى : تتمة المختصر فى تاريخ البشر جـ١ ص٣٤ .

(١٣٧) كانت البلاد الاسلامية فى الشام مقسمة بين ثلاث قوى ، الأولى يحكمها بورى بن طغتكين — اتابك دمشق — ويسيطر على دمشق وحماه فى الشمال وحوران فى الجنوب ، والثانية يحكمها صمصام الدين خير خان بن قراجا أمير حمص ، والثالثة سلطان بن منقذ ، وهو الأمير الذى يسيطر على شيزر ، ولم يستطع كل من خير خان وسلطان بن منقذ مقاومة زنكى ، فأعلنا ولاءهما له ، وبذلك لم يبق أمام زنكى سوى تاج الملوك بورى — أتابك دمشق .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٣٨ .

(١٣٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٥ ص ٢٣٦ .

تاج الملوك بورى بن طفتكين - اتابك دمشق - يستنجده ، ويطلب منه المعونة على جهادهم(١٣٩) فأجاب طلبه ، اذ كان يخشى جانب بلدوين الثانى - ملك بيت المقدس - ولذلك أرسل جيشا الى ابنه سونج - صاحب حماة(١٤٠) - وأمره بالسير الى عماد الدين زنكى ، والوقوف الى جانبه فى محاربة الصليبيين(١٤٠) ، لكن زنكى غدر بسونج حين وفد اليه ، فقبض عليه ، وعلى جماعة من أصحابه(١٤١) ، ونهب خيامهم وأثقالهم وأسلحتهم ، فهرب بعضهم ، واعتقل البعض الآخر فى حلب(١٤٢) ، وبذلك تيسر له دخول حماة والاستيلاء عليها(١٤٣) .

أسند زنكى ولاية حماة لصمصام الدين خيرخان بن قراجة - صاحب حمص - بعد أن أدى له مبلغا من المال ، ثم ما لبث أن غدر به ، فانقض عليه وحبسه بقلعة حلب ، واتجه بعد ذلك الى حمص ، فامتنع أولاد صمصام الدين بقلعتها ، ورفضوا تسليمها(١٤٤) .

استقر رأى شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بورى - اتابك دمشق - على استرداد حماة ، فسار اليها سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٢ م وشدد عليها الحصار ولم تستطع حاميتها الدفاع عنها ، كما أن أهلها طلبوا الأمان ، فأجاب أتابك دمشق طلبهم(١٤٥) ، وانصرفت حاميتها عن الدفاع عنها ، مما مهد السبيل لأتابك (دمشق) للاستيلاء عليها(١٤٦) .

هيأت الأحوال السياسية فى مدينة دمشق الفرصة لعماد الدين زنكى الاستيلاء عليها ، وتحقيق أطماعه فى اقامة دولته فى بلاد الشام ، ذلك أن أتابك دمشق شمس الملوك اسماعيل كان سيء السيرة(١٤٧) ،

---

(١٣٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٤٥ .
(١٤٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨ .
(141) Setton : A History of the Crusades. p. 430.
(١٤٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٣ .
(١٤٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٤٦ .
(١٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٣هـ .
العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان جـ١٢ ورقة ١٦ .
(145) Gibb : The Damacus Chronicle of the Crusades. p.p. 219-220.
(١٤٦) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى ايوب جـ١ ص٥٣ .
(١٤٧) نفس المصدر جـ١ ص٥٧ .

فاشتدت كراهة الناس له ، ولما خشى بأسهم ، رسل الى عماد الدين زنكى يطلب منه القدوم الى دمشق والاستيلاء عليها(١٤٨) ، وألح فى ذلك ، حتى أرسل اليه يقول : « ان أهملت المجىء سلمت المدينة الى الفرنج(١٤٩) ، ولما تحقق أصحاب أتابك دمشق من نواياه ، عمدوا الى التخلص منه ، وخلفه أخوه شهاب الدين محمود ابن بورى(١٥٠) .

عول عماد الدين زنكى على المسير الى دمشق سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م وانفذ رسلا قبل وصوله اليها لمحاولة اقناع أهلها بالتسليم ، غير أن أهلها لم يستجيبوا للصلح(١٥١) ، فلما بلغها زنكى أخذ فى محاصرتها ، نواجه مقاومة عنيفة تزعمها معين الدين انر — أحد مماليك طغتكين — فاضطر زنكى الى رفع الحصار عنها ، وعقد صلحا مع أهلها(١٥٢) ، وخاصة أن الخليفة المسترشد أمر برفع الحصار عن هذه المدينة والرحيل عنها(١٥٣) ، وهكذا ظلت دمشق عقبة كبيرة فى سبيل تحقيق سياسة زنكى التى تنطوى على توحيد الجبهة الاسلامية فى بلاد الشام .

وعلى الرغم من فشل زنكى فى فتح دمشق فانه واصل سياسته فى التوسع فى بلاد الشام ، فزحف الى حمص سنة(١٥٤) ٥٣١هـ/١١٣٦م — وكان يحكمها معين الدين انر نائبا عن أتابك دمشق — وحاصرها فترة

---

(148) Setton : A History of the Crusades vol. 1. p. 457.

(١٤٩) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٧ .

(150) Runciman : A History the Cusades. p. 197.

(١٥١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٥ـ٢٤٦ .

(١٥٢) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان ـ القسم الاول جـ١٢ ورقة ٧٠ .

(١٥٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٩هـ .

(١٥٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٥٧ .

(١٥٥) كان يحكم حمص صمصام الدين خير خان بن قراجا الذى قبض عليه زنكى سنة ٥٢٤هـ ، وولى حمص بعده ابنه عين الدين ابلخان فقتله بعض مماليكه سنة ٥٢٦هـ ، وخلفه أخوه الامير قريش بن خير خان ، وكان يدبر أمره أحد مماليكه واسمه خمرتاش ، الذى سلم حمص للأمير شمس الملوك اسماعيل بن بورى — أتابك دمشق — فلما قتل شمس الملوك ، وولى بعده أخوه شهاب الدين ، سلم حمص للأمير معين الدين انر — مملوك جده طغتكين — وقد حال بين زنكى وبين الاستيلاء على حمص .
ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ١٠ ص٤٣ .
(ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٥٨) .

من الوقت(١٥٦) ، غير انه ما لبث أن رفع الحصار عنهـا حين علم ان الصليبيين أتوا لنجدتها(١٥٧) .

لم يكف عماد الدين زنكى عن محاولة ضم البلاد الاسلامية فى الشام الى حـوزته فاستولى على حصن المجـدل (١٥٨) ودخلت بانياس فى طاعته(١٥٩) ثم عاد الى محاصرة حمص ، لكنه ما لبث أن رفع الحصار عنها حين هاجم الامبراطور البيزنطى حنا كومنين حلب(١٦٠) ولما عاد الامبراطور البيزنطى الى بلده ، عاود زنكى الهجوم على حمص غير انه توقف عن مهاجمتها بعد أن تحسنت العلاقات بينه وبين أتابك دمشـق الذى وافق على ضم حمص الى حـوزته ، ونزل زنكى له عن بعـدين وحصنين آخرين(١٦١) .

على أن زنكى ما لبث أن أتيحت له فرصة أخرى لتحقيق أطماعـه فى دمشق(١٦٢) حين قتل أتابكها الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بيد غلمـانه سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م اذ أرسـلت والدته — وهى زوجـة عماد الدين زنكى — تطلب منه القدوم الى دمشق ، والثأر لابنها ، فأعـد زنكى العدة للزحف الى هذه المدينة سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م ، غير ان أهلها الذين أخلصوا لبيت بورى . حشدوا قوات كبيرة للدفاع عن مدينتهم(١٦٣) كمـا أن معين الدين انر — نائب أتابك دمشـق — أفسـد على زنكى أطماعه ، فقبض على زمام الأمور فى دمشق ، ثم بعث فى طلب جمال الدين

---

(156) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 242.

(١٥٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٥٨ .

(١٥٨) مجدل : اسم بلد بالخابور ، الى جانبه تل عليه قصر .
(ياقوت : معجم البلدان جـ٧ ص٣٨٧) .

(١٥٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٦٢ .

(١٦٠) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٦٤ .

Runciman : A Hiatory of the Crusades vol. 2 p. 261.

(١٦١) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١٢ .

Stevenson. The Crusaders in the East: p. 142.

(162) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 254.

(١٦٣) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٨٦ .

بورى ـــ أمير بعلبك ـ ليحل محل أخيه (١٦٤) أتابك دمشق ، فلما ولى الحكم . فرض لمعين أمر تدبير الآمور فى امارته(١٦٥) ، فتصدى لزنكى وحال دون استيلائه على دمشق(١٦٦) .

وعلى الرغم مما واجه زنكى من صعوبات فى سبيل الاستيلاء على هذه المدينة فانه لم يقلع عن سياسة التوسع فسار الى بعلبك وحاصرها(١٦٧) ، غير أن أهلها استبسلوا فى الدفاع عن مدينتهم ، ولما رأوا أن لا طاقة لهم بزنكى وجنده طلبوا منه الأمان ، فأمنهم(١٦٨)ــ وسلموا اليه المدينة (١٦٩) كما استلمت حامية قلعتها بعد ان يئست من النصر(١٧٠) .

لما فرغ زنكى من ضبط الأمور فى بعلبك ، عول على المسير الى دمشق محاولا فتحها لمرة الثالثة ، فأرسل قبل شروعه فى مهاجمتها الى أتابكها جمال الدين محمد بن تاج الملوك بورى يطلب منه النزول عن دمشق مقابل اعطائه حمص أو بعلبك(١٧١) ، لكن أتابك دمشق رفض هذا العرض ، فلم يجد زنكى بدا من الزحف الى هذه المدينة سنة ٥٣٤هـ(١٧٢)/١١٣٩م ، غير أن أتابكها توفى فى ذلك الوقت ، وحدث خلاف

---

(١٦٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٣هـ .

(١٦٥) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٧٢ .

(١٦٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٧٠ .

(167) Zoe olden Bourg : Les Croisades. p. 521.

(١٦٨) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان ـ القسم الأول جـ١٢ ورقة ١١٤ .

(١٦٩) لما استولى زنكى على بعلبك نكث بالعهد الذى منحه لاهلها ، فاعتدى على الرجال والنساء والأطفال اعتداءا ظالما ، ويقول ابن الأثير : ان الناس استقبحوا منه ذلك ، وخالفوه وحذروه ، ولا سيما أهل دمشق ، فانهم قالوا : لو ملكنا بفعل ذلك ، فجدوا فى محاربته .

(الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٣هـ) .

Setton : A Hiatory of the Crusades. vol. 1. p.546.

(١٧٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٩ .

ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٧٣ .

(١٧١) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٨٦ .

(١٧٢) (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤هـ) .

(172) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 259.

بين أفراد بيت بورى على من يتولى الحكم فى دمشق (١٧٣) ، فاستغل زنكى ذلك الخلاف ، وشدد هجماته على المدينة(١٧٤) غير أن معين الدين انر ما لبث أن قضى على هذه الخلافات ، وولى مجير الدين ابق بن جمال الدين أتابكية دمشق(١٧٥) ثم استقر رأيه على الاستنجاد بمملكة بيت المقدس الصليبية ، فأرسل أسامة بن منقذ مبعوثا الى ملكها(١٧٦) فولك ، فحذر من خطر زنكى اذا ما استولى على دمشق(١٧٧) ، وكان لحديثه تأثير بالغ فى نفوسهم ، وخاصة بعد أن ضم الى حوزته حمص وحماه وحلب وبعلبك(١٧٨) . ولم يبق أمامه سوى دمشق ، فأيقنوا أن امتلاكه هذه المدينة يمكنه من تكوين جبهة اسلامية فى بلاد الشام وشمال العراق تشكل خطرا كبيرا عليهم(١٧٩) ، كذلك عرض أسامة بن منقذ رسول معين الدين انر — نائب أتابك دمشق — على ملك بيت المقدس الاستيلاء على بانياس(١٨٠) — وكانت وقتذاك تابعة لزنكى — فجمع الصليبيون جموعهم ، وتأهبوا للزحف الى دمشق لمعاونة معين الدين انر فى الذود عنها(١٨١) ، ولما علم عماد الدين زنكى بذلك ، سار الى حوران ، معتزما لقاء الصليبيين قبل ان يجتمعوا مع أهل دمشق على قتاله(١٨٢) ، غير أن الصليبيين ما لبثوا ان عدلوا عن خطتهم ، وظلوا فى بلادهم ، فعاد عماد الدين زنكى الى حصار دمشق(١٨٣) .

أما معين الدين انر فانه سار الى بانياس ، وحاصرها وأوقع

---

(١٧٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص ٢٧٢-٢٧٤ .

(١٧٤) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١٥-١٦ .

(١٧٥) ابن الوردى : تتمة المختصر فى تاريخ البشر جـ٢ ص٤٣ .

(١٧٦) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص٨١ .

(١٧٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٢٧٢ .

(178) Archer : The Croisades p. 195.

(179) Zoe OldenBourg : Les Croisades . p. 468.

Runciman : A Hiatory of the Crusades. vol. 2 p.p. 226-227.

(١٨٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .

(١٨١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٧٣ .

(١٨٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص ٨٨ .

(١٨٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٧٣ .

الهزيمة بصاحبها ، وقتل كثيرا من رجـالـه ، وتمكن من الاسـتيلاء على البلدة ، وتسليمها الى الفرنجة(١٨٤) تحقيقا لوعده(١٨٥) .

لمـا بلغ زنكى حصار بانياس ، وتسليمها الى الفرنجة ، عظم ذلك عليه وعول على الانتقـام منهم ، فأغار على صور وأعمال دمشق(١٨٦)، ثم حاصر هـذه المدينة ، اضطرب اهلهـا حين شاهدوا فى الصباح عسكر زنكى محاصرا لبلدهم(١٨٧) ، غير ان زنكى ما لبث أن رفع الحصار ، ورجع الى مرج راهط لأن كثيرا من جنـده كانوا متفرقين(١٨٨) ، فلما عادوا اليه محملين بالغنائم ، رحل بهم عائدا الى الموصل(١٨٩) .

انقسمت مملكة زنكى بعد وفاته سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م بين ولـديه سيف الدين غازى ، ونور الدين محمود ، فاحتفظ الأول بالموصل ، على حين تمكن نور الدين محمود من تثبيت قوته فى حلب ، وكان الحد الفاصل بين أملاك الأخوين هو نهر الخابور(١٩٠) .

ولمـا ولى قطب الدين مودود الموصل سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م طمـع أخوه نور الدين محمود فى بلاده ، شجعه على ذلك بعض أمراء الموصل الذين أرسلوا الى نور الدين يلحون عليه فى المسير اليهم ، فقصد سنجار ، واستولى عليها(١٩١) غير ان الأخوين ما لبثا أن عقـدا صلحا ، أعاد نور الدين محمود بمقتضاه سنجار الى أخيه قطب الدين ، واتفقـا على أن تكون ديار الجزيرة لقطب الدين مودود وأن يبقى الشام لنورالدين(١٩٢).

---

(١٨٤) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١٦ .
Setton ; A History of the Crusades vol 1. p. 460.

(١٨٥) ابن القلانسى : ذيل تادريخ دمشق ص٢٧٢ .
Grousset : Histore des Croisades vol. 2 P. 137.

(١٨٦) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان – القسم الأول جـ٨ ص١٨٦

(١٨٨) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ١ ص٨٩ .

(١٨٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤هـ .

(١٩٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص١١٤ .

(١٩١) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١١٨ .

(١٩٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٤هـ .
ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٢٦٠ .

ولى حكم الموصل بعد وفاة قطب الدين مودود ابنه سيف الدين غازى لما علم نور الدين محمود باستبداد وزيره فخر الدين بأمر الموصل عول على المسير اليها لتدبير ملك أولاد أخيه(١٩٣) ، فعبر الفرات على رأس قوة من الجند سنة ٥٦٦هـ(١٩٤)/١١٧٠م ، واستولى على الرقة وسار الى الخابور ، وتغلب عليه كما فتح نصيبين ، وهناك انضم اليه نورالدين محمد بن قرا أرسلان بن داود — صاحب حصن كيفا(١٩٥) — فازداد عدد قواته ، الأمر الذى شجعه على المسير الى سنجار ، فحاصرها وملكها(١٩٦) ، ثم سار الى الموصل ، واستولى عليها ، وعزل وزيرها فخر الدين(١٩٧) ، ورفع عنها ما كان يعانيه أهلها من أنواع المظالم واتبع هذه السياسة فى كل من نصيبين والخابور وسنجار(١٩٨) ، ثم ترك لسيف الدين حكم الموصل ، ومع ذلك عين أحد رجاله سعد الدين كمشتكين نائبا عنه فى هذه الامارة ، وهكذا اتسعت سلطة نور الدين محمود ، فأصبح يحكم بلاد الجزيرة(١٩٩) ، غير ان سيف الدين غازى ما لبث ان استرد هذه البلاد التى استولى عليها عمه نور الدين محمود(٢٠٠) .

٤ — الأيوبيون :

كان شادى أو شاذى أبو صلاح الدين يوسف كرديا من بلدة من قرية بالقرب من أذربيجان ، ويكتنف أصل أسلافه الغموض ، ولا يمكن قبول الرواية التى رددها الذين عملوا فى خدمة بنى أيوب والتى تزعم ان صلاح الدين ينسب الى أصل عربى عريق — آل مروان — وكان شادى قد هاجر الى بغداد ومعه ولداه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه وقد تولى دزدارية قلعة تكريت بمساعدة مواطن يدعى بهروز ، وكان له

---

(١٩٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١٩٢ .

(١٩٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٣ .

(١٩٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٦هـ .

(١٩٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص١٥٣–١٥٤ .

Grousset : Histoire des Croisades. p. 558.

(١٩٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٦هـ .

(١١٩) ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية ، ورقة ١٤٩ .

(٢٠٠) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص٧ .

شأن فى حكومة بغـداد ، وتوفى شـادى فى تكريت فخلفه أيوب ، وفى سنة ٥٢٦هـ/١١٢٠م هزمت سلاجقة بغـداد جيوش أتابك زنكى — أمير الموصل — بالقـرب من تكريت ، فساعده نجم الدين أيوب وأخوه أسـد الدين شيركوه على النجـاة — وهما من أتبـاع خصـومه — وداويا جراحاته ، وخدماه أحسن خدمة ، وحمـلاه الى قلعة تكريت ، وأقام بها خمسة عشر يوما حتى عولجت جراحاته ، واستراح من آلامه ، ولمـا اعتزم العودة الى الموصل أعوزه الظهر ، فأعطياه جميـع ما عندهما من الظهر ، حمل عليها أمتعته ، فكان عماد الدين زنكى يقدر هذا الجميـل لنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ،ويعـرف لهما هذه الصنيعة ، وبالطبـع لم ترض بغـداد عن هذا العمل ، وعزلت نجم الدين أيـوب لأن مساعدته لزنكى اعتبرت عصيانا على الدولة العباسية فترك نجم الدين أيوب وأخـوه أسد الدين شـيركوه تكريت سنة ٥٣٢هـ/١١٣م وقصـدا زنكى فى الموصل ، وفى الليلة التى غادر فيها نجم الدين أيوب تكريت ، ولد له يوسف صلاح الدين .

رحب زنكى كل الترحيب بأيوب وشيركوه ، وأقطعهمـا الاقطاعات واشتركا معه فى حروبه ، فأعاناه على فتح بعلبك ، وعهد زنكى بحكمها الى أيوب فى أوائل سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م ، وبعد وفاة زنكى حاولت جيوش صاحب دمشق أن تستعيد بعلبك ، ولمـا وجد أيوب نفسه غير قـادر على الاحتفاظ بها انضم اليه باختياره ، وأصبح عنده قائدا ممتازا ، بل كبير القـواد .

وبقى شيركوه فى خدمة نور الدين محمود — صاحب حلب — وعول نور الدين على الاستيلاء على دمشق ، فعرض على شيركوه أن ينتزعهـا من يد أخيه أيـوب ، واتفق الاخـوان فيما بينهمـا ، ودخل شيركوه المدينة من غير قتـال سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وبالغ نور الدين فى اكـرام أيوب وعينه حاكما على دمشق ، وتولى شيركوه حكم حمص ، وتوارث أبناؤه حكمها .

تطلع نور الدين محمود الى ضم مصر الى حوزته ، وانتهز فرصـة ضعف الخلافة الفاطمية فى مصر ، وتنافس كبار رجال الدولة على تقلـد الـوزارة ، بل ان بعضـهم استعان بأمراء الدول المجـاورة لتحقيـق أطماعهم . مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء الى بسـط سلطاتهم على مصر ، فقد تقلد شاور الوزارة فى عهد الخليفـة العاضد ، ولم يلبث أن

ثار عليه ضرغام ـ أحد قواد الجيش ـ وتقلد الوزارة ، فاضطر شاور الى الالتجاء بنور الدين محمود ليعاونه فى استعادة منصبه ، فأرسل حملة الى مصر يقودها أسد الدين شيركوه تصدت لضرغام ، وتغلبت عليه ، وعاد شاور الى الوزارة ، ولم يلبث ان تخلى عن حليفه نور الدين فطلب من شيركوه العودة الى بلاد الشام ، وبعث أماريك ـ ملك بيت المقدس الصليبى ـ يستنجد به ، ويخوفه من نور الدين اذا تمكن من الديار المصرية . فسارع الى تلبية طلبه ، وأرسل جيشا أرغم شيركوه على العودة بجنده الى الشام .

وكان لهذه السياسة أثرها فى توجيه أنظار كل من نور الدين ـ صاحب دمشق ـ والصليبيين فى بيت المقدس الى غزو مصر ، ثم تتابعت حملات أسد الدين شيركوه والصليبيين على مصر ، وانتهى الأمر بانتصار حملة شيركوه الثالثة ، ودعوة أماريك ـ ملك بيت المقدس ـ من غير حرب ولا قتال ، ثم أسند الخليفة العاضد الفاطمى الى شيركوه منصب الوزارة بعد تخلصه من شاور ، غير ان شيركوه لم يستمر طويلا فى الوزارة ، فتوفى بعد قليل ، واستدعى الخليفة الفاطمى صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، وولاه الوزارة .

وكان الخليفة الفاطمى مسلوب السلطة مع صلاح الدين الذى عمل على تدعيم مركزه فى مصر ، باحاطة نفسه بأهل بيته ، فطلب من نور الدين محمود ان يرسل اليه أباه وأقاربه، وأسند اليهم بعض المناصب ، كما وجه اهتمامه على القضاء على المذهب الشيعى فى مصر ، ولما أيقن من انهيار سلطة الخليفة العاضد أمر باقامة الخطبة للخليفة المستضىء بالله العباسى واسقاط اسم العاضد من الخطبة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ولم يعلم الخليفة العاضد بهذا التغيير لمرضه ، ثم توفى بعد ذلك بقليل . وبذلك سقطت الدولة الفاطمية .

ولم تلبث أن نشبت الخلافات بين صلاح الدين يوسف وسيده نور الدين محمود ، وذلك لأن صلاح الدين بعد أن كان وزيرا للعاضد ، خلا له الجو بعد وفاته ، وصار يخطب باسمه بعد اسم الخليفة العباسى وسيده نور الدين ، واعتزم الاستقلال بمصر عن الدولة النورية ، فوطد نفوذه فى مصر ، وقضى على العناصر الموالية للفاطميين فى مصر بفضل شجاعته واقدامه ، ودانت له مصر بالولاء والطاعة .

على أن نور الدين محمـود لم يتغاضى عن نزعـة صـلاح الدين الاستقلالية فاعتزم غزو مصر ، وأخذها من صلاح الدين ، ولكن نور الدين لم يلبث أن توفى دون أن يحقق غرضه ، وبذلك ترك الميدان خاليـا أمام صلاح الدين ، وقامت منافسة شديدة بين أمراء نور الدين محمود فى حلب ودمشق وأمراء بنى زنكى فى اقليم الجزيرة شمال العراق حول من يخلفـه فى حكم الدولة النورية .

واستقر رأى الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملـك – أحد كبار رجال دولة نور الدين محمود – على تولية الصالح اسماعيل مكان أبيـه نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م(١) حتى لايطمع سـيف الدين غازى بن مودود – صـاحب الموصـل(٢) – فى الاسـتيلاء على حلب . غير أن سعد الدين كمشتكين – نائب نور الدين محمود فى الموصل – ما لبث أن سار الى حلب ، وقبض على شمس الدين محمد ، وانفرد بأتابكية الصالح اسماعيل(٣) .

ولمـا علم صلاح الدين الأيوبى باستبداد سعد الدين بأمور حلب ، وتدبيره شؤون سيده نور الدين محمود عظم ذلك عليه وأنكره ؛ واتخـذ من ذلك ذريعة لتحقيق رغبته فى السيطرة على الشام(٤) ، فسار الى حلب متظاهرا أنه يريد الاشراف على تنشئة الملـك الصالح(٥) .

أثار اتجاه صـلاح الدين الى حلب مخاوف أتبـاع الملـك الصالح اسماعيل وأيقنوا ان الملـك سينتقل منه الى صلاح الدين(٦) ، فأرسلوا الى سيف الدين غازى – أتابك الموصـل – يطلبون منه القـدوم اليهم للوقوف الى جانب الملـك الصالح ضد أطماع صلاح الدين(٧) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٩هـ .
ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٣٨ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص٧ .
(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص١٧٥ .
(٤) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان – القسم الأول ج١٢ ورقة ٥٤٦ .
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص٧ .
(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٢٤ .
(٧) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص٦ .

غير ان صلاح الدين أرسل اليهم يحـذرهم من منعه من دخـول حلب ، وتدبير أمر دولة الملك الصالح ويقول : « لـو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى ، أو يثق اليه مثل ثقته بى لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياتـه ، ولو لم يعجل عليه المـوت ، لم يعهد الى أحد بتربية ولـده ، والقيـام بخـدمته غيرى ، أو أراكم قد تفـردتم بمولاى وابن مولاى دونى وسوف أصل الى خدمتـه ، وأجازى انعـام والده بخـدمة يظهر اثرها ، وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى الذود عن بلاده(٨) .

كان صلاح الدين قد ضم الى حوزته فى ذلك الوقت دمشق(٩) وحمص وحماه وبعلبك ، ولـما قصد حلب ، استنجد أهلهـا بالصليبيين(١٠) ، فهاجموا حمص ، واضطر صلاح الدين الى رفع الحصار عن حلب(١١) ، وتأهب لصد الصليبيين عن بلاده(١٢) .

استجاب سيف الدين غازى لنداء أهل حلب ، وأرسل جيشـا اليها لاعتقاده ان صلاح الدين قد استفحل خطره وعظم شأنه ومن ثم وجـه اهتمامه الى الوقوف فى وجهه حتى لا يستحوذ على البلاد ، وتتوطد فيها سلطته ، فأرسل جيشا بقيادة أخيه عز الدين مسعود لمعاونة ابن عمـه المـلك صالح فى صد صلاح الدين عن بلاده ، كما هاجم سـنجار وكان صلاح الدين قد طلب الى اتابكها الوقـوف الى جانبـه فى وجه صـاحب الموصل (١٤) لكنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها بعد أن فشل فى الاستيلاء

---

(٨) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان ــ القسم الثانى جـ١٢ ورقة ٥٤٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى ايوب جـ٢ ص٢٢ .
(٩) أبو شامة : الروضتين فى اخبار الدولتين جـ١ ص٢٣٦ .
(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص٢٢ــ٢٣ .
(١١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٣٩ .
Setton : A History of the Crusades vol. 1. p. 567.
(12) Archer : The Crusades p. 243.
(١٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٦ ص٢٤ .
(١٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ــ القسم الأول جـ١ ص٥٨ــ٥٩ .

عليها(١٥) كما أوقع صلاح الدين الهزيمة بجيشه الذى أرسله للدفاع عن حلب(١٦) .

عول سيف الدين غازى بعد هزيمة جيشه فى حلب على محاربة صلاح الدين الأيوبى(١٧) ، فأعد جيشا كبيرا سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م سار به من الموصل وبصحبته أخوه عز الدين مسعود ، غير ان صلاح الدين رغبة منه فى تجنب الحرب ، أرسل الى سيف الدين يعرض عليه النزول عن حمص وحماه ، على أن يقره على دمشق ، ويكون فيها نائبا عن الملك الصالح اسماعيل فلم يجب طلبه(١٨) ، وقال : « لابد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام ، والعودة الى مصر(١٩) » ، فكان ذلك مما حمل صلاح الدين على اعداد العدة لمحاربته ، والتقى عز الدين مسعود بالقرب من مدينة حماه (٢٠) فى موضع يقال له قرون حماه(٢١) ، حيث دارت معركة انتهت بانتصار صلاح الدين وهزيمة جيش الموصل(٢٢) ، ثم تابع صلاح الدين تنفيذ خطته ، فسار الى حلب ، وظل محاصرا لها حتى اضطر أهلها الى طلب الصلح(٢٣) على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم مابأيديهم منها ، فأجابهم الى ذلك ، ورحل عن حلب(٢٤) .

لم يوافق سيف الدين غازى بن مودود على ذلك الصلح الذى تم بين أهل حلب وصلاح الدين ، فأرسل اليهم يطلب منهم نقضه ، وأعد

---

(١٥) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٤٠ .

(١٦) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص٦٠ .
ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٠هـ .

(١٧) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص٦٠ .

(١٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٢٥ .

(١٩) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ــ القسم الأول ج١ ص٥٩ .

(20) Lamb : The Crusades. p. 43.

(٢١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٤١ .
Lane-Poole : Saladin. p. 139.

(٢٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص٢٤٧ــ٢٥٧ .

(٢٣) تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : تاريخ حماه ص٢٧١ .

(٢٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٠هـ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ القسم الأول ص٥٩ .
Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 626.

العدة لمحاربة صلاح الدين(٢٥) وحثهم على الاشتراك معه فى محاربته ولم يكتف بذلك بل أرسل الى ريموند الثالث — أمير طرابلس — يطلب مساعدته على صلاح الدين ، وأنفذ اليه أسرى الصليبيين المحتجزة عنده ، رغبة فى استمالته اليه ، أما صلاح الدين فانه عقد هدنة مع مملكة بيت المقدس حتى يتفرغ لمحاربة سيف الدين غازى بن(٢٦) مودود الذى حشد كل قواه لطرد صلاح الدين من دمشق ، ولم ينفرد وحده بمحاربته بل استنجد عليه بأمراء كيفا وماردين وسنجار(٢٧) ، وانضم اليه قوات من حلب ، وساروا جميعا الى دمشق سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م(٢٨) غير ان صلاح الدين أعد العدة لصدهم ، وبعث فى طلب جيش كبير من مصر (٢٩) والتقى فى معركة كبيرة مع أتابك الموصل وحلفائه عند تل السلطان(٣٠) — على الطريق بين حلب وحماه — انتهت باحرازه النصر ، واستيلائه على كثير من الأموال والذخائر(٣١) ثم وجه اهتمامه لمحاصرة حلب ، واضطر أهلها الى مصالحته بعد أن طال حصارها(٣٢) .

ولما توفى سيف الدين غازى بن مودود — أتابك الموصل سنة ٥٧٦هـ/١١٤٠م خشى أهلها من مطامع صلاح الدين فى بلدهم فولوا عليهم عزالدين مسعود — أخا سيف الدين غازى — لكبر سنه ، لما عرف عنه الشجاعة وحسن السياسة(٣٣) .

ومما يجدر ذكره أن الصالح اسماعيل صاحب حلب توفى أيضا فى هذه

---

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص٣٦ .

(٢٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٦ ص٢٦ .

(٢٧) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٦١ .

(28) Lane-Poole : Saladin. p. 143.

(٢٩) تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : تاريخ حفاه ص٢٧٢ .

(٣٠) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٢٥٥ .

(٣١) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١٠٦ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول جـ١ ص٥٩ .

(٣٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧١هـ .
ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٤ ص٢٩١ .

(٣٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٧هـ .
ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٣٨٠ .

السنة وأوصى بأن يخلفه ابن عمه عز الدين مسعود(٣٤) فى حلب حتى تتألف من حلب والموصل جبهة واحدة تستطيع الصمود فى وجه صلاح الدين(٣٥) لذلك سارع عز الدين مسعود الى تنفيذ وصية ابن عمه ، وسار قاصدا حلب(٣٦) ودخلها وتولى الحكم فيها(٣٧) ثم ثار أهل حماه على أميرهم ، ونادوا بعز الدين مسعود أميرا عليهم(٣٨) . كما أن أمراء حلب أطمعوا عز الدين فى السير الى دمشق(٣٩) لكنه لم يستجب لهم ، بل نزل عن حلب لأخيه عماد الدين زنكى بن مودود — صاحب سنجار(٤٠) وهكذا لم يتسر له اقامة جبهة اسلامية تضم الشام والعراق(٤١) .

رأى صلاح الدين الأيوبى ان الخطر يتهدده من ناحية وجود بنى زنكى فى الموصل وحلب ، ومن ثم عمل على التخلص منهم ، كما بلغه أن أهل الموصل استعانوا بالصليبيين عليه(٤٢) وشجعه مظفر الدين كوكبورى ، أتابك اربل — على غزو الموصل ، وأظهر استعداده لمده بكل ما يحتاج اليه(٤٣) فكان ذلك مما يسر عليه أمر الزحف الى الموصل ، فاستولى فى طريقه اليها على بعض مدن الجزيرة ، ثم شرع فى محاصرة الموصل(٤٤) غير ان صاحبها عز الدين مسعود أعد عدته لصد هذا

(34) Runciman : The Kingdom of jerusalem. p. 433.

(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب ى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١٠٨ .

(٣٦) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول جـ١ ص٧٧ .

(٣٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص١٨٢ .

(٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١٠٨ .

(٣٩) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص١٨٢ .

(٤٠) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٤٥ .

(٤١) لما دخل عز الدين مسعود حلب ، جاءته رسل من أخيه عماد الدين — صاحب سنجار — يطلب أن يسلم اليه حلب ، ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فرفض اجابة طلبه فهدده عماد الدين بقوله : « ان سلمت الى حلب والا سلمت أنا سنجار الى صلاح الدين » ، فخشى عز الدين من عاقبة هذا العمل، ووافق على حلب لأخيه ، وأخذ سنجار عوضا عنها ، وعاد الى الموصل . (ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٨٣) وابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١٠١) .

(٤٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ ص٦١ .

(٤٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١١٧ .
تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : تاريخ حماه ص٢٨٠ .

(٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١١٩ .
Runciman : The Kingdom of Jerusalem. p. 433.

الحصار(٤٥) فحشد فيها عددا ضخما من العساكر ما بين فارس وراجل واضطر صلاح الدين الى رفع الحصار عنها بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها(٤٦) ثم قصد سنجار ، فخرج اليه أهلها مرحبين بمقدمه(٤٧) .

رأى عز الدين مسعود – أتابك الموصل أن يستعين على خصمه صلاح الدين ببعض أمراء وأتابكة البلاد المجاورة ومنهم شاه أرمن – صاحب خلاط وقطب الدين بن نجم الدين – صاحب ماردين(٤٨) – وسار عز الدين مسعود مع حلفائه خارج الموصل للقاء صلاح الدين ، قبل أن يراجم بلاده(٤٩) ولما علم صلاح الدين باجتماع هذه الجيوش اضطر الى العودة الى الشام(٥٠) كما عاد كل أمير الى بلده(٥١) .

واصل صلاح الدين سياسته التى تنطوى على ضم بلاد الجزيرة الى حوزته فلما دخل نور الدين محمد بن قرا أرسلان – صاحب حصن كيفا – فى طاعته حرضه على المسير الى آمد(٥٢) ، فاستجاب له ، وزحف اليها(٥٣) ثم شرع فى حصارها(٥٤) ٥٧٩هـ/١١٨٣م وأرسل صلاح الدين الى أهلها يعدهم بحسن المعاملة ان سلموا البلدة له(٥٥) فكفوا عن القتال ، وطلبوا الأمان وانفضوا من حول صاحبهم ، ورحبوا بانضمام بلدهم الى حوزة صلاح الدين فأعطاهم أمانا ، ومكنوه من الاستيلاء على

Runciman : The Kingdom of Jerusalem. p. 433.

(٤٥) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ ص٣١ .
Lane-Poole : Saladin. p. 165.

(٤٦) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٤٦ .
(٤٧) محمد بن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص١١٠ .
(٤٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٨هـ .
(٤٩) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك – القسم الأول جـ١ ص٢٠ .
(٥٠) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٤٦ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٦ ص٢٩ .
(51) Runciman : The Kingdom of jerusalem. p. 434.
(٥٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٤٦ .
(53) Lane-Poole : Saladin. p. 172.
(٥٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٩هـ .
(٥٥) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ ص٣٩ .

آمد(٥٦) ، فولى عليها نور الدين بن قرا أرسلان — صاحب حصن كيفا — وكتب له تقليدا بأعمالها(٥٧) فأخذها بما فيها من الأموال والذخائر(٥٨) واشترط عليه صلاح الدين ان يحسن معاملة الرعية ، ويقيم بينهم العدل(٥٩) ثم وفد الى صلاح الدين رسل من قبل صاحب ماردين ، وبعض أمراء بلاد الجزيرة يطلبون الأمان ، فأجاب طلبهم(٦٠) .

غادر صلاح الدين الأيوبى العراق بعد ان زادت هجمات الصليبيين فى بلاد الشام ، وحشد جيشا كبيرا ضم جندا من البلاد(٦١) المجاورة ، وحاصر(٦٢) حلب ، فقاومه أهلها مقاومة عنيفة(٦٣) ، غير أن أميرها عماد الدين زنكى بن مودود ، أرسل الى صلاح الدين سرا يعرض عليه نزوله عن حلب مقابل اعادته الى سنجار ، فوافق صلاح الدين على ذلك(٦٤) واشترط عليه ان يكون على أهبة الاستعداد للقتال معه ، وبذلك خلا الجو لصلاح الدين فى حلب ، فضمها الى حوزته بعد ان غادرها صاحبها الى سنجار(٦٥) .

امتد نفوذ صلاح الدين الى شمال العراق ، ولم يبق خارجا على طاعته سوى الموصل ، لذلك عاود مهاجمتها بعد أن بلغه أن عساكر الموصل قد أغار على اربل وأعمالها ، فعقد هدنة مع ريموند الثالث أمير أنطاكية والوصى على مملكة بيت المقدس — مدتها أربع سنوات(٦٦) وطلب من حلفائه فى بلاد الجزيرة معاونته فى فتح الموصل(٦٧)

---

(٥٦) تاج الدين بن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص١١٤ .

(٥٧) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص٦٦ .

سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول ج٨ ص٣٧٥ .

(٥٨) تاج الدين شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص١٣٨ .

(٥٩) ابن واصل : مفرج الكروب ى ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص١٣٦ .

(٦٠) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج٢ ص٤٢ .

(61) Runciman : The Kingdom of Jerusalem. p. 435.

(٦٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص٦٦ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول ج١ ص٨٠ .

(٦٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٩هـ .

(٦٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول ج٨ ص٣٦٧ .

(٦٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص١٥٥ ، ١٩٤ .

(٦٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١هـ .

(67) Lane-Poole : Saldin. p. 192.

فأستجاب له كل من معز الدين سنجر شاه — أتابك الجزيرة — ونور الدين قرا أرسلان — صاحب حصن كيفا — وذارا ، وزين الدين على كجك — صاحب اربل — وعماد الدين قرأ ارسلان — صاحب ماردين(٦٨) — ولما بلغ صلاح الدين الموصل سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م حاصرها غير ان حرارة الجو حالت دون الاستمرار فى القتال ، كما أبلى أهلها بلاء حسنا(٦٩) ، واضطر صلاح الدين الى رفع الحصار عنها بعد ان بلغه وفاة شاه أرمن ابن سكمان الثانى — صاحب خلاط(٧٠) دون ان يترك وارثا يخلفه ، وقد رأى صلاح الدين أن يستغل هذه الفرصة لضم خلاط الى حوزته(٧١) غير انه فشل فى ذلك ، وسار الى ميافارقين(٧٢) وبعد أن تمكن من الاستيلاء عليها أسند ولايتها الى مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطى(٧٣) ، ثم عاد الى حصار الموصل للمرة الثالثة(٧٤) لكن أهلها طلبوا مصالحته(٧٢) ، كما أن أتابكها عز الدين مسعود يئس من مساعدة الخليفة والسلاجقة(٧٦) ، فنمل لصلاح الدين بمقتضى الصلح الذى عقدة معه عن شهرزور وأعمالها ، وجميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون ، وولاية بنى قفجاق وغيرها((٧٧) ، كما افق على اقامة الخطبة لصلاح الدين بدلا من سلاطين السلاجقة(٧٨) ، وتعهد فضلا عن ذلك بأن ينفذ عسكره لمعاونة صلاح الدين وينقش اسمه على السكة(٧٩) ، وهكذا تيسر لصلاح الذين مد سلطانه الى جميع بلاد الموصل والجزيرة(٨٠).

وجه أتابكة الموصل والجزيرة اهتمامهم بعد وفاة صلاح الدين الى

---

(٦٨) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٥٤ .

(٦٩) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١٩٦ .

(٧٠) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول جـ١ ص٨٩ .

(٧١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول جـ٨ ص٣٨٢ .

(72) Lane-Poole : Saldin. p. 192.

(٧٣) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٥٦ .

(٧٤) تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : تاريخ حماه ص٢٨٦ .

(٧٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٤ ص٢٩٤ .

(٧٦) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ ص٦٢ .

(٧٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١هـ .

(٧٨) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الاول جـ١ ص٩٠ .

(٧٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١هـ .

(٨٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص١٨٥ .

التخلص من نفوذ بنى أيوب(٨١) ، فسار عز الدين مسعود الى نصيبين(٨٢) سنة ٥٩٨هـ/١١٩٣م ، كما وفد اليه أخـوه عمـاد الدين زنكى — صاحب سنجار — وأرسل عز الدين الى أمراء البلاد المجاورة للموصل يستمدهم ، لكن المـلك العادل — الذى خلف أخاه صلاح الدين — عول على الاحتفاظ بسيادته على بلاد الموصل والجزيرة ، فأعد جيشا كبيرا وزحف الى حران فى طريقه الى الموصل(٨٣) وضم الى حوزته الرقة والخابور(٨٤) ثم قصد ماردين وحاصرها ، واستطاع ان يستولى على بعض أعمالها(٨٥) .

اسـتقر رأى نور الدين قرا أرسـلان — صاحب الموصل — على اسـتخلاص ماردين من المـلك العادل ، وانضـم اليه قطب الدين بن عماد الدين زنكى — أتابك سنجار — ثم سارت القوات المتحالفـة الى ماردين(٨٦) ، وكان الملك العـادل بن أيوب قـد اناب الملك الـكامل فى حصارها فاشتبك مع جند الموصل وسنجار فى معركة دارت فيها الدائرة عليه ، فاضطر الى رفع الحصار عن ماردين ، ثم عاد الى حـران سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م(٨٧) .

وكان لانتصار صاحبى الموصل وسنجار على بنى أيوب فى ماردين اثر بالغ فى تشجيعهما على المسير الى حران ، وما لبثا ان استوليـا عليها وعلى الرها ، ثم انضم اليهما صاحب ماردين . غير ان الرسـل سعوا بين بنى أيوب وأمراء الموصل وسنجار وماردين فى الصلح ، وبخاصة بعد أن علموا أن المـلك العادل بن أيوب قد زال عنه الخطر الذى كان يتهدده من ناحية ابنى أخيه المـلك الأفضل والملك الظاهر(٧٨) .

---

(٨١) أبو شامة : الروضتين فى اخبار الدولتين جـ٢ ص ٢٣٧ .

(٨٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٩٢ .

(٨٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٩هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٣ ص ١٩ .

(٨٤) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ ص٢٢٨ .

(٨٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول المـلوك — القسم الأول جـ١ ص٩٢ .

(٨٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٣٣٦ .

(٨٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص١٩٥ .

(٨٨) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٣ ص١٢٩ .

وكان الملك العادل يطمع فى استعادة ماردين ، فعهد سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م الى ابنه الأشرف موسى بمحاصرتها(٨٩) وانضم اليه عسكر الموصل وسنجار ولما تعذر على صاحب ماردين مقاومة جيوش خصومه ، أرسل الى العادل يطلب الصلح(٩٠) ، فأجاب طلبه ، وكان مما تضمنه هذا الصلح أن يؤدى صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار ، ويقيم له الخطبة فى بلاده وتضرب السكة باسمه(٩١) ويعده بالجند اذا ما طلبها منه(٩٢) .

حدثت بين نور الدين أرسلان شاه الأول بن مسعود — أتابك الموصل — وقطب الدين محمد بن زنكى الثانى — أتابك سنجار — خلافات ترجع الى أن صاحب سنجار ، دخل فى خدمة الملك العادل ، وأقام الخطبة له فى بلاده ، فخشى نور الدين من عاقبة هذا العمل على نفسه وبلده ، فهاجم أتابكية سنجار سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م ، وبدأ بمدينة نصيبين ، فظل يحاصرها حتى تمكن من الاستيلاء عليها . وفى أثناء حصاره لها ، هاجم مظفر الدين كوكبورى بعض بلاد الموصل ، حتى يضعف من شأن أتابكها ، ويرغمه على رفع الحصار عن نصيبين(٩٣) .

لم يكتف نور الدين بانتزاع نصيبين من صاحب سنجار ، بل سار الى تل يعفر — وكان صاحبها وقتذاك — قطب الدين محمد — فحاصرها وضمها الى حوزته ، ثم عمل على ترتيب أمورها ، وعاد الى الموصل(٩٤) .

رأى صاحب سنجار بعد هذه الاعتداءات التى تعرضت لها بلاده أن يستنجد بالملك الأشرف موسى بن الملك العادل — صاحب ديار الجزيرة وخلاط — الذى سار من حران ، وانضم اليه أصحاب اربل وآمد والجزيرة(٩٥) ، فضلا عن أخيه الملك الأوحد نجم الدين — صاحب

---

(٨٩) المقريزى : السلوك لمعرفة دولة الملوك - القسم الأول جـ١ ص١٦١ .
(٩٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٣٣٨ .
(٩١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول جـ١ ص١٩١ .
(٩٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٩٩هـ .
(٩٣) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١١٢ .
(٩٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٠هـ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٩٢ .
(٩٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٣ ص١٥٩ .

ميافارقين — وقد صارت قوات الملك الأشرف وحلفائه نحو الموصل ، والتقت بصاحبها نور الدين على مقربة من هذه المدينة فى معركة حلت فيها الهزيمة به ، وتفرق عسكره(٩٦) ، ولم يكتف الملك الأشرف بهذا النصر الذى أحرزه ، بل تابع زحفه حتى دخل الموصل ، ثم ترددت الرسل بين الملك الأشرف ونور الدين صاحب الموصل فى الصلح(٩٧) ، غير ان الملك الأشرف اشترط أن يعاد تل يعفر الى قطب الدين — صاحب سنجار(٩٨) — فوافق نور الدين على ذلك وتم عقد الصلح بين الفريقين سنة(٩٩) ٦٠٠هـ/١٢٠٣م .

امتدت أطماع الملك العادل أبو بكر بن أيوب — صاحب مصر ودمشق — الى بلاد سنجار وجزيرة ابن عمر ، فدارت مراسلات بينه وبين نور الدين قرا أرسلان — صاحب الموصل على تقسيم هذه البلاد بينهما ، على ان تكون بلاد قطب الدين — صاحب سنجار — للملك العادل ، وجزيرة ابن عمر لنور الدين ، ولما عزم الملك العادل على تنفيذ هذا الاتفاق نزل بحران(١٠٠) حيث انضم اليه صاحب خلاط وميافارقين ، وصاحب آمد وحصن كيفا وغيرهم من الأمراء ، ثم زحف الى سنجار سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م على رأس جيش كبير فرأى صاحبها قطب الدين انه لا قبل له بمواجهة العادل وجنده ومن ثم أرسل الى الملك العادل يعرض عليه أخذ سنجار ، على أن يعوضه عنها ، غير أن أهلها رفضوا هذا العرض(١٠١) ، وأعدوا العدة لمقاومة الملك العادل الأيوبى الذى زحف الى مدينتهم(١٠٢) ، وشرع فى حصارها مما اضطر صاحبها الى الاستنجاد بالخليفة العباسى وأمراء البلاد المجاورة ، واتفق مظفر الدين كوكبورى — صاحب اربل — ونور الدين أرسلان شاه — صاحب الموصل وصاحب ماردين — على رفع الحصار عن سنجار(١٠٣) كما أنفذ الخليفة العباسى رسلا الى الملك العادل تطلب

---

(٩٦) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الاول جـ١ ص١٩٣ .

(٩٧) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٣ ص١٥٧—١٥٩ .

(٩٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٠هـ .

(٩٩) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١١٨ .

(١٠٠) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ ص٢٣٨ .

(١٠١) نفس المصدر جـ٢ ص٢٣٨ .

(١٠٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١١٨ .

(١٠٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٢٦٨ .

منه عدم التعرض(١٠٤) لأتابك سنجار ، وانتهى الأمر بأن رفع العادل الحصار عن سنجار ، وخاصة بعد ان حدثت خلافات بين أمراء بنى أيوب فى بلاد الشام(١٠٥) .

عهد الملك العادل قبل وفاته ببلاد الجزيرة التى كانت فى حوزته الى الملك الأشرف موسى . ولما ثار عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه على بدر الدين لؤلؤ — صاحب الموصل — استعان بالملك الأشرف(١٠٦) . ودخل فى طاعته سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، كما ان محمود بن قطب الدين محمد — صاحب سنجار — عرض عليه أن يسلم اليه سنجار على أن يعوضه عنها بمدينة الرقة ، فوافق الأشرف على ذلك سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م ثم عقد صلحا مع صاحب ماردين ، على ان يعطيه رأس عين ، ويؤدى اليه ثلاثين ألف دينار(١٠٧) .

رأى مظفر الدين كوكبورى — صاحب أربل — أن الملك الأشرف موسى ازداد نفوذه حتى أصبح يهدد بلاده ، ومن ثم وجه سياسته الى اضعاف شوكته ، فتحالف سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م ، مع شهاب الدين غازى — صاحب خلاط — والملك المعظم عيسى — صاحب دمشق — وساروا نحو بلاد الملك الأشرف ، غير ان حليفى مظفر الدين ما لبثا أن توقفا عن مهاجمة بلاد الملك الأيوبى(١٠٨) ، أما مظفر الدين كوكبورى فانه سار الى الموصل ، وحاصرها ، لكن صاحبها بدر الدين لؤلؤ ، أحكم أمورها ، فاضطر مظفر الدين بعد ان متنعت عليه البلد الى الرحيل عنها. لكنه لم يلبث أن عاد الى مهاجمتها(١٠٩) بعد أن اتفق مع بعض أمراء الجزيرة وديار بكر على قصد بلاد الأشرف ، غير ان الأشرف أحبط محاولته(١١٠) .

عول الملك الأشرف على الانتقام من الأمراء الذين تحالفوا مع صاحب

---

(١٠٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى جـ٨ ص ٥٤١ .

(١٠٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٢٦٨ .

سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان ، القسم الثانى جـ٨ ص٥٤١ .

(١٠٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧هـ .

(١٠٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٣٠٦ .

(١٠٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٢١هـ .

(١٠٩) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١٤٠–١٤١ .

(١١٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٢٨٠ .

اربل فهاجم ماردين سنة ٦٢٣/١٢٢٨م وعاث جنده فيها تخريبا ونهبا كما حرص علاء الدين كقباد — صاحب بلاد الروم السلاجقة — على المسير الى بلاد الملك المسعود — صاحب آمد — مما حمله على أن يتعهد للملك الأشرف الأيوبى بعدم محالفة أعدائه(١١١) .

على أن آمد لم تنج من أطماع ملوك الأيوبيين ، فزحف اليها الملك الكامل الثانى سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م وحاصرها ، وانتزعها من صاحبها الملك وكامل المسعود بن محمود ، كما استولى على البلاد التى كانت تابعة له ، وضمها الى حوزته(١١٢) .

ولما توفى الملك الكامل طمع بدر الدين لؤلؤ — صاحب الموصل — فى سنجار — وكانت تتبع الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل فهاجمها(١١٣) واستولى عليها سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م(١١٤) كما امتلك جزيرة ابن عمر(١١٥) سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م .

مما تقدم يمكن القول أن علاقة أتابكة الموصل والجزيرة بأمراء البلاد الاسلامية المجاورة ، تغيرت تبعا لقوة الأتابكة وضعفهم ، فاستطاع الأتابكة ابان قوتهم بسط سيطرتهم على مساحات كبيرة فى شمال العراق وبلاد الشام فاتسع نفوذ نجم الدين ايلغازى — صاحب ماردين — فى ديار بكر ، وسيطر على بعض مدن الشام وبسط عماد الدين زنكى — أتابك الموصل — سلطانه على شمال العراق ، وبعض مدن الشام ، ولما ضعف شأن الأتابكة عجزوا عن صد هجمات بنى أيوب .

---

(١١١) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١٤٤ .

(١١٢) نفس المصدر جـ٣ ص١٥٦-١٦٠ .

(١١٣) نفس المصدر جـ٣ ص١٧٠ .

(١١٤) حاصر بدر الدين لؤلؤ سنجار سنة ٦٣٥هـ فاستنجد صاحبها الملك الصالح الأيوبى بالخوارزمية ، وبذل لهم حران والرها فى مقابل نجدته فوقفوا الى جانبه فى صد غارات جند الموصل وهزيمتهم ، وفى سنة ٦٣٦هـ اتفق الملك الصالح مع أخيه الجواد يونس — صاحب دمشق وأعمالها — على أن يحكم الملك الصالح دمشق بدلا من سنجار على حين يلى الجواد يونس حكم سنجار وعانه والرقة . ولما استقر الجواد يونس حكم سنجار ، عاد بدر الدين لؤلؤ الى مهاجمتها والاستيلاء عليها .

(أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١٧٠ ، ١٧٧) .

(١١٥) محمد على عونى : تاريخ الدول والامارات الكردية فى العهد الاسلامى ص١٦٤ .

حققت الحملة الصليبية الأولى أهدافها باستيلائها على بيت المقدس وأنطاكية والرها وطرابلس واختار الصليبيون جودفرى حاكما على بيت المقدس لما اشتهر به من التقوى والورع ، وتوج ملكا فى بيت المقدس ، واتخذ لنفسه لقب حامى القبر المقدس ، وكان على جودفرى أن يدافع عن كل محاولة تبذل لاسترداد مدينة القدس ، ففى سنة ٤٩٢هـ لما علم الفاطميون فى مصر نبأ استيلاء الصليبيين على القدس جمع الوزير الفاطمى الأفضل أمير الجيوش العساكر ، وسار الى عسقلان ، وأرسل الى الصليبيين ينكر عليهم جريمتهم ، ويتهددهم ؛ فأعادوا الرسول بالجواب ، وراحوا على اثره ، وطلعوا على المصريين عقب وصول الرسول ، وباغتوا المصريين ، ولم يكونوا على أهبة للقتال ، وقتلوا منهم كثيرين ، وغنموا ما فى العسكر من مال وسلاح ، وانهزم الأفضل ، وعاد بخواصه الى مصر . ونازل الصليبيون عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها اتاوة مالية كبيرة(١١٦) .

وبعد ان توفى جودفرى خلفه فى حكم مملكة بيت المقدس — التى ضمت يافا وحيفا والرملة — بلدوين أمير الرها والمؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس وقد اتسعت المملكة الجديدة فى عهده بأن ضم اليها أرسوف وقيصرية وعكا وصيدا وبيروت ، وقد ساعد انضمام هذه المدن على تأمين وصول الأساطيل الايطالية محملة بالمؤن والامدادات للصليبيين .

لما ايقن الفرنجة فى بلاد الشام أنهم فى مأمن من الدولة البيزنطية عولوا على التوسع فى البلاد الاسلامية ، فشنوا عدة غارات على حلب وأعمالها(١١٧) منتهزين فرصة انشغال الأمراء المسلمين وجندهم بقتال بعضهم بعضا فضلا عن تفرق كلمتهم(١١٨) ، فقضى الفرنجة على كثير من سكان حلب ؛ وفرضوا عليهم مبالغ كبيرة من المال ليتقوا أذاهم(١١٩) كما اعتزم جوسلين — أمير تل باشر — وبوهيموند — صاحب انطاكية — الاستيلاء على حران — التى تقع بين الرها ونهر الفرات ليقطعوا ما بين المسلمين فى الشام واخوانهم فى العراق وفارس من صلات(١٢٠) .

(١١٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٣٧ .
(117) Grousset : Historie des Croisades. vol. 1. p. 401.
(١١٨) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٤٥–١٤٦ .
(١١٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٧هـ .
(120) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p.40.

نهض الأميران سقمان بن أرتق — صاحب ماردين — وجكرمش — أتابك الموصل — للذود عن بلادهما ، فتناسيا ما بينهما من خلافات ، وأرسل كل منهما الى صاحبه يدعوه للتشاور معه فى جهاد الفرنجة ، فاجتمعا فى الخابور ومعهما عشرة آلاف جندى من العرب والأكراد والتركمان(١٢١) وهاجما الرها ، فانضم بلدوين دى بورج — أمير الرها — الى جوسلين — صاحب تل باشر — وبوهيموند — أمير أنطاكية — وهاجموا حران(١٢٢) حتى تنصرف القوات الاسلامية عن مهاجمة الرها ولكن المسلمين لم يمكنوهم منها ، اذ اشتبكوا معهم فى معركة حاسمة سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م دارت فيها الدائرة على الصليبيين(١٢٣) وغنم التركمان كثيرا من الغنائم(١٢٤) بل وقع بلدوين دى بورج — أمير الرها — أسيرا وكذلك جوسلين ، أما بوهمند وجنده ، فعادوا الى انطاكية لا يلوون على شىء واتجه سقمان الى ديار بكر ، واستولى وهو فى طريقه اليها على عدة حصون للفرنجة ، أما جكرمش ، فسار الى حران وفتحها(١٢٥) .

على ان ايلغازى بن أرتق — الذى ولى ماردين بعد وفاة سقمان — أطلق سراح جوسلين مقابل الحصول على مبلغ قدره عشرون ألف دينار(١٢٦) ، ثم سعى جوسلين الى اطلاق سراح بلدوين بفدية قدرها ثلاثين ألف دينار(١٢٧) .

كان لموقعة حران أهمية كبيرة ، اذ أوقفت توسع الصليبيين نحو الشرق على حساب المسلمين ، كما أدت الى تأمين مدينة حلب بصفة خاصة وسورية الشمالية من خطر الفرنجة ، بل أثبتت أن الصليبيين لا يستطيعون قطع الصلة بين القوى الاسلامية فى العراق والشام وآسيا الصغرى .

---

(١٢١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص١٤٨ .

(122) Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 389.

(١٢٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٧هـ .

(124) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2.p. 43.

(١٢٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥ ص٢٣ .

(١٢٧) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص١٤٨ .

على أن الفرنجة لم يكفوا عن الزحف عن المدن الاسلامية فى الشام ، فأغاروا سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م على طرابلس فاستنجد فخر الملك عمار — صاحبها — بسقمان بن أرتق — أمير ماردين — فاستجاب(١٢٩) له ، وتوجه الى طرابلس . غير انه توفى وهو فى طريقه اليها ، وضم الفرنجة طرابلس الى حوزتهم سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م(١٣٠) .

ولما ولى محمد بن ملكشاه السلطنة السلجوقية عول على قتال الفرنجة(١٣١) فأنفذ جيشا كبيرا يتكون من جند الموصل بقيادة أتابكها(١٣٢) مودود ، وجند التركمان تحت امرة ايلغازى بن أرتق — صاحب ماردين — وجند من خلاط وميافارقين ، وطلب اليهم الاستيلاء على الرها(١٣٣) .

زحفت قوات الموصل والجزيرة الى الرها سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م ، فاستنجد بلدوين دى بورج — صاحبها — ببلدوين الأول — ملك بيت المقدس — فخرج لنجدته وانضم اليه الأمراء الصليبيون فى بلاد الشام(١٣٤) غير ان الفرنجة تفرق شملهم ، اذ وصل الى تانكرد — أمير انطاكية — أن رضوان — أمير حلب — غزا امارته(١٣٥) ، كما ان بلدوين الأول — ملك بيت المقدس — عاد الى مملكته بعد ان بلغه أن الفاطميين ازدادت هجماتهم عليها(١٣٦) .

ولما اشتدت هجمات قوات الموصل والجزيرة على امارة الرها ، وعجز أميرها عن حماية بلاده الواقعة شرقى الفرات ، أمر السكان المسيحيين بأن يغادروا هذه البلاد ، فرحلوا الى البلاد الواقعة على الضفة

---

(128) Stevensson : The Crussaders in The East. 78.

(١٢٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٨هـ .

(١٣٠) نفس المصدر ، حوادث سنة ٥٠٣هـ .

(131) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p.p. 114-115.

(١٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٦٩ .

(133) Ruuciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 115.

(١٣٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٠ .

(135) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 116.

(١٣٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ .

اليمنى لنهر الفرات لأنها أكثر أمنا . ولما شرع السكان فى المسير الى تلك البلاد التى اتخذوها موطنا لهم ، باغتهم مودود — أتابك الموصل — ونكل بهم(١٣٧) .

استقر رأى تانكرد — أمير أنطاكية — بعد عودة جند الموصل والجزيرة الى بلادهم — على الانتقام من رضوان — أمير حلب(١٣٨) — الذى هاجم بلاده فأغار على حلب ، وأخذ يشدد الحصار على حصن الاثارب(١٣٩) حتى يتيسر له الاستيلاء عليه(١٤٠) ، ثم قصد حصن زردنا ، وامتلكه سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م(١٤١) ولما بلغ ذلك أهل منبج وبالس غادروا بلديهما مما أتاح للفرنجة الفرصة لدخول هذين البلدين ، لكنهم سرعان ما رحلوا عنهما ، وساروا الى صيدا ، واستولوا عليها(١٤٢) ، الأمر الذى أدى الى اثارة المسلمين ، وتخوفهم من اقدام الفرنجة على الاستيلاء على سائر بلاد الشام(١٤٣) فسار جماعة من أهل حلب الى بغداد لتحريض أهلها على الفرنجة(١٤٤) . وذكر ابن الأثير(١٤٥) انه قبل وصول وفد حلب الى بغداد أرسل الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين — وكان فى خلاف مع الفرنجة — الى السلطان السلجوقى فى بغداد يستفزه على الفرنجة ، ويحثه على قتالهم ، ولما علم بذلك أهل بغداد صاحوا فى السلطان : « أما تتقى الله أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام ، حتى انه أرسل اليك فى جهادهم » عندئذ لم يتردد السلطان السلجوقى فى انفاذ عساكر الموصل والجزيرة الى بلاد الشام لصد الفرنجة عنها(١٤٩) .

---

(137) Runcimcan : A History of the Crusades. vol. 2. p.p. 117-118.

(١٣٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٣ .

(١٣٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٨ .

(١٤٠) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٥٨ .

(١٤١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ .

(١٤٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٣ .

(١٤٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ .
Grousset : Histoire des Croisades. vol. 1. p. 460.

(١٤٤) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٥٨ .
Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 121.

(١٤٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ .

(١٤٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٣

اجتمعت قوات كبيرة من الموصل والجزيرة بقيادة مودود — أتابك الموصل — واياز بن ايلغازى بن أرتق(١٤٧) ، وسارت نحـو سنجار ، فاستولت على بعض حصون الفرنجة القريبة منها سنة ٥٠٥هـ/١١١١(١٤٨) ثم حاصر جند الموصل والجزيرة مدينة الرها ، غير انهم ما لبثوا أن اضطروا الى التقهقر عنها الى حران لحمل الفرنجة على تعقبهم(١٤٩) ، لكن الفرنجة فطنوا الى خدعة قواد المسلمين ولم يتبعوا قواتهم بل عمدوا الى تحصين مدينة الرها ، وتزويدها بالجند والعتاد والمؤن حتى تستطيع الصمود ضد هجمات قوات الموصل والجزيرة(١٥٠) .

ولما عاد مودود واياز بن ايلغازى الى الرها حاصراها ، فاستعصت على قواتهم(١٥١) مما اضطرهم الى الرحيل عنها ، فقصدوا تل باشر(١٥٢) وحاصروها خمسة وأربعين يوما ، وكادت تسقط فى أيديهم لولا أن جوسلين الثانى — صاحب تل باشر — اتصل بأحد قواد القوات الاسلامية الأكراد ، واتفق معه على رفع الحصار عن تل باشر مقابل مبلغ من المال(١٥٣) ، وفى نفس الوقت اتصل رضوان — صاحب حلب — بمودود — أتابك الموصل — يستنجده على الفرنجة — الذين زادت غاراتهم على حلب(١٥٤) ، وهكذا أتيحت الفرصة للقائد الكردى ليقنع مودود برفع الحصار عن تل باشر ، والمسير الى حلب(١٥٥) ، غير أن القوات الاسلامية التى اتجهت اليها ما لبث أن هاجمها جوسلين(١٥٦)

---

(147) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 121.

(١٤٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥هـ .

(١٤٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٥٩ .

(١٥٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٥ .
Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 399.

(١٥١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥هـ .

(١٥٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٥ .

(١٥٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٥٩ .

(154) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 122.

(١٥٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١١٧ .
Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 406.

(١٥٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥هـ .
Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 122.

ولمـا اقتربت قوات الموصل والجزيرة من حلب أدرك أميرها رضـوان أن تلك القوات وهؤلاء الأمراء الذين يتولـون قيادتها يشكلون خطـرا عليه وعلى سلطانه(١٥٧) . ومن ثم لم يخرج لاستقبال مودود وحلفائه ، بل أغلق أبواب حلب في وجوههم(١٥٨) .

لم يكف مودود ـــ اتابك الموصل ـــ عن مواصلة جهـاد الفرنجة ، فسار على رأس قوات الموصل والجزيـرة الى معرة النعمـان لاسترداد النواحى التى استولى عليها تانكرد ـــ صاحب أنطاكية ـــ وانضم اليـه طغتكين ـــ أتابك دمشـق(١٥٩) ـــ لكن حدثت خـلافات بين الأمـراء المشتركين فى حملة مودود وبين أتابك دمشـق الذى طلب منهم المسـير الى طرابلس والاستيلاء عليها(١٦٠) ؛ فأبـوا اجابة طلبه لأنهم رأوا فى ذلك مخاطرة لا يستفيد منها الا هو(١٦١) . كما أن ـــ أتابك دمشـق ـــ رفض التعاون مع هؤلاء الأمراء(١٦٢) وتوجس منهم خيفة حين علم أن بعضهم يزمع التآمر عليه بغية انتزاع دمشق بل شرع فى مهادنة الفرنجة سرا(١٦٣) وسرعان ما تفـرق الأمراء المسـلمون ولم يبـق مع مودود سوى ايازين ايلغازى وطغتكين فاتجهوا الى نهر العاصى(١٦٤) .

لمـا علم الفرنجة بتفوق القوات الاسلامية ، عولوا على اسـتغلال هذه الفرصة لتحقيق مطامعهم ، فصاروا الى فامية بقيـادة بلدوين الأول ـــ ملك بيت المقدس وبلدوين دى بورج ـــ أمير الرهـا ، وجوسـلين ـــ صاحب تل باشر ـــ وبر ترام ـــ أمير طرابلس(١٦٥) ـــ عندما اقتربوا

---

(١٥٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٧ .
Grousset : Histoire des Croisades Vol. 1 p. 465.

(١٥٨) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٥٩ .
Setton A History of the Crusades Vol. 1, p. 400.

(١٥٩) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥هـ .

(١٦٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٤ـ١٧٥ .
Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 400.

(١٦٢) لم يكن مودود بين هؤلاء الأمراء اذ كان متحالفا مع طغتكين .
Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 126.

(١٦٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥هـ .
Runciman : A History of the Crusades Vol. 2, p. 123.

ابن شيزر ، استنجد صاحبها ــ سلطان بن منقذ ــ بمودود فاستجاب له ، وسار الى شيزر ، واشتبكت قواته مع قوات الفرنجة(١٦٦) في معركة دارت فيها الدائرة على الصليبيين(١٦٧) .

ظل مودود ــ أتابك الموصل ــ يعمل على الاستيلاء على الامارات الصليبية فى بلاد الشام على الرغم مما واجهه من صعوبات فى سبيل تحقيق غايته . فقصد الرها سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م منتهزا فرصة اتصال سكانها الأرمن(١٦٨) ــ المقيمين فيها ــ به ، وتشجيعه على المسير اليهم لكراهتهم بلدوين دى بورج ــ أمير الرها ــ ولما سار مودود الى هذه المدينة أبقى فيها فريقا من جنده لمحاصرتها ، بينما توجه الى سروج ــ على اعتبار أنها المركز الثانى للصليبيين شرقى الفرات ــ وحاصرها ، غير ان حاكم الرها فطن الى تآمر الأرمن عليه ، فأنزل بهم عقابا صارما(١٦٩) ، أما جوسلين ــ صاحب تل باشر ــ باغت عسكر الموصل ، ويبدو ان صاحب الموصل لم يأخذ حذره من الفرنجة ، وفى ذلك يقول ابن الأثير(١٧٠) :

« ولم يحذر منهم ، فلم يشعر الا وجوسلين ــ صاحب تل باشر ــ قد كبسهم » .

عاد أتابكة الموصل والجزيرة الى مهاجمة الامارات الصليبية فى بلاد الشام ، حين توالت غارات بلدوين الأول ــ ملك بيت المقدس ــ على دمشق(١٧١) ، فأعد مودود حملة اشترك فيها اياز بن ايلغازى ، وبعض أمراء الجزيرة وساروا الى بلاد الشام(١٧٢) حيث التقوا بطغتكين ــ أتابك دمشق ــ عند سلمية ــ من أعمال حماه ــ وعمدت القوات الاسلامية

---

(١٦٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٧ .
Setton : History of the Crusades. Vol. I p. 400.

(١٦٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ .
Setton : A History of the Crusades. Vol. 1, p. 401.

(١٧٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٦هـ .
(171) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 402.
(172) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 126.

الى استدراج قوات الصليبيين الى نواحى دمشق ، واشـتبكوا معهم فى معركة لقى فيها الصليبيون هزيمة فادحة سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م(١٧٣) .

اخذت القوات الاسلامية بعد ذلك النصر الذى أحرزته على الصيليبيين تتابع غاراتها على بلاد الفرنجة بين عكا وبيت المقدس ولم يفلح الفرنجة فى صد هجمات المسلمين(١٧٤) ، بل تحصنوا فى الاستحكامات والحصون دون أن يتمكنوا من مغادرتهـا(١٧٥) ، ثم أذن مودود لقواته بالعـودة الى العراق ، والبقاء هناك حتى الربيع ، وسار مع بعض خواصـه الى دمشق(١٧٦) حيث قتله الاسـماعيليون بايعاز من طغتكين ــ أتابـك دمشـق ــ ويذكـر ابن الأثير(١٧٧) ان طغتكيـن عمل على التخلص من مودود ، اذ رآه خطرا يهدد حكمه فى دمشق ، ولـما خشى من انتقـام السلطان السلجوقى عقد هدنة مع بلدوين الأول ــ ملك بيت المقـدس ــ سنة ٥٠٨هـ/١١١٤ ثم تحالف مع الفرنجة فى العام التالى(١٧٨) .

تخلص الفرنجة بوفاة مودود من أقوى أعدائهم كما تحطمت جهـود السـلاجقة الرامية الى تكـوين جبهة اسـلامية متحـدة تقف فى وجـه الصليبيين(١٧٩) .

على أن السلطان محمد واصـل سياسته فى العمل على اسـتئناف الجهاد ضد الفرنجة ، فأسند أتابكية الموصل الى آقسنقر البرسقى(١٨٠) ، وأمره بقتال الصليبيين ، فأعد جيشـا كبيرا انضم اليه صاحب ماردين وعماد الدين زنـكى ، وبعض أمراء الجـزيرة(١٨١) ، وهاجمت القـوات الاسلامية الرها وسروج وسميساط سنة ٥٠٨هـ(١٨٢)/١١١٤م .

(173) Grousset : Histoire des Croissades Vol. 1, p. 484.

(١٧٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٧هـ .

(١٧٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٨٤ــ١٨٥ .

(176) Runciman : A History of the Crusades Vol. p. 127.

(١٧٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٧هـ .

(178) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 403.

(179) Ibid.

(١٨٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٨هـ .

(181) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p. 403.

(١٨٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٨هـ .

حالت الخـــلافات التى ظهرت بين اتابكية الموصل والجـــزيرة دون تنفيذ سياستهم فى محاربة الصليبيين فنشب النزاع بين آقسنقر البرسقى — أتابك الموصل — وأياز بن ايلغازى(١٨٣) ، ولمـــا وقع اياز أســـيرا فى يد البرسقى ، استدعى أبـــوه جنـــد التركمـــان وهاجم البرســـقى ، وهزمه وأرغمه على العودة الى الموصل(١٨٤) . ولم يلبث بعد ذلك أن عزله السلطان السلجوقى محمد ، وأحل محله فى أتابكية الموصل جيوش بك(١٨٥) . أما ايلغازى بن أرتق فخشى انتقام السلطان السلجوقى منه ، وسار الى الشام حيث تحالف مع طغتكين — أتابك دمشق(١٨٦) — واتفقا على الوقوف فى وجه السلطان محمد بل تحالف مع الفرنجة وراسلا روجر — صاحب أنطاكية(١٨٧) .

واصل السلطان السلجوقى محمد مناهضة الصليبيين ، فاعد قوات كبيرة ضمت جيش الموصل بقيادة أتابكها جيوش بك وجنـــد الجزيرة ، وأسند قيادة هذه القوات الى برسق — أمير همذان وأصفهان — وطلب السلطان من هذا الأمير البدء بالتخلص من طغتكين وايلغازى .

سار برسق الى الرها وحاصرها ، ثم ما لبث أن رفع عنها الحصار واتجه الى حلب ، بعد ان علم أن لؤلؤ — نائب أمير حلب — انضم الى ايلغازى وطغتكين ، فلما اقترب منها ، أرسل اليه يطالبه بتســـليمها ، وعرض عليه كتب السلطان بذلك(١٨٨) ، لكن لؤلؤ رفض تسليم حلب . واستنجد بطغتكين وايلغازى فسار الى حلب ، وكان ذلك مما حمل برسق على العدول عن مهاجمتهـــا وقصد حماه — وكانت فى حوزة طغتكين ، فاستولى عليها بمساعدة أمير حمص(١٨٩) .

استنجد طغتكين ببلدوين الأول — ملك بيت المقدس — وبونز — أمير طرابلس — فخشى برسق من تجمع أعدائه وعاد الى الجزيرة ، غير انه

---

(183) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p. 404.

(١٨٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٨هـ .

(١٨٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٨هـ .

(186) Runciman : A History of the Crusades Vol. S. p. 131.

(١٨٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٩هـ .

(188) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p. 494.

(١٨٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢. ص١٧٦ .

لم يلبث أن انقض فجأة على كفر طاب ، فاستولى على قلعتها(١٩٠) ؛ وسلمها الى بنى منقذ — أصحاب شيزر — ثم سارت قوات الموصل والجزيرة الى قلعة فاميه — وكانت وقتذاك خاضعة للفرنجة — فلما شاهدت هذه القوات تحصيناتها القوية انصرفت عنها الى المعرة(١٩١) ، لكنها لم تتمكن من الاستيلاء عليها ، واتجه جيوش بك — أتابك الموصل — الى بزاعة . وانتزعها من الفرنجة ، بينما اتجه جيش برسق الى حلب مما اضطر روجر — أمير أنطاكية — الى المسير للقاء المسلمين سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م فالتقى بجند الموصل والجزيرة على مقربة من مدينة سرمين حيث انقض عليهم(١٩٢) ، فأدى ذلك الى اثارة الاضطراب بين قوات المسلمين وعجز برسق عن جمع شملهم(١٩٣) وحلت به الهزيمة(١٩٤) .

لم يحاول سلاطين السلاجقة فى العراق — بعد هذه الهزيمة — استعادة الشام من الفرنجة ، كما أن السلطان محمد لم يعد مستعدا لانفاذ حملة أخرى لمحاربة الصليبيين ؛ ومن ثم تمتعت الامارات الصليبية بقدر من الهدوء لم تعرفه من قبل . أما روجر — صاحب أنطاكية — فانه سار الى كفر طاب، وضمها الى حوزته ، ومن ناحية أخرى ، أزعج ذلك الانتصار الذى أحرزه الصليبيين طغتكين — أتابك دمشق — وايلغازى ابن أرتق — أمير ماردين — وسارعا الى مصالحة السلطان السلجوقى(١٩٥) .

ظلت الموصل والجزيرة محط أنظار المسلمين فى بلاد الشام فلما اضطربت الأمور فى حلب(١٩٦) ، بعد مقتل حاكمها لؤلؤ سنة ٥١٠هـ/ ١١١٧م(١٩٧) ؛ سار روجر أمير أنطاكية اليها ، واستولى على بعض

---

(١٩٠) نفس المصدر : جـ٢ ص١٧٦ـ١٧٧ .

(191) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 131-132.

(192) Grousset : Histoire of the Croisades, Vol. 1. pp. 510 511.

(193) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. pp. 404.

(١٩٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٩هـ .

(١٩٥) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٧٩ـ١٨١ .
Setton : A History of the Crusades Vol. 1 pp. 404-405.

(١٩٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٧٩ـ١٨١ .

(١٩٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٩٨ .

أعمالها(١٩٨) ، وساءت الأحوال الاقتصادية فى هذه المدينة ، فلم يتوافر فيها من المؤن ما يكفى أهلها واستبد بهم الخوف ، ولو أتيحت لهم الفرصة للرحيل لما ترددوا فى ذلك(١٩٩) ، غير ان هذه المدينة ما لبثت أن دخلت فى حوزة نجم الدين ايلغازى — أمير ماردين — الذى سار اليها سنة ٥١١هـ(٢٠٠)/١١٧٠م ورحب به أهلها لاعتقادهم ان قواته من جند التركمان قادرة على حماية بلدهم من خطر الفرنجة(٢٠١) .

بذل ايلغازى أموالا للفرنجة مقابل هدنة عقدها معهم ، ثم سار الى ماردين لجمع العساكر ، واستخلف بحلب ابنه حسام الدين تمرتاش(٢٠٢) .

على ان الفرنجة ما لبثوا ان نقضوا هذه الهدنة ، ففى سنة ٥١٣هـ/١١١٨م هاجم روجر — أمير أنطاكية — عزاز والبزاغة(٢٠٣) واستولى عليها وكانتا فى حوزة ايلغازى بن أرتق ، وبذلك انقطع الطريق الذى يصل بين حلب والبلاد الواقعة شرقى الفرات ، ثم أغار صاحب انطاكية على حلب(٢٠٤) ، ولم يكن بها من الذخائر ما يكفيها ، وبلغ من تخوف أهل حلب من الفرنجة أنهم تقاسموا معهم أملاكهم التى بباب حلب(٢٠٥) .

عاد ايلغازى بن أرتق — أمير ماردين — الى حمل لواء الجهاد ضد الصليبيين سنة ٥١٣هـ/١١١٩م حين خرج الى الشام على رأس عشرين ألف مقاتل من العرب والأكراد والتركمان ، فنزل روجر — أمير

---

(١٩٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١١هـ .

(١٩٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ص١٨٠ـ١٨١ .

(200) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 pp. 133 134.

(٢٠١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٩٩ .

(٢٠٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٣هـ .
Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 405.

(٢٠٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٨٦ـ١٨٧ .

(٢٠٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٣هـ .

(٢٠٥) يذكر ابن العديم أن ايلغازى جدد الايمان على الامراء والمقدمين بأن يناصحوا فى حربهم ويصابروا فى قتال العدو ، وانهم لا ينكلون ويبذلون مهجهم فى الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة .
(زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٨٧) .

انطاكية — على مقربة من الأثارب ظنا منه ان أحدا لا يستطيع اعتراض قواته لضيق الطريق ، وأرسل الى ايلغازى يهدده ويحذره(٢٠٦) ، على أن ايلغازى لم يعبأ بتهديد الفرنجة فهاجم بلاد الرها ، وألحق بالفرنجة خسائر فادحة ، ثم عبر الفرات ، ومضى الى قنسرين — جنوب دمشق — فانضم اليه طغتكين . وشنت القوات الاسلامية عدة هجمات على حارم وجبل السماق ، على حين هاجم بنو منقذ — أصحاب شيزر — الأراضى التى فى حوزة روجر — أمير أنطاكية — رغبة فى اشغاله عن مقاتلة المسلمين(٢٠٨) .

استنجد روجر بجوسلين — أمير الرها — وبونز — أمير طرابلس — وبلدوين الثانى — ملك بيت المقدس(٢٠٩) — ولما أتم ايلغازى اعداد قواته انقض على جيش الفرنجة وأحاط به ، وانقطع وصول الامدادات الى الصليبيين مما اضطر الى اقتحام صفوف القوات الاسلامية حتى لا يتعرض هو وجيشه للهلاك(٢١٠) ، لكن المسلمين ما لبثوا أن أوقعوا الهزيمة بالفرنجة ، وخر روجر صريعا(٢١١) ، فى ميدان القتال ، ولم ينج من فرسانه الا القليل ، ووقع فى أيدى المسلمين من السبى والغنائم والدواب ما لا يحصى(٢١٢) ، وبلغ من كثرة ما قتل من الصليبيين فى هذه الواقعة أن أطلقوا على السهل الذى دارت فيه اسم ساحة الدم(٢١٣) .

كفل انتصار المسلمين على الصليبيين فى واقعة ساحة الدم الأمان لمدينة حلب ، وفى نفس الوقت أصبح الطريق الى أنطاكية مفتوحا أمام قوات ايلغازى(٢١٤) ، ولو أنه سار لمنازلتها لما استعصت عليه(٢١٥)

---

(٢٠٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٣هـ .
(207) Runciman : A History of the Vrusades, Vol. 2 p. 153.
(208) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 153.
(٢٠٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٨٧ .
(٢١٠) نفس المصدر جـ٢ ص١٩٠ .
(٢١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٣هـ .
(212) Setton ; A History of the Crusades. Vol. 1 p. 413.
(213) Runciman : A History of the Crusades, Vol. 2 p. 155.
(214) Ibid ; Vol. 2 p. 155.
(٢١٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٠١ .

غير ان إيلغازى قصد الأثارب ، واستولى عليها ، ثم زحف الى زردنــا وامتلكها ، وخشى بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس — تحرك المسلمين جنوبا لانتزاع بعض أملاكه ، فسار اليهم واشتبك مع ايلغازى فى معركة غير حاســمة(٢١٦) ، عاد بعدها الأمير الأرتــقى الى حلب ، وأصــلح أمورها(٢١٧) .

استقر رأى بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس — على السير الى انطاكية وتحصينها ، كما ولى الوصاية عليها ريثما يبلغ بوهمند — أميرها الشرعى — سن الرشد(٢١٨) ، وانضم اليه جوسلين — صاحب تل باشر — فى الدفاع عن انطاكية بسبب تعرضها لغارات ايلغازى بن أرتق(٢١٦) ، غير ان الأمير الأرتقى ما لبث أن عقد هدنة مع الفرنجة تضمنت اعترافه بامتلاك امارة انطاكية البلاد الواقعة شرق نهر العاصى(٢٢٠) .

على ان الفرنجة سرعان ما نقضوا هذه الهدنة ، وأغاروا على بلاد الشام والجزيرة ونهبوها(٢٢١) ، وتوالت غارات جوسلين — أمير الرها — على منبج وبزاعـــة والأثارب(٢٢٢) ، كما انتهز بلــدوين الثانى — ملك بيت المقــدس — فرصــة ثورة سليمان بن ايلغـــازى — والى حلب — على أبيه ، فشن غارات على أعمال حلب مما اضطر ايلغازى الى عقــد صلح مع بلدوين الثانى ، نزل له فيها عن زردنا والأثارب سنة ٥١٥هـ/ ١١٢٢م(٢٢٣) .

أتاحت هذه الهدنة لايلغـــازى بن أرتــق — أمير ماردين وحلب — الفرصة لجمع قوات كبيرة من جند التركمان من ديار بكر ، ثم عبر بهم

---

(٢١٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٩٤ .
(٢١٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٤هـ .
(٢١٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٤هـ .
(219) Setton : History of the Crusades. Vol. 1 pp. 415-416.
(٢٢٠) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٩٦ـ١٩٧ .
(221) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2. p. 159.
(٢٢٢) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٩٨ .
(٢٢٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٩٨ .

الفرات قاصدا الشام لمواصلة جهاد الصليبيين(٢٢٤) ، وحاصر هو وابن أخيه بلك بن بهرام الأرتقى زردنا(٢٢٥) ، واشتبكا مع بلدوين فى قتال حول الأثارب سنة ٥١٥هـ/١١٢٥م(٢٢٦) ، غير ان ايلغازى ما لبث ان انسحب من حلب لمرضه(٢٢٧) .

أما بلك بن بهرام الأرتقى فسار الى الرها ، وحاصرها ، لكنه عجز عن الاستيلاء عليها ، ورفع عنها الحصار ، ولما علم ان أميرها يتعقبه ، عول على مهاجمته(٢٢٨) ، وأحل بقواته الهزيمة ، وانتهت هذه المعركة بأسر جوسلين ، ٥١٥هـ/١١٢٢م(٢٢٩) ، ونقله الى قلعة خرتبرت حيث عرض عليه الأمير بلك اطلاق سراحه مقابل النزول عن الرها ، لكنه رفض(٢٣٠) .

أضعفت وفاة ايلغازى بن أرتق من شأن الأراتقة بسبب اقتسام أملاكه بين أولاده وأقاربه ، فآلت حلب الى سليمان بن عبدالجبار الأرتقى، واستفاد الملك بلدوين الثانى من ضعف الأراتقة ، فاستولى على البيرة — شرقى حلب — واقليم بزاعة وبالس بالقرب من حلب(٢٣١) ، ولما عجز سليمان عن رد هجماتهم عقد صلحا مع بلدوين الثانى تضمنت اعادة الأثارب اليه سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م فى مقابل أن يكف الفرنجة عن بلاده(٢٣٢) .

---

(٢٢٤) انتهز ايلغازى بن أرتق فرصة خروج بونز — أمير طرابلس — على طاعة ملك بيت المقدس ، وسير بلدوين الثانى الى طرابلس لارغام بونز على الدخول فى طاعته .
(Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 161)

(٢٢٥) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٠٢ـ٢٠٤ .

(226) Setton ; A History of the Crusades. Vol. 1. p. 417.

(٢٢٧) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٠٤ـ٢٠٦ .

(٢٢٨) نصب بلك له كمينا فى موضع رطب زاده سوءا انهمار الامطار ، فانزلقت أرجل الخيل ، وتعثرت فى سيرها ، ولم يجد فرسان التركمان صعوبة فى تطويق الفرنجة ، فقتلوهم عن آخرهم .
(Setton : A History of the Crusades. Vol. 1, p. 418)

(٢٢٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٥هـ .

(230) Runciman ; A History of the Crusades. Vol. 2 p. 161.

(٢٣١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٧هـ .

(٢٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٩ .

ولمـا علم بلك بن بهرام بن أرتق أن صاحب حلب نزل عن حصن الأثارب للفرنجة ، عظم ذلك عليه وأنكره ، فسار الى حران وملكها(٢٣٣) ثم قصد حلب وهاجمها ومنع الميرة عنها(٢٣٤) واضـطر صاحب حلب الى تسليم البلدان لابن عمه بلك بن بهرام(٢٣٥) .

كان لوقوع جوسلين — أمير تل باشر — أسيرا اثر بالغ فى نفوس الفرنجة ، فولى بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس — امارة الرها(٢٣٦) وسار على رأس قوة صغيرة وأقام معسكرا فى موضع لا يبعد كثيرا عن كركر — الواقعة على نهر الفرات ، والتى انتزعها بلك من الفرنجة(٢٣٧) لكن بلك سرعان ما انقض على معسكر بلـدوين ، وقضى على كثير من جند الفرنجة ، وأسر بلدوين ، ثم نقل الى قلعة خرتبرت(٢٣٨) .

عول الفرنجة على الانتقام من بلك فهاجموه بينما كان يحاصر منبج لانتزاعها منه ، فتصدى لهم ، وألحق بهم الهزيمة ، ثم عاد الى منبـج حيث انتهت حياته أثناء حصاره القلعة سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م(٢٣٩) .

تفرق عسكر بلك اثر وفاته ، فسار حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى

---

(٢٣٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢١٠ .

(٢٣٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٧هـ .
Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 167.

(٢٣٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٠٩ .
Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 422.

(٢٣٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٧هـ .

(٢٣٨) فر بلدوين الثانى من الأسـر بعد أن حلف للأسرى الفرنجة ، على انه لا يغير ثيـابه ولا يأكـل لحمـا ، ولا يشـرب الا وقت القربـان الا أن يجمـع الجمـوع الفرنجية ، ويصل بهم الى خرتبرت ويخلصهم ، وسار اليهم جوسلين حينما ساعد سـكان القلعة الارمن ، بلدوين والأسرى الفرنجـة فى الاسـتيلاء على القلعة ، غير أن بلك ، لم يمكن جوسلين من القلعة واستعادها ، ورتب فيهـا من يحفظها ، ونقل بلدوين الى حران .
ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢١٢ .
ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٨هـ .
Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2. pp. 163-165.

(٢٣٩) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٢ ص٢٤٩ .

ـ أمير ماردين ـ الى حلب ، واستولى عليها(٢٤٠) ونازعه فى حكمها الأمير دبيس بن صدقة ـ صاحب الحلة ـ وفى هذه الأثناء رأى حسام الدين أن يطلق سراح بلدوين الثانى ـ ملك بيت المقدس(٢٤١) ـ بعد ان تعهد بأداء مبلغ كبير من المال ، وأن يعيد الى حلب مدن الأثارب وزردنا وعزاز وكفر طاب والجسر ، وأن يقف الى جانبه فى قتال دبيس بن صدقة، وأن يحتفظ صاحب حلب بالرهائن ريثما يؤدى بلدوين الفدية كاملة . غير ان ملك بيت المقدس تخلى عن تعهداته بعد اطلاق سراحه(٢٤٢) .

ولما انتزع الفرنجة مدينة صور من الفاطميين سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م طمعوا فى الاستيلاء على بقية مدن الشام(٢٤٣) فقصدوا حلب ، وانضم اليهم دبيس بن صدقة ـ صاحب الحلة ـ وياغى سيان الأرتقى وسلطان شاه بن رضوان . غير ان حسام الدين تمرتاش ـ صاحب ماردين وحلب ـ لم يغادر ديار بكر لنجدة أهل حلب ، ويرجع السبب فى ذلك الى انشغاله بالاستيلاء على ميافارقين(٢٤٤) ، بعد وفاة سليمان ، وظل أهل حلب يقاومون الفرنجة حتى ضعفت مقاومتهم(٢٤٥) فلجأوا الى البرسقى ـ أتابك الموصل ـ وبعثوا اليه يستنجدونه فلبى طلبهم ، ولما أشرفت قوات الموصل على حلب(٢٤٦) رحل الفرنجة وحلفاؤهم عنها(٢٤٧) ، ورأى البرسقى ان من المصلحة عدم تتبع الفرنجة حتى تستقر الامور فى حلب ، ولما دخلها رحب به أهلها(٢٤٨) ، وهكذا اتحدت حلب والموصل تحت زعامة آقسنقر البرسقى ، مما يعتبر نواة لتكوين جبهة اسلامية ، تستطيع الوقوف فى وجه الصليبيين(٢٤٩) .

---

(٢٤٠) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢١٧ـ٢١٩ .

Runciman : A History of the Crusades, Vol. 2 p. 165.

Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 423.

(٢٤٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

(244) Setton : A History of the Crusade Vol. 1. 452.

(٢٤٥) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٢ ص٢٤٩ .

(٢٤٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 173.

(٢٤٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

(٢٤٩) سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص٥٦١ .

ظل البرسقى يواصل الحرب ضد الصليبيين بعد عودته الى الموصل فسار الى الشـــام ، وشن عدة هجمات على بلاد أنطاكيـــة ، وحاصرت الأثارب(٢٥٠) ثم اضطر الى رفع الحصار عنها والعودة الى حلب ثــم الى الموصل حيث قتلته الاسماعيلية(٢٥١) فخلفه ابنه عز الدين مسعود. لكنه لم يكن كأبيه فى جهاد الفرنجة ، ولم يلبث ان توفى ، وسادت الفوضى مدينة حلب ، فولى الناس عليهم أميرا من بنى أرتق يدعى سـليمان بن عبدالجبـار(٢٥٢) فانتهز جوسلين — أمير الرهـا — وبوهمنـد الثانى — صاحب أنطاكية — فرصة ذلك الاضطراب الذى ساد حلب(٢٥٣) ، وحاولا الاستيلاء عليها(٢٥٤) غير ان محاولتهما باءت بالفشل(٢٥٥) ، ولم يمض غير قليل حتى دخل عماد الدين زنكى بن آقسنقر هذه المدينة سنة ٥٢٢هـ/١١٢٩م حاملا تقليـدا بحكمهـا من السلطان السلجوقى(٢٥٦) ، فأحسن أهلها استقباله(٢٥٧) ، وبانضمام حلب الى الموصل تحت سيطرة زنكى ، انتقل صراع أتابكـة الموصل والجـزيرة مع الصليبيين الى دور جـديد .

واصل عماد الدين زنكى سياسة أسلافه — أتابكة الموصل — فى مجاهدة الفرنجة بعد ان استفحل خطرهم فى بلاد الشام(٢٥٨). وامتـد ملكهم من ناحية ماردين الى عريش مصر ، فيما عدا حلب وحمص وحماه

---

(٢٥٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٩هـ .

Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 173-174.

(250) Setton : A History of the Crusades Vol. 1 pp. 426-427.

(٢٥٢) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٣٧ .

(٢٥٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٢هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٣٧-٣٨ .

(٢٥٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢١٨ .

(٢٥٥) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٤١ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٣٨-٣٩ .

(256) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 453.

(٢٥٧) ويذكر ابن الاثير أن أهل حلب أظهروا من الفرح والسرور بمقدم زنكى ما لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى . (التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٣٧-٣٨) .

(٢٥٨) ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ورق ٦١ .

Grousset : Histoire des Croissades. Vol. 1 p. 668.

ودمشق التى بقيت فى حوزة بعض الأمراء المسلمين(٢٥٩) ، بل ان هذه البلاد تعرضت لغارات متعددة شنها الفرنجة بغية السلب والنهب(٢٦٠) ، ولم يكتفوا بذلك بل فرضوا اتاوات على البلاد المجاورة لهم ، مقابل عدم اعتدائهم عليهم(٢٦١) .

بدأ زنكى يناهض الصليبيين منذ سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م . وعلى الرغم من انه لم يستفد من الاضطرابات التى حدثت بأنطاكية بعد مقتل أميرها بوهمند الثانى(٢٦٢) ، فانه عمد الى مهاجمة بعض حصون الفرنجة التى تهدد ممتلكاته فى بلاد الشـــام ومنها حصن الأثـــارب(٢٦٣) سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م — بين حلب وأنطاكية — وكان أهل حلب يلاقون كثيرا من الضر والضيق من هذا الحصن الذى اتخذه الفرنجة قاعدة لمهاجمة حلب ، ونهب أموالها ومحاصيلها(٢٦٤) ، بل كانـــوا يقاسمون أهل حلب على جميـــع أعمالها الغربية(٢٦٥) ، فلما هاجر عماد الدين زنكى هذا الحصن ، حشد الفرنجة جندهم لصده ، ودارت بين عماد الدين والصليبيين معركة حلت

---

(٢٥٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤هـ .

(٢٦٠) ابن لاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الإتابكية ص ٣٢-٣٣ .

(261) Archer : The Crusades p. 199.
Stevenson : The Crusades in the East.

(٢٦٢) حينما قتل بوهمند الثانى ـ أمير أنطاكية ـ بأيدى الترك السلاجقة بآسيا الصغرى رفضت زوجته اليس تولية ابنه بوهمند ـ كونستانس ـ الحكم وانفردت بالسلطان، وطلبت من عمـاد الدين زنكى مساعـدتها ، وتعهـدت لـه بالدخـول فى طاعتـه اذا عمل على ابقاء أنطاكية فى حوزتها ، غير ان بلدوين الثـانى ـ ملك المقـدس ـ سار الى أنطاكية ، وأحبط مؤامرة اليس .

(Setton : A History or the Crusades Vol. 1. p. 431)

(٢٦٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .

(٢٦٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٣٩ .

Grousset : Histoire des Croissades. Vol. 1. pp. 675-676.

(٢٦٥) لـما احتشد الفرنجة للدفـاع عن الحصـن ، استشار زنكى أصحابه فيما يفعـل فأشاروا عليه بالعـودة الى الحصن خوفا من الهزيمة ، ولكن زنكى رفض مشورتهم وقال لاصحابه : ان الفرنجـة متى رأونا قد عدنا عن الحصن طمعـوا وساروا فى اثرنا ، وخربوا بلادنا .

(ابن الأثير :) الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .

ديها الهزيمة بهم(٢٦٦) ووقع كثير من فرسانهم فى الأسر(٢٦٧) ؛ واستطاع أتابك الموصل أن يستولى على حصن الأثارب عنوة(٢٦٨) ، ثم سار زنكى من الأثارب الى قلعة حارم — على مقربة من أنطاكية فحاصرها ، وضيق عليها الحصار ، ولما رأى الفرنجة أنه لا طاقة لهم بزنكى وجنده ، عرضوا عليه الكف عنهم فى مقابل منحه نصف دخل بلدهم ؛ فأجابهم الى ذلك ورفع الحصار عن حارم(٢٦٩) .

على أن عماد الدين زنكى انصرف بعض الوقت عن قتال الصليبيين بعد عودته الى العراق ، وانشغاله بالصراع الدائر بين السلاجقة والخلفاء العباسيين ، والاضطرابات التى أثارها الأكراد فى شمال العراق(٢٧٠) .

وعلى الرغم من تغيب زنكى عن الشام ، فان جهوده فى محاربة الصليبيين لم تتوقف ، فأمد سيف الدين سوار — نائبه فى حلب — بجند من التركمان وطلب اليه مجاهدة الفرنجة ، فشن سوار هجمات على أنطاكية مما حمل أهلها على الاستنجاد بفولك — ملك بيت المقدس — فسار الى أنطاكية(٢٧١) ، وفى طريقه اليها علم ان سيف الدين سوار هاجم تل باشر التابعة لامارة الرها — وغنم منها مغانم كثيرة(٢٧٢) ، ولم يستطع الصليبيون صده عنها ، فتقدم فولك الى قنسرين ، حيث كان سوار معسكرا بقواته ، واشتبك الفريقان فى معركة انتصر فيها الصليبيون(٢٧٣) ، وعاد فولك الى فلسطين سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م(٢٧٤) .

---

(٢٦٦) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٣ .

(٢٦٧) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٧٨ .

(٢٦٨) دمر عماد الدين زنكى هذا الحصن بعد الاستيلاء عليه ، وقال لقواته : « ان هذا اول مصاف عملناه معهم ، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه فى قلوبهم » .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٤٣ .

Archer : The Crusades. p. 200.

(٢٦٩) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص٧٨ .

Stevenson : The Crusades in the East. p. 33.

(٢٧٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٤٣ وما بعدها .

(271) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2. p. 194.

(٢٧٢) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٦٠ .

(273) Setton : A History of the Crusades Vol. 1 pp. 431-432.

(٢٧٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٧هـ .

انتهز سوار فرصة الفتن الداخليـــة التى حدثت فى انطاكية نتيجـة النزاع على الحكم ؛ فهاجر أنطاكية(٢٧٥) والقرى الصليبية المجاورة(٢٧٦) لها حتى بلغت غاراته اللاذقية(٢٧٧) ، سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م . ويذكـر ابن القلانسى(٢٧٨) أن جند زنكى عادوا الى حلب ومعهم ما يزيد على سبعة آلاف أسير عدا ما غنموه من الدواب والأسلحة .

رأى عمـــاد الدين زنكى بعد عودته الى بلاد الشـــام سنة ٥١٦هـ/١١٢٧م أن يعمل على تحقيق سياسته فى اقامة جبهة اسلامية متحـدة حتى يتيسر له استئناف الحرب ضد الصليبيين ، فهاجم حمص مرة أخرى لكن معين الدين انر — واليها من قبل أتابك دمشق — تصدى(٢٧٩) له ، بل استعان عليه(٢٨٠) بالفرنجة فسار الصليبيون الى حمص لمنع زنكى عنها ، فاضطر أتابك الموصـــل الى رفع الحصار عن حمص ، وســـار لمواجهة الصليبيين عند بارين — بين حماه وحمص — وكان الصليبيـون قد اتخذوها قاعدة يشنون منها الغارات على البلاد الواقعة بين حمص وحمـــاه(٢٨١) .

استنجد ريموند — صاحب طرابلس — بفولك ملك بيت المقدس(٢٨٢) واشتبكا مع عماد الدين فى معركة رغبة فى صـــده عن بارين(٢٨٣) ، لكن عماد الدين زنكى هزم الفرنجة ، وألحق بهم خســـائر فادحة فى الأرواح والعتاد(٢٨٤) ووقع فى الأسر كثيرون ، منهم ريموند — أمير طرابلس —

---

(٢٧٥) ابن القلانسى : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٧هـ .
سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الاول جـ٨ ص١٤٦ .
(٢٧٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٦٠ .
(٢٧٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٠هـ .
(٢٧٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥—٢٥٦ .
(279) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 137.
(280) Grousset : Histoire des Croisades, Vol. 2 pp. 69-79.
(٢٨١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٥٨—٢٥٩ .
(٢٨٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص ٨٧—٨٨ .
Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 438.
(٢٨٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣١هـ .
(٢٨٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٧٢—٧٣ .

بينما فر فولك الى حصن بارين ، واحتمى به ، واضطر الى الاستنجاد ببطريرك بيت المقدس ، وأميرى الرها وأنطاكية . وقد لبى هؤلاء الثلاثة طلبه وخرجوا لنجدته على (٢٨٥) رأس جيش كبير(٢٨٦) ، غير أن جند زنكى شددوا الحصار على القلعة وقذفوها بالمنجنيقات ، ولما ندرت الذخائر والمؤن لدى الفرنجة اضطر فولك الى طلب الأمان من زنكى فى مقابل تسليم القلعة ، فاظهر زنكى فى بداية الأمر عدم اكتراثه بهم(٢٨٧). لكنه حين بلغه اقتراب جيوش الفرنجة ــ الذين استنجد بهم فولك ــ منح الأمان لجندهم المحاصرين بالقلعة فى مقابل تسليمها(٢٨٨) ، وأذن للملك فولك وفرسانه بمغادرة القلعة(٢٨٩) والعودة الى بلادهم ، كما أطلق سراح ــ أمير أنطاكية ــ وجميع أسرى الحرب الأخيرة(٢٩٠) واستولى على القلعة وأنفذ اليه الفرنجة خمسين ألف دينار مقابل اطلاق سراح أسراهم(٢٩١) .

كان لاستيلاء زنكى على قلعة بارين أهمية كبير ، إذ أن امتلاكه لها يعوق الفرنجة عن الوصول الى أعالى وادى نهر العاصى فضلا عن أنه يمكن زنكى من السيطرة على حمص وحماه اللتين كانتا فى دائرة نفوذ دمشق(٢٩٢) .

وبينما كان زنكى محاصرا لقلعة بارين ، تمكن من فتح معرة النعمان وكفر طاب وغيرها من البلاد الواقعة بين حلب وحماه(٢٩٣) ، ومما يجدر

---

(٢٨٥) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٥٩ـ٦١ .
Runciman ; A History of the Crusades. Vol. 2 p. 204.
(٢٨٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٦٠ـ٢٦١ .
(٢٨٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٥٩ .
(٢٨٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٦١ .
(٢٨٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٦٢ .
(290) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 438.
(٢٩١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣١هـ .
(292) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 204.
(٢٩٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣١هـ .
Zee Oiden Bourg : Les Croissades. p. 521.

ذكره ان هذه البلاد افادت من استيلاء زنكى عليهـا ، اذ عمرت وزاد دخلها(٢٩٤) .

واصل زنكى سياسته التى تنطوى على توحيد القوى الاسلامية فى الشام لمواجهة الخطر الصليبى ، فهاجم دمشق سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م مما اضطر معين الدين انر — نائب أتابك دمشق — الى الاستنجاد(٢٩٥) بالصليبيين ، وبذل لهم الأموال فى مقابل صد زنكى عن دمشق ، فخرجوا لنصرته(٢٩٦) ، لأنهم أيقنوا بالخطر الذى يواجههم من جراء استيلاء زنكى على دمشق(٢٩٧).

ولما سارت الفرنجة الى دمشق ، اضطر عماد الدين زنكى الى رفع الحصار عنها وقصد حوران معتزما قتال الفرنجة قبل أن يلتقوا بأهالى دمشق غير ان الفرنجة لم يواصلوا زحفهم الى هذه المدينة خوفا من وقوع اشتباك بينهم وبين عماد الدين زنكى(٢٩٨) .

أما عن موقف معين الدين انر — نائب أتابك دمشق — فانه عمل على الوفاء بتعهداته للفرنجة ، فانتهز فرصة غياب — أتابك الموصل — عن بلاد الشام وسار الى بانياس(٢٩٩) لانتزاعها وتسليمها الفرنجة — وكانت من أملاك(٣٠٠) زنكى — وانضم اليه فولك — ملك بيت المقدس — وريموند — أمير أنطاكية — وعجز أهل بانياس عن صد انر وحلفائه

---

(٢٩٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٧٢ .

(٢٩٥) أرسل معين الدين انر ، أسامة بن منقذ الى بيت المقدس للسعى الى الاتفاق مع الفرنجة على زنكى ، فاتفق أسامة معه على أن يساعد انر الفرنجة فى انتزاع بانياس من عماد الدين زنكى ، وأن يبذل أمير دمشق للفرنجة ٣٠ ألف دينار كل شهر يعد بها الفرنجة قوات لمحاربة زنكى ، وأن يجعل صاحب دمشق رهائن عند الفرنجة ضمانا لتنفيذ الاتفاق .
(أسامة بن منقذ ، الاعتبار ص٨) .

(296) Archer : The Crusades. p. 196.

(297) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 227.

(٢٩٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤هـ .

(299) Grousset : Histoire des Croissades. Vol. 2. p. 137.

(٣٠٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جا ص٨٨-٨٩ .
Zoe Olden Bourg : Les Croissades, p. 568.

عن بلدهم(٣٠١) مما هون عليه أمر الاستيلاء عليها ، وتسليمها للفرنجة(٣٠٢) . وهكذا أدى التحالف بين حكام دمشق وبيت المقدس الى عرقلة الجهود التى بذلها عماد الدين زنكى فى تكوين جبهة اسلامية متحدة تستطيع مواجهة الخطر الصليبى(٣٠٣) .

على أن غارات قوات عماد الدين زنكى لم تتوقف فى بلاد الشام ، فيذكر ابن العديم(٣٠٤) ان الفرنجة لما أغاروا سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م على سرمين وعاثوا فيها سلبا ونهبا ، ثم تحولوا الى جبل السماق وكفر طاب(٣٠٥) ، لم يقف قواد عماد الدين زنكى فى بلاد الشام مكتوفى الأيدى ازاء أعمال الفرنجة التخريبية ، فاجتمع كثير من جند التركمان بقيادة علم الدين بن سيف الدين سوار ، وساروا الى أنطاكية ، وشنوا عليها غارات وغنموا منها كثيرا من الغنائم(٣٠٦) .

واصل قادة زنكى جهودهم فى مقاومة الصليبيين ، ففى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م خرج القائد سيف الدين سوار — نائب زنكى فى حلب — الى أنطاكية واشتبك مع بعض القوات الصليبية وأوقع بهم الهزيمة وغنم منهم مغانم كثيرة ، ولما خرج صاحب أنطاكية الى بزاعة للانتقام من جند زنكى رده سوار على أعقابه(٣٠٧) .

ثم استولى عماد الدين زنكى فى نفس السنة على بعض بلاد ديار بكر التى كانت فى حوزة جوسلين — أمير الرها(٣٠٨) — وعمل على

---

(301) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1, p. 443.

(٣٠٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٧٢ .

(٣٠٣) زاد التحالف بين فولك ملك بيت المقدس وانر — نائب أتابك دمشق — حينما زار معين الدين انر وأسامة بن منقذ الملك فولك فى عكا ، وأحسن استقبالهما ثم زارا حيفا وبيت المقدس .

(أسامة بن منقذ : الاعتبار ص١٩٦) .

(٣٠٤) زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٧٥ .

(٣٠٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٦هـ

(٣٠٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٧٤ .

(٣٠٧) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٥٨

(٣٠٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٨هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٩٢ .

اصلاح أمورها وأبقى بها حاميـــة من الجند لدرء الأخطـــار التى تتعرض لهـــا(٣٠٩) .

كان للنزاع الذى حدث بين ريموند — صاحب انطاكية — وجوسلين — أمير الرها — وضعف مملكة بيت المقدس على اثر وفاة ملكها فولك ، وعجز خليفته بلدوين الثالث عن المحافظة على وحدة الفرنجة وتوحيـــد كلمتهم ، أثر بالغ فى اتاحة الفرصة مام زنكى لاستئناف الجهـــاد ضـــد الصليبيين(٣١٠) فأعد جيشا لمهاجمة الرها التى كانت من أشرف المـــدن عند النصارى ، وأكثرها محلا(٣١١) .

كانت امارة الرها تشكل خطرا كبيرا على المسلمين(٣١٢) فـــأدى وقعها على خطوط المواصلات بين الموصل وحلب وبين بغـــداد ودول ســـلاجقة الروم فى آسيا الصـــغرى(٣١٣) الى تعرض المسلمين لأخطـــار جسيمة(٣١٤) . كما ان الفرنجة اتخذها قاعدة لشن غاراتهم على البلاد الجزرية(٣١٥) .

رأى عماد الدين زنكى انه اذا ما قصد الرها اجتمع بها من الفرنجة من يعمل على صده ، فيتعذر عليه فتحهـــا(٣١٦) فاتجه الى ديار بكـــر ليوهم الفرنجة انه منشغل عنهم بمحاربة قر أرسلان — أمير ماردين —

---

(310) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 163.
Stevenson : The Crusaders in the East. p. 153.

(٣١١) ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ورقة ٦٢ .
(٣١٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٩هـ .
(٣١٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٩٢ .
(٣١٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص٦٧ .
أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٧ .
(٣١٥) على الرغم من أن الفرنجة اتخذوا الرها قاعدة لشن الغارات على المسلمين فقد يسر موقعها على المسلمين أمر الاستيلاء عليها ذلك أن نهر الفـــرات فصلها عن الامارات الصليبية ، وأحاط بها المسلمون من ثلاث جهات .
(Grouset : Histoire des Croissades. Vol. 2 p. 172).
(316) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 235.

الذى تحالف مع جوسلين الثانى — أمير الرها(٣١٧) — وقد تمكن من انتزاع عدة قلاع فى ديار بكر(٣١٨) أما فيما يتعلق بأمير الرهـــا فانه لم ينشغل عن حليفه أمير ماردين(٣١٩) ، فخرج على رأس جيش كبير عبر به الفـــرات الى البـــلاد الشامية(٣٢٠) ليحـــول دون الاتصال بين حلب والموصل ، وعسكر بقواته فى تل باشر . ولمـــا وقف زنكى على تحركات خصمه جوسلين ، عقد الصلح مع الأراتقة ، وسار الى الرها(٣٢٢) .

لم يترك جوسلين فى الرها حامية كبيرة(٣٢٣) ، بل اعتمد فى الدفاع عنها على السـكان الأصليين من المسيحيين(٣٢٤) على الرغم من قلـــة خبرتهم بشئون الحرب والقتال ، كما تولى الدفـــاع عن المدينة الجنـــد المرتزقة(٣٢٥) .

لمـــا زحف عماد الدين زنكى الى الرها شاهد مدينة تجمع بين حسن التنسيق ، ودقة التحصين(٣٢٦) فأرسل أهلها يعرض عليهم الأمان — لكن زعماء المسيحيين رفضوا ذلك العرض الذى تقدم به زنكى(٣٢٧) أملا فى أن تصـــل اليهم نجـــدات من جوســـلين ، ومن أميرى أنطاكيـــة وبيت المقدس(٣٢٨) .

---

(317) Setton : A History of the Crusades. Vol. I p. 461.

(٣١٨) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٧٦–٢٧٧ .

(٣١٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٦هـ .

(٣٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٩٢ .

(321) Setton : A History of the Crusades. Vol. I p. 461.

(٣٢٢) قبـل أن يصـل زنكى الى الرهـــا ارسـل حمـلة استطلاعية بقيادة صـلاح الدين الياغيسيانى — أمير حماه — لمهاجمة الرها ، غير أن الياغيسيانى ضل الطريق فى ليلة حالكة الظـلام غزيرة الأمطـار ، فلم يبلـغ بقـواته الرها الا بعد أن وصـل اليها عماد الدين زنكى . (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢١٩) .

(٣٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيـوب جـ١ ص٩٣–٩٤ .

(٣٢٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣١هـ .

(325) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 235.

(326) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 461.

(٣٢٧) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٧٧–٢٧٩ .

(328) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 273.

على أن ريموند — أمير أنطاكية — خيب أملهم حين رفض ارسال نجدة اليهم ، أما ميليسند — ملكة بيت المقدس — فأرسلت جيشا الى الرها ، لكنه وصل اليها بعد فتحها(٣٢٩) ، بينما ازدادت قوات عماد الدين زنكى بما انضم اليها من الأتراك والتركمان(٣٣٠) .

حاصرت قوات عماد الدين زنكى الرها من جميع الجهات سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م وحالت دون وصول الأقوات والميرة اليها(٣٣١) ، ونصبت على أسوارها المنجنيقات(٣٣٢) ، وبعد عدة هجمات . تمكن جند الموصل من تحطيم أسوار الرها(٣٣٣) ، ودخلوا المدينة بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوما(٣٣٤) ، وفر أهلها الى قلعتها(٣٣٥) ، لكن هيو — رئيس الأساقفة اللاتين — أمر باغلاق القلعة دونهم(٣٣٦) مما جعلهم يواجهون خطر هجوم قوات زنكى(٣٣٧) .

أما عن زنكى فانه أمر جنده بالكف عن قتال المسيحيين الشرقيين ، بينما حاصرت قواته الفرنجة ، ونكلت بهم(٣٣٨) .

رأى زنكى بعد دخوله مدينة الرها أن يقطعها لزين الدين على كجك وطلب اليه ان يعمل على اصلاح أمورها ونشر العدل بين أهلها(٣٣٩) ،

---

(329) Grousset : Histoire des Croisades. Vol. pp. 179-189.

(٣٣٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٦٨-٦٩ .

(٣٣١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٧٩ .

(٣٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٩٣ .

(373) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. pp. 266-267.

(٣٣٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٩ .

(٣٣٥) ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ورقة ٦٢ .

(٣٣٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٦٨-٦٩ .

(٣٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص٩٤ .

Runciman : A History of the Crusades, Vol. 2 p. 273.

(٣٣٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٧٩ .

ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٧٩ .

(٣٣٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٤ .

ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٦٩ .

Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 237

فسار زين الدين فى أهل الرها سيرة حســنة(٣٤٠) ، وشملهم بعنايتــه ورعايته ، فطابت نفوسهم(٣٤١) وانضموا الى المسلمين فى الدفــاع عن المدينة ضد هجمات الفرنجة الذين يخالفــونهم فى مذهبهم الدينى(٣٤١) ، وهكــذا عادت الرها الى حالهــا الأول مدينــة مسيحية يحكمهــا أمراء مسلمون(٣٤٣) .

علت مكانة زنكى بعــد ذلك الانتصــار الرائع الذى أحــرزه على الصليبيين فمنحه الخليفة العباسى الهدايا ، ولقبه بطل الاسلام : الملــك المظفر منصور قاهر الكفرة والمتمردين(٣٤٤) .

كان لسقوط الرها آثار بعيدة المــدى على المسلمين ، اذ انها أول امارة صليبية قامت فى الشرق ، ولم يعد الفرنجة بعد زوالها الا بــلاد تقع على ساحل البحر المتوسط كما ان سبل الاتصال بين حلب والموصل صارت آمنــة(٣٤٥) .

لم يكتف عماد الدين زنكى بفتح الرها ، بل عول على انتزاع أعمالها من جوســلين الثــانى ، فســار الى سروج(٣٤٦) — التى تعتبر ثانى الحصون الصليبية الكبيرة الواقعــة شرقى الفــرات — . ويذكــر ابن القلانسى(٣٤٧) أن هذا الحصن كان محصنا تحصينا قويا ، فلما نزل زنكى عليه ، قطع عنه سائر ما يصل اليه من المؤن والمعدات حتى اســتولى عليه(٣٤٨) ؛ كما امتلك زنكى البلاد والمعاقل التى كانت فى حوزة جوسلين

---

(340) Vasileiv, History of the Byzantine Empire. p. 418.

(٣٤١) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ص١٠١ .
Setton, A History of the Crusades. Vol. 1. p. 461.

(٣٤٢) ابن القلانسى : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٤ .

(343) Grousset, Histoire des Croisades, Vol. 2 pp. 190-191.

(٣٤٤) سبط ابن الجوزى : مراة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول جـ٨ ص٩٢ .

(345) Cambridge Medieval History Vol. 2 p. 307.

(٣٤٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٩هـ .

(٣٤٧) ذيل تاريخ دمشق ص٨٤ .

(٣٤٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٦٩-٧٠ .
Runciman, A History of the Crusadls, Vol. 2. p. 237.

على نهر الفرات(٣٤٩) حتى لم يبق لهذا الأمير الصليبى سوى البيرة التى تتوافر فيها المؤن والذخائر(٣٥٠) فحاصرها عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م غير ان الفرنجة قاوموه مقاومة عنيفة ، واضطر زنكى الى رفع الحصار عنها . وعاد الى الموصل(٣٥١) لاقرار أمورها الى وضعها الصحيح(٣٥٢) بعد محاولة السلطان السلجوقى ألب أرسلان الاستئثار بالسلطة فى أتابكيته(٣٥٤) .

انتهز حسام الدين تمرتاش — أمير ماردين — فرصة رفع زنكى الحصار عن البيرة وعودته الى بلاده ، وسار الى البيرة ، وشدد الحصار عليها ، وحال دون وصول المؤن والذخيرة اليها(٣٥٥) ، ولما عجز أهلها عن مقاومته ، رأوا أن من الخير تسليم بلدتهم لأمير ماردين خشية من وقوعها فى يد زنكى(٣٥٦) وهونو التمرتاش أمر الاستيلاء على البيرة(٣٥٧) وهكذا لم يبق بيد الفرنجة أى بلد شرقى الفرات(٣٥٨) .

كان للهزائم التى ألحقها جند الموصل والجزيرة بالصليبيين فى الشام أثر بالغ فى نفوسهم(٣٥٩) فعولوا على الانتقام من المسلمين ، ففى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م اجتمع حشد كبير من الصليبيين بنواحى أنطاكية لاستعادة الرها وأعمالها(٣٦٠) كما ان سكان الرها من الأرمن أرسلوا الى جوسلين الثانى يطلبون منه القدوم الى مدينتهم واستعادتها وخاصة أن زنكى ترك

---

(٣٤٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص٢٨٠-٢١٨ .

(٣٥٠) ابن الأثير : التاريخ فى الدولة الاتابكية ص٧٠-٧١ .

(٣٥١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص٢٨٠ .

(٣٥٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٠-٢١٨ .

(٣٥٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٩هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص٩٦ .

(354) Setton, A History of the Crusades. Vol. 1. p. 461.

(355) Gibb, The Damascus Chronicle of the Crusades, p. 288.

(٣٥٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٠ .

(٣٥٧) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص١٠٢ .

(358) Runciman, A History of the Crusades. Vol. 2, p. 238.

(٣٥٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص٢١٨ .

(360) Setton, A History of the Crusades, Vol. 1 p. 461.

حامية صغيرة(٣٦١) ، ولما علم عماد الدين زنكى بذلك بلغت جموع الصليبيين ، وألحق بهم هزيمة ساحقة(٣٦٢) ، وردهم على أعقابهم ثم سار الى الرها وقضى على المتآمرين(٣٣٦) .

كذلك عول زنكى على محاربة حسام الدين تمرتاش — صاحب ماردين — لاعتقاده أنه تحالف مع الفرنجة الذين مكنوه من ضم البيرة(٣٦٤) الى حوزته ، فهاجم ماردين ، واستولى على بعض أعمالها ، ثم سار نحو الجنوب سنة ٥٤١هـ(٣٦٥)/١١٤٦م لمحاربة بسالم بن مالك — صاحب قلعة جعبر ، وهو من حلفاء الفرنجة — غير أن زنكى ما لبث أن وافته منيته ، إذ قتله أحد غلمانه من أصل فرنجى ، وزنكي من أبطال الاسلام قلما يأتى التاريخ بمثلهم ، وقد عبر أحد شاهدى العيان عن الفاجعة المروعة بقوله للقاتل : لقد قتلت المسلمين جميعا بقتله .

استقر رأى جوسلين الثانى — بعد مقتل عماد الدين زنكى على استرداد البلاد التى انتزعت منه(٣٦٧) ، فأرسل الى أهل الرها سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م يحرضهم على العصيان ، وتسليم البلد اليه ، فأجابوه الى ذلك(٣٦٨) ، وسار الى الرها ، واستعادها(٣٦٩) ، غير أن جند عماد الدين زنكي اعتصموا بالقلعة ، ورفضوا تسليمها الى الفرنجة(٣٧٠) وسار سيف الدين غازى بن زنكي — الذي خلف أباه فى حكم الموصل — الى الرها لنجدتها(٣٧١) ، كما زحف اليها أخوه نور الدين محمد

---

(٣٦١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٢ .

(٣٦٢) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٨١ .

(٣٦٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٢ .

Runciman, A History of the Crusades, Vol. 2. p. 239.

(٣٦٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٨٤–٨٦ .

(٣٦٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص ٩٨–٩٩ .

(٣٦٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٨٢ .

(٣٦٧) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١١٠

(٣٦٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٤١هـ .

(٣٦٩) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول جـ٨ ص١٩٢ .

(٣٧٠) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص١٩٠ .

(371) Grousset : Histoire des Croissades Vol. 2. p. 203.

— صاحب(٣٧٢) حلب . فلما بلــغ ذلك جوسلين ، وأيقن بعجــزه عن التصدى للقوات الاسلامية عاد أدراجه(١٧٣) .

وبذلك فشلت محاولة جوسلين استعادة الرهـــا ، لكنه لم يلبث — رغم تلك الهزيمة التى حلت به — أن واصل سياسته فى العمـــل على استرداد هذه المدينة ، فأرســـل الى البابا يوجين الثالث يســـتنجده ، ويطلب منه انفـــاذ حملة تمكنـــه من اســـتعادة البـــلاد التى انتزعهـــا منه المسلمون(٣٧٤) ، وكان البابا قد وقف على ضعف شـــأن الفرنجة فى بلاد الشام من الحجاج والقادمين من بيت المقدس الى أوربا(٣٧٥) ، فقرر الدعوة الى حرب صليبية جديدة ، ولقيت دعوته موافقـــة كنراد الثالث — امبراطور المانيا — ولويس الرابع — ملك فرنسا(٣٧٦ .

ســـارت حملة صليبية ثانية الى بلاد الشـــام سنة ٥٤٣هـ/١١٤٧م على رأسها كونراد الثالث — امبراطور المانيا — ولويس السابع — ملك فرنسا — واتجهت الى هذه البلاد عن طريق آسيا الصغرى(٣٧٧) ، غير انها لم تقم بالمهمة التى جاءت من أجلها وهى استرداد الرهـــا(٣٧٨) ، واستعادة شمال الشام ، وانما عمدت الى مهاجمة دمشق(٣٧٩) ، على الرغم من أن أتابكة دمشق حرصوا على صداقة الفرنجة فى بلاد الشام(٣٨٠) وذلك تحت تأثير مملكة بيت المقـــدس وأطماعهـــا فى التوسع ، اذ أدرك حكام بيت المقدس الأهمية العسكرية والاقتصادية لمدينة دمشق(٣٨١) .

---

(٣٧٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص٨٦ .

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, p. 418.

(374) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 466.

(375) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 247.

(376) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 467.

(377) Ibid : Vol. 1. p. 406.

(٣٧٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٣هـ .

(٣٧٩) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١١٢ .

(٣٨٠) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص١٢٧ .

(٣٨١) ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ورقة ٩٠ .

Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 406.

اجتمع شمل هذه الحملة عند طبرية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨ ثم سارت عن طريق بانياس الى غوطة دمشق(٣٨٢) فأعد معين الدين انر — نائب أتابك دمشق — العدة لصدها ، وبعث الى سيف الدين غازى — أتابك الموصل — يستنجده ، فسار الى دمشق على رأس عشرين ألف مقاتل(٣٨٣) وانضموا الى نور الدين محمود — صاحب حلب — فنزلوا بمدينة حمص(٣٨٤) . وكتب سيف الدين غازى الى معين الدين انر يقول له : « قد حضرت ومعى كل من يحمل السلاح فى بلادى ، فأريد أن تكون نوابى فى مدينة دمشق ، لأحضر وألقى الفرنج ، فان انهزمت دخلت وعسكرى البلد ، واحتمينا به ، وان ظفرنا فالبلد لكم لا ينازعكم فيه أحد(٣٨٥) ، كما أرسل سيف الدين غازى الى الفرنجة يطلب منهم الكف عن مهاجمة دمشق(٣٨٦) ويتوعدهم بالحرب .

كذلك حذر معين الدين انر الفرنجة المقيمين فى بلاد الشام من سيف الدين غازى اذا استمروا فى مهاجمة دمشق(٣٨٧) ، ومن مؤازرة الحملة الصليبية الثانية(٣٨٨) وعرض عليهم النزول عن مدينة بانياس(٣٨٩) فضلا عن أموال كثيرة يمنحها لهم فى مقابل التخلى عن هذه الحملة(٣٩٠).

(٣٨٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول جـ٨ ص١٩٧ .

(٣٨٣) المصدر السابق جـ١ ص١٩٧ .

(٣٨٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٣هـ .

(٣٨٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص٨٩ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١١٢ .

(٣٨٦) ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ورقة ٩٠—٩١

Setton : A History of the Crusade Vol. 1. p. 508.

(٣٨٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص٨٩ .

(٣٨٨) أرسل معين الدين انر الى الفرنجة القادمين الى بلاد الشام يقول : « أن ملك الشرق قد حضر ، فان رحلتم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون » وأرسل الى الفرنجة المقيمين فى بلاد الشام يقول : « بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا ، وأنتم تعلمون أنهم ملكوا دمشق ، أخذ ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، اما ان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين ، وأنتم تعلمون أنه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه فى الشام مقام » .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٨ ص١١٢ .

(٣٨٩) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول جـ٨ ص١٩٨ .

(٣٩٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١١٢ .

Setton : A History of the Crusades Vol. I p. 509.

حاصر الصليبيون مدينة دمشق خمسة أيام ، لكن المدينة صمدت بفضل الامدادات التى تدفقت عليها ، واستطاع أهل هذه المدينة صد هجماتهم على أسوار المدينة(٣٩١) ؛ بينما انتشرت قوات فى غوطة دمشق تهاجم الفرنجة المرابطة بها(٣٩٢) وبلغ من شدة هجماتهم ان اضطر الفرنجة الى نقل معسكرهم من الغوطة الى شرق دمشق ، غير أنهم لم يفيدوا من هذا المكان الذى عسكروا به لعدم وفرة مياهه ، فضلا عن مناعة أسوار دمشق فى هذه الجهة(٣٩٣) . ولما علم الصليبيون أن قوات الموصل وحلب شرعت فى الزحف لنجدة دمشق ، وأن الفرنجة فى الشام اتفقوا مع معين الدين انر على التخلى عنهم(٣٩٤) ، استقر رأيهم على رفع الحصار عن دمشق ، وأبحر الامبراطور الألمانى كنراد الثالث من عكا الى بلاده(٣٩٥) . وهكذا لم تحقق هذه الحملة شيئا سوى انها فقدت كثيرا من جندها وعتادها(٣٩٦) .

لم تقف جهود سيف الدين غازى — أتابك الموصل — فى محاربة الصليبيين عند هذا الحد ، بل اشترك فى انتزاع حصن العزيمة(٣٩٧) من الفرنجة(٣٩٨) ، ذلك أن برتراند — أمير تولوز — عول على الانتقام من ريموند الثانى — أمير طرابلس — لاتهامه بالتحريض على قتل أبيه(٣٩٩) الكونت الفونسو(٤٠٠) ؛ فزحف أمير تولوز الى حصن العزيمة ، وانتزعه من ريموند الثانى(٤٠١) ، وكان ذلك مما حمل هذا الأمير على الاستنجاد

---

(٣٩١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٩٩ .

(392) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 238.

(٣٩٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٣هـ .
Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p. 509.

(٣٩٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ .
Stevenson : The Crusaders in the East. p. 160.

(395) Runciman : A History of the Crusades, Vol. 2 p. 284.

(396) Grousset : Histoire des Croisades, Vol. 2. p. 271.

(397) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 511.

(٣٩٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٣هـ .

(٣٩٩) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص٩٠ .

(٤٠٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١١٤ .

(٤٠١) المصدر السابق جـ١ ص١١٤ .

بسيف الدين غازى ، وبعض أمراء المسلمين(٤٠٢) وطلب منهم أن يعاونوه فى استرداد هذا الحصن ، فأجابوا طلبه(٤٠٣) .

هاجمت القوات الاسلامية حصن العزيمة ، وامتنع به برتراند ، ولما ضيقت عليه هذه القوات الحصار اضطر الى التسليم(٤٠٤) ، وبذلك تيسر للمسلمين الاستيلاء على هذا الحصن ؛ كما وقع فى أيديهم كثير من الأسرى من بينهم برتراند(٤٠٥) .

كذلك انضم أتابكة الموصل والجزيرة الى نور الدين محمود فى الحرب التى نشبت بينه وبين الفرنجة سنة ٥٥٩هـ/١٦٦٣م(٤٠٦) ذلك أن الفرنجة قصدوا مصر فى هذه السنة ، فعول نور الدين محمود على مهاجمة بلادهم وسار لنجدته قطب الدين مودود — أتابك الموصل — وقرا أرسلان بن داود بن أرتق(٤٠٧) ولما اجتمعت قواتهم عند نور الدين محمود ، نازل حارم ، ونصب عليها المنجنيقات ، غير أن قوات الفرنجة ما لبثت أن زحفت اليها واضطرت القوات الاسلامية الى الانسحاب قرب حلب . ومع ذلك فشلت قوات الفرنجة فى تتبعها(٤٠٨) وعادت الى حارم ، فتعقب المسلمون ،وألحقوا بهم الهزيمة ووقع فى أيديهم كثير من أسراهم كان من بينهم بوهمند — صاحب انطاكية(٤١٠) — غير أنه لم يستمر طويلا فى الأسر ، فقد أطلق سراحه بعد أن أدى أموالا كثيرة(٤١١) .

---

(٤٠٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول جـ٨ ص٢٠٠ .

(٤٠٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٩٢ .

(404) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 pp. 207-288.

(٤٠٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٣هـ .

(٤٠٦) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١٤ .

(٤٠٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٥٩هـ .

(٤٠٨) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ١ ص١٥٤ .

Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 551.

(٤٠٩) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — القسم الأول جـ٨ ص٢٤٦ .

(٤١٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص٩٠ .

(٤١١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ٢ ص٢٩٨—٢٩٩ .

Runciman : A History of the Crusades Vol. 2. p. 225-226.

لم تقف جهود قطب الدين مودود فى محاربة الفرنجة عند هذا الحد ، بل انضم الى نور الدين محمود للمرة الثانية فى مهاجمة الفرنجة فتوغلت قوات الموصل وحلب فى أعمال أنطاكية(٤١٢) ، وحاصرت حصن الأكراد — على مقربة من حمص — ونزلوا بعرقة ، كما حاصروا حلب ، واستولوا(٤١٣) عليها ثم فتحت قوات الموصل وحلب ، العريمة(٤١٤) ، وصافيتا(٤١٥) سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م وقصد حصن هونين والحقوا الهزيمة بالفرنجة ، وعاد قطب الدين الى الموصل بعد أن منحه نور الدين محمود الرقة مكافأة له على حسن بلائه فى مناهضة الفرنجة(٤١٦) .

مهدت الانتصارات التى أحرزها كل من نور الدين محمود وقطب الدين مودود على الصليبيين فى أنطاكية السبيل لبعض أمراء بنى أرتق للتوسع فى بلاد الفرنجة فهاجم قرا أرسلان — صاحب حصن كيفا — الأجزاء الشمالية من امارة الرها ونجح فى الاستيلاء على كركر(٤١٧) .

كذلك أسهم أتابكة الموصل والجزيرة فى الحروب التى قام بها صلاح الدين يوسف بن أيوب ضد الصليبيين ذلك أنه لما ازدادت غارات ريجنالد — أمير حصن الكرك — على المدن الاسلامية ، وكثر تعرضه لقوافل المسلمين المتجهة الى مصر أو القادمة منها(٤١٨) ، عول السلطان صلاح الدين على مهاجمة هذا الحصن ، وانضم اليه قرا أرسلان — صاحب حصن كيفا وآمد(٤١٩) — وعندما اشتد حصار المسلمين لحصن الكرك ، استنجد صاحبه بالفرنجة ، فخرج لنجدته ريموند الثالث — أمير

---

(٤١٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص٩٠ .

(٤١٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جا ص١٥٣ .

(٤١٤) العريمة : قال أبو عبيدالله السكونى وبين أجا وسلمى موضع يقال له العريمة وهو رمل وبه ماء يعرف بالعبسية .
(ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٦ ص١٦٤) .

(٤١٥) صافيتا : قرب بلدة عرقة آخر عمل دمشق شرقى طرابلس .
(المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول جا ص١٠٠) .

(416) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 165.

(٤١٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢هـ .
Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p. 5512.

(٤١٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٠هـ .

(٤١٩) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٥٣ .

أنطاكية — فاضطر المسلمون الى رفع الحصار عن الحصن ، وسارت قواتهم الى نابلس ، فأحرقوها ودمروها ، ثم عادوا الى دمشق سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م(٤٢٠) .

ولما خرج صلاح الدين لحصار حصن الكرك سنة ٥٨٣هـ/١١٧٧م سار أتابكة الموصل والجزيرة وديار بكر لنجدته(٤٢١) كما عهد هذا السلطان لمظفر الدين كوكبورى — صاحب حران والرهاء — بالمسير الى عكا لمهاجمتها(٤٢٢) فزحف اليها ، واشتبك مع الفرنجة فى معركة انتهت بانتصار قواته ، واستيلائها على كثير من الغنائم(٤٠٣) .

واصل صلاح الدين الحرب ضد الصليبيين سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، فأرسل الى أمراء الموصل والجزيرة وديار بكر يستنفرهم ، ويحثهم على سرعة القدوم الى بلاد الشام ، فأجابوا طلبه ، ويذكر ابن شداد(٤٢٤) أن السلطان صلاح الدين سر كثيرا لقدوم هؤلاء الأمراء وأكرم وفادتهم ومنحهم الهدايا ، وسارت(٤٢٥) القوات الاسلامية المتحالفة الى حصن الاكراد واستولت عليه ، ثم هاجمت أنطرطوس واعملوا فيها التخريب ، واستولوا على جبلة ، ثم قصدوا اللاذقية وضموها الى حوزتهم ، كما فتحوا حصون صهيون باكاس الشغر وسرمينية(٤٢٦) وبرزية وانتزعت القوات الاسلامية الى جانب ذلك درب ساك فى نهر العاصى وبغراس ، ولما عقد صلاح الدين هدنة مع بوهمند الثالث — أمير أنطاكية — أذن لعسكر الموصل والجزيرة بالعودة الى بلادهم ، وكافأ حلفاءه ، وأجزل لهم العطاء(٤٢٧) .

واستطاع صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يعد العدة لحرب شاملة ضد الصليبيين ، وسانده فى ذلك أتابكة الموصل والجزيرة ، ذلك أن ارتباط

---

(٤٢٠) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ ص٥٥ .
(٤٢١) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب جـ٢ ص١٣٩–١٤٩ .
(٤٢٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ ص٤٨ .
(٤٢٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٣هـ .
(٤٢٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص١٣٦ .
(٤٢٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٤هـ .
(٤٢٦) العماد الكاتب : الفتح القسى فى الفتح القبطى ص٢٤٠ وما بعدها .
(٤٢٧) نفس المصدر ص ٢٦٢ .

ــ أمير أنطاكية ــ بعد أن وقع أسيرا فى أيدى المسلمين سنين عـــددا ، تـــزوج من اتيننت دى ميلى Etiennette de Milly وريثـــة صـــاحب الأردن ، وأطلقت يده فى حكم الأردن وحصنى الكرك والشوبك(٤٢٨) .

وتعرض ارناط للقوافل الاسلامية السائرة بين دمشق والقاهرة مارة بحصنه ، كما جرد حملة سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م على الجزيرة العربية ، لكن قوات صلاح الدين أحبطت هذه المحاولة ، وعلى الرغم من ذلك « فقـــد ظل ارناط يهاجم المسلمين ، وأرسل اسطولا الى شواطىء الحجـــاز ، الا أن العادل ــ نائب صلاح الدين فى حكم مصر ــ أرسل قوات شـــتت شمل الصليبيين شمال ينبع ، وأسرت الكثير منهم ، وفر الباقـــون وعلى رأسهم أرناط(٤٢٩) .

لذلك طلب أرناط من صلاح الدين عقد هدنة بينهما ، فوافق السلطان الأيوبى ، وعادت القوافل الاسلامية الى المرور بين مصر والشـــام عبر صحراء الاردن فى أمن وطمأنينة ، ولكن أرناط لم يلبث أن نقض الهـــدنة ، وعاد مرة أخرى الى أعمال السلب والنهب ، فهاجم قافلة اسلامية متجهة من القاهرة الى دمشق ومحملة بالنعـــم الجليلة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٦م ، واستولى على ما فيها من نفائس ، ونهب أفـــراد القافلـــة ، وزجهم فى حصن الكرك(٤٣٠)

حاول صلاح الدين انقاذ أسرى القافلة ، فطلب من ارناط اطـــلاق سراحهم ، وارسال الأموال التى اغتصبها ، ولكنه رفض ، فارسل الى جاى لوزجنان ــ ملك بيت المقدس ــ يطلب منه بذل مساعيه الحميـــدة لدى أرناط للافراج عن الأسرى ، واطلاقه الأموال ، وفشـــل ملك بيت المقدس فى اقناع أرناط ، وفى هذا ما يدل على أن صلاح الدين أراد حـــل المشكلة سلما ، ولمـــا أصر أرناط على العناد نذر دمه وأعطى الله عهدا أن ظفر به أن يستبيح مهجته(٤٣١) .

---

(428) Setton : A History of the Crusades. 1. p. 581.

(429) Stevenson : The rusaders in the East. p. 226.

(٤٣٠) المقريزى : السلوك جـ١ ص٩٢ .

(٤٣١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص١٨٥ .

شن صلاح الدين عدة حملات استطلاعية على المواقع الصليبية ، فأدرك قادة الصليبيين مدى الخطر الذى يتهددهم من المسلمين ، فدخل ريموند الثالث — أمير طرابلس — فى طاعة الملك جاى لوزجنان واتفق معه على أن يعمل تحت قيادته فى مواجهة أى هجوم اسلامى ، وعسكر الصليبيون فى صفورية — قرب عكا — ومعهم صليب الصلبوت فعول صلاح الدين على استدراج الصليبيين الى طبرية ، فهاجمها ، وكان يحكمها أشيفا — زوجة ريموند الثالث .

لذا رأى الصليبيون خطورة الموقف ، واتجهوا الى طبرية ، وضمت الحملة ارناط ، وجاى لوزجنان — ملك بيت المقدس — وجيرار دى ريد فورت مقدم الداوية ، وريموند — أمير طرابلس(٤٣٢) .

اجتمع الصليبيون واحتشدوا للدفاع عن اماراتهم ، واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ، ولم تغن عنهم من الله شيئا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، ثم ساروا من عكا الى صفورية ، وصار صلاح الدين وجنده وعسكر فى موضع مجاور لطبرية ، وصعد المسلمون جبلها وتقدموا حتى اقتربوا من الصليبيين فلم ير منهم أحدا ، ولا فارقوا خيامهم ، وأمر صلاح الدين فرقة من جنده بمنع الصليبيين من القتال ، بينما هاجم طبرية ، وشدد هجماته عليها ، حتى استولى على المدينة عنوة ، ولجا من بها الى القلعة ، واعتصموا بها ، وأطلق صلاح الدين لجنده العنان فى نهب البلدة واحراقها ، عندئذ تقدم الصليبيون نحو معسكر المسلمين حتى اقتربوا منهم ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر ، ولم يتمكن الصليبيون من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين ، وكانوا قد أيقنوا ما هناك من ماء الصهاريج ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين ، فبقوا على حالهم الى الغد ، وقد أخذ منهم العطش كل مأخذ ، وقد أدرك المسلمون ذلك ، وتأكدوا أنهم فى وضع أحسن بكثير من وضع العدو ، فباتوا يحرض بعضهم بعضا ، وقد وجدوا ريح النصر والظفر ، وكلما رأوا حال العدو السىء وخذلانهم زاد طمعهم جرأتهم ، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم(٤٣٣) .

---

(432) Stevenson : The Cruaders in the East p. 245.

(٤٣٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٣ .

وأصبح صباح يوم السبت من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م تجمع المسلمون . وتقدموا بقيادة القائد صلاح الدين ، واقتربوا من الصليبيين ، وكان حالهم قد ازداد سوءا بعد أن اشتد بهم العطش ، ودارت رحى معركة بين الفريقين ، وحمى وطيس القتال ، وحاول بعض جند العدو الاقتراب من طبرية حيث الماء ، فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم . وأمر جنده بالحيلولة بين العدو وبين الماء ، وطاف صلاح الدين بنفسه على المسلمين يحرضهم على مواصلة القتال ، والجهاد فى سبيل الله فأتمر المسلمون بأمره ، ووقفوا عندنهيه ، فهاجم المسلمون — بعد أن استثار القائد حماسهم — أعداءهم حملوا عليه حملة منكرة ، انهكوا قوى العدو ، وقتل منهم كثيرين . ولما رأى الصليبيون أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين . حاول بعضهم فتح طريق يخرجون منه . وكان بعض المتطوعة قد أشعل فى تلك الارض نارا ، وكانت الأعشاب والحشائش كثيرة ، فاحترقت ، الريح ، فحملت حر النار والدخان اليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال ، وأسقط فى يد الصليبيين بعد الهزيمة ، كادوا يستسلمون ، لذلك رأوا أنهم لا يستطيعون النجاة الا اذا شنوا حملات انتحارية على المسلمين . وفعلا هاجموا المسلمين بضراوة وعنف ، الا أن المسلمين — الذين عقدوا العزم على مواصلة النضال مهما كانت التضحيات — تصدوا لهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، حتى وهنوا وضعفوا وتخاذلوا ، وأدركوا أن الهزيمة لاحقة بهم لا محالة وأحاط بهم المسلمن احاطة الدائرة بقطرها ، فصعد من استطاع من الصليبيين الى تل بناحية حطين ، وارادوا أن ينصبوا خيامهم ، ويحصنوا نفوسهم به ، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ، واستولى المسلمون على صليبهم الاعظم المسمى صليب الصلبوت(٤٣٤) .

وأعمل المسلمون فيهم السيف حتى أفنوهم ، وبقى ملك بيت المقدس الصليبى على التل مع مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين الشجعان وأسر المسلمون الملك الصليبى وفرسانه عن بكرة أبيهم ، ومن

---

(٤٣٤) يعتقد المسيحيون أن بهذا الصليب قطعة من الخشب صلب عليها المسيح عليه السلام وكان استيلاء المسلمين عليه من أعظم المصائب عند المسيحيين وأيقن الصليبيون بعده بالقتل والفناء والهلاك .

بين الأسرى أرناط ــ أمير الكرك ــ ولم يكن من بين الصليبيين أشـد عـداء للمسلمين من هذا الرجل ، وأسر المسـلمون جمـاعة من الداوية والاسبتارية وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا(٤٣٥) .

نزل صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد هذا النصر المبين فى مخيمه ، وأحضر ملك بيت المقـدس عنده ، وأمراء الصليبيين ومن بينهم أرناط ، وأجلس صلاح الدين ، الملك الصليبى الى جانبه ، وقد أهلكه العطش . وأضناه القتال ، فسـقاه ماء فشرب ، وأكـرمه ، وقال : ان الملـوك لا تتعرض للملوك بسوء ، ولكن صلاح الدين رفض أن يسقى أرناط ، ثم ذكره بذنوبه وآثامه وأخطائه الجسيمة حيال المسلمين ، وقام اليه بنفسه، وقتله وقال : كنت نذرت دفعتين أن أقتله ان ظفرت به ، احداهما لمـا أراد المسير الى مكة والمدينة ، والثانية لمـا تعرض للقافلة الاسـلامية بالسلب والنهب .

لمـا فرغ صلاح الدين من هزيمة الصليبيين أقام بموضعه باقى يومه وفى يوم الأحد عاد الى طبرية ونازلها ، فأرسلت صاحبتها اشيفا تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها الى ذلك .

وغادرت البلدة مع جماعتها فى أمن وطمأنينـة ، ثم أمر صلاح الدين بارسال الملك الصليبى والأمراء والفرسان الصليبيين الى دمشق ، وأمر بقتـل الأسرى من الداوية والاسبتارية ، لأنهم أشد شوكة من جميـع الصليبيين ، فأراح المسلمين من شرهم المستطير ، وأمر نائبه فى دمشق بقتل من دخل البلدة منهم .

بعد ان استولى صلاح الدين على طبرية ، اتجه الى عكا ، وحاول أهلها الدفاع عنها ، ولمـا رأوا قوات المسلمين فزعوا وجزعوا ، وخرج كثير من أهل عكا يضرعون ويطلبون الأمان ، فأجابهم الى ذلك ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وآثروا الخروج عن البلدة خوفا من المسلمين بما خف حمله ، وغلا ثمنه من الأمتعة والعتاد ، ودخل صلاح الدين عكا ،

---

(٤٣٥) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة٥٨٣هـ .

وغنم المسلمون من البلدة مغانم كثيرة لأنها كانت مقصد التجار الصليبيين والروم وغيرهم(٤٣٦) .

بعد ان استولى صلاح الدين على طبرية وعكا ، تفرق جنـــده فى البلاد التى كانت فى أيدى الصليبيين مثل الناصرة وقيسارية وحيفا وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ، وامتلك العادل — نائب صلاح الدين فى مصر — مدينة يافا عنوة ، بينما سار صلاح الدين الى صيدا ، فلمـــا سمع صاحبها بمسير القائد المنتصر الى البلدة ، أسقط فى يده ، وغادر البلدة وتركها من غير مدافع ، فلما بلغ صلاح الدين تسلمها ثم سار الى بيروت ، لكنه رأى أهلها قد صعدوا على سورها وتأهبوا للدفاع عنها ، وقاتلوا المسلمين قتالا شديدا(٤٣٧) ، الا أن المســلمين لم يخشـــوا من حملاتهم ، بل شددوا هجماتهم عليهم ، حتى وهنوا وضعفوا وأرسلوا الى صلاح الدين يطلبـــون الأمان على أنفسهم وأموالهم ، فاستجاب لهم ، واستولى على المدينـــة بعد حصـــار دام ثمانية أيام ، وأما جبيـــل فان صاحبها كان فى جملة الأسرى الذين سيقوا الى دمشق ، وأطلقه صلاح الدين بعد ان تنازل عن جبيل للمسلمين(٤٣٨) .

وبذلك استولى صلاح الدين على معظم المدن والقـــلاع والمراكـــز الساحلية فى جنوب بلاد الشـــام ، الا أنه ترك من فيهـــا من الصليبيين أحرارا ، وأذن لهم بالمقام فى البلاد التى استولى عليها ، أو مغادرتهـــا فقصد معظمهم الى صور حيث احتشدت الجماعات المتخلفة من مملكـــة بيت المقدس الصليبية وقد أدى ذلك الى صعوبة التغلب عليها ، الأمر الذى لم يغب عن ذهن السلطان صلاح الدين ، فأزمع تأجيل مهاجمتهـــا والاتجاه الى غيرها(٤٣٩) .

ولمـــا استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وغيرهما ، عـــول على المسير الى عسقلان والقدس ، وعســـقلان لها أهمية استراتيجية لصلاح الدين لأنها على طريق مصر . وأيضا تيسر له الزحف الى القدس ،

---

(٤٣٦) ابو شامة : الروضتين ج٢ ص١١٥ .
(٤٣٧) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص٢٥ .
(٤٣٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ص١٢٦ .
(٤٣٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٨١٧ .

وكان صلاح الدين يفضـــل أن تتصل الولايات له ليسهل خروج الجنـــد منها ، ودخـــولهم اليها ، فســـار عن بيروت نحو عسقلان ، واجتمـــع بأخيه العادل ومن معه من جند مصر ، وهاجموهـــا ، وكان صلاح الدين قد أحضر أسيريه الملك الصليبى ، ومقدم الداوية من دمشـــق ، وطلب منها أن ييسرا له استلام البلـــدة مقابل أن يفرج عنهما ، فأرسل الأسيران الى الصليبيين المحاصرين فى عســـقلان يطلبـــان منهـــم التســـليم فلـــم يستجيبوا لطلبهما ، وردوا عليهما أقبح رد ،فلما رأى السلطان صـــلاح الدين ذلك شدد هجماته على عسقلان ، ونصب المنجنيقـــات عليهمـــا ، وضرب المدينة بعنف وضراوة حتى أيقن أهلها بعدم استطاعتهم الصمود أمام ضربات المسلمين القوية ، فأجابهم صلاح الدين اليها وسلموا المدينة للمســـلمين بعد حصار دام أربعـــة عشر يوما ، وسيرهم صـــلاح الدين ونســـاءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقـــدس ، ووفى لهم بالأمان . وأعقب الاستيلاء على طبرية ، فتح البلاد المجاورة لها مثل الرملة وغزة ومشهد ابراهيم الخليل وبيت لحم وغيرها(٤٤٠) .

كان لابد لصلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو القائد الذى بذل كل جهده لتحرير الأرض الاسلامية المغتصبة أن يتوج انتصاراته الرائعـــة على الصليبيين بالعمل على استرداد بيت المقدس الذى انتزعه الصليبيون من المسلمين فى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، وفعلا أعد صلاح الدين العدة لاسترداد بيت المقدس بعد أن استولى على عسقلان وما يجاورها ، فأمر قائـــد اسطوله فى مصر بالاقـــلاع الى سواحل الشام لمنع وصـــول الامدادات الى الصليبيين فى الشام عبر البحر المتوسط ، وهاجم صلاح الدين المدينة المقدسة ، واحتشـــد الصليبيـــون للدفاع عنها ، واجتمعـــوا من كل مكان للدفاع عن البلدة بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على النضال ، ونصبوا المنجنيقات للحيلولة بين أعدائهم وبين البلدة ودارت مناوشات بســـيطة ، ثم هاجم صـــلاح الدين البلـــدة من ناحية الشـــمال ونصب المنجنيقات ، ورمى بها ، ودار قتال شديد ، ولمـــا رأى الفرنج شدة قتال المسلمين . وتحكم المنجنيقـــات بالرمى المتدارك ، وتمكن المســـلمين من احداث ثغرات فى سور البلدة ، وأنهم أشرفوا على الهلاك ، اتفق كبارهم على طلب الأمان ، وتسليم بيت المقـــدس الى صلاح الدين ، فأرســـلوا

---

(٤٤٠) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٣هـ .

جماعة من كبرائهم وأعيانهم فى طلب الأمان ، فأظهر صلاح الدين امتناعا، ولكن باليان قال للسلطان : اعلم أننا فى هذه المدينة فى قلق كثير ، وانما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجيبهم اليه ، وهم يكرهون الموت ، ويرغبون فى الحياة ، فاذا رأينا الموت لابد منه فلابد أن نقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نتركك تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة ، واذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوان الا قتلناه ، ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه . وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله . ونموت أعزاء(٤٤١) .

رأى صلاح الدين استلام المدينة صلحا بعد ان انهكت الحرب جنده وبعد ان ايقن اعتزام الصليبيين الحرب اذا لم يوافق على الصلح ، فبذل للصليبيين الأمان ، وكان الرجل منهم يفتدى نفسه بعشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقير ، والمرأة خمسة دنانير ، والطفل دينارين وأمهلهم أربعين يوما ، يغادرون خلالها البلدة بعد ان يؤدوا المبلغ الذى قرره عليهم ، وغادروا البلدة بأمتعتهم ، وتسلمها المسلمون فى السابع والعشرين من رجب ، وكان يوما مشهودا ، ورفعت الأعلام الاسلامية على أسوار القدس ، وترك الصليبيون ما لم يستطيعون حمله من معداتهم وذخائرهم وأمتعتهم وأموالهم وباعوا ذلك بأرخص الأسعار ، وترك صلاح الدين النصارى من أهل القدس الأصليين يعيشون فى كنف الحكم الاسلامى فى أمن وسلام(٤٤٢) ، كما كان الحال منذ فتح القدس فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وتم هذا الفتح سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م .

لما استرد صلاح الدين القدس عمر البلدة التى خربتها ودمرتها قوى البغى والعدوان ، ولقد ذكرنا أن صلاح الدين استرد القدس فى ليلة المعراج المنصوص عليها فى القرآن الكريم ، ويذكر ابن شداد أن هذا الفتح العظيم شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ،

---

(٤٤١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص٢١٢ .
(٤٤٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٣هـ .

وذلك ان الناس لما بلغهم أنباء هذا النصر ، قصد العلماء من مصر ومن الشام القدس وارتفعت الأصوات بالدعاء والضجيج والتهليل والتكبير ، وخطب فى المسجد الأقصى ، وصلى فيه الناس يوم فتحه ، وأمر القائد بحط الصليب الذى كان على قبة الصخرة ، وجمع صلاح الدين الأموال من الصليبيين الذين غادروا البلدة ، وفرقها على الامراء والعلماء(٤٤٣) .

وبذلك استرد المسلمون القدس ، وكان صلاح الدين — كما رأينا — متسامحا كريما مع الصليبيين ، فلم يعمل فيهم السيف ، كما فعل الصليبيون فى الحملة الأولى عند استيلائهم على القدس .

لما توطدت أقدام المسلمين فى القدس والمدن الساحلية ، اعتزم صلاح الدين فقصد صور ، لأن فتحها كان أمرا لابد منه لأن الصليبيين الفارين من الغزو الاسلامى ، احتشدوا بها ، فضلا عن الامدادات التى كانت تصلها من أوربا ، وهاجم صلاح الدين البلدة ، وضايقها وقاتلها قتالا عظيما ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر ، ولكن الاسطول الصليبى هاجم الاسطول الاسلامى ودمره . وقتل فى هذه الواقعة الكثير من المسلمين ، ورأى صلاح الدين أنه لا يستطيع البقاء طويلا فى المعركة بعد أن هجم الشتاء ، وتراكمت الأمطار . فقرر الانسحاب من البلدة ، ليأخذ جنده قدرا من الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعدادا جديدا ، ففرق العساكر ، وسار كل قوم الى بلادهم ، وكان عددا كبيرا من قواته من بلاد الجزيرة ، انسحبت الى ديارها بعد أن أدت واجبها خير أداء . أما السلطان فقد عاد الى عكا مع جماعة من خواصه حتى دخلت سنة ٥٨٤هـ ، وعادت الحروب الصليبية من جديد .

ذلك أن الانتصارات التى أحرزها صلاح الدين على الصليبيين أحدثت دويا هائلا فى أوربا ، فارتفعت الصيحات مطالبة باسترداد بيت المقدس ، وخرجت من أوربا الى الشرق الحملة الصليبية الثالثة لهذا الغرض ، وتزعمها ثلاثة من كبار ملوك أوربا ، هم فردريك باربروسا — امبراطور المانيا — وفيليب أغسطس — ملك فرنسا — ورتشارد قلب

---

(٤٤٣) النوادر السلطانية ص٦٦ـ٦٧ .

الأسد ــ ملك انجلترا ــ غير أن امبراطور المـــانيا مات غرقا ، وهو فى طريقه الى الشام . لذلك تشتت شمل جنـــده ، ولم يصل منهم الى عكا سوى عدد قليل . أما رتشارد وحليفه فيليب فقد نجحا فى الاستيلاء على عكا . فى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م رغم استبسال المسلمين فى الدفاع عنها . ولم يلبث أن عاد فيليب الى فرنسا ، وبقى ملك انجلترا فى الشام يحارب المسلمين . فاستولى على أرســـوف ويافا وحصنهما من جديد . واعتزم استرداد بيت المقدس . وعلى الرغم من سيطرته على المدن الساحلية ، فانه تفاوض مع صلاح الدين فى الصلح ، وأدت هذه المفاوضات الى صلح الرملـــة .

كانت الحالة فى انجلترا تستدعى عودة رتشارد قلب الأسد اليها . ودب التنافس بينه وبين الأمراء الصليبيين فى الشام ، كما أنه أدرك أنه يتعـــذر عليه الاستمرار فى انتصـــاراته على المسلمين لحرصـــهم على مواصلة النضال لتحرير بلادهم ، لذلك عقد ملك انجلترا صـــلح الرملة مع صلاح الدين ويتضمن الشروط الآتية :

١ ــ تخريب عسقلان لأنها مفتاح بيت المقدس .

٢ ــ يحكم الصليبيون الساحل من صور الى يافا . ويكون جنوبى ذلك الساحل لصلاح الدين ، وتقع فى حدوده بيت المقدس .

٣ ــ يســـمح للمســـيحيين بالحـــج الى بيـــت المقـــدس فى أمن وسلام(١٤٤) .

---

(١٤٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص٣٦٢ .

الحيــاة الثقافيــة فى بلاد الجزيرة

لم يأل أتابكة الموصــل والجزيرة جهدا فى تشــجيع الحــركة الثقافية ، فأنشأوا المدارس وشجعوا أساتذتها وطلابها على تأدية مهامهم ومن أبرز الأدلة على ذلك المدرسة التى أسسها الأتابك سيف الدين غازى فى الموصل — وهى من أحسن المدارس — ووقفهــا على الفقهاء الحنفية والشافعية ، وبنى رباطا للصوفية بالموصل(١) ، وكان عماد الدين زنكى ابن مودود صاحب سنجار يقدر أهل العلم والدين .

كذلك شيد مجاهد الدين قيماز — وزير قطب الدين مودود — المدارس بالموصل ، وكان خيرا فاضلا عالما بالفقه على مذهب أبى حنيفة ، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر شيئا كثيرا(٢) .

وقد نبغ شيوخ فى بلاد الجزيرة قاموا بالتدريس . وتخــرج على أيديهم الكثير من العلماء الأفاضل ، نخص بالذكر منهم أبو العباس أحمد ابن عبدالرحمن بن وهبان المعــروف بابن أفضل الزمان ، وكان عالمــا فى مجــالات شتى مثل الفقه والأصــول والحســاب والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغير ذلك(٣) .

من شيوخ هذه البلاد أبو القاسم يعيش بن صدقة بن على الفراتى ، كان اماما فى الفقه مدرسا صالحا كثير الصــلاح(٤) ، أما الشيخ مكى بن ريان فكان عالما بالنحو واللغة والقراءات ، ولم يكن فى زمانه مثله ، وكان يعرف سوى هذه العلــوم ، اذ عرف بسعة اطلاعــه وتعــدد اهتماماته وتردد عليه الطلاب من كل مكان . وكانت حلقات درسه تعقد فى الصباح المبكر حتى الليل(٥) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٤٤هـ .
(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٩٣هـ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٥هـ .
(٤) المصدر السابق جا ص٥٩٦ .
(٥) المصدر السابق حوادث سنة ٦٠٣هـ .

ومن ابرز علماء بلاد الجزيرة فى العصر الأتابكى الاخوة مجد الدين وعز الـــدين ضياء الدين . وهم أبناء محمد بن محمد بن عبدالكـــريم بن عبدوالحواحد الشيبانى ، وكان موظفا عند أتابكة الموصل منذ حكم عماد الدين زنكى ، وولى ديوان جزيرة ابن عمر من قبل قطب الدين مودود بن زنكى — أتابك الموصـــل — ثم انتقـــل الى الموصل ، وكان من أهـــل الثراء(٦) .

أما مجد الدين ابو السعادات المبارك فقد اتصل بخدمة الأمير مجاهد الدين قيماز ، وكتب بين يديه حتى وفاته سنة ٥٩٥هـ ثم اتصل بخـــدمة عز الدين مسعود .

ولـــا آل ملك الموصل الى نور الدين أرســـلان شاه أرســـل اليه مملوكه لؤلؤ يرجوه قبول الوزارة فأبى ، وقال : قد كبرت سنى واشتهرت بطلب العلم ، ولا يصلح هذا الأمر الا بشىء من العسف والظلم ، ولا يليق بى ذلك فأعفاه . ثم اتصل بنور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود فحظى عنده ، وتوفرت جريته لديه ، وكتب لـــه مدة حتى أقعده المرض ، فاعتزل فى داره ، وظل منزله مقصـــد العلماء والأدباء ، وصنف كتبـــه كلها فى مدة اعتزاله العمل ، وكان عنده جماعة يعينـــونه فى الاختيـــار والكتـــابة ، وقد صنف الشيخ فى سائر العلـــوم كتبا مفيدة نها وجامـــع الأصول فى أحاديث الرسول ، جمـــع فيه الموطأ والصحيحين وسنن ابى داود والنسائى والزمخشرى .

وله كتاب النهاية فى غريب الحـــديث فى خمس مجلـــدات ، وكتاب الأنصاف فى الجمع بين الكشف والكشاف فى أربع مجلدات ، وله كتـــاب المصطفى والمختار فى الأدعية والأذكار ، وكتاب البـــديع ، وله ديـــوان الرسائل ، وكتاب الشافى فى شرح مسند الامام الشافعى ، وبالجملة كان عالما فى عدة علوم منها الفقه وعلم الأصـــول والنحو والحديث واللغـــة وتصانيف مشهورة فى التفسير الحديث(٧) .

أما ضياء الدين فانه ولى الوزارة للملك الأفضـــل صـــلاح الدين

---

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص٢٨٩ .
(٧) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٤ ص٥٤ .

صاحب دمشق — فأساء السيرة ، وثار عليه الناس ، وكادوا يقتلونه ، ولما خرجت دمشق فى يد الأفضل ، التحق بخدمة الظاهر غازى صاحب حلب — ولكنه غضب عليه ، وتنحى عن عمله ، وعاد الى الموصل ، غير انه لم يستمر فى الاقامة بها ، فرحل منها الى اربل ثم سنجار ثم عاد الى الموصل واستقر به المقام هناك ، وشغل وظيفة كاتب الانشاء لناصر الدين محمود بن الملك القاهر .

وترجع شهرة ضياء الدين على الأخص الى أنه كان من أصحاب الأساليب ، ومن أهم كتبه ، كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » ، وهو مجلد قيم فى فن الكتابة ، ولما فرغ من تصنيفه وصلت نسخة منه الى بغداد ، وتصدى لمؤاخذته الفقيه الأديب ابن أبى الحديد المدائنى . وجمع هذه المؤاخذات فى كتاب « الفلك الدائر على المثل السائر » وله كتاب « الوشى المرقوم فى حل المنظوم » وهو كتاب موجز يفيد قارىء الأدب وله كتاب « المعانى المخترعة فى صناعة الانشاء » وله مجموعة شعرية ، تضمنت أشعار أبى تمام المتنبى فى مجلد واحد ، وله أيضا ديوان ترسل فى عدة مجلدات ، والمختار منه فى مجلد واحد ، وله عدة رسائل ، منها رسالة يصف فيها الديار المصرية ، وهى طويلة ، ومن جملتها فصل فى صفة نيلها وقت زيادته ، وهو معنى بديع وغريب(٨) .

وكان لتكوين ضياء الدين الثقافى أكبر الأثر فيما بلغه من سعة فى العلم ، فقد حفظ القرآن الكريم . وكثيرا من الأحاديث النبوية ، ودرس النحو واللغة والبيان ، وشيئا كثيرا من الأشعار ، حتى قال فى أول كتابه الذى سماه « الوشى المرقوم » : وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر أبى تمام والبحترى والمتنبى ، فحفظت دواوينهم ، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعانى ، وصار الادمان لى خلقا وطبعا .. والمنشىء ينبغى أن يجعل دأبه فى الترسل حل المنظوم ، ويعتمد عليه فى هذه الصناعة(٩) .

---

(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٤ ص٢٨ـ٣٢ .

(٩) المصدر السابق جـ٤ ص٢٥ .

وتوفى ضياء الدين فى بغـداد سنة ٦٣٧هـ .

أما عز الدين أبو الحسن على بن محمد فهو الأخ الثانى لمجـد الدين وضياء الدين . ولد عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م فى جزيـرة ابن عمر . وتـوفى فى الموصل سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٤م ، وهو صاحب الكتب التاريخية التى أشهرها « الكامل فى التاريخ » وصنف كذلك تاريخا لدولة أتابكة الموصل والجزيرة يسمى « التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية » كما صنف معجما مرتبا على حروف الهجاء عن الصحابة عنوانه « أسد الغابة فى معـرفة الصحابة » ولخص كتاب الأنساب للسمعانى بعنوان اللباب ، على أن كتابه الكامل فى التاريخ أهم مؤلفاته جمعا بل من أبرز المراجع التاريخية قاطبة ، وينتهى بحـوادث سنة ٦٢٨هـ .

تلقى عز الدين العلم فى الموصل وفى بغداد ، كما رحـل الى بـلاد الشام ، ووقف بقية حياته على العلم الذى انقطـع له ، وقد اسـتفاد ابن الأثير من شيوخ عصره بالجزيرة والعراق والشام ، فسمع بالموصـل من خطيبها عبدالله بن أحمد الطوسى ، وسمع ببغـداد من أبى القاسم يعيش بن صدقة الفقيه الشافعى ، وأبى أحمد عبد الوهاب بن على الصوفى ، وسمع بدمشق من بعض العلماء ، وعاش ابن الأثير منقطعـا الى العلم تحصيلا وتدريسا وتصنيفا ، وقد قام بمهمة السفارة لبعض حكام الموصل لدى المسئولين فى بغداد .

وقد روى عن ابن الأثير غير واحـد من جلة العلماء ، فقد ذكـر ابن خلكان أنه لقيه فى حلب ،وتتلمذ عليه ، وروى عنه أيضا(١١) .

قلنا ان كتاب الكامل فى التاريخ لعز الدين بن الأثير أشهر مصنفاته، ويقع فى اثنى عشر جزءا ، وكان جل اعتماده فى الأجزاء السبعة منه على أبى جعفـر الطبرى ، وقد اختصر الطبرى ، فحفظ الأسـانيد ، وترك الاسهاب . واكتفى بالرواية الواحـدة ، وهـذا أمر ييسر للقارىء مهمته ، خصوصا أن صاحبنا لا يذكر الا الرواية المرجحة ، ولم يعتمد ابن الأثير على كتاب « تاريخ الأمم والملوك » للطبرى فقط بل اعتمـد كذلك .

---

(١٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص٢٠٨ .
(١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص٢٠٨ .

كتب التاريخ الأخرى مثل « فتوح البلدان » للبلاذرى ، ومروج الذهب ، للمسعودى وذلك حرصا منه على ذكر صورة كاملة متكاملة لتاريخه . واعتمد ابن الأثير بعد الجزء السابع من كتابه الكامل — على المراجع التاريخية الأخرى .

والواقع أن ابن الأثير كان حريصا على ذكر الرواية الصحيحة ، وأحيانا ينقد الكتب التى تتناول موضوعات لا يرى دقتها .

وقد أوضح ابن الاثير فى مقدمة كتابه المراجع التى اعتمد عليها ، والأسباب التى دعته الى تصنيف هذا الكتاب ، فيقول شرعت فى تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب ... فابتدأت بالتاريخ الكبير الذى صنفه الامام أبو جعفر الطبرى فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها الى ما نقلته من تاريخ الطبرى ما ليس فيه ووضعت كل شىء منها موضعه ... على أنى لم أنقل الا من التواريخ المذكورة ، والكتب المشهورة ، ممن أعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه(١٢) .

ويقول عن علم التاريخ : « هو الحافظ للعلوم ينقلها من الماضى الى الحاضر والآتى ، الكافل بتبيان صورة تدوينها مع التنويه بأسماء المؤسسين والناشرين والمحققين ، وهو الناقل لنا صور الماضى وما فيه من حوادث وقصص غيرها لتكون خير مرشد للمتأخرين ، هو نعم الداعى الى الفضيلة باذاعة مناقب أرباب الكمال وأولى النهى والمزايا العظيمة . وأحسن زاجر للطغاة عن طغيانهم بما يسود صفحاته من أعمالهم ... وهو السلسلة التى تربطنا بمن قبلنا ، وبما كانوا عليه ، وما صدر عنهم وفيهم من الأحوال والشؤون(١٣) .

وقد تحامل ابن الأثير على الذين يقللون من أهمية علم التاريخ فقال : ولقد رأيت جماعة ممن يدعى المعرفة والدراية ويظن بنفسه التبحر فى العلم والرواية ، يحتقر التواريخ ويزدريها ظنا منه أن غاية فائدتها

---

(١٢) مقدمة كتاب الكامل فى التاريخ .

(١٣) مقدمة كتاب الكامل فى التاريخ .

انما هو القصص والأخبار ، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار ، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره .. ومن رزقه طبعا سليما وهداه صراطا مستقيما علم أن فوائدها كثيرة .....

فمنها أن الانسان لا يخفى أنه يحب البقاء .. فياليت شعرى أى فرق بين ما رآه أمس أو سمعه ، وبين ما قرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ، فاذا طالعها فكأنه عاصرهم . واذا علمها فكأنه حاضرهم(١) .

ومن علماء الموصل المشهورين بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد ، ولد بالموصل ، وتوفى أبوه وهو لا يزال غرا صغيرا ، فنشأ عند أخواله بنى شداد ، فنسب اليهم ، وكان شداد جده لأمه ودرس الدين واللغة والتاريخ والأدب ، وتعمق فى دراسة هذه العلوم ، وقد أهله ذلك لوظائف القضاء والتدريس ، فقد درس فى الموصل ، كما رحل الى بغداد ، ودرس فى المدرسة النظامية على شيوخ هذه المدرسة ، وقد نبغ فى دراسته حتى ان شيوخه عينوه معيدا فى هذه المدرسة ، وعمل بها ثلاث سنوات ، وعاد الى الموصل وصار مدرسا بالمدرسة التى أنشأها القاضى كمال الدين الشهرزورى ، وانتفع بعلمه كثير من الطلاب ، وذاع صيته .

ولما لمس فيه أتابك الموصل رجاحة العقل ، وسداد الرأى ، عهد اليه بالسفارة فى أمور سياسية بالغة الخطورة والأهمية الى صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد الخلافات الشديدة بينه وبين صلاح الدين عقب وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م .

وشرع صلاح الدين فى مهاجمة الموصل بعد أن اتضح له أن أتابكها يحرض أعداءه عليه فتوجه ابن شداد رسولا من أتابك الموصل عز الدين مسعود الى الخليفة العباسى يطلب منه تسوية الخلافات بينه وبين صلاح الدين ، فأنفذ الخليفة شيخ الشيوخ فى بغداد الى صلاح الدين لبذل مساعيه الحميدة لانهاء الخلافات بين الزعيمين .

---

(١٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ .

وفى العام التالى توجه ابن شداد الى صلاح الدن ضمن وفد لتسوية الخلافات بين أتابك الموصل وصلاح الدين ، وعلى الرغم من فشل هذه السفارة ، فانها أدت الى تعرف صلاح الدين على ابن شداد ، وقد قدره ، وعرض عليه أن يقوم بالتدريس فى مصر ، ولكنه اعتذر ، وظل أمير الموصل يعهد الى ابن شداد بمثل هذه المهمات السياسية(١٦) .

ولما استرد صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة القدس ، زارها ابن شداد ، ثم قدم الى دمشق، واستدعاه صلاح الدين ، وأكرم وفادته ، وسأله عن مشايخ العلم ، وطلب منه أن يقرأ له جزء أجمع فيه أحاديث البخارى ، وقدم اليه ابن شداد كتابا ألفه فى أثناء اقامته فى دمشق عن « الجهاد أحكامه وآدابه » فأعجب السلطان صلاح الدين ، وكان يلازم مطالعته ، وعاد صلاح الدين يعرض على ابن شداد الدخول فى خدمته ، فوافق ابن شداد بعد تردد ، ومن ذلك الوقت سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م لم يفارق ابن شداد صلاح الدين ساعة من ليل أو من نهار حتى حضر وفاته وتولى لصلاح الدين وظائف القضاء والحكم بالقدس الشريف(١٦) .

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين ، توجه ابن شداد الى حلب ، وبذل جهودا مضنية لجمع كلمة أولاد صلاح الدين ، ولم يلبث أن تولى القضاء فى حلب ، وظل يواصل محاولاته ، لوقف الخلافات بين أمراء بنى أيوب فى الشام ومصر ، وقام بعدة رحلات بين مصر والشام لهذا الغرض ، وازداد نفوذه زمن السلطان الظاهر وابنه العزيز ، فلم يكن لأحد فى الدولة معه كلام ، ولما بلغ العزيز أشده ، استبد بالحكم ، واستند فى ادارة دولته الى جماعة لم يرض عنها ابن شداد ، فاعتزل السياسة ، ولزم داره ، ودأب على أن يسمع الحديث لمن يقدم عليه من المريدين بعد صلاة المغرب وصلاة العشاء من كل يوم ، ونشطت فى زمنه حركة الدراسة والعلم بفضل ما أنشأه من مدارس ، وتوفى فى حلب سنة ٦٢٢هـ .

ولما كان ابن شداد ثقة عالما بالدين ، فقد اشتهر اسمه ، وسار ذكره ، وكان ذا صلاح وعبادة .

---

(١٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٦ .

ولابن شداد عدة مؤلفات منها : تاريـــخ حلب ، ودلائل الأحكام فى الفقه ، وملجأ الأحكام عند التباس الأحكام ، على أن أهم كتبه : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » قسمه قسمين الأول فى نشأة صلاح الدين وأخلاقه ، والثانى فى بعض وقائعه وغزواته(١٧) .

ويختلط اسم القاضى ابن شـــداد باسم مؤرخ عربى يحمـــل نفس الاســـم ، وهو عز الدين أبو عبدالله محمـــد بن على بن ابراهيم تـــوفى سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وقد صنف كتابا قيمـــا عنوانه « الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة »(١٨) .

نشطت الحركة العلمية فى اربل فى أواخر العصر العباسى ، وتجلى ذلك فى المدارس العديدة التى أسسها حكام هذه الأتابكية ، وقد تخـــرج من هذه المدارس رجال شغلوا وظائف رئيسية فى البلاد الاسلامية ، فكان منهم القـــاضى والمحتسب والفقيه والأديب والشـــاعر ، ومن بين هذه المـــدارس ، مدارس أنشـــأها مظفر الدين كوكبـــورى لتدريس الفقــه الشافعى والفقه الحنفى ، وقـــام بالتدريس فيها شيوخ أجـــلاء ، نخص بالـــذكر منهم محمـــد بن ابراهيم بن أبى بكر بن خلكان (ت سنة ٦١٠هـ) وهو والد المؤرخ المشهور قاضى القضـــاة ابن خلكان ، صاحب كتـــاب وفيات الأعيان ، ومن أساتذة مدارس اربل أحمد بن موسى بن منعـــة الذى قام بالتدريس للشيخ الجليل ابن خلكان ، ويقول عنه : انه كـــان فاضلا عاقـــلا حسن السمت جميـــل المنظر ، كثير المحفوظات غزيـــر المـــادة ، حسن الالقـــاء ، فصيح اللسان ، قوى البيـــان . ابن خلكان : (وفيات الأعيان جا ص٩٠) وقام بمهمة التدريس فيهـــا عمر بن ابراهيم (ت ٦٠٩) عم المؤرخ ابن خلكان .

ومن أساتذة مدارس اربـــل أبو العباس الخضر بن نصر الأربلى (ت ٦١٩) كان فاضلا فقيها عارفا بالمذهب والفرائض والخلاف ، تتلمذ فى بغـــداد على يد عـــدد من المشـــايخ ، ثم رجع الى اربل ، وله تصانيف حسان كثيرة فى التفسير والفقـــه وغير ذلك وله كتـــاب ذكر فيـــه ستا

---

(١٧) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ٥ ص٨ ١ـ١٥٩ .
(١٨) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص٣٠٥ .

وعشرين خطبة للرسول ، وكلهـا مسندة ؛ وتتلمذ عليه خلـق كثير ، وانتفعوا به وكان رجلا صالحا زاهدا عابدا ورعا ، ومن جملة من تخرج عليه الشيخ الفقيه ضـياء الدين أبو عمرو عثمـان بن عيسى بن درباس الهذباني شارح المهذب ، وتخرج عليه ابن أخيه أبو القاسم نصر بن عقيل ابن نصر (ت ٥٦٧هـ)(١٩) .

ولمـا توفى تولى ابن أخيـه مكانه فى المدرستين ، وسـخط عليه مظفر الدين كوكبورى — أتابك اربل — وأخرجـه منها ، وانتقـل الى الموصل ، وسكن عز الدين ظاهر الموصل فى رباط ابن الشهرزورى وقرر له صاحب الموصل راتبا ، وتوفى بها سنة ٦١٩هـ(٢٠) .

وممن اشتهر بالفتوى العالم الفقيه كمال الدين سالار بن الحسن بن عمر بن سعيد الأربلى المتوفى سنة ٥٦٧هـ ، وذاعت فتاواه فى الشـام ، وسارت مسير الشمس فى النهار(٢١) .

ونبغ فى مدرسة اربل القـاضى والمؤرخ ابن خلكـان صاحب الكتاب المشهور « وفيات الأعيان وأنباء الزمان » الذى تضمن ترجمة لرجـال الفكر والسياسة والحـرب المسلمين الذين لعبوا دورا بارزا فى الحيـاة الاسلامية . وهذا الكتاب يعتمد عليه كل المهتمين بالدراسات الاسلامية ، وابن خلكان هو أحمد بن محمد بن ابراهيـم ، درس فى مدارس اربل ، وتلقى الدراسـات الدينية من والده ، ولمـا توفى والـده ، انتقل الى الموصل ، ودرس على علمائها هناك ، ثم واصل رحـلاته فى طلب العلم والتزود بالمعرفة ، فانتقل الى حلب وأقام بها عند الشيخ بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن شداد ، وتلقى منه علم الفقـه ، ودرس النحو فى حلب ، ثم رحل الى دمشق واتصل بابن الصلاح ، وتتلمذ عليه ، ثم غادر دمشق الى القاهرة ، وشغل وظيفة القضاء فى بعض مدن مصر ، ثم عاد الى الشام حيث ولى قضاءه ، وتوفى سنة ٦٨١هـ(٢٢) .

---

(١٩) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ٤ ص١٣٣
(٢٠) المصدر السابق جـ٥ ص٣٣١ .
(٢١) المصدر السابق جـ٥ ص٦٦١ .
(٢٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٢ ص٢١١ .

ولقد اعتمد ابن خلكان كثيرا فى تراجمه التى أوردها فى كتابه على ابن المستوفى ، آخر وزراء اربل على عهد مظفر الدين — اذ صنف ابن المستوفى تاريخا فى أربع مجلدات ، وكتابه عبارة عن تراجم ، فقدت ، وكان ابن المستوفى أديبا كبيرا وشاعرا ومحدثا ، يعقد الندوات الأدبية التى تضم كبار الأدباء والشعراء والفقهاء ، وهو من بيت علم ، نبغ من أسرته علماء أجلاء ، كان عمه صفى الدين أبو الحسن على بن المبارك يتقن اللغتين العربية والفارسية ، فترجم كتاب «نصيحة الملوك» للامام الغزالى من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ، ويذكر ابن خلكان عن ابن المستوفى « كثير التواضع ، واسع الكرم ، لم يصل الى اربل أحد من الفضلاء الا بادر الى زيارته ، وحمل اليه ما يليق بحاله ، ويتقرب الى قلبه بكل طريق ، وخصوصا أرباب الأدب ، فقد كانت سوقهم لديه نافقة ، وكان جم الفضائل ، عارفا بعدة فنون ، منها الحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلق به ، وكان اماما فيه ، ماهرا فى فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافى وعلم البيان .

واذا تتبعنا حياة ابن خلكان العلمية نراه قد استفاد فائدة كبيرة من النشاط الثقافى فى بلاد الجزيرة ، فسمع صحيح البخارى بمدينة اربل على الشيخ الصالح أبو جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبدالله الصوفى ، وتفقه فى الموصل على كمال الدين بن يوسف ، وأخذ بحلب عن القاضى بهاء الدين بن شداد ، وقرأ النحو على أبى البقاء يعيش بن على النحوى ، وتدرج فى وظائف القضاء — كما ذكرنا — حتى ولى منصب قاضى قضاة الشام ، وأقيم معه القضاة الثلاثة على مذاهب مالك وأبى حنيفة وابن حنبل ومذهبه مذهب الشافعى .

ولقد نسج ابن خلكان على منوال والده فى التفنن بالعلوم وتخرج عليه كثير من الطلاب ، فلا غرو اذن أن ينشأ ابن خلكان على حب العلم حتى برع ، وصار بصيرا بالعربية أديبا شاعرا عالما بأيام الناس ، كثير الاطلاع(٢٣) .

قلنا ان كتاب وفيات الأعيان من أهم الكتب الاسلامية ، وهو مختصر فى علم التاريخ ، ويقول : دعانى الى جمعه أنى كنت مولعا بالاطلاع

---

(٢٣) وفيات الأعيان جـ٣ ص٢٩٤ .

على اخبار المتقدمين من أولى النباهة وتواريخ وفياتهم ومواليدهم ومن جمع منهم فى كل عصر ، فوقع لى منه شىء حملنى على الاستزادة فعدت الى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن ، وأخذت من أقوال الائمة المتقنين له ما لم أجده فى كتاب ، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندى على مسوادت كثيرة فى سنين عديدة وغلق على خاطرى بعضه ، فصرت اذا احتجت الى معاودة شىء منه لا أصل اليه الا بعد التعب فى استخراجه لكونه غير مرتب ، فاضطررت الى ترتيبه فرأيته على حروف المعجم أيسر على السنين فعدلت اليه .... ولم أذكر فى هذا المختصر أحدا من الصحابة ولا من التابعين الا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس الى معرفة أحوالهم وكذلك الخلفاء ، وذكرت جماعة من الأفاضل الذين شاهدتهم ، ونقلت عنهم أو كانوا فى زمنى ، ولم أرهم ليطلع على حالهم من يأتى بعدهم ، ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الوزراء أو الشعراء بل كل من له شهرة بين الناس .

وجدير بالذكر أن ابن خلكان استقى معلوماته فى هذا الكتاب من ثلاثة مصادر ، أولها ما قرأه فى الكتب المصنفة قبله ، وكان مولعا بمراجعتها والافادة منها ، والمصدر الثانى الدروس التى تلقاها من مشايخه الثقات ، والمصدر الثالث اعتمد فيه على مشاهداته الخاصة ، ولهذا سمى كتاب وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان ، وقد لاحظ الأستاذ المرحوم محيى الدين عبدالحميد الذى بذل جهدا مشكورا فى تحقيق الكتاب — أن ابن خلكان حين ينقل من الكتب المصنفة لا يقف عند النقل ، ويلقى عهدته على صاحبه شأن كثير من المصنفين ، ولكنه يزن الكلام ويفحصه .

وقد نبغ أدباء فى اربل مثل مجد الدين أسعد بن ابراهيم بن حسن ابن على الشيبانى النشابى الأربلى ، وكان يخاطب ابن المستوفى بالشعر.

تعددت المجالس الدينية فى اربل بسبب تشجيع أمرائها ووزرائها ولقد حرص مظفر الدين كوكبورى على اقامة الندوات الدينية ، اذ كان شديد الميل الى أهل السنة والجماعة لا يجتمع عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين ، ووفد على اربل فى أيامه العلماء والأدباء وقد حظوا منه بكل تشجيع وتأييد . وقد حرص مظفر الدين

على اقامة حفـلات كبيرة فى كل سنة بمناسبة مولد الرسـول الكريم ؛ ولم يكن هذا الاحتفال مجرد استماع لأغانى وأناشيد دينية ، بل كانت تعقد فيه ندوات يقـوم فيها الوعاظ والعلمـاء بالتحـدث عن سـيرة الرسول والقـاء الأحاديث الدينية ، وكان الناس من البلـدان المجاورة يفدون على اربل على اختـلاف طبقاتهم خصوصا الفقهـاء والمحـدثون والأدباء والشـعراء . وهؤلاء العلماء يبرزون معارفهم فى ندوات المولـد الشريف وينالون من الأمير الأربلى كل عطف وتعضيد .

ولم يهتم مظفر الدين كوكبورى بالحـركة الثقافية فى اربل فحسب ، بل تجاوز اهتمامه دائرة حكمه ، فبنى فى مدينة الموصـل دارا للحديث ، ليستفيد منها الراغبين فى دراسته ، وسميت بدار الحديث المظفرية .

ومن علماء اربل المشهورين الحسين بن ابراهيم الهـذبانى وهو من علماء اللغة والحديث ، وقد تناول مع بعض العلماء مسند ابن حنبـل بالترتيب على أبواب الفقـه وتوفى سنة ٦٥٦هـ ، ولا ننسى ما قام به شمس الدين ابن الخباز من جهود فى علم النحو .

وقد نبغ فى اربل ابن سراقة الشاطبى ، وهو من الأندلس ، وحـل الى الشرق ، وتنقـل بين عدة مدن حتى انتهى به المطـاف فى بغـداد ودرس الحديث بها ، ثم انتقل الى اربل ، وقرأ الحديث بها على المحـدث أبى الخير بدل التبريزى .

ومن أشهر أدباء اربل ، أبو البركات المبارك بن أبى الفتح محمد ، المعروف بابن المستوفى — آخر وزراء اربل على عهد مظفر الدين كوكبورى وقد نبغ فى مجالات الأدب والشعر والحديث والنحو واللغة ، وكان يعقد المجالس العلمية التي تضم الأدباء والشعراء والفقهاء ، ويقول عنه ابن خلكان : كان رئيسـا جليل القدر ، كثير التواضع ، واسع الكرم ، لم يصل أحد الى اربل من الفضلاء الا بادر الى زيارته ، وحمل اليه ما يليق بحاله ، ويقربه الى قلبه بكل طريـق . وخصوصا أرباب الأدب ، فقـد كانت سوقهم لديه نافقة ، وكان جم الفضائل ، عارفا بعدة فنون ، منها

---

(٢٤) اليونيتى : ذيل مراة الزمان ج٢ ص٢٠٤ .

الحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلـــق به ، وكان اماما فيه ، وكان ماهرا فى فنون الأدب من النحو واللغـــة والعروض والقـــوافى وعلم البيان ، وأشعار العرب وأخبارها وأيامها ووقائعها وأمثالها . وكان بارعا فى علم الديوان وحسابه وضبط قوانينه على الأوضاع المعتبرة عندهم .

ومن أهم مصنفات ابن المستوفى كتاب تاريخ اربل ، ويقع فى أربـــع مجلـــدات ، ويتضمن تراجم لأعيان هذه البـــلاد . وأفاد ابن خلكان فى تصنيف كتابه « وفيات للأعيان » ، وهذا الكتاب فقد .

وقد ساهم ابن المستوفى فى نشاط الحركة الأدبية فى اربل من جـــراء الندوات الأدبية التى كان يعقدها فى منزله ، وكان يشجع الشعراء بصفة خاصة ، ويحب أن يخاطبهم ويخاطبوه بالشعر(٢٦) .

والخلاصـــة أن الحياة الثقافيـــة فى بلاد الجزيرة فى أواخـــر العصر العباسى اشتملت على العلوم الدينية والأدبية واللغوية فقط ، ولم تتضمن العلوم العقلية كالفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات ، وتجلى النشـــاط الثقافى فى المدارس العـــديدة التى أنشأها الأتابكة ، ونلاحظ أن علمـــاء ذلك العصر لم يجـــدوا ولم يبتكـــروا فى تصـــانيفهم ، وانمـــا اقتصرت اهتماماتهم على تلخيص أو النقل من كتب السابقين .

---

(٢٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص٢٩٤ .

(٢٦) المصدر السابق .

انحـــلال دول أتابكـــة الموصـــل
والجـــزيرة وزوالهـــا

تعرضت بلاد الموصل والجزيرة فى النصف الثانى من القـــرن السابع الهجرى للغزو المغولى . مما أدى الى ضعفها وانهيارها ، ففى الموصـــل اضطر صاحبها بدر الدين لؤلؤ الى اظهار ولائه لهولاكو ، وارسال الأموال اليه . واشترك معه فى بعض غزواتـــه(١) ، ولـــا تـــوفى سنة ٦٥٧هـ ١٢٥٨م) ، خلفه ابنه الملك الصالح بعهد من هولاكو(٢) ، غير أنه لم يلبث أن رحل عن الموصل بسبب تدخل المغول فى امارته ، ولجأ الى السلطان الملك الظاهر بيبرس فى مصر ، فأكرم وفادته ، وعين له راتبا شهريا(٣) .

ثم أعاده الى الموصل على رأس ألف فارس فدخلهـــا قبل قـــدوم المغول اليها(٤) ، وأغلـــق أبوابها . وكان بهـــا جيش كبير من الأكـــراد والتركمان ، فوزع عليهم الرواتب الوفيرة ، وحثهم على القتال .

ولـــا بلغ المغول الموصل ، نازلوا أهلها وأقاموا المتاريس ، ونصبوا المجانيق ، وتأهب أهلها لقتالهم(٥) ، فاضطر هولاكو الى ارسال جيش آخر لاخضاعهم واعترض جيش المغول قوات الظاهر بيبرس التى قصدت الموصل لنجدتها عند سنجار(٦) ، ودارت بين القوات المغولية والقـــوات المملوكية معركة ، قتل فيها كثير من جند السلطان بيبرس . ولم ينج منهم الا من استطاع الفرار من هذهالمعركة(٧) .

أدى حصار المغول للموصل الذى استمر ستة أشهر الى اضطـــرار كثير من أهلها الى الرحيل الى الصحراء ، فساروا طعمة لسيوف المغول ،

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٣٥١ .

(2) Howorth : History of the Mongols. vol. 4. p. 181.

(٣) قطب الدين البعلبكى : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص٤٥٢

(٤) نفس المصدر جـ٢ ص١٥٦ .

(٥) رشيد الدين فضل الله الهمزانى : جامع التواريخ ــ المجلد الثانى ، تاريخ المغول .

(6) Howorth : History of the Mongols. vol. 4. p. 181.

(٧) قطب الدين البعلبكى : ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص ١٥٦ .

ولما اشتد بهم الكرب ، أرسل الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل — الى سند ياغو — قائد المغول يطلب الأمان ويقول : « انى نادم على ما فعلت ، وسأخرج اليك لأتلافى ما فات ، ولكن بشرطين ، أحدهما : الا تأخذنى بأخطائى السابقة ، وثانيهما : أن تبعث بى الى هولاكو خان وتشفع لى عنده حتى لا يهدر دمى » ، فأمنه القائد المغولى . وخرج اليه يحمل الهدايا والأموال ، ولم يسمح للصالح بالمثول أمام هولاكو ، وأمر بعض جنده بقتله(٨) .

دخل المغول الموصل فى رمضان سنة ٦٦٠هـ ، ونكلوا بسكانها ، وأسروا بعض أرباب الحرف والصناعات ، بحيث لم يبق فى هذه المدينة أحد(٩) ، وهكذا زالت أتابكية الموصل .

كذلك استولى المغول على سنجار أثناء حصارهم الموصل سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م ، وان الملك الأشرف بن العادل الأيوبى قد أخذ سنجار من أتابكها محمود بن محمد زنكى الثانى سنة ٦١٧هـ(١٠)/١٢٢٠م ، وظل الأيوبيون يحكمونها حتى استولى عليها بدر الدين لؤلؤ — أتابك الموصل — سنة ٦٣٨هـ/١٢٣٩م ، وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٨)م فخلفه ابنه علاء الدين الذى استمر يلى أمرها حتى دخلت فى حوزة المغول(١١) .

---

(٨) رشيد الدين فضل الله الهمزانى : جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، جـ١ ص٣٢٨ .

(٩) قطب الدين البعلبكى : ذيل مراة الزمان جـ٢ ص ١٥٩ .

(١٠) هاجم محمود بن محمد بن زنكى قرى الموصل بتحريض من عماد الدين أحمد بن على المشطوب الذى خرج على الملك الأيوبى الأشرف موسى بن الملك العادل ، فخرج بدر الدين لؤلؤ من الموصل وهاجم ابن المشطوب بتل أعفر واستولى عليه ، وقبض على ابن المشطوب ، وأبلغ الأشرف بذلك فعظمت مكانة صاحب الموصل عنده ، ولما طلب منه مساعدته على الوقوف ضد هجمات صاحب سنجار ، أجاب طلبه ، وسار بجيشه عبر الفرات الى حران فاستولى عليها ، ثم قصد سنجار ، وبينما هو فى طريقه اليها ، لقيه رسل صاحبها ، يعرضون على الأشرف تسليم سنجار ، فى مقابل تعويضه الرقة ، فأجاب الأشرف طلبه ، وفارق محمود بن محمد بن زنكى سنجار سنة ٦١٧هـ .

(١١) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص٢٠٦ .

وكان بدر الدين لؤلؤ قد انتزع جزيرة ابن عمر من أتابكها مسعود ابن محمود سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م(١٢) ، وظل يحكمها حتى وفاته ، فخلفه فى ولايتها ابنه المجاهد اسحق ، وأبقاه هولاكو حتى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م حيث انتزعها منه(١٣) .

ولم تكن اربل أحسن حالا من دول أتابكة الموصل والجزيرة ، فقد تعرضت لغزو المغول ، وأوصى صاحبها مظفر الدين كوكبورى ، بأن تؤول اربل من بعده الى الخليفة العباسى ، اذا لم يكن له وارث يرثه فى الحكم ، فلما توفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، أرسل الخليفة المستنصر بالله العباسى . الشريف تاج الدين صلايا(١٤) الى اربل ، فدخلها بعد أن قاومه أهلها مقاومة عنيفة ، وظل أهلها غير راضين عن حكم العباسيين لهم حتى هددها المغول بغاراتهم(١٥) غير راضين عن حكم العباسيين مقابل جزية كبيرة .

ولما اعتزم هولاكو الاستيلاء على بغداد ، عول على اخذ اربل فى نفس الوقت ، وعهد الى أحد قواده بفتحها ، وكان لهذه المدينة قلعة عظيمة مشيدة على مرتفع يجعل فتحها أمرا عسيرا(١٦) ، فظلت حاميتها تقاوم قوات المغول حتى عجز القائد المغولى عن المضى فى القتال ، وأرسل الى بدر الدين – صاحب الموصل – يطلب مساعدته(١٧) ، فأشار عليه بدر الدين لؤلؤ بأن يرجى الاستيلاء على القلعة حتى الصيف ، حيث يلجأ الاكراد الى الجبال هربا من حرارة الجو ، ثم عهد القائد المغولى الى بدر الدين لؤلؤ بمهمة الاستيلاء على القلعة(١٨) ، فهدم أسوارها . وبذلك سقطت القلعة فى أيدى المغول(١٩) .

---

(١٢) حدث نزاع بين مسعود بن محمود – أتابك الجزيرة – وبدر الدين لؤلؤ ، فعول على الانتقام منه ، وأرسل جيشا استولى على بلاده سنة ٦٤٨هـ .
(محمد على عوض : تاريخ الدول والامارات الكردية فى العهد الاسلامى ص١٦٤) .

(١٣) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص١٣١ .

(١٤) نفس المصدر جـ٣ ص١٦١ .

(١٥) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان ، القسم الثانى جـ٨ ص٦٧٠ .

(١٦) قطب الدين البعلبكى : ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص٩١ .

(١٧) قطب الدين البعلبكى : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص٩١ .

(١٨) رشيد الدين فضل الله الهمذانى : جامع التواريخ – المجلد الثانى جـ١ ص٢٩٧–٢٩٩ .

(19) Howorth : History of the Mongols .vol. 4. p pp. 133-134.

كذلك هاجم المغول ماردين سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ، فاعتصم الملك السعيد بقلعتها ، ودافع جند الأكراد والتركمان عنها دفاعا مجيدا واستمرت الحرب على أشدها أكثر من ثمانية أشهر — ولما تعذر على المغول الاستيلاء على القلعة أغاروا على مدن ماردين القريبة منها(٢٠) .

أرسل مظفر الدين — بعد أن خلف أباه فى امارة ماردين — الى القائد المغولى يطلب منه وقف القتال على أن يسلم اليه قلعتها ، فأجاب طلبه ، وعقد بينهما الصلح ، ثم عفا عنه هولاكو ، وظل مظفر الدين وأبناؤه موالين للمغول(٢١) ، ومن ثم أخذت أتابكية ماردين فى الضعف والانحلال .

كذلك استولى المغول على ميافارقين سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب يطمع فى امتلاكها(٢٢) - فى عهد ولاية أميرها حسام الدين بن قطب الدين الشيرازى ، غير ان وزيرها تصدى للدفاع عنها ، فكان ذلك مما حمل صلاح الدين على محاصرتها ، ثم أرسل الى أميرها والى والدته الخاتون يرغبهما فى الصلح فاستجاب لدعوته(٢٣) ، وبذلك تيسر لصلاح الدين الأيوبى مد نفوذه الى ميافارقين(٢٤) ، وظل الأيوبيون يحكمونها حتى استولى عليها المغول(٢٥) .

أما أتابكية خرتبرت فلم تتعرض للغزو المغولى ، فقد استولى عليها علاء الدين كيقباد — سلطان دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى — ذلك أن الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب ، سار قاصدا دولة سلاجقة الروم ، فاشتبك معه سلطانها علاء الدين الدين كيقباد فى معركة انتهت بهزيمة الملك الصالح ، واستولى الملك علاء الدين كيقباد على خرتبرت وما تبعها من القلاع سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م لتأمين حدود دولته من مطامع بنى أيوب ، ثم أمن سلطان سلاجقة الروم نور الدين أرتقشاه ، آخر أتابكة خرتبرت ، وبذلك انتهى حكم بنى أرتق فى خرتبرت .

---

(20) Ibid : vol. 4. p. 161.

(٢١) رشيد الدين فضل الله الهمذانى : جامع التواريخ — المجلد الثانى جـ١ ص٣٢٥ .

(٢٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١هـ .

(٢٣) محمد بن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ٢١٨ .

(٢٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١هـ .

(٢٥) محمد بن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ٢١٨-٢١٩ .

٤ ـ دولة الاسماعيلية فى ايران

نشأ حزب الشيعة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان . وقد التفوا حول على بن أبى طالب وناصروه ، وازداد نفوذهم ، بتولية على بن أبى طالب الخلافة ، واتخاذه الكوفة حاضرة للدولة العربية الاسلامية ، ولم ينته هذا الحزب بوفاة على ، بل ظل قائما يناصر ويشايع آل على ، وينادى بأن تنحصر الخلافة فى بيت رسول الله ؛ ولقد استاءوا كثيرا من الصلح الذى عقد بين الحسن بن على ومعاوية بن أبى سفيان سنة ٤١هـ والذى بمقتضاه تنازل الحسن عن حقه فى الخلافة لمعاوية ، واعترض على تولية بنى أمية الخلافة ، واعتبروهم مغتصبين لها من أصحابها الشرعيين . وأصبحت خطة الشيعة بعد تنازل الحسن عن الخلافة تنحصر فى طاعة الامام من آل بيت رسول الله ، والانتظار حتى يأمرهم الامام ــ الذى اتخذ المدينة دارا لمقامه ــ والخروج لاستعادة سلطانهم الضائع .

استند الشيعة فى أحقية آل البيت دون سواهم فى الامامة الى أسانيد شرعية ، فقالوا ان رسول الله ﷺ فى عودته من حجة الوداع نزل عند غدير خم بين مكة والمدينة فى الثامن من ذى الحجة ، وأخذ بيد على بن أبى طالب وقال للناس : « ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم والى من والاه ، وعادى من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار »(١) . واستند الشيعة الى هذا بأحقية على وبنيه بالخلافة ، لذا عارضوا كل من ولى الخلافة من غير آل على ، وتعددت ثوراتهم فى أيام الأمويين والعباسيين مطالبين بالامامة فى آل بيت رسول الله .

غير أن النزاع اشتد بين الحسن بن على ، والحسين بن على فى العصر العباسى ، وتخلى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على

---

(١) المقريزى : خطط١ ص٣٨٣

زين العـــابدين بن الحسين عن محمد بن عبدالله بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية ، وأخذ يعمل فى الخفاء ليمهد لنفســه ولأبنائه من بعده للوصول الى الخلافة ، والتف حــول أبنائه الحسن بن على(٢) . وبذلك آلت اليه فى أواخر العهد الأموى وأوائل العصر العباسى زعامة العلــويين ، وتعتبره الطائفــة الاماميــة الامام السادس ، ومن معتقــدات هذه الطائفة أن الامامة تنتقــل فى الأعقاب . ولم تعد تنتقل من أخ الى أخ بعد الحسن والحسين ، وقد انقسمت الامامية الى فريقين ، الامامية الموسوية ويطلق عليها الاثنا عشرية ، وقد قالوا : بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق . أما الاسماعيلية ، فقد قالوا بإمامة اسماعيل ابن جعفر الصادق — وكان أكبر أولاد أبيه ، وقد اعترضوا على جعفر خلــع ابنــه اسماعيل ، واسناد الامامة الى ابنه الآخر موسى ، ولمــا توفى اسماعيل فى حيــاة أبيه ، دعوا الى امامة ابنــه محمد جريا على معتقداتهم فى أن الامامة يجب أن تكون فى الأعقــاب ، وأصبح محمد بن اسماعيل الامام السابع عندهم .

لجأ أئمة الاســماعيلية الى الستر حتى لا يتعرضــوا لبطش بنى العباس ، ونشروا دعاتهم فى أرجاء البلاد ، وفى نهاية الأمر ظهر الامام الاسماعيلى عبيدالله المهدى فى بلاد المغرب ، وأعلن داعيه أبو عبدالله الشيعى قيام الدولة الفاطمية ، وأركب الامام دابة قادها وهو ينادى فى جموع كتامة « هذا امامكم ، هذا امام الحق ، هذا هو المهدى » . وبذلك دخل تاريخ الاسماعيلية فى دور جديد ، وهو دور الظهور ، والجهر بالآراء والأفكار التى يتضمنها المذهب الاسماعيلى .

اتخــذ عبيد الله المهدى رقادة حاضرة لدولته الجــديدة سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م ، وأمر بذكر اسمه فى الخطبة على منابر البلاد ، وتلقب بالمــهدى أمير المؤمنين . وبذلك قامت الخلافة الفاطمية فى شــمال افريقية ، ولم تلبث أن ضمت اليها مصر والشام والحجاز واليمن متخــذة من المدينــة الجديدة « القاهرة » حاضرة لها .

حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الاسماعيلية فى أرجــاء الدولة الاسلامية ، ولقيت دعوتهم نجــاحا فى فارس والعراق رغم اضطهــاد

---

(٢) جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ص١٥ .

العباسيين والسلاجقة لافراد هذه الطائفة ، وازداد نفوذ الاسماعيليين فى عصر السلطان ملكشاه حتى استولوا على أصبهان ، ونشروا فيها دعوتهم فى عهد زعيمهم أحمد بن عبدالملك بن عطاش ، ومن تلاميذه الحسن بن الصباح الذى رأس الدعوة فى أصبهان ، ثم سافر الى مصر ليتعمق فيها من شيوخها وأساطينها ، والسعى لمقابلة الامام ، وهذه المقابلة من أركان العقيدة الاسماعيلية ، بل هى التأويل الباطنى للحج عندهم . فالحج الظاهر هو زيارة بيت الله الحرام ، أما الحج الباطن فهو زيارة الامام .

وكان الحسن بن الصباح فى مصر حين عهد الخليفة الفاطمى المستنصر لابنه نزار بولاية العهد ، ثم عاد فخلعه تحت تأثير وزيره بدر الجمالى ، وأسند ولاية العهد الى ابنه المستعلى . وقد استاء الحسن بن الصباح من ذلك لأن هذا العمل لا يتفق وتقاليد الاسماعيلية التى ترى أن ولاية العهد للابن الأكبر(٣) ، ويقال أن الحسن زار الخليفة المستنصر وسأله : من ولى العهد ؟ قال : ابنى نزار . وعهد الحسن بأن يدعو اليه والى ولى عهده بين الأمم الاسلامية لأنه أكره على توليه ابنه المستعلى(٤) .

لما توفى الخليفة المستنصر ، خلفه ابنه المستعلى ، فأعلن نزار الثورة فى الاسكندرية ، والتف حوله أهلها ، بل بايعوه خليفة ، ولقب المصطفى لدين الله ، غير ان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أحبط ثورته وقتله ونكل بأنصاره(٥) .

شهد الحسن بن الصباح هذه الأحداث فى مصر ، وزج فى السجن ، ولما أفرج عنه سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م ، غادر البلاد وطاف فى بلاد الشام والعراق وفارس ينشر دعوته الجديدة واختار معقلا فى أطراف الدولة الاسلامية ينفرد فيه بدعوته ، ولا يناله فيه يد ملك أو خليفة ، هذا المعقل فى بلاد الديلم ، وذهب اليه مع نفر من أصحابه وأنصاره . وقيل انه تلقى من مصر فى تلك الأثناء ولدا لنزار بايعه بالامامة(٦) . وعمل

---

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص٦١ .

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ص٣٧

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ص٢٧ .

(٦) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٤٠ .

باسمه ودعا اليه ، أما المعقل فكان يقيم فيه رجل من العلويين أحسن وفادة الحسن بن الصباح ، وتركه ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ولما قوى شأنه ، واشتد بأسه طرد صاحب القلعة منها ، واستولى عليها وعلى القلاع التى تجاورها سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ، وزود الحسن بن الصباح قلاع مكتبات الاسماعيلية ببلاد الفرس بالمصنفات الكثيرة التى تؤكد أن نزارا أحق بالامامة من المستعلى(٧) .

حرص الحسن بن الصباح على توسيع رقعة دولته خصوصا بعد وفاة السلطان ملكشاه ــ الذى بذل قصارى جهده فى درء خطر هذه الطائفة عن دولته ، واستطاع أن ينتهز فرصة ضعف الدولة السلجوقية ، ويوسع رقعة امارته حتى تمكن من تأسيس دولة اسماعيلية قوية فى فارس ، وقد اعتكف الحسن بن الصباح فى منزله ، وانصرف الى القراءة وكان يصدر الأوامر من منزله والرسائل الى دعاته ، والى الذين اختارهم لتنفيذ رسالته دون أن يقابلهم ، وعرف عنه الصرامة والشدة والقسوة على نفسه وعلى أتباعه وجمع طائفة من أبناء الرعاة ومن أتباعه وأخذ فى تدريب هؤلاء الأطفال على الطاعة العمياء والايمان بدعوته ، واذا بلغوا مبلغ الشباب يأمر بتدريبهم تدريبا عسكريا شاقا على الأعمال الفدائية ، ويدربهم على كتمان سرهم ، وأسرار الدعوة والدولة . ويقال انه كان يأمر الفدائى أن يقتل نفسه فيفعل ، وبهذه الطائفة من الشباب التى نجح فى تدريبها ، قام بعمليات ارهابية فى الشرق ، لعل أبرزها قتل الوزير نظام الملك ــ زميل ابن الصباح فى الدراسة ، وكان قد جرد عدة حملات للتنكيل بالاسماعيلية ، وتوالت حوادث الاغتيال ضد رجال الدولة السلجوقية ، وكل من يشك فى نواياه حتى عم الناس الهلع والفزع ، وأصبح كل واحد غير آمن على نفسه ، ونجحت خطط الاغتيال التى كان يدبرها الحسن بن الصباح فى قلعته حتى استعان به بعض الملوك والأمراء والقادة فى قتل أعدائهم ، وحاولوا ارضاءه خوفا من بطشه وجردت الدولة السلجوقية حملات على مدى ثلاثين سنة على دولة الاسماعيلية ، لكنها فشلت ، وبهؤلاء الفدائيين قويت سطوة الحسن بن الصباح . ويذكر العماد الأصفهانى الذى كان معاصرا للحسن بن الصباح مقدار

---

(٧) المصدر السابق .

ما أصاب الناس من الرعب من هذه الطائفـــة فيقول : « فنابت النوائب ، وظهرت العجـــائب ، وفارق الجمهـــور من بيننا جمـــاعة نشـــأوا على طباعنا ، وكانـــوا معنـــا فى المكتب ، وأخذوا حظا وافرا من الفقـــه والأدب ، وكان من بينهم رجل من أهـــل الرأى ساح فى العالم ، وكانت صناعته الكتـــابة ، فخفى أمره حتى ظهر وقام ، فأقام من الفتنـــة كل قيامة واستولى فى مدة قريبـــة على حصـــون وقـــلاع منيعة ، وبدأ فى القتل والفتـــك بأمور شنيعة ، وخفيت عن الناس أحـــوالهم ، وأخافـــوا السبل وأجالـــوا على الأكابر الأجل ، وكان الواحد منهم يهجم على كثير ، ويعلم أنه يقتل فيقتله غيلة ، ولم يجـــد أحد من المـــلوك فى حفظ نفســـه منهم حيلة(٨) .».

لم يتغاض الحسن بن الصباح عن الدولة الفاطمية ، التى خالفـــه رجالها فى المذهب ، ودبر المؤامرات ضدهم ، وكان ذلك من أسباب ضعفها وتدهورهـــا .

وصف الرحالة البندقى ماركو بولو الروضة الغناء التى أمر الحسن ابن الصباح بزراعتها على سفح الجبل الذى فيه قلعته يقول انها من أجمل ما رأته الأعين ، ووقعت عليه الأبصـــار مليئة بمختلف الفـــواكه وأطيب الثمار ، وأقام بها القصور والجواسق مما لا عين رأت ولا أذن ســمعت وقد طلاها بالذهب ، ونقشها بأطيب النقوش ، وزعم أن بها أنهـــارا من خمر واخرى من عسل وثالثة من لبن وبها حور عين وولدان مخلدون » وبها مغنيات يعزفن على مختلف الآلات ، ويغنين بأعذب الأصـــوات ، ويرقصن أجمل الرقصات ، ولم يكن يسمح لأحد من الناس أن يدخل هذه الحديقة الا من شاء أن يجعلهم من فدائييـــه وكان يمدهم قبل دخـــولهم جنته بالحشيش فيتعاطونه ، وينامون على أثره ، حينئـــذ يأمر الشيخ بعض أتباعه بأن يحملوهم ويضعوهم فى داخل الحديقة ، فاذا أفاقوا وجدوا أنفسهم داخل هذه الروضة الغنـــاء . وفى هذه الحالة يظنون انهم فى جنة الخلد ، ثم يقبل النساء والفتيات بعد ذلك على هؤلاء الفتيان(٩) وبذلك يسيطر الشيخ على الشباب الفدائى ، ومن هنا سموا بالحشاشين .

---

(٨) البندارى : تاريخ آل سلجوق .

(٩) براون : تاريخ الأدب الفارسى ص٢٥٤

ونحن نشك فى هذه الرواية لأن من يتعـاطى الحشيش لا يمكن أن يضطلع بمهمة شاقة كالعمل الفدائى ، ولا يستطيع كتمان السر ، فضـلا عن اضطرابه واضطراب تفكيره الأمر الذى يجعله غير قادر على أداء مهمته ، ولا تذكر المصادر العربية شيئا عن هذا الموضوع .

بذل السلاجقة محاولات متعددة للتنكيل بالاسماعيلية ، لكنهم هزموا بعض الحملات السلجوقية حتى اضطر السلطان سنجر الى مهادنتهم ، وعقد صلحـا معهم بعد أن خشى بأسـهم ، ورأى عن كثب خطـورة مؤامراتهم حينما استيقظ من نومه ، فوجد خنجرا بجوار فراشه ، وورقة كتب عليها : ان الذى وضع الخنجر هنـا قادر على وضعه فى راسك ، ومهما يكن من أمر فقد أرسل وفدا الى الاسماعيلية لعقد الصلح ، وعـاد الوفد السلجوقى الى السلطان سنجر ، وقص له ما شـاهده من امر زعيم الاسماعيلية وطاعة الطائفة له ، فذكروا انه امر أحد اتبـاعه أن يغمد خنجرا فى صدره لقتل نفسه ، فما كان من الفدائى الا أن ينفذ الأمر ويقتل نفسه وطلب من فدائى آخر أن يلقى بنفسه من نافذة الحصن الى الهاوية فامتثل الفـدائى للأمر ، دون تردد ، لذلك لم يتردد السـلطان سنجر فى الصلح مع الاسماعيلية .

وشن السلطان بركياروق عدة حمـلات عليهم ، وفى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م امر الوزير أبى نصر أحمد بن المفضل — وزير السلطان سنجر — بغزو الاسـماعيلية وقتلهم اين كانوا وحيثمـا ظفر بهم ، ونهب أموالهم وسبى حريمهم — وجهز جيشا الى طريثيث — وهى لهم — وجيشـا الى بيهق — من أعمال نيسابور — وكان بهذه الأعمال قرية مخصـوصة بهم اسمها طرز ، وسير الى كل طرف من أعمالهم جمعا من الجند ، وأوصاهم بقتل من لقوهم منهم ، فقصد كل طائفة الى الجهة التى سيرت اليها ، فأما القرية التى بأعمال بيهق فقصدها العسكر ، فقتـل كل من بها ، وهرب مقدمهم وصعد منـارة المسجد ، وألقى بنفسه منها ، وأما الجنـد الذين قصد طريثيث ، قتلوا أهلها وغنموا أموالهم وعادوا(١٠) .

واستمرت حملات السلاجقة على الاسماعيلية بعد ان اشتد خطرهم ، وكثرت اغتيالاتهم ، ولم يسلم الخليفة العباسى المسترشـد منهم سنة

---

(١٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٠هـ .

٢٥٩هـ/ ١١٣م فى مراغة ، اذ هاجم مخيمه أربعة وعشرون رجلا اسماعيليا وقتلـــوه ومثلـــوا به(١١) .

وفى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م اجتمع جمـــع كثير من الاســـماعيلية من قهستان بلغ عددهم سبعة آلاف رجل ، وساروا يريدون خراســـان لأن جندها كانوا مشـــغولين بحرب الغز ، وشددوا هجماتهم على خراسان ، وقاوم أهل خراسان الاسماعيلية ، واشتبكوا فى معـــارك متعددة معهم ، وهزموا الاسماعيلية شر هزيمة ومزقوهم كل ممزق ، وكثر القتل فيهم ، وأخـــذهم السيف من كل مكان ، ولم يسلم منهم الا الشريد وخلت قلاعهم وحصـــونهم من مانع وحام ، لكن جند خراسان كانوا ـــ كما قلنـــا ـــ مشغولين بحرب الغز ، ولولا ذلك لأمكن الاستيلاء على قـــلاعهم بـــدون جهد(١٢) .

تحين أمراء البـــلاد الاســـلامية فى الشرق الفرص المواتيـــة للتنكيل بالاسماعيلية ، ودخل عليهم من الوهن ما لم يصابوا بمثله ، وخرب من بلادهم ما لم يعمر من السنين الكثيرة(١٣) .

لم يكف الأمراء والحكام المسلمون عن مهاجمة قـــلاع الاسماعيلية والحاق الدمار بها ، ففى سنة ٦٢٩هـ سار أيتغمش ـــ صاحب مراغة ـــ الى بلاد الاسماعيلية المجاورة لقزوين فقتل منهم كثيرين ، وحاصر قلاعهم ، واستولى على بعضها ، وعقد العزم على غزو قلعة آلموت ، ولكن المشاكل الداخلية فى بلاده اضطرته الى رفع الحصار ، وعودته الى بلاده(١٤) .

على أن هذه الغارات لم تمنـــع اسماعيلية من مواصلة حركاتهـــم العدوانية على القادة والأمراء المسلمين بعد أن بدأ الغزو المغولى لعالم الاسلام ، وانشغال المسلمين عنهم ، ففى سنة ٦٢٤هـ قتل الاسماعيلية أحد أمراء الدولة الخوارزمية الكبار ، وكان الأمير كثير الخير حسن السيرة ينكر على السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى ما يفعله عســـكره من

---

(١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٩هـ .
(١٢) المصدر السابق ، حوادث سنة ٥٤٩هـ .
(١٣) المصدر السابق حوادث سنة ٥٥٢هـ .
(١٤) المصدر السابق .

النهب ، فلما قتل ذلك الأمير ، عظم قتله على جلال الدين ، واشتد عليه ، فسار فى عساكره الى بلاد الاسماعيلية فخربها ودمرها ، وقتل أهلها ، وسبى النساء واسترق الأطفال وقتل الرجال ، وانتقم منهم وكف عاديتهم(١٥) .

لما توفى الحسن بن الصباح خلفه فى آلموت كيابزرك وابو على — وهما من أقرب الدعاة اليه — وعهد الى أحدهما بأن يتولى الزعامة الروحية للدعوة ، على حين يحكم الثانى الاقليم ويقود الفدائيين ، والدعاة ابتداءا من الحسن بن الصباح كانوا يحكمون نيابة عن نسل ولد نزار من الأئمة ، وهؤلاء الأئمة كانوا مستورين تماما لا يعرف أحد عنهم شيئا ، وفى سنة ٥٥٨هـ سنة ١٠٦٢م ولى الحسن الثانى حكم آلموت ، الى مذهب جديد وادعاء جديد ، فجمع الناس فى المسجد ، وطلب منهم ترك التكاليف الشرعية من صلاة وصيام وحج .... الخ وانه راع مسئول عن رعيته ، والامام مسئول عن أتباعه ويحاسب نيابة عنهم . ولقيت هذه الدعوة الالحادية هوى عند سكان دولته ؛ ولكن هذه الدعوة الالحادية زالت بوفاة صاحبها ، ولما ولى الحسن الثالث آلموت بسنة ٦٠٧هـ أمر الناس بالقيام بالفرائض ، وأمر ببناء المساجد واقامة الأذان للصلاة وقرب اليه الفقهاء والقراء وأكرمهم ، بل تقرب الى الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وبذلك اعتبره الاسماعيلية مرتدا عن المذهب فاغتالوه ، وخلفه ابنه محمد الثالث ، فنبذ سياسة والده .

زالت دولة الاسماعيلية على أيدى المغول ، واكتسحوها كما اكتسحوا غيرها من دول الاسلام ، وقد عهد — خان المغول — منكوقا آن الى أخيه هولاكو خان بقيادة الحملة على ايران ، وأمده بجيش يبلغ ١٢٠ الف مقاتل من خيرة محاربى المغول ، وقد رسم منكو الخطة لأخيه هولاكو وتتلخص فى أن يجعل هدفه ادخال البلاد ابتداء من ضفاف نهر جيجون حتى أقاصى بلاد مصر فى دائرة نفوذ المغول ، وأمر بأن يخص بمعاملة من يدخل فى طاعته بدون حرب أو قتال ، وأما من آثر الحرب فله الذلة والمهانة هو وقومه ..

---

(١٥) ابن الأثير : الكامل فى حوادث سنة ٦٢٤م .

عبر هولاكو بجيشه نهر جيجون فى أواخر سنة ٦٥٣هـ ، فلما بلـــغ الشاطىء الفارسى تلقى الثنـــاء والترحيب من ممثلى اتباعه الجـــدد ، وابتدأ هولاكو طبقا للخطة التى رسمها منكو بمهاجمـــة الاسماعيلية فى قلاعهم والمغول حين فكروا فى ازالة الدولة العباسية ، أدركوا أن طائفة الاسماعيلية ستطعنهم من الخلف ، وتقف عقبة فى سبيل تحقيق أطماعهم الرامية الى بسط السيطرة المغولية على بلاد الاسلام ، لذا أوصى منكوقا آن أخاه هولاكو بابادة هذه الجمـــاعة قبل سيره الى بغـــداد ، وتدمير قلاعهم ، على أن الذى شجع المغول على الهجـــوم على الاسماعيلية هم المسلمون أنفسهم الذين كانوا تحت حكم المغول ، فقد ضج هؤلاء بالشكوى من الملاحـــدة لمـــا لاقوه منهم من عنت وارهاب وظلم وجـــور ولا سيما أهل قزوين المجاورين لهم ، وكانوا سنيين يخالفون مذهب الاسماعيلية .

على كل حال سار هولاكو الى بلاد الاسماعيلية ، وانضم اليه أرغون — حاكم المغول فى فارس — وشدد هولاكو هجماته على قلاع الاسماعيلية الحصينة . وعمل على تخريبها وتدميرها ، وتغلب على أكثرها بعد لأى وعناء ، ولم يستعص على المغول فى بادىء الأمر سوى قلعتـــا ميمـــون ودزآلموت ، اذ طال حصارهم لهاتين القلعتين ، واخيرا وجد خورشـــاه — آخر حكام الاسماعيلية — انه لا طاقة له بالمغول ، وانه لم يعد يستطيع المقـــاومة ، كما أن رجـــاله قد أضناهم القتـــال ، ووهنت عزيمتهـــم ، وضعفت مقاومتهم ، فنزل من قلعة ميمون — التى كان يقيم فيها — وسلم نفسه الى هولاكو ، ودخل فى طاعته . وعلى الرغم من استسلام حاكـــم الاسماعيلية فقد رفض قائد آلموت الخضوع ، واشتد فى المقـــاومة حتى سقطت هى الأخرى فى يد المغول بعد قتال مرير ، واقتحم المغول بذلك الوكر الأصلى للحسن بن الصباح ، وخلفائه ، وحطموا ما وجـــدوه من وأدوات القتال واستولوا على الكنـــوز والأموال ، ووقعت فى أيديهم تلك المكتبة النفيسة التى اجتهد الاسماعيليون فى اعدادها فى سنوات طـــوال حتى طبقت شهرتها الآفاق ، وكانت عاملا هاما فى كشف أسرار هـــذه الجماعة . وقد أذن هولاكو للمؤرخ عطاملك الجوينى بالاطلاع على الكتب الاسماعيلية ، فأبقى الصـــالح منها ، وأحرق ما دون ذلك مما يتنـــاول العقائد الاسماعيلية الفاســـدة ، وجمع منها المصاحف والكتب القديمـــة وآلات الرصد والنجوم ، ومن أهم هذه الكتب كتاب «سر كز شىب سيدنا» الذى يتضمن شرح أقوال الحسن بن الصباح وخلفائه من بعده .

وبذلك زالت دولة الاسماعيلية سنة ٦٥٤هـ بعد أن ظلت سنوات

طوال تفزع وتقلق المسلمين ، ودكت حصون الاسماعيلية دكا ، وهـرب منها سكانها تاركين خزائنهم وكنوزهم نهبـا لجيش المغول ، ثم أخـذ المغول بعد ذلك فى تتبـع الاسماعيلية ، فكانوا يقتلـون كل اسماعيلى يقابلونه حتى لم ينج منهم سوى الشريد ، وشردوا فى البـلاد مصطنعين التقية خيفة الوقوع فى أيدى المغـول وحفاظا على حياتهم .

* * *

تتضمن العقائد الاسماعيلية ، العبادة العملية ، أى علم الظاهر ، ويتصل بالفرائض الدينية والتكاليف الشرعية ، أما العبادة العلمية ، أى علم الباطن ، ويتضمن التأويل لذلك من الخطأ القول بأن طائفة الاسماعيلية تؤمن بالباطن فقط ، ولكنها تؤمن بالظاهر أيضا ، لذا كانت تسـميتهم الباطنية خطأ وقـع فيه القـدماء . على أن طائفـة الاسماعيلية كانت تختلف من بلد الى بلد حسب ظروف كل بلد من الناحية الحضارية وتطورها الفكـرى وظروفهـا السياسـية ، ولكن طـوائف الاسـماعيلية على اختلافها كانت تؤمن بوجود الامام المعصـوم من نسل محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق ، وطاعة الامام ركن أساسى من أركان معتقـداتهم ، فاذا أدى الانسان أركان الدين كلها الخمس ولم يطع الامام فهو آثم فى معصيته ، وقد عصى الله ، وأن بالامام يعبد الله ، وبه يطاع الله ، وبه يعصى الله ، وجعل الاسماعيلية صفات باطنية بحيث أصبح الأئمة عندهم فى مرتبة فوق البشرية ، فالامام « وجه الله » و « يد الله(١٦) » . « جنب الله » وهو الذى يحاسب الناس يوم القيامة ، وأنه هو «الصراط المستقيم» و « الذكر الحكيم » القرآن الكريم ، وبرروا ذلك بتأويل تفسير بعض آيات كتاب الله .

ويلى الامام مباشرة داعى الدعاة ، ويعرف خارج اتباعه عاده « شيخ الجبل » ويتلو داعى الدعاة فى مرتبتـه « الداعى الكبير » وكانت هـذه المرتبة تشتمل على عدد من الدعاة الكبار ، ويوكل لكل واحد منهم أمر ولاية من الولايات أو مقاطعة من المقاطعـات ويأتى بعد هؤلاء الدعـاة الكبار ، الدعاة العاديون ، وكانت المراتب العالية تتكون من هؤلاء جميعا ، وكلهم على علم قائم بأصول المذهب وأغراضـه وسياسته ، أما المراتب

---

(١٦) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص١٥٦ وما بعدها .

المنخفضة فكانت تشتمل على مرتبـــة الرفيق ، وهو الذى ســلك بعض الدرجات فى سلم الدعوة ، ومرتبة اللاصق وهو الذى أخذ البيعة للامام دون أن يتعرف على ما تتضمنه هذه الدعـــوة من أعباء وواجبات ومهام ، ومرتبة الفدائى ، وهؤلاء هم الموكلون بالثأر والانتقام(١٧) .

ومن أهم معتقدات الاسماعيلية التأويل الباطن وهو نظرية دينيـــة فلسفية تنص على ان الله جعـــل كل معـــانى الدين فى المخـــلوقات التى تحيط بالانسان ، فيجب أن يستدل بما فى الطبيعة وبما فى وجـــه الأرض على فهم حقيقة الدين ، وقسموا المخلوقات قسمين ، قسما ظاهرا للعيان واضحا للناس كل الوضوح ، وقسما مجهـولا باطنا ، فالظاهر يدل على الباطن ، فجسم الانسان مثلا ظاهر وباطنه النفس وهكذا ، فما ظهر من أمور الدين من العبادة العلمية ، وما جاء فى ظاهر آيـــات الله هى معانى يعرفها العامة وينطق بها علماء السنة والفرق الشيعية الأخرى ، ولكـــل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنا لا يعلمه الا الأئمة وكبار الدعاة . وقالوا إن التأويل من عند الله ، وأنه خص به على بن أبى طالب والأئمة من بعده ، ثم عادوا فخصوا حجة الامام أو داعى دعاته بالتأويل .

أصبحت الشهادة فى تأويلهم هى معرفة الله عن طريق الامام . أما الطهارة فهى أن يتجاوز الانسان عن قواعد السنة ويعتبر كل ما يقوله الامام حقا والصلاة هى ألا يغفل المرء قط عن طاعة الله ورسوله وخليفته أى الامام ، والصوم انذار أعضاء الجسد فى الظاهر والباطن لأمر الله ، والجهاد جهاد النفس والتغلب على هواها . والحج فى طلب الدار الآخرة والزهد فى الحياة الدنيا الفانية . ويجب على الانسان التطهر من علـــم الظاهر . والوضوء هو الرجوع الى علم الامام ، وبالغوا فى شأن على ابن أبى طالب ، وارتفعوا بمنزلة سلمان الفارسى ، وجعلوه بابا من أبـــواب الجنـــة . والترك السلاجقة ليسوا من بنى الانسان ، ويطلقـــون على بعضهم اسم الجن(١٨) .

---

(١٧) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص١٦٥

(١٨) محمد السعيد جمال الدين : دولة الاسماعيلية فى ايران ص١١٩ .

الدولـــة الخـــوارزمية

أسس الدولة الخوارزمية توشتكين — أحد الأتراك فى بلاط ملكشاه — وكان يشغل وظيفة الساقى ، وما زال يترقى فى سلك الوظائف ، وكان حسب الطريقة كامل الأوصاف ، وقد أدب ابنه محمد ، وأحسن تأديبه ؛ لذا وقع اختيار أحد قادة بركياروق عليه ليكون حاكما على اقليم خوارزم ولقبه خوارزمشاه سنة ٤٩٠هـ وكان حاكما عادلا ، قصر أوقـــاته على معدلة ينشرها ، ومكرمة يفعلها ، وقرب أهل العلم والدين ، فازداد ذكره حسنا ومحله علوا ، ولمـــا ملك السلطان سنجر الســـلجوقى خراسان ، أقر محمد خوارزمشاه على اقليم خوارزم وأعمالها ، فظهرت شـــجاعته وكفايته ، وعظم سنجر محله وقدره(١) .

لمـــا توفى محمد بن قوشتكين ولى ابنـــه اتسز ، فمـــد ظـــلال الأمن وأفاض العدل وقربه السلطان سنجر ، وعظم ابنـــه واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه ، فظهرت منه الكفاية والشهامة ، فزاده تقدما وعلوا

عول أتسز على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية المتداعية ، وانتهز فرصة تهديد الخطا للســـلاجقة ، لكن ســـنجر أحبط محاولته وهزمه ، لكن أتسز استجمع قوته ، وانتهز فرصة سيطرة الخطا على بلاد ما وراء النهر ، واستولى على خراسان ؛ وجلس على عرش ســـنجر ، واستولى على أموالـــه وجاهره سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م وقطـــع الخطبة للسلطان سنجر ، لكن سنجر استطاع أن يسترد اقليم خراسان من أتسز سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م ، وتعهـــد أتسز بالاعتراف بسيادة الدولـــة السلجوقية .

على أن الدولة الخوارزمية أخـــذت تزداد قوة ، بينما أخذت الدولة الســـلجوقية فى الضعف والانحـــلال بعد وفاة سنجر ، ومدت الدولـــة الخوارزمية نفوذها على البلاد التابعة للسلاجقة ، واستطاع الســـلطان

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٠هـ .

الخوارزمي تكش أن يهزم ويقتل آخر السلاطين السلاجقة ، ويستولى على ملك السلاجقة فى العراق ، ويستولى على أصفهان والرى .

ولما توفى تكش سنة ٥٩٦هـ١١٩٩م خلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه ؛ فسار على سياسة ابيه الرامية الى توسيع حدود دولته ؛ فاستولى على معظم اقليم خراسان ، واستطاع أن يهزم الخطا سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م ويبسط سيطرته على بلاد ما وراء النهر . واستولى على اقليم كرمان ومكران ، والأقاليم الواقعة غرب نهر السند وعلى ممتلكات الغور فى افغانستان ، وبذلك بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها فى عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه ، اذ امتدت من حدود العراق العربى غربا الى حدود الهند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا الى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوبا(٢) .

على أن الدولة الخوارزمية قد جاورت دولة المغول — ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين ، وكان العالم الاسلامى فى ذلك الوقت قد مزقته الانقسامات ، ولم تعد فيه دولة قوية الا الدولة الخوارزمية ، وكان الخليفة العباسى الناصر يخشى بأس هذه الدولة ؛ لأن خوارزمشاه كان يطمع فى بغداد فسعى الى تدبير المؤامرات والدسائس للنيل منه ، بل تقاعس عن نصرته ، ولكن لا يمكن قبول ما أشيع فى ذلك العصرمن أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله حرض المغول على غزو أعدائه الخوارزميين ، وكان من الطبيعى أن تكثر الشائعات فى هذه الأيام المضطربة ، وكان السلطان جلال الدين منكبرتى يتهم الخليفة العباسى بأنه يحرض عليه المغول دون أن يمتلك دليلا على اتهامه(٣) ، والخليفة العباسى يعلم يقينا أن غزو الدولة الخوارزمية يؤدى بالضرورة الى تهديد الدولة العباسية المتداعية ، ذلك أنها تقف سدا منيعا يحول بين المغول وبين العراق .

نشأ المغول فى صحراء جوبى القاحلة ، وهم شعب يشبه الترك فى اللغة والمظهر العام ، وعاش هؤلاء القوم فى بلادهم فى شظف من العيش ،

---

(٢) حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٨ .

(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص١٦٠ .

يعملون بالصيد والرعى فى حياة كلها ترحال وتجوال ، وكثر بينهم النزاع والشقاق ، وتكررت اغاراتهم على المناطق الخصبة المجاورة ، لذا شيد الصينيون سور الصين درءا لشرهم وحماية لبلادهم من شرهم المستطير(٤) .

ظلت هذه القبائل فى منازعاتها وتمزقها حتى ظهر منهم شاب فى ريعان شبابه الغض هو تيموجين ، واستطاع أن يوحد هذه القبائل تحت لوائه ، وهذا الشاب نشأ يتيما ، وكان ابوه زعيما لاحدى قبائل المغول ، ولما توفى انفض أفراد القبيلة من حول تيوجين واستصغروا شأنه واستضعفوه وعاش هذا الفتى مع أسرته عيشة بؤس وحرمان وشقاء(٥) ، وكان عليه أن يتلمس سبيل العيش ، وقاسى الكثير من النكبات ، وهذه المحن اصقلته وأخرجت منه رجلا صلبا شجاعا(٦) .

ولما بلغ تيموجين مبلغ الرجال ، التف افراد قبيلته حوله لما أظهره من قوة البأس ومضاء العزيمة ، ولم يكتف بذلك بل ظل يناضل حتى تمكن من السيطرة على المغول وقضى على كل الحركات التى تهدف الى عرقلة جهوده ولم يأت عام ٦٠٢هـ سنة ١٢٠٦م حتى كان قد أخضع لسلطانه كل بدو صحراء جوبى ، واتخذ من حصن قراقورم مقرا له ووضع نظاما للقبائل الخاضعة له سمى الياسا وهو دستور اجتماعى وحربى صارم أساسه الطاعة العمياء للسلطان ، وأخبر تيموجين الرؤساء بأن السماء اضفت عليه اسما جديدا هو جنكيز ، أى امبراطور البشر ، أو أعظم حكام الأرض(٧) .

تطلع جنكيز خان — بعد أن وحد القبائل المغولية تحت سيطرته — الى توسيع رقعة دولته ، وكان المجال الحيوى له بلاد الصين التى تقع جنوب مملكته — حيث الخصب والرخاء والازدهار — فشن عدة حملات

---

(4) Hart : Mongol Compaigns. p. 705.
(5) Grenard : Gengis-Khan. p. 8.
(6) Ibid. pp. 7-8.
(7) Ibid. pp. 65-66.

على امبراطورية كين واستولى على مساحات شاسعة من بلاد الصين ، وسيطر على بكين سنة ٦١٢هـ سنة ٢٢١٥م(٨) .

أصـبحت امبراطورية المغـول القـوية تجـاور الدولة الخوارزمية العظيمة ، دولة الاسـلام القوية البأس ، ولم يكن هناك بد من حـدث احتكاك بين الدولتين العظميين ، ولابد أن تنقض أحـداهما على الأخرى ، ووجد السبب لاشتعال الحرب ، فقد وفد جماعة من التجار من رعـايا جنكز خان الى أترار فى الدولة الخوارزمية ، فارتـاب فيهم ينال خـان ــ حاكم أترار ــ وأرسل الى السلطان محمد خوارزمشاه يخبره بالأمر ، فأمره بالقبض عليهم واعـدامهم على اعتبار أنهم جواسيس بعث بهم جنكيز خان ، وظاهر أمرهم التجارة ، وهؤلاء التجار كان مركزهم حجندة وتعيين منها قوافلهم الى منغوليا تحمل الى خان المغول الهدايا من نسـيج الكتان والديباج . وكان يشجعهم على ممارسة نشاطهم التجارى(٩) .

ساءت العلاقات بين الدولتين عقب قتل التجار ، وشعر السلطان خوارزمشاه بمغبة قتل التجار ، فأرسـل الى دولة المغـول جواسيس لاستطلاع قوتهم ، ومعرفة نواياهم ، فعادوا اليه ، وأخبروه بكثرة عددهم وأنهم من أصبر خلق الله على القتال ، لا يعرفون الهزيمة ، وأنهم يعملون ما يحتاجون اليه من سـلاح أيديهم ، وعلى الرغم من ذلك فقد تشـدد علاء الدين محمد مع جنكيز خان ولم يقبل شروطه فى تجنب الحـرب ، فقد أرسل جنكيز خان الى خوارزمشـاه رسـلا يطلب منه تسليم حاكم أترار ، وجاء فى رسالة خاقان المغـول : فان كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان ــ حاكم أترار ــ فان من غير أمر صدر منك فسلم ينـال خان الى لأجازيه على ما فعل ، جئنا للدماء(١٠) » ، لكن السلطان الخوارزمى اعتقد انه لو لاطف جنكيز خان ، فى الجـواب ، لم يزده ذلك الا طمعـا فيه ، فتماسك وتجلـد ، بل أمر بقتل الرسـل سنة ٦١٥هـ ١٢١٠م .
ويقول الجوينى : « ان دمهم أهرق ، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنهـا بسيل جارف من الدماء ، وان رءوسهم قد سقطت ، ولكن كان شعرة منها

---

(8) Douglas : The Story of China. p. 387.

(9) D'ohsson : Histoire Des Mongols Tomi. p. 2.

(١٠) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٨٧ .

قد كلف مئات الألوف من الناس حياتهم » . ويقول النسوى(١٢) : « غيالها من قتلة هدرت دماء الاسلام ، وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم الحرام ، فاستوفى عن الغيظ غيظا ، وأحلى بكل شخص أرضا » .

ونستطيع أن نقول إن الدولة الخوارزمية كانت ستتعرض لغزو المغول سواءا حدثت مذبحة اترار أو لم تحدث ، ذلك ان دولة المغول قامت على أساس التوسع والغزو ضم الأراضى اليها بالقوة . وتعرف من تاريخ المغول أنهم استمروا فى ضم البلاد واحتلالها طمعا فى ثرواتها وخيراتها ، ولكن مذبحة أترار كانت بمثابة الشرارة التى فجرت الموقف بين الدولتين وعجلت بغزو المغول للدولة الخوارزمية .

اتسمت غارات المغول على الدولة الخوارزمية بالوحشية والهمجية وتدمير المدن والقرى ، وهذا يتضح من كتابات المعاصرين ، ويقول ابن الأثير : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها .... وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ....» وكان مظهر المغول يدعو الى الفزع والجزع ، ويلقى الرعب فى النفوس ، كانوا قساة مع أعدائهم ، لم يبقوا على أحد من قاهريهم ، وأشاعوا الخراب والدمار فى كل بلد ملكوه ، حتى تحولت المدن العامرة ، والقرى والمزارع الخصبة الى صحارى قاحلة(١٣) ، وكانوا يستنزلون أسراهم ، بحيث يجعلونهم فى طليعة الجيوش التى يحاربون بها ، واذا بدأت المعركة يقذفون بهم فى المقدمة ، ويتخذونهم دروعا لهم ، وقد يقذفونهم فى الفجوات التى يحدثونها فى أسوار المدينة ليملأوا الخنادق بأجسامهم ، واذا سلم أحد منهم يتخلصون منه بالقتل ، حتى يفسحوا المجال للأسرى الجدد ، على كل حال اكتسح هذا الزلزال المدمر ، وتلك القوى الجامحة العالم الإسلامى وأتوا على الأخضر واليابس ، وأهلكوا الحرث والنسل .

أعد جنكيز خان جيوشه لمهاجمة الدولة الخوارزمية ، وقسم جنده

---

(١١) مسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٨٨ .

(١٢) الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧هـ .

(13) Sykes : Ahist. of Persia, p. 56.

الى أربع جيوش ، الاول بقيادة ابنيه جغتاى وأوكتاى ، ومهمته فتح مدينة اترار ، والجيش الثانى أسند قيادته الى ابنه جوجى ، ووجهته البلاد الواقعة على ساحل نهر جيجون ، والثالث مهمته فتح مدينتى بناكت وخجند على نهر سيحون : اما الجيش الرابع فيتكون من أغلب قوات المغول ، ويقوده جنكيز خان ومعه ابنه تولوى ، ووجهته وسط اقليم ما وراء النهر(١٥) .

سارع المغول الى مدينة اترار ، وشددوا هجماتهم عليها ، وقد اعتصم ينال خان — حاكمها — بقلعتها ، ودافع بكل بسالة بل أنهك المغول واجهدهم شهرا كاملا بضرباته القوية لهم ، حتى فقد معظم رجاله ، وفقدت المؤن والأقوات ، وشدد المغول حصارهم للقلعة ، فالقى بنفسه الى سقف احد المنازل ، وظل يقاتل المغول بكل ما أوتى من قوة حتى قبض عليه المغول ، وسيق الى جنكيز خان — وكان امام سمرقند — فأمر بسبك الفضة وصبها فى اذنيه وعينيه ، فقتل تعذيبا ، وبذلك انتقم جنكيز خان من قاتل التجار ، وسقطت مدينة أترار — مفتاح بلاد ما وراء النهر — سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م بعد أن قتل المغول سكانها ودمروها تدميرا(١٦) .

سار الجيش الثانى بقيادة جوجى الى مدينة جند — على نهر سيحون — بعد أن استولى فى طريقه على المدن والحصون على ساحل سيحون ، ولما بلغ المغول جند ، رأى قائدها أن لا قبل له بالمغول ، فغادر البلدة تاركا أهلها يدافعون عن المدينة ، وشدد المغول هجماتهم ورموها بالمنجنيقات حتى اقتحموها ، وبذلك سقطت جند فى أيدى المغول(١٧) .

اتجه الجيش الثالث الى منطقة فرغانة والوادى الأعلى من نهر سيحون ، وحاصر هذا الجيش بناكت ، ولم يجد المغول مقاومة من

---

(14) Harold Lamb : The Crusades. j. 337.

(15) D'ohsson : Histoire Des Mongols. Tomi. pp. 217-219.

(١٦) النسوى : سيرة السلطان جلال الدنين منكبرتى ص٩١ .

(17) D'ohson : Histores of the Mongols. 1, p. 77.

سكان هذه المدينة فاستولوا عليها بسهولة ويسر ، على الرغم من اعطائهم الأمان لأهلها ، الا أنهم قتلوا منهم الكثيرين ، ولم يبقــوا الا على من التمسوا فيهم المقــدرة على خدمتهم ، ثم سار المغول الى خجند ــ وهى مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها الغناء وانتعاش التجارة فيها ، وشجاعة اهلها وقوة بأسهم ــ وقــد قاوم حاكمها الشجاع تيمور ملك المغول بكل بسالة ، حتى ضعفت قوته ، فامتطى جواده وذهب الى خوارزم حيث كان يرابط السلطان جلال الدين منكبرتى(١٨) ودخلت خجند فى حوزة المغول .

سارت جيوش المغول بقيــادة جنكيز خان الى بخــارى ، ودارت الحرب بين جند المغول والجند الخوارزمى ثلاثة أيام هزم فيها الخوارزميون وفر الجند الخوارزمى ، فضعف أهلها ووهنت عزيمتهم ، واعتصم بعضهم فى القلعة ، وشدد المغول هجماتهم عليها ثلاثة أيام ، وقاتل من فيهــا حتى قتلوا جميعــا ، وتسلم جنكيز خان القلعة ، وأمر أعيــان المدينة وتجارها بالاجتماع معــه ، وجردهم جميعا من أمــوالهم ، وطردهم من المدينة ، وقتلوا كل من صادفوه فى بخارى من أهلها بعد ذلك ، ونهبــوا البلدة « وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من النساء والرجال والولــدان وتفرقوا أيدى سبأ ومزقوا شر ممــزق » ساروا الى سمرقند ، وأمامهم الأسرى مشــاة على أقبح صورة ، وكــل من عجــز عن المشى قتل ، وحاصروا ســمرقند ، وبها الكثير من الجند الخوارزمى ، وأعد أهــل سمرقند العدة لمقــاومة المغــول ، ودار قتال شديد بين الفريقين ، هلك فيه أكثر الجنــد الخوارزمى ، الأمر الذى أضعف مقاومة أهل سمرقند ، وطلبوا الأمان ، وأجابهم المغــول الى طلبهم ، وفتحــوا أبواب البلدة ، وطلبوا من أهل البلدة تسليم أســلحتهم وأمتعتهم ودوابهم ، ففعلــوا تجنبا للقتل ، ولكن المغول ــ كعادتهم وحبهم لسفك الدماء ــ أعملــوا السيف فى رقاب الأهلين ، حتى أفنوهم عن آخرهم ، ودخلــوا البلــد ، ونهبوا ما فيه ، وأحرقوا الجامع ، وبذلك دخلت سمرقند فى حوزة المغول سنة ٦١٧هـ(٢١)/ سنة ١٢٢٠م .

---

(١٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٦هـ .

(١٩) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٠٨ .

(20) Howorth Hist. of the Mongols. 1. p. 77.

(٢١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧هـ .

وبعد أن امتلك المغول بخارى وسمرقند ، أعد جنكيز خان جيشا يتألف من عشرين ألف مقاتل ، وأمر قائده بالتوجه الى خوارزمشاه والبحث عنه أينما وجد « ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه » فسارت جيوش المغول تتعقب خارزمشاه الذى أخذ يضرب فى الأرض ، وينتقل من بلد الى بلد ، وجند المغول تطارده ، وانتهى به المطاف الى الاستنداد — وهى من أمنع النواحى فى اقليم مازندران — وباغته المغول ، فلجأ الى احدى جزر بحر قزوين ، وقد انتابه اليأس من الحياة ، ومرض ، وكان يقول : « لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر ، فما الدنيا لساكنها بدار ، ولا ركونه اليها سوى انخداع واغترار » وأقام بالجزيرة فى عزلة تامة يعانى المرض وكان أهل مازندران يقدمون اليه كل ما يشتهى ، وقبل وفاته سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م ، أوصى بالسلطنة من بعده لابنه(٢٢) جلال الدين ، وولى جلال الدين منكبرتى السلطنة بعد أن سيطر المغول على بلاد ما وراء النهر — أهم أجزاء دولته المتداعية وامتلكوا اقليم مازندران رغم حصانته ومناعته ، ثم اتجهوا الى الرى ، وفى الطريق التقوا بالملكة تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين — وقد غادرت خوارزم على أثر تهديد المغول ، ولم تر فيه دار قرار واستصحبت ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه ، وقبض المغول عليها ، واستولوا على ما معها من ثروات هائلة ، وكذا قضت هذه الملكة أيامها الأخيرة فى أسر المغول . وجدير بالذكر أن تركان خاتون كانت ذا مهابة ورأى ، تنظر فى المظالم ، وتحكم فيها بالعدل ، وتنصف المظلوم من الظالم ، ولها اصلاحات كثيرة ، وكان لها من كتاب الانشاء سبعة من مشاهير الكتاب(٢٣) .

باغت المغول الرى على حين غفلة من أهلها وملكوها ونهبوها ، واسترقوا نساءها ، وقتلوا أطفالها ، ثم غادروها فى طلب خوارزمشاه ، وعاثوا فى البلاد التى مروا بها نهبا وفسادا ، واقتربوا من همذان ، فقدم أهلها للمغول الأموال والهدايا حتى كفوا عن قتلهم ، وسيطر المغول

---

(٢٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص١٠٦-١٠٧ .

(٢٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٩٩ .

على هذه البلدة ، ثم زحفوا الى قزوين ، وامتلكوها عنــوة وقهرا(٢٤) وبذلك سيطر المغول على بلاد العراق العجمى .

أثار المغول الرعب فى بلدان الدولة الخوارزمية حتى أن اقترابهم من مدينة أو قرية ، يثير الفزع فى النفوس ، فيهجرون بلدانهم ، أو يقــدمون فروض الولاء والطاعة لأعــدائهم ، وبذلك استسلمت البلاد الاســلامية للمغول فى سهولة ويسر ، الا أن استسلام الأهلين لم ينجهم من بطش المغــول وويلاتهــم ، وظل المغــول يواصلون تقــدمهم حتى بلغــوا تبريز ــ عاصمة أذربيجان ــ ويحكمها أوزبك بن البهلوان ، وهو شــيخ بلغ من العمر أرذله ، يقضى وقته فى الشراب ، ولا يكاد يفيق ، ولمــا اقترب المغول من بلاده ، أرسل اليهم المــال والهدايا والثياب والدواب ، وصالحهم ، ثم اتجهوا الى ساحل البحر حيث المراعى الكثيرة اللازمــة لدوابهم ، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موقان ، ودخلوا فى معارك حامية مع أهالى بلاد الكرج ، وهزموهم ، وامتلكوا مراغة سنة ٦١٧هـ(٢٥) وبذلك سيطروا على أذربيجــان وبلاد الكرج .

شرع جنكيز خان بعد أن امتلك بلاد ما وراء النهر وبلاد العــراق العجمى وأذربيجان الى السيطرة على خراسان وخــوارزم حتى يتم له السيطرة الكاملة على بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة ، فأعــد جيشين ، الأول عبر جيحون وقصد مدينة بلخ ، وطلب أهلها الأمان فأمنهم المغــول سنة ٦١٧هـ ، ولم يتعرض المغــول لهم بالقتل والنهب وأدخلــوا البلدة فى حوزتهم ، وواصلوا تقــدمهم فى بلاد خراســـان ، فســقطت البــلاد فى أيديهم ، البلــدة تلو الأخــرى ، ثم حاصروا مرو ، وشددوا عليهــا الحصار حتى استسلمت ثم أمعنــوا فى قتل أهلها ، ونهبوا البلــدة ، وضموا اليهم أرباب الحرف والصناعات من سكان مرو(٢٦) ، ويقال أنهم أجهزوا على أهل البلدة جميعهم حتى بلغ عدد القتلى سبعمائة قتيل ، ثم ساروا الى نيسابور ، فامتلكوها بعد حصار دام خمسة أيام ، وارتكبوا مع أهلها من الفظائع ما ارتكبوه مع غيرهم ، وأقاموا فى البلدة خمســة

---

(24) D'ohsson Histoire Des Mongols. tom. i. p. 243.

(٢٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧هـ .

(26) Howorth : Hist of the Mongols. p. 93.

عشر يوما ينهبون ويدمرون ، وواصلوا مسيرهم حتى بلغــوا طوس ، وامتلكوهـــا ، ثم ساروا الى هراة ، وبسطوا سيطرتهم عليها ، ومنهـــا اتجهــوا الى غزنة ، فالتقوا بالسلطان جلال الدين منكبرتى ودارت معركة انتصر فيها خوارزمشاه على أعـــدائه .

أما الجيش المغولى الذى اتجه الى خوارزم ، فقد لقى مقاومة باسلة من أهلها ، ودارت بين الفريقين معارك ضارية ، وصمد أهـــل خوارزم للحصار الذى دام خمسة أشهر ، وقتـــل من الفريقين خلق كثير ، وبلغ الأمر بالمغـــول أن أرسلوا الى جنكيز خان يطلبـــون منه النجدة وأمدهم بجيش كبير وتمكنـــوا من الاســـتيلاء على خوارزم بعـــد لأى وعناء ، وبعـــد أن امتلك المغـــول خوارزم بعـــد هـــذا الجهد الشاق والتضحيات الكثيرة ، قتلوا كل من فيه ، ونهبوا كل ما فيـــه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل فتحوا ماء جيحون على حوارزم ، فغرقت البلـــد ، وتهدمت الأبنية ، ولم يسلم من البلد أحد(٢٧) ، « فمن اختفى من النار أغرقه الماء ، ومن ســـلم من الماء قتله الهدم ، فأصبح البلد خرابا يبابا ، كأن لم يغن بالأمس(٢٨) » .

ولى السلطان جلال الدين منكبرتى ــ كما رأينا ــ فى وقت حرج ، اذ استولى المغـــول على معظم المملكة ، ونهبت خزائنها ، ومزق جيشها ، وكان جلال الدن شجاعا مقداما ، اعتزم استرداد ملكه الســـليب ، ورد الغزاة المعتدين عن بلاده ، واستطاع جمع شمل جنده المبعثرين فى البلدان الخوارزمية ، وأقام فى غزنة بعد أن استردها من المغـــول ، ونظم جيشا قوامه ستين الف مقاتل ، وقد أزعج ذلك جنكيز خان ، ورأى التخلص من خصمه ، فارســـل جيشا الى غزنة ، التقى بالجيش الخـــوارزمى فى معركة حامية الوطيس ، أنزل الله فيها نصره على المسلمين ، وانهـــزم المغول شر هزيمة ، وقتل المسلمون منهم كثيرين(٢٩) وكان لهذا النصر أهمية كبيرة فى البلاد الاسلامية التى مزقتها هزائم المغول المتكررة ، وعاش أهلها فى يأس وقنـــوط وتمزق ، فارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين ، وتيقظوا وثاروا على المغول ، وقتل أهل هراة واليهم المغولى(٣٠) .

---

(٢٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧ هـ .

(28) D'ohsson : Histoire Des Mongols tom. I. p. 267.

(29) Ibid. p. 268.

(٣٠) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٥٥ وما بعدها .

سار جلال الدين على سياسته الرامية الى طرد المغول من بلاده ، وارسل الى جنكيز خان يتوعده ويهـــدده ويقول « فى أى موضع تريـــد يكون الحرب حتى تأتى اليه » فلم يتغاض جنكيز خان عن هذا التهـــديد ، وشن الحزب من جديد على جلال الدين الذى أصبح يشـــكل خطرا على مملكته المترامية الأطراف ، ولكن السلطان الخوارزمى انتصر مرة اخرى على جيش جنكيز خان ، وقتل الكثير من المغـــول ، وغنم الخوارزميون ما معهم ، واسترد المسلمون أسراهم من العـــدو ، لـــكن الخـــوارزميين انشغلوا بجمع الغنائم ، وكانت تفوق كل وصف ، وتنازع جند السلطان حول الغنائم ، نزاعا ادى الى انقسام خطير فى الجيش عجز الســـلطان عن تداركه ، وفارق فريق من الجيش الخوارزمى المعركة بقيادة بغـــراق الى بلاد الهند ، وحاول جلال الدين عبثا أن يثنى هذا الرجل عن عزمه ، وأوضح له خطورة عمله هذا على الاسلام والمسلمين ، وألح عليه فى ترك الخـــلاف والشقاق بل بكى بين يديه(٣١) . لذلك ضعف أمر جلال الدين بمفارقة معظم جيشه له ، ونهض اليه عـــدو الله بجيوشه ، ودارت المعركة بين الجمعين على حافة نهر الســـند ، وكادت أن تدور الدائـــرة على المغول ، لولا أن نصب جنكيز خان كمينا أدى الى قتل كثير من الخوارزميين وحلت الهزيمة بالمسلمين ، وكان الرجل منهم يأتى النهر فيهوى بنفسه فى تياره ، وهو يعلم أنه لابد غريق « وأن ليس له الى الخـــلاص طريق » وأسر ولد جلال الدين ، وكان غرا فى الثامنة من عمره ، وقتل بين يدى غريمه جنكيز خان ، ولـــما عاد جلال الدين الى حافة السند كسيرا ، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بعالى صوتهن : بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن فغرقن « وهذه من عجائب البـــلايا ونوادر المصائب »(٣٢) .

وعبر جلال الدين نهر السند مع أربعة آلاف من رجـــاله متجهين الى الهند « حفاة عراة كأنهم أهل النشور ، حشروا فبعثوا من القبور » وقـــد أعادت الهزيمـــة التى لحقت بالخوارزميين الى المغـــول هيبتهم ، واستردوا قوتهم ، وامتلكوا غزنة التى خلت من الجند ، وقتلوا أهلها

---

(٣١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ١٥٨ وما بعـدها .

(٣٢) المصـدر السـابق .

ونهبوا أموالهم وأسروا النساء ، ودمروا البلـدة تدميرا ، حتى أصبحت غزنة خرابا دمارا(٣٣) .

اعتزم جلال الدين استرداد قوته فى بلاد الهند ، واستعان بسلطان دهلى لكن ألتمش توجس خيفة من جلال الدين ، وقضى فى الهند ثـلاث سنوات واشتبك مع سلطان دهلى فى عدة معارك ، وخشى قباجة ــ حاكم السند ــ من اقامة الخوارزميين فى ولايته ، لأنها قد تـؤدى الى تعقب المغول لهم ، وما ينجم عن ذلك من خطر داهم على بلاده ، ولكن جلال الدين أوقع بهم الهزيمة ، ولمـا علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القـدوم الى الهند والنيل منه ، سار الى دهلى ، وسـأل سـلطانها ــ ألتمش بأن يعطى جنده حق الاقامة فى دهلى ، لكن السلطان المملوكى اعتذر اليه بحجة أن حرارة الجو فى دهلى لا تناسب الخوارزميين ، ذلك أن سلطان دهلى خشى أن ينضم جند الترك فى دولته الى سـلطان الخـوارزميين جلال الدين منكبرتى وأرسل اليه يراوغه ويوادعه ويقول : ليس يخفى ما وراءك من عدو الدين ، وأنت اليوم سلطان المسلمين وابن سلطانهم ، ولست أستجل أن أكون عليك عونا للزمان ، وعدة للحدثان ، ولا يليـق بمثلى أن يجرد السيف فى وجـه مثلك الا اذا اضطره اليه دفاع أو سامة اليه تحرز واقناع ، وان رأيت زوجتك يا بنتى لتحتكم الثقة(٣٤) .

وعلم السلطان جلال الدين أن ألتمش ــ سلطان دهلى ــ وسـائر ملوك الهند وراجاتها وأصحاب ولاياتها قـد تآمروا على طرده من ديارهم ، ولم يتغاض جلال الدين عن موقف سلطان دهلى العدائى منه ، فاشتبك مع قواته بالقرب من دهلى ، ثم انسحب الى لاهور ، وكثر جمع جـلال الدين بما وفد عليه من الجند التابعين لأخيه غياث الدين ــ حاكم العراق ــ كذلك انضـمت اليه قبـائل الكهكرية الهنـدية ــ وكانوا ناقمين على قباجة ، فكثر جمعه واشتد بأسه ، وعظم أمره ، وتمكن من انتزاع بعض البلـدان من والى السند(٣٥) .

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه الى الهند ، الاقامة فيها ، وانما

---

(٣٣) المصدر السابق .

(٣٤) النسوى سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى صـ ١٦٨–١١٦ .

(35) D'ohsson Histoire Des Mongols. tom. III. p. 11.

كان يهدف الى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته ، ويعـــود الى بلاده ، وقد واتته الفرصة للانتقام من المغول ، وشن الحرب ضدهم ، واستعادة ملكه السليب ، حين توفى جنكيز خان ـ قاهر الخوارزميين ـ وأعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التى تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية الى مواطنها الأصلية ، فعبر جـلال الدين نهر السند سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وقصد ايران ، واشتبك مـع المغول فى عدة معارك(٣٦).

عادت معظم بلدان الدولة الخوارزمية الى حوزة السلطان جـلال الدين منكبرتى « ولجأ اليــه حكام المدن والبلاد الخوارزمية يعلنون ولاءهم وبهجتهم بالتخلص من حكم المغــول وأبقى بعضهم على ما بيده ، وعزل بعضهم « وأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب ، واطفأت من نيران الفتن ما التهب ، وتفرقت العمــال والوزراء فى الأطراف بتواقيــع الســلطان فضبطوها » .

وبذلك استرد هذا السلطان الشجاع ملكه وسلطانه على أقاليــم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران ، على أن بــلاد ما وراء النهر بقيت فى أيدى المغول .

خلف اجتاى جنكيز خان ، وعول على استرداد البلاد التى آلت الى جلال الدن ، وسير جيشا كبيرا الى الرى فانتزعهــا واستولى على همدان سنة ٦٣٨هـ/١٢٣١م وطارد المغول السلطان جلال الدين ، وتعقبوه فى موقان وتبريز وفى أذربيجان ، واتجــه الى آمد ! فهزمه المغــول هناك وشردوا رجاله ، وقتل المغول كل من تتبعه فى فراره ، وظل السلطان يتنقل من بلد الى بلد ، والمغول تلاحقه أينما سار واتجه ، حتى وصــل الى جبال كردستان ، وقد شك فيه بعض الأكراد ، واخذوه وسلبوه كعادتهم بسائر من ظفروا به ، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم سرا : « انى أنا السلطان فلا تستعجل فى أمرى ، ولك الخيار فى احضارى عند الملك المظفر شهاب الدين ، فيغنيك ، أو ايصالى الى بعض بلادى فتصير ملكا ، فرغب الرجــل

---

(36) Ibid.

فى ايصاله الى بـــلاده ، وتركه عنـــد امرأته ومضى بنفسه الى الجبـــل لاحضار خيله ولكن هاجم المنزل رجل من الأكراد ، وقتله بعـــد أن تعرف عليه ، ثأرا لمقتل أخ له على يديه سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م(٣٧) .

وهكذا كان مصير هذا السلطان الشجاع ، وبوفاته ، زالت الدولة الخوارزمية .

---

(٣٧) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٣٨١ .

٦ — سقوط الخلافة العباسية

تتابعت انتصارات المغول وفتوحاتهم ، واستولوا على أذربيجان وبلاد أران وغالبية مدن جورجيا ، وأرمينية الكبرى ، وزحفوا الى شمال العراق ، وهددوا أقاليمه الشمالية ، واشتبكوا عدة مرات مع جيوش الخلافة العباسية لاختبار قوتها .

أخذت الدولة العباسية فى الضعف والتدهور فى عهد المستعصم آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٤٠ — ٦٦٦هـ وكان رجلا لين الجانب ضعيف الوطأة لين العريكة قليل الخبرة ، وكانت الأخبار تصل الخليفة تباعا بزحف جيوش المغول ومع ذلك لم يتخذ الأهبة لمواجهتهم قبل أن يستفحل خطرهم ويستطير شرهم .

جاء المغول فى عهد المستعصم الى العراق عدة مرات حيث حدثت مناوشات بينهم وبين جيش الخليفة لكنهم لم يوفقوا فى الاستيلاء على بغداد حتى سنة ٦٥٦هـ وعندما اعتزم هولاكو مهاجمة الاسماعيلية أرسل الى الخليفة يطلب اليه أن يمده بجيش ليعاونه فى القضاء على تلك الطائفة فلما شاور الخليفة أتباعه حذروه أن يقدم على هذا العمل وأدخلوا فى روعه ان هولاكو يريد بهذه الوسيلة أن تخلو بغداد من الجيش حتى يتيسر له الاستيلاء عليها (*)

ولما فرغ هولاكو من محاربة الاسماعيلية ودحرهم قصد همدان وفى شهر رمضان سنة ٦٦٥هـ ارسل رسولا يحمل رسالة الى الخليفة مصاغة فى قالب التهديد والوعيد لامتناعه عن ارسال المدد ، ولم يكن هذا الاحتجاج فى الواقع الا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التى سبق أن منحت فى بغداد للأمراء البويهيين ثم السلاجقة . يقول هولاكو فى هذه الرسالة « لابد انه قد وصل الى شخصك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدى الجيوش المغولية منذ جنكيز خان ، وعلمت اية مذلة لحقت بأمر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا ارباب العظمة واصحاب الشوكة ، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط فى وجه أى طائفة من تلك الطوائف التى تولت السيادة ، واعلم أننى

اذا غضبت عليك وقدت الجيش الى بغداد فسـوف لا تنجو منى ولو صـعدت الى السـماء أو اختفيت فى باطـن الأرض » . رفض الخليفة انذار المغول وارسل هولاكو يتوعده ان هو حاول غزو بلاده على الرغم من انه كان لا يملك القوة اللازمة لمهاجمة هولاكو ، وكان المسلمون فى حالة شديدة من الضعف والانقسام ، لذلك كان طبيعيـا عدم جدوى تهديدات الخليفة ، بل كان لها على العكس أسوأ الأثر فى نفس هـولاكو فاعتزم قبل كل شىء فتح بغداد .

وصل رسل الخليفة الى هولاكو ، فلما اطلع على رسـالة الخليفة وعلم بما لحق رسله من أذى العامة فى بغداد غضب غضبا شديدا وأعاد رسل المستعصم وحملهم رسالة أخرى تضمنها انذارا نهائيا لـه صيغ فى لهجة شديدة عنيفة جاء فيها : « لقد فتنك حب المـال والعجب والغـرور بالدولة الفانية بحيث لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين .. فانى متوجـه الى بغداد بجيش كالنمل والجراد » .

رأى وزير الخليفة مؤيد الدين العلقمى بذل الأموال والتحف والهدايا وارسالها الى هولاكو مع تقـديم الاعتذار له وكان يرى ذكر اسم هولاكو فى الخطبة ونقشه على السكة حتى يبعد هولاكو عن غزو بغداد ، ولكن الخليفة رفض العمل بمشـورة الوزير وأصر على اعداد العدة للدفـاع عن بغـداد .

وقبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد استشار المنجمين فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالـع السعد والنحس ، وقد أشار عليه فلكى مسـلم يعطف على الخليفـة بعـدم غزو بغداد فقال له : الحقيقـة ان كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على قصد الخلافة والزحف الى بغداد لم يبـق له عرش ولا جاه واذا أبى الملك أن يسمع لنصائحى وتمسـك بمشروعه فسوف تحـدث هذه الحملة خللا فى نظام الكـون ، فضلا عن أنها ستكون وبالا على الخائن نفسه اذ سيهلك ، ويهلك الزرع والحيـوان ولن تطلع الشمس ولن ينزل المطر ، لكن منجمين آخـرين أكدوا لهولاكو نجـاح مشروعه ، ومهما يكن من أمر فقد أمر هولاكو بتحـريك جيشه من أطراف بلاد الروم والاتجـاه الى بغـداد وأقام هولاكو معسكره خارج بغـداد من الشرق ، ولم يستطع جيش الخليفة منع المغـول من الاقامة فى الجهة الشرقية ، وفى أوائل سنة ٦٥٦هـ حاصر المغول بغداد وأحكموا حصارها

واطلقوا يد التخريب فى المدينة وفتحوا أقساما منها ، ولمــا رأى الخليفة حرج موقفه أراد أن يثنى المغــول عن عزمهم على اتمام الفتح فأرســل اليهم الهدايا القيمة ولكن هولاكو لم يستجب لمحاولة الخليفة .

هزم هولاكو جيشا أنفذه الخليفة لمحاربته ، وأباده عن آخره ، عندئذ خرج الوزير ابن العلقمى الى هولاكو وتوثق منه لنفسه وعاد الى المستعصم وأخبره أن هولاكو يبقيــه فى الخلافة ، وحسن له الخــروج الى هولاكو فخرج من بغداد ومعه أبناؤه فلما وصلوا الى هولاكو أحسن استقبالهم وطلب الى الخليفة أن ينادى فى الناس بالقاء اسلحتهم والخروج من المدينة لاخضاعهم ، فلما ألقى الناس أسلحتهم وخرجوا قتلوا جميعا . أما الخليفة وأولاده وكل ما يتعلق بهم فقد وضعهم الخليفة فى معتقل(٣٨) .

بعد ذلك أمر هولاكو بردم الخنادق وهدم أسوار المدينة كما شــيد جسرا على نهر دجلة ، ثم أعلن الهجوم العــام على المدينة فى صفر من السنة نفسها ٦٥٦هـ فدخلها المغول ودمروها وخربوا المســاجد ودمروا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء اربعين وما ، واندلعت فيها ألسنة النيران فى كل جانب من المدينة واتت على الأخضر واليابس ودمر اكثر المدينة وجامع الخليفــة ، وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد قصد قصر الخليفــة واستولى على ما فيه من نفائس وتحف نادرة ، وأخيرا بعد أن سفك هولاكو من الدماء ما سفك وخرب ما خرب أصدر أمرا بالكف عن القتل ، وان ينصرف كل الى عمله ويقول المؤرخون انه لمــا نودى ببغــداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم موتى اذ ابتعثوا من قبــورهم وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخــاه فأخذهم الوبــاء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى ، وقتل هولاكو الخليفــة البأس وتلك الأيام نداولها بين الناس .

---

(٣٨) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ م٢ ،جـ١ ، ص٢٧٤ .

المغـول بعد سـقوط بغـداد

امتدت غارات المغول الى ماردين ، فسير هولاكو جيشا اليها سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م ، غير أن أميرها الملك السعيد ، تحصن فى القلعة ، وأرسل القائد المغولى اليه يحذره من التمادى فى المقاومة ، لكنْ الملك السعيد ، رفض الاستسلام ، لما عرفه عن غـدر المغول ، الذين ظلوا يشددون الحصـار على قلعـة ماردين ، حتى اجتاحها الغـلاء والوباء والقحط ، فثار مظفر الدين على أبيه الملك السعيد ، وانتزع منه القلعة وأرسل الى القائد المغـولى يطلب منه الكف عن القتال فى مقابل نزولـه عن القلعة ، فوافق هولاكو وأقره على حكم ماردين(١) .

كان هولاكو يحرص على أن يظل أمير ماردين تابعا له ، فلما خرج عليه أبناء بدر الدين لؤلؤ — حكام الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر — واستنجدوا بالظاهر بيبرس — سلطان المماليك فى مصر — خشى أن يحذو الملك المظفر — أمير ماردين — حـذوهم ، فلما قـدم عليه أكـرم وفادته ، وقال له : بلغنى أن أولاد صاحب الموصل هربوا من البلاد الى مصر ، وأنا أعلم أن أصحابهم كانوا السبب فى خروجهم ، فاترك أصحابك الذين وصلوا معك عندى ، فانى لا آمن منهم أن يحرفوك عنى ، ويرقبوك فى النزوح عن بلادك الى مصر(٢) . فأجاب صاحب ماردين طلبه ، وعهد اليه هولاكو بحكم نصيبين بالاضافة الى ماردين(٣) .

ظل الملك المظفر على ولائه لهولاكو ، فانضم الى قوات المغول فى حصار الموصل سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م . ولما تـوفى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٣م استمر خلفاؤه فى ولائهم للمغول ، وبلغ من اخـلاص نجم الدين غازى الثانى المنصور بن قرا أرسلان — الذى ولى ماردين سنة ٦٩١هـ/١٢٩٣م — للمغول أن منحه هولاكو التاج والمظلة الملكية ، وجعله من خواصـه ، وفوض اليه الملك فى كل من ديار بكر وديار ربيعة .

---

(١) رشيد الدين فضل الله : تاريخ المغول جـ١ ص٣٢٥ .
(٢) قطب الدين البعلبكى : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص٤٥٧ـ٤٥٨ .
(٣) نفس المصدر : جـ١ ص٤٩٢ .

عهد منكوقا — خاقان المغول العظيم فى قرا قورم لأخيه هولاكو بالتوجه الى غرب آسيا لفتح غرب ايران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن ، واوصاه بالمحافظة على تقاليد جنكيز خان وقوانينه فى الكليات والجزئيات ، واحترام رأى زوجته دوقوز خاتون ومشاورتها فى مهام الأمور .

واستطاع هولاكو أن يكون دولة قوية للمغول فى فارس ، وقدم زعماء فارس والأتابكة والحكام المحليون فروض الولاء والطاعة لهولاكو ، ولم يعد يعكر صفو هذه الدولة الا الاسماعيلية الذين اعتصموا فى الجبال المنيفة ، وظل خلفاء الحسن الصباح يجمعون الاتاوة من الأمراء المحليين ، ويلحقون ويلاتهم بكل من يمتنع عن أدائها لهم(٤) .

واصل المغول سياستهم التوسعية فى بلاد الجزيرة ، فاستولوا على آمد ونصيبين وحران والرها وسروج والبيرة ، واستعان هولاكو ببعض أمراء المسلمين فى غزو الشام ، فأرسل الى بدر الدين لؤلؤ — صاحب الموصل — يقول : « ان سنك قد جاوزت التسعين ، ولذلك أعفيناك من السير معنا ، ولكن عليك أن تبعث بابنك الملك الصالح مع الرايات الغازية ، لفتح ديار الشام ومصر » . فلم يتردد بدر الدين فى انفاذ جيش الى هولاكو بقيادة ابنه(٥) .

لما توفى بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٥٧هـ قسم هولاكو امارته بين أبنائه الثلاثة ، فولى الملك الصالح حكم الموصل ، على حين فوض حكم سنجار لعلاء الدين ، وجزيرة ابن عمر للمجاهد اسحاق(٦) ، غير أن أبناء بدر الدين لؤلؤ ما لبثوا أن خرجوا على المغول ، وغادروا بلادهم ، ولجأوا الى سلطان المماليك فى مصر ، فأرسل هولاكو جيشا استولى على بلادهم سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١(٧) .

كذلك أظهر الصاحب تاج الدين بن صلاية — حاكم اربل — ولاءه للمغول ، ففى أثناء حصار هولاكو بغداد قصد القائد المغولى

---

(٤) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ م٢ جـ١ ص ٢٣٦-٢٣٧ .
(٥) المصدر السابق جـ١ ص٣٠٥ .
(6) Howorth : History of the Mongols. Vol. 4 p. 131.
(٧) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ : تاريخ المغول المجلد الأول جـ١ ص٣٢٧ .

ارقيونويان ـ مدينة أربل ، وطلب من حاكمها تمكينه من الاستيلاء على القلعة ، فحاول تاج الدين اقناع حاميتها بالتسليم(٨) ، ولما استعصت أربل على المغول فتحوا كافة البلاد ، ولم تستطع قوة الوقف فى وجههم • من الجند ، غير انه لم يكن لهذه الامدادات أى تأثير فى سقوط القلعة(٩) فى أيدى المغول ، فاستدعى القائد المغولى بدر الدين لؤلؤ ، فسار الى اربل ، وحاصر قلعتها ، وهدم أسوارها وسلمها للمغول(١٠) .

وهكذا لم يتمكن أتابكة الموصل والجزيرة من صد الخطر المغولى الذى تعرضت له بلادهم ، بل خشوا بأسهم ، واضطر الى الدخول فى طاعتهم . غير أن هذه السياسة التى اتبعها هؤلاء الأتابكة لم تجد نفعا ، فتعرضت بلادهم لغارات المغول التى اقترنت بالتخريب والتدمير .

تطلع المغول الى الزحف على مصر ليتموا بذلك السيطرة على بلاد الشرق الاسلامى وليقضوا على آخر قوة اسلامية فى الشرق فى استطاعتها التصدى لهم .

أرسل هولاكو الى سلطان المماليك فى مصر الملك المظفر قطز خطابا يهدده فيه ، ويتوعده ان امتنع عن التسليم والاذعان له ، ويذكره بأن المغول فتحوا كافة البلاد ، ولم تستطع قوة الوقوف فى وجههم ، ومما جاء فى خطابه « لكم فى جميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، واسلموا الينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، فنحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا وأى أرض تؤويكم ، وأى طريق تنجيكم ؟ فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ... وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص »(١١) .

---

(٨) لم يقبل القائد المغولى اعتذار صاحب اربل عن تمكين المغول من فتح البلدة ، وقال له : «ان الدليل على صحة الطاعة هى تسليم القلعة» وأرسله الى هولاكو فأمر بقتله. (قطب الدين البعلبكى : ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص٩١) .

(٩) قطب الدين البعلبكى : ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص٩١ .

(10) Howorth : History of the Mongols. Vol. 4 pp. 134-135.

(١١) المقريزى : السلوك جـ١ ص٤٢٨ .

لكن السلطان قطز لم يأبه بتهديد المغول ، بل عقد العزم على ضرورة مقاومتهم مهما كانت التضحيات ، فأمر بقتل رسل سلطان المغول وعلقت رؤوسهم على باب زويلة ، وخرج السلطان قطز الى بلاد الشام للقاء المغول الذين اجتازوا الشام ودخلوا فلسطين ، واقتربوا من حدود مصر ، واحتلوا غزة .

اشتبك المسلمون من مصر والشام وبلاد الجزيرة فى رمضان ١٢٦٠م مع المغول فى عين جالوت بالقرب من نابلس فى معركة حامية الوطيس انتصر فيها المسلمون على أعدائهم ، بعد أن اشتدت هجمات المغول حتى أن كتبغا — قائد المغول — تحول أثناء المعركة الى قطعة من اللهب بسبب الغيرة والغضب ، وقد أظهر المسلمون شجاعة منقطعة النظير أثناء المعركة ، ولما رأى السلطان قطز قوة بأس المغول ألقى بخوذته عن رأسه الى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : وا اسلاماه . عندئذ ثارت حماسة جنده ، وحمى وطيس المعركة ، وانتصر المسلمون انتصارا رائعا ومزقوا شمل المغول كل ممزق ، وخر كتبغا — قائد المغول — صريعا فى المعركة ، ولم ينج من المغول الا من لاذ بالفرار ، وفروا لا يلوون على دار ولا يركنون الى قرار(١٢) .

ومما لا شك فيه أن موقعة عين جالوت من الوقائع الحاسمة فى التاريخ ، لأنها أضعفتهم ، وأوقفت تقدمهم فى بلاد الاسلام .

ترتب على موقعة عين جالوت نتائج بالغة الأهمية ، فلو انتصر المغول فى تلك الموقعة لفعلوا بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق والشام . ولقاسى العالم الاسلامى من ويلات المغول الشىء الكثير ، ولتغير مجرى التاريخ فى المنطقة كلها . ولكن هزيمة المغول فى واقعة عين جالوت لم ينقذ مصر فحسب من وحشية المغول وهمجيتهم ، بل أنقذ الشام أيضا ، لأن المغول بعد هزيمتهم فى عين جالوت لم يعد لهم مقام فى بلاد الشام(١٣).

لقد كان انكسار المغول فى عين جالوت بداية لظهور الدولة الايلخانية لحيز الوجود على يد هولاكو الذى يعد المؤسس الأول لها ، وقد

---

(١٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص٧٩ .

(١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص١١٢٧ .

وطدت أركانها فى عهد خلفائه من بعده . وكانت وفاة هولاكو فى أوائل ٦٦٣هـ قبل أن يتم بناء مرصد مراغة الذى أمر ببنائه ، وعلى عادة المغول شيدت له مقبرة القوا فيها بالكثير من الجواهر وارتدوا الى جواره عدة فتيات جميلات مزينات بالملابس الفاخرة والمرصعة لاعتقادهم بأن وجـود تلك الفتيـات معه فى القبر يحفظه ويخفف عنه الوحشة وظلمـة القبر ورهبته وثقل الوحدة وضيق المكان ونيران العذاب ، ويقول خواجة نصير الدين الطوسى :

عندما مضى هولاكو من مراغة الى مشتاه

وضـع تقـدير الأجـل نهـاية لعمـره

ذلك فى ليلـة الأحـد عـام ٦٦٣

والتى كانت ليلة التاسع عشر من ربيع الآخر

وبعـد انتهاء فترة العزاء اذعن أبناء هولاكو الاثنا عشر لطاعـة اباقاخان وانتخبوه من بينهم .

دولة المغـول الايلخانيـة بفارس والعـراق

كان هولاكـو بعد انتصـاراته الكبيرة فى المشرق يضم الى ملكـه الشاسع العريض ايران والعراق ، وكانت الدولة المغولية فى ايران تضم الأراضى الممتدة بين نهر جيحون الى المحيط الهنـدى ، ومن السند الى الفرات وبعض أراضى آسيا الصغرى ، وقد حكم اباقا ايران بعد وفاة والده سنة ٦٦٣هـ ، وكان حكام ايران يحملون لقب ايلخـان للدلالة على تبعيتهم للخـاقان الأعظم فى الصين ، وتعاقب على حكم ايران الايلخانات حتى سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م حيث زالت دولتهم .

وكانت كلمة ايلخان تطلق على خان القبيلة ، وعلى خان الايالة وتدل على أن حاملهـا داخـل فى الـولاء والطـاعة للقانات ومدين لهم بالطاعة ، وأطلق على كل حاكم مغولى فى ايران ، ايلخان وكان هولاكو ومن خلفه حتى غازان خان يحكمون باسم القـانات من بكين ، وسـمى هولاكو بالخاقان الكبير ، وحكمت أسرة هولاكو حكما مسـتقلا فى ايران زهاء قرن من الزمان(١٤) ، وتأثر خلفـاء هولاكو بالحضـارة الفارسية والنظم والثقافة ، وظهر ذلك جليا فى أساليب حكمهم ، فازدهرت الحركة الفكرية فى عهدهم .

لمـا توفى هولاكو ، انتخب الأمراء ، أباقا خـان ، وصـدر فرمان بتوليته من قبل قوبيلاى قاآن . وعمل أباقا خان منذ توليتـه على تأمين حدود دولته ، فحصن حدود دولته مع دولة سلاجقة الروم وغيرهـا ، وعهد الى أخيه تبسين بحكم خراسان ، والى بهاء الدين محمد بحكم العراق العجمى وأصفهان ، وساس الناس بالعـدل ، وبرز فى عهـده علماء أجلاء مثل : نصير الدن الطوسى ، وشمس الدين الجوينى ، واعتنق اباقا خان البوذية ، ونعم المسـيحيون فى عهده بالحرية الدينيـة ، وتزوج ابنـة الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليو لوجوس (١٢٥٩—١٢٨٢م) .

---

(١٤) احمد سعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ص٤٨٠ .

حرصت الدولة الايلخانيــة على تحسين علاقتها مــع الدول الأوربية خاصة فرنسا التى ساءت علاقتها مع المماليك فى مصر بسبب حملتهــا الصليبية عليهم(١٥) .

ولمــا توفى اباقاخــان سنة ٦٨٠هـ ، خلفــه احمد تكودار ، وقد اعتنق الاسلام ، وعمل على تبــديل الياسا الجنكيزى بالقــرآن الكريم والسنة النبوية ، ولقد كان لأحمد تكودار عــلاقات طيبة مع الســلطان المملوكى قلاوون . ولكن هذا الخان واجه صراعات داخلية ، ومنازعات من الأمراء ، وخاصة الأمير أرغون ، وأدت الى وقــوع الحرب بينهما ، وانضم كيخاتو حاكم بلاد الروم الســلاجقة الى أرغون ، وانضــم بعض أمراء الدولة الأقوياء الى الأمير ارغون ، وقتلوا احمد تكودار سنة ٦٨٣هـ وولى أرغون العرش .

وفى عهد أرغون تم التخلص من شمس الدين الجــوينى ، واستوزر أرغون ، سعد الدولة بن صفى الدين ، وكان يهوديا ، ويمتاز بكفاءته من الناحية الادارية ، وكان يتعصب لأبناء ملته ، ويفضلهم على من سواهم ، وحدثته نفسه بتحويل الكعبة الى معبد للأصنام ، وهذا يدل على تعصبه الأعمى ضد الاســلام والمسلمين ، وكان أرغون يتطلــع الى النيــل من المسلمين بأن يقف الى جانب الصليبيين فى هجومهم المرتقب على الشرق ، ويساعدهم فى محاولة استرداد بيت المقدس من المسلمين(١٦) وأرســل ســفارات فى هذا الصدد الى البابا ومــلوك أوربا ، واضطربت البــلاد فى أواخر عهده وتصدى له الأمراء ، وتآمروا عليه ، وتوفى سنة ٦٩٠هـ .

ولى كيخاتوخان العرش بعد وفاة أرغون ، وانقسم الأمراء فى عهده الى أحزاب ، فريق أيد كيخاتو ، وفريق أيد بايــدو وعهد الى الزنجــانى بالوزارة ، ووضع الزنجانى عملة الجــاو ، وهى عملة ورقية على نمط العملة المتداولة فى الصين ، وسبب اختيار هذه العملة ، حاجــة الدولة للأموال لدفع رواتب الجند ، على أن الناس رفضوا التعامل بها ، وأصروا على التعامل بالنقود الذهبية ، ولم تطل مدة كيخاتو ، فقد ثار عليه بايدو وقتله سنة ٦٩٩هـ . وحكم بايدو ستة شهور ، ولم تصــف له الأمور ،

---

(15) Howorth : Hist of the Mongols. Vol. III p. 279.

(١٦) خواندمير : دستور الوزراء ص٣٠٢ .

فقد طالب غازان بالثأر لمقتل كيخاتو ، وتحالف معه بعض الأمراء ، وحاربوا ابيدوخان وهزموه ، وكان بايدو مشغولا عن الحكم باللهو والمجون ، الأمر الذى مكن أعداءه منه .

ومن أبرز خانات المغول فى ايران : غازان خان (٦٩٤-٧٠٣هـ) : فقد اعتنق الاسلام ، وأحدث بذلك تغييرا كبيرا فى علاقة المغول بالشعب الايرانى ، فقد تسللت البوذية مع المغول الى ايران وشيد كهنة البوذيين المعابد فى ايران ، وسعوا بأساليب مختلفة الى نشر الديانة البوذية فى ايران ، وتحويل الناس الى عبادة بوذا ، وما ان دخل غازان فى دين الله حتى عمل على ادخال قومه من المغول فى الاسلام ، وأسلم على يديه حوالى مائة ألف مغولى ، وحول معابد بوذا والكنائس الى مساجد يذكر فيها اسم الله ، وكان يتكلم باللغة الفارسية ، وعرف عن طريقها كلمات عربية كثيرة ، لذلك تمكن من دراسة الدين الاسلامى دراسة وافية ، وبلغ من حماسه للدين الاسلامى أن كان يقف من المغول موقف الواعظ ويرشدهم الى الدين الحنيف ، ويشرح لهم أسسه وخصائصه ، وسمى نفسه معز الدين محمود غازان خان ، وأعاد بناء أضرحة المشايخ التى هدمها المغول وكذلك المساجد ، وهدم بيوت النيران الزرادشتية وتشدد فى تحويل رعاياه غير المسلمين الى الاسلام ، وقطع صلته بالخاقان الأعظم فى الصين ، وحكم ايران مستقلا تماما ، وانفرد بنقش اسمه على السكة ، وبذكر اسمه فى الخطبة ، وعزل اليهود والمسيحيين من الوظائف العامة ، وقصرها على المسلمين فقط ، الأمر الذى أوجد حالة من السخط ضده ، لذلك لجأ الى العنف فى القضاء على خصومه ، وقتل الكثير منهم ، وقضى على أسرة صدر جهان الوزير الأديب العالم السياسى الماهر والادارى الحازم ، وخلفه فى منصب الوزارة ، خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى الطبيب والمؤرخ ، صاحب كتاب « جامع التواريخ »(١٧) .

ومن الأحداث السياسية الهامة فى عهد غازان ، دخوله فى حرب مع دولة المماليك فى مصر والشام ، وكان سلطان المماليك حينئذ ، الناصر محمد بن قلاوون ، وقد استاء غازان من المماليك لأنهم آووا الفارين منه ، كما شن المماليك عدة حملات حربية على بلاد الأرمن ،

---

(١٧) عبدالسلام عبدالعزيز فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص١٩٧ .

وتربطه بملكها علاقة ود وصداقة ، واعتقد غازان أن الخلاف بين أمـــراء المماليك ييسر له مهمة مهاجمـــة الشام ، والسيطرة عليها ، ثم الزحـــف منها الى مصر .

لمـــا اعتدى بلبان الطباخى ــ نائب حلب ــ على ماردين واستباحها لجنده ، اتخـــذ غازان من هـــذه الحادثة ذريعة لمهاجمة بلاد الشام ، وفى سنة ٦٩٧هـ هاجم غازان بلاد الشام بقوات مغولية تزيد على تسعين ألف مقاتل ، وخرج الناصر محمد بجيشـــه الكبير الى بلاد الشـــام ، والتقى بالجيش المغولى فى الخازندار فى معركة حامية الوطيس ، انتهت بهزيمة المماليك وانتصـــار المغـــول ، وزحـــف المغـــول الى حمص ونهبـــوا ما فيها ، ثم واصلوا مسيرتهم الى دمشق ، فعم أهلها الفزع والهلـــع ، ولاذ الكثير منهم بالفرار من مدينتهم ومغـــادرتها ، وخشى كبـــار رجـــال المدينة وعلمائها من تدمير المغـــول لبلدهم ، فخـــرج وفد منهم لمقابلـــة غازان وطلب الأمان منه ، وعلى رأسهم قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة ، وشيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية ، وبعض الفقهـــاء والقراء والأعيان ، وأرسل غازان أمانا الى أهل دمشق قرىء فى المســـجد الأموى ، يتضمن تأمين الناس على أموالهم وأرواحهم ونسائهم وايجـــاد حكومة تحكم بالعدل ، وتدفع عن الناس الظلم والجور .

لكن غازان نكث بالعهـــد ، بعـــد أن تسلم دمشق ، وأطلق جنده فى المدينة يعيثون فيها نهبا وفسادا وتخريبا ، بل امتـــدت أيديهم الى بيت المقدس وسائر بلدان الشام ، ورفض أرجواش المنصورى تسليم قلعـــة دمشق ، ودافع عنها ببسالة ، ومع ذلك بسط المغـــول نفوذهم على بلاد الشام ، وأقيمت الخطبة لغازان على منابرها وعاد الناصر محمد الى مصر بينما واصل المغول زحفهم فى بلاد الشام فغزوا الصالحية ، ومزقوا أهلها كل ممزق ، أما أهل دمشـــق فقد أرهقهم المغـــول بالضرائب الباهظة ، وارتفعت الأسعار ، وعم البؤس ، وكثر القتل والدمار ، وبلغ من شـــدة الرعب الذى لحق بالناس ، أن امتنعوا عن الخروج من منازلهم خـــوفا من أن يسخرهم المغول فى ردم الخنادق وأداء بعض الأعمال الحربية(١٨) .

لمـــا عاد غازان الى بلاده بعد أن نهب دمشق سنة ٦٩٩ هـ عهد الى قبجـــق بنيابة دمشق ، وعين قطلوشـــاه قائدا لحامية المغـــول ببـــلاد

---

(١٨) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٨٥ .

الشام ، لكن أرجواش رفض تسليم القلعــة ، ولم يلبث أن سـيطر على دمشق ، بعد خروج قبجق الى مصر لمقابلة السـلطان الناصر محمد بن قلاوون ، لأنه أقلع عن خيانبـه للسلطان المملوكى ، وعـول على تطهير بلاد الشام من المغـول ، وقد رحب به السـلطان الناصر محمد ، ورحب بعودته الى جانب المماليك بعد أن خانهم وانضـم الى عدوهم ، وبسر للمغول أمر دخول الشـام ، أما الآن فقد عاد الى الصـواب ، وانضـم الى الناصر فى محاولة استرداد الشـام من المغـول .

على كل حال أعـد الناصر محمد جيشا كبيرا لطرد المغول ، وفى سنة ٧٠٠هـ سار محمود غازان على رأس جيش كبير للحيلولة بين المـماليك واسترداد الشـام ، وعبر غازان الفرات ، واتجـه الى أنطاكية ، وذهب أنطاكية ، غير أنه لم يستطع مواصلة الزحف الى سورية بسبب شـدة البرد ، وسوء الأحـوال الجـوية ، كما أن الدول الأوربية لم توافـق على مساعدته فى منع المماليك من العـودة الى سورية ، وأرسل غازان سفارة الى الناصر محمد ناشـده عدم مهاجمة سـورية ، ويتوعـده ان أقدم على ذلك ، غير أن الناصر رفض تهديدات غازان ، وطالبـه بأن يمنع رجاله من النهب والقتل فى سـورية ، وأن يسحب جنـده منهـا ، ويبدى رغبته فى صداقته أن فعل ذلك ، والتزم بتعاليم الاسلام .

لم تضع هـذه المراسلات حـدا للتوتر القائم بين البلدين ، فعبر غازان فى سنة ٧٠٢هـ نهر الفرات على رأس جيش كبير ، والتقى بجيش المماليك فى موقعـة عرض ، وانتصر المماليك فى هـذه الموقعـة انتصارا رائعا ، ولكن المغـول لم يعودوا الى بلادهم بعد الهزيمة ، بل زحفـوا الى دمشق ، واجتمعت الجيوش المصرية والشامية فى مرج الصفر بالقرب من دمشـق ، وهزم المماليك المغـول ومزقوهم كل ممـزق ، وفر من استطاع .

وكان لهذا الانتصار آثار بعيـدة المـدى فى تطور الحياة السياسية فى بلاد الشام ، فقـد استرد المماليك دمشـق ، وسائر مدن الشـام ، وغادر المغـول هذه البلاد ، وعاد أهل هذه البـلاد الى بلادهم ، بعد أن شردوا واضطهـدوا ، واحتفل أهل الشـام ومصر بهـذا النصر المبين احتفالات رائعة .

لم يحتمل غازان هذا الموقف ، فقد اعتلت صحته ومرض وتوفى سنة ٧٠٣هـ١٣٠٤م .

ولى أولجايتو بن أرغون حكم الدولة الايلخانية بعد وفاة غازان ، وقد نهج سياسة جديدة ، تعتمد على تقوية البلاد من الداخل ، وذلك بضبط شؤون البلاد الداخلية ، والسهر على مصالحها ، كنشر الاسلام وجعله الدين الرسمى للبلاد ، وكان أولجايتو مسيحيا بتأثير أمه ، ولما توفيت اعتنق الاسلام بتأثير زوجته المسلمة .

واصل أولجايتو السياسة الاصلاحية لأخيه غازان ، فأبقى على جميع الوزارات والادارات واعطاء الصلاحية الكاملة لرجالات أخيه غازان والابقاء عليهم ، مثل الوزيرين فضل الله رشيد الدين الهمدانى ، وسعد الدين الساوجى(١٩) .

وفى سبيل توحيد البلاد وخلق الاستقرار والأمن داخليا ، قام أولجايتو بمحاربة القبائل الثائرة والساخطة على الحكم المغول مثل بلاد كيلان وهراة ، وقد كلفه ذلك عناء وجهد كبيرين(٢٠) .

وفى الميدان العمرانى قام السلطان أولجايتو بتشييد عاصمة جديدة للدولة بين قزوين وهمذان عام ٧١٣هـ/١٣١٣م وسماها السلطانية . وقد ازدحمت العاصمة الايلخانية الجديدة بالكثير من القصور والمساجد والمدارس والمستشفيات ، كما بنى فيها مسجدا جامعا على نفقته الخاصة ومدرسة على نمط المدرسة المستنصرية فى بغداد ، وأصبحت تمثل أحد مراكز الثقافة الاسلامية الهامة سواء فى الثقافة أو فى نشر الاسلام ذاته(٢١) .

وكأن هذا السلطان قد اتبع المذهب الحنفى بتأثير الأئمة الذين

---

(١٩) حافظ آبرو : ذيل جامع التواريخ ، مخطوطة فارسية رقم ٦٨ (أ) ورقة ٤٧١ ، وانظر أيضا عبدالمعطى الصياد ، مؤرخ المغول الكبير ، فضل الله رشيدالدين ص١٧٨.

(٢٠) ميرخواند : روضة الصفا ، جه ص٤٨٨ ، ٤٩٥ ، وحبيب الشافعى : درة الأسلاك فى دولة الاتراك ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٦٥٣ ح ، جا ص٥٠٨ .

(٢١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، م٢ ج٢ ص١٦٦ .
Saunders, The History of the Mongol conquests, p. 143, 144.

كانوا يحيطون به عندما كان واليا على خراسان أثناء حكم أخيه السلطان محود غازان . ولما توفى غازان واعتلى أولجايتو عرش البلاد تحـول الى المذهب الشافعى عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م بتأثير وزيره رشيد الدين ، كما تحـول الى مذهب الأئمـة الاثنى عشرية منذ عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧ وضرب أسماءهم على السـكة وتغيير صـيغة الخطبة لتتفق مـع مذهبه الشيعى الجـديد(٢٢) .

وفى جانب العـلاقات بين الايلخـانات وباقى دول المغـول بحث أولجايتو جديا فى عودة السلام بين جميع القادة المغـول بعد حروب متصلة بينهم دامت خمسة وأربعين عاما ، ولكن القبائل المغـولية المختلفـة قد اندرجت كل قبيلة منها فى حضارة المنطقة التى احتلتها وعاشت فيها . حقيقة قـد عمـل غازان من قبـل على عودة الوحـدة المغـولية ، غير أن تلك الجهـود لم يكن لهـا من أثر ملموس ، كذلك فان أولجايتو فى مجـال بعث هذه الوحـدة المفقـودة استقبل فى مراغة فى اغسطس سنة ١٣٠٤م سفير الخاقان تيمـور حفيد قوبيـلاى وخليفته ، كما استقبل أولجايتـو أيضـا سفراء شابار ابن قايدو ودوا بن بوراق وهم من المغول الجغطائيين فى مهمـة لانهـاء المنازعـات بين مختـلف الفـروع المغـولية من بنى جنكيز خان ، كما استقبل أيضا سفراء طقطاى خان القبيلة الذهبية(٢٣) غير أن تلك المساعى كلها لم تكن لها أية نتائج ايجابية لأن فكرة غـزو العالم قد انتهت ، ولم يعد هناك امكانية عمل عسكرى مشترك لأن كل دولة مغوليـة أصبحت مهتمة بمصالحهـا الخاصة ، ولم يكن للاعتراف بتيمور حفيد قوبيلاى خانا أعظم للمغول من ميزة سوى بقاء السلام لفترة وجيزة بهدف تشجيع التجارة فيما بينهم(٢٤) .

واتخذ سياسة ودية نحو دولة المماليك وأرسل الهـدايا الى سلطان المماليك والرسائل الودية التى دعا فيها سلطان المماليك الى صداقتـه ، وخاطبه بالأخوة وسأله اخماد الفتن ، وطلب الصلـح ، وبادله الناصر الهدايا ، والرغبة فى السلام(٢٥) .

---

(٢٢) العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، جـ٢٣ ق١ ورقـة ١٦ ، ١٧ ، ١٠٤ ، ابن العسقلانى : الدرر الكامنة ، جـ٣ ص٤٦٨ .

(23) Cambridge; History of Iran, Vol. 5 p. 398, 399.

(24) Prawdin ; The Mongol Empire, p. 378.

(٢٥) المقريزى : السلوك جـ٢ القسم الأول ص٦ .

على أن هذه العلاقات الودية لم تستمر طويلا ، ذلك أن أولجايتو اعتنق المذهب الشيعي ، وحرص على نشره في أقاليم دولته الغربية ، بل عول على استعادة سورية ، واستعان بالبابا كلمنت الخامس ، وادوارد الثاني — ملك انجلترا — وفيليب الجميل — ملك فرنسا — ولكنهم رفضوا تلبية رغبته .

اعتزم أولجايتو سنة ٧١٢هـ مهاجمة سورية ، فأرسل نائب حلب الى السلطان الناصر محمد يخبره بزحف المغول على بلاد الشام ، فزحف السلطان الناصر بجيوشه الجرارة الى سورية لدرء الخطر المغولي عنها ، عندئذ توقف أولجايتو عن الزحف على سورية ، وأمر قواته بالانسحاب من الرحبة .

على أن قوات المغول اشتبكت سنة ٧١٥هـ ، بقوات المغول في ماردين ، فقد توجه من حلب ستمائة فارس منهم الأمير شهاب الدين قرطاى للغارة على بلاد ماردين ودنيسر ، لقلة مراعاة صاحب ماردين لأوامر وقرارات السلطان ناصر محمد ، وعدم التزامه بتنفيذها فشن قرطاى الغارة على ماردين يومين ، فتصادف وجود فرقة من جيش المغول في هذه النواحي لجباية الأموال منها على عادتهم في كل عام ، فحاربهم قرطاى وقتل منهم ستمائة رجل ، وأسر مائتين وستين وقدم بالرءوس والأسرى الى حلب ، وقد ابتهج السلطان بذلك ، وأنعم على نائب حلب وعلى قرطاى(٢٦) .

ولكن جند أولجايتو تعرضوا للقتل في بلاد الحجاز ، فأرسل أولجايتو جندا الى بلاد الحجاز لاحتلالها ، واقامة الخطبة له على منابرها ، فهزم جند الناصر المغول — وكانت الحجاز تتبع الناصر — وقتل من المغول أربعمائة رجل ، وغنم العرب أموالهم وخيولهم .

---

(٢٦) المقريزى : السلوك ، القسم الأول جـ٢ ص١٤٧ .
(٢٧) المقريزى : السلوك ، القسم الأول جـ٢ ص١٤٨ .
(٢٨) ميرخواند : مصدر سابق ، جـ٥ ص٥١٢ ، ٥١٣ . و
Blochet, op. cit. p. 404.

وظلت العلاقة بين الايلخانيين والمماليك زمن أولجايتو تتأرجح جلة الشقاق والمهادنة حتى أواخر عهد الايلخان ، بل ساءت الى حد كبير قبل مماته(٢٩) .

وكان مغول ايران على علاقة مع البابوية وملوك أوربا أيضا ، هذه العلاقة التى يمكننا أن نحكم عليها أنها علاقة مصالح خاصة ، فبالنسبة للبابوية وملوك أوربا كانت مصلحتهم تتمثل فى ناحيتين : الناحية الأولى هى التبشير بالمسيحية الكاثوليكية بين المغول ، والناحية الثانية هى محاولة التحالف مع المغول ضد دولة الاسلام فى مصر وبلاد الشام فى عهد بنى أيوب وفى عهد سلاطين المماليك . وكان الأيوبيون والمماليك قد اذاقوا الصليبيين فى بلاد الشام هزائم مريرة وانتزعوا منهم بعض الامارات الصليبية وأعادوا لها شكلها الاسلامى . أما بالنسبة لمغول ايران فيعود السبب للمواجهة العنيفة التى وقف بها المماليك فى وجه المغول ، والهزيمة التى ألحقوها بهم فى موقعة عين جالوت ، وكانت تلك أول هزيمة تلحق بالجيوش المغولية . ومن هنا جاء التحالف بين المغول والصليبيين فى بلاد الشام وفى بلاد أوربا أمرا متوقعا .

وسار أولجايتو على نهج نفس سياسة أسلافه ، وهى التقرب من ملوك الغرب المسيحى وربط علاقات ودية معهم ، ويبدو أن هدف ايلخانات ايران من تلك المحاولات كان مجرد ارهاب المماليك بعد أن ثبت عدم رغبة القوى الأوربية — بسبب مشاغلها الداخلية — فى التورط فى مشاريع صليبية جديدة فى بلاد الشام ، وكان أول سفراء خدابنده الى الغرب الأوربى هو السفير توماس الدوتشى (THOMAS EL-DOUTCHI) الذى ذهب الى كلمنت الخامس زعيم البابوية فى روما والى فيليب الجميل (Philippelebel) ملك فرنسا والى ادوارد الثانى ملك انجلترا ، وقد عبر أولجايتو فى رسائله لهؤلاء جميعا عن سعادته للوفاق القائم بين زعماء الغرب المسيحى وبين سائر قادة المغول من سلالة جنكيز خان ،

---

(٢٩) كانت وفاة السلطان أو لجايتو فى يوم الأربعاء ليلة رمضان ٧١٦هـ/١٢ ديسمبر ١٣١٦م (أبو القاسم القاشانى ، تاريخ اولجايتو ، مخطوطة فارسية ١٤١٩ ورقة ١٤٧) ، بينما يذكر العينى فى مؤلفه عقد الجمان ج٢٣ ، ص١٠٤ ، أن وفاته كانت فى السابع والعشرين من رمضان ٧١٦هـ .

كما أبدى أولجايتو رغبته فى مواصلة العلاقات الودية بين الجانبين(٣٠) غير أن هــذا التحالف بين الجانبين لم يتم ابــدا وظلت آمال تحقيقه حلمــا يراود السلطان أولجايتو حتى مماته

وجدير بالذكر أن السلطان أولجايتو تعصب للمذهب الشيعى وأمر بحــذف أسماء الخلفاء الثلاثة : أبى بكر وعمر وعثمــان من الخطبة ، وتعصب للشيعة ومذهب آل البيت ، وأصدر الفرمانات الى أنحاء دولته بنقش أسامى الائمة الاثنى عشر من الخطبة والســكة وتعصب لمذهبــه الشيعى ، واضطهد أهل السنة ، وكانوا يشكلون أغلبية السكان فى دولته، وساءت العــلاقات وتدهورت فى مملكته بين السنيين والسلطان وأنصاره من الشيعة ، ولمــا خشى السلطان من اندلاع الفتن ، عاد فأمر بذكــر أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة فى الخطبة .

وكان أولجايتو حريصا على نشر العــدل بين الناس ، وانصــاف المظلومين ، ومنع تعدى المغــول على الأهالى ، وأحيا قوانين غــازان ، ونظم ادارة البلاد وازدهرت ايران فى عهده وعمهــا الرخاء ، ويرجــع الفضل فى ذلك الى وزيره رشيد الدين فضل الله الهمذانى ، وتوفى أولجايتو سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م .

خلف بوسعيد اباه فى حكم الدولة الايلخانية ، وكان فى الثالثة عشرة من العمر ، وتولى الوصاية عليه الأمير جــوبان ــ أمير الأمراء ــ وظــل رشيد الدين فضل الله فى الوزارة .

وكان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مستمرا فى عــداوته للمغــول ، فأنفذ بعض أمراء طائفــة الاسماعيلية لاغتيــال قرا سنقر ــ حاكم مراغة من قبل المغول ــ لكن هذه المؤامرة باءت بالفشل ، وان جعلت المغول يلزمون جانب الحذر من المماليك ، وقد آثر بوسعيد مهادنة المماليك ، وأرسل رســولا الى مصر ، يعرض الصلح ، واتفق السلطان الناصر مع مندوب بوسعيد على عقد صلح يتضمن وقف الحملات الحربية

---

(30) Sykes, A History of Persia, Vol. II. p. 115.
Berthold, History of the Mongols p. 142, 144.
Aziz Suryal Atiya, The crusade in the Later middle ages, p. 56.

بين البلدين ، وعدم انفاذ الناصر الاسماعيلية الى فارس للتخريب وأعمال الاغتيالات ، وأن من حضر من مصر اليهم لا يطلب ، ومن حضر منهم من مصر لا يعود اليها الا برضـــاه ، ولا يحــرض الناصر العرب والتركمـــان بالاغارة على دولة المغــول ، وتضمن الصلح تامين طرق التجـــارة بين الدولتين ، وعدم للتحريض على قتل قرا سنقر — حاكم مراغـــة — وان يسير المحمل كل عام من العراق الى بلاد الحجاز ، حاملا علمى ســلطان مصر ، وايلخان المغول(٣١) وكان لهــذا الصلح اثره فى تحسين العلاقات بين البلـــدين .

وفى سنة ٧٢١هـ ، اعتنى بوسعيد بأمر حاج العراق عناية تامة ، وغشى المحمل بالحرير ، ورصـــعه باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجـــواهر . فلما مر ركب العراق بعرب البحرين ، تعرض لهم ألف فارس ، فتوسط الوسطاء بينهم على أن يكفـــوا عنهم مقابل ثلاثة آلاف دينـــار ، ولكنهم اعادوا المـــال لمـــا قالوا لهم : انما جئنـــــا بأمر الملك الناصر ، وقالوا : لأجل المـــلك الناصر نخفركم بغير شىء ، ومكنوهم من المبيت ، فانعم السلطان على العربان ، وأرسل الســـلطان الى أمراء المغـــول وأعيانهم الخلع ، وأقيمت الدعوة لبوسعيد على منابر مكة بعد الســـلطان الناصر محمد ، وأصبح الحجاج آمنين على أنفسهم وأموالهم(٣٢) .

اســـتأثر جـــوبان بالسلطة والنفوذ فى فارس ، ولم يعـــد لبوسعيد من السلطة الا اسمها ، وأناب جوبان ابنه ، دمشـــق خواجـــا بشؤون الجيش وعهد بحكم آسيا الصغرى الى ابنه دمرداش .

على أن بوســـعيد استرد سلطانه لمـــا بلغ الحادية والعشرين من عمره ، وقد مهد لذلك بالتخلص من دمشق خواجا ، ودبر مؤامرة لاغتيال جوبان ، حتى أن جوبان سار على رأس جيش كبير لمحاربة بوسعيد ، ولكن جوبان قتل ، وقتل السلطان بوسعيد أبناءه وأقاربه وأحفاده ، وكل من له صلة بالأسرة .

وكان دمرداش بن جـــوبان ، لمـــا شعر بموقف بوســـعيد منه ومن أسرته ، فرض على نفســـه حراسة مشـــددة ، خوفا من أن يرســـل

---

(٣١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ القسم الاول ص ٢٠٩ .
(٣٢) المصدر السابق ص٢١٤ .

السلطان الناصر بعض أفراد الاسماعيلية لقتله ، لأنه منع تجار الرقيق من حمل المماليك الى مصر من ولايته فى آسيا الصغرى ، ولما وقعت فى يده رسائل بوسعيد تحض على قتله ، قتل الرسل ، ودخل فى طاعة الناصر حماية له من بطش بوسعيد ، وسأله أن يأذن له بالقدوم الى مصر ، ليكون نائبا له ، وأذن له الناصر ، وقدم الى القاهرة فعلا وأحسن الناصر استقباله ، وأنزله فى بيت يليق به ، ولكن بوسعيد ما زال بالسلطان الناصر حتى قتله(٣٣) ، وبذلك تخلص بوسعيد من أسرة جوبان ، التى استأثرت بالحكم دونه فى مستهل حكمه .

أراق بوسعيد الخمر فى مملكته ، وأبطل منها بيوت الدعارى ، وابعد أرباب الملاهى واغلق محال الخمور ، وأبطل المكوس ، وهدم الكنائس بالقرب من تبريز ، ودعا غير المسلمين الى المسارعة فى الدخول فى الاسلام ، ونشر العدل وعمر المساجد والجوامع ، وقتل من وجد عنده الخمر بعد اراقته ، واقتدى به الناصر محمد ، فأرسل الى نوابه بالشام يأمرهم باغلاق محال الخمور ، واستتابة أهل الفواحش ، وتم تنفيذ ذلك فى سائر بلدان الشام(٣٤) .

كان لزوجة بوسعيد ، بغداد خاتون ، تأثير كبير عليه ، وكان يستشيرها فى كل أمور الدولة ، وأطلق يدها فى الحكم ، وملكت فؤاده حتى منحها لقب « خدا وندكار » أى سيدة العالم(٣٥) .

وحرص بوسعيد على تحسين علاقته بدول أوربا ، فعقد اتفاقات تجارية مع البندقية لترويج التجارة بين دولته ، ودول أوربا .

ولكن نهاية بوسعيد كانت على يد امرأته التى بالغ فى حبها ، فلما انتزعت ولشاد خاتون ابنة دمشق خواجا حب بوسعيد وتبوأت من قلبه موضع بغداد خاتون ، لم تقبل هذه الأخيرة هذا الهجر وهذا التغير من زوجها ، فدبرت مؤامرة قتله انتقاما لنفسها ، ولكن الأمراء نكلوا بها(٣٦) .

---

(٣٣) المقريزى : السلوك ، جـ٢ القسم الأول ص٢٩٤ .
(٣٤) المصدر السابق ص ٢١١ـ٢١٣ .
(٣٥) عبدالسلام عبدالعزيز فهمى : تاريخ دولة المغول فى ايران ص ٢٢٧ .
(٣٦) رحلة ابن بطوطة جـ١ ص١٤٥ .

ويعتبر السلطان بوسعيد آخر ملوك الأسرة الايلخانية العظام الذين حكموا فى ايران ، ذلك لأن بوسعيد لم يعقب ولدا ، فتعاقب على حكم الدولة أمراء من آل هولاكو .

أوصى بوسعيد قبل وفاته بأن يخلفه أرباخان على العرش الايلخانى ونفذ وزيره غياث محمد الوصية ، وولى أرياخان الحكم من سنة ٧٢٦هـ الى سنة ٧٣٦ ، وقد واجه منافسة شديدة ومعارضة من الأمراء الايلخانيين ، لأنه لا ينتمى لأسرة هولاكو . ومن أهم أعماله مواصلة سياسة سلفه فى قتال أوزبك خان — رئيس القبيلة الذهبية — الذى أغار على الأطراف الشمالية لمملكته واستطاع أرباخان الانتصار عليه ، لكن الأمراء الايلخانيين أصروا على التخلص منه ، وتزعم الأمير على يادشاه — حاكم بغداد — هذه الحركة المناوئة لأرباخان ، واتصل بالأمراء الايلخانيين وبعض أمراء العرب ، وانضم الى الحركة أمراء وأميرات بيت هولاكو واستقر رأيهم على تنصيب الأمير موسى بن على بن بايدوخان ايلخانا ، وأجلسوه على العرش الايلخانى ، وتلقب بموسى خان ، واستطاع على يادشاه اعداد حملة كبيرة تخلص من أرباخان ووزيره خواجة غياث الدين محمد ، وولى موسى خان الحكم سنة ٧٣٦هـ ، ولكنه واجه ما واجهه سلفه من معارضة الأمراء لحكمه واستهانتهم به ، وقاد محمد خان المعركة ضده ، انتهت بهزيمته ، وولى محمد خان الايلخانية ٧٣٦—٧٣٨هـ ولم ينعم بحكمه بل ظلت الاضطرابات الداخلية فى دولته ، وقتله شيخ حسن كوجك ، وأسس حكومة فى تبريز ، واتخذها عاصمة له واستمر النزاع على العرش حتى ولى انوشيروان العادل الحكم ٧٤٤—٧٥٦هـ وهو آخر حكام الدولة الايلخانية ، وكان رجلا مغمورا لا يعرفه حتى الأمراء الايلخانيين ، وكان يقضى طوال يومه فى الشراب والطرب ، ونصبه ملك اشرف ايلخانا حتى يحكم باسمه واستمر حكمه حتى وفاته الفجائية سنة ٧٥٦هـ ، وفى سنة ٧٥٤هـ توفى طغاتيمور الذى كان يحكم المنطقة الشرقية من الايلخانية ، وبوفاة أنو شروان ينتهى حكم الدولة الايلخانية لايران الذى استمر قرنا من الزمان .

الباب الثالث

الـــدول الاســـلامية فى الهنـــد

١ ـــ مملكة الغـــور الأفغانية .

٢ ـــ المـــلوك المماليـــك فى الهنـــد .

٣ ـــ الدولة الخلجيـــة .

٤ ـــ دولة بنى تغلـــق .

٥ ـــ الغزو التيمـــورى لبـــلاد الهنـــد .

— الدولة الغــورية :

تقع بلاد الغور فى أفغانستان الحالية بين هراة وغزنة(١) ، وقامت دولة مستقلة فى هذه المنطقة تتخذ من فيرزكوه عاصمة لها ، وكان الغور لا يدينون بالاسلام حتى غزاهم السلطان الغزنوى محمود بن سبكتكين سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م(٢) .

شكل الغور خطرا جسيما على الدولة الغزنوية فى عهد السلطان محمود بن سبكتكين ذلك أنهم دأبوا على شن الغارات على رعايا هذا السلطان ، واتخذوا من وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها معصما يقيهم بأسه(٣) .

لما كثرت غارات الغور على بلدان الدولة الغزنوية أنف السلطان محمود ان يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه ، وهم على هذا الحال من الكفر والفسوق والعصيان ، وعول على اخضاعهم ، وأعد جيشا كبيرا سار على رأسه الى بلاد الغور سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م والتقى بجحافلهم فى معركة عنيفة ، مزقهم فيها كل ممزق(٤) وأغلق الطرق المؤدية الى بلادهم ، بينما سار الجيش الغزنوى داخل بلاد الغور(٥) والتقى بأميرهم فى مدينة آهنكران ، وحدث اشتباك عنيف بين الفريقين تفوق فيه جند الغور ، لذلك أمر محمود ن سبكتكين جنده بأن يولوا الغور الأدبار على سبيل

---

(1) K. Ali A New History of Indo-Pakistan. p. 34.

(2) Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 32.

(3) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties. p. 29.
Majumdab : An Advanced Hist. of India. p. 276.

(4) Munshi : The Struggle for Empire. p. 9.

(٥) العتبى : تاريخ اليمينى ج٢ ص ١٢٢-١٢٣ .

الاستدراج ، وانسحب الجند الغزنوى ، فظن الغور أن ذلك هزيمة ، وساروا فى أثر السلطان محمود حتى ابتعدوا عن بلادهم ، فواتت الفرصة الجند الغزنوى للانقضاض على الغور ، وفعلا باغتوهم ، ووضعوا السيوف فيهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، وشتتوا شملهم ، ووقع أمير الغور أسيرا فى أيدى الغزنويين ، وامتلك السلطان محمود قلاع الغور وحصونهم ، ومن ثم دخلت بلاد الغور فى حوزة سلطان غزنة(٦) .. ولما كان الغور حتى ذلك الحين على غير دين الاسلام ، فقد حرص محمود بن سبكتكين على نشر الاسلام بينهم(٧) فاستخلف عليهم الفقهاء يعلمونهم الدين وشرائعه(٨) .

رفض أمير الغور أن يقع أسيرا فى أيدى غريمه لذلك آثر الانتحار(٩) ، وأبقى السلطان محمود حكم الغور فى أيدى بيتهم الحاكم ، ولكن فى ظل السيادة الغزنوية ، وارتفع شأن أمراء الغور فى الدولة الغزنوية حتى انهم ارتبطوا بصلة النسب ببيت سبكتكين ، لكنهم رغم ذلك تطلعوا الى الاستقلال عن غزنة ، وأخذوا يتحينون الفرص المناسبة لتحقيق سياستهم ، وفعلا تطورت الأمور فى صالحهم(١٠) ، ذلك أن الدولة الغزنوية انشغلت فى دفع خطر السلاجقة الزاحفين على اقليم خراسان فأعد الغور عدتهم للاستقلال ، وتحقيق أطماعهم التوسعية على حساب الدولة الغزنوية . ولما أنهك السلاجقة قوى سلطان غزنة ، واستولوا على الكثير من ممتلكاته ، سار محمد بن الحسين — أمير الغور — الى غزنة بغية الاستيلاء عليها سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م لكن السلطان الغزنوى بهرام شاه أحبط محاولته وهزم جنده وقبض عليه وقتله(١١) .

استنكر الغور قتل السلطان الغزنوى لأميرهم ، وعولوا على الانتقام من بهرام شاه ، وأعد سورى بن الحسين — أمير الغور الجديد — العدة

---

(٦) تاريخ البيهقى ص ١١٨ـ١٢٠ .

(٧) خوندامير : حبيب السير جـ٢ ص٢٢ .

(8) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 34.

(9) Munshi : The Struggle for Empire. p. 117.

(10) Habib : Sultan Mahmud. of Ghaznin. pp. 33-34.

(11) Lane Poole : Medieval India. pp. 46-47.

لذلك ، فقوى من أمر جنده ، وسار على رأسهم الى غزنة بقصد الاستيلاء عليها ، والأخذ بثأر أخيه(١٢) ، ولما اقترب من غزنة بجحافله ، رأى بهرام شاه أنه لا يستطيع التصدى للغور الأقوياء ، فغادر حاضرة دولته ، وذهب الى الهند الغزنوية ليجمع منها جيشا قويا ، ويعود الى غزنة لتحريرها من قبضة الغور(١٣) .

أما الغور بقيادة سورى ، فقد استولوا على غزنة ، لكن جند غزنة وأهلها ساءهم احتلال الغور لمدينتهم ، وانتزاعهم الحكم من بيت سبكتكين وظلوا يتحينون الفرص للتخلص من الغور ، وواتتهم الفرصة حينما عاد السلطان بهرام شاه الى غزنة على رأس جيش كبير لاسترداد حاضرة ملكه من الغاصبين(١٤) ، ووقف جند غزنة وأهلها الى جانب بهرام شاه فى الاشتباك الذى حدث بينه وبين أمير الغور الذى اغتصب أعز قطعة من مملكته ، وقد انتهى القتال بهزيمة سورى(١٥) ، وقبض بهرام شاه عليه وقتله وولى جنده الأدبار الى بلادهم لا يلوون على شىء ، وعاد بهرام شاه الى حاضرة ملكه ظافرا منتصرا سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م وابتهج أهلها بمقدمه ، وبقهر الغزاة الطامعين(١٦) .

لما قتل سورى خلفه علاء الدن الحسين بن الحسين فى حكم الغور ولم يتغاض عن قتل أخيه سورى وهزيمة جنده ، وطردهم من غزنة ، بل عول على الانتقام من السلطان الغزنوى وأهل غزنة لتنكيلهم بجند الغور وأميرهم سورى ، فسار على رأس جيش كبير الى غزنة واستولى عليها(١٧) ، وولى السلطان الغزنوى بهرام شاه هاربا الى بعض البلاد المجاورة ليستجمع قوته ، ويعود الى حاضرة دولته ، أما علاء الدين الحسين بن الحسين ، فقد أقر الأمور فى غزنة ، وعاد الى بلاده بعد أن استخلف على غزنة أخاه سيف الدين ، وأمره باقامة الخطبة له فى هذه

---

(12) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties pp. 291-292.

(١٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٣هـ .

(١٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص٣٨٨-٣٨٩ .

(15) Lane Poole : Medieval India. pp. 46-47.

(١٦) أبو الفدا :المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص٢٦ .

(17) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties. pp. 291-292.

المدينة(١٨) كما طلب منه بأن يسير فى الناس سيرة حسنة ، ويحكم بالعدل وفعلا نفذ سيف الدين تعليمات أخيه ، فأحسن الى أهل غزنة وأجــزل على أعيانها الصلات النفيسة ، وخلع عليهم خلعا سنية(١٩) حتى تطيب نفوسهم ، ويخلصوا للعهد الجــديد .

على ان هذه السياسة لم تؤت ثمارها ، اذ كان اهل غزنة لا يزالون على ولائهم واخلاصهم لبيت سبكتكين ، ويعارضون حكم الغور لهم ، وأعدوا العدة للتخلص منهم ، فلما كان شتاء سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م وانقطع الطريق بين غزنة وبلاد الغور بعــد أن غطاه الثلج ، أمن أهل غزنة عــدم وصول النجدات العسكرية من بلاد الغور الى بلدهم ، ونادوا بشــعار بهرام شاه(٢٠) ، وارسلوا اليه يطلبون منه العودة الى حاضرة ملكه ، وتحريرهم من نير الغــور المغتصبين للحكم من أصــحابه الشرعيين ، فاستجاب بهرام شاه لنداء أهل غزنة ، وسار على رأس جيش كبير الى غزنة ، ولمــا اقترب منها قبض اهل غزنة عى سيف الدين ــ الحاكم الغورى ــ ومهدوا لبهرام شاه أمر دخــول غزنة(٢١) ، فدخلها ونكــل بالغور ، وبذلك استرد بهرام شاه غزنة للمرة الثانية . على أن بهرام شاه لم يلبث أن توفى وولى بعده ابنه خسرو شاه(٢٢) وكان علاء الدين الحسين بن الحسين ــ أمير الغور ــ قد أعد العــدة للسير الى غزنة واستعادتها والانتقام من أهلها الذين قتلوا رجاله ، فلما علم خسرو شاه بزحف أمير الغور على غزنة اسقط فى يده وخاف العاقبــة وغادر غزنة وقصد لاهور واستقر بها ونقل اليها حكومته وجعلها حاضرة لدولته بدلا من غزنة(٢٣) . اما أمير الغور فقد استرد غزنة وضمها الى حــوزته سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م ولم ينس هذا الأمير موقف أهــل غزنة العدائى من قومه فألحق بهم ويلاته(٢٤) ، وأباحها لجنده ثلاثة أيام كاملة لقى خلالها أهلها سوء العذاب ولم يكتف بذلك بل دمر حاضرة بنى سبكتكين بما فى

---

(١٨) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص٣٢ .

(١٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧هـ .

(٢٠) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص٣٨٢-٣٨٣ .

(21) Lane Poole ; The Mohammadan Dynasties, p. 292.

(٢٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ص٣٦ .

(23) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 292.

(24) K. Ali ; A New History of Indo-Pakistan p. 43.

ذلك المنشآت التى انشأها سلاطين غزنة العظام حتى سماه اهل غزنة «محرق العالم»(٢٥) على انه أصلح أمور غزنة بعد أن أسرف فى الانتقام من أهلها جراب الصدع(٢٦) ، ونقل الكثير من اهل غزنة ممن يخشى بأسهم الى بلاده واسكنهم بعض قلاعها وبذلك كفل بسياسته هذه اضعاف مقاومة سكان غزنة لحكم الغور وبقائها فى حوزته(٢٧) .

قويت دولة الغور فى عهد أميرها عـلاء الدين الحسين بن الحسين وتطلع الى توسيع رقعة دولته ، فسار على رأس جيش كبير الى خراسان وعاث جنـده فسادا وتخريبا فى أعمال هراة — وسار الى بلخ وحاصرها وضيق عليها الحصار حتى استسلمت له وضمها الى حوزته على أنه لم يحظ بحكمها طويلا فقد سار اليه السلطان السلجوقى سـنجر ليستعيد بلخ من الغور ويمنعهم من التعرض لخراسان والتقى السلطان السلجوقى بالأمير الغورى فى قتال عنيف هزم فيه الغور ووقع أميرهم أسيرا فى أيدى السلاجقة على أن السلطان سنجر لم يلبث أن عفا عنه وخلع عليه وأعاده الى فيروزكوه .

واصل أمير الغور سياسته الرامية الى ضم مزيد من البلاد الى دولته على الرغم من الهزيمة التى لحقت به ونظم ادارة دولتـه واستعمل العمال والأمراء على البلاد وكان ابنا أخيه وهمـا غياث الدين محمد بن سـام وشـهاب الدين محمد فيمن استعمل على بلـد من بلاد الغـور واسمه سنجة(٢٨) ، فلما استعملهما أحسنا السيرة فى عملهما وعدلا بين الناس وبذلا الأموال فمال الناس اليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما الى عمهما علاء الدين وقال انهما يريدان الوثوب بك وقتلك والاسـتيلاء على الملـك ، فارسل عمهما يستدعيهما اليه فامتنعـا فسير اليهما جيشا لاخضاعهما والتقى الاخوان بجيش علاء الدين وأوقعا به الهزيمة ، عندئذ جاهرا بعصيان عمهما وقطعـا خطبته فتوجه اليهما علاء الدين وحـدث اشتباك بين الفريقين انهزم فيه علاء الدين ووقع أسيرا فى أيدى ابنى أخيه

---

(٢٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧هـ .

(٢٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص٣٨٩ .

(27) Majumdab : An Advanced Hist. of India, p. 277.
A Short, of Hind-Pakistan, p. 122.

(٢٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧هـ .

وعقد صلح بين الأمير الغــورى والاخوين بمقتضـــاه تزوج غياث الدين من ابنة عمه علاء الدين وجعله ولى عهده(٢٩) .

لــا توفى علاء الدين الحسين سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م خلفه غياث الدين محمد ، وأقيمت الخطبة له فى غزنة ، لكن الغــور لم يلبثــوا أن فقدوا غزنة ، ذلك أن الغز طمعوا فيها بعد موت علاء الدين الحسين ، واستولوا عليها(٣٠) ، وطردوا الغور منها ، وبقيت غزنة فى أيديهم خمس عشرة سنة ساموا خلالها أهلها سوء العذاب كعادتهم فى كل بلد ملكوه . وفى تلك الفترة كان غياث الدين محمد — أمير الغور — يعد العدة ، ويجمــع الجيوش لاسترداد غزنة من مغتصبيها الغز(٣١) .

سار غياث الدين الى غزنة فى صحبة أخيه شهاب الدين ، واشتبك الغــور مع الغز فى معركة ألحقوا بهم الهزيمــة ، وطردوهم من غزنة ، واستردوها ، وأحسن غياث الدين الى أهلها(٣٢) .

لم يكتف غياث الدين محمد — أمير الغور — بامتــلاك غزنة ، بل عقد العزم على امتلاك البقية الباقية من الدولة الغزنوية لتوســيع دولته الناشئة ، واستئصال شأفة آل سبكتكين حتى يضــمن لدولته — التى قامت على أنقاض الدولة الغزنوية — الأمن والاستقرار ، فارسل جيشا استولى على بلدان الغزنويين غير الهندية ، وضمها الى دولته ، ثم عبر شهاب الدين الغورى نهر السند معتزما الاستيلاء على ممتلكات الغزنويين فى الهند واتجه الى لاهور — قاعدة آخر سلاطين سبكتكين — وفى طريقه اليها استولى على ممتلكات الغزنويين الهندية ثم حاصر لاهور — آخــر معاقــل الغزنويين — فى جمع عظيم وحشد كبير ، حاصرها وضيق عليها الحصار ، وأرسل شهاب الدين الى خسرو شاه وأهل لاهــور يعرض عليهم الأمان على أنفســهم وأهليهم وأموالهم ان يسروا أمر اســتيلائه على لاهور ، وحذرهم عاقبة التعرض لقواته(٣٣) ، لكن خسرو شـــاه

---

(٢٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٥ ص٨٦٣ .

(30) Lane Poole : Medieval India, p. 47.

(31) Morel : A Short History of India, p. 152.

(32) K. Ali :A New History of Indo-Pakistan p. 34.

(٣٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧هـ .

وأهل لاهور أصروا على مقاومة الغور ، وبذلوا فى سبيل ذلك الأنفس والأموال ، غير أن مقاومتهم للغور اعتراها الضعف والوهن(٣٤) ، فأرسل خسرو شاه — السلطان الغزنوى — الى شهاب الدين قائد الغور وفدا فى طلب الأمان فأجابه شهاب الدين الى طلبه ، ودخل الغور لاهور ، وقبضوا على خسرو شاه . وبذلك فقدت الدولة الغزنوية آخر معاقلها ، وزالت الدولة الغزنوية بذلك فى الهند وغير الهند ، وامتد ملك الغور فى افغانستان وبلاد الهند على حساب الدولة الغزنوية(٣٥) ، كما اتسع ملك الغور واستقر سلطانهم ، وكثر جندهم وقوى بأسهم ، وأمر غياث الدين أخاه شهاب الدين باقامة الخطبة له بالسلطنة(٣٦) ، ولقبه الخليفة العباسى غياث الدين والدنيا ، معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين ، ولقب السلطان غياث الدين أخاه شهاب الدين ، عز الدين . وأكسب اعتراف الخليفة العباسى لسلطان الغور الصفة الشرعية لحكمه على البلاد التى دخلت فى حوزته(٣٧) ، وبذلك قوى نفوذ غياث الدين .

لم يكتف الغور بما امتلكوه من بلدان ، بل سعوا الى توسيع دائرة نفوذهم ، فبعد أن استقر أمر لاهور ، سار السلطان غياث الدين محمد فى صحبة أخيه شهاب الدين الى أهل هراة وشدد الغور عليهم الحصار ، وكان يسيطر عليها جماعة من الترك السلاجقة يخضعون للسلطان سنجر ، وما زال الغور يحاصرون هراة ، ويضيقون عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمان ، فأمنهم غياث الدين محمد ، ودخل هراة ، وضمها الى دولته وتقدم سلطان الغور الى بوشمنج واستولى عليها ، كما امتلك بادغيس وبعض البلدان المجاورة لها فى اقليم خراسان(٣٨) .

يتضح لنا مما تقدم أن امارة الغور الأفغانية انضمت الى الدولة الغزنوية فى عهد السلطان محمود ، واعتنق أهلها الاسلام ، وترقبوا

(34) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 293.

(35) Morel : A short History of India, p. 152.

(36) Lane Poole : Medieval India. p. 152.

(37) Munshi : The struggle for Empire, p. 118.

(٣٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧هـ .
Lane Poole : The Mohammadan Dynasties. p. 292.
بوشمنج وبادغيس من أعمال خراسان .

الفرص للعودة الى الاستقلال ، ولما ضعفت الدولة الغزنوية ، تمكنوا من الانفصال عنها ، بل وتجاوز أراضيهم الجبلية الوعرة الى البلاد الغزنوية فى أفغانستان وبلاد الهند حتى أدخلوها فى دائرة نفوذهم وضموا الى دولتهم كذلك أجزاء من اقليم خراسان واقليما هنديا .

الغـور وبـلاد الهنـد

يرجع الى الغور الفضل فى توطيد دعائم الحكم الاسلامى فى شمال الهند ، حقيقة أن السلاطين من بنى سبكتكين هم الذين فتحوا أمام قادة المسلمين من بعدهم سبيل التوسع والفتح فى بلاد الهند ، الا أن سياسة سلاطين بنى سبكتكين تختلف عن سياسة سلاطين الغور فى الهند ، فالغزنويون لم يعملوا على تثبيت أقدامهم فى هذه البلاد ، بل وجهوا اهتمامهم بالدرجة الأولى الى الحصول على المغانم الكثيرة من بلاد الهند ، أما الغور فقد استقروا فى البلاد الهندية التى ضموها الى حوزتهم ، ومن ثم احتفظت الهند بمالها وثرواتها واتسع سلطانهم فى بلاد الهند ، ورأى الهنادكة فى المسلمين خلاصا من نير أمرائهم الذين حرموهم من التدرج فى سلك الوظائف مهما كانت كفاياتهم ومعتقداتهم ، بينما يساوى الاسلام بين أبنائه .

وقبل أن نتحدث عن فتوحات الغور فى بلاد الهند يجدر بنا أن نناقش الدوافع والأسباب التى وجهت أنظار المسلمين الغور الى بلاد الهند .

لما كانت دولة الغور قد قامت فى أفغانستان فى منطقة جبلية وعرة ، واتخذت لها قوة ضاربة قهرت الغزنويين وانتزعت ممتلكاتهم فى غزنة وما جاورها ، فمن الطبيعى أن يعمل الغور على البحث عن ميادين جديدة للتوسع ، ومن الطبيعى جدا أن تكون بلاد الهند هى ذلك الميدان ، ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ بانكيار(٣٩) اذ قال : « كلما كانت أفغانستان قوية مدت نفوذها الى بلاد الهند ، والعكس كلما ضعف أمر أفغانستان أمنت الهند من غزوها لأراضيها » .

---

(39) A Surrey of India, pp. 122-123.

ومن الأسباب التى دعت الغور الى الاتجاه الى بلاد الهند عـــدم استطاعتهم الزحف الى وسط آسيا حيث الدولة الخوارزمية ودولة الخطا تقومان فى هذه الجهات ، ولا تمكنان الغور من التوغل فى بلادهما .

وكان من الضرورى للغـــور ، ومن المنتظر أيضا أن يولوا وجوههم شطر الهند لأن الغزنويين نقلوا مقر دولتهم الى لاهور ، وأخذوا فى العمل على تقوية أمرهم لاسترداد البلاد التى انتزعها الغور منهم فى افغانستان ، فكان لابد اذن للغـــور من القضاء نهائيا على آخر معاقل الغزنويين فى الهند حتى يامنوا على دولتهم الناشئة من اية محاولة قد يبذلها الغزنويون لاسترداد افغانستان منهم .

وهناك أسباب أخرى شجعت الغور على الاتجاه الى بلاد الهند ، فالأمراء الهنود — كما سنرى — فى شمال الهند أضعفتهم وأنهكت قواهم الانقسامات والخـــلافات ، وعلى ذلك رأى الغـــور أنهم لن يواجهـــوا متاعب كثيرة فى تحقيق سياستهم فى بلاد الهند . ولا يفـــوتنا أن نذكر أن الغـــور كانوا حديثى عهد بالاسلام تحدوهم الرغبة والأمل فى الجهاد فى سبيل نشر الاســـلام فى غير بلاد الاسلام ، وبلاد الهنـــد التى لا يزال معظم سكانها على الوثنية خير ميدان يجاهد فيه الغـــور من أجـــل رفع راية دينهم ونشره. ولقـــد انقسم القسم الشمالى من الهند حينمـــا شرع الغور فى الزحف اليها الى ممالك متعددة منقسمة على نفسها ومســـتقلة عن بعضها ، فهناك مملكة البنجـــاب ويحكمها السلطان الغزنوى خسروشاه — آخر سلاطين بنى سبكتكين — ومملكة الملتان ، وتحكمها أسرة اسماعيلية من القرامطة ، والسند وتحكمها أسرة هندية تسمى سمارس ، يضـــاف الى ذلك امارات يحكمها أمراء هنود من الراجبوتيين فى شمال الهنـــد من أهمها مملكة دلهى وأجمير ومملكة قنوج وتضم بنارس ، ومملكة جوجرات ونهروالة ، ومملكة بند لخاند وتضم كالنجار وهانسى ومملكة بهـــار ، ومملكة البنغـــال ، ويسمى هـــذا القسم هندوستان ، وشمل أخصب بقاع الهند وأكثرها سكانا(٤٠) .

سار الغور بقيادة السلطان غيـــاث الدين محمـــد الى الملتان سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م واستولوا عليها ، ثم ضموا بشـــاور الى دولتهم ، ولم

---

(40) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan, p. 35-36.

يستطع بهيم ديوا ـ راجا نهرواله ـ وقف زحف الغـور مما مكنهم من مواصلة تقدمهم فى أرض السند حتى استولوا عليها(٤١) .

قصد السلطان الغورى بعد ذلك لاهـور ، وتصدى له السلطان خسرو شـاه وأوقع به الهزيمة ، فاتجه سلطان الغـور الى سـيالكوت وانتزعها ، واتخذها قاعدة لشن الغارات على لاهور ، وبسقوط لاهور فى أيدى الغور ، اكتملت سيطرتهم على اقليم البنجاب بأكمله(٤٢) .

لـما أتم السلطان الغورى ضم بلاد السند والبنجـاب الى حوزته عهد الى أخيه شهاب الدين بحكم هذه البلاد نيابة عنه ، فاتخذ من لاهور مركزا له ، وعمل شهاب الدين منذ أن ولى أمر هذه البـلاد على تثبيت أقدام الغور فيها وتوسيع ممتلكاتهم فى الهند(٤٣) .

فطن الأمـراء الراجبوتيون الى خطر الغـور وخشـوا من ازدياد نفوذهم ورأوا فى ذلك خطرا يهدد سلطانهم فتحالفوا فيما بينهم ونسـوا خلافاتهم وعقـدوا العزم على طرد الغور من بلاد الهند قبـل أن يهاجموا ديارهم وينتزعوا بلادهم ، أو بعبـارة أخرى يتغذوا بالغـور قبل أن يتعشوا بهم . وفى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م حشد الأمراء الراجبوتيون أمراء شمال الهند أصحاب دلهى وآجمير وقنـوج وبهار والبنغـال والكجرات وبندلخاند ، حشدوا قواتهم عند سرهند على حدود البنجاب الشرقية(٤٤) واستنفروا الهنادكة بالانضمام اليهم فأقبلوا عليهم من كل حدب وصـوب على الصعب والذلول ، فلما علم شهاب الدين بنوايا الأمراء الراجبوتيين نحـوه وتجمعهم لملاقاته سار اليهم على رأس جيش كبير ودارت معركة عنيفة بين الفريقين انتصر فيها الهنادكة على الغـور وقتلوا وأسروا من المسلمين كثيرين وأصيب شهاب الدين بجراح شـديدة ، وكاد أن يلقى مصرعه لولا أن بعض جنده حمله الى خارج ميـدان القتـال ، ودارت المعركة عند (تارين) على مقربة من (ثنيسر)(٤٥) .

---

(41) IBD. p. 36.

(42) Munshi : The Struggle for Empire. p. 118.

(43) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 36.

(44) Lane Poole : Medieval India. p. 51.

(45) Munshi : The struggle for Empire. p. 118.

على أن غياث الدين سلطان الغــور لم يتغاض عن هزيمة جنده فى الهند ، بل رأى ضرورة محاربة أعدائه واخضاعهم ، واعادة نفوذ الغور فى الهند الى ما كان عليه من القوة والغلبة ، فأعــد جيشا مكونا من مائة وعشرين ألف مقاتل من الأفغــان والترك والخلج والفرس ، ســار على رأسه شهاب الدين فى العام التالى ، والتقى بأعدائه فى نفس الموضــع الذى تشتت فيه معركة العام السابق ، وعلى الرغم من التفوق العــددى للهنادكة واســتخدامهم الفيلة فى الحرب ، الا أن قوات الغــور أحرزوا انتصارا رائعا على الهنادكة وقتلوا ألوفا منهم من بينهم بعض الأمراء ، وخر أمير أجمير صريعا ، وغنم الغور مغانم كثيرة(٤٦) .

وكان لهذه الواقعة آثار بعيــدة المدى فى شمال بلاد الهند ، فقــد تقلص نفوذ وسلطان الأمراء الراجبوتيين فى هذه الجهات ، كما امتــد سلطان الغور الى بلاد سروستى وسمنة وكهرام وهنسى وآجمير(٤٧) ، وحطم شهاب الدين الأصنام فى هذه البلاد التى امتلكها ، وشيد مساجد يذكر فيها اسم الله ، وحطم معابــد الشرك(٤٨) ، كذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام الغور للزحف الى دلهى « وهى كرسى الممالك التى فتحهــا الغور فى بلاد الهند » وفعلا تمكن الغور من ضم دلهى الى حوزتهم(٤٩) . وبذلك اتسعت دولتهم فى الهند حتى اقتربت من حــدود الصين شرقا . ويذكر المؤرخون أن هذه المعركة تعتبر معركة فاصلة فى تاريخ الهند ، لأنها أرست أسس الحكم الاسلامى فى هذه البلاد(٥٠) .

عهد شهاب الدين الغورى الى مملوكه قطب الدين أيبك بحكم البلاد الهندية الداخلة فى دائرة نفوذ الغور نيابة عنه ، وعاد الى غزنة ، وجدير بالذكر أن أيبك عرف عنه الحنكة السياسية والكفاءة الحربية . وجعــل من دلهى قاعدة لحكمه فى بلاد الهند بدلا من لاهور التى تبعد عن البــلاد الهندية التى يمتلكها الغور(٥١) .

---

(46) Lane Poole : Medieval India. p. 53.
(47) Munshi : The Struggle for Empire. p. 118.
(48) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 38.
(49) Munshi : The Struggle for Empire, p. 119.
(50) Lane Poole : Medieval India, p. 54.
(51) Munshi : The Struggle for Empire, p. 119.

على أن الأمراء الهنادكة لم يلبثوا أن أعدوا عدتهم وتأهبوا لطرد الغور من بلادهم بعد ان عظم أمرهم فى بلاد الهند ، وواتتهم الفرصة حين نمى الى علمهم عودة شهاب الدين الى غزنة فاتحدوا بقيادة راجا قنوج جايا جندرا ، ومملكته تمتد من وراء دلهى حتى حـدود بنارس ، وفى غضون ذلك وصل شهاب الدين الى بلاد الهند ، وانضم اليه قطب الدين ، وسار جيش الغور الى الأمراء المتحالفين ، واشتبك الفريقان فى معـركة فى شاندوار ، انتصر فيها المسلمون على أعدائهم انتصارا رائعا ، وزحف الغور الى بنارس واستولوا عليها ، وقتل أمير قنوج فى ٥٩٠هـ/١١٩٤م ومن أبرز نتائج هذه المعركة ازدياد نفوذ وهيبة الغور فى بلاد الهند وفشل الأمراء الراجبوتيين فى شمال الهند فى استرداد بلادهم التى انتزعها منهم المسلمون ، لذلك لجأوا الى صحراء الراجيوتانا التى حملت اسمهم(٥٢) (الثـأر) .

لم يأل قطب الدين أيبك جهدا فى سبيل توسيع رقعة دولة الغـور فى الهند ، بل عمل على ضم المزيد من بلاد الهند الى حوزة الغور ، ففى ٥٩٣هـ/١١٩٦م استولى أيبك على جاولار gawalior كما استولى على نهرواله . وفى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م ضم كالنجار الى حوزته ، ولم تستطع قلعتها الصمود أمام ضربات المسـلمين القـوية فاستسلمت حاميتهـا ، يضاف الى ذلك استيلاء الغور على بعض البلاد فى شمال الهند ، وبذلك سيطر الغور على أراضى شمال الهند كلها(٥٣) .

وبينما يعمل قطب الدين أيبك على تثبيت أقدام المسلمين فى بـلاد الهند خرج قائـده محمد بن بختيار الخلجى فى قلة من الجند يواصـل سياسة حكومته الرامية الى توسيع امبراطورية الغور فى الهند ، فاستولى على يندنتبورى عاصمة اقليم بهـار ويحكمها ملـوك أسرة بالا Pala ولم يلبث أن استولى على مملكة بالا بأسرها ، وكانت الديانة البـوذية عقيدة السواد الأعظم من سكانها . فحطم معـابدهم وأصنامهم ، ونشر الاسلام بينهم(٥٤) وانضمت هذه البلاد الى امبراطورية الغور(٥٥) .

---

(52) Majumdab : An Advanced Hist. of India. p. 229.
A short Hist. of Hind-Pakistan, pp. 124-125.

(53) Morel : A Short History of India, p. 152.

(54) Lane Poole : Medieval India. p. 54.

(55) Prasad : Medieval India. pp. 118-120.

وأذن قطب الدين أيبك — نائب سلطان الغور فى الهند — الى الخلجى بمواصلة الفتح والتوسع ، فاتجه محمد بختيار الخلجى الى نادية عاصمة البنغال ، وعلى الرغم من قلة عدد قواته فقد اقتحم نادية ، ويحكمها لكشمن سنا من أسرة سنا سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م وفر الملك الشيخ من عاصمة دولته بعد ان علم بدخول الغزاة المسلمين لها ، فاستولى عليها بختيار وضمها الى مملكة الغور ، وأقام فيها الخطبة لسلطان الغور ، وقد يسر سقوط نادية فى أيدى الغور أمر استيلائهم على اقليم البنغال بأكمله(٥٧) .

لم يكتف بختيار الخلجى بما أحرزه من انتصارات ، بل تطلع الى السير الى التبت والاستيلاء عليه ، ففى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م اتجه من ديفكوت Devkot الى دناجبور Dinajpur فى عشرة آلاف فارس ، لكن حملته فشلت فشلا ذريعا ، وفى عودته الى ديفكوت فقد معظم جيشه ولم يلبث هو كذلك أن توفى(٥٨) . وقد حرص قطب الدين أيبك على المحافظة على ممتلكات الغور الهندية فقضى على محاولات بعض أمراء الهند فى الاستقلال عن مملكة الغور ، ففى سنة ٥٩٨هـ شق أهل نهرواله عصا الطاعة على الغور ، فقاتلهم أيبك وهزمهم شر هزيمة ، وشتت شملهم واسترد نهرواله وعفا عن حاكمها ، وأبقاه فى بلدته بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المال وتعهد بعدم العودة الى العصيان(٥٩) .

بدأت متاعب الغور فى بلاد الهند فى مستهل القرن السابع الهجرى ذلك أن بعض الولايات الهندية خرجت على حكومة الغور منتهزة فرصة انشغال الغور ، فى الحروب فى ايران ، ومن أبرز الانتفاضات التى أنهكت الغور ثورة الكهكوية ، وبلادهم قليلة المياه ، صعبة المسالك ، وتقع على قمم الجبال ، وامتنعوا عن دفع الخراج الى حكومة الغور وقطعوا الطريق بين غزنة ولاهور ، ولم يستطع والى الملتان التصدى لهم ، ولما زاد خطر الكهكوية أرسل شهاب الدين الى قطب الدين أيبك يأمره بالضرب

---

(56) Majumdab : An Advanced Hist. of India, 279.

(57) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan, p. 40.

(58) Munshi : The Struggle for Empire. p. 119.

(٥٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٩٧هـ .
A short Hist. of Hind-Pakistan, 128.

على أيدى الكهكوية ، وإعادتهم الى الولاء والطاعة ، وأرسل أيبك اليهم يدعوهم الى الطاعة ، وترك التمرد والعصيان ، لكن الكهكوية لم يذعنوا لنداء نائب السلطان وبقوا على عصيانهم ، وطردوا عمال الغور من بلادهم ، وأقبلت الهنود عليهم تؤيدهم فى موقفهم العدائى من الغور فتوى أمرهم(٦٠) .

لما رأى شهاب الدين عدم استطاعة عماله فى اخضاع الكهكوبة وأعوانهم سار بنفسه الى بلاد الهند لاعادة الأمن والهدوء اليها واشتبكت قوات الغور مع الكهكوية فى قتال عنيف ، هزم الغور أعداءهم ، وقتلوا كثيرا منهم(٦١) ، وفر من نجا الى اجمة هناك واشعلوا نارا وألقوا بأنفسهم فيها قبل أن تأخذهم سيوف المسلمين ، وغنم المسلمون منهم ما لا يسمع بمثله ، وبذلك عادت الى الغور هيبتهم فى بلاد الهند وأمنت امبراطوريتهم فى الهند من حركات التمرد(٦٢) ، بل وفد على شهاب الدين بعض رؤساء القبائل الذين انضموا الى الكهكوية يعلنون ولاءهم وعودتهم الى الطاعة(٦٣) .

ويجدر بنا أن نناقش أسباب تفوق الغور المسلمين على الهنود ، فمن بين هذه الأسباب دقة المسلمين ومهارتهم فى ادارة العمليات الحربية ، يضاف الى ذلك أن بلاد الهند كانت تنقصها وحدة سياسية تجمع بينها وتقوى من أمرها اذ كانت الهند دولا مستقلة يحكمها أشخاص لا يرتبطون مع بعضهم البعض برباط يمكن أن يؤدى دوره فى الدفاع عن الوطن فى حالة تعرضه للغزو .

حقيقة أن الأمراء الراجبوتيين كانوا محاربين أكفاء ، لكنهم لم يخضعوا لأمير يوحد شملهم فى مواجهة العدو المشترك ، ولما واجهوا الغور ، لم يستطيعوا الصمود كثيرا أمام هجماتهم نظرا لأن الترك كانوا فى مستوى أعلى منهم فى التدريب والتنظيم والتطور الحربى ، والهنادكة

---

(٦٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٢هـ .
Najumdab : An advanced hist. of India, p. 280.

(٦١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٢هـ .

(62) Munshi : The Struggle for Empire. p. 124.

(63) Lane Poole : Medieval India. p. 55.

لم يكن عندهم الاستعداد الكافى لمسايرة أحـدث التطورات فى التنظيمات العسكرية والأساليب الحربية ، وأخيرا فان الدين الاسـلامى قد أعطى للغور حماسا وقوة للجهاد فى سبيل الله ، ولقد وحد بين المسلمين وجمع شملهم روح الأخوة والمساواة التى يثها الاسلام فى قلوب أبنائه ، أما الهنادكة فالنظام الطبقى السائد بينهم والذى بمقتضاه انقسم الناس الى منبوذين وأشراف عرقل وقوفهم صفا واحدا فى وجه غزاتهم(٦٤) .

والخلاصة أن سلاطين الغور ، نجحوا فى اقامة دولة اسـلامية فى شمال الهند ومهـدت سياستهم فى هذه البـلاد الى قيـام امبراطورية اسلامية فيها لها تقاليدها ومقوماتها ذلك أنهم أسندوا ادارة دولتهم فى الهند الى رجال أكفاء أحسنوا توجيههم ، فعملوا على تثبيت الحكم الاسلامى فى هذه البلاد ، ولقد حرص خلفاء شهاب الدين — من مماليك الترك — على اتباع التقاليد التى وضعها سيدهم فى حكم الهند لذلك يمكن القول بأن شهاب الدين الغورى ليس غازيا للهند فقط بل يعتبر بحق واضـع أساس امبراطورية المسلمين فى الهند(٦٥) .

ضعف مملكة الغـور وانهيارهـا

سار السلطان غياث الدين محمد فى دولته سيرة حسنة ، فقد شيد بها المساجد والمدارس ، وكان ينسـخ المصاحف بخطه ، ويودعهـا فى مكتبـات المدارس التى أسسها ، وخفف عن النـاس عبء الضرائب ، ولم يتعرض لمـال أحد بسوء ، واذا مات رجل فى غير بلـده ، سلم ماله الى أحـد التجـار من أهل بلده ، فان لم يجد أحدا يسـلمه الى القاضى ، ويختم عليه الى أن يصل اليه من يأخـذه من ورثته ، وكان يخلع على الفقهاء والأدباء والشعراء ، وينفق على الفقراء ، يضاف الى ذلك حرصه على وحدة العقيدة ، اذ كان يكره التعصب لمذهب معين ، ويقول : التعصب فى المذاهب من المـلك قبيح(٦٦) .

كذلك كان شهاب الدين محمد عادلا حسن السيرة فى رعيته ويبلـغ من اهتمامه بسير العدالة أن القاضى بغزنة يحضر داره فى بعض أيـام

---

(64) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan, pp. 40-42

(65) K. Ali : A New History of Indo-Pakisan, p. 42.

(٦٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٩هـ .

الاســبوع ، ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب بيت المــال ، فيحكم القاضى ، وموظفو الســلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع ، وان طلب أحد الخصوم الحضــور عنده أحضره ، واستمع الى أقواله ، وأمضى عليه أو له حكم الشرع . لذا سارت الأمور فى مملكة الغور على أحسن نظام ، بعد أن ساد العدل البلاد(٦٧) .

على أن دولة الغور اضطربت اضطرابا شديدا بعد وفــاة السلطان شهاب الدين محمد ، فقد تنافس الامراء والقواد حول عرش السلطنة ، وحدثت حروب أنهكت قوى الدولة الغورية حتى زالت فى النهاية .

فلما توفى شهاب الدين تنافس حول السلطنة ، غياث الدين محمود نجل السلطان غياث الدين محمد ، يساعده تاج الدين يلدز — من أقوى قواد الغور — وابنا بهاء الدين الغورى — صاحب باميان — علاء الدين وجلال الدين ، ودخل الاخوان غزنة فعلا(٦٨) وانتزعا قلعتها ، وفرقــا الأموال فى الجند والأعيان ، فدانت لهما غزنة بالــولاء والطاعة منتهزين فرصة تغيب غياث الدين محمود فى خراسان ، على أن غزنة لم تصــف لعلاء الدين وجلال الدين ، ذلك أن تاج الدين يلدز ما لبث أن دخلها ونهب جنده المدينة ، واستولى يلدز على القلعة ، وأخرج الأميرين الغوريين منها ومن غزنة كذلك ، وكان يلدز قد عظم أمره بعد أن استولى على كل ما فى معسكر سيده شهاب الدين من مال وسلاح وجند .

على أن يلدز لم يكن يعمل باسم غياث الدين محمود كما كان يدعى ، بل كان يعمد على انتزاع الحكم لنفسه ، فلما استوثق له أمر غزنة ، لم يأمر الخطيب بالخطبة لغياث الدين محمود وانما يخطب للخليفة ، ويترحم على شهاب الدين ، وفرق الأموال فى الناس ، فطابت نفوسهم(٦٩) .

أما غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد فقد تربع على عرش الملــك ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد فى فيروزكوه ، وفرح أهل البلد به ، ونكل بأعدائه ومعارضيه ، وســلك

---

(٦٧) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٢هـ .
(٦٨) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٢هـ .
(٦٩) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٢هـ .

طريق أبيه فى الاحسان والعدل ، الا أنه لم يستطع استرداد بلاد خراسان التى انتزعها الخوارزميون من مملكته(٧٠) .

على أن أمر يلدز قد ساء ، ذلك أن قطب الدين أيبك — نائب سلطان الغور فى الهند — أرسل الى يلدز يهدده بالحرب ، ان لم يعد الى طاعة غياث الدين محمود ، ويقيم له الخطبة ، كما أن أحد قواد يلدز ، واسمه ايدكز التتر ساءه موقف يلدز ، فخرج على صاحبه ، واستولى على غزنة وأموالها ، وأقام الخطبة فيها لغياث الدين محمود وأرسل غياث الدين محمود اليه يلقبه « ملك الأمراء » ورد عليه المال الذى كان أخذه من الخزانة ، وقال له : أما مال الخزانة فقد أعدناه اليك لتخرجه وأما أموال التجار وأهل البلد ، فقد ارسلته مع رسول ليعيده الى أربابه حتى لا يحدث ظلم فى دولتنا ، وقد عوضتك عنه ضعفه . وأرسل أموال أهل غزنة الى قاضيها ، وأمره برده الى أصحابه . وسار غياث الدين محمود الى بست ، واستردها من يلدز وأحسن الى أهلها ، وأعفاهم من خراج سنة لما نالهم من الضر والأذى على أيدى هذا القائد(٧١) .

أضعفت هذه الانقسامات من شأن دولة الغور ، حتى ان السلطان خوارزمشاه ، انتزع ما تبقى لها فى خراسان ، بل طمع فى الاستيلاء على البقية الباقية من ممتلكات الغور فى أفغانستان ، فأمر — أمير ملك — عامله على هراة — بقصد غياث الدين محمود — صاحب الغور وفيروزكوه، فسار أمير ملك — القائد الخوارزمى الى فيروزكوه — عاصمة مملكة الغور — ولما رأى غياث الدين محمود — سلطان الغور — ان لا قبل له بالجند الخوارزمى طلب منه الأمان ، فأمنه القائد الخوارزمى ، ونزل سلطان الغور اليه من القلعة ، لكن القائد الخوارزمى نكث بالعهد وقبض على السلطان الغورى وقتله ، وضم بلاد الغور الى الدولة الخوارزمية سنة ٦٠٥هـ(٧٢) .

ولم يلبث علاء الدين محمد — السلطان الخوارزمى — أن استولى على كافة أرجاء خراسان ، وانتزع باميان من الأميرين الغوريين علاء الدين

---

(٧٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٥ ص٨٧٦ .
(٧١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٤هـ .
(٧٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٤هـ .

وجلال الدين ، واستناب يلدز عنه فى حكم غزنة ، فأتام الخطبة له فيها ، ونقش اسمه على السكة . غير أن خوارزمشاه لم يطمئن الى ولاء يلدز وأعوانه ، فسار بنفسه الى غـــزنة سنة ٦١٢هـ وقتل من به من جنـــد الغور ولا سيما الأتراك ، وهرب يلدز الى لاهـــور حيث اغتاله بعض رجال شهاب الدين الغورى .

وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين بعد أن أنهكت قواها بما شنته من حروب على الخطا والخوارزميين والهنادكة . ويذكر ابن الأثير أن دولتهم كانت من أحسن الدول سيرة ، وأعدلها وأكثرهـــا جهادا .

---

(٧٣) نفس المصدر ، حوادث سنة ٦١٢هـ .

٢ — سلطنة دهلى الاسلامية فى عهد الملوك المماليك

شهد العالم الاسلامى فى تاريخه حكاما من الترك كانوا أرقاء عند سادتهم السلاطين واشتغلوا بالجندية ، وتدرجوا فى سلكها حتى بلغوا مناصب رئيسية ، وقد يحدث فى حالة وفاة السلطان وتركه ذرية ضعافا ، أو عدم وجود وارث يخلفه أن يقوم هذا التركى — الذى كان عبدا للسلطان المتوفى — بانتزاع السلطنة لنفسه ، فسبكتكين كان مملوكا لألبتكين ، ولما توفى سيده دون أن يترك من يرثه مكن سبكتكين لنفسه ، وانفرد بحكم دولة سيده ، ووضع أساس امبراطورية الغزنويين فى جنوب غرب آسيا ، وظل أعقابه يتوارثون حكم الدولة الغزنوية حوالى قرنين من الزمان ، وعماد الدين زنكى أقام دولة فى الموصل على أنقاض دولة سادته السلاجقة ، وقد كان أتابكا لهم(١) ، والمماليك فى مصر أقاموا دولتهم بعد أن ضعف سادتهم سلاطين بنى أيوب . وهذا ما حدث بالنسبة لموضوع بحثنا ، اذ أقام المماليك دولة فى الهند بعد أن زالت دولة الغور ، وظلت تحكم أربعة وثمانين عاما (١٢٠٦—١٢٩٠) ، ويذكر لين بول(٢) فى هذا الصدد أن الجندى الكفء من أرقاء الترك كان يستطيع أن يصل الى أعلى الدرجات وأرفعها بما فى ذلك منصب السلطنة . أما عامة الناس من الزراع والصناع والتجار ، فكانت أوضاعهم مجمدة لا تتغير ولا تتبدل ، ويتعاقب عليهم الحكام من مختلف الأجناس ، ويقفون منهم موقف المتفرج ، وما عليهم الا الطاعة والولاء للحاكم سواء كان ايرانيا أو هنديا راجبوتيا(٣) . أو تركيا أو أفغانيا أو مغوليا ، ويسيرون حيث تسير بهم الحياة ، كيفما أراد حكامهم الذين يهبونهم الحياة ، أو ينتزعون حقوقهم فيها .

---

(١) عصام الدين عبد الرؤوف : دول اتابكة الموصل والجيرة ، ص١٦١ .

(2) Medieval India. p. 61.

(٣) ينتمى الأمراء الراجبوتيون الى جحافل الاريين الذين هاجروا الى الهند قبل قبائل الهون البيض ، وقد لعبوا دورا كبيرا فى تطور الحياة السياسية فى بلاد الهند ، واشتهروا بالبطولة والفروسية ، لذلك نسبت الأساطير الهندية نشأتهم الى تزاوج الشمس بالقمر ، وظل الأمراء الراجبوتيون يسيطرون على شمال الهند حتى أضعفهم الغور ، فلجأوا الى صحراء الثار ، وعاشوا فيها ، وعرفت بعد ذلك باسمهم .
(Prasad : Medieval India pp. (30-31).

وســـلاطين امبراطورية المماليك فى الهند كانوا أرقـــاء من أجناس مختلفة ، وصلوا الى ما وصلوا اليه بفضل ما اتصـــفوا به من شجاعة وبسالة وكفاءة ، وكان شأنهم شأن مماليك مصر يحرصون على تخليــد أسمائهم باقامة المنشآت الكبيرة مثل المساجد الفخمة والعمائر الرائعة .

وقطب الدين أيبك — أول سلاطين المماليك فى الهند — كان مملوكا عند سيده شهاب الدين — سلطان دولة الغور الأفغانية — (٥٩٩هـ/ ٦٠٢هـ) وهو تركستانى الأصل ، اشتراه قاضى نيسابور ، وأدبه وأحسن تأديبه ، وعلمه علوم الدين وأساليب الفروسية ، ولمـــا توفى هـــذا القاضى ، حمله أحد تجار الرقيق الى غزنة حيث اشتراه شهاب الدين الغـــورى ، ولمس فيه الشجاعة والذكاء وحسن الخلق ، وعهد اليه بالعمل فى الجيش كجندى ، وتجلت شجاعته وبراعته الحربية فى معركة تارين سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٥م وهى المعركة التى كانت بين سلطان الغور من ناحية ، والأمراء الراجبوتيين من ناحية أخرى — وكافأ شهاب الدين مملوكه بأن جعلـــه نائبا له على ممتلكات الغور فى الهند ، فأقام فى دلهى وجعلها قاعدة لحكمه فى بلاد الهند بدلا من لاهـــور(٤) .

لم يأل قطب الدين أيبك جهدا فى سبيل المحافظة على دولة الغور فى بلاد الهند ، بل عمل على ضم المزيد من أراضى الهند الى دولة الغور ، ففى سنة ٥٩٣هـ/١٢٠٠م استولى أيبك على كواليار ونهرواله ، وضم كالنجار الى حوزته(٥) ، وكذلك امتلك بلاد البنغال وأوقف كل محـــاولة بذلها الهنادكة لتحرير بلادهم من قبضة الغور(٦) .

وبقى أيبك على ولائه لدولة الغور حتى فى أشد حالات ضعفهـــا ، فلما ولى غياث الدين محمود سلطنة الغور سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م لم يكن هناك اجماع على توليتـــه ، فخرج عليه بعض مماليكه ، وعملـــوا على الاستئثار بالسلطة والنفوذ دونه ، ومن بين هؤلاء المماليك تاج الدين يلدز الذى سيطر على غزنة ، وأقام الخطبة فيها لنفسه ، وخلع طاعة سلطان

---

(4) Majumdar. An Advanced Hist. of India. p. 273.

(5) Morel : A Short Hist. of India. p. 152.

(6) Majumdar : An Advanceé Hist. of India. p. 273.

الغور (٧) ، بينما بقى قطب الدين ايبك يدير الممتلكات الاسلامية فى الهند باسم سلطان الغـــور ويقيم الخطبة باسم غيـــاث الدين محمود ، وضبط الأمور فى الهند وضرب بيـــد من حـــديد على المفسدين ، وعارض بشـــدة الحركات المناهضة للحكم الغورى(٨) ، وأرسل الى يلدز يقبح فعـــله ، ويأمره باقامة الخطبة للسلطان الغورى ، وهدده بالمسير اليه ومحاربته ، ان لم يعد الى الولاء والطاعة ، ولمـــا لم يستجب تاج الدين يلدز ، قام أيبك بالعمل على ضم غزنة الى مملكة الغور ، وطرد يلدز منها(٩) .

على أن يلدز لم يركن الى الهزيمة بل انتهز فرصة ســـقوط الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين ، وســـيطر على غزنة وحكمهـــا باسم علاء الدين محمد خوارزمشاه لكنـــه لم يلبث أن غادر غزنة خوفا من أن يبطش به السلطان الخوارزمى الذى شك فى اصلاحه(١٠)، وتوجه الى البنجاب ، وانتزعها من نائب قطب الدين أيبك ، فسار أيبك اليه ، وما زال يطارده حتى غادر الهند . وبذلك انفرد ايبك بحكم الاقليم الاســـلامى فى الهند ، واعلن نفسه سلطانا فى لاهور ، واقيمت الخطبة له فى بلاد الهند الاسلامية ، ونقش اسمه على السكة ، واتخذ من دلهى قاعدة لدولته .

على أن قطب الدين ايبك لم يلبث أن عفا عن تاج الدين يلدز كمـــا احسن الى غيره من مماليك شهاب الدين مثل التمش وقباجة وارتبط بهم بعلاقات مصاهرة ، فزوج اخته الى قباجة ، وابنته الى التمش ، وتزوج من أخت تاج الدين يلدز ، وكفل بسياسته هـــذه ضمان تأييد هؤلاء القادة لحكمه ، وعـــدم التصدى له(١١) .

ويعتبر قطب الدين ايبك اول سلطان مســـلم اســـتقل بحكم دولة المسلمين فى الهند(١٢) ، وتمكن هذا الســـلطان بفضل قوته وشـــجاعته وكفاءته الادارية من بسط سيطرته على شمال الهند مدى العشرين عاما

---

(7) Lane Poole : Medieval India. p. 54.

(8) Morel : A Short Hist. of India. p. 152.

(٩) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٣هـ .

(10) Lane Poole : Medieval India. p. 68.

(11) Munshi : The Struggle for Empire. 131.

(12) Majumdar : Aa Advanced Hist. of India. p. 274.

التى حكمها(١٣) ، وضبط الأمور فى دولتــه ، وســاس الهنــادكة احسن سياسة ، وضرب بيــد من حديد على أيدى اللصوص وقطــاع الطرق ، وأنفق بسخاء على الفقراء والمساكين ، وحكم الناس بالعدل ، وعم السلام ربوع دولته حتى قيل ان الذئب والحمل كانا يشربان من نبــع واحد فى عهده ، وساوى فى المعاملة بين الهنادكة عظيمهم وحقيرهم ، وهذا أمر لم يتعودوه قبلا(١٤) .

وعنى قطب الدين بالعمارة ، ومن أبرز ما خلف مسجده المشــهور الذى بــدأ تشييده سنة ١١٩١م ، واكمــله التمش سنة ١٢٣٠م(١٠) ؛ ولا تزال منارة هذا المسجد باقية الى يومنا هذا ، وتسمى منارة قطب الدين ويبلغ ارتفاعها ٢٥٠ قــدما(١٦) ، وعلى واجهة احــد أبواب المسجد كتب باللغة العربية بحروف بارزة من الحجر : « بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعــو الى دار السلام .. » ثم كتب تحت ذلك : « جرت هــذه العمــارة بأمر ... » وبجانب المسجد اسس مدرسة كبيرة . أما المنارة فكانت مكونة من سبع طبقات ، لكن الموجود منها الآن خمسة فقط ، أسس أيبك الطبقة الأولى ، وأقام التمش الطبقتين الثانية والثالثة ، واتم خلفاؤه البــاقى ، وفى كل طــابق نقش على جــدرانه آيات قرآنيــة ، وبعض المراســـم السلطانية .

توفى قطب الدين أيبك سنة ١٢١٠م وخلفــه فى الحكم ابنه آرام شاه وكان شابا صغيرا لا يستطيع القيــام بعبء الملك(١٧) ، لذا عجز عــن ادارة شؤون الدولة ، فاستدعى رجال الدولة التمش(١٨) — وكان يلى حكم أحد الأقاليم الهندية ، وذكرنا سابقا انه كان من مماليك شهاب الدين الغورى ، وزوجا لابنة قطب الدين أيبك — وطلبوا منه ان يلى السلطنة(١٩)

---

(13) A Short Hist. of Hind - Pakistan. Prepared. By Pakistan History Boards.

(14) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274.

(15) Lane Poole : Medieval India. p. 68.

(16) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan p. 48.

(17) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan p. 48.

(18) Munshi : The Struggle for Empire. p. 181.

(19) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274.

فقدم الى دهلى ، وطرد آرام شاه منها ، وتربع على عرش السلطنة سنة ١٢١١م(٢٠) .

يعتبر شمس الدين ألتمش المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى الهند واصله مملوك ابتاعه قطب الدين أيبك من غزنة وحمله معه الى الهند ، ولمس فيه نبل الأخلاق والفضيلة والذكاء والشجاعة ، فجعله رئيسا لحرسه ، ثم أسند اليه حكم ولايات الهند ، وكما كان أيبك لشهاب الدين الغورى ، فقد كان ألتمش لأيبك(٢١) .

بعد أن ولى شمس الدين ألتمش سلطنة دهلى ، تعرض لمشاكل داخلية تستهدف التخلص منه(٢٢) ، ذلك أن بعض كبار رجال الدولة طمع فى الوصول الى الحكم منتهزين فرصة الفوضى التى أعقبت وفاة أيبك ، فاستولى قباجة على الملتان والسند ، وتنازع مع تاج الدين يلدز حول السيادة على لاهور ، كما أن خلفاء بختيار الخلجى سيطروا على بهار والبنغال(٢٣) . يضاف الى ذلك أن قواد قطب الدين أيبك لم يرضوا عن تولية ألتمش السلطنة ، وانتهز الأمراء الهنادكة فرصة هذه الاضطرابات والقلاقل ، وانشغال السلطان فى قمعها وتحركوا لنيل استقلالهم(٢٤) .

لم يقف شمس الدين ألتمش مكتوف اليدين ازاء موقف قواد قطب الدين أيبك الترك المناهض له ولحكمه ، والذين لم يرضوا أن ينصب عليهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك(٢٥) ، بل عول على اخضاعهم ، واشتبك معهم فى معركة بالقرب من دلهى هزمهم فيها شر هزيمة ، وأجبرهم على الدخول فى طاعته(٢٦) وكان من أقوى الرجال الذين تصدوا لحكم ألتمش ، تاج الدين يلدز الذى سيطر على غزنة بعد انهيار دولة الغور

(20) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 133.

(21) Lane Poole : Medieval India. p. 70.

(22) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 49.

(23) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 134.

(24) K.Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan.p. 49.

(٢٥) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، جا ص١٢٤ .

(26) Majumdar : An Advanced Hist. of India p. 275.

وبسط نفوذه على البلاد المجاورة لغــزنة حتى اقترب من خوارزم وشن حمــلات ناجحـــة على أطراف الهند ، وعلى الرغم من أنه أقـــام الخطبة للسلطان الخوارزمى فى غزنة ، الا أن هذا السلطان لم يطمئن إلى ولاء يلدز له ، وسار الى غزنة سنة ٦١٣هـ/١٢١٧م لانتزاعها من يلدز ، وطّرد الأتراك منها(٢٧) ، فولى يلدز الأدبار الى بلاد الهنـــد ، والتقى بناصر الدين قباجة — والى لاهور والملتان وديبل ، وغيرها من قبل ألتمش — فى معركة عنيفة هزم فيها قباجة ، واستولى على لاهور ، ثم زحف الى مدينة دلهى لانتزاعها من ألتمش فتصدى له السلطان الهندى فى معـــركة عنيفة على الطريق الى دلهى ، وهزمه وقتله فى تارين سنة ١٢١٦م(٢٨) .

لم يكد يستقر الأمر لألتمش حتى تعرض لخطر جديد من قبل المغــول الذين دأبوا يشنون حملاتهم العنيفة على الدولة الخوارزمية ، واستولوا على أقاليمها ، والحقوا ببلدانها الخراب والدمار . ولمـــا توفى الســـلطان الخوارزمى علاء الدين محمد خلفه ابنه جلال الدين منكبرتى ، وعول على استرداد ملك آبائه وأجداده من براثن المغـــول المعتدين ، فصـــار الى خوارزم ، لكنه علم أن المغول قـــد استولوا عليها(٢٩) ، لذلك اتجـــه الى خراسان ، وتنقل بين بعض مدنها ، ولم يلبث أن غادرها حتى لا يصطدم بالقوات المغولية المرابطة فى خراسان فى وقت لم يكن هو فيه على أهبة الاستعداد لمهاجمة عدوه ، فولى وجهه شطر غزنة — وكان يحكمها من قبل أبيه قبل أن يحتلها المغول — ورحب أهل غزنة بمقدمه ورأوا فيـــه خير منقذ لهم من ويلات المغول وغيرهم ، والتفوا حوله ، ولمـــا ســـمع الجند الخوارزمى المبعثر بين كابل وبشاور وغيرها من المدن الواقعـــة على حدود الهند بمقدمه ، سارعوا اليه ودخلوا تحت لوائه ، وبذلك كثر جمعه ، وأصبح جيشه يضم ستين الفا من المشـــاة ، وسبعين الفا من الخيالة(٣٠) ، وواتته الفرصة للعمل على تحقيق هدفه الرامى الى استعادة دولة أبيه التى انتزعها المغول(٣١) ، فسار على رأس جيشه الى السهول المحيطة ببروان Parwan فى الشمال الشرقى من غزنة ، واشتبك مع

---

(27) A Short Hist.. of India. p. 134.

(28) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. pp.49-50.

(٢٩) براون : تاريخ الادب الفارسى جـ٢ ص٥٧٠ .

(٣٠) ابن الوردى : تتمة المتخصر جـ٢ ص١٤٥ .

(31) Cambridge History of Iran. Nol. 5. p. 318.

المغول فى قتال استمر ثلاثة أيام ، أحرز فيه على أعدائه انتصارا رائعا وقتل المسلمون من المغول كثيرين وشجع انتصار جلال الدين ، البلاد الاسلامية على الوقوف فى وجه المغول ، فثار أهل هراة على والى المغول وقتلوه ، وأعلنوا ولاءهم لجلال الدين منكبرتى(٣٢) .

لما علم جنكيز خان بانتصارات السلطان الخوارزمى على جنده ، وانضمام البلدان الاسلامية اليه ، أعد جيشا كبيرا للقضاء على جلال الدين منكبرتى وجنده ، وسار على رأس جيشه الى كابل(٣٣) ، والتقى جند المغول بالجيش الخوارزمى فى معركة ضارية ، دارت فيها الدائرة على المغول للمرة الثانية ، وغنم المسلمون ما معهم ، وفكوا أسر الأسرى المسلمين ، لكن الأمور ما لبثت أن تحولت الى صالح المغول رغم هزيمتهم، ذلك أن خلافا حدث بين بعض قادة جلال الدين منكبرتى ، فارق على أثره القائد التركى بفراق جيش السلطان الخوارزمى واتجه الى الهند ، وتبعه من الجند ثلاثين ألفا كل يريدونه ، وحاول منكبرتى أن يثنيه عن عزمه ، وألح عليه ، بل بكى بين يديه ، وخوفه من الله اذا تقاعس عن الجهاد فى سبيله ، لكن هذه المحاولة لم تجد مع القائد التركى فتيلا ، فقد أصر على الانسحاب الأمر الذى أضعف الجيش الخوارزمى ، وأصبح عاجزا عن الوقوف فى وجه المغول(٣٤) .

كل ذلك حدث بينما جنكيز خان يتجه بجحافله الى الناحية التى يعسكر فيها جلال الدين وجنده ، لذلك لم ير السلطان الخوارزمى بدا من الانسحاب والمسير الى الهند ، ولما بلغ السند ، لم يجد من السفن ما يكفى لعبوره هو وقواته ، وفى غضون ذلك أدركه جيش المغول ، ودار قتال عنيف بين الفريقين أبلى فيه المسلمون بلاء حسنا ، فلما رأى المسلمون عدم استطاعتهم قتال المغول لقلة عددهم ، ونقصان عتادهم ، دبروا أمر العبور الى الهند ، بينما عاد المغول الى غزنة وامتلكوها ، وأبدى جلال الدين من ضروب الشجاعة والبسالة ما لا مزيد عليه فى العبور(٣٥) حتى

---

(32) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India p. 276.
(33) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 135.
(34) Munshi : The Struggle for Empire. p. 182.
(35) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 275.

انه بلغ الشاطىء الشرقى سالما ومعه اربعــة آلاف جندى كانوا حفـــاة عـــراة(٣٦) .

على أن جلال الدين منكبرتى لم يجد استجابة وقبولا من دولة المماليك فى الهند فقد توجس التمش ورجال دولته خيفة من الخوارزميين . لذلك اصطدم جلال الدين بجند التمش فى السنوات الثلاث التى قضاها فى الهند، بدأ هذا الصدام مع قباجة ــ حاكم السند الذى حاول منعه من الاقامة فى السند خوفا من أن يتعقبه المغول ، ويطيحـــون به وبولايته(٣٧) ، لكن جلال الدين أوقع به الهزيمة ، وأحبط محاولته ، ولمـــا علم جلال الدين أن المغـــول يعتزمون القـــدوم الى الهند لدحـــره والقضاء عليه ، سار الى دلهى ، وأرسل الى التمش يطلب منه ان يمنحه هو وجنده حق الاقامـــة فى دلهى ، لكن السلطان المملوكى اعتذر اليه بحجـــة أن حرارة الجو فى دلهى لا تناسب الخوارزميين ، ذلك أن ســـلطان دهلى خشى أن ينضم الجند فى دولته الى ســلطان الخوارزميين ، وطلب منه الانســـحاب من دولته ، وحدثت معركة بين الجيش الخوارزمى وجيش التمش بالقرب من دلهى ، وانسحب على اثرها جلال الدين الى لاهور ، وكثر جمع جلال الدين بما وفد اليه من جند أخيه غياث الدين ــ حاكم العراق ــ كذلك انضمت اليه قبائل الكهكرية الناقمين على قباجة ــ حاكم السند ــ فازدادت قوته ، وانتزع من والى السند بعض البلدان(٣٨) .

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه الى الهند اتخاذها مســـتقرا ومقاما ، لكنه كان يهدف الى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يســـتعيد قـــوته ، ثم يستأنف الحرب ضدهم ، وواتته الفرصة لشن الحرب من جديد على المغول ، فقـــد توفى جنكيز خان ، وعقبت وفاته انسحاب القـــوات المغولية الرئيسية التى تحتـــل أقاليم الدولة الخوارزمية الى مواطنهـــا الأصلية فعبر نهر السند(٣٩) سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وقصد ايران ، وظـــل يقاتل المغول حتى ضعفت ووهنت قوته وفر من أمامهم ، وظلوا يتعقبونه حتى قتل فى كردستان سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م(٤٠) .

---

(36) Cambridge Hist. of Iran. vol. 5. pp. 322-323.

(٣٧) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٥٠ .

(38) Munshi : The Struggle for Empire. p. 182.

(٣٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٢٦٠ .

(40) Lane Poole : Medieval India. p. 74.

لما غادر جلال الدين منكبرتى الهند أمن السلطان التمش على دولته من الخطر الخوارزمى ، وما قد يسفر عنه من هجوم المغول على بلاده ، لكنه لم يكد يتنفس الصعداء من جراء هذه الأزمة حتى واجه أمورا داخلية تمس وحدة دولته ، ومن أبرز هذه الأمور خروج غياث الدين الخلجى — والى البنغال من قبله — عليه(٤١) وأعلن استقلاله عن دلهى ، وأقام الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة ، وتلقب بألقاب الملوك ، وقوى أمره حتى امتد نفوذه على جاينكر وكمروب وترهوت وجور ، الى الشرق من دلهى(٤٢) .

عول السلطان التمش على سحق محاولة الخلجى الاستقلالية عن دولته ، وسار على رأس جيش قوى الى البنغال ، ولما رأى الأمير الخلجى عدم استطاعته الوقوف فى وجه سلطان دلهى أعلن عودته الى الولاء والطاعة له ، وتعهد بدفع الجزية المقررة عليه(٤٣) ، الا أنه لم يكن صادقا فى تعهده ، بل كان يزمع انتظار فرصة أخرى تتيح له العودة الى الاستقلال بولايته ، فلما ابتعد السلطان التمش عن البنغال ، عاد وأعلن الاستقلال وسار الى بهار واستولى عليها ، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا(٤٤) ، اذ سار اليه ناصر محمد شاه — والى أوده Oudh من قبل أبيه السلطان التمشى وهاجم البنغال ، وأوقع الهزيمة بالخلجى وأنصاره ، وأعاد سيطرة دلهى على اقليم البنغال(٤٥) .

على أن الأمور لم تستتب فى امبراطورية الهند الاسلامية بعد عودة البنغال الى سيطرة الحكومة المركزية فى دلهى ، ذلك أن قائدا آخر انتفض على سلطان دلهى ، وهو ناصر الدين قباجة ، وكان ألتمش قد طرده من لاهور بعد أن حاول الاستقلال بها عن دلهى ، فبسط سيطرته على بعض بلدان السند ، لكن جلال الدين منكبرتى اشتبك معه ، وانتزع منه أوكا والملتان ، ولما انسحب السلطان الخوارزمى من الهند عاد قباجة وسيطر على هذه البلاد ، وحكمها مستقلا عن سلطان دلهى ، فصار

---

(41) K. Ali : A Short Hist. of Indo-Pakistan. pp. 55-57.

(42) Munshi : The Struggle for Empire. pp. 183-184.

(٤٣) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية جا ص١٢٧ .

(44) Munshi : The Struggle for Empire. p. 134.

(45) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 136.

اليه شمس الدين ألتمش ، بينما اتجه واليه على لاهور لنجـدته وهزمه بالقرب من بهكر Bhakkar ، وظل يتعقبه ، حتى سقط فى نهر السند وغرق وهـو يحاول عبوره فرارا من خصمه(٤٦) .

وبذلك قضى السلطان ألتمش على خصومه ومنافسيه ، واكتسب حكمه الصفة الشرعية حينما أرسل اليه الخليفة العباسى المستنصر بالله تقليدا بحكم دولة الاسـلام فى الهند سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م(٤٧) ، ولقبـه « ناصر أمير المؤمنين ، حامى الايمان » وقدم السلطان الخليفة فى الخطبة والسكة على نفسه ، وأبرز كذلك الألقـاب التى منحها لـه الخليفة على العملة الفضية العريضة التى سكها(٤٨) . ومما لا شك فيه أن اعتراف الخليفة بسلطان دلهى أكسبه محبة وتقـدير واحترام رعاياه المسلمين .

وكان لتأييد الخليفة للسلطان ألتمش اثر كبير فى تقـوية دولتـه فخرج يقضى على ما تبقى من خصومه ، ولم يكن هؤلاء الخصوم قادة من الترك ، بل كانوا بعض راجات الهنـد الذين انتهزوا فرصة انشـغال السلطان بمشاكله الداخلية ، واستطاعوا الاستقلال ببلدانهم(٤٩) ، فسار اليهم ألتمش ، واستعاد رانثمار وكذلك اسـترد ماندوار Mandawor فى جبال السـوالك وفى سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م هاجم جواليـار Guwalior وحاصر قلعتها شهرا حتى سيطر عليها ، ثم سار الى ملاوى واستردهـا كذلك ، واستولى على بهلسا Bhilsa وآجان Ajjan وعـاد الى الاشتباك مع الخلجيين الذين حاولوا من جديد الاستقلال بالبنغال وتقوية نفوذهم فيها خصوصا بعد وفاة ناصر الدين محمد شاه — والى البنغـال من قبل ابيه سلطان دلهى(٥٠) .

توفى ألتمش سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م بعد أن وطد نفوذه وسلطانه فى دولة المماليك فى الهند ، وخاض فى سبيل ذلك حروبا كثيرة — كما ذكرنا —

---

(46) K. Ali : A New Hist . of Indo-Pakistan. p. 57.
(47) Munshi : The Struggle for Empire. p. 134.
(48) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 276.
(49) Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 135.
(50) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 52.

ضد خصومه الذين حاولوا انتزاع بعض بلدان دولته ، ولذلك يمكن القول بأن ألتمش هو المؤسس الحقيقى لسلطنة دلهى المملوكية(٥١) .

ولم تمنع الغزوات المتكررة التى خاضها ألتمش ضد اعدائه لم تمنعه من اصلاح أحوال بلاده ، فأعاد تنظيم الجهاز الادارى وهو من هذه الزاوية يعتبر رجل دولة من الطراز الأول ، وقد كان الجهاز الادارى من قبله ينقصه التنظيم . وحدد لكل ادارة أو مصلحة اختصاصها ، رسم لها الخطة التى تسير عليها(٥٢) وبذلك سارت الأعمال الحكومية فى عهده بدقة . كذلك حرص السلطان ألتمش على اقرار العدالة فى بلاده ، ورفع الظلم عن رعاياه ، وباشر بنفسه أمر اقرار العدل ودفع الظلم(٥٣) ، ولتحقيق ذلك أمر كل صاحب مظلمة يلبس ثوب مصبوغ ، يميزه عن لباس أهل الهند الأبيض ، فكان متى جلس للناس أو ركب ، ورأى أحدا يرتدى ثوبا مصبوغا ، استدعاه اليه ، ونظر فى شكواه ، ورفع عنه مظلمته ، ولكى يتيح الفرصة لأصحاب المظالم برفع شكاواهم اليه أثناء وجوده فى داخل قصره ، أقام على باب قصره تمثالين لأسدين موضوعين على برجين ، وفى أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير ، يدقه المتظلم ، وحينئذ يسمع السلطان بمثوله بين يديه ، ويستمع اليه وينظر فى أمره(٥٤) .

وعنى ألتمش بتشجيع العلوم والآداب وأنفق أموالا كثيرة فى كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى تكون فى متناول الناس لقراءتها والاستفادة منها ، وأسس العديد من المدارس وزين بلاطه بالشعراء والعلماء ، وجعل عاصمته مركزا هاما للعلوم والآداب ، كذلك أولى الفن المعمارى عناية كبيرة فأتم بناء مسجد قطب الدين فى دلهى ، وشيد مسجدا آخر فى آجمير(٥٥) .

بوفاة ألتمش يكون قد بقى من عمر سلطنة المماليك فى دهلى ثلاثين سنة ، أثقلت المشاكل كاهلها فى خلالها حتى عصفت فى النهاية بذلك الصرح

---

(51) Morel : A Short Hist. of India. p. 160.
(52) A Short Hist : of Hind«Pakistan. p. 136.
(53) Munshi : The Struggle for Empire. p. 18.
(54) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 53.
(55) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 53.

الضخم الذى بذل التمش جهودا كبيرة فى سبيل تشييده ، ومن الأمور التى أضعفت هذه الدولة عجز السلاطين الذين خلفوا التمش عن ادارة شؤون الدولة ، والمنازعات الشـديدة التى قامت بين كبار رجال الدولة حـول الاستئثار بالسلطة .

وتفصيل ذلك ان التمش عهد الى ابنته رضـية بالحكم من بعـده ، ذلك أن ابنه الأكبر ناصر الدين محمد توفى فى البنغـال ، وحاول التمش تدريب ابنتـه رضـية على ادارة شؤون الدولة ، وعهـد اليها بمباشرة سلطاته أثناء غيابه عن دهلى تمهيدا لتوليتها السلطنة من بعده ، على أن كبار رجال الدولة اعترضوا على تولية رضية الحكم بعد وفاة والدها ؛ ودبروا أمر خلعها ، واستدعوا أخاها فيروز من لاهور ، وطلبوا منـه أن يتولى سلطنة دلهى بدلا من أخته ، فسار فيروز الى دلهى ، ومكنه رجال الدولة من تولى الحكم بعدأن عزلوا أخته رضية . على أن هذا السـلطان لم يستطع ادارة أمور الدولة بحكمـة وكفـاءة ، بل انصرف الى اللهـو والعبث ، وترك مقاليـد الأمور فى يد أمه شاه تركان ، وهى امرأة حقـود وضيعة النشأة ، وسارت سيرة سيئة فى الحكم ، لذلك حدثت فى الدولة الكثير من القلاقل والثورات والفتن ، وعول حكام الملتان ولاهور وهانسى وبدوان Budaum وأوده على انهاء هذا الحكم الفاسد وتحركوا الى دهلى فعلا(٥٦) ففر فيروز من دهلى ، وتبعه جنده ، والتقى بالخـارجين عليه بالقرب من العاصمة لكنه لم يستطع الاشتباك معهم فى قتال ، ذلك أن جنده انفضوا من حوله ، وعادوا الى دلهى ، وأعلنوا خلع فيروز ، وتوليـة رضية ، وقبض على فيروز وزج فى السجن(٥٧) .

على أن هذا الحل لم يرض أمراء الـولايات المتجهين الى دلهى اذ كانوا يعتزمون تولية أحد الأمراء الحكم ، وحاصروا دلهى فعلا وقطعوا عنها سبل الاتصال ـ بالولايات التابعة لهـا ، لكن السلطانة رضية أظهرت مقدرة وكفاءة فى سحق هؤلاء المناوئين(٥٨) لها . فعلى الرغم من أنها كانت فى قلة من الجنـد ، فانها استطاعت اضعاف أعدائها الأمراء المحاصرين

---

(56) Munshi : The Struggle for Empire. p. 187.

(57) Lane Poole : Medieval India p. 73.

(58) Mane Poole : Medieval India. pp. 74-75.

للعاصمة . وذلك ببــذر بذور الشقاق بينهم . عندئذ واتتها الفرصة للتخلص من أعدائها وهزيمتهم ، وردهم على أعقابهم خاسرين ، وأصبحت سلطانة الامبراطورية بلا منازع ، وعاد الأمن والهدوء الى ربوع دولتها(٥٩) .

وحرصت رضية على أن تبلغ مبلغ الرجال فى أعمالهـــا وتصرفاتها : حتى تضفى على نفسها الرهبة أمام الناس ، فتزيت بزى الرجال ، وقادت الجيوش بنفسها ضد أعدائها ، وشاهدها الناس وهى تركب الفيل على رأس جيشها ، الا أنها أغضبت أمراء الدولة الترك الذين رفع التمش من شأنهم ، وقربهم اليه ، وأسند اليهم الأمور الهامة فى الدولة(٦٠) ، وأبعدتهم عن التدخل فى شؤون الحكم ، لأنها كانت تدرك مقدار معارضتهم لحكمها ، وسوء نواياهم نحوها(٦١) .

كذلك أثارت رضية المعارضة ضدها حينما رفعت من شأن رجل حبشى يعمل أميرا للخيل فى بلاطها يســمى جلال الدين ياقـــوت(٦٢) ، وأسندت اليه قيـــادة الجيش ، بل همت به ، وهم بها ، وتزوجت منه ، فدبر الأمراء الترك مؤامرة للتخلص منها ، أو على الأقل تقليص نفوذها ، وقادها ايتيكين Aitigin ــ أمير حاجب ــ لكن رضية أحبطت المؤامرة ولم تنته متاعب رضية عند هذا الحد ، اذ أعلن حاكم البنجاب الثورة ، فســحقت رضية تمــرده(٦٣) ، أما اختيـــار الدين التونيـــا Altunia ــ حاكم بهاتندا ــ فقد رفع هو الآخر راية العصيان ، وقادت رضية جيشا لمحاربته ، لكنه هزمها وأسرها(٦٤) ، وقتل ياقوت ، وبينما هى بعيـــدة عن العاصمة اذ بالأمراء الترك فى دلهى يعلنون عزلها ، ويولون بدلا منها معز الدين بهرام بن التمش .

لمـــا ولى بهرام شـــاه ســـلطنة دلهى لم يستطع الانفراد بالحـــكم لضعفه ، بل اضطر الى الخضوع للأمراء الترك ، والسير وفق أهـــوائهم

---

(59) Lane Poole : Medieval India. pp. 74-75.

(60) Munshi : The Struggle for Empire. pp187-188.

(61). K. Ali. : A New Hist. of Indo-Pakistan p. 55.

(62) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India- p. 279.

(63) Munshi : The Struggle for Empire. p. 188.

(64) A Short Hist. of Hind- Pakistan. p. 136.

وأسند أمر الملك كله الى واحد منهم هو وزيره اختيار الدين ايتيكين الذى قبض على زمام الأمور فى الدولة دون السلطان ولم يلبث أن غضب السلطان من وزيره الذى جعله اسما فقط ، فدبر السلطان مؤامرة لاغتياله ، وأدى نجاحها الى استرداد سلطانه(٦٥) .

لكن بهرام شاه لم يستمتع بالانفراد بالحكم طويلا ، ذلك أن بدر الدين سنقر — أمير حاجب — سيطر على أمور الدولة ، كذلك تعرض السلطان لمؤامرة أخرى تستهدف خلعه ، فقد انتهز التونيا — حاكم بهاتندا — فرصة مقتل ايتيكين ، وعول على المسير الى دهلى ، والتربع على عرش السلطنة ، ولتحقيق ذلك أفرج عن أسيرته — رضية — وتزوج منها ، ورأى أن ذلك يعطيه الحق فى تحقيق أطماعه الرامية الى الاستحواذ على السلطنة ، وتقدم الاثنان الى دلهى ، لكن القبائل الكهكرية هاجمت جيوش التونيا وشتتت شملهم ، وعثروا على رضية تستظل بظل شجرة ، واغتالوها(٦٦) ، وبذلك فشلت هذه المؤامرة . على أن رضية كانت سلطانة عادلة على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة ، شجعت العلوم والآداب(٦٧) ، وكانت تتجول فى الأسواق فى زى الرجال ، وتجلس الى الناس ، وتستمع الى شكاواهم ، ومما يجدر ذكره أن رضية عاصرت شجرة الدر — ملكة مصر الشجاعة التى قامت بدور كبير فى صد لويس التاسع — ملك فرنسا — عن مصر فى الحملة الصليبية السابعة ، وكان زوجها الملك الصالح أيوب قد توفى أثناء معركة المنصورة ، فقبضت شجرة الدر على زمام الأمور فى مصر حتى قدم توران شاه ابن الملك الصالح ، وخلف أباه فى الملك .

لم تستتب الأمور فى دهلى باحباط مؤامرة امير بهاتندا ، ورضية ؛ ذلك أن أمير حاجب ظل قابضا على زمام الأمور فى الدولة وبينما تسير الدولة فى طريق الاضطراب واجهت خطرا آخر ليس من الداخل ، ولكن من الخارج ، ذلك هو خطر المغول الذين هاجموا لاهور بسنة ١٢٤١م ، فقاد أمير حاجب جيشا الى لاهور لوقف تقدم المغول(٦٠) ، غير انه لم

(65) K. Ali : A Short Hist of Indo-Pakistan. p. 55.
(66) A Short. of Hind-Pakistan. p. 139.
(67) Ma Jumdar : Aa Advanced Hist of India. p. 276.
(68) Munshi : The Struggle for Empire. p. 193.

يلبث أن توجس خيفة من السلطان اذ رأى أن ابتعاده عن العاصمة سيؤدى الى تآمر السلطان وحاشيته ورجاله ضده ، وعزله من منصبه ، ومنعه من دخول دهلى ، وانضم اليه الجيش فى اعلان التمرد والعصيان على السلطان ، فأرسل اليه بهرام شاه رسولا من رجال الدين ليحثه هو والجند على ترك الفتنة والمضى قدما فى طريق الجهاد فى سبيل الله ، لكن الشيخ الرسول لم يقم بالواجب الذى كلفه به السلطان ، بل انضم الى الثوار ، وعادوا جميعا الى دلهى ، وتركوا المغول يهاجمون لاهور(٦٩) .

أعد السلطان العدة للدفاع عن عاصمة ملكه ، لكن رجال أمير حاجب داخل دهلى ساعدوا المهاجمين على الاستيلاء على العاصمة ، وقبضوا على بهرام شاه سنة ١٢٤٢م ، وولوا بدلا منه علاء الدين مسعود — حفيد ألتمش — وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة(٧٠) .

لم يكن علاء الدين أسعد حظا من سابقه ، فقد فوض أمور دولته الى قطب الدين حسين ، وجعله نائبا ووزيرا له ، لكنه استبد بالسلطة دونه ، وأسند الوظائف الادارية الهامة فى الدولة الى أعوانه وأنصاره ، وتآمر السلطان على وزيره وقتله ، وعهد الى نجم الدين أبوى بكر بمنصب نائب السلطان ، وعين بلبن فى منصب أمير حاجب(٧١) .

واجه بلبن صعابا جسيمة فى ضبط أمور الدولة ، فقد كثرت الفتن والقلاقل بها ، اذ حاول الأمراء الهنادكة الاستقلال عن دهلى ، وحاول أمراء الولايات كذلك الانفصال عن الحكومة المركزية ، وحارب بعضهم بعضا ، وتعرضت البلاد كذلك لخطر المغول الزاحف اليها ، وبلغ من ضعف السلطة المركزية أن أمراء الولايات القريبة استنجدوا بالمغول لدحريك كل محاولة قد تقوم بها دهلى لاستعادة سيطرتها على ولاياتهم(٧٢) .

على أن بلبن لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ سياسته الرامية الى اعادة الهدوء والسكينة الى الدولة بسبب تعرضه لمؤامرة تستهدف اقصاءه

---

(69) IBID

(70) Munshi : The Struggle for Empire. p. 190.

(71) Ma Jumdar : Aa Advanced Hist of India. p. 279.

(72) Munshi : The Struggle for Empire. p. 191.

عن الحكم ، ذلك أن الهنادكة عولوا على اقصاء العناصر التركية عن ادارة أمور الدولة ، والحلول محلهم ، وقاد هذه الحـــركة عماد الدين ريحـــان الذى ولى منصب وكيل الدار ، وافلح فى اقصاء بلبن ورجاله الترك عن الحكم(٧٣) . وبذلك حل النفوذ الهندوكى محل النفوذ التركى فى سلطنة المماليك بدلهى .

على أن الهنادكة لم يستمتعوا طـــويلا بادارة شئون حكومة دلهى ذلك أن الأمراء الترك ساءهم اغتصاب الهنادكة بقيادة ريحان السلطة فى دهلى ، وعقدوا العزم على اعادة بلبن ، وانضم اليه الكثيرون من حكام الولايات الترك ، وطلبوا من السلطان اعادة بلبن(٧٤) ، وعزل ريحان ، ولمـــا لم يستجب السلطان لرغبتهم تعاضدوا وتحالفوا على تنفيذ رغبتهم بالقوة ، فخرج الســـلطان من عاصمته دهلى لسحق تمرد الثـــوار لكن الثائرين هزموا جيش السلطان ودخلوا دلهى ، واعادوا بلبن الى الوزارة، وعزل ريحان سنة ١٢٥٤م ، وأحسن اهالى العاصمة الهندية استقباله بعد غياب دام عامين(٧٥) .

واجـــه بلبن مشاكل متعددة لاقـــرار الأمور فى الدولة ، فالبـــلاد مضطربة ، والثورات متعددة فى الامبراطورية ، وخصوصا قبائل المواتى Mewatis وأصبحت البلاد تعيش فى فوضى شاملة ، لذلك كان على بلبن استعادة هيبة ونفوذ حكومة دلهى والقضاء على الفتن فى الولايات التابعة لها ، وقد فوض اليه السلطان كل هذه الشؤون بينما انصرف الى مجالسة العلماء والدراويش(٧٦) .

اثبت بلبن كفاءة ومقدرة فى ادارة شؤون الدولة ، واعادة الهـــدوء اليها ، فقضى على الفتن الداخلية ، واخضع الكهكرية ، وغيرها من القبائل الثائـــرة المثيرة للشـــغب والفوضى ، وزحـــف الى الدوآب Doab

---

(73) IBID. p. 192.

(74) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. 280..

(75) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 139.

(76) Munshi : The Struggle for Empire. pp. 192-193.

وأخضع الأمراء الهنادكة الثائرين بها ، كما اعاد أودة والسند الى الولاء والطاعة لحكومة دلهى(٧٧) .

على أن أبرز مواقف هذا الرجل البطولية تجلت فى مقاومته لغـزو المغول للهند سنة ١٢٤٥م ، فقد هاجموا السند ، وضيقوا الحصار على حصن أوكا فتصدى لهم بلبن واشتبك معهم فى قتال مرير أوقع بهم هزيمة كبيرة وردهم على أعقابهم خاسرين وأمنت بلاد الهند الغربية من خطـر المغـول ، وعادت سيطرة دهلى على هذه المنطقة(٧٨) .

تـوفى ناصر الدين محمـود بعد حكم دام عشرين عاما ، وكان عادلا كريما زاهدا متدينا ، يرعى العلوم والآداب ، وقد عهد الى أبى عمر عثمان منهاج السراج بشغل وظيفة كبيرة فى بلاطه ، ووضع هذا العالم مؤلفـا كبيرا أهـداه للسلطان ، أسماه « طبقات ناصرى » وكافأه السـلطان مكافأة كبيرة على هذا الجهد الكبير ، ومما يجـدر ذكره أن ناصر الدين عاش عيشة الزهد ، وكان يقتات من عمل يده ، اذ كان ينسخ المصاحف ويبيعها ، ويغطى بما يرد اليه من هذا العمل نفقاته الخاصة ، كذلك لم يتخذ خدما فى بيته ،انما كانت زوجته تباشر الشؤون المنزلية بما فى ذلك اعداد الطعام(٧٩) .

ذكرنا أن غياث الدين بلبن ارتفع الى أعلى المناصب فى أمبراطورية المماليك فى عهد ناصر الدين محمـود ، ولعب دورا هاما فى تاريخ سلطنة دلهى المملوكية حتى أن المؤرخين يذكرون أن تاريخ ناصر الدين محمود هو فى حقيقته حلقة من تاريخ بلبن ، ولم يكن لدى السلطان ناصر الدين محمود أبنـاء ذكور ، وتزوج بلبن من ابنة ناصر الدين محمود ، الأمر الذى يسر له أمور تولية السلطنة بعد وفاة صهره سنة ١٢٦٦م وكان قد جـاوز الستين من العمر(٨٠) .

ينتمى بلبن الى قبيلة تركية ، كان ابوه من شيوخها ، ووقـع بلبن فى أسر المغول ، واشتراه الخواجة جمال الدين فى البصرة ، وبيع فى دهلى

(77) K. Ali : A Aew Hist. of Indo-Pakistan. p. 59.
(78) Munshi : The Struggle for Empire. p. 193.
(79) Munshi : The Struggle for Empire. p. 193.
(80) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 59.

الى ألتمش(٨١) ، وظهرت شجاعته ومقدرته فى سلك ألجندية ، فأدخلــه ألتمش فى جماعة حرسه ، ولمـا وليت رضية السلطنة ، أسـندت اليه منصب أمير الصيد(٨٢) ، وأدرك بهرام شاه شجاعته واقدامه ، فـولاه بعض الـولايات ، فأحسن ادارتها وأعاد اليها الهـدوء والاستقرار ، وراجت فيها الزراعة ، وتحسنت الأحوال الاقتصـادية ، ثم ولاه ناصر الدين محمود منصب الوزارة ونيابة السلطنة(٨٣) ـ كما رأينا ـ .

واجه بلبن بعد توليته السلطنة نفس المشاكل التى واجهها فى عهد ناصر الدين محمود ، فالبلاد مضطربة ، والمغول عادوا الى تهديد الحدود، وكان على بلبن أن يؤمن دولته من الأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية ، فبدأ بتقوية السلطة المركزية ، وأعاد الهيبة الى بلاطه وحكومته ، وذلك بأن جعل بلاطه قويا فخما كما كان أيام ملـوك الفرس القـدامى ، وكان مجلسه يتسم بطابع الجـد ، وأعاد تنظيم جيشـه وتدريبه على أحسن نظام(٨٤) ، وأضعف من شأن القادة المماليك ـ موالى ألتمش ـ وكانوا لا ينقطعون عن تدبير المؤامرات والدسائس التى تستهدف تقوية نفوذهم فى الدولة على حساب السلطان(٨٥) .

كذلك حرص بلبن على تنظيم ادارة الدولة ، واعادة الأمن والنظـام الى ربوعها(٨٦) ، ولتحقيق ذلك أعد جهازا قويا للجاسوسية ، يحيطـه علما بكل أخبار الادارات والمصالح الحكومية ، ويكتبون له تقـارير عن سير حكام الولايات وسائر الموظفين ، وهـؤلاء الجواسيس يراقبون كل مصالح الدولة بما فى ذلك الجيش وبلاط السلطان ، وحتى أبناؤه ، وكان هناك جواسيس لمراقبـة سير الجواسيس فى عملهم ، وكان الجاسوس يتعرض لأشد أنواع العقاب اذا تهاون فى عمله أو فى تأدية الواجب المكلف به ، ولم يلتزم بالدقة فى جمع الأخبار ، أو لا يصدق فى تبليغها ، وبلـغ

---

(81) Morel : A Short Hist. of India. p. 160.
(82) Ma Jumdar : An Advanced Hist of India. p. 281.
(83) Morel : A Short Hist. of India. p. 161.
(84) Morel : A Short Hist. of India. p. 161.
(85) Munshi : The Struggle for Empire. p. 194.
(86) Lane Poole : Medieval India. p. 81.

من حرصه على اقرار العدالة ، ومنع الظلم أن أحدا كان لا يجرؤ على ايذاء خدمه ومماليكه(٨٧) .

بعد أن أعاد بلبن تنظيم ادارة الدولة ، وأعاد الى حكومة دهلى هيبتها ، اتجه الى القضاء على الفتن الداخلية فى الدولة ، فضرب بيد من حديد على أهل مواتى ، وكان قد أخضعهم أثناء وزارته ، فلما ولى السلطنة ، قطعوا الطرق ، وسرقوا المسافرين وألحقوا بهم الضر والأذى خصوصا فى بهار(٨٨) ، ونهبوا القرى وقتلوا الأبرياء واقترب خطرهم وشرهم من العاصمة دلهى ، فخرج بلبن من دلهى ، وسار على رأس جيشه لاخضاعهم وهاجمهم هجوما عنيفا ، وما زال يتعقبهم حتى شتت شملهم(٨٩) ، وأمر بتطهير البلاد من الغابات والأدغال التى كانوا يحتمون بها ، وما زال يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم ، وقتل قائدهم ، ورأى ضرورة المحافظة على الأمن والسلام فى الدولة ، فأقام الحصون فى مختلف البلاد ، يقيم فيها شرطة لحماية الناس من عدوان اللصوص وقطاع الطرق(٩٠) ، وحول المناطق التى استأصل منها الغابات الى أراض زراعية ، يقيم فيها جند لحراستها من عبث العابثين(٩١) ، وبذلك استتب الأمن والنظام فى الدولة .

كذلك تعرضت سلطنة المماليك فى الهند لخطر آخر من جانب الهندوس فى الدوآب ذلك أنهم قطعوا الطريق بين دلهى والبنغال فقاومهم حتى ضعفوا ووهنوا ، وقبض عليهم وأسرهم(٩٢) .

وواجه بلبن مشكلة أخرى من جانب المماليك الذين اعترضوا على توليته الحكم وسعوا الى الخلاص منه ، وكان سلطانهم قد قوى فى عهد التمش وخلفائه الذين منحوهم الاقطاعات الكبيرة ، فطردهم بلبن من الخدمة العسكرية ، وأمعن فى عقابهم ، وقتل كثيرا منهم ، وتخلص من

---

(87) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 59.
(88) A Short Hist. Of Hind-Pakistan. p. 140.
(89) K. Ali : A New Hist of Indo-Pakistan. p. 61.
(90) IBID. p. 62.
(91) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 61.
(92) IBID. p. 62.

هذه الفئة كلية(٩٣) ، وبهذه الجهود أصبح بلبن سلطانا قويا مهابا يرعى جانبه رجال الدولة ، ويخشون بأسه .

لم يكد بلبن ينتهى من مشاكله الداخلية ، حتى واجه خطرا خارجيا جسيما ، ذلك أن المغول عادوا من جديد الى تهديد الهند ، بعد أن زحفوا الى بلاد العراق بقيادة هولاكو خان ، واستولوا على بغداد — حاضرة بنى العباس — وقتلوا الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٤م(٩٤) ، واعتزم المغول غزو الهند بعد أن سمعوا عن ثروتها ، فأعد بلبن العدة لصد الأعداء من بلاده ، وبقى فى دهلى لا يغادرها ، وترك لقواده أمر تعقب الخارجين على سلطانه ، حتى لا تتعرض العاصمة لخطر المغول ، ولا تقاسى ما قاسته بغداد من ويلات (٩٥) ، وأعد بناء القلاع التى دمرت على الحدود بسبب غزوات المغول السابقة ، وأقام تحصينات جديدة مزودة بالجند والسلاح ، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات ، وأسند القيادات العسكرية الى رجال أكفاء وعين ابنه الكفء الشجاع محمد حاكما على الملتان ، ووضع ابنه الآخر بفراخان على حراسة سمنه وسنام(٩٦) .

وكان لخطته الدفاعية أثرها الكبير فى درء خطر المغول عن ديار الهند ، فحين هاجموها سنة ١٢٧٩ ، تعقبهم محمد وهزمهم ، ودفع خطرهم عن بلاد الهند(٩٧) ، وبذلك سلمت سلطنة المماليك فى الهند من خطر المغول وويلاتهم .

على أن انشغال الحكومة الهندية فى الذود عن البلاد أدى الى بروز مشكلة أخرى داخلية ، ذلك أن البنغال بقيادة واليها طغرل عادت الى محاولة الاستقلال عن دلهى ، ولقب واليها طغرل نفسه مغيث الدين ، وأمر باقامة الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة بدلا من بلبن ، فأرسل السلطان جيشا بقيادة أمير خان لاخضاع طغرل ، واعادة البنغال

---

(93) Lane Poole : Medieval India. p. 84.

(94) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 281.

(95) Lane Poole : Medieval India. p. 85.

(96) Munshi : The Struggle for Empire, p. 194.

(97) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 63.

الى الخضوع للحكومة المركزية ، لكن طغرل هزم القائد الهندوكى ، وغضب بلبن من قائده ، وحمله مسئولية الهزيمة التى لحقت به ، وحكم عليه بالاعدام(٩٨) ، وأرسل جيشا آخر الى البنغال لسحق تمرد طغرل ، لكن هذا الجيش لقى مصير سابقه ، عندئذ لم ير السلطان بلبن بدا من المسير بنفسه الى البنغال لاعادتها الى حوزته ، وصحبه ابنه بفراخان(٩٩) ، وحينما اقترب السلطان من البنغال أخذ طغرل الجزع والفزع ، وفر هو ورجاله الى الغابات المجاورة شرق البنغال فى جاجنكز ، وأرسل السلطان فرقة من الجيش لتعقب المتمردين ، وعثروا عليهم فعلا ، وشاهدوهم يشربون ويلهون والفيلة تتجول بين الأشجار ، والخيول والمواشى تتغذى على النباتات ، فباغتوهم على حين غفلة منهم ، وما زالوا بهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، وقتلوا زعيمهم طغرل(١٠٠) .

بعد ذلك اتجه السلطان الى لكهاونتى ، وكانت تؤيد طغرل فى ثورته ضد دهلى ، فاختفى أغلب أعيانها ، خوفا من بطش السلطان ، لكن بلبن لم يبرح البلدة الا بعد أن نكل بالثائرين(١٠١) ، وبذلك عادت البنغال الى الولاء والطاعة للسلطان بلبن ، ولكى يضمن السلطان بقاء البنغال على الولاء لدهلى ، عهد الى ابنه بفراخان بحكم البنغال ، وحكم بفراخان وأعقابه البنغال أكثر من نصف قرن(١٠٢) .

وجدير بالذكر أن البنغال سببت متاعب كثيرة لحكومة دهلى ، فقد حاولت الاستقلال منذ أن حكمها الخلجيون منتهزين فرصة صعوبة المواصلات بين دلهى وبلادهم ، فضلا عن بعد المسافة ، وانتشار الأوبئة فيها(١٠٣) ، وبذل ألتمش جهودا كبيرة فى اخضاع البنغال وحذا طغرل ــ كما رأينا ــ حذو الخلجيين فى محاولة الاستقلال عن دلهى منتهزا فرصة انشغال السلطان بلبن فى مشاكل الدولة الداخلية والخارجية(١٠٤) .

---

(98) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 282.
(99) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 62.
(100) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 283.
(101) Lane Poole : Medieval India. pp. 87-88.
(102) Morel : A Short Hist. of India. p. 161.
(١٠٣) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية جا ص١٤٨ .
(104) Munshi : The Struggle for Empire. 154.

على أن بلبن واجه كارثة أخرى مروعة ، فقد توفى ابنه محمد وهو يقاتل المغـــول(١٠٥) ، ولم يحتمل صدمة موت ابنه ، وتوفى بعدها فى سنة ١٢٨٧ بعد حكم دام أربعين سنة(١٠٦) .

يعتبر بلبن من أعظم حكام الهند فى تاريخهـــا الوسيط ، فقد تغلب على الصعوبات الكبيرة التى واجهته ، اذ وقف فى وجه الأمراء الهنادكـــة الذين حاولوا النيل من سلطانه ، وقهر العصاة والمفســـدين ، وتمكن من درء خطر المغول عن البلاد(١٠٧) ، وأقر الأمن والنظام فى ربوع الدولة ، واشتد فى معاقبة الخارجين على القانون والعدالة واتخذ لنفسه ـــ كمـــا ذكرنا ـــ بلاطا مهيبا له مراسم معينة ، ورجال يرتدون أزياء معينـــة ، ومظاهر خاصة ، واتخذ رجالا أكفاء فى ادارة شؤون الدولة على أنه لم يستطع توسيع رقعة دولته لانشغاله طوال حكمه بمشاكل الدولة الداخلية والخارجيـــة ، ولم يأل جهـــدا فى سبيل حماية الدين والمحافظـــة على الشريعة(١٠٨) ، واقرار العـــدالة وبنى دارا أسماها دار الأمن لرفـــع المظالم عن رعاياه ، وتخفيف أعباء الحياة عليهم ، وساوى بين رعاياه المسلمين والهنادكة أمام القانون ، واذا كان قد أبعد الهنادكة فترة ما عن مناصب الدولة الرئيسية ، فانه فعـــل ذلك بعـــد أن لمس منهم نزعاتهم الاستقلالية فى وقت تواجه الدولة فيه خطرا خارجيا .

ولم يأل بلبن جهدا فى سبيل رعاية الفنون والآداب ، وحرص على رفع شأن مجتمعه(١٠٩) ، فشجع الناس على التحلى بتعاليم الاســـلام وقد كان لعمله هذا أثر كبير على المجتمع الهندى حتى أن المؤرخين يعزون اليه ما يتمتع به الآن المجتمع الهندى من تقاليد رفيعة(١١٠) .

ومما يجدر ذكره أن هذا السلطان أكرم وفادة الشخصيات الاسلامية الكبيرة التى لجأت الى الهند فرارا من بطش وجور المغول ، وكان من بين

---

(105) A Short Hist. of Hind-Pakistan, p. 141.
(106) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 65.
(107) Lane Poole : Medieval India p. 87.
(108) Munshi : The Struggle for Empire. p. 157-158.
(109) Prasad : Medieval India pp. 171-172.
(110) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 284.

هؤلاء فريق من بنى العباس ومن أمراء خوارزم وغيرهم . وقد أنزل كل فريـق منهم فى حى خاص ، سمى باسـمه، مثـل محلة عباس ، محلة خوارزمى ، محة ديلمى ، محلة سنجرى ... الخ .

لما شعر بلبن بدنو أجله عهد الى ابنه بغراخان بتولى الحكم من بعده ، لكن بغراخان رفض ، وآثر البقاء فى البنغال ، لذلك عهد السلطان الى كيخسرو بن بغراخان بولاية عهده ، وتولى كيخسرو السلطنة فى دلهى سنة ١٢٨٧(١١١) ، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم ، فأسند أمور الدولة الى نظام الدين وكان رجلا طموحا استبد بأمور الدولة دون السلطان ، وزين نظام الدين للسلطان الاستمتاع بمباهج الحياة واللهـو والعبث ، وأسند المناصب الرئيسـية فى الدولة الى رجـاله المقـربين اليه(١١٢) .

على أن بغراخان — حاكم البنغال — ساءه ما علم من استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون ابنـه السلطان ، وعقد معه لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله واستعادة نفـوذه فى الدولة ، لكن الترك لم يمكنوه من ذلك . بل عزلوه وولـوا بدلا منه كيقباد — أحـد أطفاله الصغار — على أن الخلجيين لم يمكنوا الترك من استبداد بأمور الدولة ، فدخلوا دهلى ، وأزالوا عنها حكم المماليك .

---

(111) Munshi : The Struggle for Empire p. 158.

(112) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 144.

٣ ـ الدولة الخلجية

قيام الدولة الخلجية فى دهلى :

يرى البعض أن الخلجيين من أصل تركى ، على حين يرى آخرون أنهم من أصل أفغانى . ويؤكد بارانى أنهم ينسبون الى قلبج خان ـ أحد أصهار جنكيز خان ـ نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم ، وحرف اسمه بعد ذلك الى خلج ، وقيل لورثته الخلجيون(١) ، وقد اندمجوا فى الحياة الأفغانية ، واعتنقوا الاسلام فى عهد سلاطين بنى سبكتكين ، وضم الجيش الغزنوى فرقا منهم ساهمت فى فتح الهند(٢) .

على أن نشاط الخلجيين اتضح فى عهد سلاطين الغور ، فحينما ولى قطب الدين أيبك التركمانى اقليم الهند نيابة عن سلطان الغور ، حرص على توسيع رقعة ولايته الجديدة فى بلاد الهند ، فأسند هذه المهمة الى قائده محمد بن بختيار الخلجى ، فاستولى على بندنتبورى ـ عاصمة اقليم بهار ـ وكان يحكمها ملوك أسرة بالا ، ولم يلبث أن استولى على مملكة بالا بأسرها ، وكانت الديانة البوذية سائدة بين سكان هذه المملكة ، فحطم القائد الخلجى معابدهم وأصنامهم ، ونشر الاسلام بينهم ، وانضمت هذه البلاد الى امبراطورية الغور(٣) .

واذن قطب الدين أيبك ـ نائب سلطان الغور فى الهند ـ الى القائد الخلجى بمواصلة الفتح والتوسع ، فاتجه محمد بن بختيار الخلجى الى نادية ـ عاصمة البنغال ـ وعلى الرغم من قلة عدد جنده ، فانه اقتحم نادية ، وكان يحكمها لكشمن سنا من أسرة سنا ٥٩٥هـ/١١٩٦م ، وفزع الملك الشيخ وجزع ، ورأى أن لا قبل له بالغزاة المسلمين ، فلاذ بالفرار من عاصمة ملكه ، لا يلوى على شىء وقد يسر ذلك للقائد الخلجى أمر الاستيلاء على نادية ـ عاصمة البنغال ـ فضمها الى مملكة الغور ، وأقام

---

(١) محمد قاسم هندوشاه : تاريخ فرشته ص٨٨ـ٨٩ .
(2) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties p. 91.
(3) Lane Poole : Medieval India. p. 54.

الخطبة فيها للسلطان الغورى ، وقد مهد سقوط نادية فى أيدى الغور السبيل لهم لضم اقليم البنغال بأسره لدولتهم(٤) .

لم يكتف محمد بن بختيار الخلجى بما أحرزه من انتصارات رائعة ، بل تطلع الى المسير الى التبت للاستيلاء على هذه البلاد ، ففى سنة ٦١٣هـ/١٢٠٦م اتجه فى عشرة آلاف فارس الى التبت ، لكن حملته باءت بالفشل الذريع ، وتعرض جنده لأهوال جسام أثناء انسحابهم ، ولقى الكثير منهم حتفه فى عودتهم الى ديفكوت ، ولم يلبث هو كذلك أن توفى(٥) .

حرص خلفاء محمد بن بختيار الخلجى على بسط نفوذهم على بعض أقاليم الهند ، فلما قامت دولة المماليك فى الهند ، وولى شمس الدين ألتمش السلطنة فى دهلى ، تعرض لمشاكل داخلية تهدف الى اطاحته من الحكم ، وأثار هذه المشاكل رجال الدولة الذين انتهزوا فرصة الفوضى التى أعقبت وفاة قطب الدين أيبك ، وقد مهدت هذه المشاكل للخلجيين أمر السيطرة على بهار والبنغال(٦) .

على أن الملوك المماليك لم يقفوا مكتوفى الأيدى ازاء نزعات الخلجيين الاستقلالية ، فلما غادر جلال الدين منكبرتى بلاد الهند ، وزال خطر الخوارزميين عنها ، وبالتالى خطر المغول ، تفرغ السلطان ألتمش لقمع الحركات الاستقلالية فى دولته ، ومن أبرزها ومنها استقلال غياث الدين الخلجى فى البنغال عن دهلى حيث أقام الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة ، وتلقب بألقاب الملوك ، وقوى أمره ، واشتد بأسه وامتد نفوذه على البلاد الواقعة شرقى دهلى(٧) .

عول السلطان ألتمش على سحق محاولة الخلجى الاستقلالية ، وسار على رأس جيش كبير الى البنغال ولما رأى الأمير الخلجى عدم استطاعته التصدى لسلطان دهلى ، أعلن عودته الى الولاء والطاعة ، ونبذ التمرد والعصيان ، وتعهد بالعودة الى دفع الأموال المقررة عليه ،

(4) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 40.
(5) Munshi : The Struggle for Empire. p. 119.
(6) IBID. p. 120.
(7) Munshi, p. 134.

الا أنه لم يكن صادقا فى تعهده ، بل كان يزمع انتهاز فرصة أخرى تتيح له العودة الى الاستقلال بولايته ، فلما ابتعد السلطان ألتمش عن البنغال أعلن الاستقلال ، وسار الى بهار ، واستولى عليها ، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا ، اذ سار اليه ناصر الدين محمد شاه — والى أودة — من قبل السلطان ألتمش — وهاجم البنغال . وأوقع الهزيمة بالخلجى أنصاره وبذلك عادت البنغال الى حوزة سلطان دهلى(٨) .

لكن الأمير الخلجى لم يستسلم لانتزاع البنغال منه ، بل عول على استرداد هذا الاقليم ، فلما توفى ناصر الدين محمد شاه ، والى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلى — عاد الى البنغال وحكمها(٩) .

ضعفت دولة المماليك بعد وفاة السلطان بلبن وقد عهد بالحكم لابنه بغراخان لكن بغراخان آثر البقاء فى البنغال ، وأسندت السلطنة الى كيخسرو ابن بغراخان سنة ١٢٧٨م ، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم . فأسند أمور الدولة الى نظام الدين ، وكان رجلا طموحا استبد بأمور الدولة دون السلطان ، وزين للسلطان أمر الاستمتاع بما فى الحياة الدنيا من مباهج حتى يبعده عن الانشغال بأعباء الحكم ، وأسند المناصب الكبيرة فى الدولة الى رجاله المقربين(١٠) .

على أن بغراخان — حاكم البنغال — ساءه استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون السلطان ، وعقد معه لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله ، واستعادة نفوذه فى الدولة ، ومباشرة مسئولياته بنفسه ، ونفذ السلطان مطالب أبيه وتمكن من التخلص من نظام الدين ورجاله ، واسترد نفوذه فى الدولة(١١) .

لكن السلطان كيخسرو لم ينفرد بالسلطة طويلا ، فقد تآمر عليه الترك ، وعزلوه وولوا بدلا منه كيقباد — أحد أطفاله الصغار — السلطنة حتى يتيسر لهم الاستبداد بالدولة دونه(١٢) .

---

(8) A Short Hist. of Hind. Pakistan. p. 136.

(9) Munshi, 157.

(10) IBID. 158.

(11) Munshi, p. 158.

(12) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties. p. 91.

استاء الأمراء الخلجيون من استبداد الترك بأمور الدولة ، وعولوا على تغيير نظام الحكم فى دهلى ، فساروا اليها بقضهم وقضيضهم بقيادة زعيمهم فيروز وهزموا القواد الأتراك ، وأحدثوا انقلابا فى دهلى أطاحوا فيه بالسلطان الطفل ، وأعلنوا فيروز سلطانا ، ولقب جلال الدين ، وكان ذلك سنة ١٢٩٠م(١٣) .

ولم يتقبل أهالى دهلى حكم الخلجيين فى بادىء الأمر بالرضا والتأييد ، لكثرة ما ألحقه جندهم ببلدهم من الخراب والدمار ، وارتكابهم حماقات ذهب ضحيتها الكثيرون ، على أن السلطان الخلجى الذى كان فى السبعين من عمره — تمكن بحسن سياسته وعدله ومودته أن يجتذب الناس الى محبته . وبذلك خضع أهل دهلى للملك الجديد والعهد الجديد ، ووفد الناس على السلطان الشيخ زرافات ووحدانا يبايعونه ويقدمون له فروض الولاء والطاعة(١٤) .

سياسة السلاطين الخلجيين فى توطيد سلطانهم

لم يأل السلاطين الخلجيون جهدا فى سبيل سحق حركات التمرد والعصيان ، ومنع اندلاع الثورات ضدهم والحيلولة دون حدوث الحركات الاستقلالية والانفصالية فى الدولة ، وأول هذه الحركات الثورية حدث سنة ١٢٩٠ حينما أعلن جيجو — حاكم اقليم كره — الثورة ضد الحكم الخلجى وهو ابن أخى بلبن وكان يطمع فى استعادة عرش دهلى ، وقوى أمره واشتد بأسه وكثر أنصاره ، وانضم اليه الكثير من الأمراء والراجات وتعاهدوا وتعاضدوا على الوقوف الى جانبه ضد نظام حكم جلال الدين فيروز شاه ، وأعلن جيجو الاستقلال عن دهلى ، بل أعلن نفسه سلطانا ، وتلقب بلقب مغيث الدين ، وضرب العملة باسمه وأمر بذكر اسمه فى الخطبة ، وأعد جيشا كبيرا للزحف الى دهلى وامتلاكها ، واسقاط الحكم الخلجى(١٥) .

لم يقف السلطان جلال الدين مكتوف اليدين ازاء هذه الحركة الخطيرة التى تهدف الى انتزاع الحكم منه ، بل عول على احباطها ،

---

(13) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 15.

(14) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 189.

(١٥) تاريخ فرشته ، ص٩٠ .

فاستخلف فى دهلى ابنه الاكبر ولقبه خان الخانات ركن الدين ، وسار هو على رأس جيش كبير ، يتكون من عشرة آلاف مقاتل وقسمه الى قسمين ، قسم قاده أركالى خان ، والثانى تحت قيادته هو(١٦) ، وباغت أركالى الأعداء على حين غفلة منهم ، وهزمهم شر هزيمة . غير أن المتمردين لم يهنوا ولم يضعفوا بل أعادوا تنظيم صفوفهم ، ودخلوا مع أركالى وجنده فى معركة أخرى ، ولما علم جيجو باقتراب السلطان ، أسقط فى يده ، وترك ميدان القتال ، ولاذ بالفرار لا يلوى على شىء . غير أن أركالى خان اقتفى أثره ، ولجأ جيجو الى قلعة قريبة من ولايته ، واعتصم فيها ، فحاصره أركالى ، وشدد عليه الحصار(١٧) ، ومنع وصول الأقوات الى القلعة ، حتى استسلم جيجو ، ووقع هو وأنصاره أسرى فى أيدى جيش دهلى ، أما السلطان فقد سار الى كره ، وطهر فى طريقه البلاد من المتمردين وعناصر الشغب ، واستعاد كره ، وسيق الأسرى المتمردون اليه مكبلين بالسلاسل والأغلال. على أن السلطان الرحيم أمر بفك قيدهم ، وأن تكفل لهم وسائل الراحة ، وبدلا من أن يحاكمهم بتهمة الخيانة والغدر ، عفا عنهم ، وتغاضى عن خطاياهم وآثامهم ، وشملهم بعنايته ورعايته وعطفه ، وحذره قواده من هذا التسامح الذى قد لا يؤدى الى وقف حركات التمرد والعصيان ، بل ربما يزيد الثورات اشتعالا فى دولته(١٨) ، ولكن السلطان الشيخ استند فى عفوه وصفحه الى روح الاسلام التى تدعو الى تجنب اراقة دم المسلم ، وكان يرى انه فى شيخوخته يجب أن يختتم حياته بالأعمال الطيبة الصالحة . ومهما يكن من أمر فقد أفرج السلطان عن عناصر التمرد والفتنة ، وأرسل جيجو الى الملتان فى ظل حراسة مشددة(١٩) .

ظهرت حركات معارضة أخرى للحكم الخلجى من بينها حركة دبرها أمراء ونبلاء ألتمش ، وتزعمها تاج الدين كوشى ، وعقدوا عدة اجتماعات وندوات تحدثوا فيها عن مساوىء الحكم الخلجى وعدم جدارته بتولى زمام الأمور فى الدولة ، وعدم صلاحية جلال الدين بالذات لعرش سلطنة دهلى ، واتفقوا على العمل على ازاحة الخلجيين عن حكم البلاد ،

---

(١٦) ضيا بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص١٨٤ .

(١٧) المصدر السابق ، ص١٨٥ .

(18) Lal : op. cit. p. 20.

(١٩) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص١٨٩ .

ونقـــل زمام الحكم من جلال الدين الى تاج الدين كوشى ، ودبروا مؤامرة لاغتيال السلطان الخلجى . غير أن تفاصيل هـــذه المؤامرة نمى الى علم السلطان ، فأرسل اليهم يهددهم ويتوعدهم بسيفه ان لم يعودوا الى الولاء والطاعة ، ويقلعـــوا عن التآمر والتمرد ، فخشـــوا مغبـــة عصيانهم ، وأرســـلوا اليه وفدا يعتـــذر عما بدر منهم ، ويطلب من الســـلطان العفو والصفح ويعلن عودتهم الى الولاء والطاعة ، فعفا السلطان الطيب عنهم . وبذلك أحبط جلال الدين هذه المؤامرة بالطرق السلمية(٢٠) .

وتعرض جلال الدين لمؤامرة أخرى كادت تقضى عليه ، ورأس هذه المؤامرة سيدى مولى ، وهو درويش من بلاد فارس ، لجأ الى الهند عقب الغزو المغولى لها ، وأقام فى دهلى ابان حكم بلبن ، وعاش فيها حيـــاة زهد وتقشف وخشونة ، يتبسط فى طعامه ويلبس الخشن من الثيـــاب ، ومن الغريب أنه يتعفف عن أموال الناس ، فلا يقبل ما يعرض عليه من منح وهبات ، ورغم ذلك كان ينفق عن سعة ، وبنى خانقـــاة عظيمة ، ووفد عليه الناس من كل مكان بعد ان بلغ صيته الآفاق ، وكان يستضيفهم ويكرم وفادتهم ، ويدفع هذه النفقـــات الكبيرة من ماله الخاص ، ودهش الناس وأخذتهم الحيرة لعدم معرفتهم مصدر هذه الأموال ، حتى اعتقد بعضهم أن له صلة بالجن أو معرفة بالسحر(٢١) .

كثر أتباع هذا الرجل من الصوفية والفقـــراء والمساكين والنبـــلاء أيضا ، ونظر جلال الدين اليه نظرة شك وريبة فحضر مجلســـه متنكرا ، وشاهد بنفسه التفاف الناس حوله ، واتضح له أن ســـيدى مولى ليس درويشا ولا متصوفا ، وانما يتخذ من هذا المظهر وسيلة لتحقيق أغراض سياسية ، فقـــد كان يكثر من الاتصال بالأمراء والنبـــلاء وقـــواد بلبن المعارضين لحكم جلال الدين ، وبلغ من ازدياد نفوذه أن خان الخانات ركن الدين بن جـــلال الدين أصبح من مريديه ، وتدخـــل الشيخ الدرويش فى النزاع الذى حدث بين ابنى جلال الدين حول ولاية العهد ، وحاول كل منهما تقوية مركزه بضم الأنصار والأعـــوان له ، ومن ثم ظهر حزبان فى دهلى الأول لخان الخانات ويضم الشيخ الدرويش ، والآخر التف حول أركالى

(20) Lal : op. cit: p. 22.

(21) Munshi op. cit. p. 161.

خان ، ويضم المناهضين للدرويش وحرص خان الخانات على أن يخاطب الدرويش بالابوة حتى يكتسب الى جانبه أنصار الدرويش(٢٢) .

حرصت الحركات المعارضة للحكم الخلجى على نيل رضا الشيخ الدرويش حتى ان ابناء أمراء العهد البائد تطلعوا الى الشيخ للوقوف الى جانبهم فى استعادة نفوذهم ، وخلع السلطان الخلجى(٢٣) .

ومهما يكن من أمر فقد دبر هؤلاء المعارضون للحكم الخلجى مؤامرة لاغتيال السلطان جلال الدين وهو ذاهب لصلاة الجمعة فى مسجد دهلى الكبير ، بعدها يعلنون سيدى مولى خليفة ، ويتزوج من ابنة السلطان ناصر الذين غازى كيانى ، ويحصل على لقب غازى خان ثم يعين أبناء بلبن فى الوظائف الرئيسية فى الدولة ، على أن هذه المؤامرة فشلت فشلا ذريعا ، فقد علم السلطان بأنبائها ومخططها ، وأمر بالقبض على جميع المتآمرين ، وأجبروا بالعنف والشدة على الاعتراف بتفاصيل المؤامرة ، وأمر السلطان باعدام المتآمرين على حياته — وعلى رأسهم سيدى مولى . وامر بنفى وسجن المتآمرين الآخرين ، ولقد كان لمقتل سيدى مولى صدى كبيرا فى دهلى ، فقد غضب أنصاره ومريدوه لمقتله ، ونادوا بالانتقام لمولاهم الذى قتل ظلما ومات شهيدا حسب اعتقادهم ، غير أن ثورتهم أخمدت . وبذلك نجا السلطان ودولته من محاولة قلب حكومته(٢٤) .

لم تنته متاعب السلطان الخلجى عند هذا الحد ، بل واجه حركة استقلالية عن دولته تزعمتها مدنة رانشمبهور ، وجدير بالذكر أن هذه المدينة كانت قوية التحصين حتى أن الغوريين لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، واستطاع التمش السيطرة عليها سنة ١٢٢٦ ، واستعادها الراجبوتيون فى عهد السلطانة رضية المضطرب ، ولما ولى بلبن السلطنة استردها ، ولكنها عادت الى الثورة من جديد فى عهد جلال الدين الخلجى(٢٥) ، ولم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة الانفصالية فأناب عنه فى دهلى ، ابنه أركالى خان وسار هو على رأس جيش كبير لاعادة

---

(٢٢) تاريخ فرشته : ص١٩٢ .

(٢٣) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص١٨٩ .

(24) Lal : Hist of The Khaljis. p. 26.

(٢٥) تاريخ فرشته ص٩٤ .

الأمن والهدوء الى هذه المدينة فى مارس سنة ١٢٩١م ، واجتازت قـواته صحراء الثار القاحلة الموحشة ، وقاسى الجند فيها ألوان العـذاب وأهلك العطش والجـوع الكثير منهم ، وظلوا على هذا الحال عدة شهور حتى أكلوا معظم دوابهم(٢٦) ، ومهما يكن من أمر فقد بلغ جلال الدين وجنوده مدينة رانثمبوور ، وأرسل فرقا استطلاعية لاختبار قوة المدينة وحشـد جيشه على حدودها ، ورأى السلطان أن يستولى على مدينة غين Jhain قبل رانثمبهور حتى لا يطعن جنده أثناء هجومها على رانثمبهور ، وباغت الجند الخلجى غين ، وألقوا الذعر بين سكانها ، وقتلوا الكثير من سكانها، ولم يستطع راجا هذه البلدة دفع الخلجيين عن دياره ، وفر من نجا من سكان البلدة لا يلوون على دار ولا يركنون الى قرار ، ودخل جلال الدين غين ، وضمها الى حوزته ، وأعجبه جمال البلدة وروعة ما فيها من تماثيل منقوشة من الحجر أو الخشب فى قصر الراجا ، وزار معابد البلدة ، وشاهد نقوشها البديعة وتحفها الذهبية والفضية الرائعة ، غير أن جـلال الدين أمر باحراق التماثيل والتحف لأنها ترمز الى عبادة الأصنام(٢٧) ، وأخـذ قطعتين من البرنز من تمثال لبرهاما وأمر بتفتيتهـا الى قطع صغيرة ، ووزع بعضها بين ضباطه وجنوده وكبار موظفى دولته ، وزين بالبعض الآخر بوابات مسجد دهلى الكبير(٢٨) .

وبعد أن استولى جلال الدين على غين ، أرسل فرقا من جيشه الى مالوا Malwa ، وهاجمتها وحطمت معابدهـا وعادت محملة بالغنـائم والأسلاب ، وقد مهدت هذه العمليات الحربية لشن الحرب على رانثمبهور، واعادتها الى حوزة دهلى ، وكان صاحبها قد أعد جيشـا كبيرا لصـد هجوم جلال الدين ، وانضم اليه عدد كبير من راجات البلاد المجـاورة ، وتعاضدوا جميعـا على صـد الجيش الخلجى ، وحصنت المدينـة خير تحصين ، ولمـا نمى الى علم السلطان قوة تحصين البلـدة ، واستعداد أهلها الكبير للذود عنها ، ودرء هجمـات العدو ، خشى ان اشتبك مع أهل رانثمبهور أن يقتل ويجرح الكثير من جنوده المسلمين ، وهو كرجـل مسلم يحرص على عدم اراقة دم المسلمين الذى يؤدى بالضرورة الى ترميل النساء ، ويتم الأطفال ، وهو أمر لا يحتمله ، ويخشى وقوعه ، لذا قرر

---

(٢٦) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢١٣ .
(٢٧) المصدر السابق ص٢١٣ .
(28) Ial : Hist. of the Khaljis. p. 30.

هذا الشيخ الطيب الرحيم رفع الحصار عن رانثمبهور وأمر بانسحاب جيشه وعودته الى دهلى ، غير مبال بالعواقب ولم يستجب لنصيحة قواده ومستشاريه بسوء عاقبة هذا العمل وما ينجم عنه من ضياع هيبته بين سكان هذه البلاد . وفعلا كان لانسحاب جلال الدين أثر كبير فى تشجيع الحركات الانفصالية ، فقد استردت غين استقلالها ، وخرجت رانثمبهور من هذه المحنة ظافرة منتصرة ، وتحقق أملها وحلمها فى الانفصال عن دهلى(٢٩) .

ومن أهم الأحداث الداخلية التى شهدتها سلطنة دهلى ، تآمر علاء الدين على عمه السلطان جلال الدين ، فقد كان هذا الأمير طموحا يتطلع الى العرش على الرغم من أن عمه السلطان قد أسند ولاية عهده الى ابنه ركن الدين ، وكان علاء الدين قد ولى من قبل عمه حكم اقليم كره سنة ١٢٥٤م وأسند اليه قيادة بعض الغزوات فى أرجاء الهند كان آخرها فى الدكن ، وأحرز من هذه الغزوة بعض الانتصارات ، وعاد الى كره محملا بالغنائم والأسلاب ، وحينئذ واتته الفرصة لتدبير مؤامرته ضد السلطان ، فأرسل اليه يخادعه ويدعوه الى زيارته ، ويزعم ولاءه ومحبته له ، ولم يجد السلطان الشيخ غضاضة فى الاستجابة لدعوة ابن أخيه على الرغم من تحذير رجاله له ، وسار الى كره ، وأفلح علاء الدين فى اقناع السلطان بنزع أسلحة جنده منعا لحدوث صدام بين جند كره وجند دهلى ، أما علاء الدين فقد أعد جيشه وزوده بالأسلحة والمعدات ، وزوده بالخيل والفيلة ، وركز جنده فى عدة مواضع(٣٠) ، ولما وفد السلطان على ابن أخيه ، وأدرك سوء نواياه ، أسقط فى يده ، وأدرك أنه لا محالة هالك ، وانصرف الى قراءة القرآن(٣١) . هنا أمر علاء الدين بقتل السلطان ، ولما نفذت المؤامرة أعلن علاء الدين نفسه سلطانا ، وركب جنده الفيلة ، ورفعوا رأس جلال الدين على حربة ، وتجولوا بها فى شوارع كره ، وأنعم علاء الدين على جنده وأنصاره بالمنح والهبات والألقاب(٣٢) .

---

(٢٩) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢١٢ .

(30) Ial : Hist of the Khaljis. p. 55

(٣١) تاريخ فرشته ، ص١٠٢ .

(32) Lal. : Hist. of the Khaljis. p. 56.

على أن قتل جلال الدين لم يكن معنـــاه تولية علاء الدين العرش بسهولة ويسر ، فقد اعترضته عقبات كثيرة ، ذلك أن دهلى العاصمـــة لا زالت فى أيدى أبناء جلال الدين ، كما أن أهل العاصمة استاءوا من مقتل السلطان ، وعقدوا العزم على منع قاتله علاء الدين من دخول بلدهم ، وعدم الاعتراف به سلطانا ، ولمـــا علمت المـــلكة جهان بمصرع زوجهـــا السلطان ، أعدت العدة ، وعقدت العزم على عدم ضياع العرش من ابنها قدر خان ، فأعلنته سلطانا بعد أبيه ، ولقبته ركن الدين ابراهيم(٣٣) .

على أن الملكة قد اساءت الى ابنها الأكبر أركالى خان ، فلم تعهـــد اليه بالحكم ، ذلك أن هـــذا الأمير لم يكن محبوبا من والديه ، لكن أركالى خان بقى فى الملتـــان ، ولم يحاول القـــدوم الى دهلى لانتزاع حقـــه فى العرش . وعلى الرغم من ذلك فقـــد انقسم أهل دهلى على أنفسهم بين مؤيد للابن الأكبر ، ومؤيد لقدرخان ، وقد مهد هذا الانقسام لعلاء الدين فى تنفيذ خطته الرامية الى دخول دهلى والتمكين لنفسه وخلع ركن الدين ابراهيم والتخلص من أمه ، وأعد عدته لتنفيذ خطته ، وعسكر جيشـــه على مشارف دهلى(٣٤) ، وقد استغل علاء الدين الانقسام الذى حـــدث بين أبناء جلال الدين وسكان دهلى عموما فى محاولة جذب الأنصار اليـــه من بين افراد الحزب الجلالى ، ونجح فى ذلك الى حـــد كبير ، وتجلى ذلك فى انفضاض الكثير من اتباع الحزب الجلالى عن الملكة جهان ، وانضمامهم الى علاء الدين ، الأمر الذى أدى الى ضعف الحزب الجلالى ، وتقوية شأن علاءالدين ، ولمـــا أيقنت الملكة أن موقفها من تولية ابنها الأصغر العرش بدلا من الابن الأكبر ادى الى انقسام أهل دهلى على أنفسهم بين مؤيـــد ومعارض ، تراجعت وأرسلت الى ابنها الأكبر أركالى خان فى الملتان تطلب منه القدوم الى دهلى لتسلم زمام الحكم بدلا من ابنها ركن الدين ابراهيم ، ولكن أركالى رفض العودة وآثر البقاء فى الملتان على الرغم من نداءات أمه اليه التى حذرته بأن عـــدم عودته ســـيؤدى الى ضياع العرش من بيت جلال الدين ، وتربع علاء الدين عليه(٣٥) .

وقد أدى موقف أركالى خان الى تقوية شأن علاء الدين ، وزيـــادة الضعف والانقسام فى جيش دهلى وبالـــغ علاء الدين فى بذل الأمـــوال

---

(33) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 289.

(34) Short Hst of Hind-Pakistan. p. 162.

(٣٥) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٢٩ .

والهدايا لأنصاره حتى انضم اليه الكثير من جند ركن الدين ، فأسقط فى يده ، واعتزل العرش ، ومهد لعلاء الدين أمر تولية العرش فى دهلى(٣٦).

دخل علاء الدين دهلى سنة ١٢٩٦م ، وأعلن نفسه سلطانا ، وقبض على ركن الدين ابراهيم ، وسمل عينيه ، كما زج أمه فى السجن ، واستصفى أموال أنصار الحزب الجلالى ، ولقب أبو المظفر السلطان علاء الدنيا والدين محمد شاه خلجى ، وضرب العملة باسمه ، وأقيمت الخطبة باسمه ، وفرض الهدايا على الناس ، وأقيمت الزينات والسرادقات فى كل مكان ، وأقبل الناس عليه من كل صوب وحدب مؤيدين ومبايعين(٣٧) وبذلك تربع علاء الدين على عرش سلطنة دهلى بعد أن تخلص من عمه وابن عمه ، وقوى من شأنه وجذب الأنصار والأتباع له(٣٨) .

لما ولى علاء الدين السلطنة ، واجه مشاكل داخلية وخارجية معقدة ، فبلاده هدف لغزوات المغول من الشمال الغربى سنويا ، وهذا الغزو يقترن عادة بالخراب والدمار ، واقتطاع أراض من مملكته ؛ كذلك انتقم أركالى خان — ابن السلطان جلال الدين — من علاء الدين ، فاستقل باقليم الملتان ، وضم الى حوزته السند والبنجاب ، وبذلك اقتطع من سلطنة دهلى بلادا واسعة ، وفى السند مملكة الكجرات الغنية ويحكمها الأمير الراجبوتينى وبالقرب من الكجرات تقع ممالك الأمراء الراجبوتيين فى Baghela صحراء الثار ، وكل امارة مستقلة عن الأخرى ، وتحرص على الانفصال عن دهلى ، ولم يستطع سلاطين دهلى من قبل اخضاعهم ؛ ومن ناحية أخرى توجد ممالك مثل شيتور Chittor ورانثمبهور تقف من دهلى موقفا عدائيا ، يضاف الى ذلك أن بعض بلدان سلطنة دهلى مثل ملاوىء Dhar ويوجين Ujjain لم تتأثر بعد بالحضارة الاسلامية ، بل تنتهز الفرصة المواتية للاستقلال عن دهلى ، وتقف منها موقفا عدائيا(٣٩) ، أما لبنغال فولى حكمها ناصر الدين محمود بن بلبن وأعقابه ، واستقلوا عن دهلى ، وحكم الدؤاب وما جاورها أمراء مستقلون عن دولة الاسلام فى الهند . وبذلك ولى علاء الدين السلطنة ، فى وقت

(٣٦) المصدر السابق ٢٤٦ .

(37) Lal : Hist.: of the Khaljis. p. 63.

(38) Lane Poole : the Muhammadan Dynasties. p. 93.

(39) Majumdar, An Advanced Hist. of India. 291.

تفككت فيه الدولة الاسلامية فى الهند ، وانفصل عنها الكثير من أقاليمها(٤٠) .

ولى علاء الدين السلطنة فى وقت كانت فى أشد الحاجة الى رجل دولة مثله ، فالسلطان الجديد يختلف عن سلفه جلال الدين ، يمتاز بقوة البأس ، والحزم وحسن التدبير ، والكفاءة العسكرية ، والادارية ، قبض على زمام الأمور بيد من حديد ، وبذل قصارى جهده فى اعادة الوحدة الى دولته ، وانقاذها من الهوة التى تردت فيها ، ودرء الخطر الخارجى عنها .

وابرز أعداء السلطان الجديد ، أبناء جلال الدين ، ونبلاء دهلى ؛ وهؤلاء يعارضون العهد الجديد ، كما أن الراجات الذين استقلوا عن دهلى فى أثناء الاضطرابات التى حدثت فى أواخر عهد جلال الدين ، وبعد مصرعه من واجبه اعادتهم الى الولاء والطاعة له ، وكان عليه تنظيم ادارة البلاد ، وتقوية الحكومة المركزية ، وضمان طاعة وولاء القادة العسكريين ، والحكام المسلمين فى الولايات(٤١) .

أعد علاء الدين جيشا فى سنة ١٢٩٦ لاخضاع أركالى خان — الذى استقل بالملتان وغيرها — وسار هذا الجيش الى الملتان ولم يستطع أركالى له دفعا بل قبض عليه وعلى اخوته وأقاربه وقادته وعوقبوا أشد العقاب وصودرت أموالهم وأمتعتهم ، ونكل بهم أشد تنكيل ، وبذلك استرد اقليم الملتان وبلاد البنجاب والسند ، وضمها الى حوزته(٤٢) .

لم يكتف علاء الدين بذلك ، بل صادر ممتلكات نبلاء جلال الدين ، والأمراء والملوك الذين عملوا تحت قيادته — وكان لا يطمئن الى ولائهم ، وحرص على التنكيل بكل من حامت حوله الشبهات بعدم الولاء والطاعة له ؛ وذلك بالمصادرة والسجن والتشويه ، وبذلك عادت البلاد الى الطاعة والولاء له . وجمع من المصادرات أموالا طائلة ، مكنته من توسيع رقعه

---

(٤٠) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٤٨ .
(٤١) تاريخ فرشته ، ص١٠٢ .
(٤٢) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٤٩ .

دولته ، ودرء الخطر الخارجى عنها ، والتصدى للحركات الانفصالية فى المملكة(٤٣) .

تتابعت انتصارات علاء الدين ، وفتح الكثير من البلدان ، وضمها الى حوزته ، وحالفه التوفيق فى دفع الغزو المغولى المدمر عن الديار الاسلامية فى الهند ، فأخذته نشوة النصر كل مأخذ ، وركبه الغرور ، وذهب عنه صوابه ، فتوهم أن باستطاعته أن ينجز انجازات الاسكندر الأكبر من حيث غزوه للعالم أو محاولة ذلك ، وقهر الدنيا تحت سلطانه ، بل ذهب أبعد من ذلك ، فقد تصور أنه نبى لدين جديد وصاحب رسالة جديدة ، على غرار محمد نبى الاسلام (ﷺ) وتوهم أن أصحابه الأربعة بمثابة الخلفاء الراشدين الأربعة ، وبدأ يتحدث عن امكانية نشر دعوته فى أرجاء الدنيا ، واستطاع بقوة بأسه وقوة جيشه وجنده التبشير بالدين الجديد والرسالة الجديدة ، واستهوته قصص وأحاديث الشعراء والمؤرخين والأدباء عن الاسكندر الأكبر ، والتف حوله الانتهازيون الراغبون فى تحيقق منافع شخصية ، فزينوا له صحة ما توهمه ، وروجوا دعوته وهيأ السلطان نفسه لأن يصبح الاسكندر الثانى . ومما لا شك فيه أن رجال البلاط والقادة المقربين اليه قد وافقوه لا عن اقتناع بل اتبعوه رهبة منه ، وخوفا من قسوته وبطشه ، فلم يسعهم الا التعبير عن رضاهم(٤٤) .

تصور السلطان أنه على حق فيما ذهب اليه ، ودفعه جنون العظمة الى التمادى فى أفكاره وخيالاته ، وكان السلطان يقيم الحفلات الكثيرة ، ويجمع فيها كبار رجال دولته ، ويتحدث فيها عن دعوته ، وفى احدى هذه الحفلات حذره عمه علاء الملك القاضى من خطورة ما ذهب اليه على ملكه ، وعلى الوضع الداخلى فى البلاد ، ومن انتفاضة الكثيرين من الغيورين على دينهم فقال : ان الدين أمر يوحى به الله للأخيار من عباده ، ولا يمكن أن يكون بفعل أو بصنع انسان . وقال : ان الاسلام دين الحق ، ولا يمكن القضاء عليه ، حتى ان قهار العالم وجبابرتهم مثل جنكيز خان ، أراقوا من دماء المسلمين ما أراقوا ولكنهم لم ينالوا من الاسلام شيئا ، بل دخل المغول فى دين الله أفواجا ، وأوضح ان الناس اذا وجدوا

---

(43) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 67.

(٤٤) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٦٦ .

السلطان يشككهم فى معتقداتهم لم يسمعوا له ويطيعوا بل سيدمرون ملكه، وبذلك تعم الفوضى البـلاد ، وينتهز أمراء الأقاليم فرصة هذه الفوضى ، ويحققون أملهم فى الاستقلال عن دهلى . واوضح علاء الملك للسلطان أن النبوة لا تأتى الملوك ، وان كان بعض الرسل قد أوتى من الملك نصيبا(٤٥) وأما عن فكرة قهر العالم فقد أوضح عـلاء الملك للسلطان أن الظـروف تغيرت ، وان الاسكندر كان يستند الى حكم الحكماء مثل أرسطو الـذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، وهـو ما لا نظير له عند علاء الدين ، كما أن الاسكندر ورث عن أبيه فيليب المقدونى ، دولة اليـونان الموحدة ذات الادارة القوية(٤٦) .

وختم القاضى نصيحته للسلطان بقصر جهوده وتركيزها فى اخضاع بلاد الهند لسلطانه ، وقهر الكفرة فيها ، والدعوة الى الاسـلام فى غير بلاد الاسلام ، واصلاح البلاد ، والقضاء على الفتن والثـورات وحماية البلاد من هجمات المغول ، وقد لقيت نصيحة علاء الملك أذنا صاغية من السلطان فأقلع عن فكرة الدعوة لنبوته ، وتأسيس دين جـديد والتفرغ للغزو والفتح واصلاح البلاد ، وبذلك عدل السلطان عن دعوته التى كانت ستؤدى الى ثورات وانتقاضات فى المملكة ، قـد يذهب ضحيتها السلطان أو تتفكك عرى الوحدة فى البلاد .

تعرض علاء الدين لمؤامرة كادت تودى بحياته ، وقاد هذه المؤامرة ابن أخيه سليمان شاه ، وكان يشغل منصب وكيل الدار وأراد بخطته أن يسقى علاء الدين من نفس الكأس الذى أسقاه لجلال الدين ، ويتولى هو — أى سليمان شاه — السلطنة ، وكان علاء الدين قد أرسل عدة حملات الى نواحى الهند للفتح والتوسع ، بينما سار هـو الى رانثمبهور ، وتوقف فى تلبات Tilpat لبعض الوقت ، وباغته قواده ، الذين انضموا الى سليمان شاه فى مؤامرته — ورموه بالسهام فأصيب بجراح شـديدة ، واعلن المتآمرون مقتله ، واعـد سليمان شاه العدة لتولى السلطنة ، وساد الذعر معسكر السلطان ، وتفرق الجند السلطانى(٤٧) ، وفى خضم هـذه الفوضى ، أخفى أنصار السـلطان ، السلطان ، وضمـدوا جراحاته ،

---

(٤٥) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٧٠ .

(46) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 75.

(٤٧) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ص ٢٧٣ .

وعالجوه خير عـــلاج وأنجعه ، وحينمـــا توجه سليمان شـــاه ــ رأس المؤامرة ــ الى معســـكر السلطان مطالبا تســليمه له ، رفض رجـــال علاء الدين ذلك ، وفجأة حدث ما لم يكن فى حســـاب المتآمرين ، فقـــد ظهر علاء الدين فجأة ، وان كان ضعيفا من آثار الجـــروح ، فأسقط فى أيدى المتآمرين ، فلاذوا بالفرار بقيادة رئيسهم سليمان شاه لا يلوون على شىء الى أفغانستان ، وبذلك أحبطت هذه المؤامرة التى كادت أن تودى بالسلطان علاء الدين وتمهد السبيل لتولى ابن أخيه سليمان شاه سلطنة دهلى(٤٨) .

رأى علاء الدين ضرورة استئصال شأفة المتآمرين ، فأرسل فرقا من جيشه الى أفغانستان للقبض على المتآمرين ، وأدى الجيش مهمتـــه فقبض على سليمان شاه وقتل وحملت رأسه الى معســـكر السلطان(٤٩) وانتقم السلطان شر انتقام من المتآمرين ، فأمر بقتلهم ومصادرة أموالهم ، وسبى نسائهم وأطفالهم ، وتوزيعهم على القلاع ، وبذلك فشلت محاولة التخلص من علاء الدين ، وخرج من هذه المحنة قويا .

على أن اغتصاب علاء الدين العرش من عمه سبب له متاعب كثيرة اذ أصبح واضحا عدم وجود قاعـــدة ثابتة لوراثة الملك ، وكان ذلك من أسباب طمع سليمان شاه فى اغتصاب العرش ، وأشعل بعض أمـــراء الأسرة الحاكمة ثورة فى دلهى منتهزين فرصة غياب عـــلاء الدين عنها ، وطالبوا بعزل السلطان ، وتولية واحـــد منهم الحكم مبررين تذمرهم بشدة السلطان وقسوته ، واستبداده وجوره ، غير أن حكـــومة دلهى قبضت على المتآمرين ، وسيقوا الى علاء الدين فى رانثمبهور ، فأمر بسملهم ، وزجهم فى السجون ، ونكل بأتباعهم(٥٠) .

ولم تنته متاعب علاء الدين عند هذا الحد ، بل واجه حركة ثـــورية أخرى ضد نظام حكمه ، قادها حاجى مولى ــ وهو رجل طموح واســـع

---

(٤٨) المصدر السابق ، ص٢٧٣ .

Lal : Hist. of the Khaljis. p. 88.

(49) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 89.

(٥٠) تاريخ فرشته ، ص١٠٧ .

الأطماع — كان يشرف على ادارة بعض الأراضي الملكية ، ولقد بدأ حاجى مولى مؤامرته بالتصدى لتيرميزى Tirmizi ، الذى عهدت اليه حكومة دهلى باصلاح بوابة بادون ، وعرف عن هذا الرجل شدة البأس والعنف والغطرسة ، لذا أضمر أهل دهلى له السوء ، وبينما صاحبنا يصلح بوابة بادون أحاط بمسكنه عدد من الأكواخ أقام فيها العمال الذين عهد اليهم بتشييد القلعة ، وتوجه حاجى مولى الى منزله ، زاعما أنه يحمل اليه رسالة من السلطان ، وبينما تيرميزى يتسلم الرسالة باغته حاجى ورجاله وقتلوه ، وأخرج من جيبه خطابا للناس نسبه الى السلطان زعم فيه أن علاء الدين أمره بقتله ، وقد أخذ الناس الجزع والفزع بعد هذا الحادث حتى أغلقوا منازلهم وانضم الى حاجى مولى المتذمرون من علاء الدين ، والجند الفارون من جيشه بعد أن أضناهم طول الغياب فى الحرب والقتال . وأفلح حاجى مولى فى اشاعة الفوضى والذعر فى دهلى ، والتمكين لنفسه ، وقاد أتباعه الى السجون ، وأمرهم باقتحامها ، والافراج عن نزلائها ، فكثر اتباعه وقوى أمره ، واشتد بأسه ، وأطلق لاتباعه العنان فنهبوا خزينة الدولة ووزع الأسلحة والخيول والأموال على أصحابه وحصل على أموال طائلة من أعمال السلب والنهب التى قادها ، واختار طفلا من سلالة ألتمش ، وأعلنه سلطانا بدلا من علاء الدين الذى أعلن عزله ، واعتزم أن يحكم البلاد باسم هذا الطفل ، وقد لقيت خطته قبولا فى كثير من سكان المملكة اما رهبة أو كراهة لعلاء الدين ، فوفدوا على السلطان الجديد وبايعوه وقدموا له فروض الولاء والطاعة(٥١) .

كان طبيعيا الا يقف علاء الدين مكتوف اليدين ازاء هذه الثورة التى هددت دولته وملكه ، فاتخذ الأهبة لاخمادها ، وعهد بهذه المهمة الى ملك حميد الدين ، وبلغ خان ، وسار جيش السلطان الى دهلى ، واشتبك مع حاجى ورجاله فى عدة معارك ، انتهت بهزيمة حاجى ، وسحق قوات التمرد ، وقتل حاجى مولى ، وعلقت رأسه على حربة ، ودار بها الجند فى شوارع دهلى ، ثم أرسلت الى علاء الدين فى رانثمبهور ، وحرص حميد الدين على استئصال الفتنة من جذورها ، فأمر بالقبض على أعوان وأنصار حاجى مولى ، وصادر أموالهم ، التى يسر حاجى لهم

---

(٥١) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ص ٣٧٨ .

نهبها ، وأودعت هذه الأموال فى خزينـــة الدولة ، وانتقم حميد الدين من الثوار فقتل كل من قبض عليه(٥٢) . ومما لا شك فيه أن اخماد الثورات التى قامت ضد عـــلاء الدين بالعنف والقســـوة أدى الى اســـتتباب الأمن للسلطان ، واعادة الهدوء والسكينة الى البلاد ، واخماد الفتن والثورات ، وتوقف حركات التمرد والعصيان .

على أن كثرة الثورات التى حدثت ضد السلطان علاء الدين جعلته كثير الشك والريبة فى رجال الدولة حتى المقربين اليـــه ، فيتهمه بعض المؤرخين بتدبير اغتيال بلـــغ خان اثناء سيره الى دهلى لقمع حـــركة حاجى مولى ، اذ خشى أن ينتزع سلطانه ، ولكن بارانى يشك فى هـــذه الرواية التى رددها بعض المؤرخين ، ذلك أن بلغ خان كان شديد الاخلاص للسلطان ، وحزن عليه علاء الدين كثيرا ، بل أمر بتوزيع الصدقات على روحـــه(٥٣) .

غادر السلطان علاء الدين رانثمبهـــور ، واتجه الى دهلى ، وتردد كثيرا فى دخولها ، وبقى فترة من الوقت يجول ويصول فى ضواحيهـــا ، ولا يجسر على دخولها لأن دهلى كثيرة الثـــورات ضد الحكم الخلجى ، وأمر قواده بتطهير العاصمة الهنـــدية من المتمردين ، ولمـــا اطمأن الى استتباب الأمن والنظام فى دهلى ، وخلوها من عناصر الثورة والفتنـــة دخلها ، وأخذ فى اصلاح أحوالها ، وحل مشاكل الجماهير بها(٥٤) .

واســـتطاع علاء الدين بفضـــل ما بذله من جهـــد من اعادة الأمن والطمأنينة الى البلاد ، غير انه لم يضع الحلول المناسبة لتفادى المشاكل الناجمة عن عدم وضع قواعد ثابتة لوراثة عرش دهلى ، الأمر الـــذى أدى الى حدوث ثورات وفتن حول اغتصاب الحكم(٥٥) .

كان كافور ـــ خصى علاء الدين ـــ مقربا اليه وصاحب حظوة عنده وكان طموحا يتطلع الى السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد عقب وفـــاة

---

(٥٢) المصدر السابق ، ص٢٧٨ .

(٥٣) المصدر السابق ص ٢٧٨ .

(54) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 97.

(55) Lal : Hist. of theKhaljis. p. 96.

سيده ، فانتهز فرصة إشتداد مرض السلطان ، وحمله على كتابة وصية يتزلى ابنه الطفل عمر خان — وكان غرا صغيرا لا يتجاوز السادسة من العمر — وفى نفس الوصية طلب السلطان من ابنه الأكبر خسروخان التخلى عن المطالبة بالعرش ، ولزوم الولاء والطاعة لأخيه الصغير ، وعهد السلطان الى كافور بالوصاية على ابنه الطفل ، وبذلك حقق كافور على يد سيده السلطان ما كان يصبو ويتطلع اليه من الاستئثار بالسلطة والنفوذ فى سلطنة دهلى .

لما توفى علاء الدين سنة ١٣١٦م جمع كافور النبلاء وكبار رجال الدولة ، وأظهر لهم وصية السلطان الراحل التى أودعها اياه والتى تتضمن تولية ابنه شهاب الدين عمر ، وبذلك خلف هذا الطفل الصغير أباه ولقب شهاب الدين عمر خلجى ، وبتوليته أصبح كافور سيد الموقف فى سلطنة دهلى بلا منازع(٥٦) .

ولكى يكسب كافور احترام وتقدير الناس ، وتزداد سيطرته على السلطان الطفل وعلى الحكم ، تزوج من أمه راما ديفا Rama Deva وأمر بسمل عين خسروخان الابن الأكبر للسلطان علاء الدين وأخيه شادى خان ، حتى لا يطالب أحد الأخوين بالعرش بعد أن فقدا الابصار ، ولم يكتف بذلك ، وانما جرد والدة خسرو خان من حليها ، وأمر بنفيها الى جاوليار(٥٧) .

وشعر كافور أنه غير آمن على نفسه ، وفعلا اشتدت المعارضة له ولحكمه ، واستنكر الناس فعله واستقبحوه ، ولم يرضوا عن سيطرته على الحكم ، فضلا عن تشويه واذلال بعض أفراد البيت الحاكم ، وعادت الفوضى والاضطرابات الى البلاد ، فسعى الى حماية نفسه من أعدائه المتربصين به ، فعمد الى نفى كل من تحوم حوله الشبهات من الأمراء وقواد الجيش وكبار رجال الدولة ، بل شوه بعضهم بالسمل ، وصادر أموال معارضيه ، فضلا عن الحاقه ويلاته بهم ، وازدادت شكوكه ، فأبعد عن البلاط كل أعوان وأنصار سيده علاء الدين ، وجردهم من وظائفهم وأسندها الى أعوانه وأنصاره(٥٨) .

---

(٥٦) تاريخ فرشته ، ص١٢٤ .

(57) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 287.

(58) Majumdar : op. cit. pp. 287-288.

على أن كافور لم تصف له الأمور ، ولم تبتسم له الأيام طويلا ، ولم يسعد بالسيطرة على سلطنة دهلى على الرغم من اجراءات العنف وسياسة البطش والقمع التى اتخذها ضد المشتبه فيهم . فقد تذمر منه الناس وترقبوا ساعة الخلاص من هذا الحكم الغاشم ، وأحاطوا كل تحركاته بالتجسس ، ودبرت الكثير من المؤامرات للتخلص منه ، وآخرها حدث حينما أرسل فريقا من جنده لقتل مبارك خان فى سجنه . ولما اقترب الجند من هذا الأمير ، القى ما لديه من ذهب وفضة لهم وناشدهم عدم التعرض له ، فاستجاب الجند لندائه ، وتيقظ ضميرهم ، ولم يكن غائبا عن أذهانهم ان كافور رجل ظالم مستبد ، وآن الأوان للتخلص منه ، وتمردوا عليه(٥٩) ، بل ساروا الى قصره ، وشنوا عدة هجمات على القصر ، وتمكنوا من اقتحامه أخيرا ، وقتلوه ، وبذلك خلصوا البلاد من استبداد وبطش وجور كافور الغاشم الذى حكم البلاد خمسة وثلاثين يوما ارتكب خلالها أعمالا عدوانية بشعة ضد أفراد البيت الحاكم ورجال سيده(٦٠) .

لم يكتف الثوار بذلك ، بل أفرجوا عن مبارك خان وعينوه نائبا للسلطان شهاب الدين بدلا من كافور ، وقد بدا حكمه للبلاد بداية حسنة ، فأعطى النبلاء والقواد ورجاله أمانا على أنفسهم ، ورد اليهم الأموال التى صادرها منهم ، فطابت نفوسهم ورضوا عنه وناصروه والتفوا حوله وأيدوه(٦١) ، غير أنه عاد الى الاستبداد وأعمال العنف ، وحدثته نفسه بالانفراد بالسلطة فنفى شهاب الدين عمر الى جاوليار ، وعزله عن العرش، وولى هو السلطنة ولم يعد له منازع فى الحكم أو البلاط واعتزم تحطيم وتدمير كل مراكز القوى التى بالمملكة ، والتى قد تضعف نفوذه أو تعرقل سياسته ، وبدأ بالجند الذين أفرجوا عنه ، وقتلوا كافور ، وولوه بدلا منه ، فشتتهم فى البلاد ، ورفض الاستعانة بهم فى ادارة دولته ، وفى نفس الوقت تخلص من أنصار كافور ، وكل من يخشى بأسه(٦٢) .

أعلن مبارك شاه نفسه سلطانا فى ابريل سنة ١٣١٨ وبدأ عهده

(٥٩) تاريخ فرشته ، ص١٢٤ .
(٦٠) بارانى : تاريخ فيروز شاهى : ص٢٧٧ .
(٦١) المصدر السابق ، ص٣٨٤ .
(62) Ma jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 303.

ـــ كما بدأ أسلافه من قبل ـــ بمنح الهبات والهدايا والألقاب لكبار رجال الدولة(٦٣) .

كانت البلاد في ذلك الوقت تمر بظروف حرجة للغاية وفي أشد الحاجة الى حكومة قوية تنقذها من الهاوية التى ترددت فيها ، وترأب الصدع ، وتعيد الأمن والطمأنينة الى الناس ، بعد أن فرقت بلادهم الفتن والثورات، وعمت فيها القلاقل والاضطرابات نتيجة للمنازعات والمشاحنات حول السلطة والنفوذ ، وأدى السلطان الجديد فى مستهل عهده دوره فى اعادة الهدوء والسكينة الى البلاد ، واثبت انه رجل الساعة ، وأصلح البلاد فاطمأن الناس الى العهد الجديد(٦٤) ، وأفرج السلطان عن الألوف الذين زجوا في السجون بتهم التمرد أو الاشتباه فى ذلك على كافور ، ومنح الجند مكافآت مالية ، وأغدق المال على المحتاجين من رعاياه ، وأعاد الأموال التى صادرها علاء الدين الى أصحابها ، وخفف عن الناس عبء الضرائب ومنع كبار موظفى الحكومة من استغلال الأهلين ، وكان ينظر فى الشكاوى والالتماسات التى يرفعها الناس له ، ويضع بنفسه الحلول المناسبة لها ، وألغى القوانين الصارمة التى وضعها علاء الدين على التجار(٦٥) وكانت تحدد أرباحهم فانتعش التجار ، وراجت التجارة ، وخفف عن الفلاحين ضريبة الأرض ، ورفع أجور الموظفين ، وباختصار تحسنت أحوال الناس المعيشية على اختلاف طبقاتهم(٦٦) . واذا أضفنا الى ذلك الحريات التى كفلها للشعب نستطيع أن نقول ان هذا السلطان حقق لبنى وطنه ما لم يحقق لهم منذ سنوات طوال .

على أن رجال علاء الدين لم يرضوا عن السلطان الجديد ، لأنه أقصاهم عن مباشرة شؤون الدولة ، وعولوا على التخلص منه ، وتزعم هذه الحركة أسد الدين ، وقد انتقد هؤلاء المعارضون السلطان قطب الدين لسوء اختياره لموظفى الحكومة ورؤساء الدواوين ورجال البلاط ، واتهموه بأنه يقضى وقته فى اللهو والعبث والاستماع الى الغناء ، قاد أسد الدين

---

(٦٣) باراني : تاريخ فيروز شاهى ص ٣٧٧ .

(64) Majumdar : An advanced Hist. of India. p. 304.

(٦٥) المصدر السابق ص ٣٨٤ .

(66) A Short Hist. of India. p. 166.

المعارضة فى مؤامرة كبرى تهدف الى قتل السلطان قطب الدين وهو فى طريقه الى دهلى ، وتوليته — أى تولية أسد الدين — السلطنة(٦٧) .

لم يقدر لهذه المؤامرة النجاح ، فقد أخطر كبار رجال الدولة السلطان بالمؤامرة قبل تنفيذها ، فتدارك الأمر فى أوله ، وتلاحقه فى ابتدائه قبل أن تضطرم نار الثورة ، ويعم الكرب ويشتد البلاء ، فأمر السلطان بالقبض على زعيم حركة الانقلاب المرتقب ، وكل من اشترك وساهم فى محاولة قلب نظام الحكم من قريب أو بعيد ، وأمر بقتلهم وصادر أموالهم ، وكان انتقامه شديدا جدا من الثوار حتى انه قتل بعض أطفالهم ، وشرد البعض الآخر فى شوارع دهلى لا مأوى لهم ، ولا عائل يعولهم ولم يكتف بذلك ، بل نصب المشانق فى دهلى وأقام مذبحة مروعة قتل فيها كل من ينتمى الى البيت الحاكم بصلة وكل من تحوم حوله الشبهات باحتمال قيامه أو اشتراكه فى انقلاب ضده فى المستقبل ، واستأصل الفروع والجذور من أسرة علاء الدين ، وأسرف فى القتل واراقة الدماء حتى نائبه الذى كان مخلصا له ، واتهمه بالاهمال وعدم كشف المؤامرة فى حينها(٦٨) .

ولكن سياسة العنف هذه لم تقض على محاولات عزل قطب الدين عن العرش ، فقد ظهرت مؤامرة أخرى اختلف المؤرخون حول اسم السلطان الذى رشحه المتآمرون لتولى الحكم ، وضربوا العملة باسمه فيذكر مؤرخ متأخر أنه ابن خسروخان بن علاء الدين ، أما باراني فلا يذكر ذلك وينفى اشتراك خسروخان أو أحد أبنائه فى المؤامرة ، وعلى ذلك فان الاسم الذى نقش على العملة ، لملك شاهين — نائب السلطان على دهلى والذى قتله السلطان على اثر دخوله دهلى(٦٩) .

لم يكف السلطان قطب الدين عن أعمال العنف ضد أبناء علاء الدين ، لأنه كان يتوجس منهم خيفة ، ويخشى أن يتآمروا عليه ، وينضم اليهم أنصار أبيهم ، وهم خسروخان ، وشادى خان ، وشمس الدين ، وأمر

(٦٧) تاريخ فرشته ص ١٢٥ .

(68) Lal : Hist. of the Khaljis p. 296.

(69) Camb : Hist. of India. 111, p. 131.

بالقبض عليهم وارسال افراد عائلاتهم الى دهلي ، وهؤلاء الأمراء سملت عيونهم ، وعاشوا في المنفى في شظف من العيش ، وعمد السلطان الى اذلالهم ، فكتب الى خسروخان رسالة ذكر له فيها انه — أى خسروخان — فقد بصره ، واعتلت صحته ، وعرض عليه ان يفرج عنه ، ويعينه حاكما على احد الاقاليم ، ويمنحه الألقاب والامتيازات المناسبة له ، في مقابل ان يتخلى عن زوجته ديفال رانى التى قال انه أصبح ذليلا لها ، وطلب منه ارسالها الى البلاط لتهدئة عاطفته نحوها واعادتها اليه بعد ذلك جارية مطيعة . على ان خسروخان قد حزن من هذه الرسالة ، ورفض الاذعان لنداء السلطان ، وتمسك بزوجته بل آثر الموت على التخلى عن محبوبته ، ورفض اغراءات السلطان له التى يهدف السلطان منها اغتصاب زوجته بالقوة . وقد تعرض خسروخان فعلا للموت بسبب رفضه عرض السلطان ، فقد أمر باغتياله ، وكان حدثا مروعا اهتزت له قلوب الناس في كل مكان ، ووصفه ابن بطوطة ، وعلم به ماركو بولو من بعض الهنود ، ورواه غيره من الرواة ، وارسلت ديفال الى دهلي ، وامر السلطان بقتل شادى خان ، وشمس الدين وغيرهم ، واغتصب زوجاتهم ، وشرد أطفالهم ، وقد وصف لنا باراني مدى استياء الناس من الجرائم التى ارتكبها قطب الدين(٧٠) ولكن على الباغى تدور الدوائر .

على ان اعمال العنف التى اتبعها السلطان مع اعدائه لم توقف المؤامرات ضده ، ولم تخمد الثورات المعارضة لحكمه في البلاد ، بل زادت اشتعالا ، وأبرز هذه الانتفاضات ، ما قام به نظام الدين اوليا ، وهو رجل تقى ورع ، طبقت شهرته الآفاق ، ووفد اليه الناس من كل صوب وحدب للزيارة والتبرك ، وكان علاء الدين يقدره ويعتز به ، اما قطب الدين فقد ناصبه الداء ، وخشى من تجمع الناس حوله لما في ذلك من خطورة عليه ، اذا قاد هؤلاء الجموع في حركة غزو ضده ، فمنع النبلاء وكبار رجال الدولة من زيارته ، وحاول اضعافه وابعاد الناس عنه ، فشجع الشيخ زادا على النيل منه ، والحملة عليه ، وتحريض الناس على التفرق من حوله ، كما حرض المشايخ الكبار في الدولة عليه ، ولم

---

(٧٠) باراني : تاريخ فيروز شاهى ، ص٣٩٣ .

Lal : Hist. of the Khaljis. p. 299.

يكتف بذلك ، بل أمر بقتله حتى يخمد ما قد يثيره هذا الشيخ من متاعب فى وجه هذا السلطان الظالم(٧١) .

أدت سياسة السلطان الداخلية المتسمة باليقظة الى توقف الحركات الاستقلالية فى الكوجرات ودكا ، ولكن قسوته على خصومه واسرافه فى اراقة الدماء ، واستبداده وعـــدم استماعه لنصح الناصحين . أدى الى اشتداد كراهية الناس له ، وتطلعهم الى التخلص منه ، وبذلك فقد ثقة الرعية به ، وازداد بطشه للناس ، وقضى أيامه فى لهو وعبث ومجون ، وضم بلاطه المغنين والمغنيات والراقصات(٧٢) .

لم تتوقف المؤامرات ضـــد هذا الســـلطان على الرغم من بطشـــه بأعدائه ، فاندلعت ثورة ضده فى ديفاكيرى قادها ياك لاخى Yaklakhi فعول السلطان على اخماد هذه الفتنة وأرسل فرقا من الجيش لقمعهـــا ، ولكن الثائر لم يعد العدة الكافية لصد جيش السلطان ، وكان يعتقـــد أن جند السلطان سينضمون اليه نظرا لحالة التذمر الســـائدة فى البـــلاد ، ولكن حدث ما لم يكن يتوقع ، فهاجمه جيش دلهى ، وخشى رجـــاله سوء العاقبة ، فانفضوا من حوله ، عندئذ ضعف أمر الثائر ، فقبض عليه جند دلهى وأمر السلطان بقطع أنفه وأذنه(٧٣) ، وبذلك فشلت هذه الحركة ، واشتدت قبضة السلطان على الدولة ، وتأكدت سيطرته الكاملة عليها من جـــديد .

ولكن طغيان قطب الدين واستبداده لم يوقف محاولات قتله واغتياله، فتعددت المحاولات للتخلص منه ، كان آخرها مؤامرة وزيره خسرو ، فقد نجح فى ضم بعض النبلاء اليه ، وعاهدوه النصرة والتأييد ، وانضم اليـــه الكثير ممن لحقهم الضيم على يديه(٧٤) .

---

(٧١) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٣٩٦ .

(72) Gibbon. Decline and Fall of the Roman. Empire. 1. p. 128.

(73) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 304.

(74) IBID.

بدأ الوزير مؤامرته ضد السلطان ، بأن أقنعه بأنه ــ أى السلطان ــ يخرج فى حروب كثيرة ، ويجب فى غيابه أن يطمئن على الأمن والنظام فى دلهى ، ولا يستطيع ــ أى خسرو ــ الاطمئنان لأحد فى هذه المهمة سوى رجاله المقربين من الكوجرات ، فوافق السلطان على طلب وزيره وامتلأت دلهى بأهل الكجرات ، وأغدق عليهم خسرو الأموال ، وأعطاهم خيولا وأسلحة وملابس ، واستكثر خسرو منهم ، حتى صاروا حوالى أربعين ألفا كلهم طوع ارادته ورهن اشارته ، وبذلك عظم شأن خسروخان وقوى أمره ، واشتد بأسه ، وعهد الى رجاله بحراسة القصر ، فأصبح هذا السلطان تحت رحمة وزيره ، ودبرت المؤامرة(٧٥)، وكان من اليسير جدا نجاحها وتنفيذها وفقا للخطة المرسومة ، فأمر خسرو رجاله بقتل السلطان فانهالوا عليه ضربا بسيوفهم حتى قتلوه (٧٦) وألقوا رأسه فى فناء القصر(٧٧) ، وبذلك تجرع هذا السلطان من نفس الكأس الذى أسقاه الكثيرين فى ابريل سنة ١٣٢٠م . وخاب كل جبار عنيد .

وقد لحق الناس من السلطان قطب الدين الكثير من المظالم ، على الرغم من أنه بدأ عهده بالعدل بين الرعية واصلاح أحوال البلاد ، ولكن المؤامرات العديدة التى تعرض لها جعلته غير مطمئن على نفسه وعلى ملكه فاشتد فى قمعها ، وقلب على شعبه ظهر المجن ، فطغى وتجبر ، بل أساء الى مشاعر الناس الدينية ، فأهمل المراسم الدينية كالظهور فى الصلاة ، والاحتفالات الدينية فى رمضان والعيدين وأساء الى الدرويش ــ نظام الدين ، وعلى الرغم من ذلك فقد لقب نفسه بألقاب لا يستحقها ، مثل خليفة ، الامام الأعظم ، أمير المؤمنين .

ومهما يكن من أمر فقد عبر خسرو خان عن سخط شعب المملكة الهندية على سلطانها ، وتخلص منه ، لذا نادى به النبلاء ورجال الدولة سلطانا ، وتربع على عرش سلطنة دلهى ، ولقب ناصر الدين خسروشاه ، وأمر بالدعوة له فى الخطبة على أنه أمير المؤمنين(٧٨) .

---

(٧٥) تاريخ فرشته ، ص١٢٧ .

(٧٦) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٤٠٢ .

(77) Majumdar : An Advanced Hist of India. p. 305.

(78) Lal : Hist of the Khaljis. p. 308.

IBID. p. 312.

ولى خسروشاه العرش فى هذه الظروف العصيبة ، ولما كان مدينا لبنى قومه من الكجرات فيما بلغه من جاه فقد خصهم بالمناصب الرفيعة فى الدولة ، واعتمد عليهم فى شؤون الحكم والادارة(٧٩) .

على أن هذا السلطان الجديد اتخذ سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة أسلافه من الحكام المسلمين ، فقد أباح لكفار الهنود اظهار نحلهم ومللهم والتعبير عنها علنا . فنصبوا أصنامهم فى كل مكان ، وازداد الأمر خطورة ، فاستفزوا شعور المسلمين ، ومزقوا المصاحف ، ووضعوا أصنامهم فى القصر الملكى ، وهاجموا المساجد واقتحموها ، ومنعوا المسلمين من تأدية شعائرهم فيها ، بل نصبوا أصنامهم فى بيوت يذكر فيها اسم الله ؛ واغتصبوا البنات المسلمات . ومن الطبيعى أن يرضى كفار الهنود عن هذا السلطان فالتفوا حوله وناصروه ، ورأوا فيه خير معين على المحافظة على شعائرهم واظهارها والانتقام من المسلمين ، ولم يكتف هذا السلطان بالتغاضى عن ايذاء شعور المسلمين ، بل فرض عليهم الأموال ، وأغدق عليهم(٨٠) .

وبرر السلطان تصرفه هذا بأنه انتقام من المسلمين الذين دمروا معابدهم ، ودمروا أصنامهم ، وأحرقوا كتبهم ، ولذلك يرى البعض بأن حكم هذا السلطان مظهر من مظاهر الردة عن الاسلام ، ونستبعد ما يذكره بارانى بأن السلطان أراد أن يعيد الوثنية الى الهند ، ويعيد البلاد الى حكم راجات الهنود ، ذلك أنه دخل الاسلام وهو طفل صغير وعاش ونشأ فى الحياة الاسلامية وكان شديدا قاسيا حينما اشتبك فى دكا مع كفار الهنود قبل توليته الملك ، بل كان أكثر قسوة من أى حاكم مسلم ، وفى نفس الوقت ظل على دينه وعقيدته وان ظل تاركا حركة اضطهاد المسلمين من كفار الهنود تسير فى مجراها دون أن يتدخل لانهائها أو يشترك فى دفعها ، وأبقى على الحكام المسلمين فى الولايات ، وربما أراد السلطان بذلك كسب محبة وتأييد فريق كبير من الناس للوقوف الى جانبه ومناصرته ضد حركات التمرد التى انتشرت انتشارا واسعا ضد سلطان دهلى . ويقودها عادة كبار رجال الدولة من المسلمين ضد هذا السلطان

---

(79) IBID. p. 313.

(٨٠) رحلة ابن بطوطة ، جـ٢ ص٢٩ .

الوضيع الذى ينتمى أصلا الى طبقة جامعى القمامة فى الهند الغربية ، فقد عجل بنهايته بسياسته الغاشمة التى آذت شعور المسلمين ، وساد التذمر بينهم ، وأعدوا عدتهم للخلاص من هذا الحاكم — ناصر الكفرة الملاعين .

وقد قاد تغلق حركة المعارضة ضد هذا السلطان ، فزحف بجيش كبير يضم خيرة جند شمال غرب الهند وصناديدهم ، الى دهلى(٨١) ، فأرسل خسروخان جيشا لصد عدوه ، وقد تناقص جيشه بعد فرار الجند الغيورين على دينهم منه ، وانضمام بعضهم الى جيش تغلق(٨٢) ، ومهما يكن من أمر فقد التقى الجمعان فى ديوبالبور Deopalpur وهزم الجيش الملكى ، وتفرق الجند ، ولاذوا بالفرار ، بل فر الجيش الملكى ، تاركا الأسلحة والخيول والفيلة والأموال ومهمات الجند واستحوذ جيش تغلق على هذه الغنائم ، ثم زحف تغلق وجنده الى دهلى(٨٣) ؛ وانتظر السلطان مصيره المحتوم وقدره الذى حدده بسياسته الغاشمة .

سار تغلق وجنوده الى دهلى لا يعترض طريقهم معترض ، ولما اقترب تغلق منها نصب معسكره ؛ ودعا الناس فى دهلى الى طاعته ، ولقيت دعوته هوى من أهل دهلى الذين كرهوا خسروخان الذى آذى شعورهم ومعتقداتهم ثم دارت المعركة الفاصلة سنة ١٣٢٠ بين جيش تغلق وجيش السلطان انتهت بهزيمة جيش السلطان ومقتله — أى السلطان — وألقيت رأسه فى فناء القصر ، كما ألقيت رأس مبارك شاه ، وبذلك انتهى حكم خسروخان بعد أربعة أشهر وبنهايته انتهى حكم سلاطين الخلجيين فى بلاد الهند(٨٤) .

---

(81) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 307.

(82) IBID. p. 308.

(٨٣) ابن بطوطة ، جـ٢ ص٣٠ .

(84) A Short : Hist. of Hind Pakistan. p. 167.

٤ ــ دولــة بنى تغلــق

ينسب آل تغلــق الى عنصر تركى ، كان يقيم فى الهند منــذ زمن طويل ، وأول من حكم سلطنة دهلى من هذه الأسرة ، غياث الدين تغلق شاه ، قدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار فى أيام السلطان علاء الدين ، ودخل فى خدمة أولوخان ــ أمير السند اذ ذاك ــ فظهرت شجاعته ، وتدرج فى سلك الفروسية ، حتى صار أميرا للخيل(١) ، وكان أولوخان يعده من كبار الأمراء ، وسمى بالملك الغازى لأنه صد الكثير من غزوات المغــول وهجماتهم ، وحاصرهم ونكل بهم ، ولمــا ولى قطب الدين ولاه مدينة دبال بور وأعمالها ، وعهد الى ابنه محمد تغلق بامارة الخيل وظل يشغل هذا المنصب فى عهد السلطان خسروشاه ، فلما استاء تغلــق من خسروشاه الذى اغتصب العرش ، وقتل السلطان ، وأباح للهنود الوثنيين اظهــار نحلهم ، والتنكيل بالمسلمين ، واظهر أمورا منكرة منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود(٢) ، واعلن ــ أى تغلق ــ الثورة والخروج على الطاعة ، وكان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال ، وكتب الى كشلوخان ــ أمير الملتان ــ يطلب منه القيام بنصرته والأخذ بثأر قطب الدين لسابق فضله واخلاصه ، ولكن كشلوخان اعتذر لأن ابنه فى خدمة السلطان فى دهلى ، فحرض تغلق ابنه باصطحاب ابن كشلوخان ، والهرب سويا من دهلى ، فلحق الرجلان بتغلق ، وحينئذ واتت الفرصة تغلق ، فحشد أنصاره ، واعد العدة ، والتف حوله الكثير من الناس ، فقوى أمره ، واشتد بأســه ، وانضم اليه كشلوخان وزحــف الجيش الثائر الى دهلى ــ كما أوضحنا ــ وهزم تغلق جيش الســلطان بقيادة أخيه ــ خان خانان ــ واستولى على خزائنه ، وشتت شمل جنده وقصد تغلق دهلى ، وخرج اليه خسروخان فى عساكره ، وفرق الأموال على أنصاره ، ودارت رحى معركة بين الفريقين انتهت بهزيمة تغلق ، غير أن الجند السلطانى انشغل عقب المعركة فى جمع الغنائم فباغتهم جند تغلق على حين غفلة منهم ، وهزموهم شر هزيمة ، ولاذ من نجا من العــدو

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ص٣١-٣٢ .
(٢) رحلة ابن بطوطة ، ص٣٢ .

بالفرار ، فدخل جند تغلق دهلى لا يعترضهم معترض ، ولا يعوقهم عائق، ودخل تغلــق القصر الملكى ، وجلس على سرير المـــلك ، وقـــدم الناس لمبايعته(٣) ، وبذلك انتقل حكم سلطنة دهلى من آلخلجيين الى بنى تغلق .

* * *

لم يقدر لسلطنة دهلى الاسلامية الهـــدوء والاستقرار فى عهـــد بنى تغلق ، وانما كثرت القلاقل والاضطرابات فى الدولة وتعرض سلاطين هذه الأسرة للمؤامرات التى تستهدفهم بالدرجـــة الأولى لانتزاع كرسى الحكم منهم ، بل تآمر الابن على أبيه ، كما حدث سنة ١٣٢٥ ، ذلك أن محمد بن تغلق ثار على أبيه ، وكان الأب ينقم على ابنه تقربه للـــولى نظام الدين البذوانى ، وساءه منه أمور منها استكثاره من شراء المماليك واجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس ، فلما عاد تغلق من سفره ، أمر ابنه باقامة قصر فى الطريق الى دهلى ، وأقام محمد بن تغلق القصر ومعظم بنائه من الخشب وصمم هذا القصر بحيث اذا وطئتها الفيلة ، وقع ذلك القصر وســـقط ، ونزل الســـلطان بالقصر ، وأطعم الناس وتفرقـــوا ، واستأذنه ولده فى أن يعرض الفيلة بين يديه وهى مزينة فأذن له ، فلما وطئت الفيلة القصر ، سقط الكشك على السلطان وولده محمود ، ولقى السلطان حتفه ، ودفن بخارج البلدة التى سميت باســـمه ، تغلق أباد ، وبها كانت خزائن تغلق وقصوره ، وبها القصر الأعظم ، واستولى محمد على هذه الكنوز ، وولى السلطنة ، ولقب أبو المجاهد محمد شاه(٤) .

كان السلطان محمد بن تغلق غريب الأطوار ، فهو أحب الناس الى اغداق العطاء ، واراقة الدماء ، فلا يخلو بابه من مغن يغنى أو حى يقتل، وله حكايات كثيرة فى الكرم والشجاعة ، والفتك والبطش بذوى الجنايات وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا ، وأكثرهم اظهارا للحق والعدل بتشدد فى تأدية الفرائض الاسلامية ، ويعاقب تاركى الصلاة وفاطرى رمضان(٥) .

---

(٣) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٢ .

(٤) رحلة ابن بطوطة ، ص٣٣ـ٣٤ .

(5) Rawlinson. A Short Cultural Hist. of India. p. 232.
IBID. p. 232.

رأى السلطان محمد بن تغلق نقل حاضرة دولتـــه الى مدينة ديوكر لحصانتها وتوسطها مملكته الواسعة المترامية الأطراف ، ولكى يأمن من خطر المغول الذين يهاجمون دهلى من وقت لآخـــر ، وأسمى العاصـــمة الجديدة دولت أباد ، وأمر ســـكان دهلى بترك بلـــدهم ، والهجرة الى العاصمة الجديدة طوعا أو كرها ، وشق الطرق المؤدية الى دولت أباد ، وحمل سكان دهلى أمتعتهم ، وهاجروا من مدينتهم الحبيبة الى قلوبهـــم كارهين(٦) ، وساروا الى مقرهم الجديد على كره منهم فى رحلة شـــاقة ذاقـــوا فيها ألوان العـــذاب وهلك كثيرون منهم ، وخربت دهلى بهجرة أهلها منها ، وأصبحت بلدة موحشة ، تبكى قصورها ودورها من شيدها وبناها وأقام صرحها ، أما المهاجرون من ديارهم وبلدهم ، فلم يستطيعوا المعيشة فى المدينة الجديدة ، وقاسوا ويلات الجوع والحرمان ، لأن سبل المعيشة فيها غير متوفرة وغير كافية للقادمين الجـــدد(٧) ، وقد ارتكب السلطان خطأ جسيما لأنه لم يراع الشروط الواجب توافرها فى تشييد المدينة الجديدة ، فيجب أن تقـــع فى بقعة زراعية تكفل لســـكانها العمل والعيش ، أو على طريق تجارى ، يضمن لأهلها المعيشة من عمليـــات البيع والشراء فضلا عن طيب الهواء للسلامة من الأمراض(٨) .

ومهما يكن من أمر فقد تراجع السلطان عن قراره بعد أن أدرك فشل مشروعه ، وأمر أهل دهلى بالعودة الى بلدهم ، غير أن دهلى قد تطـــرق اليها الخراب والدمار ، ولم تعد تصلح للحياة ، فشيد السلطان لهـــؤلاء القوم الذين قاسوا الشدائد من سياسته الفاشمة ، مدينة جديدة قـــرب دهلى ، كفل لهم فيها أسباب الحياة الميسرة ، والأمن الغذائى(٩) .

لم تستقر الأمور فى سلطنة دهلى فى عهد محمد بن تغلق ، فقد قامت ضده عدة ثورات ، وحركات استقلالية ، واضطربت الدولة اضطرابـــا شديدا ، فغادر الســـلطان دهلى — على الرغم مما كانت تقاســـيه من مجاعة — الى اقليم الدكن ، لقمع ثورته ، لكنه اضطر الى العـــودة الى دهلى بعد أن فتك الوباء بجنـــده سنة ١٣٣٥م ، كمـــا أعلنت البنغـــال

---

(6) IBID. p. 233.
(7) IBID. p. 233.
(٨) عصام الدين عبدالرءوف : الحواضر الاسلامية الكبرى ، ص١١٣ .
(9) Rawlinson India p. 233.

الاستقلال عن دهلى بقيادة فخر الدين ، ولم يستجب أمراء البلدان المجاورة للبنغـال لأوامر السلطان بالخروج الى البنغـال ، وقمع الثورة ، ممـا يدل على أن سلطان دهلى قد فقد نفوذه فى تلك البلاد .

وعمت الفتن والاضطرابات لاهـور وديوكر وغيرهـا من الولايات الهندية ، ولم يستطع السلطان القضاء على هـذه الفتن ، وتوفى سنة ١٣٥١م بعد أن تدهورت سلطنة دهلى ، واستقلت معظم ولاياتها(١٠) .

لم يكن للسلطان محمد بن تغلق وريث يخلفه ، لـذا ولى ابن عمـه فيروز تغلق الحكم من بعده ، وقد حكم هذا السلطان بالعدل ، وسـار فى الناس سيرة حسنة ، غير أنه واجه بعض المتاعب الداخلية ، فقـد ظلت البنغال على تمردها وتزعم الحركة الانفصالية فيها حاجى الياس ، لذا لم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة ، وعول على اعادة البنغال الى حوزته ، وأرسل منشورا الى الأهلين يدعوهم الى الاستسلام والعودة الى الولاء والطاعة الى سلطان دهلى ، ووعدهم بالعفو والصفح ، ورفع الضرائب عنهم سنة كاملة ان اسـتجابوا لنـدائه ، وأذاع فى منشـوره بأنه مفوض من قبل الخليفة العباسى بالقاهرة ، وأن الخروج عليه خروج على الاسلام ، وسار هذا السلطان الى البنغال ، وطهر البلاد فى طريقـه من المتمردين ، ودخل اقليم ججنكر ، ودخـل الراجا فى طاعته ، بل اعتنق الاسلام ، كما أن حكام المـدن المجاورة ، أقبلوا على السلطان معلنين اسلامهم ، والدخول فى طاعته(١١) .

كذلك عاد الزط فى لاهور وما جاورها الى التمرد والعصيان ، فعمد فيروز شاه الى أحد قواده لقمع حركة الزط ، فدخل معهم فى معركة حاسمة، أدت الى هزيمتهم وأسر زعيمهم(١٢) .

أما عن الدكن فقد اتجه أهلها الى الاستقلال عن دهلى ، وتمكنوا منه فعلا منتهزين فرصة انشغال السلطان بمتاعبه الداخلية والخارجية ،

---

(10) IBID. p. 233.
(11) Prasad, p. 227.
(12) IBID. p. 227.

وقد تعددت الثورات فى الهند حتى نتج عنها ضياع مساحات كبيرة من الأراضى من سلطنة دهلى(١٣) .

على أن هذا السلطان كان محبوبا من رعاياه ، فقد كان بارا بالفقراء وأنشأ ديوانا للخيرات لمساعدة الفقــراء على قضاء ضروريات حياتهم ، وتقديم معونات مادية للفتيــات الفقيرات فى حالة الزواج ، واعــانة الأطفال اليتامى والعجزة والشيوخ(١٤) .

لكن سلطنة دهلى ظلت مسرحا للقلاقل والاضطرابات ، ففى اواخر عهد السلطان فيروز شاه ، فوض هذا السلطان امور دولته الى وزيــره خان جهان ظفر خان ، ولكن هذا الوزير اخــل بالثقة التى منحهــا له له السلطان ، واعتزم الاستحواذ على العرش ، وازاحة ولى العهد ، محمد بن فيروز من طريقه حتى يخلو له الامر ، وضم اليه فعــلا بعض الأمراء ورجال الدولة ، وحرض السلطان على خلع ابنه من ولاية العهــد بتهمة انه يتآمر عليه مع بعض اعدائه ، ولكن السلطان فطن الى سوء نوايا وزيره ، وعزله ، ومن ثم انفرد محمد بن فيروز بامور البلاد بــلا منازع ، ولكن هذا الامير كان سيء السيرة ، قاد البلاد الى الدرك الأسفل ، وعكف على اللهو والعبث ، بل اعتمــد على عناصر السـوء فى البــلاط وخارجه ، فثار عليه الأمراء ورجال الدولة ، والتفــوا حول ابن اخى السلطان ، بهاء الدين وكمال ، وبذلك اصبح فى دلهى فريقان يتنافســان السلطة والنفوذ ، وتصدى كل فريق للآخر ، وتدهور الوضع فى البــلاد تبعا لذلك ، ودارت معارك دامية فى شوارع دهلى بين الفريقين ، فلــم ير السلطان الشيخ بدا من الخروج من عزلته ، وظهر للناس ، واقنعهم بلزوم الطاعة والهدوء والسكينة ، والتوقف عن اعمال الشغب ، وكان لنــداء هذا الســلطان الطيب تاثير كبير فى قلــوب الاهلين ، فهــدءوا واستكانوا ، وكفوا عن اثارة الفوضى والفتن(١٥) .

عزل السلطان ابنه محمد من ولاية العهد لأنه من عوامل الاضطرابات فى دهلى ، واسند ولاية عهده الى حفيده غياث الدين بن فتح خان ، ولم

---

(13) Rawlinson : India. p. 234.

(14) IBID. p. 235.

(15) Rawlinson. op. cit. p. 241.

يلبث أن توفى السلطان الشيخ ، وولى حفيده الشاب الحكم . على أن السلطان الجديد لم يكن جديرا بتولى مهام الحكم ، وهو فى غضاضة الشباب ، فقد انصرف الى اللهو والعبث ، وأغفل مشورة الأمراء وأهل الحل والعقد فى الدولة ، فثاروا ضده ، وكثر المعارضون له ، وقاد الحملة ضده ابن عمه أبو بكر ، وهاجم الثوار القصر الملكى ، فلاذ السلطان بالفرار منه ، على أن الثوار لحقوا به ، وقتلوه بعد أن حكم البلاد ما يقرب من خمسة أشهر ، وولى أبوبكر السلطنة(١٦) .

على أن محمد بن فيروز لم يتغاض عن حركة ابن عمه أبى بكر ، واغتصابه العرش ، فجمع حوله الكثير من الأنصار فى الدؤاب وقوى أمره ، واشتد بأسه ، ودخل دلهى واقتحمها ، وقبض على السلطان الجديد أبى بكر سنة ١٣٩١ ، وولى هو السلطنة ، على أن البلاد لم تهدأ فى العهد الجديد ، وانما ظلت مضطربة متوترة وتنافس الأمراء ورجال الدولة حول السلطنة والنفوذ ، وانقسم الناس الى أحزاب وشيع ، حتى جنح كثير من حكام الولايات وأمراء الهنادكة الى نبذ سيادة دهلى والاستقلال بما فى أيديهم من بلاد وحصون(١٧) .

وظلت سلطنة دهلى فى هذا الوضع المضطرب حتى توفى آخر سلاطين آل تغلق سنة ١٤١٢ ونصب أعيان دهلى دولت خان — من الأسرة اللودية — حاكما على البلاد ، وتعرضت سلطنة دهلى للغزو التيمورى فى الفترة من ١٣٩٨ حتى ١٤٩٠م ، الذى أهلك الحرث والنسل ، وأتى على الأخضر واليابس ، وأقام الخضر خانيون — الذين خلفوا آل تغلق — دولتهم فى دهلى فى ظل هذا الدمار وكان خضرخان أول أفراد هذه الأسرة من أمراء فيروز شاه التغلقى ، وكان واليا على الملتان ، ولما توفى محمود شاه التغلقى أعلن استقلاله .

الامارات المستقلة فى الهند عن دهلى

لم يكن سلطان دهلى طوال العصور الوسطى قادرا على السيطرة على الولايات التابعة لملكته ، ومن ثم استقلت بعض الولايات عن دهلى

---

(16) IBID. p. 244.

(17) IBID. p. 245.

خصوصا البعيدة النائية عنها ، حتى اندمجت نهائيا فى امبراطورية المغول، وهذه الامارات Jaunpur Mandu وكشمير والبنغال ، واستقلت كذلك مملكة الكجرات سنة ١٤٠٠ وشيد السلطان احمد شاه ١٤١١/١٤٤١ مدينة أحمد آباد لتكون عاصمة لمملكة الكجرات ، وتقع فى وسطها ، وتشتهر هذه المملكة بثرائها ، وتقدمها فى صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية ، وتتصل بالبحر بسهولة ويسر ، وقد أشاد الزوار الأجانب بمدينة احمد آباد ، وذكر بعضهم انها من أجمل مدن الأرض ، وشبهها آخرون بالبندقية(١٨) .

ومن أشهر سلاطين الكجرات محمد بياجارها (١٤٥٠/١٥١١) وكان له تاثير كبير على الزوار الأجانب مثل الرحالة الايطالى Ludovico di Varthema ، ومظهرهذا السلطان أثار الدهشة . طويل القامة ، حاد النظر ، له شنب كثيف ، ولحية تتدلى الى وسطه ، ويتخذ أدوية تحصنه من السم(١٩) .

ولى محمود العرش فى سن الثالثة عشرة ، ورغم صغر سنه استطاع أن يسيطر على البلاد ويتغلب على خصومه ، وسيطر على بعض البلاد المجاورة وتغلب على دولة Champanir الهندية ودخل خلفاؤه فى حروب مع الراجبوتيين فى وسط الهند ، وفى سنة ١٥٣٤ استولى السلطان محمود (١٥٢٦/١٥٣٧) على شيتور ، ولاذ أميرها بالفرار ، وألقت النساء فى هذه البلدة بأنفسهن فى النار حتى لا يقعن فى الأسر ، وتعرض رجال شيتور لسيوف المسلمين ، ومزقوا شر ممزق ، على أنه فى العام التالى هزم سلطان دهلى همايون ، سلطان بهادور ومن ثم سادت الفوضى والحروب الأهلية امارة الكجرات حتى امتلكها الامبراطور المغولى اكبر سنة ١٥٧٢م(٢٠) .

واشتهرت العاصمة أحمد آباد بجمال مبانيها ، وشيد بها العديد من المساجد ، وتميزت بارتفاع ورشاقة مآذنها ، وشيد السلطان محمود

---

(18) Rawlinson. op. cit. p. 249.
(19) Rawlinson. op. cit. p. 250.
(20) Manual of Indian Hist. p. 176.

بغارها قصرا على ضفاف بحيرة صناعية فى سارخيج ، وتقــع على بعد أميال قليلة من المدينة ، على أن أهم انجازاته العمرانية ، المسجد الجامع فى شامبانير وبه قبة رائعة ومآذن وأعمدة ، ومزين من الداخل ، ونقشت على جدرانه آيات قرآنية ، ويعد من أجمل المنشآت الدينية وأبهاها فى غرب الهنــد(٢١) .

وفى سنة ١٣٤٧ خلال حكم محمد تغلق ، انتهز ضباط أفغانى يسمى حسن جانجو الفــرص ليكون دولة مســتقلة عاصمتها Gulbarage فى جنوب غرب الهند وتسمى دولة حيدر آباد ، واستمرت مملكة البهمانى من سنة ١٣٤٧ حتى سنة ١٤٨٢ ، وامتدت فى ابان قوتها من البحر الى البحر ، واشتملت على حيدر آباد ومنطقــة فى جنوب مدراس وجــزءا من منطقة بومبى ، ومن الطبيعى أن يدخل أمراء حيدر آباد فى حروب مع الحكام الوراثيين الذين انتزعوا منهم الحكم ، واشتمل بلاط ملوك البهمانى على مواطنين وأجانب . وقــد تحيز ملوك البهمــانى الى الأجانب دون المواطنين الذين عمدوا الى اضعــاف شأنهم ، وانتهجوا سياسة دعــوة فريق من المغامرين من العرب وفارس وبلاد الأفغــان ، وأسندوا اليهم المراكز الهامة فى البلاد . وأدى ذلك الى أحقاد عميقة ، وزاد الأمر سوءا أن القادمين الى البلاد كانوا من الشيعة . أما المواطنون فسنيون(٢٢) .

انقسمت مملكة البهمانى الى أربع ولايات ، تتمتع كل منها بقدر من الاستقلال ولكل حاكم من حكام الولايات جيشه ، ومن حقه فرض الضرائب وجبايتهامن ولايته ويعين الموظفين الذين يســاعدونه فى حكم الولاية . وبالجملة كان يشرف على الشؤون الادارية والمــالية والدفاعية لولايته . أما السلطان فيساعده ثمانية وزراء ، كل مسؤول عن اختصاصه مثــل المــالية أو الشؤون الخارجية ، القضاء ، الأمن . . . الخ ونظم ملوك هذه الأسرة الجيش أحسن تنظيم(٢٣) .

لمــا توفى مؤسس هذه الأسرة سنة ١٣٥٨ خلفه ابنه محمد الأول

---

(21) IBID. p. 177.
(22) Rawlinson. op. cit. p. 252.
(23) IBID. p. 252.

وبدأ هذا الملك حكمه بأن حصل على تقليد بالحكم من الخليفة العباسى بالقاهرة حتى يضفى على حكمه الصفة الشرعية .

نشبت حرب بين مملكة بهمانى ومملكة Vijayanagar ، تقدم فيها جيش بهمانى عبر أراضى العدو ، ولكنه لم يستطع مهاجمة أراضيها ، وانتهت الحرب بعقد اتفاقية سلام بين الطرفين(٢٤) .

وولى محمد الثانى العرش سنة ١٣٧٨ ، وكان حاكما عادلا مصلحا شجع العلوم والآداب ، ودعا الى بلاطه الشاعر حافظ بن شيراز ، وشيد مدارس لأبناء المسلمين اليتامى ، وحاول بكل ما يستطيع تقديم العون وتخفيف المعاناة عن الأرامل والفقراء من النساء . ومن سلاطين هذه المملكة الأقوياء فيروز شاه (١٣٩٧/١٤٢٢) كان حاكما مستنيرا ومصلحا . وبلغت المملكة فى عهده أوج عظمتها وازدهارها . ولقد فرض السلام على مملكة Vijayanagar بعد أن لقنها درسا قاسيا على الرغم من قسوة جيشها وضخامته ، فقد دبر أحد ضباطه خطة ناجحة بأن عهد الى بعض جنده بالتنكر فى زى مشعوذين ، واستطاعوا اقتحام معسكر العدو ، وألقوا الذعر بين الجنود الهنود ، وفى خلال ذلك تمكن الجند المسلمون من مهاجمة العدو ، وهزموهم شر هزيمة . وانتهت الحرب بين الفريقين بعقد معاهدة سلام تعهد فيها راجا Vijayanagar بتقديم فيلة ومبالغ من المال للسلطان فيروز شاه . وقدم له احدى بناته ليتزوجها . وتزوج السلطان من ابنه الراجا . غير أن هذا الزواج لم يؤد الى ارساء سلام دائم بين المملكتين المتنافرتين((٢٥) .

ولقد شيد السلطان فيروز المنشآت الضخمة فى مملكته ، وكان يحب ويشجع العلوم والآداب والموسيقى ، واهتم بالدراسات الدينية فى مختلف الأديان ، وكان قصره يضم نساء أوربيات وهنديات ، واستطاع السلطان التفاهم معهن بلغاتهن . وانتهت حياة هذا السلطان بمؤامرة دبرها ضده أخوه أحمد الذى خلفه فى الحكم ، ونقل هذا السلطان عاصمة بلاده الى بدار Bidar ، وتقع فى نقطة هامة ترتفع عن سطح البحر

---

(24) IBID. p. 252.

(25) Manual of India Hist. p. 178.

قدر ۲٫۵۰۰ قدم . والى غربها يمتد سهل منبسط يضم أشـــجار المانجو والتمر هندى(٢٦) .

وآخر من حكم مملكة البهمانى ، محمد شاه الثالث (١٤٦٣/١٤٨٢) ويرجع ما حققه من نجاح فى سياسته الى وزيره محمود جوان ، وينتمى الى أسرة فارسية عريقة وعرف عنه المهـــارة القتالية والحنكة الادارية والعدالة والمقدرة السياسية والمـــالية ، وكان يعيش حياة زهد وتقشف ، وأسس مدرســـة فى بدار ، مبناهـــا ضخم مرتفـــع ، وغرف المحاضرات مضيئة ، وتشتمل مكتبة المدرسة على ثلاثة آلاف مجلد ، وبالمدرسة غرف للأساتذة والطلاب ومسجد ، والواجهة نقش عليها آيات قرآنية .

على أن السلطان قلب ظهر المجن على وزيره ، فقـــد اتهم بمحاولة خلع السلطان ، وتنصيب نفسه حاكما مستقلا على المملكة ، ولقد سعى حكام الولايات وكبار الموظفين الى بث الوقيعـــة بينه وبين السلطان لأنه تشدد فى مراقبتهم ، ولم يتهاون مع واحد منهم ، فضـــلا عن أنه فارسى الأصل ، وما زالوا بالسلطان حتى خشى من تآمر وزيره عليه ، ووجه اليه السلطان تهمة الخيانة العظمى ، ودافع الوزير عن نفسه ، وأنكر التهمة ، وحاول اثبات براءته ، فحذر الوزير جـــوان السلطان من مغبة وعاقبـــة قتله ظلما ، لأن ذلك سيؤدى الى فقدانه لشخصيته وضياع ملكه . وقتل الوزير المصلح وهو فى الثانية والسبعين من العمر ، بعـــد أن خدم المملكة باخلاص خمسة وثلاثين عاما . وبعد فترة من الوقت اكتشف السلطان أن وزيره قتل ظلما ، فشعر بالذنب ، وظل يتناول الشراب من الخمر ، وهو يردد أن محمود جوان سيقطعه اربا وما زال يشرب حتى توفى(٢٧) .

اخذت المملكة فى الضعف والتدهور بعد وفـــاة هذا السلطان وعمت الفوضى البلاد ، وساد القتال فى الشوارع بين المواطنين الهنود والوافدين الأجانب ، وحكم البلاد ملوك كانوا ألعوبة فى أيدى القواد الأتراك . وظل الامر كذلك حتى استعان آخر ملوكها بسلطان المغول فى دهلى — بابر —

---

(26) H.R. Major : India in the Fiteenth century. p. 130.
(27) IBID. p. 132.

لانتقاذه من الفوضى السائدة فى البلاد . ودخلت المملكة فى حوزة دهلى ، وتوفى آخر ملوك البهمانى سنة ١٥٢٦(٢٨) .

نشأ مجتمع جديد فى مملكة البهمانى من تزاوج العناصر الأجنبية بالعناصر الوطنية . أما الفلاح فى القرية فلم يطرأ جديد على حياته الا فى عهد الوزير جوان ، فقد حقق الزراع دخلا كبيرا نتيجة لسياسته الاقتصادية واستتباب الأمن والنظام فى البلاد ، وعم العمران حتى تشابكت القرى . ولقد وصف لنا رحالة روسى أثناسيوس Nikitin (١٤٧٠–١٤٧٤) محمود الثانى بأنه فى العشرين من عمره ، وعنده جيش ضخم يتكون من مشاة مسلحين وفيلة مهيأة لركابها ، وفى كل قرية مسجد يتعلم فيه الأطفال القرآن الكريم ، ويديرها القاضى بمقتضى الشريعة الاسلامية ، وفى المدن مدارس لتعليم اللغتين العربية والفارسية ، ولها أوقاف ينفق من ريعها على ادارتها . وأضعف من شأن ملوك البهمانى ، ادمانهم للشراب ، الأمر الذى تسبب فى ضعف الادارة الحكومية والتدهور الاقتصادى والادارى وكثرة الحروب الأهلية .

وملوك البهمانى : اهتموا عموما بالعمارة ، ويتجلى ذلك فى القلاع التى شيدوها فى طول البلاد وعرضها ، وأدى اختراع البارود الى ضرورة تقوية القلاع وأحيطت بأسوار ضخمة ، أشهرها قلعة دولت آباد .

قلنا ان مملكة البهمانى انقسمت الى أربع ولايات ، ولما ضعفت هذه المملكة تطلع الولاة الى الاستقلال بولاياتهم ، ومن أقوى هؤلاء الولاة ، يوسف عادل شاه حاكم ريجابور ، أعلن استقلاله سنة ١٤٨٩ ، وكان عبدا اشتراه الوزير جوان ، وهو الابن الأصغر للسلطان التركى مراد الثانى ، حيث هرب فى وقت استخلاف أخيه وهرب من القتل ، وتعرف جوان على مقدرته وأسند اليه وظيفة رئيسية . وأثبت يوسف عادل شاه أنه حاكم قدير ومستنير ، استفاد من أستاذه جوان ، ترك المذهب السنى ، واعتنق المذهب الشيعى ، وتزوج امرأة من Martha وأخلص لها ، واستعمل لغة المارتا فى المخاطبة ، وكان ذلك من أسباب تقرب الهنود له ، وأسند المناصب الرسمية للهنود ، ويصفه فرشته بالحكمة

---

(28) IBID. p. 133.

والفصاحة والنجابة وكان موسيقيا بارعا وأديبـــا فذا ، حرص على بث الفضيلة بين وزرائه ورجال دولته وضرب المثــل بنفسه ، وحثهم على التعامل مع الأهلين بالعدالة والحكمة ، وجلب الى بلاطه رجالا أكفاء من فارس وتركستان والروم ، وفنانين من مختلف البقاع والأصقاع ، وكفــل لهم الحياة الكريمة الهنيئة ، ووضع لخلفائه المبادىء والأسس التى ينبغى للحاكم أن يتحلى بها(٢٩) .

ومن أبرز حكام ريجابور ابراهيم الثــانى (١٥٨٠-١٦٢٦) واصل سياسة أسلافه الحكيمة ، وشجع التجارة مع القوى الخارجية ، وجلب الى بلاطه الفنانين والأدباء وتعاطف مع المسيحيين ، ومنحهم أراضى لاقامة كنائس ، واهتم بالأدب الفارسى ، والأدب الأردى على السواء ، وأوجــد مدينة Nauraspur كمركز أدبى ودينى ، وآخر حكام بيجابور العظام ، السلطان محمد عادل شاه (١٦٢٦-١٦٥٦) خضــع للمغول مضطرا سنة ١٦٣٦(٣٠) .

ومدينة بيجابور تقع على ألفى قدم فوق مستوى البحر ، وبها أسوار دفاعية هائلة ، وعليها أبراج نصب عليها مدافع ، وتمثل هذه المدفعية مهارة وسائل الدفاع ، واشتهرت هذه المدينة بمدارسها وأساتذتها ، ومن أشهر أساتذتها ، محمد قاسم فرشتة ، قــدم من استراباد ، واستقر فى أحمد ناجار ، ولجأ الى بلاط ابراهيم عادل شاه الثانى فى سنة ١٥٨٩ . وتاريخه عن الاسلام فى الهند ، فريد فى نوعه كتاب فيه الأصالة والنقاوة ، بعيد كل البعد عن التأثر ببــلاط السلطان والكتاب مرجعنــا الرئيسى عن تاريخ الاسلام فى الهند فى الفترة ما قبل سنة ١٦١٢ وترجم الى الانجليزية بواسطة الكولونيل J. Briggs سنة ١٨٢٩(٣١) .

العلاقات الخارجية

واجهت سلطنة دهلى منذ قيامها مشاكل خارجيــة معقدة ، فهى معرضة لغزو المغول المدمر من حين لآخر والولايات التابعة لها تحــاول وتسعى الى الانفصال عنها ، واتبعت السلطنة منذ قيامها سياسة خارجية

---

(29) Rawlinson. op. cit. p. 256.

(30) IBID. p. 258.

(31) IBID. p. 258.

تتضمن توسيع رقعة أراضيها فى بلاد الهنـد ، لذلك اشتبكت فى عـدة حروب مع راجات الهند الذين دافعوا عن استقلال ولاياتهم بكل ما أوتوا من قوة . وهنا يجب أن نتساءل عن العوامل التى دفعت سلاطين دهلى الى بذل الجهود فى توسيع رقعة أراضيهم .

هناك دوافع اقتصادية لها أهميتها ، ذلك أن حكومة دهلى سعت الى الاستفادة من اقتصاديات البلاد التى تطلعت الى فتحها مثـل اقليـم الكجـرات الفنى . يضاف الى ذلك أنه من الناحيـة الاستراتيجية تأمن السلطنة على نفسها كلما ضمت أراضى اليها حتى لا تكون محاطة بأعـداء يحاولون الانقضـاض عليها فى الوقت المناسب ، وهناك عامل لا يمكـن اغفاله وهو نشر الاسلام فى غير بلاد الاسلام .

بدأت سياسة التوسع فى بلاد الهند فى عهد السلطان جـلال الدين خلجى ، ففى نهاية سنة ١٢٩٢ طلب علاء الدين من السلطان جلال الدين أن يأذن له بغزو فيديشا Vidisha بعد أن أتم فتح ماندور Mandor واجتاز غين Jhain للمرة الثانية ، ووافق السـلطان على طلب ابن اخيه ، فغادر كره ، وطهر البـلاد فى طريقه من الأعداء ، وحينما بلـغ البلدة وظهر أمامها بقواته ارتـاع أهلها ، وفزعـوا وجزعوا واخفـوا أصـنامهم حتى لا تتعرض للتدمير من قبل الجنود المسـلمين ، وهاجم علاء الدين البلدة بقوة وضراوة ، ودمر معابدهم ، وغنم مغانم كثيرة ، وعاد الى دهلى يحمل من بين الغنائم قطعا من الأصنام التى دمرها(٣٢) ؛ وأمر جلال الدين بالقائها عند بوابات المدينة ليراها الناس رمزا لانتصار الاسلام على الكفر والشرك بالله ، وكافأ السـلطان صهره وابن أخيـه علاء الدين بأن أسـند اليه منصب رئيس ديوان العـرض (الجيش) وأقطعه مدينة أوده(٣٣) .

وكان علاء الدين طموحا ، يتطلع الى خوض غمار حروب يحـرز فيها انتصارات يجنى منها ثروات طائلة وشهرة فائقة ، استمع عن ثروة مملكة ديفا جيرى فاعتزم غزوها وحشد جيشا قويا فى كره لهذا الغرض ، وطلب موافقة السلطان على الغزو ، وأغراه بالغنائم التى تؤول اليه من

---

(32) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 34.
(33) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 36.

غزوته . فلقى طلبه استجابة من السلطان الذى كان يولى ابن أخيه ثقة كبيرة ، ويغفل عن نواياه نحوه ، وأمده السلطان بجيش قوى معد خير اعداد ، الأمر الذى جعل علاء الدين مستعدا للغزو بجيش قوى ، سار على رأسه الى ديفاجيرى وتقع بين الهند الشمالية وجزيرة دكا ، وفى شمالها وشمالها الغربى تقع مملكة مالوا Malwa وجوجرات وفى الشرق والجنوب تقع مملكة تلنجانا Telingana و Dwar as amudra وظلت هذه المملكة فى مأمن من الخطر الخارجى ، الذى تعرض له شمال الهند فى الفترة ما بين القرن الثامن والثالث عشر الميلادى حتى تطلع علاء الدين الى غزوها ، وكان يحكم هذه المملكة فى الوقت الذى غزاها فيه علاء الدين أسرة فادافا Vadava وحاكمها يسمى واجاشاندرا Chandra وتدعى هذه الأسرة لنفسها نسبا عريقا ، وسيطرت هذه المملكة فى القرن ١٣ على جوجرات ومالاوى والبلاد المجاورة وأصبحت قوة يحسب لهما ألف حساب وحساب فى شمال الهند ، ولما ولى راجا شندرا الحكم ، حرص على تقوية جيوش مملكته ، وأكد سيطرته على البلاد التى ذكرناها ، وأصلح أحوال مملكته الداخلية ، ونشر فيها الأمن فعم البلاد الرخاء فى سنى حكمه التى تجاوزت خمسة وعشرين عاما ، وانتعشت التجارة وراجت الصناعة وعمرت خزينة البلاد ، ولم يعد لها حكام أجانب ينهبون ثرواتها ، وتطلع علاء الدين الى غزو هذه البلاد طمعا فى ثرواتها الهائلة ، وذهبها الكثير ومجوهراتها الثمينة وأحجارها الكريمة(٣٤) .

وقف علاء الدين على قوة مملكة ديفاجيرى ، واستعداداتها العسكرية ووقع ملكها ، فاعد جيشا قويا ، وغادر كره أوائل سنة ١٢٩٦ ، ولكى يغطى موقفه ويوهم ملك ديفاجيرى بأنه لا يقصده ، اتجه الى شانديرى ، زاعما أنه يعتزم غزو هذا الحصن الذى يقع فى وسط الهند ومنه يتجه الى فيديشا Vudisha وأمن جميع الطرق المؤدية اليها ، وعبر بقواته الجبال التى اعترضته ، وسار بعناية فائقة على رأس جيشه ، عبر التلال الوعرة ، واجتاز أنهارا ، ولما قرر علاء الدين انهاء المعركة فى أسرع وقت ، لم يبق فى دكا كثيرا حتى لا يثير شكوك ملوك الهند الأقوياء فى نواياه ، ولا يعارضه نبلاء دهلى الكارهين له ، والمتربصين به

---

(34) Lal : Hist of the Khaljis. p. 41.

وحرص أن يتفوق فى الحرب ، لأن عودته الى كره منهزما ، تضعف من شأنه ، وتعطى لأمرائه سلاحا للنيل منه ، واتجه الى مملكة ديفاجيرى دون أن يسمح لقواته بالاعتداء أو الهجوم على البلدان التى فى الطريق لأن ذلك مضيعة للوقت ، ويبعده عن هدفه الرامى الى اجتياز المملكة فى أسرع وقت ، وأطلق اشاعة مؤداها أنه يعارض جلال الدين ، ويتجـه الى راجا مندرا Rujmundri فى تلنجانا قادما لعقد محالفـة معه ، حتى لا تتعرض له البلاد فى طريقه الى ديفاجيرى(٣٥) .

ومهما يكن من أمر فقـد وصـل علاء الدين الى مشارف المملكة ، وخرج الناس فيها لمقاومته ، وقادت بعض حركات المقـاومة امرأتـان ، قادت كل منهما فرقة من الجند وتصدت لمقاومة علاء الدين ، وفشـل فى صد هجماتها العنيفة ، فانسـحب منهزما ، ثم عاود الهجـوم ، وأحرز انتصارا رائعا على أعدائه بعد أن ضعفوا ووهنوا ، وانسحبوا من المعركة يجرون أذيال الفشـل والخيبة ، وكانت هزيمتهم فادحـة ، وخسارتهم مروعة(٣٦) .

مهدت هذه المعركة التى انتصر فيها علاء الدين ، الى الزحف داخل مملكة ديفاجيرى دون أن يعترض معترض ، أو يقـاومه مقـاوم ، وأثار علاء الدين حماس جنـده ، وأبلغهم أنه لا يزال أمامهم عمـل شـاق ، ينتظرهم ، واذا كانت النساء فى هذه الأصقاع يحاربن بشدة وضراوة ، فماذا يفعل الرجال ؟ وأغرى جنده — فى نفس الوقت — الثروات الهائلة والمغانم الكثيرة التى يحصلون عليها من فتح هـذه المملكة ، وجـدد جنده يمين الولاء والطاعة له ، وتعهدوا بمواصلة الحرب تحت قيـادته حتى المـوت(٣٧) .

باغت علاء الدين وجنـده المملكة ، ففزع المـلك وجزع واستنجد الملك بحلفائه من البلاد المجاورة ، واعتصم بقلعته ، وتقع على تل مرتفع جدا ، قـوية التحصين ، وحاصر عـلاء الدين القلعة ، وشـدد عليها الحصار ، حتى نفذت المؤن والأقوات ، وقبض علاء الدين على رؤسـاء

(٣٥) تاريخ فرشته ، ص١١١ .
(٣٦) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٣٠٠ .
(37) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 42.

التجار ، وكانوا يمدون القلعة بما تحتاجه من ميرة ، كما استولى على اسطبلات الملك ، وغنم ما فيها من فيلة وخيول ، لذا لم يستطع الملك مقاومة الحصار طويلا(٣٨) بعد أن نفذت المؤن والمعدات من القلعة ، وأصبح من العسير تزويدها ، وتحرج موقف الملك ، ورأى أن لا طاقة له بعلاء الدين ، واستخدم علاء الدين سلاح الحرب النفسية ، فأشاع أن الجند الذين معه مجرد طلائع لجيشه فقط ، وهو فى الطريق الى ديفاجيرى، الأمر الذى اضطر الملك طلب الهدنة ، وعقدت فعلا ، وبمقتضاها تتوقف العمليات الحربية ، وينسحب علاء الدين وجيشه من ديفاجيرى ، ويتبادل الطرفان أسرى الحرب(٣٩) .

على أن هذه الهدنة لم توضع موضع التنفيذ ، ذلك أن سنغانا Singhana ولى العهد — الذى كان خارج العاصمة وقت الحرب عاد بعد الاتفاق على هذه الهدنة ، وأثاره هذا الاتفاق ، واعتبره هزيمة ونيلا من كرامة الملك والملكة ، فقرر نقض الهدنة ، ومحاربة العدو بكل ما أوتى من قوة ، وأرسل الى علاء الدين يهدده ويتوعده ، وينذره بسرعة الانسحاب بدون قيد أو شرط(٤٠) .

رفض علاء الدين التهديد ، ولم يكن هناك بد من الحرب والقتال ، وأعد العدة لمواجهة العدو وقهره ، واتبع فى ذلك خطة واضحة ، فابقى على حصار القلعة بفرقة من جيشه ، أسند قيادتها الى نصرت خان ، وبذلك حال بين الملك وبين الاتصال بابنه العنيد ، ودارت رحى معركة عنيفة بين سنغانا وبين علاء الدين ، وانسحب نصر خان من أمام القلعة ، وانضم الى علاء الدين وشدد علاء الدين من هجماته على العدو حتى وهنوا وضعفوا(٤٠) ففروا الى الحقول المجاورة ، وبعد انتصار علاء الدين ، عاد الى القلعة ، وجدد حصاره لها ، وقتل الكثير من جندها ، واستنجد الملك بعد فوات الأوان براجات البلاد المجاورة ، وانتهت الحرب باستيلاء علاء الدين وسيطرته على المملكة ، ولم يبق سوى القلعة ، فعاد اليها ، وشدد حصاره لها ، ورأى الملك أن لا قبل له بعلاء الدين ، واستولى على

(٣٨) تاريخ فرشته ، ص٩٦ .
(٣٩) المصدر السابق .
(40) Lal : Hist of the Khaljis. p. 45.

القلعة ، وغنم مغانم كثيرة ، منها عدة أحمال من الذهب ، وكميات كبيرة من الأحجار الكريمة والمعادن(٤١) .

وبذلك حقق علاء الدين هدفه من هذه الحملة ، فقد استسلمت مملكة ديفاجيرى له ، وتعهد ملكها بدفع جزية سنوية ، وتزوج علاء الدين من ابنة الملك وانسحب من المملكة بعد أن حصل منها على ثروات هائلة اختلف المؤرخون فى تحديدها وتقديرها ، ولم يكتف علاء الدين بذلك ، بل أجبر الملك على دفع جزية سنوية عن ولاية Ellichpur الشبور التابعة له ، وأفرج علاء الدين عن أسرى الحرب ، وغادر ديفاجيرى وفى طريقه الى كره ، دمر أسير جره Asirgarh الذى يحكمه أحد الراجات ولم ينج من الحصن الا من لاذ بالفرار(٤٢) .

وبينما كان علاء الدين مشغولا فى عملياته الحربية ، سار جلال الدين الى جاولار فى مستهل سنة ١٢٩٦ ، وقد غضب من مسلك علاء الدين ، اذ لم يأذن له بمهاجمة ديفاجيرى ، وان كان قد أسعدته الانتصارات الرائعة التى أحرزها هذا الأمير فى المعارك التى خاضها ضد العدو ، بل عقد احتفالات كثيرة بهذه المناسبة .

ولما عاد علاء الدين الى كره محملا بالغنائم ، لم يتصل بالسلطان جلال الدين عدة أشهر ، ووقعت الوحشة بين الرجلين ، واستعد جلال الدين للمسير الى كره لاعادة ابن أخيه الى الطاعة والولاء ، ولكن علاء الدين لما رأى الموقف فى دهلى ضده ، ويهدد طموحه ونفوذه ، أرسل الى عمه جلال الدين يستعطفه ويسأله العفو والصفح ، ويعده بارسال الغنائم والثروات الهائلة — التى حصل عليها — اليه ، فلقيت هذه الدعوة استجابة من الملك الشيخ فأرسل الى ابن أخيه أمانا وعفا عنه وعن كل أخطائه ، ولكن علاء الدين كان يضمر السوء لعمه ، ويتطلع الى التخلص منه ، والقبض على زمام الأمور فى سلطنة دهلى(٤٣) .

---

(٤١) باراني : تاريخ فيروز شاهى ، ص٣٠٠ .
(٤٢) المصدر السابق ص٢٢٢ .
(٤٣) باراني : ص٢١٩ .

وانتهت الخلافات بين الرجلين — كما قلنا — بتخلص علاء الدين من عمه السلطان ، وولى السلطنة بعد أن تغلب على العقبات التى اعترضته ، ودخلت المملكة فى عهـد جـديد ، تطلـع الناس من خـلاله الى مستقبل سـعيد(٤٤) .

تعرضت سلطنة دهلى لمشاكل خارجية هددت كيانهـا ووجودها ، فقد شن الغـزاة من أهل الهند وغير أهل الهند عدة حملات عليها ، فلم يكف المغول عن غزو سلطنة دهلى سنويا من الشـمال الغربى ، كما أن قبائل الكهكرية الشديدة المراس تكـررت هجماتها فى البنجاب والملتـان والسند ، وتثير الرعب والفزع فى النفوس ، وفى جنوب السند تقع مملكة الكجرات الغنية ، ويحكمها أحـد الأمراء الراجبوتيين ، وبالقـرب من الكجرات تقع الممالك المختلفة ، ويحكمها أمرء من الراجات ، وكلها مستقلة عن بعضها ، ومستقلة عن سلطنة دهلى ، ولم يستطع الحكام المسلمون السيطرة الكاملة على هـذه البلاد ، وفى نفس الوقت تحافظ دول فى الهند مثل شيتور Chittor ورانثمبور على الاستقلال عن دهلى ، وفى وسط الهند تقع ممالك مالوا ، و Dhar ويوجين Ujiain وكلها مستقلة(٤٥) .

بينما حكم راجات الهنود أو الأمراء المسلمون بهار والبنغال وأوريسا . وفى البنغال بالذات حكم ناصر الدين محمود وخلفاؤه من بعده مستقلين ، وكانت الدؤاب فى أيدى الاقطاعيين من المسلمين أو الهنود ، ولم يصل نفوذ دهلى الى أودة والبلاد المجاورة لها(٤٦) .

رأى علاء الدين ضرورة السيطرة على كل هذه البلاد ، وتوسـيع رقعة دولته على حساب البلاد المجاورة لها ، فبدأ بتنظيم شؤون دولته ، والضرب بيد من حديد على مثيرى الفتن والانقسامات الداخلية ، وفى نفس الوقت أعد جيشا قويا لتنفيذ سياسته(٤٧) .

تطلع علاء الدين الى مملكة الكجـرات ، وكانت من أعظم الممالك الهندية ثروة فى العصور الوسطى ، وانتاجها الزراعى يأتى بعـد الدؤاب

(44) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 68.
(45) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 63.

(٤٦) تاريخ فرشته ، ص١٠٢ .
(٤٧) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٤٧ .

وانتعشت فيها الصناعة ، وراجت التجارة ، ومن موانيها حملت صناعاتها الى بلاد فارس وبلاد العرب وزارها ماركو بولو ، وأعجب بطيب هوائها ، ونقاوة وعذوبة مائها ، وجمال عمارتها ، وازدهار زراعتها . وجدير بالذكر أن هذه المملكة تعرضت لغزوات الغزنويين والغور والمماليك ، وظلت تحت ظلم الراجبوتيين حتى شرع السلطان علاء الدين فى غزوها ، وقسم جيشه الى قسمين أسند قيادة الأول الى يلغ خان ، والثانى الى نصرت خان وقد غادر يلغ دهلى فى فبراير سنة ١٢٩٩ ، وأمره السلطان بأن يسير من السند ويلحق بالقوة التى يقودها نصرت خان(٤٨) .

اجتاز يلغ خان البلاد التى فى طريقه الى كجرات واستولى عليها ، وبدأ بمهاجمة الكجرات ، واستولى على مدينة انهلوارة الجميلة ، وقد فزع راجا المدينة ولاذ بالفرار الى ديفاجيرى ، وأسر المسلمون رجاله ، واستولوا على كنوزه ، وتعقبت فرق من الجيش الملك الهارب ، بينما سارت فرق أخرى الى سومنات — وقد أعيد بناؤه بعد أن دمره السلطان محمود الغزنوى، وصادر المسلمون الثروات الهائلة التى كان يدعها الهنود لزوار هذا المعبد ، ودمروا الصنم ، وحمل الى دهلى وأجمع المؤرخون على أن نصرت خان ويلغ خان دمرا مدنا بأسرها فى الكجرات ، وغنموا ثروات هائلة من القصور والمعابد فى الكجرات(٤٩) .

سيطرت جيوش دهلى على مملكة الكجرات بعد معارك متعددة مع جندها ، وعادت الى دهلى محملة بالغنائم الهائلة ، تتضمن أسرى من الرجال والنساء والولدان وكميات هائلة من الذهب والفضة والحلى وأمتعة لا تقدر بثمن(٥٠) .

وفى أثناء عودة الجيش الى دهلى محملا بالغنائم حدثت معركة تمرد فى الجيش ، واستولى بعض الجند على قدر كبير من الغنائم ، وقتلوا بعض أقرباء قائدى الجيش يلغ خان ، ونصرت خان ، غير أن المتمردين فروا من الجيش قبل دخوله دهلى خوفا من عقاب السلطان ، ولما بلغ

---

(٤٨) تاريخ فرشته ، ص١٠٢ .

(٤٩) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٥١-٢٥٣ .

(50) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 71.

الجيش دهلى وعلم السلطان بحركة التمرد ، نكل بأفراد أسر المتمردين ، وكان انتقاما وحشيا بربريا ، حتى ان الطفل كان يقطع اربا اربا(٥١) .

وفى خلال غزو السلطان لمملكة الكجرات ، أرسل السلطان علاء الدين قائده ظفر خان لمحاربة المغول المحتشدين بأطراف الهند ، وهزم القائد الشجاع جيش المغول وسيق الكثيرون منهم أسرى الى دهلى سنة ١٢٩٩ التى فتحت فيها الكجرات(٥٢) .

قضت الحملات التى شنها السلطان علاء الدين فى أواخر القرن الثالث عشر على البلاد الهندية المجاورة ، وعلى معظم الراجات الأقوياء وخضعوا لسلطان دهلى ، وفى الفترة من سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٣١٠ شن علاء الدين عدة حروب فى شمال الهند ، وأكثرها شدة وضراوة كانت فى صحراء الثار . وفى الفترة الواقعة بين سنتى ١٣٠٨ ، ١٣١٢ أخضع حكام دكا ، ولكن معظم جهود علاء الدين تركزت فى البنغال حيث واجهت قواته مصاعب كثيرة(٥٣) .

اتخذ السلطان علاء الدين كافة الاستعدادات لغزو اقليم البنغال وضمه الى مملكته ، وأرسل السلطان فرقا من جيشه الى هذا الإقليم ، وأمر جنده بالاتجاه شرقا ، واتخاذ الطريق الشرقى الى البنغال وأوريسا ، بينما سار السلطان الى جزيرة دكا(٥٤) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن البنغال ظلت مستقلة عن دهلى بعد أن حكمها الخلجيون ولم يحاول جلال الدين الخلجى بسط نفوذه على هذا الاقليم النائى البعيد ، وكان يحكمه ناصر الدين محمود بن بلبن حتى وفاته سنة ١٢٩١ ثم خلفه ابنه ركن الدين خلجى ، وكان متمردا وثائرا على أبيه حتى انه ارسل الى علاء الدين يحالفه ، وعاشت البلاد فى مستهل القرن الرابع عشر فى قلق واضطراب ، وثار شمس الدين فيروز على أخيه ، واستقل بغرب البنغال ، وتاريخ البنغال فى هذه الفترة بالذات غامض

---

(٥١) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٥٣ .

(52) Lal : Hist of the Khaljis p. 77.

(٥٣) تاريخ بارانى ، ص١١١ .

(54) Lal : Hist. of the Khaljis. 78.

كل الغموض ولا نعرف عن هذين الملكين شيئا ، ولم ترد عنهما أية معلومات اللهم الا العملة التى تحمل اسميهما(٥٥) .

وقد لقب فيروز نفسه سلطانا . ومن المحتمل جدا أن حركات التمرد والعصيان ضد السلطان علاء الدين وانشغاله فى قمعها قد أغرى فيروز بالاستقلال نهائيا عن دهلى ، على أن سياسة علاء الدين — كما قلنا — اتجهت الى استعادة سيطرة دهلى على البنغال ، بل كان يتطلع — قبل توليته السلطنة — الى البنغال والاستقلال بها ، وأعد العدة للمسير فعلا الى البنغال والاستيلاء عليها والاستقلال بها ، اذا فشل فى تحقيق خطته الرامية الى التخلص من عمه سلطان دهلى(٥٦) .

أرسل علاء الدين — كما ذكرنا — جيشا الى البنغال لضمها الى مملكته ، بعد انتزاعها من فيروز الذى استقل بها نهائيا عن دهلى . وحوادث غزو البنغال ونتائجه غامضة كل الغموض ، مضطربة كل الاضطراب ، ولكن يفهم من روايات المؤرخين أن جيش علاء الدين لم يستطع هزيمة جند البنغال ، واخضاع الاقليم — تبعا لذلك — لسلطان دهلى . وكان علاء الدين فى ذلك الوقت مشغولا فى قمع حركات التمرد والعصيان التى قامت ضده . على كل حال ظل شمس الدين فيروز يحكم البنغال حكما مستقلا حتى سنة ١٣٢١(٥٧) .

ولا يمكن قبول رواية بارانى عن البنغال ، اذ أن عرضه لهذه الفترة التاريخية التى نحن بصدد الحديث عنها — يدل تماما على غموض الأحداث بالنسبة له ، فهو يروى أن البنغال كانت فى سلام فى ظل حكم ناصر الدين محمود بن بلبن ، وحتى زمن علاء الدين وخلفائه الى أن حكمها غياث الدين تغلق ، ويخلط المؤرخ بارانى كذلك بين ناصر الدين محمود ، وشمس الدين فيروز ، ويذكر ان ناصر الدين حكم ٤٣ سنة . وهذا القول غير صحيح ، وتؤكد العملة عدم مطابقة قوله مع الواقع . فرواية بارانى غير موثوق فيها عن هذه الفترة ، ويردد — كما رأينا — أحداثا غير صحيحة(٥٨) .

---

(55) Camb : Hist. of India, 111. p. 108.

(٥٦) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٣٠٢ .

(٥٧) تاريخ فرشته ، ص١١٨ .

(٥٨) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٣٩٥ .

ومهما يكن من أمر فقد عادت حملة علاء الدين على للبنغال ادراجها الى دهلى دون أن تحقق أهدافها ، وقد ألحق بها شمس الدين فيروز هزيمة فادحة ، وبقى آمنا فى بلده بعد انتصاره على علاء الدين ، مستقلا فى حكمه ، قويا فى مملكته .

على أن علاء الدين الخلجى لم يقف مكتوف اليدين ازاء هزيمته ، بل عول على العودة الى غزو البنغال ، والعمل على تحقيق هدفه الرامى الى السيطرة على هذا الاقليم ، ولكنه رأى ان يبدأ بالامارات التى يحكمها الراجات حكما مستقلا عن دهلى ، ورأى أن هزيمتهم والسيطرة على بلادهم تكسبه هيبة كبيرة فى بلاد الهند ، ويرفع من شأن سلطنة دهلى(٥٩) .

بدأ علاء الدين حملاته على بلاد الراجبوتيين بأن هاجم جيسالمير Jais almer ، وجدير بالذكر أن السلطان جلال الدين شن عليها حملة من قبل ، ولا تشير المراجع التى كتبها المسلمون المعاصرون عن وقت غزو علاء الدين لهذه البلدة ، الا أن المراجع الفارسية تشير الى أن ذلك تم فى أثناء مسير جيش علاء الدين الى الكجرات سنة ١٢٩٩ ، ولكن الراجبوتيين يشيرون الى غزو علاء الدين لجيسالمير ، وان كانوا لا يذكرون موعد هذا الغزو كعادتهم فى تسجيل الأحداث التاريخية ، وقد تم ذلك بقيادة يلغ خان الذى كان يقود جزءا من الجيش الذى سيره علاء الدين الى الكجرات ، وقد احتل هذا الجيش الحصن ، وقتل عددا كبيرا من كفار الهنود ثم غادر البلدة الى الكجرات بعد أن ترك فى البلدة حامية استقرت فى قلعتها(٦٠) .

بعد ذلك أعد علاء الدين العدة لغزو رانثمبهور ، ولهذا الاقليم أهمية خاصة لدهلى ، لقربه منها ، ولأن جلال الدين سبق أن فشل فى السيطرة عليه ، يضاف الى ذلك حصانتها ومناعتها ، ويعمل لقوتها كل حساب ، وقد تكون خطرا على أمن وسلامة سلطنة دهلى ، والسبب المباشر لغزو علاء الدين لها يرجع الى أن راجا هذه البلدة ، ساعد ووقف الى جانب راجا جيسالمير ضد غزوات دهلى ، وقد تعرضت هذه البلدة

(59) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 80.

(60) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 84.

لغزوات القـــادة المسلمين قبل جلال الدين ، ولكن لم يستطع واحد منهم السيطرة الكاملة عليها(٦١) .

ومهما يكن من أمر فقد أمر السلطان علاء الدين قائديه يلغ خـــان ونصرت خان بالمسير الى رانثمبهور سنة ١٣٠٠(٦٢) ، وتحركت جيوش دهلى صوب حصنها المنيع وفى طريقهم احتلوا غين Jhain بدون أن تصـــادفهم مقاومة ، وأرســل يلغ خان الى أمير رانثمبهـــور يطلب منه التسليم حفظا لدمائه ودماء قومه وحماته ، ولكن الراجا رفض الاستسلام ، وآثر الحفاظ على تقاليد اسرته وشرفها ومجدها التى ترفض وتتصـــدى بكل قـــوة للغزو الخارجى ، وترفض السيطرة الخارجيـــة مهمـــا كانت التضحيـــات(٦٣) .

وعلى ذلك فقد أمر يلغ خان قواته بالأهبة والاستعداد وسرعة المسير الى رانثمبهور ، وعسكر بجوارها ، وحاصرها وشدد عليها الحصار ، ونصب المنجنيقات وأدوات الحصار ، وأعد راجا رانثمبهور العدة لمقاومة الحصار ، وقهر الغزاة ، وكان جيشه يتألف من ١٢ ألف فارس وعـــديد من المشاة ، ويضم الجيش عددا كبيرا من الفيلة ، وانهالت القذائف من رانثمبهور على القوات الخلجية — كما يقول ناصر خسرو — وأدت الى مصرع نصرت خان . وقد انتشر الذعر بين المســلمين بفقد القـــائد ، وتأثرت روحهم المعنوية ، وضعفوا ووهنوا ، وأدرك راجا رانثمبهـــور اضطراب الجنـــد الخلجى ، فهاجم قوات المســلمين ، وحطم خطوطهم الدفاعية ، ولم يستطع يلغ خان التصدى له ، ووقف هجماته ، وهزم جند دهلى ، ولاذوا بالفرار الى جيسالمير . وبذلك فشلت محاولة علاء الدين فى السيطرة على رانثمبهور ، واضعاف قوة الراجبوتيين الفرسان(٦٤) .

على أن علاء الدين اعترضته عقبات أثناء مسيره الى رانثمبهور ، وقامت ضده عدة ثورات وحركات تمرد ، وبعد أن انتهى منها سار الى رانثمبهور ، وشدد الحصار على قلعتها ، وأثار حماس قواته ، واستمر

---

(61) Camb : Hist of India, 111. p. 832.

(٦٢) باراني : تاريخ فيروز شاهي ، ص٢٧٢ .

(63) Munshi. op. cit. 180.

(64) IBID. p. 181.

الحصار عـــدة أسابيع ، قاسى فيه جند دهلى ويلات الشقاء والبـــؤس ، ذلك أن المدافعين عن القلعة القوا على المهاجمين مواد مشـــتعلة أنهكت قواهم . كما قاست قوات العدو المحاصرة من نقص فى المؤن والقـــوت ، والجوع كافر ـــ كما يقولون ـــ لذا ضـــعفت مقاومة جند رانثمبهـــور ، ووهنت عزيمتهم ، واشـــتد بهم الكرب ، أما السلطان عـــلاء الدين فكان يشجع قواته على المضى قدما فى مهاجمة العدو ، وينفق الأموال الطائلة فى مرضاتهم ، فطابت نفوسهم ، وقويت عزيمتهم(٦٥) .

دارت رحى معركة فاصلة بين الفريقين ، أريقت فيها دماء غزيرة ، وقتل فى هذه المعركة الكثير من الراجات الذين اشتركوا فيها الى جانب حليفهم راجا رانثمبهور ، ومن القتلى راجا هامير ، بعد أن حارب ببسالة نالت اعجاب معاصريه ، وكتب كتاب كثيرون عن هذه المعركة ، وكتبـــوا عن أساليب الفروسية التى أظهرها الراجات فى حربهم ضد علاء الدين ، وجمع بين الراجات تحالف وثيق ضد العدو المشترك ـــ عـــلاء الدين ـــ الذى أصبح خطرا يهدد استقلال بلادهم(٦٦) .

على كل حال انتصر علاء الدين على أعدائه واستولى على رانثمبهور وحطم أصنامها ، ودمر المعـــابد ومن بينها معبد هارديفـــا Har Deva الذى جعله السلطان دكا ، ودمر الكثير من منـــازل البلـــدة ، وأصبحت رانثمبهور تابعة لسلطنة دهلى ، وعهد السلطان الى يلغ خان بالاشراف على قلعة رانثمبهور . كذلك ضم علاء الدين الى حوزته غين(٦٧) .

شجع هذا النصر الرائع الذى أحرزه سلطان دهلى فى رانثمبـــهور ضد حاكمهـــا الراجبوتيني ، شجعه على مواصلة النضـــال ضد الأمراء الراجبوتيين فى أرض الهند ، وجاء دور شيتور Chittor أقوى قلعة فى الراجبوتانا وتقع على تل ارتفـــاعه خمسمائة قدم ، قسوية التحصين ويحكمها راجا مستقل حتى سنة ١٣٠٣ حين غزاها علاء الدين(٦٨) .

---

(65) Camb : Hist of India 111. p. 517.

(66) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 96.

(67) Munshi. op. cit. p. 181.

(٦٨) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٨٣ .

ظلت شيتور زمنا طويلا عاصمة لاقليم ميوار Mewar وتعرضت لغزو السلطان ألتمش ، ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها ، كما غزاها ناصر الدين محمود سلطان دهلى — وفى سنة ١٢٩٩ هاجم يلغ خان ميوار — وهو فى طريقه الى الكجرات — ولكنه هزم(٦٩) .

سار علاء الدين الى شيتور فى مستهل سنة ١٣٠٣ ، وحاصر القلعة، وشدد عليها الحصار ، وباشر السلطان بنفسه عملية الحصار ، واستعان براجات البلاد المجاورة ، غير انهم لم ينظموا عملية انقاذ شيتور ، ذلك أن الخلافات كانت شديدة بينهم من ناحية ، وبين بعضهم وراجا شيتور من ناحية أخرى ، لذا لم توضع خطة موحدة لانقاذ شيتور ، وخرج لنجدته منهم من خرج متفرقى الكلمة . ومهما يكن من أمر فقد اشتدت مقاومة جند شيتور فى القلعة حتى تحولوا فى بعض فترات الحرب من الدفاع الى الهجوم ، غير أن علاء الدين شدد هجماته على العدو ، والقى قذائف عديدة على القلعة حتى اشتد اليأس بين أهل شيتور وأقام النساء خنادق تحت الأرض ، وأحرقن أنفسهن فيها حتى لا يقعن أسرى فى أيدى أعدائهم ، ومن بينهن نساء الأمراء والفرسان الراجبوتيين(٧٠) .

واصل السلطان علاء الدين تشديد هجماته على القلعة ، حتى استسلمت فى أغسطس من نفس السنة ، بعد أن بذل جند دهلى جهودا مضنية فى الحرب وأمر السلطان علاء الدين بقتل كل من وقع فى يده من العدو ، ودمر المعابد وأحرق الأصنام وكل مظاهر الشرك ، ويختلف المؤرخون حول مصير راجا شيتور ، فيرى بعضهم أنه قتل فى أثناء المعركة ويرى آخرون أنه قتل بعد المعركة ، ويؤيد خسروخان الرأى الأخير ، وجدير بالذكر أنه رافق السلطان علاء الدين فى الحرب(٧١) .

استسلمت قلعة شيتور بشرط دفع الجزية لسلطنة دهلى ، وضم علاء الدين شيتور الى حوزته ، وضبط الأمور فى البلدة ، وأعاد اليها الأمن والطمأنينة ، ونظم ادارتها فى ظل الحكم الجديد ، وعاد الى دهلى مسرعا ، اذ كان يتوقع غزوا مغوليا لدولته(٧٢) .

---

(٦٩) المصدر السابق ص ٢٩٠ .

(٧٠) تاريخ باراني ، ص٢٩٩ .

(٧١) المصدر السابق .

(72) Lal : Hist of the Khaljis. p. 113.

ازدادت هيبة السلطان علاء الدين فى بلاد الهند على اثر سيطرته على رانثمبهور الحصينة والقسوية وعلى شيتور ، وتغلبه فى المعارك الضارية التى خاضها ، لذا خشى بعض الأمراء الراجبوتيين من أن تدور الدائرة عليها ولا طاقة لهم بسلطان دهلى ، وأرسلوا يقدمون اليه فروض الولاء والطاعة ، على أن راجا ماهلاك Mahlak حاكم مالوا Malwa رفض الاستسلام لدهلى ، وأعد العدة لمقاومة السلطان الخلجى(٧٣) .

وجدير بالذكر أن الجيوش الاسلامية غزت البلاد قبل علاء الدين ، غزاها شمس الدين التمشى سنة ١٢٣١ ، واستولى على بعض حصونها ، ودمر المعبد المشهور ماهـلاك Mahlak ، ولكن هذا الغـزو كان خاطفا . وعاد ديفا بالا الى حكم هذه البلاد — كما كان الحال من قبل — وتعرضت مالوا لغزو سريع أيضا فى عهد السلطان جلال الدين(٧٤) .

على أن الغزو الحقيقى الذى تعرضت له مالوا من قبل المسلمين ، كان بقيادة علاء الدين ، سار اليها — كما قلنا — سنة ١٣٠٣ ، وكانت مهمة السلطان الخلجى عسيرة معقدة ذلك أن راجا مالوا كان يمتلك جيشا قويا يضم الكثير من المشاة والفرسان ، ويتولى قيادته قائـد شجاع ، خبير أساليب الحرب والقتال .

سار علاء الدين الى مالوا ، ودارت معركة بين الجند الخلجى وجند مالوا ، قتل فيها مولينانى — القائد المالوى — وقد أدى مقتله الى اشاعة الفوضى والاضطراب بين جنده ، وكانت فرصة سانحة لجنـد دهلى ، فشددوا هجماتهم على جند مالوا وانتصر الخلجيون على أعدائهم ، وقتلوا منهم كثيرين ، ثم حاصر الخلجيون القلعة ، وشددوا عليها الحصـار ، وقد عثر الخلجيون على منفذ مكنهم من دخول القلعة وفوجىء جند مالوا بالخلجيين داخل القلعة — حصنهم الحصين — ودارت معركة هيبة بين الفريقين انتصر فيها جند دهلى ، واستولوا على القلعة ، واستسلم جند مالوا وتبع ذلك سـيطرة الخلجيين على مالوا بأسرها ، وكان لهـذا الانتصار الرائع أثر كبير فى التطور التاريخى لبلاد الهند ، ذلك أن سلطنة دهلى أصبحت أكبر قوة ضاربة فى بلاد الهند ، فضلا عن ازدياد ضعف

---

(73) Majumdar. op. cit. p. 295.

(74) IBID. p. 296.

الراجبوتيين . وسر السلطان بهذا الفتح المبين ، والنصر المؤزر ، وأمر باقامة الزينات والحفلات فى دهلى عدة أيام ، وأقيمت الولائم لأهل دهلى على اختلاف مستوياتهم(٧٥) .

ومن أبرز نتائج ضم مالوا الى سلطنة دهلى ، تيسير السبيل أمام الخلجيين لبسط سيطرتهم على الكثير من الامارات الراجبوتية ، فدخلت مدن يوغسين Ujjain ومانــدو ودهــارنا جــارى Dharnagaari وشانديرى فى طاعة السلطان الخلجى ، اذ خشى حكامها من غزو السلطان لبلادهم . وعهد السلطان الى عين الملك موليتانى بحكم ماندو بالاضافة الى مالوا مكافأة له على شجاعته وبسالته وقهره للعدو(٧٦) .

لم يكتف علاء الدين بما أحرزه من نصر ، بل تطلع الى ضم المزيد من الأراضى الى دولته ، فأعد جيشا سار على رأسه الى سيفانا لفتحهـا ، وكان يحكمها ساتال ديفا Statal Deva ـ أحد القـادة الراجبوتيين الشجعان فى سنة ١٣٠٨ ـ وأعد الراجا العدة لمقاومة الهجوم ، وانضم اليه الكثير من الراجبوتيين وحاصر علاء الدين العدو فى القلعة ، وشدد عليها الحصار ، ودار القتال وقتا ليس بالقصير ، وقد صـمد المدافعون عن القلعة ، وألقوا بالنيران والحجارة على الخلجيين الذين لم تفتر عزيمتهم ـ رغم ذلك ـ قرروا مواصلة الحرب حتى النصر ، ودرس الخلجيـون القلعة من جميع جوانبها ، حتى عرفوا نقط الضعف فيها ، وتمكنـوا من اجتياز القلعة على أثر ذلك ، واستولوا عليها ، وقـد أسقط فى يد الراجا فغادر القلعة ، ولاذ بالفرار لا يلوى على شىء واتجه الى جالور Gurg ولكنه سقط فى كمين ، ولقى مصرعه . ويذكر أمير خسرو أن ساتال ديفا قوى البنيان ، متين الجسم ، وقد دهش السلطان ورجاله من منظر رأسه الضخم التى أحضرت الى معسكره ، ومهما يكن من أمر فقد عاد علاء الدين الى دهلى بعد أن سيطر على سيفانا ، وعهـد الى كمال الدين جـورج Gurg بحكمها(٧٧) .

اعتزم علاء الدين وهو فى طريقه الى دهلى ، غزو جالور ، كجـزء

---

(75) Indian Historical quarterl. 1. 1925. p. 653-656.

(٧٦) تاريخ فرشته ، ص١١٥ .

(77) Lal : Hist of the Khaljis. p. 118.

من سياسته الرامية الى السيطرة على كل البلاد الخاضعة للراجبوتيين .
وجدير بالذكر أن السلطان الخلجى غزا جالور سنة ١٢٩٩ فى أثناء عودة قواته من الكجرات . ويذكر فرشته(٧٨) انه فى سنة ١٣٠٤ بينما القائد نصرت خان وألب خان عائدين من مالوا ، وبلغا جالور ، استسلم راجا البلدة للمسلمين ، وأعلن ولاءه للسلطان الخلجى ، دون أدنى مقاومة ، لأنه خشى أن يتعرض للمصير الذى لقيه حكام البلاد التى غزاها الخلجيون.
وأما الغزو الذى نحن بصدد الحديث عنه ــ فقد حدث سنة ١٣٠٨ حينما أدرك علاء الدين ان جالور لم تعد موالية لدهلى ، فاعتزم اخضاعها ، كما أخضع الممالك الراجبوتية من قبل .

على كل حال أرسل علاء الدين جيشا الى جالور سنة ١٣١١ ، ولم يعرف اسم قائد الجيش الذى عهد اليه سلطان دهلى بهذه المهمة ، ولكن يبدو أن هذا القائد لم يكن على قدر كبير من الكفاءة والشجاعة ، ودارت عدة معارك بين جند جالور والخلجيين ، هزم فيها جيش دهلى ، ودارت المعارك عدة سنين ، وقد جزع علاء الدين لذلك ، وأرسل جيشا قويا أسند قيادته الى قائده الشجاع كمال الدين جورج ، وشدد هذا القائد الحصار على قلعة جالور ، ونثر الذهب على بعض أهالى جالور حتى يكونوا عونا له ، فأخبروه على ممرات سرية تؤدى الى داخل القلعة ، وتمكن القائد الخلجى بذلك من اقتحام القلعة ، ودار قتال داخلها بين الفريقين ، هزم فيه الخلجيون أعداءهم ، وقتلوا منهم الكثيرين ، واستولوا على القلعة وعلى البلدة أيضا(٧٩) .

سقطت جالور اذن فى أيدى الخلجيين سنة ١٣١١ ، ولكى يخلد علاء الدين انتصاره ، شيد مسجدا على أشهر قلعة فى دهلى ، لا يزال موجودا الى يومنا هذا ، وبدخول جالور فى حوزة علاء الدين نستطيع أن نقول بأن راجات دول الراجبوتانا دخلوا فى طاعة سلطان دهلى جيسالمير ، رانثمبهور ، شيتور ، سيفانا ، جالور والبلاد التى تتبع هذه الدويلات ، على كل حال لم ينته النصف الأول من القرن الرابع عشر الا وكان الراجبوتون قد ضعف أمرهم ، ولم يعد لهم شأن فى بلاد الهند وخضعت

---

(٧٨) تاريخ فرشته ، ص١٢٨ .
(٧٩) تاريخ فرشته ، ص١١٨ .

بلادهم لسلطنة دهلى ، وفقدوا ما اتصفوا به منذ القدم ، بالفروسية والشجاعة(٨٠) .

* * *

ويجدر بنا أن نناقش الدوافع والأسباب التى أدت الى هزيمة الراجبوتيين أمام جيوش علاء الدين على الرغم من قوة بأسهم ، وحرصهم على الاستقلال .

دخل السلطان علاء الدين — كما ذكرنا — فى معارك متعددة مع الراجبوتيين وبالذات فى الفترة ما بين سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٣١١ وحقق فيها انتصارات رائعة على أعدائه ، وقاوموه بكل ما أوتوا من قوة، لكنه أصر على دحرهم وهزيمتهم ، الأمر الذى أحدث معارك دموية بين الطرفين ، تكررت فى أثناء حصار السلطان لكل حصن .

كان الراجبوتيون — على الرغم من اصرارهم على المحافظة على حريتهم ، ودرء كل محاولة تهدف النيل من استقلالهم متفرقى الكلمة ، لم يستطع واحد منهم توحيد صفوفهم فى وجه العدو المشترك ، لذا حارب السلطان كل بلد من بلادهم على انفراد ، الأمر الذى مكنه منهم ، وكان الراجبوتيون يلتمسون الأمان فى حصونهم المنيعة ، وتبدأ المجاعة تعمل عملها بين الجند ، وتؤدى حتما الى ضعف مقاومتهم وتوقفها فى النهاية .

وفى نفس الوقت ينتاب أهل البلدة التى بها القلعة الجزع والفزع ، فاما يفرون منها ، واما يبقون بها تحت رحمة العدو ، وفى هذه الحالة تضعف عزيمتهم ، ويستبد بهم اليأس ، ويضطر نفر منهم من أصحاب النفوس الضعيفة أن يخبر العدو عن أيسر السبل للنفاذ الى القلعة ، واذا استطاع العدو دخول القلعة ، وشدد ضرباته للمدافعين داخلها ، وقد أنهك طول الحصار وشدته قواهم ، خصوصا اذا نفدت المؤن والمعدات — استطاع المهاجمون ازاء هذه العوامل التغلب على المقاومة داخل القلعة ، والسيطرة عليها ، وربما فرض معاهدة استسلام على حاكم البلدة .

---

(٨٠) المصدر السابق .

وثمة حقيقة أخرى لا يمكن تجاهلها عند مناقشتنا لأسباب الهزائم المتلاحقة التى حلت بالراجبوتيين على الرغم من شجاعتهم وبسالتهم ، وذلك ان الراجات ظلوا يحافظون على تقاليدهم التى ورثوها منذ زمن قديم فى الحرب ، واستمروا فى استخدام الأساليب القديمة الموروثة عن الآباء والأجداد ، والأسلحة التى فات أوان استعمالها وعفا عليها الزمن ، وولت أيامها ، ولم يحاولوا الاستفادة من التقدم الحربى الذى بلغته بلدان وسط آسيا ، والأسلحة المتطورة التى استخدموها ، وأتقنوا أساليب استعمالها ، فكان جيش دهلى يستخدم الأسلحة الحديثة وقتئذ ، ويطلع على فنون الحرب خصوصا عند المغول ، واستخدام الآلات الحربية المتطورة — خصوصا المنجنيقات — حتى أصبح لدى دهلى تكتيكات حربية رائعة ، أما الراجات فكانوا يستخدمون الفيلة الضخمة ، وحكوماتهم ترتكز على مبادىء اقطاعية ، ويعهدون بالجنود فى أوقات الحروب الى فئة يختارونها لهذا الغرض . واذا نشبت الحرب ، واعتصموا فى القلاع — كما ذكرنا — واحتاجوا الى تعزيزات من الجند ، فمن الصعب ادخال هذه التعزيزات فى القلعة المحاصرة ، بل من العسير جدا اختيار العناصر الصالحة وهم محاصرون فى القلعة .

يضاف الى ذلك أن موارد الثروة فى بلاد الراجات كانت محدودة ، فبلادهم جبلية وعرة ، قاحلة ، انتاجها الزراعى محدود جدا لا يكاد يكفى احتياجاتهم . وهذه الحالة الاقتصادية المتدهورة أضعفت من شأن الراجات أمام أعدائهم فى سلطنة دهلى ذات الموارد الاقتصادية المزدهرة ، فمن ولاياتها البنجاب واوده وكوجرات أعظم المناطق خصبا فى بلاد الهند ، فهى توفر لدهلى الأموال الكثيرة ، والجند ، واذا اجتمع المال والرجال أصبحت عوامل النصر متاحة وممكنة الى حد كبير .

ولكن علينا أن نقرن حقيقة على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أن الراجات كانوا لا يهابون الموت ، ويرونه شرفا فى أرض المعركة ، ودليلا على رضاء آلهتهم ونعمة كبرى ، وفى نفس الوقت كان الراجات يتقنون أساليب الفروسية ، لذا كان سقوط بلادهم فى أيدى أعدائهم أمرا صعبا وعسيرا ، ولا يتم الا بعد لأى وعناء ، وتضحيات جسيمة فى الأنفس والأموال .

على كل حال حارب الراجات حتى الموت ، وحينما يئسوا من المعركة ، ووهنوا وضعفوا ، ألقوا نساءهم فى النار حتى لا يقعن فى أيدى

العدو ، ومع ذلك فان سيادة دهلى على الامارات الراجبوتية لم تدم طويلا ، ذلك لأن الراجات دأبوا على المطالبة باستقلالهم ، والتمسوا الأوقات المناسبة لذلك ، ووضعوا العراقيل فى سبيل حكام سلطنة دهلى ونجحت بعض البلاد الراجبوتية فى نيل استقلالها عن دهلى . لذا فان سيطرة دهلى على بلاد الراجبوتانا لم تكن مستقرة ، ولا كاملة ، واستمر الصراع دون انقطاع بين الامارات الراجبوتية وسلطنة دهلى واستولى علاء الدين — كما رأينا — على رانثمبهور وسافانا وجالور ، البلدة تلو الأخرى دون أن يتحرك الراجبوتيون لمساعدة اخوانهم ، وتجلت الخلافات بينهم حينما هاجم علاء الدين سافانا ، ولم يتحرك راجا جالور لمساعدتها ونجدتها ، على الرغم من أن سقوط سافانا يشكل خطرا عليه ، وعلى بلده التى تبعد خمسين ميلا عنها ، وفعلا دارت الدائرة على جالور ، وسقطت فى أيدى الخلجيين بعد عامين .

ومن أسباب هزائم الراجبوتيين أن حصونهم تقع على قمم جبال عالية ، بحيث تستعصى على الغزاة لصعوبة الصعود اليها ، الأمر الذى يضطرهم الى التجمع على سفح الجبل ، وفى هذه الحالة تكون المحاصيل والدواب فى متناولهم ، فبينما يجد الجيش المحاصر ما يلزمه من الميرة والعلوفة ، فان المدافعين القابعين فى القلعة عليهم الاعتماد على ما فى القلعة من مؤن وتنفد اذا طال الحصار .

اتجهت أنظار السلطان علاء الدين بعد ذلك الى الدكن وكان هذا الاقليم — الى جانب بعده عن العاصمة — يحكمه عصبة من أمراء الهند الأقوياء(٨١) .

عهد السلطان علاء الدين الى قائده كافور — وكان مملوكا حبشيا قديرا — بفتح الدكن ، فاخترق هو وجنده مالوه ثم الكجرات — أعظم أقاليم الهند التجارية وأغناها وأطيبها جوا ، ثم هاجم راى كران ، فلاذ بالفرار من بلده ، وهناك انضم يلغ خان الى قوات كافور ، فساروا جميعا الى ملجأ غريمهم ، وتم القبض عليه مع أفراد أسرته ، وأفرج عنه السلطان وأعاده الى ولايته ، وزوج ابنته من ابنه . وبذلك ضمن هذا السلطان ولاء الأمير الهندوكى(٨٢) .

---

(٨١) تاريخ باراني ، ص٢٧٣ .

(82) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 194.

القت انتصـــارات كافور الرعب فى نفـــوس امراء الدكن ، وما يلى بلادهم جنوبا . ففتحت البلاد أبوابها للغزاة المسلمين . وفى سنة ١٣٠٩ استسلمت تلنجانا ــ قاعدة اقليم أودة ــ وافتدى قومها أنفسهم بأموال طائلة وثروات كبيرة حملها الى دهلى الف بعير ، كانت تنوء بها ، عـــدا مئات من الفيلة ، وألوف من رؤوس الخيل(٨٣) .

شجعت الانتصارات التى أحرزها جيش دهلى والغنائم والثروات التى أحرزها علاء الدين على المضى قدما فى الفتح طلبا للمزيد من الأراضى والثروات . وعاد كافور على رأس جيشه الى دهلى سنة ١٣١٠ بعد أن استولى على اقليم مير فى الجنوب الشرقى فى الدكن ، ولم يرجع قائـــد الجيش الجسور من الدكن حتى تم له اخضاع الجنوب الهندى كله ، بل كان سلطان الخلجيين يشمل شبه القارة الهندية كلها . وبالتحـــديد ترك علاء الدين مملكة تمتد من البنجاب الى البنغال ، ومن جبال الهملايا الى تلال الوندهايا ، وهى الرقعة التى اصطلح على تسميتها الهندوستان(٨٤) .

وبينما تتعرض بلاد الهند لغزاة يهاجمونها من أجل الحصـــول على الذهب والفضة ، نرى أن السلطان علاء الدين لا يتطلع فى غزواته فى البلاد الهندية الى الثروة بقدر ما يتطلع الى تحقيق هدفه الرامى الى توحيد بلاد الهند تحت سلطانه ، فنراه يقضى السنوات الطوال فى صحراء الثار ، القاحلة ، يحارب الراجبوتيين هناك ويقاسى جنده الشدائد فى حربهم ، ولا ينال هو وجنده من الغنائم ما يتناسب مع الجهد والمشـــقة فى أرض الثار القاحلة(٨٥) .

وبسقوط جالور Jlor دخلت بلدان شمال الهند فى ذلك الثـــار فى حوزة سلطان دهلى ، بينما نفذت جيوشه الى الشمال الغربى من الهند حتى بلغت غزنة . وفى الشمال الشرقى من الهند امتـــد نفوذ دهلى الى نبيبال . وبالجملة أصبح السلطان علاء الدين بفضل قوة بأسه وسطوته سيد بلاد الهندوستان بلا منازع .

---

(٨٣) تاريخ بارانى ، ص٣٧٥ .

(84) Lane.Poole : Medieval India. p. 101.

(٨٥) تاريخ بارانى : ص٣٨٥ .

وأسند حكم الولايات الهندية التى خضعت لسيطرته الى ولاة محليين ممن يثق فى طاعتهم وولائهم .

وأتم السلطان علاء الدين السيطرة على شمال الهند وأتبعها بالسيطرة على جنوبها ، وأسند قيادة هذه العملية الى قائده المخلص ملك كافور الذى هاجم ممالك الجنوب ، وسقطت كلها فى يده الواحدة تلو الأخرى ، تساقط أوراق الخريف .

وظلت هذه البلاد موالية لسلطان دهلى علاء الدين ، ولما توفى ، وولى قطب الدين مبارك شاه ، وقتل حاكم الكجرات – الب خان – تطلع أهل الكجرات الى استعادة استقلالهم عن دهلى وأعلنوا الانفصال ، وقتلوا قائد جيش دهلى كمال الدين جورج ، ولم تعد الكجرات تعترف بسيادة دهلى ، ولما علم نائب الملك بثورة الكجرات عهد الى عين الملك مولتانى – حاكم ديفاجيرى – بالمسير الى الكجرات ، لكنه علم فى طريقه بوفاة نائب الملك ، فتوقف عن المسير الى الكجرات وعاد أدراجه الى ديفاجيرى(٨٦) .

على أن السلطان قطب الدين لم يتغاض عن اقتطاع ولاية الكجرات عن دولته ، بل عول على استعادتها ، وأسند هذه المهمة الى ملك تغلق ، وأمره بالانضمام الى عين الملك ، والمسير الى الكجرات ، واعادتها الى الطاعة والولاء لدهلى ، ولما بلغت الجيوش السلطانية الكجرات ، استبد الجزع والخوف بقائد الحركة الاستقلالية ، ففر من الكجرات هو وأنصاره ، وكان عين الملك قائدا محنكا وسياسيا قديرا ، كتب نداءات سرية الى ضباط جيش الحركة الانفصالية يطالبهم فيها بقتل قوادهم والخضوع والولاء لسلطان دهلى ، وذكرهم بأنه ليس من المعقول أن يتقابل المسلمان بسيفيهما ، واذا لم يعد هؤلاء الى الولاء ، فمن اليسير جدا على قوات دهلى هزيمة الانفصاليين وسحقهم . ونجحت دعوة عين الملك ، فقد استجاب كبار الضباط لندائه ، وأقنعوا الجند بالكف عن القتال حقنا للدماء ، ولما اصطف الفريقان للحرب ، انسحب الكثير من جند الكجرات ، وانضموا الى جانب القوات الامبراطورية ، الأمر الذى أضعف من شأن الحركة الانفصالية ، ولم تعد لها سوى فئة قليلة

---

(٨٦) المصدر السابق ، ص٣٨٨ .

حاربت بشدة وضراوة الفئة الكبيرة ، وهزم الانفصاليون شر هزيمة ، وفر من نجا منهم الى أماكن نائية فى الهند(٨٧) ، وبذلك فشلت الكجرات فى الانفصال عن دهلى ، وعادت الى الولاء والطاعة لسلطانها وبقيت تابعة لسلطنة دهلى .

وأسند السلطان لظفر خان ولاية الكجرات ، واستطاع هذا الوالى بفضل حنكته الادارية وحزمه وقوة بأسه أن يعيد الاستقرار والأمن والطمأنينة الى الكجرات وحكم بالعدل بين الناس ، وعم البلاد الرخاء فى عهده ، فالتف الناس حوله ، وأنساهم ذلك أيام الب خان(٨٨) .

على أن الكجرات لم تنعم طويلا بالأمن والسلام ، ذلك لأن المؤامرة التى دبرت لاغتيال السلطان فى دكا غيرت سياسته ، وتحول الى حاكم مستبد سريع الشك فى نوايا رجال دولته والمقربين اليه ، ومن ضحاياه ظفر خان — والى الكجرات ووالد زوجته — شك فى اخلاصه ، كما شك فى اخلاص غيره ، وكان لمقتل ظفر خان وقع سىء على أهل الكجرات ، ففقدوا ثقتهم بسلطان دهلى ، ونبذوه ، وحكم البلاد هشام الدين ، فجمع أقاربه وأنصاره ، وأسند اليهم وظائف الاقليم ، واعتمد عليهم فى الشؤون الادارية فى الكجرات واستاء الناس منه ، ورفعوا شكاواهم منه الى السلطان ، فعزله واستبدله بوال آخر ، وتدهورت الكجرات ، وساء حكم دهلى فيها ، وتطلع أهلها الى الاستقلال ، وضعفت حكومة دهلى ، وأصبحت فى وضع لا تستطيع فيه ادارة ولاياتها وضبط أمورها .

واستقلت الكجرات فى نهاية الأمر عن سلطنة دهلى ، وتبعتها الكثير من الولايات مثل ولاية ديفاجيرى ، واستقل هاربال ديفا Harpal Deva.

ولم يتغاض قطب الدين عن موقف حاكم ديفاجيرى الانفصالى عن دهلى ، بل سار بنفسه على رأس جيش كبير لاعادة البلدة الى حوزته ، وسار سنة ١٣١٨ تجاه دكا وأناب عنه حاكما فى دهلى ، وعول على اخضاع ديفاجيرى ، وحمل أمراء دكا وتلنجانا Telingana على أداء الجزية ، واقترب السلطان من ديفاجيرى ، وفى طريقه اليها انضم اليه

---

(٨٧) تاريخ فرشته ، ص١٢٩ .

(٨٨) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٩٢ .

الكثير من المتطوعين ، فكثر جنده ، وعظم جمعه ، واشتد باسه ، وخشي حاكم ديفاجيري الانفصالي من باس السلطان وسطوته ، ففر مع وزرائه الى التلال القريبة ، ودخل قطب الدين ديفاجيري ، واستعاد سيطرة دهلي عليهـا دون أن تصادفه مقاومة ذات شأن يذكر ، وفر الجند الذين حشدهم هاريال ديفا في ديفاجيري لحمايتها ، وخضعت البلـدة تماما لدهلي ، ووقع هاريال في الاسر ، وعاقب السلطان المتمـردين ، واعاد الهـدوء والسكينة والأمن الى البلدة ونظم امورها ، واقام فيها وحدات عسكرية لضمان ولائها الى الدولة ، وعين فيها واليا من قبله(٨٩) .

ولي غياث الدين تغلق العرش ، وقد تفككت سلطنة دهلي ، واستقلت ولاياتها ، وضعفت نفوذها حتى في البلدان التابعة لها ، فعول على استعادة ممتلكات دهلي ، وبدأ باقليم الدكن والاقاليم الشرقية ، وارسل حملة بقيادة ابنــه الغ خان الى تلنجانا ، وتمكن من اعادتها الى حوزة دهلي ولم يكتف سلطان دهلي بذلك ، بل سار الى البنغال على راس جيش كبير ، ولما بلغها رأى حاكمها ناصر الدين حفيـد بغرا خان بن بلبن ان لا طاقة له بجيش دهلي ، فاعلن دخـوله في طاعة سـلطان دهلي ، وبذلك عادت البنغال الى حوزة دهلي .

وشرع السـلطان التغلقي في مشروع خطير وهو غزو خراسـان والعراقين ، وشجعه على هذا العمل الكبير حكومة المماليك في مصر ، واعد لهذا الغرض جيشا كبيرا قوامه ٣٧٠ الف مقاتل ، وابقى جيشــه تحت السلاح عاما كاملا ولكن المماليك عدلوا عن مطلبهم ، بل تحالفوا مع ابى سعيد ميرزا ــ صاحب بلاد ما وراء النهر ــ واطلقوا يده في بلاد الفرس والتركمان فعدل سلطان دهلي عن قراره(٩٠) .

حرص السلطان التغلقي على توسيع رقعة دولته ، فارسل جيشـا الى ولايا الهملايا العليا ، ولكن جيشه تعرض لمصاعب شديدة ، بسبب البرد الشديد ، وقتل من جند دهلي كثيرون ، ويقال انه قصد من حملته غزو بـلاد الصين للحصـول على ثرواتهـا الطائلة ، وعادت حملتـه خاسرة(٩١) .

---

(٨٩) باراني : تاريخ فيروز شاهي ص٣٩٥ .

(٩٠) تاريخ فرشته ص ١٢٨ .

(٩١) المصدر السابق ص ١٢٨ .

أدى فشل السلطان فى مشروعاته الى ضياع هيبتـــه بين الناس ، فانفصلت عن دهلى الكثير من ولاياتها وبذل السلطان جهودا مضنية لاقرار الأمور فى الشمال ، ثم حاول اعادة الدكن الى حـــوزته ، وهذه الولاية استقلت عن دهلى وشجعت بلدان الجنوب على أن تحذو حذوها ؛ وفشل السلطان فى اعادة الدكن الى حوزته ، واستقلت الكجرات كذلك وتـــوفى محمد تغلق سنة ١٣٥١ بعد أن استقلت معظم ولايات سلطنة دهلى ، ولم يعد لدهلى الا القليل من هذه البلاد(٩٢) .

ولم يستطع السلطان فيروز استعادة الولايـــات التى انفصلت عن دهلى الى حوزته ، لذا أخذت دولته فى التفكك والانحلال ، وخلفه سلاطين ضعاف انصرفوا الى الصراعات الداخلية ، بينما تنفصل البلدان عن دهلى ، الأمر الذى أدى الى تدهور سلطنة دهلى .

---

(٩٢) المصدر السابق ص ١٢٩ .

٢ ـ مع المغـول

قبل أن نتحدث عن الغزو المغولى لبلاد الهند يجدر بنا أن نتكلم عن الدولة الخوارزمية ، وعلاقتها بالمغول لمـا فى ذلك من صلة بتطلع المغول لغزو بلاد الهند ، وتوجيه أنظارهم اليها .

أسس الدولة الخوارزمية توشتكين ـ أحد الأتراك فى بلاط ملكشاه ـ وكان يشـغل وظيفة الساقى ، وما زال يترقى فى سلك الوظائف ، وكان حسن الطريقة ، كامل الأوصاف ، وقد أدب ابنه محمد ، وأحسن تأديبه ، لذا وقع اختيار أحد قادة بركياروق عليه ليكون حاكما على اقليم خـوارزم ولقبه خوارزمشاه سنة ٤٩٠هـ ، وكان حاكما عادلا ، قصر أوقاته على معدلة ينشرها ، ومكرمة يفعلها ، وقرب أهل العلم والدين ، فازداد ذكره حسنا ومحله علوا ، ولـما ملك السلطان سنجر السلجوقى خراسـان ، أقر محمد خوارزمشاه على اقليم خوارزم وأعمالها ، فظهرت شـجاعته وكفايته ، وعظم سنجر محله وقدره(١) .

لـما توفى محمد بن توشتكين ولى ابنه أتسز فمد ظلال الأمن وأفاض العدل ، وقربه السلطان سنجر ، وعلم ابنه واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه ، فظهرت منه الكفاية والشهامة ، فزاده تقدما وعلوا .

عول أتسز على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية المتداعية وانتهز فرصة تهـديد الخطا للسـلاجقة ، لكن سنجر أحبـط محاولته ، وهزمه ؛ على أن أتسز استجمع قوته ، وانتهز فرصة سيطرة الخطا على بلاد ما وراء النهر ، واستولى على خراسان ، وجلس على عرش سنجر ، واستولى على أمواله وجواهره سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م ولكن السلطان سنجر استطاع أن يسترد اقليم خراسان من أتسز سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م ، وتعهد أتسز بالاعتراف بسيادة الدولة السلجوقية .

على أن الدولة الخوارزمية أخذت تزداد قوة ، بينما أخـذت الدولة السـلجوقية فى الضعف والانحـلال بعد وفـاة سنجر ، ومدت الدولـة

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٠هـ .

الخوارزمية نفوذها على البلاد التابعة للسلاجقة ، واستطاع السلطان الخوارزمي تكش أن يهزم ويقتل آخر السلاطين السلاجقة ، ويستولى على ملك السلاجقة فى العراق ، واستولى على أصفهان والري .

ولما توفى تكش سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م خلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه ، فسار على سياسة أبيه الرامية الى توسيع حدود دولته ، فاستولى على معظم اقليم خراسان ، واستطاع أن يهزم الخطأ سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م ، ويبسط سيطرته على بلاد ما وراء النهر . واستولى على اقليم كرمان ومكران ، والأقاليم الواقعة غرب نهر السند وعلى ممتلكات الغور فى أفغانستان ، وبذلك بلغت الدولة الخوارزمية اقصى اتساعها فى عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه ، اذ امتدت من حدود العراق العربى غربا الى حدود الهند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا الى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوبا(٢) .

على أن الدولة الخوارزمية قد جاورت دولة المغول ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين .

وكان العالم الاسلامى فى ذلك الوقت قد مزقته الانقسامات ، ولم تعد فيه دولة قوية الا الدولة الخوارزمية ، وكان الخليفة العباسى الناصر يخشى بأس هذه الدولة ، لأن خوارزمشاه كان يطمع فى بغداد ، فسعى الى تدبير المؤامرات والدسائس للنيل منه ، بل تقاعس عن نصرته ، ولكن لا يمكن قبول ما أشيع فى ذلك العصر من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله حرض المغول على غزو أعدائه الخوارزميين ، وكان من الطبيعى أن تكثر الشائعات فى هذه الأيام المضطربة ، وكان السلطان جلال الدين منكبرتى يتهم الخليفة العباسى بأنه يحرض عليه المغول دون أن يمتلك دليلا على اتهامه(٣) ، والخليفة العباسى يعلم يقينا أن غزو الدولة الخوارزمية يؤدى بالضرورة الى تهديد الدولة العباسية المتداعية ، ذلك أنها تقف سدا منيعا يحول بين المغول وبين العراق .

نشأ المغول فى صحراء جوبى القاحلة ، وهم شعب اشبه بالترك

(٢) حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص٢٨ .
(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص١٦٠ .

فى اللغة والمظهر العام ، وعاش هـؤلاء القوم فى بلادهم فى شـظف من العيش ، يعملون بالصيد والرعى فى حياة كلها ترحال وتجـوال ، وكثر بينهم النزاع والشقاق ، وتكررت اغاراتهم على المناطق الخصبة المجاورة لذا شيد الصينيون سور الصين العظيم درءا لشرهم وحماية لبلادهم من شرهم المستطير(٤) .

ظلت هـذه القبائل فى منازعاتها وفرقتها حتى ظهر منهم شـاب فى ريعان شبابه الغض هو تيموجين ، واستطاع أن يوحد هذه القبائل تحت لوائه ، وهذا الشاب نشأ يتيما ، وكان أبوه زعيما لاحدى قبائل المغول ، ولما توفى انفض أفراد القبيلة من حول تيمـوجين واستصغروا شأنه واستضعفوه ، وعاش هذا الفتى مع أسرته عيشة بؤس وحرمان وشقاء(٥) وكان عليه أن يتلمس سـبل العيش ، وقاسى الكثير من النكبات وهذه المحن أصقلته وأخرجت منه رجلا صلبا شجاعا(٦) .

ولما بلغ تيموجين مبلغ الرجال ، التف افـراد قبيلته حوله لما أظهره من قوة البأس ومضاء العزيمة ، ولم يكتف بذلك ، بل ظل يناضل حتى تمكن من السيطرة على قبائل المغول ، وقضى على كل الحـركات التى تهدف الى عرقلة جهوده ، ولم يأت عام ٦٠٢هـ/١٢٠٦م حتى كان قد أخضع لسلطانه كل بدو صحراء جوبى ، واتخـذ من حصن قراقورم مقرا له ووضع نظاما للقبائل الخاضعة له يسمى الياسا وهو دستور اجتماعى وحربى صارم أساسه الطاعة العمياء للسلطان ، وأخبر تيموجين الرؤساء بأن السماء أضفت عليه اسما جديدا هو جنكيز ، أى امبراطور البشر وأعظم حكام الأرض(٧) .

تطلع جنكيز خان — بعد أن وحد القبائل المغولية تحت سيطرته — الى توسيع رقعة دولته ، وكان المجال الحيوى له بلاد الصين التى تقـع جنوب مملكته — حيث الخصب والرخاء والازدهار — فشن عدة حمـلات

---

(4) Hart : Mongol Compaigns. p. 705.
(5) Grenard : Gengs-Khan p. 8.
(6) IBID. pp. 7-8.
(7) IBID. pp. 65-66.

على امبراطورية كين استولى على مساحات شاسعة من بلاد الصين ، وسيطر على بكين سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م(٨) .

أصبحت امبراطورية المغول القوية تجاور الدولة الخوارزمية العظيمة ، دولة الاسلام القوية البأس ، ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين العظميتين ، ولابد أن تنقض أحداهما على الأخرى ، ووجد السبب لاشتعال الحرب ، فقد وفد جماعة من التجار من رعايا جنكيز خان الى أترار فى الدولة الخوارزمية ، فارتاب فيهم ينال خان — حاكم أترار — وأرسل الى السلطان محمد خوارزمشاه يخبره بالأمر ، فأمره بالقبض عليهم واعدامهم ، على اعتبار أنهم جواسيس بعث بهم جنكيز خان ، وظاهر أمرهم التجارة ، وهؤلاء التجار كان مركزهم خجند وتسير منها قوافلهم الى منغوليا تحمل الى خان المغول الهدايا من نسيج الكتان والديباج ، وكان يشجعهم على ممارسة نشاطهم التجارى(٩) .

ساءت العلاقات بين الدولتين عقب قتل التجار ، وشعر السلطان خوارزمشاه بمغبة قتل التجار ، فأرسل الى دولة المغول جواسيس لاستطلاع قوتهم ، ومعرفة نواياهم ، فعادوا اليه وأخبروه بكثرة عددهم ، وأنهم من أصبر خلق الله على القتال ، لا يعرفون الهزيمة ، وأنهم يعملون ما يحتاجون اليه من سلاح بأيديهم .

وعلى الرغم من ذلك فقد تشدد علاء الدين محمد مع جنكيز خان ولم يقبل شروطه فى تجنب الحرب ، فقد أرسل جنكيز خان الى خوارزمشاه رسلا يطلب منه تسليم حاكم أترار ، وجاء فى رسالة خاقان المغول : « فان كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان — حاكم أترار — كان من غير أمر صدر منك ، فسلم ينال خان الى لأجازيه على ما فعل حقنا للدماء » لكن السلطان الخوارزمى اعتقد انه لو لاطف جنكيز خان ، فى الجواب ، لم يزده ذلك الا طمعا فيه ، فتماسك وتجلد ، بل أمر بقتل الرسل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، ويقول الجوينى : « ان دمهم أهرق ، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء ، وأن رؤوسهم قد سقطت ، ولكن

---

(8) Douglas : The story of China. p. 387.

(9) D'ohsson : Histoire Des Mongols. tom. i. p. 204.

كل شعرة منها ، قد كلف مئات الألـوف من الناس حياتهم » ، ويقـول النسوى(١٠) : « فيالها من قتلة أهـدرت دماء الاسـلام ، وأجرت بكل نقطة سيلا من الـدم الحرام ، فاستوفى عن الغيظ فيضـا ، وأخلى بكل شخص أرضا » .

ونستطيع أن نقول ان الدولة الخوارزمية كانت سـتتعرض لغزو المغول ، سواء حدثت مذبحة أترار أو لم تحدث ، ذلك أن دولة المغول قامت على أساس التوسع والغزو وضم الأراضى اليها بالقوة ، ونعرف من تاريخ المغول انهم استمروا فى ضم البلاد واحتلالها طمعا فى ثرواتهـا وخيراتها ، ولكن مذبحة أترار كانت بمثابة الشرارة التى فجرت الموقف بين الدولتين ، وعجلت بغزو المغول للدولة الخوارزمية .

اتسمت غارات المغول على الدولة الخوارزمية بالوحشية والهمجية، وتدمير المـدن والقرى ، وهذا يتضح من كتابات المعاصرين ، ويقول ابن الأثير(١١) : « لقـد بقيت عـدة سنين معرضا عن ذكر هـذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها .. وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحـوامل ، وقتلوا الأجنة .. وكان مظهر المغـول يدعو الى الفزع والجزع ، ويلقى الرعب فى النفوس ، كانوا قساة مع أعدائهم ، لم يبقـوا على أحد من قاهريهم ، وأشـاعوا الخراب والدمار فى كل بلـد ملكوه ، وكانوا يستذلوا أسراهم ، بحيث يجعلونهم فى طليعة الجيوش التى يحاربون بها ، واذا بدأت المعركة يقذفون بهم فى المقدمة ، ويتخـذونهم دروعا لهم ، حتى تحـولت المدن العامرة ، والقرى والمزارع الخصبة الى صحارى(١٢) ، وقد يقذفونهم فى الفجوات التى يحدثونها فى أسوار المدينة ليملأوا الخنادق بأجسامهم ، واذا سـلم أحد منهم يتخلصون منه بالقتل ، حتى يفسحوا المجال للأسرى الجدد . على كل حال اكتسح هذا الزلزال المدمر ، وتلك القوى الجامحة العـالم الاسلامى وأتوا على الأخضر واليابس ، وأهلكوا الحرث والنسل .

أعد جنكيز خان جيوشه لمهاجمة الدولة الخوارزمية ، وقسم جنده

---

(١٠) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٨٨ .
(١١) الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧هـ .
(12) Sykes : A Hist of Persia, p. 56.

الى أربعة جيوش ، الأول بقيادة ابنيه جغتاى وأوكتاى ، ومهمته فتح مدينة أترار ، والجيش الثانى أسند قيادته الى ابنه جوجى ، ووجهته البلاد الواقعة على ساحل نهر جيحون(١٣) والثالث مهمته مدينتى بناكت وخجند على نهر سيجون . أما الجيش الرابع فيتكون من أغلب قوات المغول ، ويقود جنكيز خان ومعه ابنه تولوى ، ووجهته وسط اقليم ما وراء النهر(١٤) .

سارع المغول الى مدينة أترار ، وشددوا هجماتهم عليها ، وقد اعتصم ينال خان — حاكمها — بقلعتها ، ودافع بكل بسالة ، بل أنهك المغول وأجهدهم شهرا كاملا بضرباته القوية لهم ، حتى فقد معظم رجاله، ونفدت المؤن والأقوات وشدد المغول حصارهم للقلعة ، فألقى بنفسه الى سقف أحد المنازل ، وظل يقاتل المغول بكل ما أوتى من قوة حتى قبض عليه المغول ، وسيق الى جنكيزخان — وكان أمام سمرقند — فأمر بسبك الفضة وقلبها فى أذنيه وعينيه ، فقتل تعذيبا ، وبذلك انتقم جنكيز خان من قاتل التجار ، وسقطت مدينة أترار — مفتاح بلاد ما وراء النهر سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م بعد أن قتل المغول سكانها ودمروها تدميرا(١٥) .

سار الجيش الثانى بقيادة جوجى الى مدينة جند على نهر سيحون بعد أن استولى فى طريقه على المدن والحصون على ساحل سيحون ، ولما بلغ المغول جند ، رأى قائدها أن لا قبل له بالمغول ، فغادر البلدة تاركا أهلها يدافعون عن مدينتهم ، وأغلق أهلها أبواب المدينة ، وشدد المغول هجماتهم ، ورموها بالمنجنيقات حتى اقتحموها ، وبذلك سقطت جند فى أيدى المغول(١٦) .

اتجه الجيش الثالث الى منطقة فرغانة والوادى الأعلى من نهر سيحون ، وحاصر هذا الجيش بناكت ، ولم يجد المغول مقاومة من سكان هذه المدينة ، فاستولوا عليها بسهولة ويسر ، وعلى الرغم من اعطائهم الأمان لأهلها ، الا انهم قتلوا منهم الكثيرين ولم يبقوا الا على من التمسوا

---

(13) Harold Lamb the Grusades. p. 337.

(14) D'ohsson : Histoire Des Mongols. tomi. pp. 217-219.

(١٥) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٩١ .

(16) D'ohsson : Histoire Des Mongols. 1. p. 77.

تيهم المقدرة على خدمتهم ، ثم سار المغول الى خجند ــ وهى مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها الغناء وانتعاش التجارة فيها ، وشجاعة أهلها وقوة بأسهم ــ وقد قاوم حاكمها الشجاع تيمور ملك المغول بكل بسالة ، حتى ضعفت قـــوته ، فامتطى جواده ، واتجـــه الى خوارزم حيث كان يرابط السلطان(١٧) ، ودخلت خجند فى حوزة المغول .

سارت جيوش المغول بقيادة جنكيز خان الى بخارى ودارت الحرب بين جند المغول ، والجند الخوارزمى ثلاثة أيام هزم فيها الخوارزميون ، وفر الجند الخوارزمى فضعف أهلها ووهنت عزيمتهم ، واعتصم بعضهم فى القلعة ، وشدد المغـــول هجماتهم عليها ثلاثة أيام ، وقاتل من فيهـــا حتى قتلوا جميعا ، وتســـلم جنكيز خان القلعة ، وأمر أعيـــان المدينة وتجارها بالاجتماع معه وجردهم جميعا من أموالهم ، وطردهم من المدينة ، وقتلوا كل من صادفوه فى بخارى من أهلها بعد ذلك ، فنهبوا البلدة وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من النســـاء والرجال والولـــدان ، وتفرقـــوا أيدى سبا ومزقوا شر ممزق ، وأحرقت المساجد والمدارس(١٨) وبعد أن استولى المغول على بخارى ساروا الى سمرقند ، وأمامهم الأسرى مشاة على أقبح صورة ، وكل من عجز عن المشى قتل ، وحاصروا سمرقند ، وبها الكثير من الجند الخـــوارزمى ، وأعد أهل سمرقند العـــدة لمقاومة المغول ، ودار قتال شديد بين الفريقين ، هلك فيه أكثر الجند الخوارزمى ، الأمر الذى أضعف مقاومة أهل سمرقند ، وطلبوا الأمان ، وأجابهم المغول الى طلبهم ، وفتحـــوا أبواب البلدة ، وطلبوا من أهل البلـــدة تســـليم أسلحتهم وأمتعتهم ودوابهم ، ففعلوا تجنبا للقتل ، ولكن المغول كعادتهم وحبهم لسفك الدماء أعملوا الســـيف فى رقاب الأهلين ، حتى أفنوهم عن آخرهم ، وأحرقوا الجامع ، وبذلك دخلت سمرقند فى حوزة المغول سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠(١٩) .

وبعد أن امتلك المغول بخارى وسمرقند ، أعد جنكيزخان جيشـــا يتألف من عشرين ألف مقاتل ، وأمر قائده بالتوجه الى خوارزم شـــاه والبحث عنه أينما وجد « ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخـــذوه » ،

(17) Howorth : Hist. of the Mongols 1. p. 77.

(١٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٦هـ .

(١٩) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٨ .

فسارت جيوش المغول تتعقب خوارزمشاه الذى أخذ يضرب فى الأرض ، وينتقل من بلد الى بلد ، وجند المغول تطارده ، وانتهى به المطاف الى الاستنداد — وهى من أمنع النواحى فى اقليم مازندران — وباغته المغول فلجأ الى احدى جزر بحر قزوين(٢٠) وقد انتابه اليأس من الحياة ، ومرض ، وكان يقول : « لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر ، فما الدنيا لساكنها بدار ، ولا ركونه اليها سوى انخداع واغترار » . وأقام بالجزيرة فى عزلة تامة يعانى المرض وكان أهل مازندران يقدمون اليه كل ما يشتهى ، وقبل وفاته سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م أوصى بالسلطنة من بعده لابنه جلال الدين(٢١) .

وولى جلال الدين منكبرتى السلطنة بعد أن سيطر المغول على بلاد ما وراء النهر — أهم أجزاء دولته المتداعية — وامتلكوا اقليم مازندران رغم حصانته ومناعته ، ثم اتجهوا الى الرى ، وفى الطريق التقوا بالملكة تركان خاتون — والدة السلطان علاء الدين — وقد غادرت خوارزم على أثر تهديد المغول ، ولم تر فيه دار قرار واستصحبت ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه ، وقبض المغول عليها ، واستولوا على ما معها من ثروات هائلة . وهكذا قضت الملكة أيامها الأخيرة فى أسر المغول ، وجدير بالذكر أن تركان خاتون كانت ذا مهابة ورأى ، تنظر فى المظالم ، وتحكم فيها بالعدل ، وتنصف المظلوم من الظالم ، ولها اصلاحات كثيرة ، وكان لها من كتاب الانشاء سبعة من مشاهير الكتاب(٢٢) .

باغت المغول الرى على حين غفلة من أهلها ، وملكوها ونهبوها ، واسترقوا نساءها ، وقتلوا أطفالها ، ثم غادروها فى طلب خوارزمشاه ، وعاثوا فى البلاد التى مروا بها نهبا وفسادا ، واقتربوا من همذان ، فقدم أهلها للمغول الأموال والهدايا ، حتى يكفوا عن قتلهم ، وسيطر المغول على هذه البلدة ، ثم زحفوا الى قزوين ، وامتلكوها عنوة وقهرا(٢٣) ، وبذلك سيطر المغول على بلاد العراق العجمى .

---

(٢٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧هـ .
(٢١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٠٦ـ١٠٧ .
(٢٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٩٩ .
(23) D'ohsson : Histoire Des Mongols. tom. i. p. 243.

أثار المغول الرعب فى بلدان الدولة الخوارزمية حتى ان اقترابهم من مدينة أو قرية ، يثير الفزع فى النفوس ، فيهجرون بلدانهم ، أو يقدمون فروض الولاء والطاعة لأعدائهم ، وبذلك استسلمت البلاد الاسلامية للمغول فى سهولة ويسر ، الا أن استسلام الأهلين لم ينجيهم من بطش المغول ، وويلاتهم ، وظل المغول يواصلون تقدمهم حتى بلغوا تبريز — عاصمة أذربيجان — ويحكمها أوزبك بن البهلوان ، وهو شيخ بلغ من العمر أرذله ، يقضى وقته فى الشراب ، ولا يكاد يفيق ، ولما اقترب

المغول من بلاده ، أرسل اليهم المال والهدايا والثياب والدواب وصالحهم ثم اتجهوا الى ساحل البحر حيث المراعى الكثيرة اللازمة لدوابهم ، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موقان ، ودخلوا فى معارك حامية مع أهالى بلاد الكرج ، وهزموهم ، وامتلكوا مراغة سنة ٦١٧هـ(٢٤) ، وبذلك سيطروا على أذربيجان وبلاد الكرج .

شرع جنكيز خان بعد أن امتلك بلاد ما وراء النهر وبلاد العراق العجمى وأذربيجان الى السيطرة على خراسان وخوارزم حتى يتم له السيطرة على بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة ، فأعد جيشين ، الأول عبر جيحون وقصد مدينة بلخ ، وطلب أهلها الأمان فأمنهم المغول سنة ٦١٧هـ ولم يتعرض المغول لهم بالقتل والنهب وأدخلوا البلدة فى حوزتهم ، وواصلوا تقدمهم فى بلاد خراسان ، فسقطت البلاد فى أيديهم ، البلدة تلو الأخرى(٢٥) ثم حاصروا مرو ، وشددوا عليها الحصار حتى استسلمت وأمعنوا فى قتل أهلها ، ونهبوا البلدة ، وضموا اليهم أرباب الحرف والصناعات من سكان مرو ، ويقال أنهم اجهزوا على أهل البلدة جميعهم حتى بلغ عدد القتلى سبعمائة قتيل ، ثم ساروا الى نيسابور ، فامتلكوها بعد حصار دام خمسة أيام ، وارتكبوا مع أهلها من الفظائع ما ارتكبوه مع غيرهم ، وأقاموا فى البلدة خمسة عشر يوما ينهبون ويدمرون ، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا طوس ، وامتلكوها ثم ساروا الى هراة ، وبسطوا سيطرتهم عليها ، ومنها اتجهوا الى غزنة ، فالتقوا

---

(٢٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧هـ .

(25) Howorth : Hist of the Mongols. p. 93.

بالسلطان جلال الدين منكبرتى ، ودارت معركة انتصر فيها خوارزمشاه على أعـــدائه(٢٦) .

أما الجيش المغولى الذى اتجه الى خوارزم ، فقد لقى مقاومة باسلة من أهلها ، ودارت بين الفريقين معارك ضارية ، وصمد أهل خـــوارزم للحصار الذى دام خمسة اشهر ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وبلـــغ الأمر بالمغول أن أرسلوا الى جنكيز خان يطلبون منه النجدة وأمدهم بجيش كبير ، وتمكنوا من الاستيلاء على خوارزم بعد لأى وعنـــاء ، وبعد أن امتلك المغول خوارزم بعـــد هـــذا الجهد والشاق والتضحيات الكثيرة قتلوا كل من فيه ، ونهبوا كل ما فيه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل فتحوا ماء جيحون على خوارزم فغرقت البلد ، وتهدمت الأبنية ، ولم يسلم من البلدة أحـــد ، فمن اختفى من النار اغرقه المـــاء ، ومن سلم من المـــاء قتله الهـــدم ، فأصبح البلد خرابا يبابا ، كأن لم يغن بالأمس(٢٧) .

ولى السلطان جلال الدين منكبرتى ـــ كما رأينا ـــ فى وقت حرج ، اذ استولى المغول على معظم المملكة ، ونهبت خزائنها ، ومزق جيشها ، وكان جلال الدين شجاعا مقداما ، اعتزم استرداد ملكه السليب ، وطرد الغزاة المعتدين عن بلاده ، واستطاع جمع شـــمل جنـــده المبعثرين فى البلدان الخوارزمية ، واقام فى غزنة بعد أن استردها من المغول ، ونظم جيشا قوامه ستين الف مقاتل ، وقد ازعج ذلك جنكيز خان ، فعول على التخلص من خصمه ، وارسل جيشا الى غزنة ، ألتقى بالجيش الخوارزمى فى معركة حامية الوطيس ، انزل الله فيها نصره على المسلمين ، وانهزم المغول شر هزيمة ، وقتل المسلمون منهم كثيرين(٢٨) ، وكان لهذا النصر اهمية كبيرة فى البلاد الاسلامية التى فرقتها هزائم المغـــول المتكررة ، وعاش اهلها فى يأس وقنوط وتمزق فارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين، فتيقظوا وثاروا على المغول ، وقتل أهل هراة واليهم المغولى(٢٩) .

سار جلال الدين على سياسته الرامية الى طرد المغول من بلاده ،

---

(26) D'ohsson : Histoire des Mongols. 1. p. 325.

(٢٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧هـ .

(28) D'ohsson : Histoire Des Mongois. tom. i. p. 267.

(29) IBID p. 268.

وأرسل الى جنكيز خان يتوعده ويهدده ويقول : « فى أى موضع تريد يكون الحرب حتى نأتى اليه » فلم يتغاض جنكيز خان عن هذا التهديد ، وشن الحرب من جديد على جلال الدين الذى أصبح يشكل خطرا على مملكته المترامية الأطراف ، ولكن السلطان الخوارزمى انتصر مرة أخرى على جيش جنكيز خان ، وقتل الكثير من المغول ، وغنم الخوارزميون ما معهم واسترد للمسلمين أسراهم من العدو ، لكن الخوارزميين انشغلوا بجمع الغنائم ، وكانت تفوق كل وصف ، وتنازع جند السلطان حول الغنائم نزاعا أدى الى انقسام خطير فى الجيش وعجز السلطان عن تداركه ، وفارق فريق من الجيش الخوارزمى المعركة بقيادة بغراق الى بلاد الهند ، وحاول جلال الدين عبثا أن يثنى هذا الرجل عن عزمه ، وأوضح له خطورة عمله هذا على الاسلام والمسلمين ، وألح عليه فى ترك الخلاف والشقاق بل بكى بين يديه(٣٠) ، لذلك ضعف أمر جلال الدين بمفارقة معظم جيشه له ، ونهض اليه عدو الله بجيوشه ، ودارت المعركة بين الجمعين على حافة نهر السند ، وكادت أن تدور الدائرة على المغول ، لولا أن نصب جنكيز خان كمينا أدى الى قتل كثير من الخوارزميين ، وحلت الهزيمة بالمسلمين ، وكان الرجل منهم يأتى النهر فيهوى بنفسه فى تياره ، وهو يعلم أنه لابد غريق « وأن ليس له الى الخلاص طريق » وأسر ولد جلال الدين ، وكان غرا فى الثامنة من عمره وقتل بين يدى غريمه جنكيز خان ، ولما عاد جلال الدين الى حافة السند كسيرا ، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بأعلى صوتهن : بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن فغرقن ، « وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب »(٣١) . وعبر جلال الدين نهر السند مع أربعة آلاف من رجاله متجهين الى الهند « حفاة عراة كأنهم أهل النشور ، حشروا فبعثوا من القبور » وقد أعادت الهزيمة التى لحقت بالخوارزميين الى المغول هيبتهم ، واستردوا قوتهم ، وامتلكوا غزنة التى كانت خالية من الجند ، وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم ، وأسروا النساء ودمروا البلدة تدميرا ، حتى أصبحت غزنة خرابا دمارا(٣٢) .

اعتزم جلال الدين استرداد قوته فى بلاد الهند ، واستعان بسلطان دهلى . لكن التمش توجس خيفة من جلال الدين ، وقضى فى الهند ثلاث

---

(٣٠) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٥٥ وما بعدها .
(٣١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٥٨ وما بعدها .
(٣٢) المصدر السابق .

سنوات ، واشتبك مع سلطان دهلى فى عدة معارك وخشى قباجة — حاكم السند — من اقامة الخــوارزميين فى ولايته ، لأنها قد تؤدى الى تعقب المغــول لهم ، وما ينجــم عن ذلك من خطر داهم على بــلاده ، ولكن جلال الدين أوقع بهم الهزيمة ، ولمــا علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القــدوم الى الهند ، والنيــل منه ، سار الى دهلى ، وســأل سلطانها — ألتمش — أن يعطى جنــده حــق الاقامة فى دهلى ، لــكن السلطان المملوكى اعتذر بحجة أن حرارة الجو فى دهلى لا تناسب الخوارزميين ، ذلك أن سلطان دهلى خشى أن ينضم جند الترك فى دولته الى ســلطان الخوارزميين جلال الدين منكبرتى . وأرسل اليه يراوغه ويوادعه ويقول : ليس بخفى ما وراءك من عــدو الدين ، وانت اليــوم سلطان المسلمين وابن سلطانهم ، ولست أستحل أن أكون عليك عونا للزمان ، وعدة للحدثان ، ولا يليق بمثلى أن يجرد السيف فى وجه مثلك الا اذا اضطره اليه دفاع أو ســـــاقه اليــــه تحرز واقتنــاع ، وان رأيت زوجتــك بابنتى لتحتكم الثقــة(٣٣) .

وعلم السلطان جلال الدين أن ألتمش — سلطان دهلى — وسائر ملوك الهند وراجاتها وأصحاب ولاياتها قد تآمروا على طرده من ديارهم ، ولم يتغاض جلال الدين عن موقف سلطان دهلى العدائى منه ، فاشتبك مع قواته بالقرب من دهلى ، ثم انســحب الى لاهــور ، وكثر جمــع جلال الدين بما وفد عليه من الجند التابعين لأخيه غياث الدين — حاكم العراق — كذلك انضمت اليه قبائل الكهكرية الهنــدية — وكانوا ناقمين على قباجة — فكثر جمعه واشتد بأسه ، وعظم أمره ، وتمكن من انتزاع بعض البلدان من والى السند(٣٤) .

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه الى الهند ، الاقامة فيها ، وانما كان يهدف الى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته ، ويعود الى بلاده وقد واتته الفرصة للانتقــام من المغول ، وشن الحــرب ضدهم ، واستعادة ملكه السليب حين توفى جنكيز خان — قاهر الخوارزميين — وأعقبت وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التى تحتل أقاليم الدولة

---

(٣٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٦٨ .

(٣٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٦٨-١٦٩ .

الخوارزمية الى مواطنها الأصلية ، فعبر جلال الدين نهر السند سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م ، وقصد ايران ، واشتبك مع المغول فى عدة معارك(٣٥) .

عادت معظم بلدان الدولة الخوارزمية الى حوزة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ولجأ اليه حكام المدن والبلاد الخوارزمية يعلنون ولاءهم وبهجتهم بالتخلص من حكم المغول وأبقى بعضهم على ما بيده ، وعزل بعضهم « وأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب ، واطفأت من نيران الفتن ما التهب ، وتفرقت العمال والوزراء فى الأطراف بتواقيع السلطان فضبطوها »(٣٦) .

وبذلك استرد هذا السلطان الشجاع ملكه وسلطانه على أقاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران ، على أن بلاد ما وراء النهر بقيت فى أيدى المغول .

خلف اجتاى Ogtai جنكيز خان ، وعول على استرداد البلاد التى آلت الى جلال الدين ، وسير جيشا كبيرا الى الرى فانتزعها ، واستولى على همدان سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م وطارد المغول السلطان جلال الدين ، وتعقبوه فى موقان وتبريز وفى أذربيجان ، واتجه الى آمد ، فهزمه المغول هناك ، وشردوا رجاله ، وقتل المغول كل من تبعه فى فراره ، وظل السلطان يتنقل من بلد الى بلد ، والمغول تلاحقه أينما سار واتجه ، حتى وصل الى جبال كردستان ، وقد شك فيه بعض الأكراد وأخذوه وسلبوه كعادتهم بسائر من ظفروا به ، فحين هموا بقتله ، قال لكبيرهم سرا : « انى أنا السلطان فلا تستعجل فى أمرى ، ولك الخيار فى احضارى عند الملك المظفر شهاب الدين ، فيغنيك ، أو ايصالى الى بعض بلادى فتصير ملكا » فرغب الرجل فى ايصاله الى بلاده ، وتركه عند امرأته ومضى بنفسه الى الجبل لاحضار خيله ، ولكن هاجم المنزل رجل من الأكراد ، وقتله بعد أن تعرف عليه ، ثأرا لمقتل أخ له على يديه سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م (٣٧) .

---

(35) D'ohsson : Histoire Des Mongols. tom. iii. p. 11.

(36) IBID.

(٣٧) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٣٨١ .

وهكذا كان مصير هذا السلطان الشجاع ، وبوفاته زالت الدولة الخوارزمية .

تتابعت انتصارات المغول وفتوحاتهم ، واستولوا على أذربيجان وبلاد أران وغالبية مدن جورجيا وأرمينية الكبرى ، وزحفوا الى شمال العراق ، وهددوا أقاليمه الشمالية ، واشتبكوا عدة مرات مع جيش الخلافة العباسية لاختبار قتها .

وبعد أن هز جنكيز خان بفتوحاته أركان الدول مرض سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م وشعر بدنو أجله ، فاستدعى أولاده ، وأوصاهم بأن يخلفه ابنه اكتاى لمزية رأيه المتين وعقله الرزين ، وأوصاهم بقوله : « اعلموا يا أولادى النجباء انه قد قرب سفرى الى دار الآخرة ودنا أجلى ، وأنا بقوة الاله والتأييد السماوى استخلفت مملكة عريضة ... فوصيت اليكم انكم على رأى واحد حتى تعيشوا فى نعمة وعز ودلال »(٣٨) .

لما توفى جنكيز خان شكل أبناءه وأفراد أسرته مجمعا يسمى قور يلتاى ، واجمعوا على مبايعة أكتاى خلفا لأبيه حسب الوصية ، ولقبوه قا آن ، أى ملك أو سلطان ، وفى سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م توفى هذا السلطان وخلفه ابنه كيوك ، فقسم المملكة بين أولاده واخوته ، وأقطع البلاد الغربية وتحصيل الأموال لهولاكو ، وولى ارغون أغا على هندوستان وخراسان ومازندران والعراق وفارس وكردستان والموصل والشام ، وفى عهد هذا السلطان نجت بلاد الهند من شر المغول .

عهد منكوقان — خاقان المغول فى قراقورم — لأخيه هولاكو بالتوجه الى العراق والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن ، والسيطرة عليها ، وأوصاه بالمحافظة على تقاليد جنكيز خان وقوانينه فى الكليات والجزئيات .

زحف هولاكو بجيشه الى بغداد ، وقضى فى طريقه على طائفة الاسماعيلية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٢م ، وهاجم بغداد وكان الخليفة العباسى المستعصم بالله رجلا لين الجانب ، ضعيف الوطأة ، سهل العريكة ، قليل الخبرة ، واقتحم المغول حاضرة الاسلام الكبرى ، ودمروا وخربوا المساجد

---

(٣٨) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٤٢٨ .

والقصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة ، وأباحوا القتل وسفك الدماء أربعين يوما ، واندلعت في بغداد السنة النيران في كل جانب وأتت على الأخضر واليابس ، ودمرت بغداد وخربت ، وبسقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٤م زالت الدولة العباسية ، وضعف أمر المسلمين ، وقصد أمراء المسلمين هولاكو ، وقدموا له فروض الولاء والطاعة حتى لا يتعرضوا لأعمال المغول التخريبية .

وتعرضت بلاد الهند لتهديد المغول بعد سقوط بغداد ، فقد سمعوا عن ثروتها ، وأعد بلبن العدة لصد الأعداء عن بلاده ، وبقي في دهلي لا يغادرها ، وحصن دهلي حتى لا تتعرض لما تعرضت له بغداد من ويلات وشرور ، وأعاد بناء القلاع التي دمرت على الحدود بسبب غزوات المغول السابقة ، وأقام تحصينات جديدة مزودة بالجند والسلاح ، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات وأسند القيادات العسكرية إلى رجال أكفاء ، وعين ابنه الشجاع محمد حاكما على الملتان ، وكان لخطته الدفاعية أثرها الكبير في درء خطر المغول عن بلاد الهند(٣٩) .

على أن العلاقات السياسية عادت وتحسنت بين الدولتين المغولية والمملوكية في الهند ، وأرسل هولاكو سفارة إلى دهلي محملة بالهدايا ، واتفق الطرفان على احترام السيادة الإقليمية لكل منهما وانسحب المغول من الأراضي الهندية التي كانوا قد احتلوها(٤٠) .

تطلع المغول في فارس إلى السيطرة على بلاد الهند للحصول على ما فيها من ثروات هائلة ، وتقدم عبدالله — حفيد هولاكو — خان فارس — بجيش قوامه ١٥٠ ألف مقاتل إلى بلاد الهند ، وحينما علم جلال الدين خلجي — سلطان دهلي — بذلك أعد العدة لدفع الخطر عن دياره ، وغادر عاصمته دهلي ، واشتبك الطرفان في عدة معارك صغيرة ، قصد منها اختبار كل من الفريقين لقوة الآخر ، ثم وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين ، هزم فيها المغول ، ومزقوا شر ممزق ، ووقع من نجا من المعركة في الأسر ، ومن بينهم الكثير من فرسان المغول وقادتهم ، ودارت

---

(39) Munshi : The Struggle For Empire. p. 193.

(40) Munshi : The Struggle for Empire. p. 193.

مناوضات بين الفريقين انتهت بترتيب اجتماع بين عبدالله وجلال الدين ، واجتمع الزعيمان ودارت مفاوضات مباشرة ، انتهت باتفاق ودى بمقتضاه عاد عبدالله الى وطنه ، وبقى ألغو — وهو من أحفاد جنكيز خان — مع بعض الجند فى بلاد الهند ، واعتنق الاسلام وزوجه جلال الدين واحدة من بناته ، والتحق هو واربعمائة من رجاله بالسلطان الخلجى فى دهلى بأسرهم ، واستقبلوا خير استقبال ، واقام لهم سلطان دهلى مستعمرات يقيمون فيها وهى غازيور — أندرابت — كلفارى — تالوك ، وسميت أرض المغول — مغول بورا — واختلطوا بأهل سلطنة دهلى ، وسموا بالمسلمين الجدد(٤١) .

عاد خطر المغول يدق أبواب الهند من خانات جغتاى فى بلاد ما وراء النهر ، وتاريخ أولاد جغتاى ناقص ويحيط به الغموض ، وليس لدينا من المعلومات الصحيحة عنه الا ما ورد بخصوص الغارات على حدود ايران أو الهند ، وكذلك الصراع الداخلى بين أمراء آل جغتاى .

على أن تلك الغزوات المغولية فى بلاد الهند لا يمكن مقارنتها بتلك التى حدثت فى عهد السلطان علاء الدين ، فقد اتسمت بالعنف والقوة والقهر ، ففى سنة ١٢٩٧ ارسل دافا — خان بلاد ما وراء النهر — جيشا يتألف من مائة الف مقاتل الى البنجاب بقيادة قائده كادار Kadar واخترق الجيش المغولى — كما جرت العادة بلاد الهند من ناحية الشمال الغربى — واحرقوا القرى التى مروا بها ودمروها تدميرا ، ثم دخلوا سهول البنجاب ، وعاثوا حول لاهور فسادا وتخريبا ، وكان زحف المغول فى الهند يلقى الفزع والرعب فى أرجائها ، فيهجرون قراهم ويتركون ديارهم ، ويخشون من التصدى للمغول اعتقادا منهم أنهم قوم لا يقهرون، وأن من يعترضهم لا محالة هالك(٤٢) .

أعد السلطان علاء الدين العدة لدرء خطر المغول عن بلاده ، وأسند قيادة جيشه الى يلغ خان ، وسيره الى مواقع المغول فى الهند ، والتقى الجمعان فى معركة حامية الوطيس بالقرب من جلندهار ، وهزم فيها المغول

(41) Lal : pp. 30-31.

(42) Lane Poole : Muhammedan Dynasties. p. 215.

شر هزيمة ، ويقال أن عدد قتلى المغــول بلغ ٢٠ ألفا ، وأسر عدد كبير من مقاتليهم ، قتلوا جميعا فى مذبحة مروعة ، وأرسل القائد يلغ خان الى السلطان علاء الدين رسالة يبشره فيها بالنصر ، وأرسل أيضا الى دهلى رؤوس قتلى المغول ، والسبى من النساء والأطفال(٤٣) .

ومما لا شك فيه أن هذا النصر المؤزر قد أنقذ مملكة دهلى من كارثة مروعة كادت أن تعصف بها ، كما أدى هذا الانتصار الى تقــوية مركز علاء الدين فى دهلى أمام اعــدائه المتربصين به(٤٤) .

على أن المغول لم يتغاضوا عن هذه الهزيمة المروعة التى حلت بهم ، بل تحينوا الفرص المناسبة للانتقام من سلطنة دهلى ، ففى سنة ١٢٩٩، انتهز المغول فرصة انشغال القائدين يلغ خان ونصرت خان فى اخضــاع اقليم الكجرات ، واخترق جيش المغول بقيادة سالد Sald حدود الهند ، وشنوا حربا على سلطنة دهلى تحدث عنها فرشته وبارانى(٤٥) ، بينما لا يذكر أمير خسرو مجرد اشارة عن هذه الحملة ، ومهما يكن من أمر فقد هاجم المغول اقليم سيفستان فأمر السلطان علاء الدين قائده بالمســارعة الى سيفستان لصد المغول عنها ، وطردهم من الهند ، وأدى ظفر خان واجبه الوطنى خير أداء ، فشدد هجماته على المغول حتى هزمهم وأعمل رجــاله السيف فى رقابهم كيــف شــاءوا ولاذ من نجــا منهم بالفــرار ، ووقع فى الأسر كثيرون ، واسترد ظفر خان سيفستان وأرسل الى دهلى الأسرى من الجنسين ، ومن بينهم القائدى سالدى وأخيه(٤٦) .

وتتضارب أقوال المؤرخين عن غزو المغــول للهند فى هذه الفترة فيقول فرشته ان دافا ــ خان ما وراء النهر ــ وأخاه سالدي اســتوليا على سيفستان ، بينما لا يذكر بارانى أن دافا كان مع أخيــه سالدى فى غزو سيفستان ، والواقــع أن دافا كان طــوال هذه الفترة مشــغولا بالصراعات السياسية فى وسط آسيا ، وأرسل أكثر من قائــد من قواده

(43) Lat : Hist of the Khaljis. p. 130.

(٤٤) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٥٢ .

(٤٥) تاريخ فرشته ، ص١٠٣ .

بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص٢٥٧ .

(46) Lat : Hist. of the Khaljis. p. 132.

المغربين لضم سيفستان الى حوزته(٤٧) ، كما أن دافا لا يمكن أن يستسلم لحرب بسيطة كالتى حدثت أمام سيفستان . ويذكر بارانى وفرشته أن سالدى وأخاه أسرا وسيقا الى دهلى حيث قتلا ، كما جرت العادة مع أعداء السلطنة . ومن ناحية أخرى فقد بقى دافا على قيد الحياة حتى سنة ١٣٠٦م(٤٨) . وعلى ذلك فلا صحة لما قاله فرشته بأن دافا كان مع سالدى فى الحرب أمام سيفستان . أما المؤرخون فيذكرون أنه كان على رأس المعركة سالدى وأخاه ، ولا يذكرون اسم دافا . يضاف الى ذلك أنه لو كان دافا على رأس المعركة لبرز اسمه فى روايات الرواة وكتب المؤرخين(٤٩) .

وأثار انتصار ظفر خان فى هذه المعركة اعجاب الناس ، غير أن علاء الدين أخذ يتوجس شكا وريبة من قوة ظفر خان ومقدرته الحربية ، كما أن القائد يلغ خان شعر بنفس شعور السلطان أيضا ، لأن انتصار ظفر خان على المغول ، قد أنسى الناس انتصاره هو — أى يلغ خان — فى الكجرات والملتان ، ومهما يكن من أمر فقد عسكر ظفر خان فى سامانا Samana لمراقبة تحركات المغول فى الغرب ، لأن المغول لن يتغاضوا عن الهزائم التى لحقت بهم فى الهند ، لكن السلطان علاء الدين تناسى فضل هذا القائد الشجاع ، وفكر فى سمل عينيه أو ابعاده الى البنغال(٥٠)، ولكن التطورات السياسية الجديدة جعلت هذا القائد يعدل عن موقفه البغيض من قائده الشجاع(٥١) .

قلنا ان ما وراء النهر المغولية لا يمكن أن تتغاضى عن الهزيمة المروعة التى لحقت بجيشها أمام سيفستان ، فقرر خانها الانتقام من هذه الهزيمة وازالة العار الذى لحق به ، ففى سنة ١٢٩٩م أرسل جيشا كبيرا بقيادة كتلغ — وأجى — ابنه — الى الهند ، وعدة هذا الجيش عشرين ألف مقاتل ، مدربين خير تدريب(٥٢) ، وعبر الغزاة نهر السند ، وزحفوا

(٤٧) تاريخ بارانى ، ص ٢٥٥
(٤٨) تاريخ فرشته ، ص ١٠٣ .
(٤٩) تاريخ فرشته ، ص ١٠٣ .
(50) Hist. of the Khaljis. p. 133.
(51) IBID. p. 234.
(٥٢) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٥٤ .

بسرعة حتى اقتربوا من دهلي دون أن يزعجوا القرى التى مروا بها ، واقترب خطرهم وشرهم من دهلي ، الأمر الذى أدى الى فزع وجزع أهل دهلي والقرى المجاورة لها ، فهجر بلـــده كل من تيسر له الهجرة ، وحاصر المغول دهلي (٥٣) وحشدت الحكومة الهنـــدية عددا كبيرا من الجند والمتطوعة حتى امتلأت العاصمة بهم ، بل لم تستطع الحكومة تدبير اقامة الكثير منهم . وفي نفس الوقت شـــدد المغـــول حصارهم لدهلي ، واستولوا على البضائع والمؤن والمعدات التى حملتها القوافل المتجهة الى دهلي(٥٤) . الأمر الذى أدى الى قلة الأقوات فى دهلي ، وبالتالى رفـــع الأسعار ، فناشد السلطان علاء الدين ولاة الأقاليم بارسال الميرة والمعدات الى دهلي بسرعة وبدون ابطاء ، وفي نفس الوقت بذل جهودا مكثفة لتقوية وسائل الدفاع عن الحاضرة الاسلامية الكبرى ، وعهد الى أحـــد رجاله المقربين بأن ينوب عنه فى حكم دهلي ومنحه سلطاته بصفة مؤقتة ، ريثما ينتهى من الحرب ، وخرج هو على رأس جيشه الى Kili ، وعســـكر بالقرب من القوات المغولية بقيادة كتلغ خواجى(٥٥) .

وكان الجيش الهندى يعسكر فى موضع آمن من Kili وتحميـــــــه الحشـــائش والأدغال والغـــابات من كل جانب ، وانضم حكام البنجـــاب والملتان وسامانا بجندهم الى سلطان دهلي ، وانضم اليه بعض راجـــات الهنود من أقدر المحـــاربين وأشجعهم ، وقسم علاء الدين قـــواته الى فرق ، ووزع الفيلة بينها ، وأمر كل جندى بألا يبرح موضعه بدون أمر منه ، وبث علاء الدين روح الحماس بين جنده ، وحثهم على التضحيـــة بالنفس لدرء الخطر المغولى عن ديارهم ، وأدار المعركة بكفاءة ومهـــارة وشجاعة(٥٦) ، وعلى الرغم من ضغط المغـــول على قواته ، وشدة عنف هجماتهم ، فان الدائرة دارت عليهم ، ومزقوا شر ممزق ، ولم ينج منهم الا الشريد ، وأعمـــل فيهم المسلمون السيف كيف شاءوا حتى أفنـــوهم ، وتمكن علاء الدين من فك أسر المسلمين الهنود ، وأنقذهم من شرورهم(٥٧) .

على أن ظفر خان الذى كان يقود أحد أجنحة الجيش قد انفـــرد

---

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(٥٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(55) Lal. p. 137.

(٥٦) تاريخ فرشته ، ص ١٠٣ .

(٥٧) تاريخ فرشته ، ص ١٠٣ .

بحرب فريق من المغول يفوق جنـده عددا ، لذا أمر رجاله بشن هجوم يائس على العدو وتقهقر المغول أمام هجماته القوية ، فتمكن منهم ونكـل بالكثيرين ، وفى نفس الوقت أعد كمينا للمغول أثناء انسحابهم ، سـقط فيه حوالى عشرة آلاف ، ومع ذلك كان جيش ظفر خان لا يزيد عن ألف فارس ، وجيش المغول أضعاف عددهم . ولم يكتف ظفر خان بما أحرزه من نصر بل اعتزم الدخول بجنده القليل مع العدو فى معركة فاصلة ، ورفض كل الرفض فكرة الانسحاب من المعركة حتى لا يعاقبه السلطان بتهمـة الجبن . ودارت معركة يائسـة بين الفريقين حمى فيها وطيس القتال(٥٨) ولم يكن الفريقان متكافئين بسبب قلة عدد جند دهلى بالنسبة للمغول ، وقتل مع ذلك من الهنود ثمانمائة ، ولم يبق مع ظفر خان سوى مائتين ومع ذلك ظل يواصـل القتال بجنده القليـل ، وأظهر من ضروب البطولة والشجاعة ما صار مضرب الأمثال ، فقد قتل من المغول فى هذه المعركة الضارية خمسة آلاف مقاتل ، وظل ظفر خان يحارب حتى قتل حصانه فوقف على قدميه ، وواصل الحرب ، وتحدثت المصادر المعاصرة عن شجاعتـه حديثا يدعو الى الاعجـاب ، ولم يحظ القائد الشـجاع بتقـدير الهنود فقط ، بل أعجبت شجاعته ومقـدرته القتالية الأعـداء أيضا . ولمـا ضعف ظفر خان عن المقـاومة ، ولم يعد فى اسـتطاعته مواصلة القتال ، ولاحظ قائد المغول ذلك ، أرسل اليه يعرض عليه العفو والأمان ، ويطلب منه الدخـول فى خدمته ، لكن القـائد المسلم الشجاع رفض هذا العرض ، وآثر أن يموت فى ميدان القتال شريفا غير خائن ، شهيدا فى سبيل الله والوطن ، وفعلا ظل يقاتل حتى قتل .

وبعد هذا النصر المؤزر عاد علاء الدين من كيلى ولم يزعجه نبأ مقتل ظفر خان ، لأنه يخشى بأسه ويشك فى نواياه نحوه ، ومما لا شك فيه أن هذا الانتصار الخلجى الرائع على المغـول قد جنب بلاد الهنـد من ويلاتهم وشرهم المستطير فترة من الوقت ، حتى ان المغول أمضوا وقتا لم يفكروا فيه فى غزو الهند ، بعد أن وقفوا على حقيقة قوة سـلطنة دهلى ، وكفاءة سلطانها ، وعظم بأسه ، ومقدرة جيشه القتالية ، وانصرف المغول الى شؤونهم الداخلية فى وسط آسيا .

على أن علاء الدين لم يطمئن الى فترة الهـدوء التى انصرف فيها

---

(٥٨) المصدر السابق .

المغول عن الهند ، بل ظل يترقب هجوما متوقعا منهم ، ويتتبع الأحداث السياسية فى وسط آسيا ، وفى نفس الوقت يعد العدة ، ويتأهب عسكريا واقتصاديا لغزو مغولى مفاجىء(٥٩) .

وباقتراب سنة ١٣٠٢ سار علاء الدين الى دكا عن طريق البنغال ، وهاجم شيتور فى مستهل سنة ١٣٠٣م ، وهناك علم بأن المغول أعـدوا قوة ضاربة لغزو سلطنة دهلى من جديد(٦٠) .

وجاء الغزو المغولى فى وقت حرج للغاية بالنسبة للسلطان عـلاء الدين ، ذلك أن جيشه قد أنهكه الهجوم على شيتور ، وتبددت الكثير من معداته ومؤنه ، كما أن الجند مات أو مرض أكثرهم أثنـاء عودتهم الى دهلى عن طريق صحراء الثار القاحلة ، واقترب المغول من دهلى بقيادة تارغى Targhi على رأس ١٢٠ الف جندى وكان عـلاء الدين أن يمد العدة بسرعة لانقاذ دهلى من هذا الخطر الداهم(٦١) ، وأصدر أوامره الى ولاة الأقـاليم فى دولته فى الشرق والغرب لارسـال النجـدات الى العاصمة ، والاستعداد لقهر الغزاة المغول ، ودفعهم عن البلاد .

واقترب المغول من دهلى ، وأثار قائدهم حماس جنده ، وحثهم على الانتقام مما لحق بكتلغ خواجى وجنده ، ودعاهم الى الحـرب بشجاعة وحماس حتى لا تتكرر مأساة الهزيمة المروعة السـابقة ، وحتى يمكن الانتقام لقتلاهم . وقد فزع علاء الدين من هذا الهجوم لأن النجدات التى طلبها من ولاة الأقاليم لم تصله بعد ، فجمع جنده فى سهول سيرى Siri كما أبقى فريقا من الجند فى دهلى . ولـما كان من الخطورة محاربة المغول فى أرض مكشوفة وجها لوجه بسبب قلة جنـد دهلى بالنسبة للعـدو ، فقد قرر علاء الدين تقوية وسائل الدفاع عن المدينة ، وكانت أضعف نقطة دفاعية عن دهلى تقع فى شمالها ، أما الجهات الأخرى فتحيط بها الادغال والغابات والمستنقعات ، وقد أقام علاء الدين خندقا حول دهلى . وبذلك

---

(٥٩) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٦١ .

(٦٠) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

(61) Lal : Hist. of the Khaljis, p. 300.

وجد المغول صعوبات بالغة وأهوالا جساما في البحث عن نقطة ضعف تمكنهم من اقتحام دهلى (٦٢) .

وأحكموا الحصار حول دهلى من جميع جوانبها ، وازداد حرج علاء الدين ، النجدات لم تصله ، وجيشه الذى أرسله إلى البنغال عاد ممزقا ، ومنع المغــول المــاء عن دهلى ، وكذلك الميرة وكل ضروريات الحياة ، وكان المغول يسيرون فى جماعات فى بلــدان سلطنة دهلى ، وينهبــون مخازن الحبوب فيها ، بل أرسلوا فرقة نهبت مخزن الحبوب الملكى ، فعم القحط دهلى ، واشتد البلاء ، وقاسى الناس ويلات البؤس والحرمان ، وضعفوا ووهنوا ، على أن الخطــوط الدفاعية الحصينــة التى أقامهــا علاء الدين حول دهلى لم تمكن المغول من اقتحامها .

ودارت بين الفريقين عدة مناوشات لم تؤد الى نتيجــة حاسمة ، ولما طال الحصار ، رأى قائد المغول ان اقتحام دهلى أمر صعب ، ويكلفه ما لا يطيق ، بسبب قوة استحكامات علاء الدين ، لذا نجد قائد المغــول يقرر الانسحاب بعد شهرين من الحصار(٦٣) ، وبذلك أنقذ الله دهلى من خطر داهم وشر جسيم .

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل انسحاب المغول على الرغم من تفوقهم الحربى والعددى عن جيش علاء الدين ، وعن احكامهم الحصار لدهلى ، ومنع المــاء والقوت عنها . وقد أرجــع المؤرخ بارانى هــذا النصر الى الدعوات المخلصة للشيخ نظام الدين الذى عرف عنه التقوى والورع . وعلى كل حال يمكن تعليل انسحاب المغول الى عدة عوامــل ، منها أن السلطان عــلاء الدين تصدى للمغــول بكل ما أوتى من قــوة ، ورفض الاستسلام ، وأحكم خطة الدفاع ، ومن هنا رأى قائد المغول عدم جدوى الاستمرار فى الحصار . كما أن تقوية وسائل الدفاع — كما رأينا — قد أحبط محاولة المغول دخول دهلى . ومن ناحية أخرى فان معارك المغول فى الهند كانت خاطفة وسريعة حتى لا يؤثر استمرار الجيش المغولى فى الهند على موقفهم الحربى فى وسط آسيا .

على أن الغزو المغولى قد دفع علاء الدين الى تقوية وسائل الدفــاع

---

(62) IBID. pp. 140-141. .

(٦٣) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٣٠٢-٣٠٣ .

فى مملكته تجنبا لتكراره من جديد . فقد شيد حصنا وقصرا فى سيرى ، ونقل مقر قيادته هناك ، حتى ان سيرى عرفت بالعاصمة ، وشيد علاء الدين أسوارا عالية ، وضخمة حول البلدة لمنع الغزاة المغول من اقتحامها ، وأصلح القلاع القديمة ، وشيد حصونا على حدود دهلى لمنع المغول من اجتياز الهند من جديد ، وحشد الجنود والضباط فى القلاع والحصون الشمالية ، لمنع المغول من غزو الهند ودرء خطرهم وأعاد تنظيم الجيش وتسليحه ، بأحدث وأقوى المعدات المتطورة وقتئذ .

وبعد أن أعد علاء الدين عدته لهذا الأمر اطمأن الى أن المغول لن يلحقوا بالهند من الولايات ما حدث قبلا ، بل أصبح مستعدا لتلقينهم درسا قاسيا اذا فكروا فى غزو الهند ، وتعريضهم للقتل والتنكيل والتشريد « ويقع نساؤهم أسرى فى أيدى المسلمين ، ويمزق رجالهم سيوف المسلمين وتدمرهم الفيلة »(٦٤) .

على أن المغول قد استاءوا من الهزائم المتلاحقة التى لحقت بهم من سلطنة دهلى ، وعولوا على ضرورة الانتقام من علاء الدين ، فسيروا جيشا كبيرا بقيادة على بك Ali Beg وتارغى وسارتاك ، وكان تارغى يتعطش للثأر والانتقام مما لحق به سنة ١٣٠٣ من خيبة أمل وهزيمة وقتل كتلغ خواجى . ومهما يكن من أمر ، فقد شن المغول حملتهم على الهند سنة ١٣٠٥ ، فى حملة لا تقل ضراوة وشراسة عن حملاتهم السابقة ، ضم جيشهم خمسين ألف مقاتل ، وعبر المغول المنطقة الجبلية فى شمال غرب الهند . ويذكر أمير خسرو أن تارغى لقى مصرعه فى بداية الحرب ، واتجه الجيش المغولى الى دوآب ، وعاث المغول نهبا وفسادا فى البلاد التى مروا بها ، وألحقوا بها الخراب والدمار ، وقد تجنب المغول مهاجمة دهلى لمناعتها وحصانتها ، وأيقنوا من ذلك فى هجومهم عليها سنة ١٣٠٣ ، وساروا مباشرة الى الدوآب وأودة — وهما أعظم بلاد المملكة خصبا ورخاء — ولما اقترب المغول من المدينتين ، أخذ الفزع من سكانها كل مأخذ ، وعمهم الهلع ، فهجروا ديارهم الى القرى والغابات المجاورة(٦٥) .

وحينما علم السلطان علاء الدين بأنباء هذا الغزو المدمر وفزع الأهلين

---

(٦٤) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٧٣ .

(٦٥) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٣٢٠ .

منه ، أعدجيشا من ثلاثين أو أربعين ألف مقاتل لدرء الغـزاة عن أرض الوطن والتقى جيش دهلى مع جيش المغول فى معركة حامية الوطيس ، هزم فيها المغول هزيمة نكراء ، ومزقهم المسـلمون كل ممزق فى أواخـر سنة ١٣٠٥(٦٦) ، وقتل فى المعركة أكثرية جند المغول ولاذ من نجـا منهم بالفرار ، وقد غنم المنتصرون خيولهم ووقع قائدا المغول على بك وتارتاك فى أسر المسلمين وسيقا الى دهلى مكبلين بالسلاسل والأغلال(٦٧) .

وكان لهذا الانتصار الرائع صدى عميقا فى نفوس أهل الهند ، وعقد سلطان دهلى مجلسا يضم كبار رجال الدولة من الأمراء والوزراء وقواد الجيش واستعرض الجيش المنتصر بالمغـانم التى غنمهـا من العدو ، وسيرت الأسرى فى موكب أمام مجلس السلطان ، واجتمع الناس من كل مكان للمشاركة فى هذا الاحتفال الكبير ، وأمر علاء الدين بعرض موكب الأسرى فى دهلى ، ثم قتلهم بعد ذلك . ويقول فرشته أن ثمانمائة رأس مغولى اسـتعملت بدلا من الحجارة لتشـييد قصره فى سيرى ، على أن السلطان امر بحبس قائدى الجيش ، وأنزلهما فى دار خصصها لهما ، ولم يلبث أن أمر بقتلهما .

ولم يكد علاء الدين يتنفس الصعداء من هذا الغزو المغـولى الذى تحدثنا عنه ، حتى غاد المغول من جديد فى سنة ١٣٠٦ لمهاجمة بـلاده انتقاما من مقتل على بك وتارتاك وجند المغول ، ورجت الحملة المغـولية بقيادة كوباك واجتاز بلاد الهند بجيش قوى ، وسـار الى رافى Ravi وخرب البلاد التى مر بها ، وتحرك فريق من المغول جنوبا ، وبلغوا ناجور Nagaur وأحدثوا الرعب فى القرى المجاورة لهذه البلدة .

وكان طبيعيا ألا يتغاضى السلطان علاء الدين عن اجتياز المغول لبلاده فأرسل جيشا لتتبعهم ، وطردهم من مملكته ، وأسند قيـادة جيشه الى ملك نائب كافور وحرص علاء الدين على بث روح الحماس بين جنـده الذين أضناهم كثرة الحروب ، بل أمر بدفع منح مرضية لجنده ، وتقـدم جند دهلى صوب جند المغول ، ووقف الفريقان وجهـا لوجه ، ودارت رحى معركة بين الفريقين ، انتهت بانتصار جيش دهلى على جند المغول

---

(٦٦) تاريخ فرشته ، ص ١١٣ .

(٦٧) تاريخ فرشته ، ص ١١٣ .

انتصارا حاسما ، وتقهقر جيش المغول مغادرا بلاد الهند نهائيا ، وعاد المغول الى بلادهم يجرون أذيال الفشل والخيبة ، وعاد الجيش المظفر الى دهلى مصحوبا بعدد ضخم من أسرى الحرب . ويقول فرشته ان عدد الأسرى المغول قدر بالآلاف . ولما كان علاء الدين شديد الغضب من غزوات المغول المتكررة والتى أشاعت الخراب والدمار فى القرى والبلدان ، فقد كان انتقامه من الأسرى كبيرا ، فأمر بقتلهم تحت أقدام الفيلة ، وبيع نساء وأطفال المغول فى أسواق النخاسة بالهند ، وشيد من جماجم المغول برجا أمام احدى بوابات دهلى(٦٨) .

وهذه الغزوة ، آخر غزوات المغول فى بلاد الهند ، وحدث معظمها فى عهد داؤا خان الذى ولى عرش بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٧٢ ، وتوفى سنة ١٣٠٦ ولقد اضطربت بلاد ما وراء النهر بعد وفاته ، وتعاقب على العرش فى مدى ثلاث سنوات ثلاثة خانات ، ولكن غزوات المغول فى بلاد الهند توقفت بعد وفاة داؤا وأنقذ الله سلطنة دهلى من ويلاتهم وأعمالهم التخريبية وانتهى الوقت الذى كان يعيش فيه الأهلون فى رعب وفزع ، ومما لا شك فيه أن جهود علاء الدين المضنية وشجاعته النادرة هو وقواده كان لها أثر كبير فى درء كل محاولة بذلها المغول للنيل من بلاد الهند . ولما كانت غزنة وكابل تشكلان أهمية استراتيجية كبيرة على أمن الهند وسلامته من ناحية الغرب فقد شرع علاء الدين فى احتلالهما .. وفعلا بسط سلطانه على البلدتين . وبذلك وضع حدا لما كانت تتعرض له الهند من حروب تشن عليها من الحدود الشمالية الغربية وبالذات من غزنة وكابل(٦٩) .

ويجدر بنا أن نناقش أسباب الهزائم المتلاحقة التى حلت بالمغول من جيوش سلطنة دهلى ، وأسباب فشلهم فى احتلال بعض أجزاء من الهند ويمكن القول أن اسطورة جيش المغول الذى لا يقهر قد فات أوانها وولت أيامها ، بعد أن فقد المغول قدرا كبيرا من قوتهم ترجع فى معظمها الى الانقسامات الشديدة بين خانات المغول ، والى انقطاع الصلة بين خان المغول فى بلاد ما وراء النهر ، والخان الأعظم فى الصين ، فضلا عن أن خان بلاد ما وراء النهر شغلته الأحداث السياسية فى وسط آسيا

---

(٦٨) تاريخ فرشته ، ص ١١٢ .

(٦٩) تاريخ فرشته ، ص ١١٤ .

عن تركيز جهوده فى الهند ، ويقال أن دافا غزا وسط آسيا خمسين مرة ، ولمـا رأى أن حروبه هنـاك لا جدوى منها ولا طائل ، أنفذ جيوشـه الى الهند ، وكان ينضم الى جيش المغول فى الهند عناصر غير مدربة على القتال ، وهى الكهكرية والأفغانية ، وهـؤلاء لا يهمهم سوى التخـريب والتدمير والحصول على منافع شخصية ، يضاف الى ذلك أن نوعيـة الجندى المغولى قد اختلفت عنها فى الأيام المبكرة لدولتهم والتى أكسبتهم صلابة وقوة بأس وبالتالى نجاحا وتفوقا ، وفقد جند المغـول ما عرف عنهم من سرعة الحركة والصبر على القتـال ، وتحمل الشدائد ، ويتجلى ذلك فى حروبهم فى الفترة ما بين سنتى ١٣٠٠–١٣٠٣م فقد استـطاع علاء الدين أن يتصدى لهم ، ويدحض كل محاولاتهم التوسعية ، ويوقف كل هجماتهم ، وتعـددت معاركه معهم ، وانتصـاراته عليهم ، حتى نفـد صبرهم وفقدوا المقدرة على مواصلة غزو سلطنة دهلى ، لذا انسحبوا من ميدان القتال مخذولين مدحورين(٧٠) .

يضاف الى ذلك أن دافا الذى كان يباشر الحـرب بنفسه فى وسط آسيا ، لم يفعل ذلك فى الهند ، لذلك لم يتعرف على طبيعة الحرب فيها ، ففى الوقت الذى تفوق فيه فى وسط آسيا ، هزمت جنوده فى الهند مرات ومرات . وبعد وفـاة دافا حـدث تنافس على العرش فى بلاد ما وراء النهر ، صرف المغـول عن فكرة غزو الهند ، ولقـد فطن علاء لدين الى أهمية أفغانستان بالنسبة للهند لأنها قاعدة اتخذها المغول لشن حملاتهم على الهند ، فاستولى على غزنة وكابل — كما ذكرنا — وبذلك أمنت البلاد من غزو المغول الذى كان يأتيها من هذه الجهات عادة(٧١) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن عـلاء الدين كان رجل حرب ورجل دولة ، يضع الخطط الحربية المحكمة ، ويبث روح الحماس فى جنده ، ويعد جيشه خير اعـداد ، فضلا عن شجاعته وذكائه وصبره الذى لا ينفـد .

وتعرضت سلطنة دهلى للغزو المغولى فى عهد السلطان محمد بن تغلق عقب وفاة أبيه . ففى سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م اقتحم تومشير خـان

---

(٧٠) تاريخ فرشته ، ص ١١٦ .

(٧١) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٣٢١–٣٢٢ .

ابن داود خان ــ زعيم قبائل الأولوس الجغتائية الذائع الصيت ــ بــلاد الهند على رأس جيش كبير واستولى على لمغــان والملتــان عند الحدود الشمالية الغربية وواصل زحفه فى بلاد الهند متجها الى دهلى .

ولم يكن محمد بن تغلق على استعداد لصد القائد المغولى عن بلاده ، فأرسل وفدا الى القائد المغولى محملا بالهدايا والأموال اليه ، وما زال مبعوثو السلطان بقائد المغول حتى أقنعوه بالعودة عن الهند ، فانسحب بجيشه الى بلاده .

الغزو التيموري لبلاد الهند

ينتمي تيمور لنك الى فرع كركن ، ونشأ في قرية كش ، وكان أبوه شيخا لاحدى القبائل ، ونشأ تيمور منذ نعومة أظفاره على التمسك بتعاليم الاسلام ، وظهرت شجاعته ونجابته في ريعان شبابه الغض ، وقد بث فيه والده تعاليم وطنية بضرورة تقويض أركان الدولة المغولية ، وكان طموحا يتطلع الى المجد والعظمة ، استوعب منذ صغره كتب الحكمة العالية والقوة الخارقة ، وحمل نفسه على الاباء والحذر من المحيطين به ، كان يمضي وقته في تلاوة القرآن الكريم والصيد والعاب الفروسية والشطرنج .

ارتفع شأن تيمور في بلاد ما وراء النهر حتى تقلد بعض المناصب الرئيسية وأسند اليه الأمير حسين حفيد الأمير الجغتائي قزعان ولاية كش ، ولكنه لم يستمر فيها فقد طرد منها ، ولم يلبث أن عاد اليها بعد لأي وعناء ، ولم يكتف بولايته ، بل سيطر على سجستان وبلخ ، وبذلك ازداد نفوذه وارتفع شأنه وقوي أمره وكثر رجاله ، واشتبك في عدة حروب مع أعدائه ، وما زال ينتقل من نصر الى نصر حتى تمكن من طرد الجغتائي نهائيا من بلاد ما وراء النهر بعد موت تغلق تيمور ، ودخل مدينة سمرقند وأعلن نفسه سلطانا سنة ١٣٦٩م .

واتسع ملكه بأن امتد الى ايران والعراق ، وقضى على الدويلات الصغيرة في تلك الانحاء ، وبرزت فيه آثار القدرة والدهاء والعظمة « بعد أن قارع الملوك ودوخ الممالك » .

تطلع تيمور الى بسط نفوذه على بلاد الهند لما لها من موارد اقتصادية هائلة ، وقد واتته الفرصة بعد وفاة فيروز شاه – سلطان دهلي – والاضطرابات والقلاقل التي أعقبت وفاته ، وتقدمت طلائع جيشه سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م الى حصن أوكا ، واستولت عليه ، ثم اتجهت الى الملتان ولم يستطع حاكمها دفع التيموريين وسقطت الملتان في أيدي قوات تيمور ، وتقدم جند تيمور في بلاد الهند وسقطت في أيديهم الحصون والبلاد التي مروا بها ونهبوها ثم استولوا على سرستي وأبادوها ،

وسقطت فى ايديهم فتح آباد ، ثم جاء دور هراة ، فلما بلغها تيمور نزل اليه ولد ملكها غياث الدين بالامان فاستولى عليها ، واستصحب تيمور معه ملكها الى سمرقند(١) .

أعد تيمور العدة لغزو دهلى ، وسار اليها بجيش كبير ، فخرج سلطانها محمود تغلق من حاضرة دولته لدرء خطر المغول وجمع الخيل والرجال وفرق الأموال وأحضر ما فى بلاده من الأفيال ثم حصن مدائنه ، وجد فى المسير « حتى كاد يسبق الطير ولم تعترضه صعوبات ، والتقى بجيش دهلى وقدم الهنود الفيول لتفنى الخيول ، وخلف الأفيال الهنود فوارس الحرب وأبطال الطعن والضرب » ولما اطلع تيمور على قوة العدة وشدة بأسه وحسن استعداده ، أعمل الحيلة والمكيدة ، فلما تراءى الجمعان ، نكص على عقبيه متظاهرا بالانسحاب ونصب الكمائن لعدوه وسقط الهنود فى كمائنه ، فانقض عليهم تيمور وجنده وأبادهم ومزقهم كل ممزق ودخل تيمور دهلى ، وقدم له أعيانها وعلماؤها فروض الولاء والطاعة ، وأقيمت الخطبة له فى مساجدها ، وبذلك دخلت دهلى فى حوزة الدولة التيمورية(٢) .

على أن جنود تيمور نهبوا منازل دهلى وأسواقها ، واستباحوها ، ووفد على المدينة الكثير من الهنادكة بأسرهم واستاء الهنود فى دهلى من جند تيمور ، واعد الهاندكة العدة لمقاومتهم فقتلوا نساءهم وأطفالهم ، وأغلقوا أبواب دهلى ودارت حروب بين الأهلين والغزاة ، قتل فيها من سكان دهلى ما يقدر بحوالى مائة الف ، وامتلأت دهلى بجثث القتلى ، وتحولت الى بحر من الدماء ، وأعقب ذلك تفشى الأوبئة ، ونهب جند تيمور كل ما وقع فى أيديهم من ثروات دهلى الهائلة وأعقب ذلك سقوط أقاليم سلطنة دهلى فى أيدى تيمور ، وزار تيمور عاصمة الاسلام الكبرى بعد ما لحقها الخراب والدمار ، ونظم ادارتها وعاد الى سمرقند وفى صحبته مهرة الصناع والمعماريين .

وذكر تيمور فى سيرته بعد أن فتح دهلى : لقد قضيت خمسة عشر يوما فى دهلى بين مظاهر الفرح والنعيم ، أعقد مجالس البلاط الملكية ،

---

(١) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى اخبار تيمور ، ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٨-٦٩ .

وأقيم الأسمطة العظيمة ، ثم ذكرت أنني اتيت إلى هندوستان لشن الحرب على الكفار وقد بارك الله هذه الحملة ، فجعل النصر حليفي ، والظفر يتبعني أينما ذهبت ، ولقد انتصرت على خصومي ، وقتلت بعض مئات الألوف من الكفار وعبدة الأصنام ولطخت سيف الدعوة بدماء أعداء الدين . الآن وقد تم هذا النصر المبين ، اشعر أنه لا يحق لي أن اخلد الى الراحة ، بل ان ابذل جهدي لشن الحرب على كفار هندستان(٣) .

(3) Elliot, Vol. p. 8.

الحيـــاة الثقافية فى سلطنة دهلى الاســلامية

ازدهرت الحياة الثقافية فى بلاد الهند قبل قيام الدول الاسلامية فيها حتى ان المسلمين يعتبرون الهند احـــدى الأمم الأربع التى لها اهتمامات علمية ، وقد برع الهنود فى الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب ، وذكر المسعودى(١) أن جماعة من أهل العلم والنظر اعتبروا الهند الغرة التى فيها الصلاح والحكمة ، وكان الهند كما يقول القفطى(٢) معدن الحكمـــة وينبوع العدل والسياسة .

وكانت قصور الراجبـــوت غاصة بالشـــعراء والأدبـــاء ، وتدور أشعارهم حـــول قصص البطولات وشرف الانساب ، والانتصارات على الأعداء واخلاص النساء ونحو ذلك ، وازدهرت الحياة الأدبية فى شمال الهند ، وظهر شاعر بنغالى اسمه جايا ديفا وقد وضع مسرحية « نشيد البقر » وتدور حول تقدير الاله كرشنا ومحبته للفتيات اللائى يحلبن البقر ، وقـــد أحب واحدة منهن ، وجذبته بسحرها وجمالها ورقصاتها ، حتى أنه آثر البقاء معها ونسى موطنه(٣) .

ومن الملاحم الشعرية الرائعة كتاب « المحيط من القصص » ويشبه ألف ليلة وليلة وضعه الشاعر سومادبف .

ولمـــا ظهر الاسلام فى بلاد الهند ، انتشرت الثقافة الاسلامية بها ، على أن الفتوحات الغزنوية فى بلاد الهنـــد ، صحبها ازدهـــار الثقـــافة الاسلامية ، ذلك أن السلطان محمود الغزنوى لم يأل جهداً فى تشـــجيع الحركة العلمية فى بلاده ، فزين غزنة بأجمل ما حصـــل عليه من نفائس الهند ، واعاد تشييد مسجدها الجامع على أحسن صورة « وأضاف الى المسجد مدرسة فيحاء تشمل حجراتها من بساط الأرض الى سقوفها على

---

(١) المسعوى : مروج الذهب ، ج ٢ .

(٢) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(3) Rawlinson : op. cit., p . 206.

تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين منقـــولة من خزائن الملوك السابقين يتناولها فقهاء وعلماء غزنة بالتدريس »(٤) .

وبلغ من اهتمام السلطان محمـــود بن سبكتكين بتشجيع الحـــركة العلمية أن بعث فى طلب جماعة من رجال العلم والفلسفة ، فكان من بين الذين وفدوا اليه ابو ريحان محمد بن أحمد البيرونى ٣٦٢/٤٤٠هـ(٥) . وقضى البيرونى بداية حيـــاته فى خوارزم حيث ولـــد فيها ـ وقربه اليه أميرها ، ونبغ فى كثير من العلوم وبخاصة الرياضة والفلك ، وزار حوالى سنة ٣٩٠هـ بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير ـ أمير طبرستان ـ الذى عرف بتشجيع العلم وأهله ؛ وألف له « الآثار الباقية عن القـــرون الخالية » ويبحث هذا الكتاب فى التواريخ التى كانت تستعملها الأمم ؛ والاختلاف فى الشهور والسنين والتقـــاديم عند الأمم ، ونظم الطـــوائف والجماعات المختلفة ، والاحتفال بالأعياد القومية ، ولـــا اتصل البيرونى بالسلطان محمود الغزنوى ، استفاد من فتوحاته فى بلاد الهنـــد فائـــدة علمية كبيرة ، وجعل ثروة الهند العلمية الكبيرة فى الرياضـــة والفلســـفة والالهيات فى يد العرب والفرنج بما ألفه فى ذلك من كتب لا تزال خير مرجع لكل من كتب عن الهند ، وكان البيرونى فى هذا درة فى الدولة الغـــزنوية كابن سينا فى الدولة السامانية(٦) .

نبغ البيرونى فى كثير من العلوم وخاصة الرياضة والفلك ، وجدير بالذكر أنه كان يزهد فى المـــال الا ما يكفيه حاجته وأهدى كتابه « القانون المسعودى » للسلطان مسعود ويبحث فى الرياضة والفلك وفلسفة الهند ، فأجازه السلطان بأموال كثيرة فردها معتذرا بعـــدم حاجته اليها ، وقيـــل عن البيرونى أن القلم لم يكد يفارق يده ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر الا فى الأعياد ، لا يمل الاستزادة من العلم ، وقد تعلم عدة لغات ، ففى كتبـــه عن العقاقير والجـــواهر اسم الشىء بالعربيـــة واليونانيـــة والسريانية والفارسية والتركية ، ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة ، فيمـــدح اللغـــة العربية بحسن أدائها للمعانى ، ويفضلها على الفارسية(٧) .

(٤) العتبى : تاريخ اليمينى ، ج ٢ ، ص ٢٩١ـ٢٩٩ .

(٥) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٧٩ـ٨٠ .

(٦) أحمد أمين : ظهور الاسلام ج ١ ص ٢٨٧ .

(7) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 32.
Habib : Sultan Mahmud of Ghazain. 55.

ومن اشهر كتب البيرونى « الجماهر فى الجواهر » ، وكتـاب « تاريخ الهند » وتعلم اللغة السنسكريتية ، وأخذ ينقل منها الى العربية ، ومن العربية اليها ، فنقل الى السنسكريتية نظريات اقليدس وغيره من الفلك ، ونقل الى العربيـة من السنسكريتية بعض المصنفـات القيمـة . ومن أبرزها « تحقيق ما للهند من مقولة فى العقـل ومرذوله » قارن فيهـا بين رياضة الهند وفلسفة اليونان ، ولقد استقى البيرونى معـلوماته عن الهند من المراجـع السنسكريتية الهندية مباشرة ، ويلاحظ عليه انه لا يعترض ولا ينقد مطلقا حينما يشرح العقائد الدينية ، وبعد ذلك نشر البيرونى كتابه بالعربية والفارسية « التفهيم فى صناعة التنجيم » وقـد أهداه للسيدة ريحانة الخوارزمية ، وأهدى كتابه عن الأحجار الكريمـة للسلطان مودود بن مسعود(٨) .

وكان للبيرونى علم تام بمدارس بغـداد والبصرة العلميـة ، الا أن نظريات أولئك العلمـاء كانت متأخـرة بالقياس اليه ، وظل مؤمنـا بالتنجيم ، مشاركا معاصريه فى ذلك ، وقد أدرك البيرونى أن المعتقدات الدينية ترجع الى أسباب واحدة فى كل مكان ، وكان يهتم بالفارق الكبير بين الخواص والعوام فى كل موضع ، فهو لا يعترض ولا ينقد مطلقـا ، حينما يشرح العقائد الدينية ، واذا قارن دينا بدين آخر ، فانما يقـارنهما مقارنة علميـة محضة . وعلى ذلك يمكن القـول بأن منتجات البيرونى العلمية تحتل مكانة ممتازة من حيث وفرة موادها ، وما فيها من الاعتنـاء بتطبيق الأصول العلمية ، على أن البيرونى كتب مؤلفـاته بلغة عسيرة جدا ويقول البيرونى انه ألف كتبه للعلماء لا للعوام(٩) .

ولقد أطال البيرونى فى وصف الفلسفة الدينية للهند من الاعتقـاد بالله والموجودات العقلية والحسية ، وتعلق النفس بالمـادة ، والأرواح وتناسخها ، ومواضع الجزاء من الجنة والنار وكيفية الخلاص من الدنيا ، وقارن بين عقائد الهند والاسلام والصوفية والنصرانية(١٠) . ويذكـر البيرونى : ان التناسخ من أهم معتقدات الهنود ، وان الروح تنتقل من بدن الى بدن ، وفى كل بدن تستفيد معلومات وخبرات ، وتنتقل من الأرذل

(٨) براون : تاريخ الادب الفارسى ، جـ ٢ ، ص ١١٧ .
(٩) البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة ، ص ٢٤ .
(١٠) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

الى الأفضل . وقد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ، فقالوا ان الأرواح الشريرة تتردد فى النبات ومرذول الطير والهوام الى أن تستحق الثواب ، فتنجو من الشدة ، وتنتقل الى ما أرقى(١١) .

وقال البيرونى : أنه رأى أن فلكيى الهند لا يبحثون فى العلل ، وكان على علم تام بالفلك عند اليونان قبل أن يقتبس هذا العلم من الهنود ، وقد قال فى هذا الصدد : كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتى فيما بينهم ، وقصورى عما هم فيه ، فلما اهتديت قليلا أخذت أوقفهم على العلل وأشير الى شىء من البراهين ، وألوح لهم بالطرق الحقيقية فى الحسابات فانثالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين ، وكادوا ينسبون الى السحر(١٢) .

وصفوة القول أن البيرونى كان من كبار العلماء الذين ظهروا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فلم يترك علما لم يؤلف فيه ، وكان الى جانب ذلك يؤلف بالعربية لا الفارسية ، لأن العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته من الفارسية(١٣) .

واشتهر من رجال الفلسفة فى الدولة الغزنوية ابن الخمار ، كان نصرانيا ، نقل كتبا كثيرة من السريانية الى العربية ، واشتهر بالطب وألف فيه ، كما ألف فى المنطق والالهيات(١٤) .

وعنى سلاطين دهلى بتشجيع الثقافة الاسلامية ، فقد أنفق السلطان المملوكى التمش أموالا طائلة فى كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى تكون فى متناول الناس لقراءتها والاستفادة منها ، وأسس العديد من المدارس ، وزين بلاطه بالشعراء والأدباء وأصبحت دهلى فى عهده مركزا هاما للفنون والآداب .

وحرص السلطان بلبن على عقد مناظرات بين الشعراء والأدباء والعماء ، وكانت تلقى فى بلاطه الأشعار ، وتقرأ الكتب التاريخية القيمة

---

(١١) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

(١٢) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٧ ، ص ١٨٠-١٨١ .

(١٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ٢١٦ .

(١٤) تاريخ بارانى ، ص ٣٥٩ .

كالشهنامة للفردوسى وديوان سنائى والخاقانى وخمسة نظامى ، ومن أبرز شعراء هذا السلطان الشاعر خسرو دهلوى .

ازدهرت الحياة الثقافية فى عهد الخلجيين ، وتميزت بظهور انتاج أدبى غزير ومتنوع ، وضم بلاط السلطان علاء الدين الكثير من العلماء والأدباء ، وشهد عهده الكثير من الفلاسفة والحكماء والشعراء والمؤرخين والمترجمين والأطباء والفلكيين . ولم يجتمع على باب أحد سلاطين دهلى من رجال العلم والفقه والأدب ما اجتمع على باب علاء الدين ، وكان يصل كل واحد منهم بأجزل صلة ، ويرفعه الى أعلى مرتبة .

والكثير من أدباء ذلك العصر غير معروف لدينا الآن ، الا أننا نلاحظ أن أدباء ذلك العصر كانوا يكتبون بالفارسية — لغة الثقافة فى ذلك العصر — وكان أمير خسرو — بلا جدال — أعظم شعراء عصره ، وفاق معاصريه من أهل الأدب ، ولقد حظى بتقدير الناس ممن عاصروه وبلغت شهرته الآفاق ، وتعددت مواهبه ، فكان شاعرا جمعت اشعاره فى مجلدات منها الخماسيات وهى أشعار خماسية ذات خمسة أبيات ، وذكر بارانى أن أمير خسرو أضاف الى الشعر والأدب الفارسى اضافات على جانب كبير من الأهمية ، ويعتبره أمير شعراء الهند ، ومن أشهر دواوينه « اعجاز خسروى » . « نهاية الكمال » . « خزانة الفتوح » .

نشأ خسرو شاعرا بطبيعته ، ونلمس فى شعره عواطفه الانسانية ودقة الأحاسيس والعواطف وسمو الغزل والوصف فى الحرب والحب ، وتظهر براعته ، وعمق ثقافته ، وتفوقه فى اللغات فى أشعاره بعضها بالهندية وأخرى بالفارسية وأخرى بالعربية وكان له ثنائيات فى أشعاره تتضمن نظما بالفارسية وآخر بالهندية أو العربية ، ولقيت ثنائيات تقديرا عميقا فى الهند وشغفا كبيرا فى مدارسها ، وكانت بعض ثنائيات تتحمل أكثر من تأويل ، وكان ينتقى الألفاظ القوية لأشعاره ، ويختار التركيبات اللغوية الجميلة الوقع . ومما يدل على براعته الأدبية أن اشعاره لم تفقد رونقها وتأثيرها فى النفوس حتى الآن(١٥) .

---

(15) Lal : op. cit., p. 240.

ومن شعراء ذلك العصر البارزين ، حسن سيجزى ، وكان موهوبا ، ويقترب من أمير خسرو فى المرتبة الأدبية ، ولقد تفوق فى الشعر والنثر على السواء ، واتصفت كتاباته وأشعاره بالوضوح ، يعبر عن فكـرته بأسلوب سهل ، يدركه القارىء دون عناء ، لذا كانت تسرى أشعاره فى الناس بسرعة سريان الشمس فى النهار ، وكان يعيش حياة بسيطة ، وله ذاكرة عجيبة ، وقلب كبير ، ولـه أعمال ادبية كبيرة ، غـير أن ديوان Favidul Fuad من أعظم انتاجه ، وقدر له الخلود حتى الآن .

ومن شعراء ذلك العصر صدر الدين على فخر الدين وحميـد الدين راجا ومولانا عارف وعبيد حكيم وشـهاب انصارى ، ولكل من هـؤلاء أسلوبه واتجاهـه وطريقته فى التعبير ، ومن كتاب النثر عين الملك مولتانى ـ تاهر مالوا ـ وكان يكتب بأسلوب رصين وألفاظ منمقة .

نبغ عـدد من المؤرخين فى العهـد الخلجى ، نخص بالذكر منهم أمير أرسلان كولاهى ، وكبير الدين بن تاج الدين عراقى ، والأول كان دقيقـا فيما يرويه من معلومات ، لذا فقد كان مصدرا هاما عن تاريخ علاء الدين. وأما الثانى ، فكان يكتب بالعربية والفارسية ، ونبغ فى اللغتين ، وله مصنفات كثيرة وعلى جانب كبير من الأهمية ، وتعتبر من ادق المراجـع عن حروب علاء الدين ، وأغزرهـا مادة ، وكان يعمل فى جيش عـلاء الدين(١٦) واتيحت له الفرصة أن يطلع على حروب السـلطان الخلجى مباشرة وبنفسه ، لذا اشتملت كتاباته على تفاصيل كثيرة ومعلـومات غزيرة عن ذلك العهد ، ووضع كتابه « فتح نامة » على مرأى ومسـمع من السلطان علاء الدين ، وقد أشاد بأعماله وانتصاراته ، وبالغ فى مدحه والثناء عليه ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية هذا الكتاب ، فقد كان أهـم مرجع عن هذه الفترة التى شـاهدها المؤلف وعاصرها ، وأعتمد عليـه بارانى فى كتابه « تاريخ فيروز شاهى » وصنف أبو عمرو عثمان منهـاج السراج صاحب « طبقات ناصرى » وغلام يحيى بن احمد صاحب تاريخ مبارك شاه .

ومن مؤرخى ذلك العصر أمير خسرو وضياء الدين بارانى وقد عاصرا السلطان علاء الدين ، ولهما مصنفات ادبية وتاريخية يشار اليها بالبنان.

---

(١٦) تاريخ بارانى : ص ٣٦٠ .

وقد وضع بارانى بالاضافة الى كتابه « تاريخ فيروز شـاهى » كتـاب « السنة المحمدية » وكتاب « نعم الله وآياته » وكتاب « مآثر السادة » و « تاريخ البرامكة » وله كتاب آخر عن الأحكام السلطانية ويشمل القيم والمبادىء والقـوانين والسياسات والنظم التى يجب على الحكـومات الاسلامية اتباعها ، ويرجعها كلها الى الشريعة الاسلامية(١٧) .

أما المؤرخون الذين كتبوا بالهندية أو السنسكريتية فقد فقدت معظم مؤلفاتهم ولكن حفظت الأيام لنا أعمال هامير رازاز سارانجبارا فى القرن الرابع عشر واشعار مولى داود الذى كتب حوالى أواخر القرن الثالث عشر . وقـد ألقى هؤلاء الكتاب أضواء ساطعة عن العصر الذى يكتبون فيه ، وان كانت هذه الكتابات قد تضمنت أساطير وخرافات كثيرة .

ونلاحظ أن الأدب الدينى ازدهر فى هذا العصر ، وكتب علماء الدين عن أساتذتهم ، وترجموا لهم ، وأبرزوا فضلهم ، وتحدثوا عن تراثهم ، فكتب الشيخ فريد شاكار جونج عن أستاذه الشيخ نظام الدين اوليـا . ومن تلاميذ الشيخ نظام الدين أوليا أمير خسرو ،وحسن السجزى والشيخ نظير الدين شيرازى الدهلوى . وجدير بالذكـر أن أمير خسرو كتب Afzalul Favaid ـ وتضمنت مجمـوعتين الأولى عبـارة عن محادثاته مـع الشيخ نظـام الدين فى الفترة ما بين سنتى ٧١٠هـ وسنة ٧١٣ ، والثانية منذ سنة ٧١٩هـ حتى سنة ٧٢١هـ . أما Favaidul Fuad فهى مجموعة الأحاديث بين الشيخين نظام الدين أوليا وحسن سجزى فى الفترة ما بين ٧٠٧ـ٧٢٢ .

ولقـد لقى هـذا الكتاب تقـدير المعاصرين : واقبلوا على قراءته والاستفادة منه بشكل منقطع النظير ، ولم يخف أمير خسرو اعجابه بهذا الكتاب . على أن Miftahul التى صنفها نظير الدين فمن المحتمـل أن صاحبها صنفها بعد وفاة الشيخ نظام الدين وكتب نظير الدين شيرازى كتابا آخر أسماه « خير المجالس » كتبـه سنتى ١٣٥٢ — ١٣٥٣ . ومن روائع الكتب واحسنها التى صنفت عن الشيخ نظام الدين أوليا ، كتاب

(17) Lal : op. cit., p. 341.
(18) Lal : op. cit., p. 342.

« سيرة الأوليا » كتبه أمير خورد ، وهو تلميذ وفى للشيخ ترجم عن أستاذه فى كتابه هذا بعد وفاته بكثير(١٩) .

وهذه الترجمات الرائعة لشيوخ العصر وعلمائه التى كتبها تلاميذهم بعناية وحذق ، لها أهميتها الاجتماعية والثقافية ، فهؤلاء الكتاب يمثلون عناصر مختلفة فى المجتمع واتجاهات فكرية متنوعة ، لذا عكست كتبهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى عصرهم ، والاتجاهات الثقافية فى هذه الفترة، وأوضحت الحياة اليومية ، فضلا عن انها مصدر غنى للمعلومات عن هذا العصر(٢٠) .

أما الكتاب الهنود فى القرن الرابع عشر الميلادى ، اشتملت كتاباتهم على نثر وشعر باللغة السنسكريتية ، ويتضمن الفولكلور الشعبى وقصص الأبطال والروايات الاسطورية للممالك والولايات الهندية ، ولقد كتب سار نجدهار(٢١) Sarangdhaar كتابين ، الأول هامير كافيا والثانى هامير رازو الذى وصف المقاومة العنيفة ، وضروب البطولة والشجاعة الخارقة التى أظهرها هامير ديفا ، حينما غزا علاء الدين رانثمبهور ووضع أيضا ديوان شعر سنة ١٣٦٣ . ومن أبرز شعراء الهند فى القرن الرابع عشر الميلادى نالا سنج ومولى دؤاد . ومن المشكوك فيه أن المجموعة الشعرية الكبيرة التى كتبت بالهندية منسوبة اليه(٢٢) .

وتضمن الأدب الكجراتى الفولكلور الشعبى لها وأشعارا فى الحب والغزل ، واشتملت على قصص وأساطير وخرافات كثيرة ، ومن أروع ما كتب فى عهد علاء الدين كتاب The Prabandhacintamani ويتضمن معلومات تاريخية غزيرة(٢٣) .

أما النشاط الأدبى فى البنغال فيبدو اضطرابه فى تلك الفترة ، ويوضح الفولكلور البنغالى تطور لغة المنطقة . ومنذ أن غزا سلاطين

---

(19) Munshi : op. cit., p. 292.

(20) IBID. 293.

(21) Kesy : A Hist. of Hindi literure. p. 17.

(22) IBID, p. 18.

(23) Lal. op. cit. p. 343.

دهلى بلاد البنغال ، حاول الحكام الترك لهـذا الاقليم تعلم لغـة البنغال والاندماج بالملايين الكثيرة لهذه المنطقة . ولم يكن عنـدهم الوقت الكافى لتعلم اللغـة السنسكريتية ، وانما قرأوا الكتب القيمة مترجمة الى اللغـة المحلية . وقد أمر ناصر شاه ــ أعظم حكام البنغـال فى ذلك العصر ــ ١٣٢٣ــ١٣٢٥ بترجمة Mahabharata وكان راعيا للعلم والعلماء . وبعـد قرن من الزمان بعـد الحكم الاسلامى ، ظهر شعراء كثيرون فى البنغال أمثال شاندى داز(٢٤) .

وفى جنوب الهند ، ومناطق أخرى استغرق التأثير الاسـلامى فى الحياة الثقافية سنين عـددا ، لذا ظـل الأدباء يكتبون فى هـذه البـلاد بالسنسكريتية وظهرت كتب رائعة تبرز الفن الدرامى الأصيل .

ومما لا شك فيه أن قيام الدول الاسلامية فى الهند أثر تأثيرا ملحوظا على تطور الأدب السنسكريتى . ولقد فضل سلاطين دهلى وحكام الهند المسلمين اللغتين العربية والفارسية ، يضاف الى ذلك أن تعدد غزواتهم فى بلاد الهند وضع نهاية لحياة شعوبها السلمية ، وغير طابع الحيـاة فى هذه البـلاد .

فالكجرات مثلا بعـد غزو يلغ خان لها سنة ١٢٩٩ ظلت مائة عام لا تنتج أدابا ذات قيمة الا الفولكلور . وفى خلال القرن الرابع عشر الميلادى عموما أخذت السنسكريتية تفقد أهميتها . واستعاضت عنها بلاد الهنـد باللغات المحلية التى عبرت بها شعوب الهند ، وكتبوا بها آدابهم(٢٥) .

ظلت الحياة الثقافية فى الهند مزدهرة فى عهد بنى تغلق ، ووفد على السلطان محمد بن تغلق الكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة ، وقد قدم اليهم كل عون وتشجيع على ممارسة نشاطهم واظهار انتاجهم ، وكان هذا السلطان أديبا وشاعرا ، كتب باللغتين العربية والفارسية أشعارا وقطعا أدبية تشهد بذوقه الفنى وروعة أسلوبه ، وجمال تعبيره ، وعمق

(24) IBID, p. 344.
(25) IBID. p. 344.

أفكاره ، وكان بالاضافة الى ذلك فيلسوفا وطبيبا حاذقا(٢٦) أشرف على علاج الناس بنفسه ، وأقام الكثير من دور الشفاء وملاجى العجزة(٢٧) .

ولم يكن فيروز شاه التغلقى أقل من سلفه اهتماما بالعلم وأهله ، وأسس عدة مدارس لعلوم الدين واللغة والتاريخ والحكمة والرياضيات والفلك والطب بلغت الثلاثين(٢٨) ، وقد جلب العلماء المسلمين الى السلطنة للتدريس فى مدارسه ولم يقتصر اهتمام هذا السلطان على الدراسات الاسلامية بل عنى بدراسات وعلوم الهند القديمة ، فشجع البراهمة على حل رموز أعمدة آزوكا لما لها من أهمية تاريخية ، وقد استخدم بعضها فى منشآته ، وعهد الى علماء الهنود باختيار الكتب السنسكريتية الهامة له ، وترجمتها الى الفارسية ،وكان هذا السلطان أديبا ، فقد كتب كتابا فى التاريخ تضمن حياته وأعماله وسياسته ، ويسمى « فتوحات فيروز شاهى » . وهذه الكتب آلت اليه بعد استيلائه على حصن تكركت ، فى الفلسفة والفلك ، وتعرف هذه المجموعة باسم « دلائل فيروز شاه »(٢٩) .

وقد لاحظ ابن بطوطة فى رحلاته ببلاد الهند كثرة المدارس بها ، وذكر ان هناك مدارس للصبية ومدارس للفتيات ، وأوضح أن النساء فى الهند أقبلن على التعليم باهتمام بالغ خصوصا العلوم الدينية(٣٠) .

حرص السلطان فيروز شاه على تشجيع أهل العلم وذلك بتيسير سبل المعيشة لهم ، فالذين احتاجوا الى الزاد والنفقة أنعم عليهم بالوظائف ، والاقطاعات والأرض الخصبة بما يزيد عن حاجتهم ، فوجد أهل العلم من العلماء والمشايخ والمدرسين والطلبة والقراء والحافظين وأرباب المساجد الحياة ميسرة فى ظل وكنف هذا السلطان ، وامتلأت المدارس القديمة والجديدة التى كانت خالية وبالية بالمدرسين والذاكرين والطلبة ، فراج العلم ، وارتفع شأن العلماء ، والتحق طلاب العلم بالوظائف

---

(26) Prasad : India. 266-267.

(٢٧) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، جا ، ص ١٣٣ .

(٢٨) رحلة ابن بطوطة ، جـ ٢ ص ١١٠ .

(٢٩) تاريخ فيروز شاهى ، ص ٧٨٤ـ٧٨٥ .

(٣٠) رحلة ابن بطوطة ، جـ٢ ، ص ١١٠ .

التى يسرت لهم الحياة الرغدة بعد أن كانوا يعيشون على الكفاف ، وقضوا الأوقات الطوال فى دراسة علوم الشرع والدين(٣١) .

أما الخانقات التى كانت مهجورة فى المدينة والأطراف فامتلأت بفضل بر السلطان بالصوفية والعباد والزهاد يقضون أوقاتهم فى دراسة الدين(٣٢) .

وأنشأ المدرسة الفيروز شاهية وعنى بعمارتها متعددة الحجرات ، بها عدة مجالس وأعمدة مرصوصة ، محاطة بالحدائق الغناء . ويقول بارانى ان الناس أحيوا هذه المدرسة حتى ان من أقام فيها نسى موطنه وعمله ولم يعد من الممكن مغادرتها لطيب هوائها ، وهجروا ديارهم وقدموا ليسكنوا بجوارها ، وكان المسافرون يتوقفون عندها لمشاهدة جمال بنيانها والتمتع بطيب هوائها ، ولذلك فهى نادرة فى جمالها وتوازنها والفقه ويشتغل كل يوم بختم القرآن للحافظين ، وكانت تكبيرات المصلين وجاذبيتها(٣٣) .

والمدرسة الفيروز شاهية منبع الخيرات والحسنات ، فكانت تقام فيها الصلوات المفروضة والنوافل ، ويؤدى فيها الصوفية صلوات عند الشروق والغروب والزوال وصلوات التهجد .

ومن أساتذتها الكرام مولانا جلال الدين الرومى الذى كان أستاذا عظيما ، وكان يقوم بتدريس العلوم الدينية ، فيعلم التفسير والحديث والفقه ويتشغل كل يوم بختم القرآن للحافظين ، وكانت تكبيرات المصلين فى هذه المدرسة تصل الى عنان السماء ، وكانت تصل الى المقيمين بهذه المدرسة التبرعات الكثيرة .

وتلك الأيام نداولها بين الناس ...

---

(٣١) تاريخ فرشته ، ص ١٥٠ .

(٣٢) تاريخ فيروز شاهى ، ص ٧٨٩ .

(٣٣) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٧٩٠ .

الملاحق والجداول والمصادر

وفهرس الكتاب

أولا ــ الخلفاء العباسيون فى العصر الغزنوى :

الطائـــع	٣٦٣ــ٣٨١هـ/٩٧٥ ــ٩٩١ م
القـــادر	٣٨١ــ٤٢٢هـ/٩٩١ ــ١٠٣١م
القـــائم	٤٢٢ــ٤٦٧هـ/١٠٣١ــ١٠٧٥م
المقتـــدى	٤٦٧ــ٤٨٧هـ/١٠٧٥ــ١٠٩٤م
المســـتظهر	٤٨٧ــ٥١٢هـ/١٠٩٤ــ١١١٨م
المسترشـــد	٥١٢ــ٥٢٩هـ/١١١٨ ــ١١٣٥م
الراشد	٥٢٩ــ٥٣٠هـ/١١٣٥ــ١١٣٦م
المقتـــفى	٥٣٠ــ٥٥٥هـ/١١٣٦ــ١١٤٠م

ثانيا ــ الطاهريـــون :

طاهر بن الحسين	٢٠٥هـ
طلحة بن طاهـــر	٢٠٧هـ
عبدالله بن طاهر	٢٣٠هـ
طاهر بن عبدالله	٢٣٠هـ
محمد بن طاهر الثانى	٢٤٨هـ
طاهر الثالث بن محمد	٢٥٩هـ

ثالثا ــ الصـــفاريون :

يعقوب بن الليث الصـــفار	٢٥٤هـ
عمرو بن الليث	٢٦٥هـ
طاهر بن محمد بن عمرو	٢٨٩هـ

رابعا ــ السـامانيون :

أحمد بن أسد	٢٠٤هـ
نصر الأول بن أحمد	٢٠٥هـ
اسماعيل بن أحمد	٢٧٩هـ
أحمد بن اسماعيل	٢٩٥هـ
نصر الثانى بن أحمد	٣٠١هـ
نـوح بن نصر	٣٣١هـ
عبدالله بن نـوح	٣٤٣هـ
منصـور بن نـوح	٣٥٠هـ
نـوح بن منصـور	٣٦٦هـ
منصور الثانى بن نـوح	٣٨٧هـ
عبدالملك الثانى بن نوح ــ المنتصر بن نوح	٣٨٩هـ

جـدول بأسماء السلاطين الغزنويين
والحكام السابقين والمعاصرين لهم فى الشرق وبسنى حكمهم

أولا ــ السلاطين الغزنويون :

البتكين أول من ولى غزنة	٣٥١هـ
أبو اسحق ابراهيم بن البتكين	٣٥٢هـ
بلكاتكين	٣٥٥هـ
بيـرى	٣٦٢هـ

بنـو سـبكتكين :

ناصر الدولة سـبكتكين	٣٦٧ــ٣٨٧هـ
اسماعيل بن سبكتكين	٣٨٧ــ٣٨٩هـ

يمين الدولة محمود بن سبكتكين	٣٨٩ــ٤٢١هـ
محمد بن محمود جلال الدولة المكحول	٤٢١هـ
ناصر دين الله مسعود الأول بن محمود	٤٢١ــ٤٣٣هـ
محمد بن محمود للمرة الثانية	٤٣٣هـ
شهاب الدولة أبو سعد مودود بن مسعود	٤٣٣ــ٤٤٠هـ
مسعود الثانى بن مودود ، حكم بضع أسابيع	٤٤٠هـ
بهاء الدولة أبو حسن على بن مسعود الأول	٤٤٠هـ
عز الدولة عبدالرشيد بن محمود	٤٤٠ــ٤٤١هـ
طغرل مملوك اغتصب الحكم	٤٤٤هـ
جمال الدولة فرخزاد بن مسعود	٤٤٤هـ
ابراهيم بن مسعود الملك المؤيد جلال الدين	٤٥١هـ
علاء الدولة أبو سعد مسعود الثالث بن ابراهيم	٤٩٢هـ
كمال الدولة شيرزاد بن مسعود	٥٠٨هـ
سلطان الدولة أرسلان شاه بن مسعود	٥٠٩هـ
يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود ــ نائب سنجر	٥١٢هـ
معز الدولة خسروشاه بن بهرام	٥٥٥هـ
الفتح الغورى	

خامسا ــ بنو زيار حكام جرجان وطبرستان :

مرداويج بن زيار	٣١٥هـ
وشمكير بن زيار	٣٢٣هـ
بيستون بن وشمكير	٣٦٦هـ
قابوس بن وشمكير	٣٦٦هـ
منوجهر بن قابوس	٤٠٣هـ

أبو كاليجار انو شروان بن منوجهر	٤٢٠هـ
دارا بن قابوس	٤٢٤هـ
انو شروان للمرة الثانية	
اسكندر بن قابوس	٤٣٤هـ
كيكاوس بن اسكندر	٤٤١هـ
جهانشاه بن كيكاوس	٤٦٢هـ

سادسا — بنو بويه فى فارس وخوزستان :

عماد الدولة ابو الحسن على	٣٢٢هـ
عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو	٣٣٨هـ
شرف الدولة ابو الفوارس	٣٧٢هـ
صمصام الدولة أبو كاليجار	٣٨٠هـ
بهاء الدولة أبو نصر فيروز	٣٨٨هـ
سلطان الدولة ابو شجاع	٤٠٣هـ
مشرف الدولة أبو على حسن	٤١٢هـ
عماد الدولة ابو كاليجار	٤١٥هـ
الملك الرحيم ابو نصر خسرو فيروز	٤٤٠هـ

الـرى :

فخر الدولة أبو الحسن على	٣٦٦هـ
مجد الدولة	٣٨٧هـ

ثالثا ــ الغــوريون :

(افغانستان وهندستان

(١) الفرع الرئيسى بفيروز كوه وغزنة :

	سنة هجرية
١ــ عز الدين حسين بن حسن بن محمد ..	٤٩٣
٢ــ قطب الدين محمد ، (بفيروز كــوه ، توفى سنة ٥٤١) .. .. حول	٥٤٠
سيف الدين سورى ، (بغــزنة توفى سنة ٥٤٣)	
بهـــاء الدين ســـام ، (بفيروز كوه من ٥٤٣ الى ٥٤٤	
٣ــ علاء الدين حسين جهانسوز ، (غور ثم غزنة وفيروزكوه ، خربت غزنة سنة٥٤٥	٥٤٤
٤ــ سيف الدين محمد بن حسين ، (فيروزكوه توفى فى رجب سنة ٥٥٨)	٥٥٦
غياث الدولة محمد بن سام ، (بغور) ..	
شهاب الدين محمد غــورى بن سام ، (غزنة)	
٥ــ غياث الدين محمد بن سام (توفى بهراة فى ٢٧ جمـــادى الأولى سنة ٥٩٩) ..	٥٨٨
شهاب الدين ، ثم معز الدين ، (عامل سابق على غزنة	
الاستيلاء على لاهور	٥٨٢
٦ــ معز الدين محمد غورى بن سام ، (توفى سنة ٦٠٢)	
علاء الدين محمد بن شجاع الدين على، (بغور)	
مماليكه الأربعة الذين اقتسموا المــلك (واتخذ كل منهم لقب المعزى)	

	سنة هجرية
(أ) قطب الدين أيبك ، (بلاهور ثم بدهلى من سنة ٦٠٢ الى سنة٦٠٧)	
(ب) تاج الدين يلدز ، (بغزنة من سنة ٦٠٢ــ٦١١ــ٦١٢ــ٦١٣)	
(جـ) ناصر الدين قباجة ، (بالسند والملتان وأوج من ٦٠٢ الى ٦٢٤)	
(د) بختيار محمد خلجى ، (فى لكهنوتى	
٧ــ غياث الدين محمود بن محمد بن سام ، (بغور ، قتل سنة ٦٠٩)	٦٠٢
٨ــ بهاء الدين سام بن محمود .. .. صفر	٦٠٩
٩ــ علاء الدين أنسلون بن حسين ، (سلطان اسما ، عامل خوارزم شاه)	٦١٠
١٠ــ علاء الدين أو ضياء الدين محمد بن شجاع الدين على	٦١١
سلطان اسما ، عامل أتسز خوارزم شاه حتى سنة ٦١٢)	
(ب) فرع بباميان وطخارستان :	
١ ــ فخر الدين مسعود بن حسين ، (عزله أبناء أخيه)	٥٤٠
٢ ــ شمس الدين محمد بن مسعود ..	٥٥٨
٣ ــ بهاء الدين سام بن محمد	٥٨٨
٤ ــ جلال الدين على بن سام ، (قتله خوارزم شاه سنة ٦١٢)	٦٠٢

رابعا ــ سلاطين دهلى :

الأتراك :

١ ــ أيبك قطب الدين ، (استولى على دهلى سنة ٥٩٥ وانتزعها من برثوى راجا) .. .. ١٥ ذى القعدة	٦٠٢

		سنة هجرية
٢ — آرام شاه		٦٠٧
٣ — أيلتتميش شمس الدين القطبى		٦٠٧
٤ — فيروزشاه الأول (ركن الدين	شعبان	٦٣٣
٥ — رضية	ربيع الأول	٦٣٤
٦ — بهرام شاه ، معز الدين	٢٨ رمضان	٦٣٧
٧ — مسعود شاه علاء الدين ، (عزل فى ٢٢ المحرم سنة ٦٤٤)	ذى القعدة	٦٣٩
٨ — محمود شاه (الأول) ناصر الدين	المحرم	٦٤٤
٩ — بلبان ، غياث الدين أولوغ خان	١٠ جمادى الأولى	٦٦٤
١٠ — كيقباد معز الدين ، (اغتيل بأمر فيروز خلجى)		٦٨٦
١١ — كيومراث شمس الدين ، (اغتيل فى ٣ جمادى الآخرة سنة ٦٨٩)	جمادى الأولى	٦٨٩

الخلجيون (الأفغانيون) :

١٢ — فيروزشاه (الثانى) جلال الدين ، (قتل فى ٤ رمضان ٦٩٤)	٣ جمادى الآخرة ٦٨٩	
١٣ — ابراهيم شاه الاول ركن الدين ، (سملت عيناه وقتل فى ١٧ رمضان سنة ٦٩٥)	رمضان	٦٩٤
١٤ — محمد شاه (الأول) علاء الدين ، توفى فى ٦ شوال سنة ٧١٥)	ذو الحجة	٦٩٥
١٥ — عمر شاه شهاب الدين	ذو الحجة	٧١٥
١٦ — مبارك شاه (الأول) قطب الدين ، (اغتيل فى ٥ ربيع الأول سنة ٧٢٠)	٧ المحرم	٧١٦
١٧ — خسروشاه ، ناصر الدين	ربيع الأول	٧٢٠

خامسا — بنو تغلق شاه :

١٨ — تغلق شاه (الأول) ، غياث الدين ، غازى ملك	شعبان	٧٢٠
١٩ — محمد (الثانى) جونا بن تغلق غياث الدين اولوغ خان ، (توفى فى ٢١ المحرم ٧٥٢)	ربيع الأول	٧٢٥
محمود بن محمد (بضعة أيام)	المحرم	٧٥٢

٢٠ــ فيروز شاه (الثــالث) ، (تــوفى فى		سنة هجرية
رمضان سنة ٧٩٠)	٢١ المحرم	٧٥٢
٢١ــ تغلق شاه (الثانى) ، غياث الدين سالار		
شاه ، (قتل فى ١٥ صفط سنة ٧٩١)	١٩ رمضان	٧٩٠
٢٢ــ ابو بكر شاه (عزل فى ٦ المحرم سنة		
٧٩٢ وسجن	١٧ صفر	٧٩١
٢٣ــ محمد شاه (الثالث)	المحرم	٧٩٢
٢٤ــ سكندر شاه (الأول) همايون ..	١٦ ربيع الثانى	٧٩٥
٢٥ ــ محمود شاه (الثانى) ناصر الدين ..	٢٩ جمادى الأولى	٧٩٥
٢٦ــ نصرت شاه		٧٩٧
محمود (الثانى) ، (للمرة الثانية)		
اقبال ان بن ظفر ، (مطالب بالحكم :		
هزمه خضر خان سنة ٨٠٨		٨٠١
٢٧ــ دولت خان لودى (فترة شغور حتى		
سنة ٨١٧)	٨١٤ أو	٨١٦

سابعا ــ الخوارزميــون :

١ ــ أنوشتكين	٤٧٠ هـ/١٠٧٧م
٢ ــ قطب الدين محمد	٤٩١ هـ/١٠٩٨م
٣ ــ آتســــز	٥٢٢ هـ/١١٢٨م
٤ ــ آيــل أرســلان	٥٥١ هـ/١١٥٦م
٥ ــ سلطان شــاه محمود	٥٦٨ هـ/١١٧٢م
٦ ــ علاء الدين تكش	٥٦٨ هـ/١١٧٢م
٧ ــ علاء الدين محمد	٥٩٦ هـ/١٢٠٠م
٨ ــ جــلال الدين منكبرتى	(٦١٧ هـ/٦٢٨ هـ) (١٢٢٠م/١٢٣١م)

يلخانات فارس

(بنــو هــولاكو)

		سنة هجرية
١ ــ هولاكــو		٦٥٤
٢ ــ آباقا ، (توفى فى ٢٠ ذى الحجة ٦٨٠)	ربيع الثانى	٦٦٣
٣ ــ أحمد تكوادر	ذو الحجة	٦٨٠
٤ ــ أرغون ، (توفى فى ٧ ربيع الأول ٦٩٠)	٢٧ جمادى الأولى	٦٨٣
٥ ــ كيختو ، (ارينجين تورجى)	ربيع الأول	٦٩٠
٦ ــ بايــدو	جمادى الآخرة	٦٩٤
٧ ــ غازان محمــود	ذو الحجة	٦٩٤
٨ ــ اولجايتو خدا بنده محمد	شــوال	٧٠٣
٩ ــ أبو سعيد بهادر	مستهل شوال	٧١٦
١٠ــ آربا كاول (معز الدين)		٧٣٦
١١ــ موسى		٧٣٦
المنافســون		
١٢ــ محمد		٧٣٦ــ٧٣٨
١٣ــ طغاتيمور	ولا هم حسن ترك	٧٣٨ــ٧٥٢
١٤ــ جهان تيمور	الجــلائرى	٧٣٩ــ٧٤١

المصـــادر والمراجـــع

١ ــ ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم .
« الكامل فى التاريخ » .

٢ ــ أحمد أمين :
(أ) ضحى الاسلام (الجزءان الأول والثانى ــ القاهرة ١٩٣٨) .

٣ ــ (ب) ظهر الاسلام (جزءان ــ القاهرة ١٩٤٥) .

٤ ــ أحمـــد الساداتى :
(أ) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية (القاهرة ١٩٥٨) .

٥ ــ (ب) تاريخ بخارى ــ تاليف أرمينيوس فامبرى .

٦ ــ ابن أبى أصيبعـــة : ت ٦٦٧هـ/١٢٧٠م ــ أبو العباس أحمـــد بن القاسم بن خليفة موفق الدين .
« عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » .

٧ ــ ابن بطـــوطة : الرحلة .

٨ ــ (أ) بروكلمان : كارل
« تاريخ الشعوب الاسلامية » (بيروت ١٩٤٨) .

٩ ــ تاريخ الآداب الاسلامية .

١٠ ــ البيرونى : (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) أبو الريحان محمد بن أحمد .
(أ) « الآثار الباقية عن القرون الخالية » طبعة أدوارد سخاو .

١١ ــ (ب) « الجماهر فى أحوال الجواهر » .

١٢ ــ (جـ) « تاريخ الهند » .

١٣ ــ تاريخ البيهقى (ت ٤٧٠هـ) محمد بن حسين ، نقله الى العربيـــة الدكتور يحيى الخشاب وآخرون .

١٤ ـ حتى فيليب .
« تاريخ العرب المطول » .

١٥ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى .

١٦ ـ حسن أحمد محمود : « الاسلام فى آسيا الوسطى » .

١٧ ـ ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥ـ١٤٠٦م) .
« العبر وديوان المبتدأ والخبر » (بولاق ١٣٨٤هـ) .

١٨ ـ ابن خلكان : (ت ٦٨١هـ/١٢٧١م) شمس الدين أبـو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى .
«وفيات الأعيان» تحقيق محيى الدين عبدالحميد (القاهرة ١٩٤٨) .

١٩ ـ زامباور : ادوارفون .
« معجم الأنساب والأسرات الحاكمة » .
نقله الى العربيـة الدكتـور زكى حسن والدكتـور حسن محمود (جامعة القاهرة ١٩٥١) .

٢٠ ـ السـيوطى (ت ٩١١هـ/١٢٩٥م) عبدالرحمـن بن أبى بكـر جلال الدين .
(أ) « تاريخ الخلفـاء أمراء المؤمنين القـائمين بأمر الأمـة » (القاهرة ١٣٥١هـ) .

٢١ ـ (ب) « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » .
(جزءان ـ القاهرة ١٣١١هـ) .

٢٢ ـ العتبى : (ت ٤٢٨هـ/١٠٣٦م) أبو نصر محمد بن عبدالجبـار
« تاريخ اليمينى » (جزءان ـ القاهرة ١٤٨٦هـ) .

٢٣ ـ ابن العماد الحنبلى : (ت ١٠٩٨هـ) أبو الفـلاح بن عبد الحى ابن العماد الحنبلى .
« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » (القاهرة ١٣٥٠هـ) .

٢٤ ـ ابن العميد (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) الشيخ المكين جرجس ابن العميد .
« تاريخ المسلمين » .

٢٥ ـ القلشقندى : (ت ٨٢١هـ/١٤٨٨م) أبو العباس أحمد .
صبح الأعشى فى صناعة الانشا » .

٢٦ ـ ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى .
« البداية والنهاية » (القاهرة ١٩٣٢) .

٢٧ ـ لوبون : جوستاف : « حضارات الهند » .

٢٨ ـ متز : آدم .
« الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » .
(جزءان ـ القاهرة ١٩٤٠) .

٢٩ ـ أبو المحاسن : (ت ٨٤٨هـ/١٤٦٩م) جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى .
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» ـ دار الكتب المصرية.

٣٠ ـ محمد جمال الدين سرور : «تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق» .

٣١ ـ المقريزى : (ت ٨٤٧هـ/١٤٤١م) تقى الدين احمد بن على .
« المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » .

٣٢ ـ ياقوت : « معجم البلدان » .

مراجـــع فارســـية

١ ـــ عبدالحميد لاهورى : بادشاهنامه .

٢ ـــ علاء الدين عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانكشاى ليدن ١٩٣٧) .

٣ ـــ غياث الدين بن همام الدين الحسينى : « حبيب السير فى اخبـــار افراد البشر » (طهران ١٣٧٣هـ) .

٤ ـــ أحمد بادكر : « تاريخ سلاطين أفغانى » .

٥ ـــ عباس خان سروانى : « تاريخ شيرشاه » .

٦ ـــ عباس اقبال : تاريخ عمومى ايران » .

٧ ـــ محمد قاسم هندو شاه : « تاريخ فرشته » .

٨ ـــ شاه ابو تراب ولى : « تاريخ كجرات » .

٩ ـــ رستم على : « تاريخ هندى » .

١٠ ـــ غلام حسين سليم : « رياض السلاطين أو تاريخ بنغاله » .

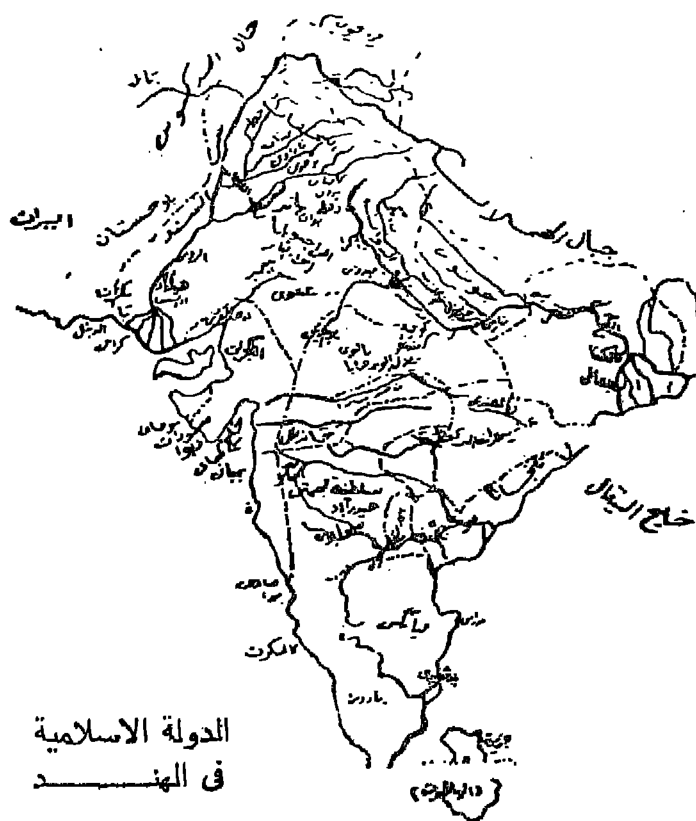
١١ ـــ محمد إسلام : « فرحة الناظرين » .

١٢ ـــ عبدالقادر بن ملوك بدوانى : « منتخب التواريخ » .

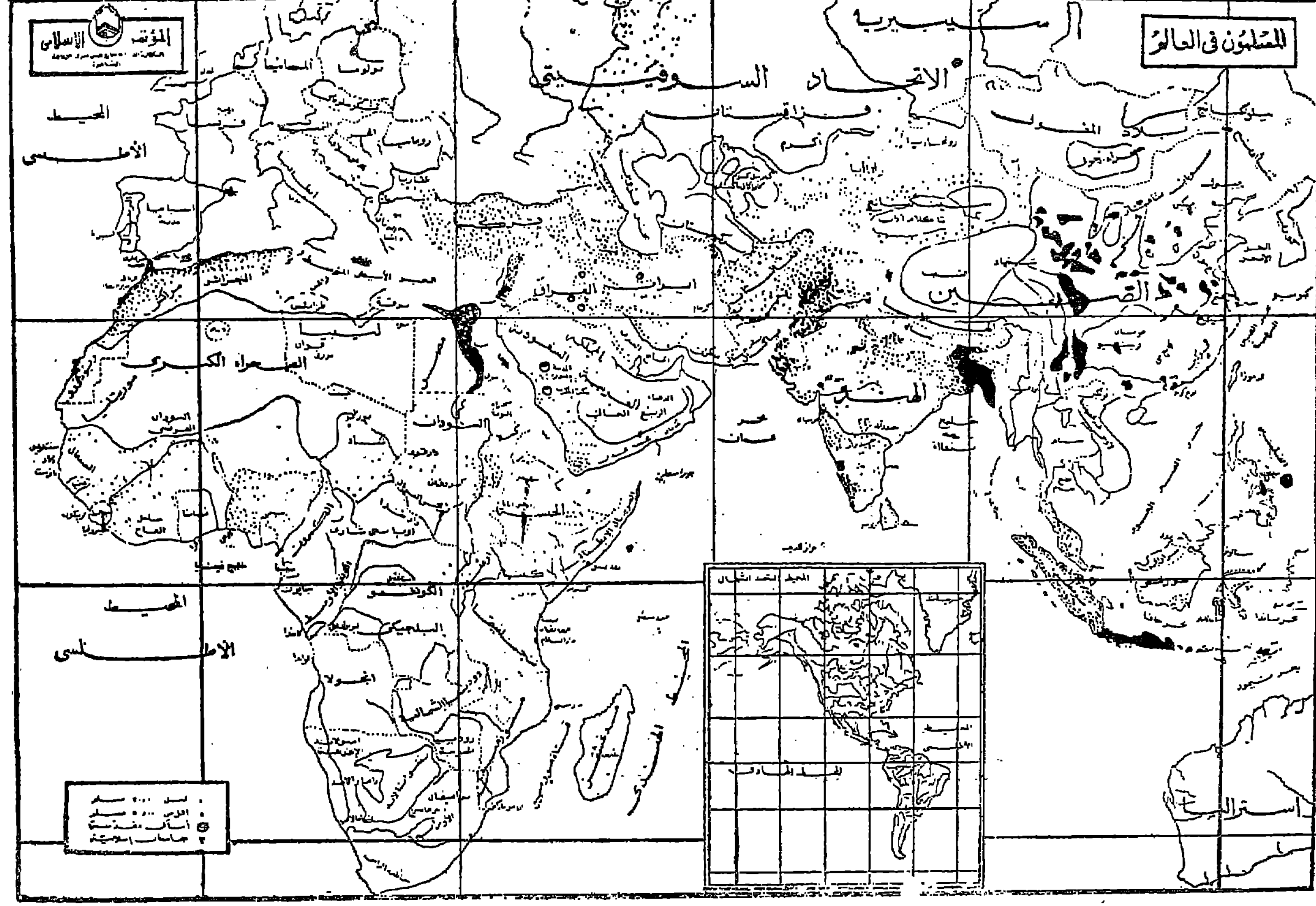
ثالثا : مراجــع أوربيــة

1. Ali, M., A.A. : History of Indo-Pakistan. Dacca, 1970.
2. Ameer — Ali : The Spirit of Islam. London. 1923.
3. Barthold W. : Histoire des Turs. d'Asie. Paris. 1945.
4. Barthold : "Hist of Turkestan".
5. Binyon. Laurence : "The Court Painters of the Grand Moghul".
6. Browne : Edward. "A Literary History of Persia".
7. Czaplika M.A. "The Turks of Central Asia".
8. Defremery : "Histoire des Sameinides".
9. Degwgnes, J. "Histoire eGneral des Huns", des Turs, des Mongols. Paris, 1940.
10. D'ohsson, Baron. C. "Histoire des Mongols".
11. Duff, Grant, "Hist. of the Mahrattas". 1921.
12. Dumbar, G. "History of India From the Earliest Times to the resent Day. London 1956
13. Elliot H.M. Dowson. John. "The History of India as told by Its own Historians The Mohammadan Period. London, 1867.
14. Gait, Edward. "Hist. of Assam. Calcutta. 1929.
15. Garratt. G.T. "The Legacy of India. Oxford 1930.
16. Garret Ed. Mughol Rule in India. 1930.
17. Gibon. "The History of the Decline and Fall of the Roman Empire".
18. Grousset, R. "L'Empire Mongol".
19. Grousset, R. "Hist. de l'Extreme Orient." Paris, 1929.
20. Habib, Mohammed. "Sultan Mahmud of Ghaznin". (New Delhi 1967).

21. Hammer, J.D. "Histoire de l'Empire Otoman, (Paris 1930).
22. Harvel, F.B. "The History of Aryan Rule in 'India".
23. Howorth, H. "History of the Mongols. 3 vols. London 1864.
24. "The Indian Moslems by an Indian Mohamedan. London 1938.
25. Lal. "A Hist. of hte Khaljis".
26. Lane Poole : The Muhammadan Dynasties". Paris. 1935.
27. "Medieval India under the Mohamedan Rule". (New York 1932).
28. Majundar, R.C. "An Advanced History of India". (New York 1968).
29. Morel. "A Short History of India (London 1890).
30. Munshi. "The Struggle for Empire". (Bombay 1969).
31. Nicholson. A. Reynold. "Literary History of the Arabs." (Cambridge 1960).
32. Noldeke, "Sketches from Eastern History.
33. "A Modern History of India."
34. Prasad : "A short History of Muslim Rule in India". (Allahabad 1933).
35. Sarkar : "Hist. of Aurengzib" (Calcutta 1924).
36. Smith. V.A. "Hist. of fine Arts in India". (Oxford 1930).
37. Spear, P. "Twilight of the Mughuls" (Cambridge 1951).
38. Vambery. A. "A History of Bokhara (London 1873).
39. Weil : "History of the Khalifs".
40. Cambridge Medieval History.
41. Cambridge Hist. of India.
42. Cambridge Hist. of Iran.
43. Ency. of Islam.



أنظر كتاب تاريخ المسلمين
فى شبه القـــارة الهندية


المسلمون في العالم
المؤتمر الإسلامي
سيبيريه
الاتحاد السوفييتي
قزاقستان
الصين
الهند
العراق
الصحراء الكبرى
السودان
المحيط
الأطلسي
المحيط
الأطلسي
الربع الخالي
الكونغو
أنجولا
أستراليا


بحر قزوين



الدولة الغزنوية في أفغانستان

فهرس موضـــوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

الدول الاسلامية فى الهند

رقم الايداع بدار الكتب القومية

٨٧/٥٠٤٠

الترقيم الدولى

٥ — ٠٢٧٧ — ١٠ — ٩٧٧

شركة دار الاشعاع للطباعة

١٤ ش عبد الحميد ـ جنينة قاميش
السيدة زينب ـ ت : ٣٦٣٠٤٦٩